

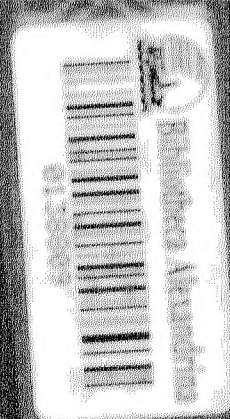
في ظلال نخج البلاغة

محاولة لفهمه جديده

شرح
محمد جواد مغنیه

المطبعة النجفیه

دار العالم للملايين
بيروت





11

فِي ظِلَالِ نَيْجِ الْبَلَاغَةِ

مُحَاوَلَاتُ فَهْمِهِمْ جَدِيدٌ

فِي ظِلَالِ نَجِّ الْبَلَاغَةِ

مُحَاوَلَةٌ لِنَفْهَمِهِمْ جَدِيدٌ

شرح
محمد جواد مغنیه

الجزء الثالث

دار العلم للملايين

ص.ب ١٠٨٥ - بيروت

الطبعة الأولى : ١٩٧٣

الطبعة الثالثة

تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٩

الخطبة

- ١٧٦ -

الله ومحمد .. فقرة ١ :

لَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ . وَلَا يُغَيِّرُهُ زَمَانٌ ، وَلَا يَخْوِيهِ مَكَانٌ . وَلَا يَصِفُهُ
لِسَانٌ . وَلَا يَغْزُبُ عَنْهُ عَدَدُ قَطْرِ الْهَاءِ ، وَلَا نُجُومِ السَّمَاءِ ، وَلَا
سَوَافِي الرِّيحِ فِي الْهَوَاءِ ، وَلَا دَيْبُ النَّمْلِ عَلَى الصَّفَا ، وَلَا مَقِيلُ
الذَّرِّ فِي اللَّيْلَةِ الظَّالِمَاءِ . يَعْلَمُ مَسَاقِطَ الْأَوْرَاقِ وَخَفِيِّ طَرْفِ الْأَحْدَاقِ .
وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ غَيْرَ مَعْدُولٍ بِهِ ، وَلَا مَشْكُوكٍ فِيهِ ، وَلَا
مَكْفُورٍ دِينُهُ وَلَا مَجْهُودٍ تَكْوِينُهُ . شَهَادَةٌ مَنْ صَدَقَتْ نَيْتُهُ وَصَفَتْ
دِخْلَتُهُ ، وَخَلَصَ يَقِينُهُ ، وَثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ . وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا
عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْمُجْتَبَى مِنْ خَلَائِقِهِ ، وَالْمُعْتَمَدُ لِشَرْحِ حَقَائِقِهِ وَالْمُخْتَصَّ
بِعَقَائِلِ كَرَامَاتِهِ . وَالْمُصْطَفَى لِكِرَائِمِ رِسَالَاتِهِ . وَالْمَوْضَحَةُ بِهِ
أَشْرَاطُ الْهُدَى . وَالْمَجْلُوثُ بِهِ غَرِيبُ الْعَمَى ^(١) .

اللغة :

لا يعزب : لا يغيب ولا يخفى . وسواي : جمع سافية من سفت الريح
التراب اذا أذرتة . والدبيب : المشي البطيء . والمقيل : الاستراحة وان لم يكن
نوم . والطرف : — بسكون الراء — الحركة ، وطرف العين : تحريك جفنها .
والأحداق : العيون . وتكوينه : خلقه . ودخلته : — بكسر الدال وضمها —
باطنه . والمعنام : المختار . والعقائل : الكرائم ، والعقيلة من النساء المخدرة .
وأشرط : علامات . والغريب : الأسود الخالك ، والمراد بغريب العمى
الضلال .

الإعراب :

غير معدول حال من كلمة الجلالة ، وأشرط نائب فاعل للموضحة، وغريب
نائب فاعل للمجلوب به .

المعنى :

(لا يشغله شأن) . إن قدرته وعلمه تعالى يسعان كل شيء تماماً كرحمته ،
ونسبة الأشياء إليه واحدة ، فلا قريب وبعيد ، وخطير وحقير ، واذن فلا يصح
القول في حقه تعالى : انه يشغل عن هذا دون ذاك : « ربنا وسعت كل شيء
رحمة وعلماً — ٧ غافر » . (ولا يغيره زمان) لأنه واجب الوجود ، لا قبل
له ولا بعد (ولا يحويه مكان) لأنه ليس بجسم (ولا يصفه لسان) للجهل بذاته
التي لا يشبهها شيء ، ولا يشاركها شيء في الماهية والصفات ، وإثبات وجودها
بالحلق والآثار لا يستدعي العلم بحقيقتها ، فنحن نعرف ان « اديسون » كان
موجوداً من الكهرباء ، ولا نعرف عن نسبه شيئاً (ولا يعزب عنه السخ) ..
يشير الى قوله تعالى : « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر
والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا
يابس إلا في كتاب مبين — ٥٩ الأنعام » .
(غير معدول به) ليس كمثله شيء (ولا مشكوك فيه) كيف وفي كل

شيء له آية ؟ (ولا مكفور دينه) ومن كفر فقد ضل سواء السبيل (ولا محمود تكوينه) لأن الكون الذي خلقه تعالى ثابت بالحس والعيان (شهادة من صدقت نيته الخ) .. أي يوافق فيها السر الإعلان ، والقلب اللسان كما جاء في الخطبة ٩٩ (ورسوله المجتبي من خلقه) اصطفى سبحانه محمداً (ص) لأنه خيرة الخلق أجمعين (والمعتمد لشرح حقائقه) المختار. لبيان الحقائق الإلهية (والمختص بعقائل كراماته) وهي الفضائل والمناقب (والمصطفى لكرائم رسالاته) اختاره الله بلاغاً لرسالاته الكريمة (والموضحة به أشراف الهدى) برسول الله عرفت دلائل الحق والعدل (والمجلو به غريب العمى) به انكشفت الظلمات ، واهتدت الأجيال الى سواء السبيل .

الدنيا .. فقرة ٢ :

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الدُّنْيَا تَغُرُّ الْمُؤْمِلَ لَهَا وَالْمُخِلِدَ إِلَيْهَا ، وَلَا تَنْفَسُ بِمَنْ نَافَسَ فِيهَا ، وَتَغْلِبُ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهَا . وَأَيُّمُ اللَّهِ مَا كَانَ قَوْمٌ قَطُّ فِي غَضٍّ نِعْمَةٍ مِنْ عَيْشٍ فَزَالَ عَنْهُمْ إِلَّا بِذُنُوبٍ آجَتْرُحَوْهَا ، لِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ . وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ حِينَ تَنْزِلُ بِهِمُ النَّقْمُ وَتَزُولُ عَنْهُمْ النِّعْمُ فَرِغُوا إِلَى رَبِّهِمْ بِصِدْقٍ مِنْ نِيَّاتِهِمْ وَوَلَّهِ مِنْ قُلُوبِهِمْ لَرَدَّ عَلَيْهِمْ كُلَّ شَارِدٍ ، وَأَصْلَحَ لَهُمْ كُلُّ فَاسِدٍ . وَإِنِّي لَأَنْخَشِي عَلَيْكُمْ أَنْ تَكُونُوا فِي فِتْرَةٍ . وَقَدْ كَانَتْ أُمُورٌ مَضَتْ مِلَّتُمْ فِيهَا مِثْلَةَ كُنْتُمْ فِيهَا عِنْدِي غَيْرَ مَحْمُودِينَ ، وَلَئِنْ رَدَّ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ إِنَّكُمْ لَسَعْدَاءُ . وَمَا عَلَيَّ إِلَّا الْجُهْدُ ، وَلَوْ أَشَاءُ أَنْ أَقُولَ لَقُلْتُ : عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ^(٢) .

اللغة :

أخلد الى الشيء : مال اليه وركن . ونفس به ، بكسر الفاء - بخل به وحرص عليه ، ونافس فيه : بارى وزايد . واجترحوها : اقترفوها وارتكبوها .

الإعراب :

تستعمل قَطْ بمعنى حسب مثل قطي وقطك ، أي حسبي وحسبك ، واسم فعل مثل قطني أي يكفيني ، وقَطْ ظرف زمان لاستغراق الماضي ، وتختص بالنفي ، مثل ما فعلته قط أي فيما مضى ، وجملة فزعوا خبر ان الناس ، ولرد عليهم جواب لو .

المعنى :

(أيها الناس ان الدنيا نغر المؤمل لها والمخلد اليها) . قد يغر المرء ويركن الى جاهه وماله ، أو الى علمه وذكاؤه ، ويظن انه في غنى بذلك عن كل شيء ا وهذا هو الجهل والغباء ، فإن الدنيا كالسراب يحسبه الظمان ماء ، ولا يركن اليها من عرف أمرها وغورها (ولا تنفس بمن نافس فيها) احرص على الدنيا ما شئت ، أما هي فلا تهتم بك على الإطلاق (وتغلب من غلب عليها) لا تفرح إذا فزت بمنصب أو ربح نافسك فيه من نافس ، فربما دارت عليك الدوائر ، وشمت بك من شفيت غيظك منه بالأمس .

(فوالله ما كان قوم - الى - اجترحوها) . ظن بعض الشارحين أن الإمام يتكلم هنا عن كل ذي نعمة فرداً كان أم جماعة ، وان النعمة تزول بالذنوب أيًا كان نوعها ! . وأوقعهم هذا الظن في إشكال ، وهو ان كثيراً من الناس يفرقون في الترف والخطايا معاً ، ومع هذا تنمو ثروتهم وتزداد .. وأجاب عن هذا الإشكال من أجاب بأن كلام الإمام محمول على الأغلب لا على العموم ، أو ان الله إذا أنعم من جهة انتقم من جهة ثانية .

والأرجح ان الإمام يتكلم عن الجماعة دون الأفراد ، كما هو الظاهر من كلمة « قوم » وان مراده من النعمة الحياة الكريمة بالخصوص ، ومن الذنوب الفرقة والشتات ، وعليه يكون المعنى: ان أي قوم أنعم الله عليهم بدولة كريمة تصونهم من الاعتداء ، وتحقق لهم الطمأنينة والاستقرار ، ثم تشاحنوا وتباغضوا - تزول عنهم هذه النعمة ، ويصبحون لقمة سائغة لكل طامع .. وتفسيرنا هذا يتفق مع الواقع ، ومع قوله تعالى : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم - ٤٦ الأنفال » . وصرح الإمام بذلك في الخطبة ٢٧ حيث قال لأصحابه : شنّ عليكم أهل الشام الغارات ، وغزوكم في عقر داركم ، لأنهم اجتمعوا على باطلهم ، وتفرقتم عن حقكم .

(ولو ان الناس حين تنزل بهم النقم)..إذا مرّ بالمؤمن لحظات من المخاوف يلجأ الى الله ، ويطلب منه العون والفرج ، والله يسمع ويوجب دعوة الداعي شريطة أن يستجيب هو بدوره الى الله كما جاء في الآية ١٨٦ من سورة البقرة : « وإذا سألك عبادي غني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان فليستجيبوا لي » . وليست الاستجابة له تعالى بالكلمات والابتهالات ، ولا بمجرد الصوم والصلاة ، بل بالعمل والأخذ بأسبابه سبحانه وسننه في جميع خلقه « ولن تجد لسنة الله تحويلاً - ٤٣ فاطر » . أبداً لا تبدل ولا تحويل في سننه ، جلّت حكمته ، وهي ان لكل شيء سبباً طبيعياً كان ، أم اجتماعياً ، والبطالة ليست بسبب لشيء من الأشياء إلا الهم والغم ، والتخلف والاضططاط : « وما أصابكم من مصيبة فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ - ٣٠ الشورى » . وقال الإمام : من قصر في العمل ابتلي بالهم .. والداعي بلا عمل كالرامي بلا وتر .

(واني لأخشى أن تكونوا في فترة) من الاستقرار يعقّبها خوف واضطراب (وقد كانت أمور مضت - الى - غير محمودين) . ما صرح الإمام بتلك الأمور ، ولا دليل عليها من غيره ، وقال بعض الشارحين : يشير الإمام بالأمور الى تقديم عثمان يوم الشورى ، وقال آخر : يشير الى ما سبق الشورى .. وكلا القولين حدس بلا أساس .. وأية علاقة للمخاطبين بالشورى والسقيفة ، ويكفي لصحة الخطاب أن يكون المخاطب على علم بمراد المتكلم .

(ولئن رد عليكم أمركم) من جمع صفوف ، ووحدة الكلمة (انكم لسعداء)

بحياة الاستقرار وحقن الدماء (ولو أشاء أن أقول لقلت) ما حدث منكم ،
وأسكت عنها لا عن نسيان ، بل (عفا الله عما سلف) . والعفو أقرب للتقوى.
وقال في مكان آخر : متى أشفي غيظي اذا غضبت ؟. أحين أعجز عن الانتقام
فيقال لي لو صبرت ؟. أم حين أقدر عليه فيقال لي لو عفوت ؟.

الخطبة

- ١٧٧ -

من صفاته تعالى :

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَفَأَعْبُدُ مَا لَا أَرَى ؟ فَقَالَ : وَكَيْفَ تَرَاهُ ؟
فَقَالَ : لَا تَرَاهُ الْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ الْعَيْنَانِ ، وَلَكِنْ تُدْرِكُهُ الْقُلُوبُ
بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ . قَرِيبٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ غَيْرُ مُلَامِسٍ . بَعِيدٌ مِنْهَا غَيْرُ
مُبَايِنٍ . مُتَكَلِّمٌ لَا بِرَوِيَّةٍ ، مُرِيدٌ لَا بِهِمَّةٍ . صَانِعٌ لَا بِجَارِحَةٍ .
لَطِيفٌ لَا يُوصَفُ بِالْخَفَاءِ . كَبِيرٌ لَا يُوصَفُ بِالْجَنَافِ . بَصِيرٌ لَا يُوصَفُ
بِالْحَاسَةِ . رَحِيمٌ لَا يُوصَفُ بِالرَّقَةِ . تَعْنُو الْوُجُوهُ لِعَظَمَتِهِ ، وَتَجِبُ
الْقُلُوبُ مِنْ خَافَتِهِ .

اللغة :

الهمة : الاهتمام وشدة العناية جلياً لنفع أو دفعاً لضرر . والجارحة : العضو .
واللطيف : غير المحسوس . وتعنو : تخضع . وتجب : تضطرب .

الإعراب :

لا تدركه الضمير لله سبحانه . وقريب وما بعده من الأوصاف أخبار لمبتدأ محذوف أي هو ، وغير حال .

المعنى :

قال قائل للإمام (ع) : هل رأيت ربك ؟ فقال له : أفأعبد ما لا أرى : قال السائل : وكيف تراه ؟ قال الإمام : (لا تدركه العيون الخ) .. المعرفة على أنواع : منها حسية ، وتقوم على موضوعات من مرئيات ، ومسموعات ، وروائح ، ومذاقات ، ولمسوسات ، وهذه كلها إحساسات مادية ، والله منزّه عن المادية ، ولأذن فالطريق الى معرفة وجوده لا يقف عند الحس وحده . ومنها عقلية ، وهي أن ينتقل بنا العقل من معلوم الى مجهول ، من شاهد محسوس الى واقعة ترتب عليه ، ولا تنفك عنه بحال ، من شاهد الى غائب ، مهما شئت فعبّر . وقد شاهدنا الكون بقوانينه الثابتة العامة الشاملة لكل ركن من أركانه ، شاهدنا ذلك بالحس ، فانتقل العقل بنا الى وجود سلطة خالقة مدبرة تماماً كما انتقل عقل «نيوتن» من مشاهدة التفاحة تسقط من الشجرة على الأرض — انتقل من ذلك الى حقيقة قانون الجاذبية ، وامتلاً قلبه إيماناً بهذه الحقيقة، وقلّده كل العلماء ثقة بصدقه .

لقد رأت العيون الخلق ، وحكم العقل وجزم بوجود الخالق ، واعتقد القلب وآمن . وهذا ما عناه الإمام بقوله : (تدركه القلوب بحقائق الإيمان) . أي آمن القلب حقاً واقعاً لأنه رأى بعين الحس والعقل (قريب من الأشياء غير ملامس ، بعيد منها غير مباين) هو قريب من الأشياء ، لأنها في قبضته وعلمه وتديره ، وهو غير ملامس ، لأنه ليس بجسم فيلمس ، وهو بعيد عن الأشياء بذاته وصفاته وآثاره ، وتقدم مثله مع الشرح في الخطبة ٤٩ .

(متكلم لا بروية) وجولة فكري في معنى الكلام وإنشائه، بل يخلق الكلام كما يخلق الأعيان ، لإفهام قصده ومراده وبيان أمره ونهيه (مريد لا بهمة) . اذا أراد الانسان شيئاً فلا يوجد هذا الشيء بمجرد أن يريد ، بل لا بد من الاهتمام بالأسباب الموجبة ، والسعي والعمل ، ومع هذا الاهتمام والسعي قد يوجد المراد ،

وقد تعرض طريقه الصعوبات والعراقيل .. هذا بالنسبة الى المخلوق ، أما لإرادة الخالق فهي لا تنفك عن المراد ، ويوجد بمجرد وجودها ، بل هي هو «ماشاء الله ، وإن لم يشأ لم يكن » . وبكلمة: مراد الإنسان إمكان، ومراده تعالى وجوب أي بلا سبب إلا الإرادة وحدها .. هذا ، الى ان الإنسان يعلم بالمصلحة فيريد ، ثم يصمم ويعزم في قلبه على الفعل بجوارحه . وأين هذا ممن يقول للشيء كن فيكون ا.

(صانع لا بجارحة) أي عضو ، بل بكلمة « كن » . (لطيف لا يوصف بالخفاء) . المراد باللطيف هنا غير المحسوس . ولكيلا يقول قائل : ان الجسم الذي بلغ الغاية من الصغر هو أيضاً خفي لا يُحس ، وعليه يكون لله شبيه ونظير من هذه الجهة - قال الإمام : « لا يوصف بالخفاء » أي احتجب الجسم الصغير عن العيون لصغره ودقته ورقته ، والله سبحانه احتجب عنها ، لأنه ليس بجسم، ومع هذا فهو ظاهر بخلقه وآثاره (كبير لا يوصف بالجفاء) . انه تعالى كبير وأكبر ذاتاً ووصفاً وأثراً ، لا غلظة وجفاء (بصير لا يوصف بالحاسة) أي بالعين بل بالعلم (رحيم لا يوصف بالركة) بل بالإحسان والإفضال، والركة انفعال وتأثر، والله منزّه عنه (تعذو الخ) .. كل الخلق خاضع لعظمته ، وخائف من سطوته.

الخطبة

- ١٧٨ -

أما دين يجمعكم .. فقرة ١ - ٢ :

أَحْمَدُ اللَّهِ عَلَى مَا قَضَى مِنْ أَمْرٍ وَقَدَّرَ مِنْ فِعْلٍ ، وَعَلَى آيَاتِي بِكُمْ
أَيُّهَا الْفِرْقَةُ الَّتِي إِذَا أَمَرْتُ لَمْ تُطِيعْ ، وَإِذَا دَعَوْتُ لَمْ تُجِيبْ . إِنْ أَمَلْتُمْ
خُضْتُمْ ، وَإِنْ حُورِثْتُمْ خَرْتُمْ . وَإِنْ اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى إِمَامٍ طَعَنْتُمْ ،
وَإِنْ اجْتَمَعْتُمْ إِلَى مُشَاقَّةٍ نَكَصْتُمْ . لَا أَبَا لِغَيْرِكُمْ . مَا تَنْتَظِرُونَ
بِنَصْرِكُمْ وَالْجِهَادِ عَلَى حَقِّكُمْ ؟ الْمَوْتُ أَوِ الذُّلُّ لَكُمْ . فَوَاللَّهِ لَئِنْ جَاءَ
يَوْمِي - وَلَيَأْتِيَنِي - لَيُفَرِّقَنَّ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأَنَا لِصُحْبَتِكُمْ قَالٍ ،
وَبِكُمْ غَيْرُ كَثِيرٍ^(١) . اللَّهُ أَنْتُمْ . أَمَا دِينُ يَجْمَعُكُمْ ؟ وَلَا حِمَّةٌ تَشْحَذُكُمْ ؟
أَوَلَيْسَ عَجَبًا أَنْ مُعَاوِيَةَ يَدْعُو الْجُفَاةَ الطَّغَامَ فَيَتَّبِعُونَهُ عَلَى غَيْرِ
مَعُونَةٍ وَلَا عَطَاءٍ . وَأَنَا أَدْعُوكُمْ - وَأَنْتُمْ تَرِيكَةُ الْإِسْلَامِ وَبَقِيَّةُ
النَّاسِ - إِلَى الْمَعُونَةِ وَطَائِفَةِ مِنَ الْعَطَاءِ فَتَفَرَّقُونَ عَنِّي وَتَحْتَلِفُونَ عَلَيَّ .

إِنَّهُ لَا يَخْرُجُ إِلَيْكُمْ مِنْ أَمْرِي رِضَى فَرَضُونَهُ ، وَلَا سُخْطُ فَتَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ . وَإِنَّ أَحَبَّ مَا أَنَا لَاقٍ إِلَيَّ الْمَوْتُ . قَدْ دَارَسْتُكُمْ الْكِتَابَ ، وَفَاتَحْتُكُمْ الْحِجَاجَ ، وَعَرَفْتُكُمْ مَا أَنْكَرْتُمْ ، وَسَوَّغْتُكُمْ مَا مَجَّجْتُمْ ، لَوْ كَانَ الْأَعْمَى يَلْحَظُ ، أَوْ النَّائِمُ يَسْتَيْقِظُ . وَأَقْرَبُ بِقَوْمٍ مِنَ الْجَهْلِ بِاللَّهِ قَانِدُهُمْ مُعَاوِيَةُ ، وَمُودِبُهُمْ ابْنُ النَّابِغَةِ (٢) .

اللغة :

أمهلتهم : أرفق بكم . وخضتم : دخلتم في الباطل . وعخرتم : ضعفتهم وجبتهم . وأجستم : ألتجتم ، أوجىء بكم . والمشاقة - بضم الميم - المخاصمة ، والمراد بها هنا الحرب ، ونكصتم : رجعتهم القهقري أو أحجتم . وقال : كاره . وتشحدكم : تحرككم ، من شحد السكين إذا سننها وحددها . وتريكة الإسلام : خلف لمن جاهد في سبيل الإسلام . وفاتحتكم : حاكمتكم وقاضيتكم .

الإعراب :

لا أبا «لا» نافية للجنس ، وأب اسمها ، ولما أشبعت فتحة الباء صارت ألفاً ، ولغيركم خبر . وبكم متعلق بكثير ، وغير خبر لمبتدأ محذوف أي وأنا غير كثير بكم ، أما حرف طلب وتحضيض مثل ألا على مذهب « المالقي الأندلسي » ودين فاعل لفعل محذوف أي أما يجمعكم دين ، ويجوز أن يكون دين مبتدأ والخبر محذوف أي أما لكم دين يجمعكم ، والجملة من هذا الفعل والفاعل صفة لدين ، وأقرب يقوم اللفظ لفظ الأمر ، والمعنى خبر مع التعجب ، والباء زائدة ، وقوم فاعل أقرب .

المعنى :

(أحمد الله على ما قضى - الى - لم نجب) . كانت مهمة الإمام (ع) مع

أصحابه عسيرة أشد العسر ، أرادهم للدفاع عن أنفسهم وعن الإسلام الذي بدأت شمسهُ تميل إلى الغروب .. فآثروا حياة الدعة مع الذل والهوان على الكرامة مع الجهاد والتضحية ، فشكى الإمام وتألم ، وحذّرهم من سوء العاقبة ، وقرّعهم في العديد من خطبه وأقواله .. ولكن بلا جدوى حتى كأنه كان يطلب النصر منهم لمصلحته ، لا لمصلحة الإسلام والمسلمين ، فصبر على الخطب ، بل حمد الله عليه تماماً كما يحمده على السراء .

(ان أمهتكم - الى - نكصتكم) . الخطاب للرؤساء وأصحاب النفوذ ، والمعنى لا أدري ماذا يصلحكم ؟. إن تلطفت بكم وأرفقت تماديتكم في الباطل ، وإن ألباتكم إلى الحرب تخاذلتكم وضعفتكم ، وإن رأيتم قلوب المسلمين معي شاغبتهم وتآمرت .. (لا أبا لغيركم) . تستعمل العرب هذه الكلمة عند المسألة والطلب ، وهي تومىء إلى الدعاء بفقد الأب ، أو التعبير بجهله ، ولكن الإمام تطف في الأسلوب حيث وجه الدعاء أو الذم إلى غيرهم في الظاهر ، وهم القصد حقيقة وواقعاً .

(ما تنتظرون بنصركم والجهاد على حقكم) ؟. العدو يستفزكم ، ويتغلغل في أرضكم ، ويعتدي على كرامتكم ، وأنتم لا تحركون ساكناً ! هل تنتظرون قوة تنزل من السماء لنصرتكم ، أو قوة أجنبية تأتي من أقصى المعمورة تدافع عنكم ؟ (الموت أو الدل لكم) .. أبداً لا شيء يليق بكم إلا واحد من اثنين : الدل والهوان ما دمتم على هذه الحال ، أو الموت يفنيكم عن آخركم ، فهو خير لكم وللإنسانية من حياتكم . قال ابن أبي الحديد : « هذا دعاء من الإمام عليهم .. وقد استجاب الله دعاءه ، فإن شيعته أيام الأمويين ذلوا كفقع قرقر » . والفقع أو الفقاقيع نفاثات تعلو الماء ، وأراد بالقرقر - كما نظن - لعاب الجمل حين يهدر ويخرج جر .

(فوالله لئن جاء يومي - الى - كثير) . سأفارقكم بالموت لا محالة ، ولكن عن بغض وكراهية لكم ولصحبكم ، لأنني ما كنت بكم قوياً على الباطل وأهله .. ومن أجل هذا نطق الإمام بكلمة السرور والفرحة حين ضربه اللعين ابن ملجم : فزت ورب الكعبة (أما دين يجمعكم ، ولا حمية تشحذكم) ؟. أتدعون الإسلام ، والخلافات تستنزف منكم الدين وكل ما تملكون من طاقات ؟. وإذا لم يكن لكم دين فلتكن لكم حمية وأنفة تبعثكم على الدفاع عن أرضكم وكرامتكم .

(أوليس عجباً ان معاوية - الى - فتجتمعون عليه) . الطغام - بفتح الطاء - الأراذل ، والمراد بالعطاء الراتب المعين لكل فرد ، والمعونة العلاوة تُعطى للمحارب لإصلاح سلاحه أو علف دابته ، كالعلاوة التي تُعطى الآن للموظف من أجل مرض أو نحوه ، وكان بيت المال آنذاك يوزع على الجند وغيرهم من المعوزين ، وما كانت وزارة للأشغال ، وثانية للصحة ، وثالثة للتربية السخ . وكان الإمام يقسم المال بالسوية لا يحرم أحداً من حقه ، ولا يرضي الأقوياء على حساب الضعفاء ويقول : لو كان المال لي لسويت بينهم كيف والمال مال الله ؟ .

أما معاوية فكان يعطي من أجله ، لا من أجل الله وسد حاجة المعوزين ، فيأخذ أموال الجند ، وسهم الفقراء ، ويغري بمال الله وبالمناصب أبواب الجاه والنفوذ ، ويبيح لهم كل حرام دعماً لحكمه وسلطانه .. ومن أجل هذا وحده اتبعوه ، وكانوا أطوع له من بنائه ، ولو ان معاوية عدل وسأوى في العطاء والمعونة لكان المتبعون معه كما كان أمثالهم مع الإمام . قال ابن أبي الحديد في شرح هذه الخطبة : « كان الرؤساء يحقدون على الإمام ، لأنه يساوي بينهم وبين الأتباع ، فيخذلونه باطناً ، وإن أظهروا له النصر ، وإذا أحس الأتباع بتخاذل الرؤساء تواكلوا أيضاً وتخاذلوا ، لأن انتصار التابع مع تخاذل الرئيس المتبوع لا لا يتصور وقوعه » .

وهنا يصدق قول القائل : « أريد حياته ، ويريد قتلي » . وقف الإمام مع الأتباع المستضعفين ، وانتصر لهم من الأقوياء المستغلين ، فتركه الأتباع ، وانضموا الى أعداء الله وأعدائهم ضد الإمام (ع) .. حدث هذا من قبل ، ويحدث الآن : تقوم الثورة في الشرق أو في الغرب لتحرر الكادحين من الطغاة ، وتدور الحرب بين الأحرار والفئة الطاغية الباغية على الضعفاء ، فينتفض جماعة من هؤلاء على ثورتهم ، وينضمون الى الثورة المضادة لهم ولحياتهم جهلاً أو خيانة ، ويتحرون بأيديهم من حيث لا يشعرون .

(وان أحب ما أنا لاق إليّ الموت) حيث لا سبيل الى الخلاص مما هو فيه إلا الموت . قيل لفيلسوف : هل من مصيبة أعظم من الموت ؟ فقال : المصيبة التي تمنى معها الموت (قد دارستكم الكتاب) أي درستكم وبينت لكم ما فيه ، وبخاصة آيات الوحدة والاخوة ، والجهاد لإحقاق الحق ، وإقامة العدل (وفاتحكم الحجاج) حاكمكم الى العقل ووسائل الاقناع التي يحتاج بها الله غداً على عباده

(وعرفتكم ما انكرتم) . أنكر الرؤساء على الإمام ان يساوي بينهم وبين الاتباع في المعونة والعطاء ، فعرفهم أن هذا هو حكم الله ورسوله ، وما هو إلا منقذ لا مشرع ، ووكيل لا أصيل .

(وسوغتكم ما مجبتم) . ساغ الشرابُ سهّل مدخله في الخلق ، ومجّه رمى به من فمه ، والمعنى بذلت كل ما أملك من جهد لإرشادكم وهدايتكم ولكنكم تماماً كالاعمى والميت لا تحسون ولا تبصرون : « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها — ١٧٩ الأعراف » . (أقرب يقوم من الجهل بالله الخ) . المراد بالقوم هنا أهل الشام ، والمعنى لا أحد أقرب الى الجهل بالله ودينه من قوم يتصرف بهم معاوية وابن العاص ، ويلعبان بعقولهم كيف شاءا وأرادا . والحق ان المال هو الذي تصرف بالعقول والقلوب ، وكنّى الإمام عنه بمعاوية لأنه اشترى العقول والضمائر ودفع الثمن كاملاً ، أما ابن العاص فله دور الوسيط بين البائع والمشتري .

ونختم هذا الشرح بكلمة لأحمد عباس صالح ، قال في كتاب « اليمين واليسار في الإسلام » : « أبى علي أن يفعل شيئاً من هذا الذي يفعله معاوية ، لأن انتصاره عندئذ يكون انتصاراً ناقصاً خيراً منه الهزيمة » .

الخطبة

- ١٧٩ -

بعداً لهم :

بُعْدًا لَهُمْ كَمَا بَعَدَتْ نَمُودُ . أَمَا لَوْ أَشْرَعْتَ الْأَسِنَّةُ إِلَيْهِمْ ، وَصَبَّتِ
السُّيُوفُ عَلَى هَامَاتِهِمْ . لَقَدْ نَدِمُوا عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ . إِنَّ الشَّيْطَانَ
الْيَوْمَ قَدْ اسْتَفْلَهُمْ ، وَهُوَ غَدًا مُتَبَرِّئٌ مِنْهُمْ وَمُتَخَلِّ عَنْهُمْ . فَحَسْبُهُمْ
يُخْرِجُهُمْ مِنَ الْهُدَى ، وَأَرْثَكَاسِهِمْ فِي الضَّلَالِ وَالْعَمَى ، وَصَدَّهِمْ عَنِ
الْحَقِّ ، وَجَاحِيَهُمْ فِي النَّيَةِ .

اللغة :

بعداً لهم : دعاء عليهم بالهلاك . وأشرعت : امتدت وصوبت . وهاماتهم :
رؤوسهم . وتفلل وانفلل القوم : انكسروا وهزموا ، واستفلهم الشيطان دعاهم
للانشقاق والانهمام عن الجماعة . وارثكس : انتكس وانقلب . وناه : ضل .
وجاحهم : إسراعهم .

الإعراب :

بعداً نصب على المصدرية ، وأما تكون حرف استفتاح ، وتكون بمعنى حقاً أو أحقاً على خلاف في ذلك ، كما في مغني ابن هشام ، وهي هنا بالمعنى الثاني بقرينة السياق ، ولقد ندموا جواب لو ، وحسبهم بخروجهم « حسب » مصدر مبتدأ ، والباء زائدة ، وخروجهم خبر ، أي كفايتهم خروجهم عن الجماعة ، مثل عذرهم جهلهم .

الخريت بن راشد :

كان الخريت بن راشد من بني ناجية ، وشهد صفين مع الإمام ، وقال له في ذات يوم : أنا لا أطيع أمرك ، ولا أصلي خلفك ، واني غداً لمفارقك . فقال له الإمام : أذكر لي كل ما يدور في ذهنك حولي من الشبهات ، وعليّ أن أزيلها وأدفعها بالحق . فقال : آتيك غداً . قال له الإمام : ان استرشدتني لأهديتك سبيل الرشاد ، ثم نهاه أن يتعرض لأحد بسوء وإلا أدبه واقتص منه . فقال رجل للإمام : لم لا تأخذه الآن قبل ان يخرج ، ويفسد في الأرض ؟ فقال الإمام : لو فعلنا هذا بكل من يُتهم للملأنا السجون ، ولا يسعني أن أعاقب أحداً حتى يظهر الخلاف . وانتظر الإمام عودة الخريت في الغد ، ولكنه لم يأت ، وكان معه ٣٠ رجلاً ، فأرسل الإمام أحد أصحابه يعلم له أحوالهم ، فلما عاد الرسول قال له : أأمن القوم فقطنوا — أي أقاموا — أم جبنوا فظعنوا أي رحلوا : قال : بل ظعنوا يا أمير المؤمنين . فقال : بعداً لهم الخ .

خرج الخريت في جماعته ، وقطعوا طريق الآمنين .. لقوا رجلاً يقال له زاذان فروخ . فقالوا له : أمسلم أنت أم كافر ؟ قال : بل مسلم . قالوا : ما تقول في علي ؟ قال : أقول خيراً ، انه أمير المؤمنين وسيّد البشر ، ووصي رسول الله (ص) . قالوا له : كفرت . وقطعوه بأسيا فهم . ثم رأوا رجلاً آخر ، فقالوا له : أمسلم أنت أم كافر ؟ قال : أنا يهودي . قالوا : خلوا سبيله . ولما علم الإمام أرسل الى حربهم زياد بن أبي حفصة في ١٣٠ رجلاً ، فقتل نفرأ منهم ، وفر الخريت يجمع حوله العلوج والأكراد ومن اليهم ، فندب الإمام ألفين من أهل الكوفة، وأرسلهم لقتال الخريت بقيادة معقل بن قيس الرياحي .

فسار معقل بجيشه يسأل عن مكان الخريت . فقبل له : انه في أميايف البحر بفارس ، فقصده ، ولما سمع الخريت بمسير معقل تأهب للحرب ، ودارت المعركة على أشدها ، فقتل الخريت ، ومئة وسبعون من أصحابه ، وذهب الباقيون في الأرض يمينا وشمالا ، وكانت منية الخريت بيد النعمان بن صهيان الراسي من أصحاب معقل .

هذه خلاصة لقصة الخريت، ومن أراد التفصيل فليرجع الى شرح ابن أبي الحديد للخطبة ٤٤ ص ٢٦٤ من المجلد الأول الطبعة القديمة ، وقد استغرقت حوالى عشرين صفحة بقطع هذا الكتاب .

الخطبة

- ١٨٠ -

لم يلد ولم يولد .. فقرة ١ - ٣ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي إِلَيْهِ مَصَائِرُ الْخَلْقِ ، وَعَوَاقِبُ الْأُمْرِ . نَحْمَدُهُ عَلَى عَظِيمِ إِحْسَانِهِ وَنِيرِ بُرْهَانِهِ ، وَنَوَامِي فَضْلِهِ وَأَمْتِنَانِهِ ، خَدَا يَكُونُ لِحَقِّهِ قَضَاءٌ وَلِشُكْرِهِ أَدَاءٌ ، وَإِلَى تَوَابِهِ مُقَرَّبًا وَلِحُسْنِ مَزِيدِهِ مُوجِبًا . وَنَسْتَعِينُ بِهِ أَسْتِعَانَةً رَاجٍ لِفَضْلِهِ ، مُؤَمِّلٍ لِنَفْعِهِ ، وَاثِقٍ بِدَفْعِهِ ، مُعْتَرِفٍ لَهُ بِالطُّوْلِ ، مُذْعِنٍ لَهُ بِالْعَمَلِ وَالْقَوْلِ . وَنُؤْمِنُ بِهِ لِإِيمَانٍ مِنْ رَجَاءٍ مُوقِنًا ؛ وَأَنَابٍ إِلَيْهِ مُؤْمِنًا ، وَخَنَعَ لَهُ مُذْعِنًا ، وَأَخْلَصَ لَهُ مُوَحِّدًا ، وَعَظَّمَهُ مُمَجِّدًا ، وَلَآذٍ بِهِ رَاغِبًا مُجْتَهِدًا^(١) . لَمْ يُوَلَدْ سُبْحَانَهُ فَيَكُونُ فِي الْعِزِّ مُشَارَكًا . وَلَمْ يَلِدْ فَيَكُونْ مَوْرُوثًا هَالِكًا . وَلَمْ يَتَقَدَّمْهُ وَقْتُ وَلَا زَمَانٌ . وَلَمْ يَتَعَاوَرَهُ زِيَادَةٌ وَلَا نُقْصَانٌ ، بَلْ ظَهَرَ لِلْعُقُولِ بِمَا أَرَانَا مِنْ عَلَامَاتِ التَّدْيِيرِ الْمُتَقَنِّ وَالْقَضَاءِ الْمُبْرَمِ . فَيَنْ

شَوَاهِدِ خَلْقِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ مُوَطَّدَاتٍ بِلَا عَمَدٍ ، قَائِمَاتٍ بِلَا سَنَدٍ .
دَعَاهُنَّ فَأَجَبْنَ طَائِعَاتٍ مُذِيعَاتٍ ، غَيْرَ مُتَلَكِّثَاتٍ وَلَا مُبْطِئَاتٍ .
وَلَوْ لَا إِقْرَارُهُنَّ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَإِذْعَانُهُنَّ بِالطَّوَاعِيَةِ لَمَا جَعَلَهُنَّ مَوْضِعًا
لِعَرْشِهِ ، وَلَا مَسْكَنًا لِمَلَائِكَتِهِ ، وَلَا مَصْعَدًا لِلْكَلِمِ الطَّيِّبِ وَالْعَمَلِ
الصَّالِحِ مِنْ خَلْقِهِ^(٢) . جَعَلَ نُجُومَهَا أَعْلَامًا يَسْتَدِلُّ بِهَا الْخَيْرَانُ فِي
مُخْتَلِفِ فِجَاجِ الْأَقْطَارِ . لَمْ يَمْنَعْ ضَوْءُ نَهْرِهَا أَذْهِمًا سَجَفِ اللَّيْلِ
الْمُظْلِمِ . وَلَا اسْتَطَاعَتْ جَلَالُيْبُ سَوَادِ الْخَنَادِسِ أَنْ تَرُدَّ مَا شَاعَ فِي
السَّمَوَاتِ مِنْ تَلَالُؤِ نُورِ الْقَمَرِ . فَسُبْحَانَ مَنْ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ سَوَادُ
غَسَقِ دَاجٍ وَلَا لَيْلِ سَاجٍ فِي بَقَاعِ الْأَرْضِينَ الْمُتَطَاطِثَاتِ ، وَلَا فِي
يَفَاعِ السُّفْعِ الْمُتَجَاوِرَاتِ . وَمَا يَتَجَلَّجَلُ بِهِ الرَّعْدُ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ ،
وَمَا تَلَاسَتْ عَنْهُ بُرُوقُ الْعَمَامِ ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ تُزِيلُهَا عَنْ
مَسْقَطِهَا عَوَاصِفُ الْأَنْوَاءِ وَأَنْهْطَالُ السَّمَاءِ وَيَعْلَمُ مَسْقَطُ الْقَطْرَةِ وَمَقَرُّهَا ،
وَمَسْحَبُ الذَّرَّةِ وَجَجَرُّهَا ، وَمَا يَكْفِي الْبَعُوضَةَ مِنْ قُوَّتِهَا ، وَمَا تَحْمِلُ
الْأُنْثَى فِي بَطْنِهَا^(٣) .

اللغة :

النوامي : الزوائد . والامتنان : الإنعام . والطول : الفضل . وخنع : خضع .
وموطدات : مثبتات في مدارها . ومتلكثات : مبطئات كما فسرهما الإمام بالعطف
عليها . والطواعية : الطاعة . والأعلام : العلامات . والفجاج : الطرق بين
الجبال . والادلهام : الظلمة الشديدة . والسجف : السر . والجلابيب : الثياب .

والخنادس : الليالي المظلمة . والداجي : المظلم . والساجي : الساكن . واليفاع : كل ما ارتفع من الأرض ، وغلّام يافع : ناهز البلوغ . والسُقع : الجبال . والجلجلة ، صوت الرعد . وتلاشت : اضمحلت . والمسحب والمجر : مكان السحب والجر .

الإعراب :

الذي صفة لله ، واليه خبر مقدم ، ومصائر الخلق مبتدأ مؤخر ، والجملة صلة الموصول ، ولشكره أداء أي ويكون الحمد أداءً لشكره ، ومثله ما بعده ، ومؤمل صفة لراج ، ومثله ما بعده ، وموقناً حال ، وكذلك ما بعده من المنصوبات ، وموطدات وقائات وطائعات أحوال ، وادلهم فاعل يمنع ، وضوء مفعول ، والمصدر من أن ترد مفعول استطاعت .

المعنى :

(الحمد لله الذي اليه مصائر - الى - مزیده موجباً) . أسبغ سبحانه على عبادہ نعماً لا يحيط بها الإحصاء ، وأعادهم اليه ليعجزى الذين أحسنوا بالحسنى ، والذين أساءوا بما عملوا ، ومن حسنت العبد عند الله شكر المنعم وحده على فضله وإحسانه ، مع العلم بأن شكر المنعم دين يجب الوفاء به بحكم العقل، ويشير الى ذلك قول الإمام : « قضاء وأداء » ولكن تقدست أسماؤه ، يثيب عليه كأنه نذب وإحسان ، وكذلك التوبة من الذنب حتم وإلزام ، ومسح هذا يثيب عليها سبحانه كأنها إحسان لا إلزام . والسر انه تعالى حلیم كريم . وتجدر الإشارة الى ان من عرف النعمة بقلبه فقد شكرها ، ولكن الشكر الكامل لا يكون إلا بالفعل والتضحية : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون - ٩٢ آل عمران » .

ونستعين به الخ .. يريد الإمام بقوله : مؤتمل وواثق ، ومؤمن وتائب ، وراغب ومجتهد ، وما الى ذلك من الأوصاف ، يريد بها ان الاستعانة بالله حقاً هي أن لا نخاف مع الله شيئاً ، ولا نرجو أحداً ، وأن نطيعه بإخلاص قولاً وعملاً ، ونرجع اليه وحده في كل شيء فهو المصدر والغاية ، وما عداه طريق

ووسيلة : « انما هو إله واحد وليذكر أولو الألباب - ٥٢ ابراهيم » . ومعنى هذا ان من قال لله في صلاته : « اياك نعبد واياك نستعين » فهو كاذب في دعواه اذا خضع وخضع لعبد مثله متوسلاً به في حاجة له، مؤمناً بأنه السبيل الوحيد لقضائها ونجاحها .

(لم يولد الخ) .. لو كان لله أب لكان مخلوقاً لا خالقاً ، وممكناً لا واجباً ، وكان أبوه مفضلاً عليه ، وشريكاً له في العظمة والجلال ، وأيضاً لو كان لله ولد لكانت له صاحبة ، وكان شأنه شأن الآباء يشيخ ويهرم ، ثم يموت ويورث الأولاد والأحفاد .. وتجدر الإشارة الى ان اليونان كانوا يعبدون جماعة من الآلهة تحب وتعشق وتعالج وتنكح ، وتلد العديد من الآلهة غير الشرعيين .. وأيضاً كانت تكذب وتخدع وتحسد وتحقد ، وتصطاد وتحارب ، وتركب عربات الترفيه والزهرة .. ومع هذا فهي تخلق وترزق ، وترسل الصواعق فتصيب بها من تشاء .

(ولم يتقدمه وقت ولا زمان) وإلا كان حادثاً يفتقر وجوده الى علة فاعلة ، وقيل : « الوقت جزء من الزمان ، والزمان أعم منه » . ومع هذا يجوز أن يكون المراد بهما واحداً ، والعطف للتفسير (ولم يتعاوره زيادة ولا نقصان) والا كان متغيراً ومحلاً للحوادث (بل ظهر للعقول الخ) .. بخلق الكون ونظامه المحكم الثابت (فن شواهد خلقه خلق السموات بلا عمد) . خلق الكواكب وأودع فيها قوانين تفعل فعلها ، وتؤثر أثرها ، ومنها قانون الجاذبية فيها وفي جميع الأجسام (قائلات بلا سند) عطف تفسير ، وتقديم مثله مع الشرح المفصل في الخطبة ١ .

(دعاهن فأجبن طائعات) . خلق سبحانه أجرام السماء على وضع خاص حجماً وهيئة ، ووضعها في أماكنها على وفق الحكمة والهندسة الكونية ، لتؤدي الغرض المنشود كما أراده الله سبحانه ، وكنتى الإمام عن تماسك الكواكب ، وما يترتب عليها من الآثار المنشودة ، كنتى عن ذلك بالطائعات المدعئات تبعاً للآية ١١ من سورة فصلت : « ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين » .

(ولولا إقرارهن - الى - لعرشه) لو لم تكن السموات في قدرته وقبضته لكانت خارجة عن أمره وملكوته لغيره (ومسكناً ملائكته) لأن الله سبحانه لا

يُسكن عباده في غير ملكه ، وفيه إيماء إلى أن على بعض الكواكب حياة وخلائق (ولا مصعداً للكلم والطيب والعمل الصالح من خلقه) يدل هذا ان الله خلقاً يسجلون أقوال العباد وأفعالهم ، ويصعدون بها الى السماء ، قال تعالى : « وان عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون - ١٢ الانفطار » . ومن أنكر ذلك فقد أنكر ما يجهل .

(جعل نجومها اعلاماً الخ) .. بعض الكواكب لا يصل نورها الى الأرض ، لأنها تبعد عن الأرض مئات الملايين من السنين الضوئية ، وسرعة الضوء ١٨٦٠٠٠ ميل في الثانية ، وبعض الكواكب يصل نورها الى الأرض دون أن تراها العين المجردة ، ونوع منها يصل نوره الى الأرض ، وتراه العين ، ويقول علماء الفلك : ان عدد النجوم التي تراها من موضع واحد من الأرض - يبلغ ما بين ٢٥٠٠ و ٣٠٠٠ نجم ، أما التي تراها المناظير الحديثة فيزيد عددها عن ألف مليون ، والمناظير الحديثة ترى على بعد ٥٠٠ مليون سنة ضوئية ، وربما تطورت الى ألف مليون أو أكثر .

وفي النهار يطغى نور الشمس على ضوء النجوم فتخفيه وتضيء النجوم بأوضح رؤية في ليلة ليلاء مع صفاء الجو ، وإذن فالليل المظلم لا يمنع ضوء النجوم والقمر بل على العكس يزيده تألؤاً ، وإلى هذا أشار الإمام بقوله : (لم يمنع ضوء نورها ادلهام الخ) .. أما قوله : (اعلاماً يستدل بها الحيران الخ) .. فيشير إلى الآية ١٦ من سورة النحل : « وبالنجم هم يهتدون » . (فسبحان من لا يخفى عليه الخ) .. تقدم هذا مرات ، ولا غرض من الاعادة ومن مسحب اللذة ومسقط القطرة إلا التأكيد بأن الله قد أحاط بكل شيء علماً كي يستشعر الانسان الخوف من ربه .

كان ولم يكن معه شيء .. فقرة ٤ - ٥ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْكَائِنِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ كُرْسِيُّهُ أَوْ عَرْشُهُ ، أَوْ سَمَاءُ أَوْ أَرْضُ أَوْ جَانِ أَوْ إِنْسٌ . لَا يُدْرِكُ بَوْنَهُمْ . وَلَا يُقَدَّرُ بِفَهْمِهِ . وَلَا يَشْغَلُهُ سَائِلٌ ، وَلَا يَنْقُصُهُ نَائِلٌ . وَلَا يُنْصَرُ بِعَيْنٍ . وَلَا يُحْدِثُ بِأَيْنٍ .

وَلَا يُوصَفُ بِالْأَزْوَاجِ ، وَلَا يَخْلُقُ بِعِلَاجٍ . وَلَا يُدْرِكُ بِالْحَوَاسِّ .
وَلَا يُقَاسُ بِالنَّاسِ . الَّذِي كَلَّمَ مُوسَى تَكْلِيمًا ، وَأَرَاهُ مِنْ آيَاتِهِ عَظِيمًا .
بِلَا جَوَارِحَ وَلَا أَدَوَاتٍ ، وَلَا نُطْقٍ وَلَا لَهَوَاتٍ . بَلْ إِن كُنْتَ
صَادِقًا أَتَيْهَا الْمُتَكَلِّفُ لِيُوصِفَ رَبَّكَ فَصِفْ جَبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَجُنُودَ
الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ فِي حُجَرَاتِ الْقُدْسِ مُرَجَّحِينَ ، مُتَوَلِّهِ عُقُولُهُمْ أَنْ
يَحْدُثُوا أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ . فَإِنَّمَا يُدْرِكُ بِالصِّفَاتِ ذُؤُوهِيَّاتِ وَالْأَدَوَاتِ ،
وَمَنْ يَنْقُضِي إِذَا بَلَغَ أَمَدَ حَدِّهِ بِالْفَنَاءِ ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَضَاءَ بِنُورِهِ
كُلَّ ظَلَامٍ ، وَأَظْلَمَ بِظُلُمَتِهِ كُلَّ نُورٍ^(٤) . أَوْصِيكُمْ عِبَادَةَ اللَّهِ بِتَقْوَى
اللَّهِ الَّذِي أَلْبَسَكُمْ الرِّيَاشَ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ الْمَعَاشَ . فَلَوْ أَنَّ أَحَدًا يَجِدُ
إِلَى الْبَقَاءِ سُلَمًا ، أَوْ إِلَى دَفْعِ الْمَوْتِ سَبِيلًا ، لَكَانَ ذَلِكَ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ
عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي سَخَّرَ لَهُ مُلْكُ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ مَعَ النُّبُوَّةِ وَعَظِيمِ
الزُّلْفَةِ . فَلَمَّا اسْتَوْفَى طُغْمَتَهُ ، وَأَسْتَكْمَلَ مُدَّتَهُ ، رَمَتْهُ قِسِي الْفَنَاءِ
بِنِبَالِ الْمَوْتِ . وَأَصْبَحَتِ الدِّيَارُ مِنْهُ خَالِيَةً ، وَالْمَسَاكِنُ مُعْطَلَةً ،
وَوَرِثَهَا قَوْمٌ آخَرُونَ ، وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْقُرُونِ السَّالِفَةِ لَعِبْرَةً . أَيْنَ
الْعَمَلِقَةُ وَأَبْنَاءُ الْعَمَلِقَةِ . أَيْنَ الْفَرَاعِنَةُ وَأَبْنَاءُ الْفَرَاعِنَةِ . أَيْنَ أَصْحَابُ
مَدَائِنِ الرِّسِّ الَّذِينَ قَتَلُوا النَّبِيِّينَ وَأَطْفَأُوا سُنَنَ الْمُرْسَلِينَ . وَأَحْيَا
سُنَنَ الْجَبَّارِينَ . وَأَيْنَ الَّذِينَ سَارُوا بِالْجُيُوشِ وَهَزَمُوا الْأُلُوفَ ،
وَعَسَكَرُوا الْعَسَاكِرَ وَمَدَّنُوا الْمَدَائِنَ^(٥) .

اللغة :

كرسيه تعالى : علمه، والمراد به هنا الشيء المعلوم له . وعرشه : ملكه وتديبه .
والنوال : العطاء . والأزواج : الأمثال . والجوارح : الأعضاء . وهوات :
جمع لهاة ، وهي لحمية في أقصى سقف الفم . وحجرات : جمع حجرة أي
غرفة . ومرجحين : جمع مرجحن أي مائل أو خاضع . متولة من الوله ،
وهو الوجد والحزن والخيرة والخوف . والرياش : اللباس الفاخر . وأسبغ : أتم .
وطعمته : مأكله .

الإعراب :

لفظ « أين » يسأل به عن المكان ، فإن أردت مكاناً خاصاً بنيتة على الفتح ،
وان أردت أي مكان أعربت . والذي كالم صفة لله ، أو خبر لمبتدأ محذوف أي
هو الذي كالم ، ومرجحين حال ، وكذا متولة ، وعقولهم فاعل متولة ،
والمصدر من أن يحذوا منصوب بنزع الخافض أي حارت عقولهم في حده تعالى أو
خافت من ذلك ، وذوو نائب فاعل ليُدرك .

المعنى

(الحمد لله الكائن - الى - إنس) . لا شيء في الأزل إلا الله ، لأن
كل ما عداه فيض منه ، ومتأخر عنه بما في ذلك عرشه أي ملكه ، وكرسيه
أي الأشياء المعلومه له ، كما قلنا في فقرة اللغة ، وليس من الضروري أن يكون
المعلوم والملوك لله سبحانه موجوداً في الأزل بوجوده ، لأنه علة لمشيئته التي تعلقت
بوجود الشيء في حينه المتأخر عن الذات لا المقارن لها (لا يُدرك بوجه ، ولا
يقدر بفهم) . الوهم تصور ، وكذلك الفهم ، والفرق بينهما ان الوهم تصور
بلا ضابط وقياس ، والفهم تصور بمقاييس وضوابط ، وتقدم أكثر من مرة ان
الذات القدسية لا تُدرك بكنهها بل بأفعالها وآثارها ، وانها فوق التصور وهما كان
أم فهماً ، وهذا معنى قول الإمام الباقر (ع) : كل ما ميزتم الله بأوهامكم فهو
مردود اليكم .

(ولا يشغله سائل) لأن ذاته بما هي تحيط بكل شيء علماً وقادرة ، وتقدم مثله في الخطبة ١٧٦ (ولا ينقصه نائل) . انه يعطي بلا حساب ، وخزائنه على ما هي ، لا فرق أنفق أو لم ينفق لأنها تستمد من قوة لا حد لها ولا نهاية ، والخزائن التي تنقص بالإنفاق تمتلئ بالكسب والجمع من هنا وهناك (ولا ينظر بعين — الى — الناس) . انه تعالى قوة عليا فوق الطبيعة، عالمة قادرة، لا يقع عليها حس ، ولا تدخل في دائرة المشاهدة ، لأنها ليست بمادة كي تُنظر وتُلمس ، وتفتقر الى حيز ومكان ، وإذا عجزت العقول عن إدراكها فكيف تدركها الحواس ، وتقاس بالناس !. انها تخلق بكلمة «كن» لا بآلة ومزاولة ، وتدبر بقوانين تودعها في الكائنات لا بجوارح وأدوات .

(الذي كلم موسى الخ) .. أي خلق الكلام في الشجرة فسمعه موسى ، كما في الآية ٣٠ من سورة القصص : « نُودِي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة من الشجرة » فن الشجرة متعلق بنودي ، فالشجرة بالنسبة الى موسى كالاسطوانة بالنسبة اليها مع الفرق البعيد ، لأن الذي نسمعه من الاسطوانة خارج من فم ، ومسجل بآلة، والكلام الذي سمعه موسى حل في الشجرة بمجرد الإرادة القدسية (بل إن كنت صادقاً — الى — الخالقين) . لا تحاول المحال بوصف الله وتحديد ذاته .. وان أبيت إلا الفضول والتمحل فنحن نهون عليك ، ونكتفي منك أن تصف جبريل أو غيره من الملائكة الذين عجزوا عن وصفه تعالى ، وهم أقرب اليه منك وأعلم ، وإذا عجزت عن وصف المخلوق فأنت عن وصف الخالق أعجز .

(فلإنما يُدرك بالصفات الخ) .. الغرض واحد من اثنين : إما أن تكون له أعضاء وهيئة من الهيئات فتحدده بها ، وإما أن يكون له أجل ينتهي بنهايته فتعرفه به ، والله سبحانه لا حد له ولا نهاية ، ولا شكل وهيئة (فلا إله إلا هو أعضاء بنوره كل ظلام) أي ان العلم والعمل بدين الله وحلاله وحرامه هدى ونور لا تضر معه أية صفة يراها الناس نقصاً وظلاماً كالفقير وقلة الرجال والأنصار (وأظلم بظلمته كل نور) . المراد بظلمته تعالى حجاب الجهل والمعصية بين الله وععبده ، والمعنى ان الجهل بدين الله أو العلم به بلا عمل ضلال وظلم لا يجدي معه أي وصف يراه الناس نوراً وكمالاً كالجاه والمال، ومن أجل هذا قال الإمام: الغنى والفقير بعد العرض على الله .

(أوصيكم عباد الله الخ) .. أعطانا الله نعماً لا يبلغها الإحصاء ، ومنها اللباس الفاخر ، والطعام والشراب ، فعلينا أن نعطيه من أنفسنا ما أحب ، وإن كرهت .
(فلو ان أحداً يمجّد الخ) .. جمع الله لسليمان بن داود الملك والنبوة ، وسخر له الريح والطير والانس والجن ، فبنوا له ما أراد من هياكل وتمائيل وجفان كالجوابي وقصور راسيات .. وما انقضت أيامه حتى لُفّ بخرقه ودفن في حفرة ، وذهب سلطانه مع الريح التي كان يمتطيها في غدوه ورواحه .

(أين العالقة ؟) . قال أصحاب التواريخ : ان العالقة ينسبون الى عملاق ابن إرم بن سام بن نوح ، وانه كان لهم سلطان في اليمن والحجاز وما تاخم ذلك من أقاليم ، وقد أخنى عليهم الذي أخنى على هتلر وموسوليني . قال المسعودي : « بغوا في الأرض فسلط الله عليهم ملوك الأرض » . وأيضاً سلط الله على هؤلاء الملوك من أفنأهم ، وكذلك يسلط سبحانه على خلفاء هتلر وموسوليني ، وعلى كل باغية وطاغية « فهل ينظرون إلا سنة الأولين — ٤٣ فاطر » .

(أين أصحاب مدائن الرس الخ) .. قيل : الرس اسم بشر ، وإن أصحابه إذا جاءهم نبي ألقوه فيها . فأرسل الله عليهم ريحاً عاصفة ملتعبة سلقت أبدانهم ، وإن الأرض قلعتهم بمواد كبريتية متقدة فذابت أجسامهم ، ودمرت مدائنهم .

لبس للحكمة جنتها .. فقرة ٦ :

قَدْ لَيْسَ لِلْحِكْمَةِ جَنَّتًا . وَأَخَذَهَا بِجَمِيعِ أَدْبَارِهَا مِنَ الْإِقْبَالِ عَلَيْهَا
وَالْمَعْرِفَةِ بِهَا وَالتَّفَرُّغِ لَهَا . وَهِيَ عِنْدَ نَفْسِهِ ضَالَّةٌ الَّتِي يَطْلُبُهَا ،
وَحَاجَتُهُ الَّتِي يَسْأَلُ عَنْهَا . فَهُوَ مُعْتَرِبٌ إِذَا اغْتَرَبَ الْإِسْلَامُ ، وَضَرَبَ
بِعَسِيبِ ذَنْبِهِ ، وَأَلْصَقَ الْأَرْضَ بِجِرَائِهِ . بَقِيَّةٌ مِنْ بَقَايَا حُجَّتِهِ ،
خَلِيفَةٌ مِنْ خَلَائِفِ أَنْبِيَائِهِ (ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ) أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَدْ بَشَّرْتُ
لَكُمْ الْمَوَاعِظَ الَّتِي وَعَظَ الْأَنْبِيَاءُ بِهَا أُمَّتَهُمْ . وَأَدَّيْتُ إِلَيْكُمْ مَا أَدَّتِ

الْأَوْصِيَاءَ إِلَى مَنْ بَعْدَهُمْ . وَأَذْبَتُكُمْ بِسَوَاطِي فَلَمْ تَسْتَقِيمُوا . وَحَدَوْتُكُمْ
بِالزَّوْاجِرِ فَلَمْ تَسْتَوْثِقُوا . اللَّهُ أَنْتُمْ ! أَتَتَوَقَّعُونَ إِمَاماً غَيْرِي يَطَأُ بِكُمْ
الطَّرِيقَ ، وَيُرْشِدُكُمْ السَّبِيلَ ^(٦) ؟

اللغة :

الجئنة - بضم الجيم - الوقاية . والعسيب ، عظم الذنب . والجران من
البعير : مقدم عنقه ، يقال : ألقى البعير جرانه ، أي برك . فلم تستوثقوا :
لم تجتمعوا .

الإعراب :

بجرانه الباء زائدة ، وجرانه مفعول ألصق ، وبقية خبر لمبتدأ محذوف أي هو ،
ويجوز أن تكون خبراً ثانياً هو مغرب ، ولله أنتم اللام للتعجب .

المعنى :

(قد لبس للحكمة جئنتها) . يريد الإمام (ع) بهذا الوصف المؤمن العارف ،
ولا يريد إماماً غائباً أو ولياً حاضراً ، والمراد بالحكمة هنا مخافة الله ، كما جاء
في الحديث « رأس الحكمة مخافة الله » . أما جئنة الحكمة فقد فسرها الإمام
بقوله : (وأخذها بجميع أدبها الخ) .. أي عمل بموجبها ، وذلك بأن يخلص
الخائف لله ، ويتكل عليه وحده ، ويفوض الأمر إليه كله ، ويعمل بكل ما
أمر به ، وينتهي عن كل ما نهى عنه (والمعرفة بها) أي بأحكامها ومواردها
(والتفرغ لها) الانصراف عن الفضول والخوض فيما لا طائل نته .

(فهي عند نفسه ضالته الخ) .. الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أين وجدها ،
ومن أقوال الإمام : ان الحكمة تكون في صدر المنافق فتتلجلج - أي تتحرك -

في صدره حتى تخرج ، فتسكن الى صواحبيها في صدر المؤمن (فهو مغترب إذا اغترب الإسلام) . إذا كان الإسلام غريباً بين القوم الفاسقين فالؤمن أيضاً يكون غريباً بينهم ، كما هو الشأن في عصرنا حيث يسخر أكثر أبنائه من المحافظين على دين الآباء والأجداد .

(وضرب بعسيب ذنبه ، وألصق الأرض بجرائه) أي ان المسلم المخلص يكون بين القوم الفاسقين كالبعير الذي ألصق نحره في الأرض ، وضربها بذنبه ولا يستطيع التصرف في شيء سوى ذلك (بقية من بقايا حجته ، خليفة من خلائف أنبيائه) . الضمير في حجته وأنبيائه لله تعالى ، والمعنى ان ذاك المسلم المغترب هو بقية الذين يحتاج بهم سبحانه على خلقه ، وامتداد لأنبياء الله ورسله .

الدين تسلي ورفاهية :

(أيها الناس قد بثت لكم المواعظ الخ) .. وعظ الإمام أصحابه بمواعظ الله وأنبيائه بأسلوب العليم الحكيم ، ووعظهم وبالغ في النصيحة لا لمنفعة شخصية ، ولا حباً بالكلام ، أو إظهاراً للمقدرة ، أو لأن الوعظ مجرد وظيفة كخطبة الجمعة في المسجد ، أو خطبة الأحد في الكنيسة ، بل لشعوره بأنه مسؤول عنهم أمام ربه وضميره .. ومع هذا صموا الآذان ، ونفضوا الأيدي ، وهم على يقين من نصيح الواعظ ، وثقة بعلمه ودينه .

ولا عجب! فقد وعظ نوح قومه فقالوا له : لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين ، وأيضاً وعظ ابراهيم قومه فقالوا : حرّقه . وحاول بنو اسرائيل صلب السيد المسيح ، وحاولت قريش قتل محمد (ص). والذين قتلهم قومهم من الأنبياء لا يعلم عدتهم إلا الله .. والذنب الوحيد هو الوعظ والإرشاد .

وآمن النصارى بعبسى ، وقالوا : دينهم هو دين الانسانية والمحبة ، ثم ظهرت هذه المحبة من قبل في جرائم محاكم التفتيش ، وفي المذابح الصليبية ، وظهرت من بعد في هيروشيا وكوريا وافريقيا والهند الصينية . واليهود آمنوا بموسى وانه بُعث لمحاربة البغي في شخص فرعون الذي كان يستعبد رجالهم ونساءهم ، ويدبح أطفالهم .. وتمثل ايمان اليهود برسالة موسى في فظائع اسرائيل بفلسطين .. وأيضاً آمن المسلمون بمحمد (ص) وانه الخاتم لما سبق ، والفتاح لما استقبل ، وان الإسلام

هو دين القوة والحياة ، ودين العلم والحضارة ، والتعاون على البر والخير، وظهر كل ذلك جلياً في تناحر المسلمين وجهلهم وانحطاطهم وذلمهم وهوانهم .. حتى على الأذل الأحقر .

والسر ان الدين شيء ، وممارسته شيء آخر ، انه مجرد فكرة ونظرية عند المنتسبين اليه ، أو شعائر وكلمات جوفاء لا تعني شيئاً ، أو عادة وتقليد ، أو تسلية وترفيه ، أو ما شئت من التعبير على أن تدع كلمة التجاوب والتفاعل بين الدين والمنتسبين اليه .. حتى الذين يعلو صراخهم من أجل الدين ، ويتباكون عليه ، تشهد عليهم أفعالهم ، أو على أكثرهم ، أو الكثير منهم بأنهم بلا دين .

إخوان الإمام .. فقرة ٧ :

أَلَا إِنَّهُ قَدْ أَدْبَرَ مِنَ الدُّنْيَا مَا كَانَ مُقْبِلًا ، وَأَقْبَلَ مِنْهَا مَا كَانَ مُدْبِرًا ، وَأَزْمَعَ التَّرَحَالَ عِبَادُ اللَّهِ الْأَخْيَارُ ، وَبَاْعُوا قَلِيلًا مِنَ الدُّنْيَا لَا يَبْقَى بِكَثِيرٍ مِنَ الْآخِرَةِ لَا يَفْنَى . مَا ضَرَّ إِخْوَانَنَا الَّذِينَ سَفِكَتْ دِمَاؤُهُمْ وَهُمْ يَصِفُّينَ أَنْ لَا يَكُونُوا الْيَوْمَ أَحْيَاءَ ؟ يُسَيِّغُونَ الْغُصَصَ وَيَشْرَبُونَ الرِّيقَ . قَدْ وَاللَّهِ لَقُوا اللَّهَ فَوَقَّاهُمْ أَجُورَهُمْ ، وَأَحْلَهُمْ دَارَ الْأَمْنِ بَعْدَ خَوْفِهِمْ . أَأَيْنَ إِخْوَانِي الَّذِينَ رَكَبُوا الطَّرِيقَ وَمَضَوْا عَلَى الْحَقِّ ؟ أَأَيْنَ عَمَّارُ ؟ وَأَيْنَ ابْنُ التَّيَّهَانِ ؟ وَأَيْنَ ذُو الشَّهَادَتَيْنِ ؟ وَأَيْنَ نَظَرَاؤُهُمْ مِنْ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ تَعَاقَدُوا عَلَى الْمَنِيَّةِ ، وَأُبْرِدَ بِرُؤُوسِهِمْ إِلَى الْفَجْرَةِ . (قَالَ ثُمَّ ضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى لِحْيَتِهِ الشَّرِيفَةِ الْكَرِيمَةِ فَأَطَالَ الْبُكَاءَ ، ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ) : أَوْهٍ عَلَى إِخْوَانِي الَّذِينَ تَلَوْا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ ، وَتَدَبَّرُوا الْفَرَضَ فَأَقَامُوهُ ، أَحْيَاوُا السُّنَّةَ وَأَمَاتُوا الْبِدْعَةَ .

دُعُوا لِلْجِهَادِ فَأَجَابُوا ، وَوَثِقُوا بِالْقَائِدِ فَأَتَّبَعُوهُ (ثُمَّ نَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ) :
الْجِهَادَ الْجِهَادَ عِبَادَ اللَّهِ . أَلَا وَإِنِّي مُعَسِّكِرٌ فِي يَوْمِي هَذَا فَمَنْ أَرَادَ
الرَّوَّاحَ إِلَى اللَّهِ فَلْيَخْرُجْ^(٧) .

اللغة :

أزمع : عزم . والرنق : الكدر .

الإعراب :

قليلاً صفة لمفعول محذوف أي باعوا متاعاً قليلاً ، ما ضر « ما » استفهام
لِلإنكار ، ومحلها الرفع بالابتداء ، واخواننا مفعول ضر ، والمصدر من أن لا
يكونوا فاعل ، واوه اسم فعل بمعنى أتوجع .

المعنى :

(تقد أدبر من الدنيا ما كان مقبلاً ، وأقبل منها ما كان مدبراً) . أدبر
الضلال والجاهلية ، وأقبل الهدى والنور في عهد رسول الله (ص) ولما حكم معاوية
الشام ، وصار له رجال وأتباع أدبر الهدى والرشاد ، وأقبل الضلال والفساد .
قال ابن أبي الحديد : « روى أبو عبد الله البصري في كتابه «نقض السفينية» على
الجاحظ أخباراً كثيرة تدل على أن معاوية مطعون في دينه ، وروى أحمد بن
أبي طاهر في كتاب «أخبار الملوك» : ان معاوية سمع المؤذن يقول : أشهد ان
لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله فقال : لله أبوك يا ابن عبد الله لقد كنت
عالي الهمة ، وما رضيت لنفسك إلا أن يقرن اسمك باسم رب العالمين » . قاس
معاوية نفس رسول الرحمة على نفسه فخطبه بما يهتز له العرش .
(وأزمع الترحال عباد الله الأخياو — الى — لا تفنى) يشير بهذا الى اخوان
له في الدين ، وانهم ذهبوا الى ربهم راضين مرضين ، وكنى عن انقضاء أجلهم

بالعزم على الرحيل الى الله، لأنهم آثروا الآجلة على العاجلة ، والباقية على الفانية ، وبعد قليل يذكر أسماء بعضهم (ما ضر اخواننا - الى - بعد خوفهم) .
استشهد بعض إخوان الإمام بصفين في سبيل الله فقال : هنيئاً لهم ، لقد استراحوا من المأزق الحرج الذي أعانيه من تفرق الكلمة وشتات الرأي .. انهم الآن في جوار ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله « جاورت أعدائي وجاور ربه * شتان بين جواره وجواري » .

لا يموت على الحق إلا المجاهدون :

(أين إخواني الذين ركبوا الطريق) القويم ؟ (ومضوا على الحق) أي قاتلوا من أجل الحق ، وقتلوا في سبيله ، ومهما شككت فإني لا أشك أبداً في أن ما من أحد يموت ويمضي على الحق إلا إذا جاهد الطغاة أو كان على نية جهادهم .. وليس من الضروري أن يجاهد بالسيف ، فجهاد كل بحسبه ، فالتشهير بالظالم وإذاعة أهدافه واسوائه جهاد ، وكذلك الوقوف بجانب المجاهدين ، والتحسس بأنهم على حق ، ومن الجهاد أيضاً الإعراض عن طغي وبغي ، والكف عن تأييده وانتخابه لمنصب من المناصب . قال الرسول الأعظم (ص) « من مات ولم يغز ، ولم يحدث نفسه بغزو مات ميتة جاهلية » وهذا الحديث يحمل في ثناياه الدليل على صحته ، ويعززه قوله ، عز من قائل : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم - ١٥ الحجرات » . وكلمة « إنما » حصرت الإيمان بهذه الأركان ، ومنها الجهاد بالنفس والمال ، فهو تماماً كالإيمان بالله ورسوله. ولا بد من الإشارة الى أن الكدح في سبيل الأهل والعيال ، والدفاع عن المال الحلال ، وبذل الجهد في طلب العلم ، وكيح النفس عن الحرام ، كل أولئك جهاد في سبيل الله ، وأفضل أنواع الجهاد كلمة عدل عند إمام جائر ، أما الحج فقد كان جهاد كل ضعيف في عصر الجمل والدواب لا في عصر الطائرة والسيارة .

(أين عمار) بن ياسر ، أسلم هو وأبوه وأمه ، وكان المشركون يخرجونهم الى مسيل ماء فيه الحصى ، ويسمى الأبطح ، فإذا حميت الرمضاء عذبوهم بحرّها ، ومر النبي (ص) ذات يوم ، وهم يُعذَّبون . فقال صبراً آل ياسر : فإن موعدكم الجنة ، فمات ياسر في العذاب ، وهو أول شهيد في الإسلام ، وطعن

أبو جهل أم عمار في المكان الحساس ، وقيل وكله برجله حتى ماتت ، وهي أول شهيدة في الإسلام ، أما عمار فعذبوه بالتغريق في الماء تارة ، وبوضع صخرة على صدره أخرى .. ولكن الله أرجأ قتله الى يوم صفين ، ليميز بقتله الفئة الباغية عن الفئة المؤمنة العادلة .

(وأين ابن التيهان) ؟ واسمه مالك ، وهو صحابي جليل ، وله العديد من السوابق والمناقب ، منها أنه أول من بايع رسول الله من الأنصار ليلة العقبة وقبل الهجرة ، كما جاء في كتاب « الاستيعاب » لابن عبد البر ، ومنها انه كان أحد النقباء الذين اختارهم الأنصار ليلة العقبة^١ . ومنها انه شهد بدرأ وغيرها مع رسول الله (ص). وفي كتاب « الاستيعاب » وغيره: انه استشهد بصفين مع الإمام . (وأين ذو الشهادتين ؟) هو خزيمة بن ثابت الأنصاري من الأوس ، وفي الاستيعاب لابن عبد البر : « شهد خزيمة بدرأ وما بعدها من المشاهد ، وكان مع علي في حرب الجمل وصفين ، فلما قُتل عمار قال : سمعت رسول الله (ص) يقول : تقتل عماراً الفئة الباغية ، ثم سل سيفه فقاتل حتى قُتل » . وجعل رسول الله شهادته بشهادتين ، وقد غلب عليه هذا الاسم ، وقيل في سبب ذلك: ان اعرابياً باع فرساً لرسول الله (ص) ثم ندم ، وأنكر البيع ، وقال للرسول: أين شاهدك على البيع ؟ فشهد خزيمة بأن الاعرابي باع فرسه للنبي . فقال له النبي أكنت حاضراً عند البيع يا خزيمة ؟ فقال : لا يا رسول الله ، ولكن هل أصدقك بما جئت به عن الله ، ولا أصدقك على هذا الاعرابي الخبيث ؟. فقال له النبي (ص) : شهادتك شهادة رجلين .

(وأين نظائرهم الخ) .. كان مع الإمام في صفين ٢٨٠٠ من الصحابة ، منهم ٨٧ من البدرين و ٩٠٠ ممن شهد بيعة الرضوان التي أشارت اليها الآية ١٨ من سورة الفتح ، وكان الصحابة قد تعاهدوا على الموت مع الإمام ، وقُتل منهم غير قليل، وأرسلت رؤوسهم مع البريد الى الأشرار والفجار (أوه على إخواني الخ) ..

١ كان النبي يعرض نفسه على القبائل ، وفي احد المواسم التقى بستة من الخزرج ولما كلمهم أسلموا ، فجاءوه في العام التالي ومعهم مثلهم ، وبايع الاثنا عشر النبي عند العقبة ، وتسمى هذه بيعة العقبة الصغرى ، وعادوا في العام الذي يليه مع آخرين ، وبلغ الجميع سبعين ، وبايعوا النبي عند العقبة ايضاً على السمع والطاعة في اليسر والعسر ، وتسمى هذه بيعة العقبة الكبرى .

يتأوه الإمام ويتوجع على الصفوة من الصحابة الأخيار الذين عملوا بكتاب الله، واستنوا بسنة رسول الله ، واستشهدوا بصفين في سبيل الله .

(وثقوا بالقائد فاتبعوه) وافتدوه بأرواحهم مغتربين مسرورين ، لأنهم رأوا في قائدهم أمير المؤمنين علم رسول الله وأمانته ، وهدية وسيرته . قال أحمد عباس صالح في كتاب « اليمين واليسار في الإسلام » : كان علي واسع الشعبية ، لأنه امتداد لرسول الله (ص) وان كان معاوية استطاع أن يختار من بين أنصار علي من لديه قابلية الخيانة بحكم الوضع الطبقي ، والمصلحة الطبقية .

(الجهاد الجهاد الخ) .. روي ان هذه الخطبة آخر خطب الإمام، وانه كان قد صمم على العودة الى صفين لحرب معاوية مهما كلفه الأمر ، فحث أصحابه على الجهاد ، وأخبرهم بعزمه ، وقال لهم : (فمن أراد الرواح الى الله فليخرج) فاستجاب له من استجاب ، ولكن شاء الله سبحانه أن يريجه من هموم الناس وشقاقهم ونفاقهم ، فاختاره اليه قبل أن يستأنف الحرب .

الخطبة

- ١٨١ -

الله والقرآن .. فقرة ١ - ٣ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ ، وَالْخَالِقِ مِنْ غَيْرِ مَنْصَبَةٍ . خَلَقَ
الْخَلَائِقَ بِقُدْرَتِهِ ، وَأَسْتَعْبَدَ الْأَرْبَابَ بِعِزَّتِهِ ، وَسَادَ الْعُظَمَاءَ بِجُودِهِ .
وَهُوَ الَّذِي أَسْكَنَ الدُّنْيَا خَلْقَهُ ، وَبَعَثَ إِلَى الْإِنْسِ رُسُلَهُ
لِيَكْشِفُوا لَهُمْ عَنْ غَطَائِهَا ، وَلِيُحَذِّرُوهُمْ مِنْ ضَرَائِهَا ، وَلِيَضْرِبُوا لَهُمْ
أَمْثَالَهَا ، وَلِيُبَيِّنُوا لَهُمْ غُيُوبَهَا ، وَلِيَهْجُمُوا عَلَيْهِمْ بِمُغْتَبِرٍ مِنْ تَصَرُّفِ
مَصَاحِبِهَا وَأَسْقَامِهَا ، وَحَلَالِهَا وَحَرَامِهَا . وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ لِلْمُطِيعِينَ مِنْهُمْ
وَالْعَصَاةِ مِنْ جَنَّةٍ وَنَارٍ وَكَرَامَةٍ وَهَوَانٍ . أَحْمَدُهُ إِلَى نَفْسِهِ كَمَا أَسْتَخْدِمَهُ
إِلَى خَلْقِهِ جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ، وَلِكُلِّ قَدَرٍ أَجَلًا ، وَلِكُلِّ أَجَلٍ
كِتَابًا^(١) . فَالْقُرْآنُ أَمْرٌ زَاجِرٌ ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ . حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى
خَلْقِهِ . أَخَذَ عَلَيْهِمْ مِيثَاقَهُ . وَأَرْزَنَ عَلَيْهِ أَنْفُسَهُمْ . أَتَمَّ نُورُهُ ،

وَأَكْمَلَ بِهِ دِينَهُ ، وَقَبَضَ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَقَدْ فَرَغَ إِلَى
الْخَلْقِ مِنْ أَحْكَامِ الْهُدَى بِهِ . فَعَظَّمُوا مِنْهُ سُبْحَانَهُ مَا عَظَّمُوا مِنْ
نَفْسِهِ . فَإِنَّهُ لَمْ يُخْفِ عَنْكُمْ شَيْئًا مِنْ دِينِهِ . وَلَمْ يَتْرِكْ شَيْئًا رَضِيَهُ أَوْ
كَرِهَهُ إِلَّا وَجَعَلَ لَهُ عِلْمًا بَادِيًا وَآيَةً مُحْكَمَةً تَزُجُّرُ عَنْهُ أَوْ تَدْعُو
إِلَيْهِ . فَرِضَاهُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ ، وَسَخَطُهُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ^(٢) . وَأَعْلَمُوا
أَنَّهُ لَنْ يَرْضَى عَنْكُمْ شَيْءٌ سَخِطَهُ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، وَلَنْ يَسْخَطَ
عَلَيْكُمْ شَيْءٌ رَضِيَهُ يَمِّنْ كَانَتْ قَبْلَكُمْ ، وَإِنَّمَا تَسِيرُونَ فِي أَثَرِ بَيْنِ ،
وَتَسْكُمُونَ بِرَجْعِ قَوْلٍ قَدْ قَالَهُ الرُّجَالُ مِنْ قَبْلِكُمْ . قَدْ كَفَاكُمْ
مَوْوَنَةً دُنْيَاكُمْ ، وَحَثَّكُمْ عَلَى الشُّكْرِ ، وَأَفْتَرَضَ مِنَ أَلْسِنَتِكُمْ
الذِّكْرَ . وَأَوْصَاكُمْ بِالتَّقْوَى وَجَعَلَهَا مُنْتَهَى رِضَاهُ وَحَاجَتَهُ مِنْ خَلْقِهِ .
فَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بَعِينُهُ وَتَوَاصِعُكُمْ بِيَدِهِ ، وَتَقَلُّبُكُمْ فِي قَبْضَتِهِ .
وَإِنْ أَسْرَرْتُمْ عِلْمَهُ ، وَإِنْ أَعْلَنْتُمْ كِتْبَهُ . قَدْ وَكَّلَ بِذَلِكَ حَفَظَةً كِرَامًا
لَا يُسْقِطُونَ حَقًّا ، وَلَا يُثْبِتُونَ بَاطِلًا^(٣) .

اللغة :

منصبه : من النصب ، وهو التعب . وهجم عليه : انتهى اليه بغتة . ومعتبر :
من الاعتبار بمعنى الاتعاظ . والتصرف : الانتقال من حال الى حال . والمصحح :
من الصحة ضد السقم والمرض . واستحمد : طلب الحمد .

الإعراب ::

المصدر من « ان » المضمرة بعد اللام في ليكشفوا متعلق ببعث ، وكذلك ليحذروا وليضربوا الخ . وأمر وزاجر وصامت ناطق كلها أخبار عن القرآن .

المعنى :

(الحمد لله المعروف) بآياته لا بداته (من غير رؤية) البصر وإلا كان محسوساً (والخالق من غير منصفة) .. أبداً لا جهد ولا رهاق ، بل ولا جولة فكر ، لا شيء إلا الإرادة وحدها (خلق الخلائق بقدرته) ولا تفسير لهذه القدرة إلا بما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، كما هو شأن الكمال المطلق (واستعبد الأرباب بعزته) قهر بسلطانه كل عزيز وعنيد (وساد العظماء بجوده) أي لا يثلمه العطاء .. وإلا فلا عظماء بالنسبة إليه تعالى ولا رؤساء (وهو الذي أسكن - الى - عيوبها) . خلق العباد وأسكنهم في ملكه ، وأرسل اليهم معلمين ومرشدين يأمرهم الى الصالحات وفعل الخيرات .

(وليهمجوا عليه بمعتبر من تصرف مصاحبا واسقامها ، وحلالها وحرامها) . المراد بالهجوم هنا البيان بأسلوب تقشعر منه الجلود ، وتلين له القلوب ، وذلك بأن يكشف الأنبياء للناس عن حقيقة الدنيا وأطوارها ، وعاقبة من ركن إليها ، وأن يضربوا لهم الأمثال من حياة الأمم الماضية والقرون الخالية ، ويبينوا لهم أن الله سبحانه ينجبهم بحلاله وحرامه ، وأيضاً يبينوا لهم (ما أعد الله للمطيعين منهم والعصاة الخ) .. كل امرئ بما كسب رهين ، ان خيراً فخير ، وإن شراً فشر (أحمده الى نفسه كما استحمد الى خلقه) . الإمام يحمد الله حمداً يكون به عند الله مرضياً ومحموداً ، لأنه على وفق ما أحب سبحانه وأراد .

(وجعل لكل شيء قدراً) . المراد بالقدر هنا إيجاد الشيء على وضع خاص كماً وكيفاً ، والمعنى ان ما من شيء كبر أم صغر يصدر عن الله عبثاً أو سهواً ، بل عن علم وإرادة ، وعلى مقتضى الحكمة والمصلحة : « ان الله بالغ أمره قد جعل لكل شيء قدراً - ٣ الطلاق » . (ولكل قدر أجلاً) لا يتقدم عليه ، ولا يتأخر عنه « ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون - ٥ الحجر » . (ولكل أجل كتاباً) أي ان كل أجل الى انتهاء « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك

ذو الجلال والإكرام . ومن أقوال الإمام : « ان لكل أجل وقتاً لا يعدوه »
فقد جعل لغاية الوقت وقتاً .

(فالقرآن أمر زاجر) . يأمر بالخير والصالح ، ويزجر عن الشر والفساد
(وصامت ناطق) . يكون التعبير باللفظ والكتابة والإشارة ، وبالرسم والرقص
والموسيقى والنحت ، وبالأثار والأفعال ، وهي أسبق من اللفظ ، واللفظ أسبق
من الكتابة ، فالطفل يتكلم قبل أن يكتب ، والقرآن صامت حيث لا صوت له
يقرع الأسماع ، وهو ناطق ، لأن لغته هي نفس اللغة المملوطة ، وقد دُوت
على نظام وأصول يعرفها كل قارئ تماماً كما لو سمعها بأذنيه (حجة الله على
خلقه) . يحتاج سبحانه بالقرآن على عباده ، لأنه يحمل في ثناياه البرهان على ان
كل ما فيه حق وصدق .

(أخذ عليه ميثاقه) . الضمير المستتر في أخذ الله تعالى ، وضمير « عليه »
للخلق ، وضمير ميثاقه للقرآن ، والمعنى ان الله سبحانه أخذ على عباده بواسطة
نبيه الكريم أن يعملوا بالقرآن (وارثين عليهم أنفسهم) . أرواح العباد كلها في
قبضة الله رهينة على الوفاء بحقه تعالى وطاعته ، فمن أدى هذا الحق كاملاً سلم
ونجا من غضب الله وعذابه ، ومن قصر وأهمل فهو من الهالكين (أتم نوره ،
وأكمل دينه) . أتم وأكمل عطف تفسير ، وكذلك نوره ودينه ، والمعنى ان
في القرآن الكريم تبيان كل شيء يُصلح البشرية ، ويحل مشكلاتها .

(وقبض نبيه (ص) الخ) .. بُعث محمد (ص) الى البشرية جمعاء بالهدى
ودين الحق ، وبعد أن أنهى مهمته هذه على وجهها اختاره الله الى جواره
ورضوانه (فعظموا منه سبحانه ما عظم من نفسه) كالإيمان بعدله ورحمته ،
وتنزيهه عن الشرك والظلم ، وانه على كل شيء قدير ، وغني وخبير .. الى ما
جاء في كتابه تعالى من صفات الكمال والجلال (فإنه لم يُخف عنكم - الى -
تدعو اليه) . بيّن ، جلت حكمته ، في كتابه وعلى لسان نبيه جميع ما يجب
وما يكره ، ونهى عن هذا ، وأمر بذلك (فرضاه فيما بقي واحد ، وسخطه
فيما بقي واحد) . المراد بما بقي ما لا نص فيه ، وحكمه لا يتغير ، فهو حلال
يرضى الله بفعله إن لم يكن فيه ضرر وفساد بجهة من الجهات ، وإلا فهو محرم
يسخط الله على فاعله ويغضب .

(واعلموا انه لن يرضى - الى - قبلكم) ما كان حراماً في عهد رسول الله فهو حرام الآن وإلى آخر يوم ، وكذلك الحلال ، وتقدم مثله مع الشرح في الخطبة ١٧٤ (وانما تسيرون في اثر الخ) .. الأحكام واحدة ، وأدلتها واحدة ، وعلى الخلف أن يسير فتوى ودليلاً على سيرة السلف الصالح من العلماء . وإن قال قائل : ولماذا كل هذا الضغط علينا من السلف والدوران في فلانهم ؟ قلنا في جوابه : الضغط هنا للدين والحق لا للسلف ، والدوران إنما هو في فلكه لا في فلكهم ، وإن انحرفوا عن الدين والحق ملنا عنهم ، وقد روى أهل البيت (ع) عن جدهم (ص) : إن ما خالف كتاب الله فهو زخرف .. وانه لا قول بلا عمل ، ولا عمل بلا نية ، ولا نية إلا بإصابة الكتاب والسنة .

(قد كفناكم مؤونة دنياكم) أي مهد لكم الطريق إلى الرزق ، ودلكم عليه بالحث على العمل بشئى الأساليب ، منها قوله : « فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله - ١٠ الجمعة » . « فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه - ١٥ الملك » . (وحثكم على الشكر الخ) .. أنعم سبحانه على عباده ، وأراد منهم أن يستشعر نعمه وعطاءه بقلوبهم ، ويشكروه عليها بألسنتهم ، ويخضعوا بالركوع والسجود بين يديه ، وأن يطيعوه في كل ما يفعلون ويتركون ، والغرض الأول والأخير من ذلك كله هو التربية والتنشئة على الخضوع لله وحده ، لا لأحد من الناس ، والاعتصام به تعالى لا بغيره ، وأخذ الحق من كتاب الله وسنة نبيه .

(ونواصيكم بيده الخ) .. لا أحد يملك مع الله شيئاً حتى نفسه ، فهو وحده تعالى المالك القاهر لكل شيء ، العالم بكل شيء .. ونحن نعلم ذلك بلا ريب ، وأيضاً نعلم ان الله شرعاً نافذاً ، وانه تعالى يحاسب ويعاقب ، ومسع هذا نفتحم حماه ، ونتجاوز حدوده ، وصدق الله العظيم : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوماً جهولاً - ٧٢ الأحزاب » .

بن طابقين من نار .. فقرة ٤ - ٧ :

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً مِنَ الْفِتَنِ وَتُوراً مِنَ الظُّلُمِ ،

وَيُخَلِّدُهُ فِيهَا أَشْتَهَتْ نَفْسُهُ ، وَيُنْزِلُهُ مَنْزِلَ الْكَرَامَةِ عِنْدَهُ . فِي دَارٍ
 أَصْطَنَعَهَا لِنَفْسِهِ . ظِلًّا عَرْشُهُ . وَنُورًا بَهْجَتُهُ . وَزُورًا مَلَايِكَتُهُ .
 وَرُقُفًاوَهَا رُسُلُهُ . فَبَادِرُوا الْمَعَادَ . وَسَابِقُوا الْأَجَالَ . فَإِنَّ النَّاسَ
 يُوشِكُ أَنْ يَنْقَطِعَ بِهِمُ الْأَمَلُ ، وَيَرْتَهَقَهُمُ الْأَجَلُ ، وَيَسُدَّ عَنْهُمْ بَابُ
 التَّوْبَةِ . فَقَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي مِثْلِ مَا سَأَلَ إِلَيْهِ الرَّجْعَةُ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ .
 وَأَنْتُمْ بَنُو سَبِيلٍ عَلَى سَفَرٍ مِنْ دَارٍ لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ ، وَقَدْ أُوذِنتُمْ
 مِنْهَا بِالْإِرْتِحَالِ ، وَأَمَرْتُمْ فِيهَا بِالزَّادِ^(٤) . وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ لِهَذَا
 الْجِلْدِ الرَّقِيقِ صَبْرٌ عَلَى النَّارِ ، فَارْتَحِمُوا أَنْفُسَكُمْ فَإِنَّكُمْ قَدْ جَرَّبْتُمُوهَا
 فِي مَصَائِبِ الدُّنْيَا . أَفَرَأَيْتُمْ جَزَعَ أَحَدِكُمْ مِنَ الشَّوْكَةِ تُصِيبُهُ ،
 وَالْعَثْرَةِ تُذِمِّيهِ . وَالرَّمْضَاءِ تُحْرِقُهُ ؟ فَكَيْفَ إِذَا كَانَ بَيْنَ طَائِفَتَيْنِ
 مِنْ قَارٍ ، صَجِيعَ حَجَرٍ وَقَرِينِ شَيْطَانٍ . أَعَلَيْتُمْ أَنْ مَالِكًا إِذَا
 خَضِبَ عَلَى النَّارِ حَطَمَ بَعْضُهَا بَعْضًا لِعُصْبِهِ ، وَإِذَا زَجَرَهَا تَوَلَّيَتْ
 بَيْنَ أَبْوَابِهَا جَزَعًا مِنْ زَجَرَتِهِ^(٥) . أَتَيْهَا الْيَفْنُ الْكَبِيرُ الَّذِي قَدْ لَهَزَهُ
 الْقَتِيرُ ، كَيْفَ أَنْتَ إِذَا التَّحَمَّتْ أَطْوَأُ النَّارِ بِعِظَامِ الْأَعْنَاقِ !
 وَتَشَبَّتِ الْجَوَامِعُ حَتَّى أَكَلَتْ لُحُومَ السَّوَاعِدِ . قَالَ اللَّهُ مَعْشَرَ الْعِبَادِ
 وَأَنْتُمْ سَالِمُونَ فِي الصَّحَّةِ قَبْلَ السُّقْمِ . وَفِي الْفُسْحَةِ قَبْلَ الضِّيقِ .
 فَاسْعَوْا فِي فِكَالِكِ رِقَابِكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَغْلِقَ رَهَائِنُهَا . أُسِرُّوا عُيُونَكُمْ ،
 وَأَخْضِرُّوا بُطُونَكُمْ وَاسْتَغْمِلُوا أَقْدَامَكُمْ^(٦) ، وَأَنْفِقُوا أَمْوَالَكُمْ ، وَخُذُوا

مِنْ أَجْسَادِكُمْ وَجُودُوا بِهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، وَلَا تَبْخُلُوا بِهَا عَنْهَا فَقَدْ
 قَالَ اللَّهُ سُبحَانَهُ : « إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » .
 وَقَالَ تَعَالَى : « مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ
 وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ » . فَلَمْ يَسْتَنْصِرْكُمْ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَمْ يَسْتَقْرِضْكُمْ مِنْ
 قُلٍّ ، اسْتَنْصَرَكُمْ وَلَهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .
 وَاسْتَقْرِضْكُمْ وَلَهُ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ .
 أَرَادَ أَنْ يَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا . فَبَادِرُوا بِأَعْمَالِكُمْ تَكُونُوا مَعَ
 جِيرَانِ اللَّهِ فِي دَارِهِ . رَافَقَ بِهِمْ رَسُولَهُ ، وَأَذَارَهُمْ مَلَائِكَتُهُ ، وَأَكْرَمَ
 أَسْمَاعَهُمْ أَنْ تَسْمَعَ حَسِيسَ قَارٍ أَبَدًا ، وَصَانَ أَجْسَادَهُمْ أَنْ تَلْقَى
 لُغُوبًا وَنَصَبًا « ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ »
 أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى نَفْسِي وَأَنْفُسِكُمْ ، وَهُوَ حَسْبِي
 وَنِعْمَ الْوَكِيلُ^(٧) .

اللغة :

اليغن — بفتح الياء والفاء — المسن الذي بلغ من عمره أقصاه . ولهن : خالط .
 والقتير : الشيب . وغلقت الرهن : عجز الراهن عن افئكاكه في الأجل المضروب .
 والحسيس : الصوت الخفي . والنصب : التعب ، واللغب أشده ، وتطلق عليه
 كلمة الإعياء .

الإعراب :

جزعاً مفعول من أجله لتوثبت . والله الله نُصب على التحذير أي أُنذركم أو خافوا الله ، وعملاً في قوله « أحسن عملاً » تمييز ، وتكونوا مجزوم لأنه جواب بادروا ، وأبدأ نصب على الظرفية ، والمصدر من أن تلقى مجرور بمن محذوفة أي صان أجسامهم من لقاء التعب والإعياء .

المعنى :

(من يتق الله يجعل له مخرجاً من الفتن) . من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، يبتعد تلقائياً عن المزالق والمهالك ، ومنها الفتن وأسبابها (ونوراً من الظلم) الهوى يكشف نور الدين والعقل ، والورع يكبح الهوى ، ويردعه عن تجاوز الحدود ، وعندئذ ينتفع المتورع والمتقي بنور عقله وإيمانه (ويخلده فيما اشتدت — الى — رسله) . المراد من « ظلها عرشه » حياة الأمان والاستقرار ، ومن « نورها بهجته » الفرح والمسرّة ، والمعنى: إن من يتق الله يأمن في الدنيا من شر الفتن ، وله في الآخرة ما تشتهي الأنفس وتلد الأعين في صحبة الأنبياء والصالحين والملائكة المقربين .

(فبادروا المعاد — الى — التوبة) . الأيام تمر كالريح ، وتأخذ معها أعماركم وأعز الأشياء عليكم ، فلا تضيعوا منها ثانية باللهو والأباطيل ، وبادروا اللحظات بالتوبة والعمل الصالح ، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً (فقد أصبحتم في مثل ما سأل اليه الرجعة من كان قبلكم) . أنتم الآن في فسحة من العمر يمكنكم أن تعملوا ليوم الفزع الأكبر ، وإن لم تبادروا الفرصة ذهبت كما ذهب أمس من العمر ، وندمت حيث لا ينفع الندم ، وأصابكم ما أصاب الذي قال — من قبل — لما جاءه الموت : « رب ارجعون لعليّ أعمل صالحاً فيما تركت . كلا انها كلمة هو قائلها — ١٠٠ المؤمنون » . (وأنتم بنو سبيل — الى الزاد) . ومثله تماماً ما جاء في الخطبة ٢٠١ : إنما الدنيا دار مجاز ، والآخرة دار قرار ، فخذوا من ممركم لمقركم .

أعلى الأصوات في نهج البلاغة :

(واعلموا أنه ليس لهذا الجلد الرقيق صبر على النار الخ) .. لا تكاد تمر خطبة من خطب النهج إلا وتقرأ فيها واحداً من ثلاثة ، أو اثنين ، أو هي مجتمعة : ذكر الله سبحانه بالحمد وتعظيمه بأسمائه الحسنى ، وصفات الكمال ، وذكر رسول الله (ص) والثناء عليه بالمقام المحمود عند الله ، وبما أسداه للإنسانية من نور وهداية ، والثالث الحديث عن الدنيا وغرورها ، والموت وسكرته ، والقبر ووحشته ، والحشر وأهواله ، والحساب ونقاشه ، والعذاب وشدته .. فأى موضوع يتحدث عنه ينتقل منه — في الغالب — الى التحذير والتخويف من الدنيا والآخرة معاً .

شرحت أول خطبة تضمنت هذا الموضوع ، شرحت وفسرت بما تهيأ لي من صياغة وتركيب ، وجاءت الثانية ، وفيها نفس الموضوع بأسلوب آخر ، فشرحتها بأسلوب آخر ، ثم الثالثة والرابعة .. الى عشرات ، فوقفت حائراً : هل أكرر ما سبق ، كما فعل غيري من الشارحين ، أو أحيل على ما تقدم ، أو أشرح بأسلوب عاشر أو حادي عشر ؟ ومن أين ؟ « فأفنيت علاتي فاذا أقول ؟ » وقد اكرر مع التلخيص أو أحيل ، أو أتكلف وأتعسف .

ان في كتاب الله العديد من الموضوعات ، ومنها الدنيا وزخرفها ، والجنة ونعيمها ، والنار وجحيمها ، وكذلك نهج الإمام ، كما أشرت في المقدمة ، ولكن التخويف من عذاب الله هو أعلى الأصوات في خطب النهج ، وأكثرها قسوة وحاسماً ، وما التخويف والتحذير من الدنيا إلا وسيلة لانتقاء عذاب الله .. إن صوت النهج وهو يتحدث عن هذا العذاب يهزك من الأعماق ، وتحس معه كأنك في قلب الجحيم ، والسر ان الإمام يشارك الناس ، كل الناس ، في آلامهم ، ويشفق عليهم من نار الله ، وهو أعلم بها وبحقيقتها حتى كأنه يقاسيها ويعانيها ، وهو في الحياة الدنيا .

بهذا وحده نجد التفسير الصحيح لكلمات الإمام اللاهبة ، وهو يتحدث عن غضب الله وعذابه .. انه يشفق على هذا الجسم الضعيف ، والجلد الرقيق ، تدميه العثرة ، وتؤلمه الشوكة ، وتحرقه حرارة الشمس ، فكيف يكون حاله اذا أوقدت النار من فوقه ومن تحته ؟. يسخرها مالك الموكل بها ، ويزجرها بغضبه فترمي

بشر كالقصر كأنه جمالة صُفر .. وهو الى هذا ضجيع أحجار من الكبريت ،
 وقرين لشياطين الإنس والجن .. نار وأحجار ، وشياطين .. الى ما يفوق التصور .
 ولماذا كل ذلك ؟. الجواب : انه قليل ويسير ، وينبغي أن يضاعف أضعافاً كثيرة
 لمن أفسد على الناس حياتهم ، ونهب أقواتهم ، وألقى بقنابله على الآمنين، ولوث
 الجو ودم الانسان والحيوان بقنابله الذووية وتفجيرها .. حتى الزرع والأشجار
 والصخور والأحجار تأثرت بهذه السموم ، واختل التوازن الطبيعي بين الكائنات
 في كثير من المناطق ، وقال أهل الاختصاص : ستعم الكارثة العالم بكامله ، إن
 تكررت هذه الجريمة واستمرت .

(أيها اليغن الكبير الخ) .. خص الإمام الشيخ الفاني بالسؤال عن حاله حين
 تحاصره النار من كل جانب تشوي لحمه ، وتحرق عظمه ، خصه بهذا السؤال
 لقيام الحجة عليه من نفسه ، وتراكم علله وأوجاعه (فآله الله معشر العباد - الى -
 لا تبخلوا بها عنها) . اذا كانت عاقبة التسوييف والإهمال هي النار فعلى كل عاقل أن
 يسعى في تحريره وفكاك رقبتة من العذاب بعفة بطنه وفرجه عن الحرام ، وبالسعي
 والجهاد في سبيل الصالح العام ، ومن يجاهد من أجل الحق والعدالة يأخذ من الله
 والناس أكثر مما يعطي .

(قال سبحانه ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم - ٧ محمد) أي ان
 جاهدتم يداً واحدة ، وصبرتم صبر الأحرار ينصركم الله على عدوه وعدوكم ،
 ويثبت أقدامكم في جهاده وقتاله ، أما إذا تنازعتم ونكصتم عن الجهاد فإن الله
 يخذلكم ويذهب ريحكم .. وأيضاً إن عملتم في الحقل أو المصنع أو المتجر أو المكتب
 يرزقكم من فضله ، وهكذا كل من سار على سبيل انتهت به الى غايتها ، وحين
 سار المسلمون على طريق الشهادة كتب الله لهم السعادة ، ولما ساروا على طريق
 الجبن والشتات كتب عليهم الدل والانحطاط .

وقال سبحانه : من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً
 كثيرة - ٢٤٥ البقرة) . لا غنى إلا من الله وبالله ، فهو سبحانه مصدر
 الجود والفيض ، يعطي من سأله ومن لم يسأله تفضلاً منه وكرماً ، ولكن يشترط
 على من أعطاه أن ينفق من مال الله على المعوزين من عيال الله لمجرد الامتحان
 والاختبار تماماً كما وهب الانسان القدرة والحرية لتظهر الأفعال التي بها يستحق الثواب
 والعقاب : « فاما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى، واما من

يُجَلَّ واستغنى وكذَّب الحسنى فسنيصره للعسرى - ١٠ الليل .
 (فبادروا بأعمالكم الخ) .. هذا تفسير وتأكيده لما تقدم في نفس الخطبة ،
 وهو قوله : « من يتق الله يجعل له مخرجاً ... ويخلده فيما اشتبهت نفسه ...
 فاسعوا في فكاك رقابكم الخ) .. وخلاصته: لن تنالوا الفوز بجوار الله ورسله ،
 وزيارة ملائكته ، وسلامة الروح والبدن من العذاب والأتعاب إلا بالسير على
 الطريق السوي ، والعمل الشريف ، وكف الأذى عن الناس ، والوقوف عند
 حدود الله وحرامه .

الإنسان ابن الدنيا :

وتسأل : انك أشرت قبل لحظة الى أن أعلى صوت في نهج البلاغة هو التحذير
 من الدنيا ، ولا شك في ذلك ، ولكن الإنسان ابن الأرض وجزء من الطبيعة ،
 وهي تفرض عليه أشياءها وأغراضها ، ولا مفر إلا أن يتأثر بها ، ويسمع لها
 ويطيع .. حتى النبات والحيوان والجماد تتأثر بالطبيعة ، وتتفاعل معها ، وتأخذ منها
 اللون والحجم والحركة والسكون ، وأي كائن يستطيع الخروج من عالمه وواقعه
 مهما كانت طاقته وقدرته ، والإمام أعرف الناس بهذه الحقيقة ، وقد أشار إليها
 في الكثير من أقواله ، ومن ذلك قوله : « الناس أبناء الدنيا ، ولا يلام المرء على
 حب أمه » . واذن فبأي شيء تجمع بين قوله هذا وقوله : « أحذركم الدنيا فإنها
 غرارة ضرارة ، أكالة غوالة .. تميد بأهلها ميدان السفينة تقصفها العواصف في
 بلجج البحار » ؟. وأمثال هذا في كلام الإمام طويل وكثير .

الجواب :

أولاً : إن قوله : « لا يلام » ليس معناه لا يُكَلِّف ، وإنما هو مجرد بيان
 لسبب الحب .

ثانياً : أجل ، لا مفر من مطالب الحياة إلا بالموت .. وعلى الإنسان أن يسعى
 لها سعيها ، ومن قصر وأهمل فهو مسؤول عن تقصيره، وعمقوت عند الله والناس ،
 وقد اشتهر عن الإمام قوله : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً » . ومن آيات
 الله سبحانه : « ولا تنس نصيبك من الدنيا - ٧٧ القصص » . وقال الرسول
 الأعظم (ص) : « ليس خيركم من ترك الحياة وطيباتها لغيره » . ولا يختلف

اثنان من علماء المسلمين في وجوب السعي للرزق وسد الحاجة .. والحرام هو الكسب غير المشروع ، والعيش على حساب الآخرين ، وبهذا يتبين معنا ان الدنيا التي ذمها الإمام وحذر منها هي الدنيا الحرام، هي الروح العدوانية . وقد أوضحنا ذلك فيما سبق أكثر من مرة .

هل نهج البلاغة منحول ؟

ختم ابن أبي الحديد شرحه لهذه الخطبة بكلام طويل ، ومن المفيد أن نلخصه بما يلي :

قال قوم أعمت العصبية أعينهم : ان كثيراً من نهج البلاغة منحول ، بعضه يُعزى الى فصحاء الشيعة ، وبعضه الآخر الى الشريف الرضي ، ومن تأمل النهج وجده كله ماءً واحداً ، ونفساً واحدة ، وأسلوباً واحداً ، كالقرآن الكريم ، أوله كأوسطه ، وأوسطه كآخره ، وكل سورة منه وكل آية مماثلة لغيرها في المأخذ والمذهب والفن ، ونهج البلاغة كذلك ، ولو كان بعضه منحولاً وبعضه صحيحاً لم يكن كذلك .. ولو فتحنا هذا الباب لم نثق بقول منقول عن رسول الله ، أو عن أبي بكر وعمر ، ولا عن أحد من الأئمة ، ولوجب الشك في جميع الكتب والدواوين والخطب والرسائل .

الخطبة

- ١٨٢ -

الأثر:

أُسْكُتَ قَبْحَكَ اللَّهُ يَا أَثْرَمُ ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ ظَهَرَ الْحَقُّ فَكُنْتُ فِيهِ
ضَنْبِيلاً شَخْصُكَ . خَفِيًّا صَوْتُكَ ، حَتَّى إِذَا نَعَرَ الْبَاطِلُ نَجَمَتْ نُجُومُ
قَرْنِ الْمَاعِزِ .

اللغة :

الأثر : من كُسِرَتْ سَنَهُ مِنْ أَصْلِهَا . وَضَنْبِيلاً : حَقِيرًا صَاحِرًا . وَنَعَرَ :
صَاحَ وَصَوَّتَ . وَنَجَمَ : ظَهَرَ وَطَلَعَ .

الاعراب :

شَخْصُكَ فاعِل « ضَنْبِيلاً » . وَصَوْتُكَ فاعِل « خَفِيًّا » .

المعنى :

كَانَ الْبَرَجُ بْنُ مَسْهَرٍ شَاعِرًا خَارِجِيًّا ، وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ سَمِعَهُ الْإِمَامُ (ع) يَقُولُ :

لا حكم إلا لله ، فقال له : « اسكت قبحك الله يا أئرم » . اتخذ أصحاب
الجمال وصفين قيص عثمان راية لبغيتهم ، أما الخوارج فاتخذوا قول : « لا حكم
إلا لله » شعاراً لمروقهم ، وفي الخطبة ٤٠ أوضح الإمام أن الله التشرية ، وإن
على الأمير التنفيذ ، وشرحن ذلك مفصلاً . ولا جواب لهذا السفية إلا لعنة الله
واللاعنين .

(فوالله لقد ظهر الحق فكنت فيه ضيلاً الخ) .. إن الحق أهلاً لا يشغلهم
عنه شاغل ، وللباطل أهلاً يهتف بهم فيستجيبون ، وما ظهر لهذا السفية الأئرم
أي أثر للحق في قول أو فعل .. حتى إذا ارتفع صوت الباطل لبى وظهر على
المسرح .. وهكذا لا تظهر أسماء الرعاع والصعاليك إلا حين يختل النظام ، وتسود
الفتن والمظالم ، وينتشر القتل والسلب .

الخطبة

- ١٨٣ -

الله ومحمد .. فقرة ١ - ٢ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا تُدْرِكُهُ الشَّوَاهِدُ ، وَلَا تَحْوِيهِ الْمَشَاهِدُ ، وَلَا تَرَاهُ
النَّوَاطِرُ ، وَلَا تَحْجُبُهُ السَّوَاكِرُ ، الدَّالُّ عَلَى قِدَمِهِ بِحُدُوثِ خَلْقِهِ ،
وَبِحُدُوثِ خَلْقِهِ عَلَى وُجُودِهِ ، وَبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لَا شِبَهَ لَهُ . الَّذِي
صَدَقَ فِي مِيعَادِهِ ، وَأَرْتَفَعَ عَنْ ظُلْمِ عِبَادِهِ . وَقَامَ بِالْقِسْطِ فِي خَلْقِهِ ،
وَعَدَلَ عَلَيْهِمْ فِي حُكْمِهِ . مُسْتَشْهِدٌ بِحُدُوثِ الْأَشْيَاءِ عَلَى أَزَلِّيَّتِهِ ، وَبِمَا
وَسَّعَ بِهِ مِنَ الْعَجْزِ عَلَى قُدْرَتِهِ ، وَبِمَا اضْطَرَّهَا إِلَيْهِ مِنَ الْفَنَاءِ عَلَى
دَوَامِهِ . وَاحِدٌ لَا يَعْدِي ، وَدَائِمٌ لَا يَأْمِدُ ، وَقَائِمٌ لَا يَعْمَدُ . تَتَلَقَّاهُ
الْأَذْهَانُ لَا بِمُشَاعَرَةٍ^(١) . وَتَشْهَدُ لَهُ الْمَرَائِي لَا بِمُحَاضَرَةٍ . لَمْ تُحِطْ بِهِ
الْأَوْهَامُ ، بَلْ تَجَلَّى لَهَا بِهَا ، وَبِهَا أَمْتَنَعَ مِنْهَا ، وَإِلَيْهَا حَاكَمَهَا .
لَيْسَ بِذِي كِبَرٍ أَمْتَدَّتْ بِهِ النِّهَايَاتُ فَكَبَّرَتْهُ تَجْسِيمًا ، وَلَا بِذِي عِظَمٍ

تَنَاهَتْ بِهِ الْغَايَاتُ فَعَظَّمَتْهُ تَجْسِيداً . بَلْ كَبَّرَ شَأْناً ، وَعَظَّمَ سُلْطَاناً .
وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الصَّفِيُّ ، وَأَمِينُهُ الرَّضِيُّ ، صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَآلِهِ . أَرْسَلَهُ بِوُجُوبِ الْحُجَجِ ، وَظُهُورِ الْفَلَاحِ وَإِضَاحِ
الْمَنْهَجِ ، قَبْلَ الْرَّسَالَةِ صَادِعاً بِهَا . وَحَمَلَ عَلَى الْمَحَجَّةِ دَالاً عَلَيْهَا .
وَأَقَامَ أَعْلَامَ الْإِلَهِيَّةِ وَمَنَارَ الضِّيَاءِ . وَجَعَلَ أُمْرَاسَ الْإِسْلَامِ مَتِينَةً
وَعُرَى الْإِيمَانِ وَثِيقَةً^(٢) .

اللغة :

الميعاد : وقت الوعد أو موضعه . والمراد بالأمد هنا الغاية . والمرائي :
المرئيات والمنظورات . والفالج : الظفر . والمنهج : الطريق الواضح . وصادعاً :
مبشراً . والمحجة : جادة الطريق أي وسطه . وأمراس : حبال . وعروة الشيء :
مقبضه .

الإعراب :

على أن لا شبه «ان» مخففة ، واسمها ضمير الشأن أي انه لا شبه له، ومستشهد
خبراً لمبتدأ محذوف أي هو مستشهد ، وشأناً تمييز ، ومثله «سلطاناً» .

المعنى :

(الحمد لله الذي لا تدركه الشواهد) أي الحواس (ولا تحويه المشاهد)
وهي الأماكن (ولا تراه النواظر) أي العيون ، وعطفها على الشواهد من باب
عطف الخاص على العام مثل «من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال
— ٩٨ البقرة » . (ولا تحجبه السواتر) جمع ساتر، والسر أن الشواهد والمشاهد

والسواثر — من لوازم المراثيات والمسموعات والروائح والمذاقات والملموسات ،
والله منزّه عن ذلك كله .

(الدال على قدمه بحدوث خلقه الخ) .. الحادث لا يحمل في طبيعته السبب
الكافي لوجوده والا كان واجب الوجود ، وهو خلاف القرض ، وإذن فلا بد
لوجوده من سبب خارج عن ذاته ، كما هو الشأن في كل حادث ، وإذا لم يكن
السبب الموجب موجوداً بنفسه احتاج الى غيره .. ولا مفر من الانتهاء الى سبب
ضروري الوجود يكون سبب الأسباب وإلا بقي كل شيء طي الكتمان . وتقدم
ذلك في شرح الخطبة ١٥٠ (وباشتباههم على ان لا شبه له) . كل المخلوقات
يجمعها قاسم مشترك ، وهو انها لم تكن من قبل ثم حدثت وكانت ، ويستحيل
أن يكون مبدعها من نوعها وشكلها وإلا لزم أن يكون الشيء علة لنفسه. وتقدمت
هذه الجملة بحرفها في الخطبة ١٥٠ .

(الذي صدق في ميعاده) لأنه لا يخلف الميعاد لحكم العقل بقبح الكذب
والخلف (وارتفع عن ظلم عباده) لحكم العقل بقبح الظلم (وعدل عليهم بحكمه) .
أمضى حكمه على جميع خلقه بالعدل إيجاباً وتكليفاً وثواباً وعقاباً (مستشهد
بحدوث الأشياء على أزليته) كقوله ٠ « إن في خلق السموات والأرض واختلاف
الليل والنهار لآيات لأولي الأبصار — ١٩٠ آل عمران » . وأشرنا الى وجه الاستدلال
في شرح قوله : « الدال على قدمه بحدوث خلقه » .

مذهب ديكارت :

(وبما وسمها به من العجز على قدرته الخ) .. ما من كائن في السماوات
والأرض — غير الله — إلا وفيه جهة نقص ، فالجناد تنقصه الحياة ، والنبات
ينقصه الشعور ، والحيوان ينقصه العقل ، والإنسان يفنى. ويزول .. بالإضافة الى
ان كل ممكن يفتر الى سبب موجب لتكوينه ووجوده ، وبقائه واستمراره ،
ويستحيل أن يكون السبب الأول للإيجاد والاستمرار ناقصاً في جهة من الجهات ،
بل لا بد أن يكون كاملاً من كل وجه ، وان يكون كماله ذاتياً لا مكتسباً وإلا
كان السبب من نوع المسبب ، ومن البدهة أن الشيء لا يكون علة وسبباً لنفسه .
ويؤمى هذا الى مذهب الفيلسوف الفرنسي ديكارت الذي استنتج من إدراكه

لنفسه أنه ناقص ومحدود ، ومعنى هذا - عند ديكارت - أن في ذهنه فكرة سابقة عن الكامل المطلق القائم بذاته ، ولولا هذه الفكرة لاستحال عليه أن يتصور الناقص ، لأن الأشياء تتميز بأضدادها ، والفكرة عن الكامل لم تحدث جزأً وبلا سبب ، والانسان لم يوجد لها في ذهنه ، وإذن فالذي أوجدها هو الكامل بذاته من كل وجه، أي الله الأزلي الأبدي العليم بكل شيء القادر على كل شيء .

(واحد لا بعدد) . للوحدة أقسام ، منها الوحدة بالجنس والنوع ، ومنها الوحدة بالزمان والمكان ، والله منزّه عن ذلك كله ، فهو واحد بوجوده ذاتاً في الأزل والأبد ، وواحد في كماله المطلق من كل وجه ، ليس كمثله شيء ، أما صفاته فهي بكاملها موجودة بوجود واحد (ودائم لا بأمد) . لا أمد ولا نهاية لوجوده ، ومن هنا يصح التعبير عنه باللامتناهي (وقائم لا بعمد) أي لا سبب لوجوده خارج عن ذاته .

(تتلقاه الأذهان لا بمشاعة) . المراد بالمشاعة هنا الإدراك المباشر ، والمعنى ان العقل يدرك وجود الله بآثاره وتوسط مبدأ العلية - مثلاً - إذا رأيت إنساناً يكتب فإن عقلك يحكم بوجود الكاتب معتمداً في حكمه هذا على رؤية البصر وحدها بلا توسط مبدأ العلية أو غيره ، وتسمى هذه المعرفة بديهية ووجدانية وتجريبية ، وهذه المعرفة لا يمكن تصورها في حقه تعالى .

أما إذا رأيت كتابة ولم تر الكاتب فإن عقلك يحكم بوجود الكاتب معتمداً على رؤية البصر للكتابة ، وعلى مبدأ العلية معاً ، وليس على رؤية البصر وحدها كما لو رأيت الكاتب بالذات ، ومثله حكم العقل بوجوده تعالى ، ترى العين الخلق والآثار فيحكم العقل بوجود الخالق والمؤثر استناداً الى مبدأ العلية . ومن أنكر وجود الله لا يعترف بهذا المبدأ ، ويزعم ان تتابع الحوادث لا يدل على ان السابق علة للأحق .. وجوابنا أن العلماء كانوا وما زالوا يلاحظون الحوادث ، ويستنتجون من تكرار وجود اللاحق مع السابق والترابط بينهما في الوجود ، يستنتجون من ذلك قواعد كلية ينتقلون من العلم بها الى معرفة ما كانوا يجهلون ، ولولا مبدأ العلية لكان هذا الاستنتاج جهلاً وضلالاً .

(وتشهد له المراتي لا بمحاضرة) . المراد بالمراتي الأشياء المراثية، وبالمحاضرة الحضور والحلول ، والمعنى ان ما نراه من الكائنات يدل على وجود الله ، ولكن

وجوده تعالى غير متحد مع وجود الكائنات ، كما يقول أصحاب وحدة الوجود ، بل مستقل عنها ، وأسمى منها وأرفع (ولم تحط به الأوهام بل تتجلى لها بها) . إن الله سبحانه لا يتجلى للعقول بذاته ، بل بآثاره ، فضمير «ها» يعود للأوهام — أي العقول — يعود لها لفظاً ومعنى اما ضمير «بها» فإنه يعود للآثار معنى ، وللأوهام لفظاً لوجود العلاقة بين الأثر والمؤثر .

(وبها امتنع منها) . إن العقول نفسها هي التي حكمت وجزمت بأن ذاته تعالى لا تتجلى للعقول ، وان الذي يتجلى هو الآثار (واليها حاكمها) . وان زعم ذو عقل سقيم بأن ذاته ، تباركت أسماؤه ، تتجلى للعقول — حاكمه الى ذي عقل سليم (ليس بلذي كبر الخ) .. الله سبحانه كبير وعظيم شأنًا وجلالاً ، وسلطاناً وسكناً ، لا طولاً وعرضاً ، وعمقاً وشكلاً .

(وأشهد أن محمداً الخ) .. اختاره الله لنفسه ، وارتضاه أميناً على وحيه (أرسله بوجوب الحجج) أي ان العقل يلزم بكل ما جاء به محمد (ص) لأنه خير الانسان جمعاء : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ١٠٧ الأنبياء » . وقال الرسول (ص) : جئت لأتمم مكارم الأخلاق (وظهور الفلج) أرسل الله محمداً لإعلاء كلمة الحق (وإيضاح المنهج) وهو الطريق القويم السليم (فبلغ الرسالة صادعاً بها) . ودياً لها على أكمل وجه (وحمل على المحجة دالاً عليها) شهد التاريخ أن المسلمين نجحوا في علوم شتى ، وان الحضارة الحديثة ثمرة من ثمار علوم المسلمين ، والفضل الأول لمحمد ورسالة محمد (ص) . (وأقام اعلام الاهتداء ، ومنار الضياء) عطف تفسير على « حمل المحجة دالاً عليها » . (وجعل أمراة الإسلام الخ) .. أقام محمد (ص) دينه على أمتن الأصول وأقوى الأركان ، واذا تخلف المسلمون كأكثر ما يكون التخلف فإن العيب فيهم ، وليس في دينهم .

من تفكر أبصر . فقرة ٣ - ٤

وَلَوْ فَكَّرُوا فِي عَظِيمِ الْقُدْرَةِ وَجَسِيمِ النِّعْمَةِ لَرَجَعُوا إِلَى الطَّرِيقِ
وَخَافُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ وَلَكِنَّ الْقُلُوبَ عَلِيلَةٌ ، وَالْبَصَائِرُ مَدْخُولَةٌ .

أَلَا تَنْظُرُونَ إِلَى صَغِيرٍ مَا خَلَقَ كَيْفَ أَحْكَمَ خَلْقَهُ ، وَأَتَقَنَ تَرْكِيبَهُ ،
وَفَلَقَ لَهُ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ ، وَسَوَّى لَهُ الْعَظْمَ وَالْبَشَرَ . أَنْظُرُوا إِلَى
النَّمْلَةِ فِي صِغَرِ جُشَّتِيهَا وَلَطَافَةِ هَيْئَتِهَا ، لَا تَكَادُ تُنَالُ بِلَحْظِ الْبَصَرِ ،
وَلَا يُمَسْتَدْرَكُ الْفِكْرِ ، كَيْفَ دَبَّتْ عَلَى أَرْضِهَا ، وَصَبَتْ عَلَى رِزْقِهَا ،
تَنْقُلُ الْحَبَّةَ إِلَى جُحْرِهَا ، وَتُعِدُّهَا فِي مُسْتَقَرِّهَا . تَجْمَعُ فِي حَرِّهَا
لِبَرْدِهَا ، وَفِي وَرُودِهَا لِصَدْرِهَا ، مَكْفُولَةٌ بِرِزْقِهَا مَرْزُوقَةٌ
بِرِفْقِهَا . لَا يُغْفَلُهَا الْمَنَانُ ، وَلَا يَحْرِمُهَا الدِّيَانُ وَلَوْ فِي الصَّغَا أَلْيَاسِ
وَالْحَجَرِ الْجَامِسِ^(٣) . وَلَوْ فَكَّرْتَ فِي تَجَارِي أَكْلِهَا فِي عُلوِّهَا وَسُفْلِهَا
وَمَا فِي الْجَوْفِ مِنْ شَرَّاسِيفِ بَطْنِهَا ، وَمَا فِي الرَّأْسِ مِنْ عَيْنِهَا
وَأُذُنِهَا لَقَضَيْتَ مِنْ خَلْقِهَا عَجَبًا ، وَلَقِيتَ مِنْ وَصْفِهَا تَعَبًا . فَتَعَالَى
الَّذِي أَقَامَهَا عَلَى قَوَائِمِهَا ، وَبَنَاهَا عَلَى دَعَائِمِهَا ، لَمْ يَشْرَكْهُ فِي فِطْرَتِهَا
فَاطِرٌ ، وَلَمْ يُعْنَهُ فِي خَلْقِهَا قَادِرٌ . وَلَوْ ضَرَبْتَ فِي مَذَاهِبِ فِكْرِكَ
لِتَبْلُغَ غَايَاتِهِ ، مَا دَلَّتْكَ الدَّلَالَةُ إِلَّا عَلَى أَنَّ فَاطِرَ النَّمْلَةِ هُوَ فَاطِرُ
النَّخْلَةِ ، لِدَقِيقِ تَفْصِيلِ كُلِّ شَيْءٍ ، وَغَامِضِ اخْتِلَافِ كُلِّ حَيٍّ ،
وَمَا الْجَلِيلُ وَاللَّطِيفُ وَالثَّقِيلُ وَالْخَفِيفُ وَالْقَوِيُّ وَالضَّعِيفُ فِي خَلْقِهِ
إِلَّا سَوَاءٌ^(٤) .

اللغة :

البصائر مدخولة : طرأ عليها خلل . والبشر : جمع بشرة ، وهي ظاهر

الجلد . والصدّر - بفتح الدال - الرجوع بعد الورود . والوفق - بكسر الواو -
ما يوافق ويلائم . والصفى : الأملس . والجامس : الجامد . والشراسيف :
جمع شرسوف - بضم الشين - طرف الضلع اللين المشرف على البطن .

الإعراب :

كيف دبت « كيف » في موضع الحال ، ومكفول بالرفع خبر لمبتدأ محذوف
أي هي ، وبالنصب حال ، وعجباً مفعول من أجله لقضيت ، وتعباً مفعول به
للقيت ، وسواء خبر الجليل وما بعده .

المعنى :

(ولو فكروا في عظيم - الى - الحريق) . اذا حركت عقلك نحو الكون
العجيب ، ونظرت ما فيه من إحكام وتدبير - فلأنك ، لا محالة ، تفهم وتذكر
من قدرة الخالق ما يدلك على عظمته ، ويملاً نفسك هيبة ورهبة من سطوته
وحسابه وجزائه (ولكن القلوب غيلة ، والبصائر مدخولة) لا ترى إلا للذة
عاجلة ، ونشوة عابرة .

(ألا ينظرون الى صغير ما خلق الخ) .. ما من شيء في الكون كُبر أم
صغرُ ألا وهو آية تدل على وجود الله وعظمته ، وانه واحد لا شريك له في
خلقه وصفاته ، وقد ضرب الإمام مثلاً على عظمته تعالى بأصغر مخلوق يدب على
الأرض ، وهو النملة التي توجد في غرفتي وغرفتك ، وفي رؤوس الجبال ،
والحديقة والصحراء وغيرها ، وتذهب الى رزقها المكفول لها بالسعي ، وتهتدي
الى مكانه الذي أودعه الله فيه تماماً كما يهتدي الانسان الى محل طعامه وشرابه ،
تهتدي النملة الى رزقها ببصرها وبصيرتها ، أو بغريزتها أو بالإلهام ، كما نقول
نحن . كل ذلك بهداية بصير قدير .

ومن جملة ما قرأت أن في بعض الفصول يكثر طعام الأسماك في جانب خاص
من المحيط الأطلسي ، وان الأسماك في هذا الموسم تأتية من كل جانب ، وتقطع
مئات الأميال ، وان الفيران تلقي بنفسها في البحر طلباً لهذا الرزق ! . وفي كتاب

« الظاهرة القرآنية » للملك بن نبي : ان النمل الأمريكي يغادر مساكنه قبل اندلاع الحريق فيها بليلة ، وان في جنوب قسنطينة نوع من الحيوانات القارضة تبرح أمكنتها قبل الكوارث الطبيعية ، فهل هذا من باب الصدفة ، أو ان حكمة الله سبحانه أعطت لهذه المخلوقات وغيرها ما أعطت للإنسان ؟ (وما الجليل واللطيف — أي الكبير والصغير — والثقيل والخفيف ، والقوي والضعيف إلا سواء) في القوانين الثابتة الراسخة التي تشمل وتعم جميع الخلائق على تباينها واختلافها حجماً وطبيعة وشكلاً ، وهل من تفسير معقول لهذه الوحدة إلا بإرادة حكيمة واحدة ، وقدرة واحدة ، وان خالق النملة هو خالق النحلة ، كما قال الإمام ؟

وكتب أهل الاختصاص كثيراً عن النمل وتدبيرها وادخارها وتعاونها ونظامها المحكم في الاقتصاد والاجتماع ، وكلها تبعث الدهشة ، وتدل بوضوح على إرادة حكيم قدير ، وأعجب ما في النمل على الإطلاق ما حكاه سبحانه عن نملة سليمان في الآية ١٨ من سورة النمل: «قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون» ومكان العجب أن تشفق هذه الدرة على قومها من بأس الجنود الذين جاسوا خلال الديار .. وأن لا يشعر إنسان عاقل بآلام قومه ، وان يبيعهم بثمن بخس لعدوة وعدوهم يمتص دماءهم ويسلب أقاتهم ويهلك الحرث والنسل !

وفي بداية الخمسينات من هذا القرن اضطر الاستعمار بضغط من حركات التحرر أن يخرج بجنوده من مستعمراته ، ولكنه بحث عن نوع جديد من الاستعمار يكون أكثر أمناً ، وأقل كلفة ، واهتدى الى الخونة من أبناء البلاد ، فأقام منهم قواعد لسيطرته واستغلاله .. وشهد هؤلاء المارقون على أنفسهم — بهذه الصفقة الغادرة — انهم أصغر من النملة وأحقر .

لا بناء بلا بان .. فقرة ٥ - ٧ :

وَكَذَلِكَ السَّمَاءَ وَالْهَوَاءَ وَالرَّيَّاحَ وَالْأَهْلَ . فَانْظُرْ إِلَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ
وَالنَّبَاتِ وَالشَّجَرِ وَالْأَهْلِ وَالْحَجَرِ وَاخْتِلَافِ هَذَا اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَتَفْجُرِ
هَذِهِ الْبَحَارِ ، وَكَثْرَةِ هَذِهِ الْجِبَالِ ، وَطُولِ هَذِهِ الْقِلَالِ وَتَفَرُّقِ

هَذِهِ اللِّغَاتِ ، وَالْأَلْسُنِ الْمُخْتَلِفَاتِ . فَالْوَيْلُ لِمَنْ جَحَدَ الْمُقَدَّرَ
وَأَنْكَرَ الْمُدَبَّرَ . زَعَمُوا أَنَّهُمْ كَالنَّبَاتِ مَا لَهُمْ زَارِعٌ ، وَلَا لِاخْتِلَافِ
صُورِهِمْ صَانِعٌ . وَلَمْ يَلْجَأُوا إِلَى حُجَّةٍ فِيمَا أَدَّعَوْا ، وَلَا تَحْقِيقٍ لِمَا
أَوَّعُوا . وَهَلْ يَكُونُ بِنَاءٌ مِنْ غَيْرِ بَانٍ ، أَوْ جَنَائَةٌ مِنْ غَيْرِ
جَانٍ^(٥) . وَإِنْ شِئْتَ قُلْتُ فِي الْجَرَادَةِ إِذْ خَلَقَ لَهَا عَيْنَيْنِ حَمْرَاوَيْنِ .
وَأَسْرَجَ لَهَا حَدَقَتَيْنِ قَمْرَاوَيْنِ . وَجَعَلَ لَهَا السَّمْعَ الْخَفِيَّ ، وَفَتَحَ
لَهَا الْفَمَ السَّوِيَّ ، وَجَعَلَ لَهَا الْحِسَّ الْقَوِيَّ ، وَنَاقَيْنِ بِيهَا تَقْرِضُ ،
وَمَنْجَلَيْنِ بِيهَا تَقْبِضُ ، يَرْهَبُهَا الزَّرَّاعُ فِي زَرْعِهِمْ ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ
ذِيهَا . وَلَوْ أَجْلَبُوا بِجَمْعِهِمْ ، حَتَّى تَرَدَّ الْحَرْثُ فِي نَزَوَاتِهَا ، وَتَقْضِيَ
مِنْهُ شَهَوَاتِهَا . وَخَلَقَهَا كُلُّهُ لَا يَكُونُ إِضْبَعًا مُسْتَدِيقَةً^(٦) . فَتَبَارَكَ
الَّذِي يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ، وَيَعْنُو
لَهُ خَدًّا وَوَجْهًا ، وَيُلْقِي إِلَيْهِ بِالطَّاعَةِ سَلَامًا ، وَيُعْطِي لَهُ الْقِيَادَ
رَهْبَةً وَخَوْفًا . فَالطَّيْرُ مُسَخَّرَةٌ لِأَمْرِهِ . أَحْصَى عَدَدَ الرِّيشِ مِنْهَا
وَالنَّفْسِ ، وَأَرَسَى قَوَائِمَهَا عَلَى النَّدَى وَالْيَبْسِ . وَقَدَّرَ أَقْوَاتَهَا ، وَأَحْصَى
أَجْنَاسَهَا . فَهَذَا غُرَابٌ وَهَذَا عُقَابٌ . وَهَذَا حَمَامٌ وَهَذَا نَعَامٌ . دَعَا
كُلَّ طَائِرٍ بِاسْمِهِ ، وَكَفَلَ لَهُ بِرِزْقِهِ . وَأَنْشَأَ السَّحَابَ الثَّقَالَ فَأَهْطَلَ
دِيمَهَا وَعَدَّدَ قِسَمَهَا ، فَبَلَّ الْأَرْضَ بَعْدَ جُفُوفِهَا ، وَأَخْرَجَ نَبْتَهَا بَعْدَ
جُدُوبِهَا^(٧) .

اللغة :

القلال : جمع القلة - بضم القاف - الجبل وأعلى كل شيء . وأوعوا : من الوعي ، وهو الحفظ والتدبر . وقراوين : مضيئين . والسوي : الكامل لا عيب فيه . والمنجل : آلة من حديد يُحصد بها الزرع ، والمراد بمنجلين هنا رجلا الجرادة لا عوجاجها كالمنجل . والتزوات : الوثبات . والديم : جمع الديمة ، وهي مطر يدوم في سكون بلا رعد وبرق . والجلدوب والجلديب والمجداب : الماحل ، والجدب والمحل والفقر بمعنى .

الإعراب :

كذلك خبر مقدم ، والسماء مبتدأ مؤخر ، والقلال عطف بيان من هذه ، والويل مبتدأ ، وما بعده خبر ، ويكون تامة ، وبناء فاعل ، ومن غير بان صفة لبناء ، وطوعاً في موضع الحال أي طائعا ، ومثله سلماً أي مسالماً، ورهبة مفعول من أجله .

المعنى :

(وكذلك السماء والهواء الخ) .. كل ذي بصر وبصيرة اذا نظر الى أية ظاهرة من ظواهر الكون خشع وآمن بعظمة المبدع والمصور ، إما إيماناً كليمان العجائز لا يفلسف ولا يسأل إلا قلبه الذي يشع بالنور ، ويسخر من الفيلسوف والمتفلسف في هذا الباب .. وألف طويى لمن يملك هذا القلب ، وإما إيماناً قائماً على ان العقل لا يمكن أن يتصور هذا الكون العجيب بأرضه وسمائه ، وقانونه ونظامه ، دون أن يكون وراءه حي يقوم خلق فسوتى ، وقدر فهدى .. ان المادة صماء عمياء لا روح فيها ولا شعور ، ولا أغراض لها ولا غايات ، ويستحيل أن تتحرك من غير محرك ، فكيف ينسب اليها الخلق والإبداع والتنظيم والتدبير؟.

(تزعوا انهم كالنبات الخ) .. على المزايل والقدرات ، وانها هي خلقت الانسان في أحسن تقويم ، وجعلت له السمع والبصر والفؤاد ، وكل الطاقات التي

صعدت به الى القمر ، وفعل بها المعجزات ١. ولا أدري : هل اعتمد هؤلاء الزاعمون على التجربة والمشاهدة ، أو على حقائق العقل ونظرياته ؟. ورد سبحانه عليهم بقوله : « أم خلّقوا من غير شيء أم هم الخالقون أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون — ٣٦ الطور » . وما من أحد ادعى انه خلّق من غير شيء ، أو قال : أنا خلقت نفسي والكون ، ولكن لا فرق بين من زعم انه كالنبات ، وبين من قال : انه خلّق من غير إرادة قادرة ومديرة ، وانه هو خلق نفسه والكون بما فيه .

(وان شئت قلت في الجرادة الخ) .. ضرب الإمام مثلاً على عظمة الله سبحانه بأصغر مخلوق من دنيا الحيوانات أو الحشرات التي تدب على الأرض ، وهي النملة ، ثم ضرب مثلاً بأصغر مخلوق من دنيا ما يطير ، وهو الجرادة التي تحير الأبواب بسمعها وبصرها ودفها ونابيه ورجليها وإلهامها ، وكيف يخافها الزارعون على زرعهم وحقولهم مع ان حجمها لا يبلغ الاصبع الصغيرة الدقيقة .. ولو خرجنا من دنيا ما يدب على الأرض ، وما يطير في الهواء — الى دنيا ما يسبح في الماء وما فيه من عجائب ، ومنه الى دنيا النبات والحشائش وحجمها وأوراقها وورودها وربحها وطعمها ، ومنها الى غيرها مما لا يبلغه الاحصاء — لو فعلنا ذلك لامتد الحديث عنها سنوات دون أن نبلغ الغاية ونصل الى النهاية : « ولو ان ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ان الله عزيز حكيم — ٢٧ لقمان » .

فن الذي خلق فسوّى ، وقدر فهدى ؟ المادة العمياء ، أو الصدفة الهوجاء ، أو النشوء والارتقاء . وان قلت : الأسباب الطبيعية ، قلنا : ان الله أودع هذه الأسباب في الطبيعة ، وتقدم ذلك مفصلاً .

(فتبارك الله الذي يسجد له من في السموات والأرض الخ) .. المراد بالسجود وتعفير الحدود هنا الخضوع والكره والسلم والخوف انقياد الأشياء كلها لأمر الله في شتى الأحوال لا في حال دون حال ، وقوله : أحصى عدد الريش والأجناس أي أحاط بكل شيء علماً ، وقوله : أرسى القوائم ، وقدر الأقوات ، وأنشأ السحاب وعدّد قسمها — كناية عن قدرته تعالى وعلمه وحكمته ، أما ذكر الغراب والعقاب — طائر من الكواسر — والحمام والنعام — فإنه لمجرد

التمثيل والاستشهاد على القدرة والحكمة الإلهية ، والقصد الأول والأخير هو ان
نعلم ونؤمن بأنه لا إله إلا الله العزيز الحكيم ، والتقدير العليم .
وقلنا فيما سبق ونكرر ان مجرد العلم والإيمان بالله لا يجدي شيئاً إلا مع العمل
الصالح ، قال الإمام الصادق (ع) : الإيمان عمل كله ، ولا يثبت للإنسان إيمان
إلا بالعمل .

الخطبة

- ١٨٤ -

في صفاته تعالى .. فقرة ١ - ٤ :

مَا وَحَّدَهُ مِنْ كَيْفِهِ ، وَلَا حَقِيقَتَهُ أَصَابَ مِنْ مَثَلِهِ . وَلَا إِيَّاهُ عَنَى
مَنْ شَبَّهَهُ . وَلَا صَمَدَهُ مِنْ أَشَارَ إِلَيْهِ وَتَوَهَّمَهُ . كُلُّ مَعْرُوفٍ بِنَفْسِهِ
مَصْنُوعٌ . وَكُلُّ قَائِمٍ فِي سِوَاهُ مَعْلُوفٌ . فَاعِلٌ لَا بِاضْطِرَابِ آلَةٍ .
مُقَدَّرٌ لَا بِجَوْلِ فِكْرَةٍ . غَنِيٌّ لَا بِاسْتِفَادَةٍ . لَا تَصْحَبُهُ الْأَوْقَاتُ ،
وَلَا تَرْفُدُهُ الْأَدَوَاتُ ، سَبَقَ الْأَوْقَاتَ كَوْنُهُ . وَالْعَدَمَ وَجُودُهُ .
وَالْإِبْتِدَاءَ أَرْزَلُهُ . بِتَشْعِيرِهِ الْمَشَاعِرَ عُرِفَ أَنْ لَا مَشْعَرَ لَهُ .
وَبِمُضَادَّتِهِ بَيْنَ الْأُمُورِ عُرِفَ أَنْ لَا ضِدَّ لَهُ . وَبِمُقَارَنَتِهِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ
عُرِفَ أَنْ لَا قَرِينَ لَهُ . ضَادَّ النُّورِ بِالظُّلْمَةِ ، وَالْوُضُوحَ بِالْبُهْمَةِ ،
وَالْجُمُودَ بِالْبَلَلِ ، وَالْحُرُورَ بِالصَّرْدِ^(١) . مُؤَلَّفٌ بَيْنَ مُتَعَادِيَاتِهَا .
مُقَارِنٌ بَيْنَ مُتَبَايِنَاتِهَا مُقَرَّبٌ بَيْنَ مُتَبَاعِدَاتِهَا . مُفَرَّقٌ بَيْنَ مُتَدَانِيَاتِهَا .

لَا يُشْمَلُ بِحَدٍّ ، وَلَا يُحْسَبُ بَعْدُ ، وَإِنَّمَا تَحْدُ الْأَدَوَاتُ أَنْفُسَهَا ،
وَتُشِيرُ آلَاةُ إِلَى نَظَائِرِهَا . مَنَعَتْهَا مِنْذُ الْقِدَمِيَّةِ ، وَحَتَّتْهَا الْأَزَلِيَّةُ .
وَجَنَّبَتْهَا لَوْلَا التَّكْمِلَةُ . بِهَا تَحِلُّ صَانِعُهَا لِلْعُقُولِ ، وَبِهَا أُمْتَنَعَ عَنْ
نَظَرِ الْعُيُونِ . لَا يَجْرِي عَلَيْهِ السُّكُونُ وَالْحَرَكَةُ . وَكَيْفَ يَجْرِي
عَلَيْهِ مَا هُوَ أَجْرَاهُ ، وَيَعُودُ فِيهِ مَا هُوَ أَبْدَاهُ ، وَيَخْدُثُ فِيهِ مَا
هُوَ أَحَدُهُ . إِذَا لَتَفَاوَتَتْ ذَاتُهُ ، وَلَتَجَزَأَ كُنْهُهُ ، وَلَأُمْتَنَعَ مِنْ
الْأَزَلِ مَعْنَاهُ . وَلَكَانَ لَهُ وَرَاءَهُ إِذْ وَجَدَ لَهُ أَمَامَهُ . وَلَأَلْتَمَسَ التَّامَّ
إِذْ لَوَّمَهُ النُّقْصَانُ . وَإِذَا لَقَامَتْ آيَةُ الْمَصْنُوعِ فِيهِ ، وَلَتَحَوَّلَ دَلِيلًا
بَعْدَ أَنْ كَانَ مَدْلُولًا عَلَيْهِ . وَخَرَجَ بِسُلْطَانِ الْإِمْتِنَاعِ مِنْ أَنْ
يُؤَثَّرَ فِيهِ مَا يُؤَثَّرُ فِي غَيْرِهِ^(٢) الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ ، وَلَا يَجُوزُ
عَلَيْهِ الْأَقُولُ . وَلَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْلُودًا ، وَلَمْ يُولَدْ فَيَصِيرَ تَحْدُودًا .
جَلَّ عَنْ اتِّخَاذِ الْأَنْبَاءِ ، وَطَهَّرَ عَنِ مُلَامَسَةِ النِّسَاءِ . لَا تَنَالُهُ الْأَوْهَامُ
فَتَقْدِرُهُ ، وَلَا تَتَوَهَّمُهُ الْفِطْنُ فَتُصَوِّرُهُ . وَلَا تُدْرِكُهُ الْخَوَاسُ فَتَحْسُسُهُ
وَلَا تَلْمِسُهُ الْأَيْدِي فَتَمَسُّهُ . لَا يَتَغَيَّرُ بِحَالٍ ، وَلَا يَتَبَدَّلُ بِالْأَحْوَالِ
وَلَا تُبْلِيهِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامُ ، وَلَا يُغَيِّرُهُ الضِّيَاءُ وَالظَّلَامُ . وَلَا يُوصَفُ
بِشَيْءٍ مِنَ الْأَجْزَاءِ ، وَلَا بِالْجَوَارِحِ وَالْأَعْضَاءِ . وَلَا بَعَرَضٍ مِنَ
الْأَعْرَاضِ ، وَلَا بِالْغَيْرِيَّةِ وَالْأَبْعَاضِ . وَلَا يُقَالُ لَهُ حَدٌّ وَلَا
نِهَآيَةٌ ، وَلَا انْقِطَاعٌ وَلَا غَايَةٌ . وَلَا أَنَّ الْأَشْيَاءَ تَحْوِيهِ ، فَتُقِلُّهُ أَوْ

تَهْوِيَهُ ، أَوْ أَنَّ شَيْئًا يَحْمِلُهُ فَيَمِيلُهُ أَوْ يُعَدِّلُهُ^(٣) . لَيْسَ فِي الْأَشْيَاءِ
بِوَالِجٍ ، وَلَا عَنْهَا بِخَارِجٍ . يُخْبِرُ لَا يَلْسَانٍ وَلَهَوَاتٍ ، وَيَسْمَعُ
لَا بِخُرُوقٍ وَأَدَوَاتٍ . يَقُولُ وَلَا يَلْفِظُ ، وَيَحْفَظُ وَلَا يَتَحَقَّقُ ،
وَيُرِيدُ وَلَا يُضْمِرُ . يُحِبُّ وَيَرْضَى مِنْ غَيْرِ رِقَّةٍ ، وَيُبْغِضُ وَيَغْضَبُ
مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ . يَقُولُ لِمَنْ أَرَادَ كَوْنَهُ كُنْ فَيَكُونُ . لَا بِصَوْتٍ
يَقْرَعُ ، وَلَا بِبِنْدَاءٍ يُسْمَعُ . وَإِنَّمَا كَلَامُهُ سُبْحَانَهُ فِعْلٌ مِنْهُ أَنْشَاءُ .
وَمِثْلُهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ كَانِنًا ، وَلَوْ كَانَ قَدِيمًا لَكَانَ إِلَهًا
ثَانِيًا . لَا يُقَالُ كَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ فَتَجْرِي عَلَيْهِ الصِّفَاتُ الْمُحْدَثَاتُ ،
وَلَا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ فَضْلٌ ، وَلَا لَهُ عَلَيْهَا فَضْلٌ ، فَيَسْتَوِي
الصَّانِعُ وَالْمَصْنُوعُ ، وَيَتَكَافَأُ الْمُبْتَدِئُ وَالْبَدِيعُ^(٤) .

اللغة :

صمده : قصده . وتوهمه : تمثله . وترفده : تعينه . والمشاعر : الحواس ،
وتشعيرها جعلها تشعر وتنفعل . والحرور - بضم الحاء - الريح الحارة . والصرد :
البرد . والمتعاديات : المتضادات . والمتدانيات : المتماثلات . ولهوات : جمع لهاة ،
وهي لحمة في سقف أقصى الفم .

الإعراب :

فاعل خبر لمبتدأ محذوف أي هو فاعل ، ومثله مؤلف ، وأن لا مشعر أي
أنه لا مشعر ، ومنذ لا ابتداء الزمان ، وقد للتقريب ، ولولا لامتناع شيء عند

وجود غيره ، وكل كلمة من هذه الثلاث فاعل للفعل الذي قبله على الحكاية ودليلاً منصوب بنزع الخافض أي لتحول الى دليل .

المعنى :

كل ما ذكره الإمام هنا من صفات الله سبحانه ، تقدم مراراً بالحرف أو بالمعنى ، ولذا فوجز في الشرح ما أمكن (ما وحدته من كَيْفِهِ) . اذا قلت : كيف فلان ؟ فإنك لا تسأل عن ذاته ، بل عما يعرض لها من الأحوال كالعسر واليسر ، والصحة والسقم ، ومعنى هذا أن الذات المسؤول عنها محل للأحداث ، وأنها تتغير وتتبدل من حال الى حال .. والله سبحانه واحد وكامل من كل وجه يستحيل في حقه التغير والتحويل ، لأنه فوق الأشياء، وخالق الأحوال والأحداث ، قال الرسول الكريم (ص) كيف مخلوق ، والله لا يوصف بخلقه ، وقال الإمام الصادق (ع) : من نظر الى الله كيف هو فقد هلك .

(ولا حقيقته أصاب من مثله) . كل صورة ترسمها في خيالك فهي صورة لجسم يُرى ويُحس وإلا استحال الرسم والتشخيص ، وهل يوجد ظل وشبح لغير المادة ؟ . والله سبحانه منزّه عن ذلك . قال الملاصدرا : إن كان ما تصوره لذات الله مطابقاً للواقع يلزم أن يكون الله جسماً محدوداً ، وهو محال ، وإن لم يطابق فهو كذب وسراب (ولا اياه عني من شبهه) . لأنه لا شبه له ولا ضد (ولا صمده من أشار اليه وتوهمه) . كل الإشارات بشئ أنواعها لا تكون إلا للمحسوسات ، والله فوقها ومنزه عنها ، وفي كلمات أهل البيت : إن أوهام العقول أدق من أبصار العيون ، وأوهام العقول لا تدرك الله فكيف بأبصار العيون ؟ .

(وكل معروف بنفسه مصنوع) . المراد بالمعروف بنفسه المعلوم بذاته وحقيقته لا بأفعاله وآثاره . ومن البداهة ان معرفة الشيء بكنهه وحقيقته تتوقف على معرفة العناصر التي تكون منها ، ومعنى هذا ان المعروف بالذات والكنه مركب ، والمركب مفتقر الى أجزائه والى من يؤلف بينها أيضاً، فيكون والحال هذه ، ممكن الوجود (وكل قائم في سواه معلول) . اذا كان الشيء لا يحمل في طبيعته سبب وجوده فهو مفتقر الى علة لأصل وجوده وحدوثه ، ولبقائه واستمراره (فاعل

لا باضطراب آلة) بل بكلمة «كن» .. هذا ، الى انه خالق الآلات ، والخالق لا يوصف بخلقه (مقدّر لا بجولة فكر) . هذا من باب السالبة بانتفاء الموضوع ، كما يقول أهل المنطق ، حيث لا فكر من الأساس كي يتأمل ويفكر في النظريات والتطبيقات : « وكان أمر الله قدراً مقدوراً » .

(غني لا باستفادة) بل بداته ، كما هو الشأن في واجب الوجود (لا تصحبه الأوقات) لأن الزمان يزول ويتغير ، والصاحب معتبر بصاحبه (ولا ترفده الأدوات) لأنه غني بالذات ، وخالق الأدوات ، والخالق لا يوصف بخلقه (سبق الأوقات كونه) . لأنه قبل كل شيء بالأزلية ، ومنه كل شيء بالافتقار والعلية (والعدم وجوده ، والابتداء أزله) . الله هو الأول بالوجوب والقدم ، واذن فهو منزّه عن العدم من قبل ومن بعد (وبتشعيه المشاعر عرف ان لا مشعر له) . خالق الانفعال لا يفعل ، لأن الخالق لا يوصف بخلقه (وبمضادته بين الأمور عرف أن لا ضد له) . كل من له ضد ينازعه ويواجهه فهو مخلوق ناقص يفترق الى خالق كامل لا يصاده ويواجهه شيء وإلا كان مخلوقاً (وبمقارنته بين الأشياء عرف ان لا قرين له) . وأيضاً من كان له مساو ونظير في شيء فهو لا يمتاز عن شريكه في ذلك الشيء ، ومعنى هذا انهما يستمدان هذا التشابه من مصدر واحد لا شبيه له وقرين . وبكلمة ثانية : إن الذي خلق الأشباه والأضداد لا شبه له ولا ضد ، لأن الخالق لا يوصف بخلقه .

(ضاد النور - الى - متدانياتها) . هذه أمثلة للمتضادات والمتشابهات ، وانه تعالى قد جمع وألف بين الأضداد ، وفرّق وباعد بين الأشباه ، ذاك الاتصال ، وهذا الانفصال ، وهما يدلان على قدرته تعالى وعظمته ، وانه فوق الأضداد والأشباه ، وإن قال قائل : إن حركة المادة هي التي فصلت الشبيه عن مثله ، وجمعت الضد الى ضده قلنا في جوابه : إن الله سبحانه هو الذي خلق المادة ، وأودع فيها الحركة التي توصل وتفصل : « وخلق كل شيء فقدره تقديراً - ٢ الفرقان » . (لا يشمل بحد) أي لا يكشف عن ذاته وحقيقته تعالى أي تعريف بالغاً ما بلغ من التطويل والتفصيل ، لأن من شروط الحد والتعريف أن يكون مساوياً للمحدود والمعرف ، وذاته تعالى لا أول لها ولا آخر ، فكيف تُحد وتُعرف بالمحدود والمباين ٢ .

(ولا يحسب بعد) ان الله واحد لا بقسمة وكثرة ، بل بعدم المثل والنظير

« ليس كمثل شيء وهو السميع البصير - ١١ الشورى » . (وانما تحد الأدوات أنفسها ، وتشير الآلات الى نظائرها) . الأدوات والآلات شيء واحد ، والمراد بأنفسها أجناسها وأنواعها ، والمعنى ان الحواس تكون طريقاً لمعرفة الشيء المحسوس ، أما غير المحسوس فلا طريق للعلم بوجوده إلا العقل بسبب الآثار ومبدأ العلية (منعته منذ القدمية ، وحتمها قد الأزلية ، وجنبها لولا التكملة) هاء التأنيث في الأفعال الثلاثة للأدوات والآلات ، أو لجميع المخلوقات بقريئة السياق ، والمعنى ان كل حادث يقال في حقه : « وجد منذ كذا » ، وقد كان بعد أن لم يكن ، ولولا الجدوث ما ساغ وجود « منذ وقد » كما ان وجودهما يمنع من القدم والأزلية ، وأيضاً وجود « لولا » يمنع من الكمال والتمام . وبالتالي فلا تجري في حقه تعالى كلمة « منذ ولولا وقد » بالمعنى الذي أشرنا اليه .

(وبها تجلى صانعها للعقول) أي بالأدوات والحواس ، أو بالخلق والآثار تدرك العقول وجود الله بضميمة مبدأ العلية (وبها امتنع عن نظر العيون) ضمير « بها » يعود الى العقول التي حكمت وجزمت بأنه تعالى لا يدرك بالحس ، وسبق الكلام عن ذلك في العديد من الخطب ، وآخرها الخطبة ١٨٣ عند قول الإمام : « تتلقاه الأذهان لا بمشاعرة » وقوله : « وبها امتنع منها » .

(ولا يجري عليه السكون والحركة) . لا يتصف سبحانه بالسكون والحركة لأمر :

١ - (وكيف يجري عليه ما هو أجراه) . انه تعالى خالق الحركة والسكون ، والخالق لا يتصف بخلقه بحكم البدئية .. وقوله : يعود .. ويحدث .. عطف تفسير على قوله : يجري عليه .

٢ - (واذن لتفاوت ذاته) لو جرى عليه تعالى السكون والحركة لكانت ذاته متغيرة ساكنة تارة ، وطوراً متحركة ، ولا تارات واطواراً لله سبحانه .

٣ - (ولتجزأ كنهه) أي لو اتصف بالحركة والسكون لكانت حقيقته تعالى مركبة منها والمركب مفتقر لأجزائه ، ولفاعل يؤلف بينها ، والله غني بالذات ، وغيره مفتقر اليه .

٤ - (ولا تمتنع من الأزل معناه) . الله قديم أزلاً ، دائم أبداً ، والمركب حادث وجوداً ، والى أجل .

٥ - (ولكان له وراء إذ وُجد له إمام) . المتحرك ينتقل من وضع حاضر الى مستقبل، والحاضر يصير ماضياً والماضي يُدبر فيكون وراء ، والمستقبل يقتحم فيكون أماماً ، والله منزّه عن الاقبال والادبار ، والتغير من حال الى حال ، وعن الجهات والأوقات .

٦ - (ولانتمس التمام إذ لزمه النقصان) . السكون نقص لأنه موت وعدم، والحركة التماس للكمال ، والله كامل بالذات ، وكماله مطلق من كل وجه (وإذن لقامت آية المصنوع فيه ، ولتحول دليلاً بعد أن كان مدلولاً عليه) أي ان السكون والحركة هما من العلامات الدالة على وجود الصانع والمؤثر حركةً وسكوناً، ولو اتصف بهما خالقهما وموجدهما لانعكس الأمر ، وصار المؤثر أثراً ، والخالق مخلوقاً ، والمدلول عليه بالآثار دليلاً (وخرج بسلطان الامتناع من أن يؤثر فيه ما يؤثر في غيره) . الله أجل وأرفع من أن يؤثر فيه ، ويفعل به غيره ما فعل هو بغيره ، كيف ؟ وهل يخلق الفعل فاعله ، والبناء من بناء ؟.

(الذي لا يحول ولا يزول ولا يجوز عليه الأفول) . انه تعالى منزّه عن قبول التغيرات .. أبداً لا يحدث فيه شيء كان معدوماً ، ولا يعدم منه شيء كان موجوداً .. انه يحيي الأموات ، ويميت الأحياء ، وهو حي دائم لا يموت (لم يلد فيكون مولوداً ، ولم يولد فيصير محدوداً) . لو جاز أن يكون سبحانه والداً لجاز أيضاً أن يكون ولداً ، وان قال قائل : ان آدم والد لغيره ، وليس ولداً لأحد - قلنا في جوابه : ان آدم تولد من الأرض بقدره الله ، وان لم يتولد بالتناسل المعروف .. هذا ، الى أن آدم محدود بدايةً ونهايةً . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وتقدم مثله مع الشرح مفصلاً في الخطبة ١٨٠ (جل عن اتخاذ الأبناء الخ) .. والنساء ، لأنه غني بذاته عن كل شيء .

(لا تناله الأوهام - الى - ما يعدّله) . ذات الله لا تدرك بحس ولا بعقل ويُدرك وجوده تعالى بمنطق الحس والعقل معاً : فالأول يرى الخلق والآثار ، والثاني يحكم بوجود المؤثر مستنداً لمبدأ العلية ، وذاته جل وعلا هي قوة عليا وراء الطبيعة ، وليست من جنسها في شيء ، انها دائمة سرمدية لا بداية لها ولا نهاية، لا يحويها أو يحملها شيء ، بل هي فوق الأشياء ، ولو حملها أو حواها شيء لالت بحركاته يمنية ويسرة ، وعلواً وانخفاضاً ، وأيضاً هي قوة عالمة وحكيمة ،

وقادرة عادلة ، تفعل وتُشرّع ، وتثيب وتعاقب، وتسمع الشكوى ، وتكشفها ان شاءت .

(ليس في الأشياء بوالج ، ولا عنها بخارج) . انه تعالى مع الأشياء ، وغير بعيد عنها ، لأنه خالقها ومدبرها وعالم بأحوالها ، ولأنها تفتقر الى رحمته وعنايته ، ولو تخلى عنها لحظة لم تكن شيئاً مذكوراً ، وهو سبحانه بعيد عن الأشياء بذاته الغنية عن كل شيء ، وصفاته التي ليس كمثله شيء (يخبر لا بلسان ولهوات) . غيرُ الله يتكلم بلسان ، أما هو ، جل وعز ، فيخلق الكلام في لسان من ارتضى من رسول ، أو ما شاء من خلقه ، فالكلام بالنسبة اليه تعالى كالرزق من الصفات الإضافية لا الذاتية . قال الشيخ محمد عبده : « كلام الله حادث عند جميع الفرق ما خلا جماعة من الحنابلة » فإنهم قالوا : كلام الله صفة له ، وكل ما هو صفة له فهو قديم . وتقدم مثله في الخطبة ١٨٠ .

(ويسمع لا بخروق وأدوات) لأنه ليس بجسم ، ومعنى سمعه تعالى علمه بالمسموعات : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد - ١٨ ق » . (يقول ولا يلفظ) بل يخلق الكلام ، كما أشرنا (ويحفظ) أي يراقب ويدبر (ولا يتحفظ) لا يحتاط ويحترس ، لأن الحراسة والتحفظ مصدرهما الخوف .. ولا أمن وسلام إلا بالله ومن الله ، وقد وصف سبحانه نفسه بـ « السلام المؤمن - ٢٣ الحشر » . (يريد ولا يضر) . ولماذا الإضمار والإسرار ما دام يقول للشيء كن فيكون (يحب ويرضى الخ) . ومن البدهة أن حبه تعالى ورضاه هو إنعامه ورحمته ، وإن بغضه وغضبه هو عذابه ونقمته ، أما الرقة والمشقة فن صفات الممكن الحادث ، لا من صفات الواجب القديم .

(يقول لمن أراد كونه الخ) .. يشير بهذا الى الآية ٨٢ من سورة يس : « انما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » . « وانما كلامه فعل منه الخ » .. أشرنا الى انه تعالى يخلق الكلام كما يخلق سائر الأشياء ، ولو كان كلامه صفة ذاتية له لكان قديماً مثله ، ويلزم من ذلك تعدد الآلهة (لا يقال كان الخ) .. في كان ضمير مستتر يعود اليه تعالى ، لا الى كلامه ، والمعنى ان الله هو الأول بالقدم والأزلية ، والآخر بالأبدية والسرمدية ، ولو كان له أول لكان هو والمخلوق سواء ، لا يمتاز عنه بفضيلة ، ولا له عليه من فضل ، ونكرر القول : إن الخالق لا يوصف بخلقه .

وتسأل : كيف لا يوصف الخالق بخلقه مع العلم بأن الله يوصف بالوجود وكذلك جميع الكائنات ، وأيضاً يوصف بالحياة ، وبها يوصف كل ذي روح ، ويوصف سبحانه بالعلم ، وكثيراً غيره ؟

الجواب :

ان صفاته تعالى تخالف صفات المحدثات من وجوه : أولها ان صفاته أصل ، وصفاتها فرع ورشحة من فيضه . ثانيها ان صفاته ضرورية الثبوت ، وممتنعة الزوال ، وصفاتها ممكنة تحدث وتزول . ثالثها ان جميع صفاته تعالى موجودة بوجود واحد ، وصفاتها يتعدد وجودها ويكثر بعددها وكثرتها . رابعها ان صفاته لا حد لها ولا نهاية ، وصفاتها تنتهي وتقف عند حد لا تتجاوزه ، وبكلمة ان صفات غيره عدم بالنسبة الى صفاته تعالى ، ولا جامع بين الاثنين إلا أداة التعبير عن الأصل وفروعه .

الشاء الدليا وفناؤها .. فقرة ٥ - ٨ :

خَلَقَ الْخَلَائِقَ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ خَلَا مِنْ غَيْرِهِ ، وَلَمْ يَسْتَعِنْ عَلَى خَلْقِهَا بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ . وَأَنْشَأَ الْأَرْضَ فَأَمْسَكَهَا مِنْ غَيْرِ اسْتِغَالٍ . وَأَرْسَاهَا عَلَى غَيْرِ قَرَارٍ . وَأَقَامَهَا بِغَيْرِ قَوَائِمٍ . وَرَفَعَهَا بِغَيْرِ دَعَائِمٍ . وَحَصَّنَهَا مِنَ الْأَوْدِ وَالْإِغْوِجَاجِ . وَمَنْعَهَا مِنَ التَّهَاتِ وَالْإِنْفِرَاجِ . أَرَسَى أَوْتَادَهَا ، وَضَرَبَ أَسْدَادَهَا ، وَأَسْتَفَاضَ عُيُونَهَا وَخَدَّ أَوْدِيَّتَهَا . فَلَمْ يَبْنِ مَا بَنَاهُ ، وَلَا ضَعُفَ مَا قَوَّاهُ . هُوَ الظَّاهِرُ عَلَيْهَا بِسُلْطَانِهِ وَعَظَمَتِهِ ، وَهُوَ الْبَاطِنُ لَهَا بِعِلْمِهِ وَمَعْرِفَتِهِ ، وَالْعَالِي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِنْهَا بِجَلَالِهِ وَعِزَّتِهِ . لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ مِنْهَا طَلَبُهُ ، وَلَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ فَيْغَلِبُهُ ، وَلَا يَفْوُتُهُ السَّرِيعُ مِنْهَا فَيَسْبِقُهُ ، وَلَا يَخْتَاجُ إِلَى ذِي مَالٍ

فَيَرْزُقُهُ . خَضَعَتِ الْأَشْيَاءُ لَهُ ، وَذَلَّتْ مُسْتَكِينَةً لِعَظَمَتِهِ ، لَا تَسْتَطِيعُ
الْهَرَبَ مِنْ سُلْطَانِهِ إِلَى غَيْرِهِ فَتَمْتَنِعَ مِنْ نَفْعِهِ وَضَرِّهِ ، وَلَا كُفْرًا لَهُ
فِي كَافِيَتِهِ ، وَلَا نَظِيرَ لَهُ فَيُسَاوِيَهُ . هُوَ الْمَفْنِي لَهَا بَعْدَ وُجُودِهَا ،
حَتَّى يَصِيرَ مَوْجُودُهَا كَمَفْقُودِهَا^(٥) . وَلَيْسَ فَنَاءُ الدُّنْيَا بَعْدَ أَيْتَادِهَا
بِأَعْجَبَ مِنْ إِنْشَائِهَا وَاخْتِرَاعِهَا . وَكَيْفَ لَوْ اجْتَمَعَ جَمِيعُ حَيَوَانِهَا
مِنْ طَيْرِهَا وَبَهَائِمِهَا ، وَمَا كَانَ مِنْ مُرَاحِمِهَا وَسَائِمِهَا ، وَأَصْنَافِ
أَنْسَانِهَا وَأَجْنَاسِهَا ، وَمُتَبَلِّلَةِ أُمَمِهَا وَأَكْبَاسِهَا عَلَى إِحْدَاثِ بَعُوضَةٍ مَا
قَدَّرَتْ عَلَى إِحْدَاثِهَا ، وَلَا عَرَفَتْ كَيْفَ السَّبِيلِ إِلَى إِيجَادِهَا . وَلَتَحَيَّرَتْ
عُقُولُهَا فِي عِلْمِ ذَلِكَ وَتَأَهُتْ ، وَعَجَزَتْ قُوَاهَا وَتَنَاهَتْ ، وَرَجَعَتْ
خَاسِئَةً حَسِيرَةً عَارِفَةً بِأَنَّهَا مَقْهُورَةٌ ، مُقَرَّةٌ بِالْعَجْزِ عَنْ إِنْشَائِهَا ، مُذِئِنَّةٌ
بِالضَّعْفِ عَنْ إِفْنَائِهَا^(٦) . وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَعُودُ بَعْدَ فَنَاءِ الدُّنْيَا وَحْدَهُ
لَا شَيْءَ مَعَهُ . كَمَا كَانَ قَبْلَ أَيْتَادِهَا كَذَلِكَ يَكُونُ بَعْدَ فَنَائِهَا .
بِلَا وَقْتٍ وَلَا مَكَانٍ ، وَلَا حِينٍ وَلَا زَمَانٍ . عُذِمَتْ عِنْدَ ذَلِكَ
الْأَجَالُ وَالْأَوْقَاتُ ، وَزَالَتِ السُّنُونُ وَالسَّاعَاتُ . فَلَا شَيْءَ إِلَّا أَلْوَا حُدُ
الْقَهَّارُ الَّذِي إِلَيْهِ مَصِيرُ جَمِيعِ الْأُمُورِ . بِلَا قُدْرَةٍ مِنْهَا كَانَ أَيْتَادُهَا
خَلَقَهَا ، وَبِغَيْرِ أَمْتِنَاعٍ مِنْهَا كَانَ فَنَاؤُهَا . وَلَوْ قَدَّرَتْ عَلَى الْإِمْتِنَاعِ
دَامَ بَقَاؤُهَا . لَمْ يَتَكَاهَذْهُ صُنْعُ شَيْءٍ مِنْهَا إِذْ صَنَعَهُ ، وَلَمْ يُوْذْهِ

مِنْهَا خَلَقَ مَا خَلَقَهُ وَبَرَّاهُ . وَلَمْ يُكَوِّنْهَا لِتَشْدِيدِ سُلْطَانٍ ، وَلَا خَوْفٍ
 مِنْ ذَوَالٍ وَنُقْصَانٍ ، وَلَا لِلِاسْتِعَانَةِ بِهَا عَلَى نِدٍّ مُكَاثِرٍ ، وَلَا
 لِلِاخْتِرَازِ بِهَا مِنْ ضِدٍّ مُشَاوِرٍ . وَلَا لِلِازْدِيَادِ بِهَا فِي مُلْكِهِ ، وَلَا
 لِمُكَاتَرَةِ شَرِيكِ فِي شَرِكِهِ . وَلَا لَوَحْشَةٍ كَانَتْ مِنْهُ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَأْنِسَ
 إِلَيْهَا ^(٧) . ثُمَّ هُوَ يُفْنِيهَا بَعْدَ تَكْوِينِهَا لَا لِسَامٍ دَخَلَ عَلَيْهِ فِي
 تَضَرُّفِهَا وَتَذْيِيرِهَا ، وَلَا لِرَاحَةٍ وَاصِلَةٍ إِلَيْهِ . وَلَا لِثِقَلِ شَيْءٍ مِنْهَا
 عَلَيْهِ . لَمْ يُمْلَهُ طَوْلُ بَقَائِهَا فَيَدْعُوهُ إِلَى سُرْعَةِ إِفْنَائِهَا . لَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ
 دَبَّرَهَا بِلُطْفِهِ ، وَأَمْسَكَهَا بِأَمْرِهِ ، وَأَتَقَنَهَا بِقُدْرَتِهِ ، ثُمَّ يُعِيدُهَا بَعْدَ
 الْفَنَاءِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ مِنْهُ إِلَيْهَا ، وَلَا أَسْتِعَانَةَ بِشَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهَا ، وَلَا
 لِانْصِرَافٍ مِنْ حَالٍ وَحْشَةٍ إِلَى حَالٍ أَسْتِئْنَسَ ، وَلَا مِنْ حَالٍ جَهْلِ
 وَعَمَى إِلَى حَالٍ عِلْمٍ وَآلِئَاسٍ . وَلَا مِنْ فَقْرٍ وَحَاجَةٍ إِلَى غِنَى وَكَثْرَةٍ .
 وَلَا مِنْ ذُلٍّ وَضَعَةٍ إِلَى عِزٍّ وَقُدْرَةٍ ^(٨) .

اللغة :

الأود : الأعوجاج . وتهافت : تساقط . وانفرج : انفتح . وأسداد : جمع
 سد . وخذ : شق . والمراح - بفتح الميم - موضع الرواح ، وبضمها :
 مأوى الإبل والبقر والغنم والماعز ، وهو المراد هنا . وسائمها : راعيها . ومتبلدة :
 غبية . وأكياس : جمع كيس - بتشديد الياء - وهو العاقل الحاذق . وخاسته :
 ذليلة . وحسيرة : كليلة . وتكاد وتكاد الأمر : شق عليه . وآده يؤوده :
 ثقل ويثقل . وبراه : خلقه . ومثاور : من ثاوره أي واثبه وهاجمه .

الإعراب :

تمتنع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء، ويصير بأن مضمرة بعد حتى، وكمفقودها الكاف بمعنى مثل خبراً ليصير ، وبأعجب الباء زائدة ، وأعجب خبر ليس ، وما قدرت جواب لو ، والسبيل مبتدأ مؤخر ، وكيف خبر مقدم ، وخاسئة حال ، ومثلها حسيرة وعارفة ، ووحده حال ، وجملة لا شيء معه بدل من وحده ، حث أجاز ابن هشام وغيره أن تُبدل الجملة من المفرد .

المعنى :

(خلق الخلائق — الى — خلقه) . المثال هو الشبيه والنظير ، وكان الله ولم يكن معه شيء ، ومن ارادته وحدها نبع الكون بمادته وصورته ، وإذا لم يكن في الوجود من شيء غير الله فن أين تأتي العدوى والمحاكاة ؟ (وأنشأ الأرض — الى — الانفراج) . خلق الله الكون ، وجعل له قوانين دائمة ثابتة تعمل فيه عملها وتؤثر أثرها ، ومنها قانون الجاذبية الذي اكتشفه إسحق نيوتن ، وبهذا القانون تثبت الأرض في فلكها من غير دعائم وقوائم ، وبه تدور حول نفسها وحول الشمس ، ولو انحرفت عن مكانها المقرر وأسرعت أكثر مما ينبغي لتطارت أجزاءها في الهواء ، ولو أبطأت في حركتها عن المعدل لهلك الناس من حر أو برد ، كما قال أهل الاختصاص ، وتقدم مثله في الخطبة ٨٩ .

(أرسى أوتادها) قال سبحانه : « ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً — ٧ النبأ » . (وضرب أسداها) جمع سد ، وهو الحاجز والحد بين شيئين .. وغير بعيد أن يكون هذا إشارة الى الحدود والعلامات بين القارات (واستفاض عيونها ، وخذ أوديتها) . فجّر الأرض عيوناً، فسلك الماء في الجداول والقنوات ، وتقدم مثله في الخطبة ٨٩ (فلم يهن ما بناه ، ولا ضعف ما قواه) . خلق كل شيء تاماً في عالمه ، لا خلل فيه ولا فتور : « صنّع الله الذي أتقن كل شيء — ٨٨ النمل » . (الظاهر عليها بسلطانه وعظمته) . كل شيء في قبضته (وهو الباطن لها بعلمه ومعرفته) . أحاط علماً بظواهرها وباطنها (والعالي على كل شيء بجلاله وعزته) . لا يدانيه شيء كمالاً وجلالاً ، لأنه خالق كل شيء .

(لا يعجزه شيء - الى - ضره) . هو القوي ذاتاً ، ولا حول ولا قوة إلا به ومنه ، وكل شيء خاضع له ، فكيف يفوته ويمتنع عنه ما طلب ، أو يطلب المعونة من معين ؟ . (ولا كفء له الخ) .. لو كان في الوجود إلهان ، وعجز كل منهما عن القضاء على صاحبه - ولو بحسب الإمكان - لانتفت صفة الألوهية عنهما معاً ، لمكان العجز ، وإن قدر كل منهما على الآخر تناحرا وانتهى الأمر ، وكان وجودهما سبباً لعدمهما ، على حد ما قال صاحب «الأسفار» (هو المفضي لها الخ) .. يوجد هاتين شيئين ، ولا يبقى إلا وجهه الكريم . ومن البدهة ان الإفناء أيسر من الإيجاد ، والهدم أهون من البناء .. ويصلح هذا رداً على من قال : إن المادة أزلية أبدية لا بداية لها ولا نهاية .

(وكيف ولو اجتمع - الى - لإنشائها) . كيف ينكر الدهريون والماديون فناء الكون ، وهم يعلمون انه لو اجتمعت الكائنات الحية بشتى أنواعها ، من يعقل منها ، وما لا يعقل ، وحاولت جاهدة أن توجد بعوضة على تفاتها - لعجزت نخاسة معترفة بعجزها ، وإذن فإحداث الشيء وإيجاده أصعب من إفناؤه واعداده ، قال تعالى : « يا أيها الناس ضُرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئاً لن يستنقذوه منه ضعُف الطالب والمطلوب - ٧٣ الحج » . مدعنة بالضعف عن افنائها (أي عن إفناء جنس البعوض من الوجود ، أو إفناء بعوضة امتنعت بالهرب ، واختفت عن الأعين . وتجدر الإشارة الى أن القرآن الكريم أخبر منذ ألف وأربعمئة سنة بأن الناس لا يستطيعون خلق ذبابة ، وقد عجز العلم والعلماء عن ذلك ، وهذا إخبار بالغيب ، فكيف أتيح لمحمد العلم به إذا لم يكن وحياً من الله ؟ .

(وان الله سبحانه يعود - الى - فنائها) . كان الله ولم يكن معه شيء ، ويبقى بعد فناء كل شيء (بلا وقت ولا مكان الخ) .. المكان جسم أو وضع خاص للجسم ، والزمان المعروف بالسنين والشهور والأيام والساعات والثواني هو عبارة عن دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس ، وبعد فناء كل شيء لا أرض ولا شمس ، ولا أجسام واحداث فمن أين يأتي الزمان والمكان والفوق والتحت واليمين والشمال والماضي والحاضر ؟ (فلا شيء إلا الواحد القهار الذي اليه مصير جميع الأمور) منه تبتدىء ، واليه تنتهي (بلا قدرة منها كان ابتداء خلقها الخ) .. هذا رد على من قال : ان الأشياء وجدت أول ما وجدت من

مادة لطيفة كانت تملأ الكون ، وأسماءها بعضهم بالآثير ، وآخر بالسديم ، وثالث بسحب الغاز (ولو قدرت على الامتناع لدام بقاؤها) تماماً كالإنسان أتى الى الحياة الدنيا مرغماً ، وخرج منها مكرهاً .

(لم يتكاده صنع شيء الخ) .. الكون بكامله وجناح البعوضة بمنزلة سواء عند الله ، يخلق هذا وذلك بكلمة «كن» فن أين يأتي التعب واللغب ، والكلفة والمشقة ؟ (ولم يكوّن لها لتشدّيد سلطان الخ) .. لأنه غني بذاته عن سواه ، وما خلاه مفتقر اليه افتقار الممكن للواجب ، والمخلوق للخالق (ولا للاستعانة بها على ند مكاث) لأنه لا ند له ، والند هو المثل ، والمكاثر المفاخر بكثرة المال والرجال (ولا للاحتراز بها من ضد ماثور) لأنه لا ضد له ، والضد هو الخصم والمخالف ، والمثاور المهاجم والمواثب (ولا للازدياد بها في ملكه) لأن ملكه تعالى تام ولا موجب الى الزيادة ، وهو أمره للشيء كن فيكون ، أو لأنه تعالى مالك الملك ، وكل ما يقال له «ملك» فهو له وحده ، وعليه يستحيل تصور الزيادة في ملكه (ولا لمكاثرة شريك في شركه) لأنه لا شريك له ، والمراد بشركه هنا النصيب والملك (ولا لوحشة كانت الخ) .. المستوحش يطلب الجليس والأنيس لحاجته اليه ، والله غني بذاته عن كل شيء . وتقدم مثله في الخطبة ١ و ١٠٧ .

(ثم هو يفنيها بعد تكوينها الخ) .. ضمير التأنيث في تكوينها وفي الكلمات السابقة ، يعود الى الدنيا . لقد خلق سبحانه الدنيا بقدرته ، وأتقن كل شيء بحكمته ، ودبره بلطفه ، لا حاجة منه اليه ، بل إظهاراً لعظمته وكماله ، أو لذلك ولأشياء أخر هو بها أدرى وأعلم ، ثم يفني الدنيا لا لسأم وملل ، بل لأن الهدف المقصود من وجودها قد حصل وتحقق ، ثم يعيد الخلق من جديد ليعجزى الذين أحسنوا بالحسن ، والذين أساءوا بما عملوا .

وتسأل : لقد أطال الإمام في نفي صفات المخلوق عنه تعالى ، كالإيحاء والاستيناس ، والتعب والراحة ، والفقر والجهل الخ .. مع ان الأمر واضح لا يحتاج الى تطويل وتفصيل ، ويكفي القول : الخالق لا يوصف بخلق .. والعقل لا يدرك إلا المحدود والمخلوق .

الجواب :

لا يحق لأحد أن يفسر أي قول أو فعل بمعزل عن أوضاع القائل والفاعل ،

وعن الظروف التي كانت تحيط به ، وتدفعه الى القول والفعل . ومن الجائز ان بعض من مخاطبهم الإمام بكلامه هذا كان يوسوس لهم الشيطان بهذه الخطرات ، فدعت الحاجة الى التكرار والتأكيد ، والتنزيه عما تناله الأوهام . وفي كتاب الكافي ان رجلاً قال للإمام الصادق (ع) : من الناس من يقول : إن الله جسم، ومنهم من يقول : انه صورة .

الخطبة

- ١٨٥ -

حكم الصغار :

أَلَا يَا بَنِي وَآمِي هُمْ مِنْ عِدَّةِ أَسْمَاؤُهُمْ فِي السَّمَاءِ مَعْرُوفَةٌ ، وَفِي الْأَرْضِ
بَجْهُولَةٍ ، أَلَا فَتَوَقَّعُوا مَا يَكُونُ مِنْ إِدْبَارِ أُمُورِكُمْ ، وَأَنْفِطَاعِ
وَصْلِكُمْ ، وَأَسْتِعْمَالِ صِغَارِكُمْ . ذَاكَ حَيْثُ تَكُونُ ضَرْبَةُ السَّيْفِ
عَلَى الْمُؤْمِنِ أَهْوَنَ مِنَ الدَّرْهِمِ مِنْ حِلِّهِ . ذَاكَ حَيْثُ يَكُونُ الْمُعْطَى
أَعْظَمَ أَجْرًا مِنَ الْمُعْطَى . ذَاكَ حَيْثُ تَسْكُرُونَ مِنْ غَيْرِ شَرَابٍ ،
بَلْ مِنَ النَّعْمَةِ وَالنَّعِيمِ ، وَتَخْلِفُونَ مِنْ غَيْرِ أَضْطِرَارٍ ، وَتَكْذِبُونَ
مِنْ غَيْرِ إِحْرَاجٍ . ذَلِكَ إِذَا عَضَّكُمْ الْبَلَاءُ كَمَا يَعْضُ الْقَتَبُ غَارِبَ
الْبَعِيرِ . مَا أَطْوَلَ هَذَا الْعَنَاءَ وَأَبْعَدَ هَذَا الرَّجَاءَ . أَيُّهَا النَّاسُ أَلْقُوا
هَذِهِ الْأَزِمَةَ الَّتِي تَحْمِلُ ظُهُورَهَا الْأَثْقَالَ مِنْ أَيْدِيكُمْ ، وَلَا تَصَدَّعُوا
عَلَى سُلْطَانِكُمْ فَتَذْمُوا غِيبَ فِعَالِكُمْ . وَلَا تَقْتَحِمُوا مَا اسْتَقْبَلْتُمْ مِنْ

فَوْرٍ نَارِ الْفِتْنَةِ . وَأَمِيطُوا عَنْ سَنَنِهَا ، وَخَلُّوا قَصْدَ السَّبِيلِ لَهَا .
فَقَدْ لَعَمْرِي يَهْلِكُ فِي لَهَبِهَا الْمُؤْمِنُ وَيَسْلُمُ فِيهَا غَيْرُ الْمُسْلِمِ . إِنَّمَا
مَثَلِي بَيْنَكُمْ مَثَلُ السَّرَاجِ فِي الظُّلُمَةِ يَسْتَضِيءُ بِهِ مَنْ وَلَجَهَا . فَاسْتَمِعُوا أَيُّهَا
النَّاسُ وَعُوا ، وَأَحْضِرُوا آذَانَ قُلُوبِكُمْ تَفْهَمُوا .

اللغة :

العدة - بكسر العين - الجيعة ، وبضمها الاستعداد . والصغار : لا دين لهم
ولا شأن . والقتب : ما يوضع على ظهر الجمل كالسرج . والغارب : ما بين
العنق والسنام . والأزمة : جمع زمام ، وهو المقود . والغب - بكسر الغين -
العاقبة . وفور النار : لهبها . وأميطوا : تنحوا . وعن سننها : عن طريقها :
ولجها : دخلها .

الإعراب :

بأبي متعلق بمحذوف أي أفدي بأبي وأمي ، وهم مبتدأ أول ، وأسمائهم
مبتدأ ثان ، ومعروفة مجهولة خبر الثاني ، والجملة خبر الأول ، واشتبه من قال :
بأبي خبر مقدم وهم مبتدأ مؤخر ، لأن « هم » وما بعدها كلام مستأنف ،
« كأن » سائلاً قال : من هم الذين تفديهم ؟ فأجاب « هم الخ » . وما أطول
« ما » مبتدأ بمعنى شيء ، وأطول فعل ماضٍ للتعجب وفاعله مستتر ، وهذا مفعول ،
والعناء عطف بيان من هذا ، والجملة خبر ، وفيها معنى التعجب .

المعنى :

(ألا بأبي وأمي الخ) .. يشير بهذا الى زمرة من أهل الله يأتون من بعده ،
لهم درجات عند ربهم ومغفرة ، أما عند الناس فهم من المنسين لا لشيء إلا

لأنهم يتقون الله ، وبأمره يعملون (ألا فتوقعوا ما يكون من إدبار أموركم ، وانقطاع وصلكم ، واستعمال صفاركم) . أنتم الآن في ظل حاكم يسوسكم بالحق والعدل ، ويحمل همومكم وآلامكم ، ويؤثركم على نفسه وذويه، وسوف يتولى أمركم من بعده ظلوم غشوم ، لا يرى إلا همومه ونفسه ، والا لإذلالكم واستعبادكم .

(ذاك حيث تكون ضربة الخ) .. تنسد أبواب الرزق ومسالكه إلا على الخوة والقراصنة ، ولا يجد الحر الأمين وسيلة للعيش : ويكون ضربه بالسيوف وطمه بالرماح أهون عليه وأيسر من الحصول على لقمة الحلال (ذاك حيث يكون المعطي - اسم مفعول - أعظم أجراً من المعطي ، اسم فاعل) ، أي يأتي زمان يكون المؤمن المخلص الذي يأخذ الصدقة أفضل عند الله من معطيها .. وأطال الشارحون في تأويل هذا الكلام وتوجيهه بما يتفق مع ما هو معروف من « ان اليد العليا خير من اليد السفلى » ولكنهم لم يأتوا بشيء - كما نظن - والذي نراه ان كل من يجد العمل السائب ولا يعمل ، ويعيش عالة على غيره فهو من الذين لا شأن لهم عند الله والناس ، والنملة الكادحة خير منه . أما من يألف من الأخذ ، ويأبى بطبعه أن يكون كلاً على غيره ، وفي الوقت نفسه يتورع عن الحرام بشئ أنواعه ، ويبعث جاهداً عن الحلال والعيش بكد اليمين ، ولكن لا يجد السبيل إليه ، فيضطر مكرهاً لأخذ الصدقات لا مختاراً - أما هذا الشريف المتعفف فهو أعظم أجراً عند الله ممن يتصدق، لأن الظروف أرغمته على تقبل الدل والعيش على أوساخ الناس ، فيعوضه الله سبحانه عن ذلك بالأجر العظيم .

(ذاك حيث تسكرون من غير شراب ، بل من النعمة والنعيم) . يريد بهذا المترفين ورجال المال ، وحكام الجور وأذنانهم بدليل كلمة « النعمة والنعيم » . (وتحلفون من غير اضطراب الخ) .. قد يجوز الكذب مع التورية لدفع الضرر .. حتى اليمين الكاذبة تسوغ وتحل لنجاة نفس محترمة من الهلاك ، وخلصها من طاغية شريطة أن ينحصر سبيل نجاته بهذه اليمين .. أما الكذب تملقاً ورياء لا لشيء إلا للربح وجلب المنفعة فهو من أكبر الكبائر (ذاك اذا عضكم البلاء كما يعرض القتب غارب البعير) . قيل : ان هذه الجملة لا صلة لها بما قبلها ، وان الشريف الرضي اقتطعها من كلام آخر ، وحشرها هنا ، كما هي عادته .. وليس هذا ببعيد ، وعلى أية حال فالمعنى الظاهر منها أن شيعة الإمام (ع) سوف يلاقون بعده الشدائد ، ولا يعرفون وجه الخلاص ، وقد حدث ذلك بالفعل .

(ما أطول هذا العناء ، وأبعد هذا الرجاء) . يشير بالعناء الى فساد الأوضاع من بعده، وانها تنتقل من سيء الى أسوأ (أيها الناس ألقوا هذه الأزمّة - الى - سلطانكم) . المراد بالأزمّة هنا الآراء الفاسدة ، والضمير في ظهورها يعود الى الأزمّة ، ومن أيديكم متعلق بألقوا ، والمعنى ان الآراء الفاسدة تحمل الكثير من الذنوب والخطايا ، وترك أسوأ الأثر ، فيجب تركها وعدم العمل بها ، ثم أمر أصحابه بوحدة الصفوف، وطاعة السلطان ، ويعني به نفسه (فتقدموا غب فعالكم) أي اذا اتبعتم الآراء الفاسدة ، وتفرقتم عن إمامكم - ظهر عليكم عدوكم، وكانت العاقبة له عليكم (ولا تقتحموا ما استقبلتم الخ) .. ابتعدوا عن الخلافات والمشاحنات، فإنها تكوي بنارها الأخيار ، ولا يستفيد منها إلا الانتهازيون الأشرار .

(إنما مثلي بينكم الخ) .. المراد بالظلمة الفساد والضلال ، وبالسراج الهدى والصلاح ، والإمام علّم الهدى والحق ، ومنار الخير والعدل ، من استرشد به فهو المهتدي ، ومن ضل عن سبيله فهو من الخاسرين .

الخطبة

- ١٨٦ -

كلّى بالموت واعظاً :

أَوْصِيَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ بِتَقْوَى اللَّهِ وَكَثْرَةِ حَمْدِهِ عَلَى آلَائِهِ إِلَيْكُمْ ، وَنِعْمَائِهِ عَلَيْكُمْ ، وَبَلَائِهِ لَدَيْكُمْ . فَمَنْ خَصَّكُمْ بِنِعْمَةٍ ، وَتَدَارَكَكُمْ بِرَحْمَةٍ ، أَعْوَرْتُمْ لَهُ فَسَتَرَكُم ، وَتَعَرَّضْتُمْ لِأَخْذِهِ فَأَمْهَلَكُم . وَأَوْصِيَكُمْ بِذِكْرِ الْمَوْتِ وَإِقْلَالِ الْغَفْلَةِ عَنْهُ . وَكَيْفَ غَفَلْتُمْ عَمَّا لَيْسَ يُغْفَلُكُمْ ، وَطَمَعْتُمْ فِيمَنْ لَيْسَ بِمِثْلِكُمْ . فَكَفَى وَاعِظاً بِمَوْتِي عَايِنْتُمُوهُمْ . حُلُّوا إِلَى قُبُورِهِمْ غَيْرَ رَاكِبِينَ ، وَأَنْزِلُوا فِيهَا غَيْرَ نَازِلِينَ . فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا لِلدُّنْيَا عُمَرَاءَ ، وَكَأَنَّ الْآخِرَةَ لَمْ تَزَلْ لَهُمْ دَاراً . أَوْحَشُوا مَا كَانُوا يُوْطِنُونَ ، وَأَوْطَنُوا مَا كَانُوا يُوْحِشُونَ . وَاشْتَغَلُوا بِمَا فَارَقُوا ، وَأَضَاعُوا مَا إِلَيْهِ أُنْتَقَلُوا . لَا عَنْ قَبِيحٍ يَسْتَطِيعُونَ أَنْتِقِلَاءً ، وَلَا فِي حَسَنِ يَسْتَطِيعُونَ أَزْدِيَاداً . أَنْسُوا بِالدُّنْيَا فَعَرَّثْتُمْ ، وَوَثِقُوا بِهَا فَصَرَعْتُمْ .

فَسَابِقُوا - رَحِمَكُمُ اللَّهُ - إِلَى مَنَازِلِكُمُ الَّتِي أُمِرْتُمْ أَنْ تَعْمُرُوهَا ، وَالَّتِي رُغِبْتُمْ فِيهَا وَدُعِيتُمْ إِلَيْهَا . وَأَسْتَسْتِمُوا نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى طَاعَتِهِ ، وَالْمَجَانَّةِ لِمَغْصِيَّتِهِ فَإِنَّ غَدَاً مِنَ الْيَوْمِ قَرِيبٌ . مَا أَسْرَعَ السَّاعَاتِ فِي الْيَوْمِ ، وَأَسْرَعَ الْأَيَّامِ فِي الشَّهْرِ ، وَأَسْرَعَ الشُّهُورِ فِي السَّنَةِ ، وَأَسْرَعَ السِّنِينَ فِي الْعُمُرِ .

اللغة :

البلاء : الاختبار بالخير والشر ، قال تعالى : « وبلوناهم بالحسنات والسيئات — ١٦٨ الاعراف » . والمراد به هنا البلاء بالخير . وأعورتم : أظهرتم عوراتكم أي عيوبكم . وأوحشوا المكان : هجروه . وأوطنوه : سكنوه واتخذوه وطناً .

الإعراب :

كم خبرية ، وتمييزها عذوف أي كم مرة ، ومحلها الرفع بالابتداء ، وجملته خصمكم خبر ، وطمعكم عطف على غفلتكم ، وكفى فعل ماضٍ ، ووعظاً تمييز ، وموتى فاعل ، والباء زائدة ، وغير راكبين حال من فاعل حملوا ، ومثله غير نازلين ، ومن اليوم متعلق بقريب .

المعنى :

(أوصيكم أيها الناس - إلى - أمهلكم) . أطيعوا الله واحمدوه ، لأنه أحسن وأكرم ، لقد عصيتموه في الخفاء فستر وأمهل رحمة منه وتفضلاً ، فتداركوا ذنوبكم بالتوبة ، كما تدارككم هو بالرحمة (وأوصيكم بذكر الموت) لأن من ذكره وارتقبه سارع إلى الخيرات قبل فوات الأوان (وكيف غفلتكم الخ) .. لا مفر من الموت ، وأيضاً لا تعجيل أو تأجيل لأمدّه ، فكيف تغفلون عنه ، ولا تعدون له عدته ؟ .

(فكفى بموتى عايتتموهم) ان مصيركم هو مصير من رأيتم من الأموات ،
والعاقل من اتعظ بغيره قبل أن يوعظ به (حملوا الى قبورهم الخ) .. أركبوا
الأعواد، ولم يركبوها مختارين ، وأنزلوا في القبور ، ولم ينزلوا مريدين (فكأنهم
لم يكونوا للدنيا - الى - صرعتهم) . انصرفوا الى الدنيا بكل ما لديهم من
طاقة ، فبنوا وشيّدوا ، وزرعوا وأنقنوا ، أما الآخرة فكأنها لم تكن ، وسرعان
ما انتقلوا من تلك العامرة الى هذه الخراب اليباب خالدين فيها لا يملكون كشف
الضر عنهم ولا تحويلاً .

(فسابقوا رحمكم الله الخ) .. اعملوا للآخرة فلإنها خير وأبقى (والتي رغبتم
فيها) . رغبوا في الجنة ، ولكن بلا عمل ، وطلبوا المغفرة ، ولكن بلا توبة
(واستتموا نعم الله الخ) .. وتمازى النعم بدوامها ، ولا تدوم إلا بالشكر ،
والصبر على طاعة الله ، والبعد عن المعصية .. والجزاء آت لا محالة ، وكل آت
قريب ، وان طال الزمن ، لأن الساعة جزء من اليوم ، واليوم جزء من الشهر ،
والشهر جزء من السنة ، وهي جزء من السنين . قال الشيخ محمد عبده : « ابتدأ
الإمام بالصغير الذي ينتهي سريعاً ، وانتهأؤه يستوجب انتهاء الكبير ، وهكذا
حتى يكون انتهاء الأكبر لازماً .. وهو كلام بالغ الغاية في الموعظة » .

الخطبة

- ١٨٧ -

في الإيمان والهجرة :

فَإِنَّ الْإِيمَانَ مَا يَكُونُ ثَابِتًا مُسْتَقِرًّا فِي الْقُلُوبِ . وَمِنْهُ مَا يَكُونُ
عَوَارِي بَيْنَ الْقُلُوبِ وَالصُّدُورِ إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ . فَإِذَا كَانَتْ لَكُمْ
بَرَاءَةٌ مِنْ أَحَدٍ فَقِفُوهُ حَتَّى يَحْضُرَهُ الْمَوْتُ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقَعُ حَدُّ
الْبَرَاءَةِ . وَالْهَجْرَةُ قَائِمَةٌ عَلَى حَدِّهَا الْأَوَّلِ . مَا كَانَ لِلَّهِ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ
حَاجَةٌ مِنْ مُسْتَسْرٍ الْإِمَّةِ وَمُعَلِّنِهَا . لَا يَقَعُ أَسْمُ الْهَجْرَةِ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا
بِمَعْرِفَةِ الْحُجَّةِ فِي الْأَرْضِ . فَمَنْ عَرَفَهَا وَأَقْرَبَهَا فَهُوَ مُهَاجِرٌ . وَلَا
يَقَعُ أَسْمُ الْإِسْتِضْعَافِ عَلَى مَنْ بَلَغَتْهُ الْحُجَّةُ فَسَمِعَتْهَا أُذُنُهُ وَوَعَاَهَا
قَلْبُهُ . إِنَّ أَمْرَنَا صَعْبٌ مُسْتَضْعَبٌ ، لَا يَحْمِلُهُ إِلَّا عَبْدٌ مُؤْمِنٌ أَمْتَحَنَ
اللَّهُ قَلْبَهُ لِلْإِيمَانِ ، وَلَا يَعِي حَدِيثَنَا إِلَّا صُدُورٌ أَمِينَةٌ وَأَحْلَامٌ رَزِينَةٌ
أَيُّهَا النَّاسُ سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي ، فَلَا نَا بِطُرُقِ السَّمَاءِ أَعْلَمُ مِنِّي

بَطْرُقِ الْأَرْضِ ، قَبْلَ أَنْ تَشْغَرَ بِرِجْلَيْهَا فِتْنَةً تَطَأُ فِي خِطَامِهَا ،
وَتَذْهَبُ بِأَحْلَامِ قَوْمِهَا .

اللغة :

عواري : جمع عارية . فقفوه : أوقفوا الحكم عليه . ومستسر : من استسر
الأمر إذا كتمه . والإمة - بكسر الهمزة - الحالة . والمراد بالأحلام هنا العقول .
وشغَرَ بِرِجْلَيْهَا : رفعها . والخطام - بكسر الخاء - مقود البعير ، والخطم :
الأنف وما يليه .

الإعراب :

من الإيمان خبر مقدم ، وما يكون مبتدأ مؤخر ، ومستقرأ صفة مؤكدة
لـ « ثابتاً » وحاجة اسم كان ، ومن مستسر « من » بيانية ، ويجوز أن تكون
زائدة لوقوعها بعد النفي ، ومستسر ومعلن بدل مفصل من مجمل ، والمبدل منه
أهل الأرض .

الإيمان :

يطلق القرآن كلمة الإيمان على مجرد التصديق بأي شيء ، قال تعالى حكاية
عن اخوة يوسف : « وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين - ١٧ يوسف » أي
بمصدق لنا ، وأيضاً يطلقها القرآن على من نطق بكلمتي الشهادة ، كما في الآية ٩٢
من سورة النساء : « ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة » وأوضح من هذه
الآية قوله تعالى : « ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمناً - ٩٤ النساء » .
قال المفسرون : نزلت هذه الآية في بعض الصحابة الذين قتلوا رجلاً نطق بكلمة
الإسلام ظناً منهم انه قالها لينجو من القتل .. ولكن الغرض الأول من إطلاق

كلمة الإيمان على هذا وأمثاله هو مجرد البيان بأن أحكام الإيمان تجري عليه ، كصيانة دمه ، وتزويجه وتوريثه .

أما الإيمان حقاً وواقعاً فلا بد فيه من العمل ، كما في الآية ٤ من سورة الأنفال : « الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقاً » . وقال الإمام الصادق : الإيمان عمل كله .

ومن تتبع كتب التاريخ والفقه والأخلاق وعلم الكلام - يجد أن كلمة مؤمن مرت بأطوار عديدة .. كانت تُطلق في صدر الإسلام على كل مسلم ، وبصورة خاصة في قبال المنافق ، ولا يرى الخوارج فرقاً بين الإسلام والإيمان حيث قالوا : من ارتكب ذنباً صغيراً كان أم كبيراً فهو كافر ، لا يُعد مسلماً ولا مؤمناً ، وقال المعتزلة : مرتكب الكبيرة لبس بمؤمن ، وإن كان مسلماً مخلداً في النار ! . ولفقهاء الشيعة الإمامية بالخصوص اصطلاح في المؤمن الذي يُعطي الزكاة ، وتصح الصلاة خلفه جماعة حيث اشترطوا أن يكون مالياً لأهل البيت .

وقال الأشاعرة : الإيمان هو مجرد التصديق بما جاء به محمد (ص) وليس العمل بشرط .. وقال الكرامية : بل هو مجرد النطق بكلمتي الشهادة ، وليس التصديق بشرط فضلاً عن العمل « المواقف للإيجي ج ٨ » .

أما الإيمان الذي عناه الإمام في هذه الخطبة فهو ما كان طريقاً وسبباً لرضوان الله وجناته .. وليس من شك أن الفوز بجنة الخلد لا يكون إلا بالعمل الصالح ، قال تعالى : « تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً - ٦٣ مريم » . وقال : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين - ١٤٢ آل عمران » . ثم قسّم الإمام هذا الإيمان الى قسمين : منه الأصل الراسخ حتى النفس الأخير ، ومنه العارية المتزلزل الذي يفارق صاحبه قبل الموت . ومن أجل هذا أوصى الإمام أصحابه بقوله :

(فإذا كانت لكم براءة الخ) .. ان رأيتم منكراً من أي انسان فلا تعجلوا في الحكم عليه بما ظهر لكم منه ، وتقولوا : اللهم إنا نبرأ إليك من هذا المجرم الأثيم ، بل عليكم بالصبر والتريث حتى يدركه الموت .. فربما كفر عن سيئاته بالتوبة ، ومحاه بالحسنات .

الهجرة :

(والهجرة قائمة على حدها الأول) . كانت الهجرة واجبة في عهد رسول الله (ص) وما زالت على حكمها اليوم والى آخر يوم .. وان صح حديث «لا هجرة بعد الفتح» فهو محمول على الهجرة من مكة المكرمة الى المدينة المنورة (ما كان لله في أهل الأرض الخ) .. الله غني عن العالمين ، وعن معصية من عصاه ، وطاعة من أطاعه سواء أعلن طاعته في دار الإسلام ، أم أسرها خوفاً وتقية في بلاد الكفر .

سبب الهجرة :

(لا يقع اسم الهجرة على أحد إلا بمعرفة الحجة في الأرض) . وفي بعض طبقات النهج سقطت « الا » ولا يستقيم الكلام إلا بها . والمراد بالحجة في الأرض من يحتاج الله به غداً على المقصرين في معرفة الدين أصولاً وفروعاً معصوماً كان ، أم عالملاً تقياً ، أما سبب الهجرة فهو واحد من اثنين :

الأول : أن يكون المسلم عارفاً بأحكام دينه ، ولكنه لا يستطيع ممارستها والقيام بها ، لأنه يقيم في بلد كافر ، ولا حرية فيه للأديان ، وقد أمر النبي (ص) جماعة من أصحابه بالهجرة الأولى الى الحبشة فراراً من الاضطهاد ، وخوفاً ان يرتد بعض المسلمين عن دينهم بسبب الضغط والتعذيب ، وتُطلق على هؤلاء كلمة المستضعفين، وأيضاً أمر النبي آخرين من الصحابة بالهجرة الثانية الى المدينة المنورة، فهاجروا ، ولحق هو بهم بعد ذلك توقعاً لحياة أفضل للإسلام والمسلمين .

السبب الثاني : أن يكون المسلم جاهلاً بالدين وأحكامه ، ولا يجد من يرشده في البلد الذي يقيم فيه ، فيجب عليه ، والحال هذه ، أن يهاجر لطلب المعرفة بما هو مكلف به من أصول الدين وفروعه ، ان استطاع الى ذلك سبيلاً .

وعليه فن عرف العالمَ بدين الله ، وأخذَه عنه مباشرة أو بالواسطة، واستطاع أن يمارسه ، ويقوم بأحكامه كاملة - فلا تجب الهجرة عليه ، بل له أجر من هاجر في سبيل الدين وإن كان مقيماً ، وهذا هو المراد من قول الإمام : (فن

عرفها وأقرّها بها فهو مهاجر) أي عرف الحجة ، وهي العالم بدين الله ، والمعنى من عرف هذا العالم ، وتعلم منه وعمل فله أجر المهاجر ، وإن كان في بيته (ولا يقع اسم الاستضعاف على من بلغته الحجة الخ) .. عطف بيان وتفسير على من عرف وأقر .

بقي قسم ثالث ، وهو ان العالم بالدين وأحكامه يجب عليه كفاية أن يهاجر للإرشاد والتعليم إلى الأماكن الإسلامية التي لا يوجد فيها مرشد ، ويأتي الكلام عن ذلك مفصلاً ان شاء الله عند قول الإمام : « ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا » باب الحكم رقم ٤٧٨ .

أمر أهل البيت :

(إن أمرنا صعب مستصعب) . ليس لأهل البيت (ع) أمر إلا أمر الاسلام ، ولا هدف إلا إعلاء كلمته ، وإحياء آثاره ومعاله .. انه نزل في بيتهم ، وعلى قلب جدهم (ص) فهم له بكل ما يملكون ، وهو معهم نصاً وروحاً ، ومن أجله ضحوا بكل شيء ، وتحملوا ما يطاق وما لا يطاق ، وبهذا يتضح تفسير قول الإمام : (لا يحمله إلا عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان) أي ان المسلم حقاً وواقعاً هو من يغضب لله ، ويجاهد في سبيله ، ويستعين بالمصيبات من أجل الحفاظ على دينه (أنظر رقم ٣٠ من حكم الإمام في آخر النهج) وقوله : « الإيمان على أربع دعائم الخ » .. وفي بعض الروايات انه لما اشتد البلاء على المستضعفين من الصحابة شكوا إلى رسول الله (ص) فقال : إن من كان قبلكم نُشِروا بالمناسير فصبروا ، ولم يرتدوا عن دينهم .

هذا هو المراد بالأمر الصعب المستصعب ، أما قول من قال : « المراد به الإشرافات والمغيبات ، والمعجونات بما فوق السموات » ونحو ذلك فهو جرأة على الغيب الذي لا يثبت إلا بنص مقطوع به متناً وسنداً (ولا يعني حديثنا إلا صدور أمينة الخ) .. لأن حديث أهل البيت هو قول الله وسنة رسوله ، ولا تعيها إلا أذن واعية وقلوب صاغية . قال الإمام الصادق : من خالف كتاب الله وسنة محمد (ص) فقد كفر . وقال حفيده الإمام الرضا : إنا عن الله وعن رسوله

نحدث .. إن لكلامنا حقيقة ، وإن عليه لنوراً ، فما لا حقيقة له ، ولا نور عليه
فذلك قول الشيطان .

(أيها الناس سلوني - الى - الأرض) . المراد بطرق السماء العلوم الإلهية ،
وبطرق الأرض العلوم الزمنية كالصناعة والزراعة . وتقدم مثله مع الشرح مفصلاً
في الخطبة ٩١ (وقبل أن تشجر برجلها) أي سلوني قبل أن تفقدوني ، وقبل
أن تبتلوا بمعضلات الفتن وأوبائها . وتقدم مثله مع الشرح في الخطبة ٩١ .

الخطبة

- ١٨٨ -

ظلمة القبر .. فقرة ١ - ٣ :

أَحْمَدُهُ شُكْرًا لِإِنْعَامِهِ ، وَأَسْتَعِينُهُ عَلَى وَظَائِفِ حُقُوقِهِ . عَزِيزَ
الْجُنْدِ عَظِيمِ الْمَجْدِ . وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ دَعَا إِلَى طَاعَتِهِ ،
وَقَاهَرَ أَعْدَاءَهُ جِهَادًا عَلَى دِينِهِ . لَا يَثْنِيهِ عَنْ ذَلِكَ أَجْتِمَاعٌ عَلَى
تَكْذِيبِهِ وَالتَّيَّاسُ لِإِظْفَاءِ نُورِهِ^(١) . فَاعْتَصِمُوا بِتَقْوَى اللَّهِ فَإِنَّ لَهُمَا
حَبْلًا وَثِيقًا عُرْوَتَهُ ، وَمَعْقِلًا مَنِيعًا ذِرْوَتَهُ . وَبَادِرُوا الْمَوْتَ فِي
غَمَرَاتِهِ . وَأَمْهَدُوا لَهُ قَبْلَ حُلُولِهِ ، وَأَعِدُّوا لَهُ قَبْلَ نُزُولِهِ . فَإِنَّ
الْغَايَةَ الْقِيَامَةَ . وَكَفَى بِذَلِكَ وَاعِظًا لِمَنْ عَقَلَ ، وَمُعْتَبَرًا لِمَنْ جَهِلَ .
وَقَبْلَ بُلُوغِ الْغَايَةِ مَا تَعْلَمُونَ مِنْ ضَيْقِ الْأَرْمَاسِ ، وَشِدَّةِ الْإِبْلَاسِ .
وَهَوْلِ الْمُطْلَعِ ، وَرَوَعَاتِ الْفَزَعِ . وَأَخْتِلَافِ الْأَضْلَاعِ وَأَسْتِكَالِ

الْأَسْمَاعِ . وَظُلْمَةِ اللَّحْدِ ، وَخِيفَةِ الْوَعْدِ . وَغَمِّ الضَّرِيحِ ، وَرَدَمِ
الصَّفِيحِ^(٢) . فَاللهَ اللَّهُ عِبَادَ اللَّهِ فَإِنَّ الدُّنْيَا مَاضِيَةٌ بِكُمْ عَلَى سَنَنِ ،
وَأَنْتُمْ وَالسَّاعَةُ فِي قَرْنٍ . وَكَأَنَّهَا قَدْ جَاءَتْ بِأَسْرَاطِهَا ، وَأَزِفَتْ
بِأَفْرَاطِهَا ، وَوَقَفَتْ بِكُمْ عَلَى صِرَاطِهَا . وَكَأَنَّهَا قَدْ أَشْرَفَتْ بِزَلَازِلِهَا ،
وَأَنَاحَتْ بِكَلَالِهَا . وَأَنصَرَمَتِ الدُّنْيَا بِأَهْلِهَا ، وَأَخْرَجَتْهُمْ مِنْ
حِضْنِهَا . فَكَانَتْ كَيَوْمٍ مَضَى أَوْ شَهْرٍ أَنْقَضَى . وَصَارَ جَدِيدُهَا
رُثًا ، وَسَمِينُهَا غُثًا . فِي مَوْقِفِ ضَنْكِ الْمَقَامِ ، وَأُمُورِ مُشْتَبِهَةِ عِظَامِ .
وَنَارٍ شَدِيدٍ كَلْبُهَا ، عَالٍ لَجَبُهَا ، سَاطِعٍ لَهَبُهَا ، مُنْغِيظٍ زَفِيرُهَا ،
مُتَأَجِّجٍ سَعِيرُهَا ، بَعِيدٍ نُحُودُهَا ، ذَاكِ وَقُودُهَا ، تُخِيفُ وَعِيدُهَا ، غَمٌّ
قَرَارُهَا ، مُظْلِمَةٌ أَقْطَارُهَا . حَامِيَةٌ قُدُورُهَا ، فَظِيْعَةٌ أُمُورُهَا^(٣) .

اللغة :

المعقل : الملجأ . وذروة كل شيء : أعلاه . ومبادرة الموت : الاستعداد له .
والغمرات : الشدائد . والأرماس : القبور . والإبلاس - بكسر الهمزة - الحزن
والياس والانكسار . والمطلع : موضع الاطلاع . والروعات : الأفراع ، والإضافة
من باب إضافة الموصوف الى صفته كليل الليل . واختلاف الأضلاع : تداخلها .
واستكاك الأسماع : صممها . والغم : الغطاء . والصفيح : الحجر . والسنن
- بفتح السين - الطريق . والقرن : الاقتران . والأشراط والأفراط : العلامات
والدلائل . والكلاكل : الصدور . والكلب - بفتح اللام - الأكل بلا شبع .
واللجب : الصباح .

الإعراب :

شكراً مفعول مطلق لأحمده ، مثل قت وقوفاً ، وعزيز الجند حال ، ومثله عظيم المجد ، وأيضاً جهاداً في موضع الحال أي مجاهداً ، وقبل بلوغ خبر مقدم ، وما تعلمون مبتدأ مؤخر ، فالله نصب على التحذير ، وكلبها فاعل شديد ، ومثله ما بعده .

المعنى :

(أحمده شكراً لإتعامه) . ومن شكر الله شكره الله : « وكان الله شاكراً عليماً - ١٤٧ النساء » . أي يثيب الشاكر ، ويزيده من فضله : « ولئن شكرتم لأزيدنكم - ٧ إبراهيم » . وكل شكر يسمى جزاء ووفاء (وأستعينه على وظائف حقوقه) وهي السمع والطاعة والإخلاص . وأيضاً طلب العون منه على طاعته وأداء حقوقه ، حق له ، لأنه (عزيز الجند) لا مثيل لجنده قوة ومنعة (عظيم المجد) الواحد الأحد في ملكه وسلطانه .

(وأشهد أن محمداً الخ) .. بلغ رسالة ربه ، ودافع عنها ، وعن الانسان وكرامته ، وقاتل الطغاة المعتدين ، وحطم أوثانهم وسلطانهم حتى أصبحت كلمة الاسلام هي العليا ، وكلمة الظلم هي السفلى ، وعاش المسلمون بنور الدين والإيمان بلا ضعف ووهن ، وبلا مذلة وهوان .

(فاعتصموا بتقوى الله الخ) .. في القصاص والعقوبات حياة وردع عن الجرائم ، كما قال القرآن الكريم ، وأثبتت التجارب الطويلة ، ولكن التقوى حارس وشرطي من الداخل لا يغفل ويغيب ولا يحابي ويرتشي ، والعقوبات شرطي من الخارج يغفل ويغيب ويحابي ويرتشي ، (وبادروا الموت الخ) .. بالموت تحتم الحياة ، ومن قصر وأهمل فهو من القوم الخاسرين (وكفى بذلك واعظاً الخ) .. وزاجراً عن الجرائم والاعتداءات (وقبل بلوغ الغاية الخ) .. وهي القيامة ، والدنيا طريق إليها ووسيلة ، والمعنى أنتم تعلمون علم اليقين بأن مصيركم الى اللحد والطم وكسر الأضلاع وصمم الأسماع ، ومن ذلك الى ما هو أشد ، ومع هذا لا تبالون وتورعون .

(فلان الدنيا ماضية بكم على ستن) على طريق من قد مضى قبلكم من الهلاك والدمار (وأنتم والساعة في قرن) أي مقرونان ، لأنها آتية لا ريب فيها، والآتي بحكم الحاضر ، لعلاقة الأول (وكأنها قد جاءت بأشراطها) بعلاماتها .. ومن مات فقد قامت قيامته (وأزفت بإفراطها) عطف تفسير (وأناخت بكلاكها) كناية عن الأهوال والأثقال ، وتقدم مثله مع الشرح في الخطبة ١٠٧ (وأخرجتهم من حضنها) «يخرجون من الاجداث كأنهم جراد منتشر - ٧ القمر» . (وصار جديدها رثاً ، وسمينها غشاً) . يبلى الجديد ، ويهزل السمين (في موقف ضنك المقام) وأي موقف أشد هولاً من الوقوف بين يدي الله للعرض والحساب ، ومنه الى العقاب والعذاب ؟ . (وأمر مشبهة عظام) . كل شيء يوم القيامة عظيم وغريب عن العقول والأوهام يبعث الدهشة والحيرة ، والفزع والهلع .

(ونار شديد كلبها) . اشارة الى قوله تعالى: « يوم نقول لجهنم هل امتلأت فتقول هل من مزيد ٣٠ ق » . (عال لجبها) «إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور - ٧ الملك » (غمّ قرارها) أي أرضها ، وهي مستورة ومغطاة بالناس والحجارة واللهيب والدخان (مظلمة أقطارها) سوداء ليلاء تُرهّب وتُرعب . وتقدم مثله في الخطبة ١٠٧ .

بادروا الآجال بالأعمال .. فقرة ٤ - ٦ :

« وَيَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ، قَدْ أُمِنَ أَلْعَذَابُ ، وَأَنْقَطَعَ أَلْعِتَابُ . وَزُحْزِحُوا عَنِ النَّارِ ، وَأَطْمَأْنَنَتْ بِهِمُ الدَّارُ ، وَرَضُوا الْمَثْوَى وَالْقَرَارَ . الَّذِينَ كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا زَاكِيَّةً ، وَأَعْيُنُهُمْ بَاكِئَةً . وَكَانَ لَيْلُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ نَهَارًا ، تَحْشَعًا وَأَسْتِغْفَارًا . وَكَانَ نَهَارُهُمْ لَيْلًا تَوْحْشًا وَأَنْقِطَاعًا . فَجَعَلَ اللَّهُ لَهُمُ الْجَنَّةَ مَأْبَاً ، وَالْجَزَاءَ ثَوَابًا . وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا . فِي مُلْكٍ دَائِمٍ ، وَنَعِيمٍ

قَائِمٍ^(١) . فَارْعَوْا عِبَادَ اللَّهِ مَا بَرِعَايَتِهِ يَفُوزُ فَاِنْزُكُم . وَبِإِصَاحَتِهِ
يَخْشَرُ مُبْطِلُكُمْ . وَبَادِرُوا آجَالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ . فَإِنَّكُمْ مُرْتَهَنُونَ بِمَا
أَسْلَفْتُمْ ، وَمَدِينُونَ بِمَا قَدَّمْتُمْ . وَكَأَنَّ قَدْ نَزَلَ بِكُمْ الْمَخُوفُ . فَلَا
رَجْعَةَ تَنَالُونَ ، وَلَا عَثْرَةَ تُقَالُونَ ، أَسْتَعْمَلْنَا اللَّهَ وَإِيَّاكُمْ بِطَاعَتِهِ
وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ، وَعَفَا عَنَّا وَعَنْكُمْ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ^(٥) . اِلْزَمُوا الْأَرْضَ ،
وَأَصْبِرُوا عَلَى الْبَلَاءِ . وَلَا تُحَرِّكُوا بِأَيْدِيكُمْ وَسُيُوفِكُمْ فِي هَوَى
الْسِّنَتِكُمْ ، وَلَا تَسْتَعْجِلُوا بِمَا لَمْ يُعَجِّلْهُ اللَّهُ لَكُمْ . فَإِنَّهُ مَنْ مَاتَ
مِنْكُمْ عَلَى فِرَاشِهِ وَهُوَ عَلَى مَعْرِفَةِ حَقِّ رَبِّهِ وَحَقِّ رَسُولِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ
مَاتَ شَهِيداً وَوَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، وَأَنْتَوْنَ جَبَّ ثَوَابَ مَا نَوَى مِنْ
صَالِحٍ عَمَلِهِ . وَقَامَتِ النِّيَّةُ مَقَامَ إِصْلَاحِهِ لِسِنْفِهِ . وَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ
مُدَّةً وَأَجَلاً^(٦) .

اللغة :

زمر : جمع زمرة أي الجماعة . والمثوى : المنزل .

الإعراب :

زمرأ حال من الذين اتقوا ، والذين كانت أعمالهم بدل من واو الجماعة في
رضوا ، وتخشعاً واستغفاراً نصب على المصدرية أي يخشعون ويستغفرون ، أو في
موضع الحال أي خاشعين ومستغفرين ، ومثله توحشاً وانقطاعاً ، وما برعيته «ما»

موصول مفعولاً لارعوا ، وكان قد نزل أي كأنه قد نزل ، ورجعة مفعول مقدم لتناولون ، ومثله ما بعده ، وشهيداً حال .

المعنى

«وسيق الدين اتقوا ربهم الى الجنة زمراً - ٧٣ الزمر» . ذلك جزاء المحسنين (الدين كانت أعمالهم في الدنيا زاكية) . والعمل الصالح والزاكي هو الذي يحل مشكلة من مشكلات الحياة ، ويسير بها الى الأمام (وأعينهم باكية) لا على المال والجاه ، بل خوفاً من الله ، وألماً من الجور وفساد الأوضاع (وكان ليلهم في دنياهم نهاراً) لا لتدبير الدسائس والمؤامرات ، بل للتفكير في خلاص أنفسهم من غضب الله وعذابه ، وخلاص المعذبين في الأرض بأيدي الطغاة والمستغلين . (وكان نهارهم ليلاً توحشاً وانقطاعاً) عن المفاصد والمظالم (...) وكانوا أحق بها وأهلها . وفيه تقديم وتأخير ، والأصل وكانوا هم أهل الجنة وأحق بها ، لأنهم عملوا لها عملها (في ملك دائم ، ونعيم قائم) ومثله في الخطبة ٨٣ : لا ينقطع نعيمها - أي الجنة - ولا يظعن مقيمها ، ولا يهرم خالدها ، ولا يئأس ساكنها . (فارعوا عباد الله ما برعايته الخ) .. دعوا المشاحنات والمعارك الكلامية ، والبحث فيما لا يجدي نفعاً ، وفكروا في ضعفكم وتخلفكم ، والأخطار التي دهمكم وأحاطت بكم ، وابنوا حياتكم على العلم والعمل المنتج ، لتكونوا شيئاً مذكوراً مع لأئمة المتقدمة ، لا من البلدان « النامية » .. هذا الوصف الذي ستر به الغرب عواركم وشناركم (وبادروا آجالكم) . استعدوا للموت حيث لا إقالة ولا رجعة ، واتركوا وراءكم من الأعمال ما تُذكرون به عند الله والناس .

(لالزموا الأرض الخ) .. المراد بلزوم الأرض السكون والإغضاء ، وبهوى الألسن هفوات اللسان ، كالكذب والغيبة ، وكان في أصحاب الإمام (ع) المؤمن المخلص كالأشتر وحجر بن عدي ؛ وفيهم الخائن المنافق كالأشعث بن قيس وغيره من عملاء معاوية .. وربما اصطدم في حين من الأحيان بعض المؤمنين مع المنافقين ، وكاشفهم بما يضمرون ويعملون ، فخاف الإمام أن تنشأ الخلافات بين جنده والفرقة التي لا اجتماع معها ولا رجاء في خير ، فأمر المؤمنين من أصحابه بالسكون والصبر على المنافقين (ولا تستعجلوا بما لم يعجله الله لكم) انه تعالى ما

أمركم بحساب من خان ونافق ، فلا تتكلفوه وتعرضوا له .
(فإنه من مات منكم على فراشه الخ) .. الخطاب للمخلصين من أصحابه ،
والمعنى عليكم بأنفسكم ، لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ، وأي انسان يموت على
الإيمان بالله وطاعته ، والولاية لرسول الله وأهل بيته ، وعلى نية الجهاد في سبيل
الله والحق ، فهو مع الشهداء والصدّيقين وحسن أولئك رفيقاً .

الخطبة

- ١٨٩ -

لا تضعوا من رفعتنه التقوى .. فقرة ١ - ٣ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْفَاشِي حَمْدُهُ ، وَالْغَالِبِ جُنْدُهُ ، وَالْمُتَعَالِي جَدُّهُ . أَحْمَدُهُ
عَلَى نِعَمِهِ الثَّوَامِ ، وَآلَائِهِ الْعِظَامِ . الَّذِي عَظَّمَ حَامِلَهُ فَعَمَّا ، وَعَدَلَ
فِي كُلِّ مَا قَضَى ، وَعَلِمَ مَا يَمْضِي وَمَا مَضَى . مُبْتَدِعِ الْخَلَائِقِ
بِعِلْمِهِ . وَمُنْشِئِهِمْ بِحِكْمِهِ ، بِلَا أَفْتِدَاءَ وَلَا تَغْلِيمٍ ، وَلَا احْتِذَاءَ
لِمِثَالِ صَانِعِ حَكِيمٍ . وَلَا إِصَابَةَ خَطَاٍ وَلَا حَضْرَةَ مَلَأَ . وَأَشْهَدُ أَنَّ
مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ . أَتَّبَعْتُهُ وَالنَّاسُ يَضْرِبُونَ فِي غَمْرَةٍ ، وَيَمُوجُونَ
فِي حَيْرَةٍ . قَدْ قَادَتْهُمْ أَرْمَةُ الْحَيْنِ ، وَاسْتَغْلَقَتْ عَلَى أَفْئِدَتِهِمْ أَقْفَالُ
الرَّيْنِ^(١) . أَوْصِيكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ فَإِنَّهَا حَقُّ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ،
وَالْمُوجِبَةُ عَلَى اللَّهِ حَقُّكُمْ . وَأَنْ تَسْتَعِينُوا عَلَيْهَا بِاللَّهِ وَتَسْتَعِينُوا بِهَا
عَلَى اللَّهِ . فَإِنَّ التَّقْوَى فِي الْيَوْمِ الْحَرِزُ وَالْجَنَّةُ ، وَفِي غَدِ الطَّرِيقُ إِلَى

الجنة . مَسْلِكُهَا وَاصِحٌ ، وَسَائِلُهَا رَاسِحٌ ، وَمُسْتَوْدَعُهَا حَافِظٌ .
لَمْ تَبْرَحْ عَارِضَةً نَفْسَهَا عَلَى الْأَمْرِ الْهَاضِمِ وَالْغَابِرِينَ لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا
عَدَا إِذَا أَحَادَ اللَّهُ مَا أَبَدَى ، وَأَخَذَ مَا أُعْطَى ، وَسَالَ مَا أَسْدَى .
فَمَا أَقَلَّ مَنْ قَبْلَهَا وَحَمَلَهَا حَقَّ حَمْلِهَا . أُولَئِكَ الْأَقْلُونَ عَدَدًا . وَهُمْ
أَهْلُ صِفَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ إِذْ يَقُولُ : « وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ » (٢) .
فَأَهْطِعُوا بِأَسْمَاعِكُمْ إِلَيْهَا ، وَكُظُّوا بِجِدِّكُمْ عَلَيْهَا . وَأَعْتَاضُوهَا مِنْ
كُلِّ سَلَفٍ خَلَفًا ، وَمِنْ كُلِّ خُلَافٍ مُوَافِقًا . أَيْقِظُوا بِهَا نَوْمَكُمْ ،
وَأَفْطَعُوا بِهَا يَوْمَكُمْ . وَأَشْعِرُوهَا قُلُوبَكُمْ ، وَارْحَضُوا بِهَا ذُنُوبَكُمْ ،
وَدَاوُوا بِهَا الْأَسْقَامَ ، وَبَادِرُوا بِهَا الْحِسَامَ ، وَأَعْتَبِرُوا بِمَنْ أَضَاعَهَا ،
وَلَا يَعْتَبِرَنَّ بِكُمْ مَنْ أَطَاعَهَا . أَلَا فَصُونُوهَا وَتَصُونُوا بِهَا ، وَكُونُوا
عَنِ الدُّنْيَا نُزَاهًا ، وَإِلَى الْآخِرَةِ وُلَاهَا . وَلَا تَضَعُوا مَنْ رَفَعَتْهُ
التَّقْوَى ، وَلَا تَرْفَعُوا مَنْ رَفَعَتْهُ الدُّنْيَا . وَلَا تَشِيمُوا بِأَرْقَبَهَا ، وَلَا
تَسْتَمِعُوا نَاطِقَهَا ، وَلَا تُجِيبُوا نَاعِقَهَا . وَلَا تَسْتَضِيئُوا بِأَشْرَاقِهَا ، وَلَا
تُقْتَنُوا بِأَعْلَاقِهَا (٣) .

اللغة :

تَوَائِمٌ وَتَوَامٌ : جَمْعُ تَوَامٍ ، وَهُوَ الْمَوْلُودُ مَعَ غَيْرِهِ فِي حَمْلٍ وَاحِدٍ . وَالْآلَاءُ :
النِّعَمُ . وَبِحَكْمِهِ : بِحُكْمِهِ . وَيَضْرِبُونَ فِي غَمْرَةٍ : يَمْضُونَ فِي شِدَّةٍ . وَالْحَسَنُ

— بفتح الحاء — الهلاك . والرّين — بفتح الرّاء — الحجاب والندس . والغابرين :
الباقين ، ويستعمل فيما مضى ، فيكون من الأضداد . وأسدّى : أعطى . وأهبطوا :
أسرعوا ، أي لا يفوتكم شيء من سماع الحكمة والموعظة التي تستوجب التقوى .
وكظّوا عليها : اصبّروا على ثقلها . وارحضوا : اغسلوا . ولا تشيموا : لا
تنظروا . والبارق : السحاب ، والبارقة : السحابة . والأعلاق : جمع العلق ،
والعلقة — بكسر العين — هي القطعة .

الإعراب :

المصدر من أن تستعينوا مجرور بالباء المحذوفة ، والمجرور معطوف على ما قبله
أي وأوصيكم بالاستعانة بالخ . وما أقل من أفعال التعجب ، و « ما » بمعنى شيء
ومحلها الرفع بالابتداء ، وأقل فعل ماضٍ ، وفاعلها مستتر ، والجملة خبر ، ومن
قبلها مفعول به ، وحتى حملها مفعول مطلق .

المعنى :

(الحمد لله الفاشي في الخلق حمده) . كل الخلائق تسبح بحمد الله بلسان المقال
أو بلسان الحال . وكتب بعض الشارحين في تفسير الحمد الفاشي ١٥ صفحة ،
نقلها من هنا وهناك ، ولا أدري لمن كتب ؟ وخلاصتها ما أشرنا إليه ، وكانت
أوقات القدامى تتسع للشروح والتعليقات وملحقاتها ، وللنقاش الفارغ (والغالب
جنده) ان حزب الله هم الغالبون بالحجة والبرهان في الحياة الدنيا ، وبالقوة
والسلطان في الدار الآخرة .

(والمتعالي جده) أي كماله وجلاله (أحده على نعمه التّوام وآلائه العظام)
بكثرتها وتتابعها ، والرزق والصحة من النعم ، ما في ذلك ريب ، ولكن النعمة
العظمى عند الإمام هي الهداية والقدرة على الخير وصالح الأعمال (الذي عظم
حلمه الخ) .. يقضي بعدل ، ويرحم بعلم ، ويغفر بحلم حتى كأنه لم يُعص
(مبتدع الخلائق الخ) .. خلق الكون بعلمه وحكمته اختراعاً لا محاكاة لأحد
أو مشورته أو حضوره .. كان الله ولم يكن معه شيء .

(واشهد ان محمداً عبده ورسوله ابتعته الخ) .. رحمة للعالمين ، فأنقذهم من الجهالة والضلالة ، وقادهم الى النور والهداية .. وتقدم مثله مراراً ، وأخبرها في الخطبة السابقة بلا فاصل ١٨٨ .

التقوى :

(عباد الله أوصيكم بتقوى الله) . لا معنى لتقوى الله إلا طاعته ، كما يومىء قول الإمام : (فإنها حق الله عليكم) . وهي فرض وحتم على العبد ، وهو تعالى يثيب عليها سواء أكان سببها والباعث عليها الرهبة من عذابه ، أم الرغبة في ثوابه ، أم شكراً لإنعامه وتعظيماً لكرامته ، وإن كانت الطاعة بهذا الباعث أفضل وأكمل . وهذه المناسبة نشير الى قول الإمام الباقر (ع) : والله ما شيعتنا إلا من اتقى الله . وقال حفيده الإمام الرضا (ع) : ليس من أوليائنا من هو في قرية فيها عشرة آلاف رجل ، فيهم من هو أروع منه .

(والموجبة على الله حقكم) . الطاعة حق لله على عبده ، والثواب عليها حق للعبد على ربه ، والفرق ان طاعة العبد لله فرض بحكم العقل ، أما الثواب على الطاعة منه تعالى فقد فرضها هو على نفسه : « كتب ربكم على نفسه الرحمة - ٥٤ الانعام » . كتبها على نفسه لأن سنته الإفضال ، وعادته الإحسان ، وسبيله العفو ، كما قال الإمام زين العابدين : « سبحانك ما أبين كرمك في معاملة من أطاعك أو عصاك ، تشكر للمطيع ما أنت توليته له ، وتملي للعاصي فيما تملك معاجلته فيه ، أعطيت كلاً منهما ما لم يجب له وتفضلت على كل منهما بما يقصر عمله عنه » .

(وإن تستعينوا عليها بالله) . إن كنت تريد طاعة الله حقاً فاطلب العون عليها منه تعالى ، وقل صادقاً : « وما توفيقي إلا بالله » فإن هذا الطلب من الطاعة أيضاً (وتستعينوا بها على الله) أي على العافية والخلاص من عذاب الله حيث لا سبيل الى النجاة منه إلا بالطاعة (فإن التقوى في اليوم الحرز والجنة ، وفي غد الطريق الى الجنة) . المراد باليوم الدنيا ، وبالغد الآخرة ، والجنة - بضم الجيم - الوقاية ، وعطفها على الحرز للتفسير ، والمعنى ان للتقوى أثرها البالغ دنيماً وآخرة ، أما في الدنيا فلأنها تبتعد بصاحبها عن الشر والأذى والفتن

والجرائم . ومن البداة ان هذا المتقي أعظم الناس راحة واستقراراً ، وله في الآخرة مساكن طيبة ، وأجر كريم .

(مسلكتها واضح) . وهو الاستقامة ، والعلم والعمل النافع للأفراد والجماعة (وسالكتها رابح) . وأي شيء أكثر ربحاً للمرء من أثر نبيل ينتفع به الناس ؟ (ومستودعها حافظ) من يتقي الله فقد جعل تقواه وديعة عند الله ، وهو سبحانه يحفظها له ، ويكافئه عليها بأحسن منها (لم تبرح عارضة نفسها الخ) . ما من أحد إلا وهو يستطيع أن يتقي الله سواء أكان من القرون الخالية ، أم الحاضرة أم الآتية .. اللهم إلا إذا كان وحشاً كاسراً .. وأيضاً ما من أحد إلا وهو في حاجة الى التقوى يوم القيامة ، لأنها السبيل الوحيد للنجاة . وفي الحديث : كَفُ الْأَذَى عَنِ النَّاسِ صَدَقَةٌ .

(اذا أعاد الله ما أبدى) أي ان الانسان في أشد الحاجة الى التقوى في يوم القيامة ، وقوله : « أعاد .. وأبدى » إشارة الى قوله تعالى : « كما بدأنا أول خلق نعيده - ١٠٤ الأنبياء » . (وأخذ وأعطي) . الله يجزي ويميت (وسأل عما أسدى) لتسألن يومئذ عن النعيم (فما أقل من قبيلها) لأن الكرام قليل (فأهبطوا بأسماعكم الخ) .. استجيبوا لدعوة التقوى ، واعملوا بها ، واجعلوها نعم الخلف لما سلف من الذنوب (ومن كل مخالف موافقاً) من أسلف المعصية وخالف التقوى فليستدرك الآن ، ويعمل بموجبها وعلى وفقها قبل الفوات .

(أيقظوا بها نومكم) . للغفلة عثرات ، والتقوى درع حصين من الغفلات والعثرات (واقطعوا بها يومكم) . اشغلوا يومكم بالطاعات لا بالمحرمات (واشعروها قلوبكم) . اجعلوا قلوبكم تحس وتشعر بالتقوى ، فإنها ربيع القلوب (وارحضوا بها الخ) .. التقوى للنفس طهر ، ولأدوائها دواء ، ولموتها عدة وقوة (واعتبروا بمن أضاعها ، ولا يعتبرن بكم أطاعها) . نبذ غيركم التقوى فأخذ الله بالعذاب ، فاعتبروا به ، ولا تكونوا عبرة لمن سمع وأطاع .

(فصونوها وتصونوا بها) . لا تدنسوا التقوى بالتأويلات ، واتخذوا منها حُرْزاً رادعاً عن المحرمات (وكونوا عن الدنيا نزاهاً) بعد أن حث على التقوى وبين محاسنها ، حذر من الدنيا ومساوئها ، والمعنى : نزها أنفسكم بجلال الله عن حرامه (والى الآخرة ولها) أي اعملوا لها عملاً (ولا تضعوا من رفعت التقوى) . إن أكرمكم عند الله أتقاكم . فلا يكن الكريم عنده حقيراً عندكم (ولا ترفعوا من

رفعته الدنيا) لئال أو سلطان ، فإن الفقر والغنى بعد العرض على الله (ولا تشيموا بارقها) لا تنظروا الى زينة الدنيا وزخرفها ، وازهدوا في حرامها وحطامها (ولا تسمعوا الخ) .. الى من يوسوس ويزين لكم القبائح والسيئات ، ويضفي عليها أثواب النعم والخيرات .

دار حرب وسلب .. فقرة ٤ - ٥ :

فَإِنَّ بَرَقَهَا خَالِبٌ وَنُطِقَهَا كَاذِبٌ . وَأَمْوَالُهَا مَخْرُوبَةٌ ، وَأَعْلَاقُهَا مَسْلُوبَةٌ . أَلَا وَهِيَ الْمُتَصَدِّعَةُ الْعَنُونُ ، وَالْجَائِحَةُ الْحَرُونُ ، وَالْأَتْنَةُ الْخَوْنُ . وَالْجَحُودُ الْكَنُودُ ، وَالْعَنُودُ الصَّدُودُ ، وَالْحَيُودُ الْمَيُودُ . حَالُهَا انْتِقَالٌ ، وَوَطْأُهَا زِلْزَالٌ ، وَعِزُّهَا ذُلٌّ ، وَجِدُّهَا هَزْلٌ ، وَعُلُوُّهَا سُفْلٌ . دَارُ حَرْبٍ وَسَلْبٍ ، وَنَهْبٍ وَعَطَبٍ . أَهْلُهَا عَلَى سَاقٍ وَسِيَاقٍ ، وَلَحَاقٍ وَفِرَاقٍ . قَدْ تَحَيَّرَتْ مَذَاهِبُهَا ، وَأَعْجَزَتْ مَهَارِبُهَا ، وَخَابَتْ مَطَالِبُهَا^(١) . فَاسَامَتْهُمْ الْمَعَاقِلُ ، وَلَفَظَتْهُمْ الْمَنَازِلُ ، وَأَعْيَتْهُمْ الْمَحَاوِلُ . فَمِنْ نَاجٍ مَعْقُورٍ ، وَلَحْمٍ تَجْزُورٍ ، وَشَلْوٍ مَذْبُوحٍ ، وَدَمٍ مَسْفُوحٍ . وَعَاضٌ عَلَى يَدَيْهِ ، وَصَافِقٍ بِكَفِّهِ ، وَمُرْتَفِقٍ بِجَدِّهِ ، وَزَارٍ عَلَى رَأْيِهِ ، وَرَاجِعٍ عَنْ عَزْمِهِ . وَقَدْ أَذْبَرَتِ الْحَيْلَةُ وَأَقْبَلَتِ الْغِيلَةُ ، وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ . وَهَيْهَاتَ هَيْهَاتَ قَدْ فَاتَ مَا فَاتَ وَذَهَبَ مَا ذَهَبَ ، وَمَضَتْ الدُّنْيَا لِحَالٍ بِأِلْهَا « فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ »^(٥) .

اللغة :

خالب : خادع . ومحروبة ومسلوبة بمعنى واحد . والمتصدية : المتعرضة .
والعنون : من عن الشيء إذا ظهر . وفرس جامح وجموح : يركب رأسه لا
يثنيه شيء . والحرون : الممتنعة عن السير . والمائنة : الكاذبة . والخؤون :
مبالغة في الخيانة . والجحود والكنود بمعنى واحد . والعنود : مبالغة في العناد .
والصدود : مبالغة في الصدد والهجر . والحيود : من حاد ومال عن الطريق .
والميود : من مَاد إذا تحرك واضطرب . وحرب - بفتح الراء - السلب .
والمحاول : جمع محالة : وهي القدرة على التصرف . ومعقور : مجروح .
ومجزور : منحور أو مسلوخ . والشلو : ولد الناقة والعضو . ومسفوح : مسفوك .
والغيلة : الشر . والبال : القلب والخطر .

الإعراب :

دار حرب خبر لمبتدأ محذوف أي هي دار ، فن ناج متعلق بمحذوف خبراً
لمبتدأ محذوف أي هم بين ناج الخ .. ولات حين « لا » تعمل عمل ليس ترفع
الاسم وتنصب الخبر ، والتاء زائدة مثل تاء ربة ، وقال ابن هشام : « وعملها
واجب ، وله شرطان : كون معموليها اسمي زمان ، وحذف أحدهما ، والغالب
كونه المرفوع - أي الاسم - نحو ولات حين مناص أي لات الحين حين مناص
أو ليس الحين حين مناص » فالحين الأول اسمها ، والحين الثاني خبرها ، وهيهات
اسم فعل بمعنى بَعُد .

المعنى :

(فإن برقها خالب) .. ذكرنا معاني المفردات في فقرة اللغة ، ولا شيء
وراءها غير ذم الدنيا ، وهي في نظر الإمام (ع) كارثة ومأساة ، ولا حد ونهاية
لما فيها من سوء وشر ، والطامع فيها خاسر إلا ما كان منها وسيلة للخير والعمل
النافع ، وتقصد ذلك مرات ومرات ، ونعود الآن الى هذا الموضوع بأسلوب
آخر ، ونسأل بوحى من كلام الإمام في هذه الخطبة :

هل من حال واحدة من حالات الدنيا يمكن الركون اليها والاعتماد عليها ؟ وما هي هذه الحال ؟ هل هي الشباب أو الصحة ؟ ولا أحد أكثر قلقاً واهتزازاً من شباب هذا العصر .. وهل ينجي الشباب من الموت ، والصحة والسقم ؟ وإذا تجاوزنا الشباب والصحة الى المال والثراء ، والنفوذ والسلطان فهل يدوم شيء من ذلك ، أو يسلم من الآفات والمفاجآت ؟ وقد رأينا وقرأنا ألواناً من الحادثات حلت بأهل الجاه والمال ، ورأيناهم معها يتمنون لو كانوا نسياً منسياً .. وبالأمر القريب انتحر هتلر .. ومن الذي لم يفقد عزيزاً ، أو يقع في أزمة خائفة ؟.

والآن هل فهمت حقيقة الدنيا ؟ وهل تعيد النظر في موقفك منها ، وتراها — كما رآها الإمام — وسيلة ، والهدف هو العمل لبناء مجتمع صالح ، كما أراده الله ورسوله الذي قال : « لا تؤمنوا .. حتى تحابوا .. أفشوا السلام بينكم » ولا حب وسلام ما وجد على ظهرها شائبة للظلم والعدوان .

(أهلها على ساق سباق) كناية عن حالة النزاع والاحتضار حيث تلتوي إحدى ساقى المحتضر على الأخرى من شدة الهول . قال سبحانه : « والتفت الساق بالساق الى ريك يومئذ المساق — ٢٩ القيامة » . (ولحاق وفراق) هم السابقون ، ونحن اللاحقون (وقد تحيرت مذاهبها ..) أي تحير الناس فيها (ومرتفق بخديه) . المرفق هو الموصل بين الساعد والعضد ، والمعنى واضح نخديه في كفيه ، ومرفقيه على ركبتيه ، والمراد انه حزين كئيب (ومضت الدنيا لخال بالها) . مضت لشأنها وفي طريقها لا تلوي على شيء ، ولا تكثر بمن كان يعبدها ويحرص عليها .

الخطبة

- ١٩٠ -

ما بين الله وأحدِ هوادهِ وصداقة .. فقرة ١ - ٢ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَبَسَ الْعِزَّ وَالْكَبِيرِيَّةَ وَأَخْتَارَهُمَا لِنَفْسِهِ دُونَ خَلْقِهِ ،
وَجَعَلَهَا حِمَى وَحَرَمًا عَلَى غَيْرِهِ ، وَأَصْطَفَاهُمَا لَجَلَالِهِ ، وَجَعَلَ اللَّعْنَةَ
عَلَى مَنْ نَازَعَهُ فِيهَا مِنْ عِبَادِهِ . ثُمَّ اخْتَبَرَ بِذَلِكَ مَلَائِكَتَهُ الْمُقَرَّبِينَ
لِيُمَيِّزَ الْمُتَوَاضِعِينَ مِنْهُمْ مِنَ الْمُسْتَكْبِرِينَ ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ ، هُوَ الْعَالَمُ
بِمُضْمَرَاتِ الْقُلُوبِ ، وَتَحْجُوبَاتِ الْغُيُوبِ : « إِنِّي خَالِقُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ
فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاحِدِينَ فَسَجَدَ
الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ » اعْتَرَضَتْهُ الْحَمِيَّةُ فَافْتَخَرَ عَلَى آدَمَ
بِخَلْقِهِ ، وَتَعَصَّبَ عَلَيْهِ لِأَصْلِهِ . فَعَدَّوْا اللَّهَ إِمَامُ الْمُتَعَصِّبِينَ ، وَسَلَفُ
الْمُسْتَكْبِرِينَ ، الَّذِي وَضَعَ أُسَاسَ الْعَصِيَّةِ ، وَنَازَعَ اللَّهَ رِدَاءَ الْجَبَرِيَّةِ .
وَأَدْرَعَ لِبَاسَ التَّعَرُّزِ ، وَخَلَعَ قِنَاعَ التَّذَلُّلِ . أَلَا تَرَوْنَ كَيْفَ

صَغَرَهُ اللهُ بِتَكْبِيرِهِ ، وَوَضَعَهُ بِتَرْفُعِهِ . فَجَعَلَهُ فِي الدُّنْيَا مَذْهُوراً ،
وَأَعَدَّ لَهُ فِي الْآخِرَةِ سَعيراً^(١) . وَلَوْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَخْلُقَ آدَمَ مِنْ نُورٍ
يَخْطَفُ الْأَبْصَارَ ضِيَاؤُهُ ، وَيَبْهَرُ الْعُقُولَ رُؤَاؤُهُ ، وَطِيبُ يَأْخُذُ الْأَنْفَاسَ
عَرْفُهُ لَفَعَلَ . وَلَوْ فَعَلَ لَظَلَّتْ لَهُ الْأَعْنَاقُ خَاضِعَةً ، وَلَخَفَّتِ الْبُلُوى
فِيهِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ . وَلَكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يَنْتَلِي خَلْقَهُ بِبَعْضِ مَا يَجْهَلُونَ
أَصْلَهُ تَمْيِيزاً بِالِاخْتِيَارِ لَهُمْ ، وَنَفْياً لِلِاسْتِكْبَارِ عَنْهُمْ ، وَإِبْعَاداً لِلْخُلَاءِ
مِنْهُمْ . فَاعْتَبِرُوا بِمَا كَانَ مِنْ فِعْلِ اللهِ بِإِبْلِيسَ إِذْ أُحْبِطَ عَمَلُهُ الطَّوِيلَ
وَجَهْدُهُ الْجَهِيدَ ، وَكَانَ قَدْ عَبَدَ اللهَ سِتَّةَ آلَافِ سَنَةٍ لَا يُدْرَى أَمِنْ
سِنِي الدُّنْيَا أَمْ سِنِي الْآخِرَةِ عَنْ كِبَرِ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ . فَمَنْ ذَا بَعْدَ
إِبْلِيسَ يَسْلُمُ عَلَى اللهِ بِمِثْلِ مَعْصِيَتِهِ ؟ كَلَّا ، مَا كَانَ اللهُ سُبْحَانَهُ لِيُدْخِلَ
الْجَنَّةَ بَشَراً بِأَمْرِ أُخْرِجَ بِهِ مِنْهَا مَلَكاً . إِنَّ حُكْمَهُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ
وَأَهْلِ الْأَرْضِ لَوَاحِدٌ . وَمَا بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ هَوَادَةٌ فِي
إِبَاحَةٍ حَتَّى حَرَّمَهُ عَلَى الْعَالَمِينَ^(٢) .

اللغة :

الحرم — بفتح الحاء والراء — ما يحميهِ الانسان ويدافع عنه . والحمية :
الأنفة . والجبرية : العلو والعظمة . والرؤاء : حسن المنظر . والعرف — بفتح
العين — الرائحة . والهوادة : الرخصة واللين .

الإعراب :

ساجدين حال من فاعل فقعرا ، وتمييزاً مفعول من أجله ليبتلي ، فن ذا مبتدأ وخبر ، وبعد متعلن بيسلم ، وعلى الله « على » بمعنى من ، قال تعالى : « الذين إذا اختلفوا على الناس يستوفون - ٢ المطففين » . وكلا حرف ردع وزجر .

المعنى :

(الحمد لله الذي لبس الخ) .. المتكبر هو الذي يرى غيره حقيراً بالإضافة إليه ، فإن كانت هذه الرؤية صادقة ، ومن القوي في كل شيء ، والكامل من كل وجه - كان التكبر مدحاً لازماً ، وإن كانت الرؤية من ضعيف لا حول ولا قوة له إلا بالله ومن الله - كانت الرؤية كاذبة ، والتكبر قبيحاً ومدموماً ، ومن البدهاة أن الله سبحانه هو وحده الكامل من كل جهة ، والقاهر فوق عباده ، وإن كل شيء سواه في قبضته وفيض من رحمته ، وعليه تكون كبريائه وتكبره تعالى حقاً ومدحاً ، وكل متكبر غيره فهو مفتر كذاب ، ولذا جاء في الحديث القدسي : « الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري فمن نازعني فيها قصمته » . وقال سبحانه : « أليس في جهنم مثوى المتكبرين - ٦٠ الزمر » .

(ثم اختبر بذلك ملائكته الخ) .. ذلك إشارة الى الكبرياء أو المنازعة فيها ، والمراد بالاختبار هنا مجرد التمييز والإظهار ، لأن الله يعلم السر وأخفى ، والمعنى انه تعالى أراد أن يظهر للملائكته وغيرهم ، من عصي وتكبر على أمره ، ويميزه عن أطاع وتواضع ، فأمر الملائكة أن يسجدوا لآدم الذي خلقه من تراب ، يُداس بالأقدام ، ولا شيء أهون منه ، فاستجابوا لأمره طائعين ، بل ومغتبطين أيضاً بحلاوة الطاعة ولذتها ، ورفض إبليس بصلافة ، واحتج على الأمر واعتبره إهانة له ، ومساً بكرامته تماماً كما يفعل بعض أرباب المناصب الذين يقولون : « لا نسمح ولا نرضى بهذا » إذا سمعوا كلمة حق ونصيحة .

رفض إبليس وتفلسف ، وأظهر ما كان يبطن من الترفع والتكبر ، وقال الله بشموخ : ألمثلني يقال هذا ؟ وكيف أسجد لمن هو دوني ؟ أنا خير منه ، هو

من تراب ، والتراب أرض وظلام ، وأنا من نار ، والنار تعلو وتشرق !.. وكل من يرى نفسه شيئاً فما هو بشيء عند الله ، قال سبحانه : « الله الذي خلقكم من ضعف - ٤٥ الروم » . وقال الرسول الأعظم (ص) : اللهم اليك أشكو ضعفي وقلة حيلتي .

وبعد ، فلا رذيلة أثقل وأسمج من التكبر ، وبالحصوص إذا كان سببه التعصب للأصل والعرق (ألا ترون كيف صغره الله الخ) .. الضمير لإبليس .. استعظم نفسه ، واستصغر غيره ، فصغره الله وحقره .. وكل من يأنف من المساواة مع مخلوق ، ويستأثر عليه بغير حق فهو أحقر كائن .. ان الخلق كلهم عباد الله ، والكبرياء والعظمة لله وحده . وتقدم الكلام عن قصة إبليس مع آدم في الخطبة ١ فقرة « آدم وإبليس » .

الملائكة والأنانية :

(ولو أراد الله أن يخلق آدم الخ) .. لماذا خلق الله آدم من مادة لا وزن لها ولا ثمن ، ولم يخلقه من أعز الأشياء وأتمناها ؟ وأجاب الإمام بأن الملائكة يشاركون الانسان في حب الذات والأنانية ، وان كانت طبيعتهم وظروفهم غير طبيعة الانسان وظروفه .. فالإنسان يحابي نفسه ، ويعطيها فضائل ليست فيها ، وقد يملكه الغرور بصفة كالعلم ، فيأنف بسببها من المساواة مع الآخرين والتواضع لمن هو دونه علماً ومكانة .. وما إلى ذلك من لوازم حب الذات وأثارها ، ولا بد من وجود هذه الأنانية في الملائكة ، وبها يكون لهم الاختيار والحرية وإلا بطل تكليفهم ، ولم يكن لهم من فضل في أي شيء ، وكانوا تماماً كالثمررة على الشجرة ، والريشة في مهب الريح .. وبكلمة ان الأنانية في الملائكة كغريزة الجنس في الانسان حيث يستطيع كبجها والصبر عليها .

وبعد أن خلق سبحانه حب الذات في الملائكة بالمعنى الذي أشرنا اليه وأعطاهم الحرية الكاملة - أراد أن يظهر كلاً منهم على حقيقته بالفعل الذي يستحق به المدح أو الذم ، فخلق آدم من طين ، وأمرهم بالسجود له (تمييزاً بالاختبار لهم ، ونفيًا للاستكبار عنهم ، ولإبعاداً للخيلاء منهم) فن سمع وأطاع فهو من المقربين ، ومن أعرض ونأى فهو مطرود من رحمته تعالى كيابليس . ولو ان الله

يخلق آدم «من نور يخطف الأبصار .. وطيب يأخذ الأنفاس» ثم أمرهم بالسجود فامثلوا وسجدوا - لو كان الأمر كذلك لم يكن للملائكة من فضل ، لأنه لا يتعارض مع الأناية وحب الذات . ويأتي في هذه الخطبة ان الله سبحانه اختبر عباده بأحجار لا تبصر ولا تسمع ، وانه لهذه الغاية جعلها بأوعر بقاع الأرض .

الفرق بين الشيطان وإبليس :

(فاعتبروا بما كان من فعل الله بإبليس الخ) .. في القرآن الكريم كلمات يستوي في معرفتها العالم والجاهل مثل الأعين والآذان ، وكلمات يعرفها أهل اللغة مثل كلمة الطلح - الموز - وكلمة شطأ الزرع أي ما يتفرع عنه من أغصان وثمر ، وفيه كلمات يجب الرجوع في فهمها والمراد منها الى القرآن نفسه ، أو الى النص من المعصوم ، ومن هذا النوع كلمتا إبليس والشيطان حيث لا نعرف كائناً يقال له : إبليس أو شيطان .

وقد رأينا الذكر الحكيم يطلق كلمة الشيطان على الشيطان الإنسي ، والشيطان الجنّي ، وعلى الوسوسة والخواطر السوداء . قال تعالى : « شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً - ١١٢ الأنعام » . وقال تعالى فيما يعود الى الوسوسة ونحوها : « اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون - ٢٠١ الأعراف » . وأوضح من هذه الآية قوله تعالى حكاية لقول يوسف : « من بعد أن نزع الشيطان بيني وبين اخوتي - ١٠٠ يوسف » . وما نزع بين يوسف وبين اخوته إلا عداوة الحسد .

أما إبليس فهو كائن حسي يدرك ويعقل، ويفعل ويترك بإرادته واختياره ، ولذا خاطبه سبحانه وقال له : « ما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك - ١٢ الأعراف » وطرده ولعنه ، واحتج هر بأصله ، وهدد وتوعد بكيده وضلالته ، وقد أجابه ، جلّت كلمته : « لأملأن جهنم منك ومن ابتغك منهم أجمعين - ٨٥ ص » . ولإذن فتأويل كلمة إبليس بغير الحسي - جهل وتضليل ، أما كلمة الشيطان فيصح تأويلها بما يوسوس ويزين حسياً كان أو معنوياً .

(إذ أحبط عمله الطويل - الى - ساعة واحدة) . هذا شاهد آخر على ان إبليس كائن حسي لا معنوي ، وانه عبد الله دهرأ طويلاً ، ثم ارتد ونكص

على عقبيه حيث تمرد على أمره تعالى فكان من الخاسرين ، أما التحديد بستة آلاف أو دونها أو أكثر منها كما في بعض الروايات فهو كناية عن طول أمد العبادة ، وانها لم تجده نفعاً مع معصية لحظة ، كما قال الإمام : (فن ذا بعد إبليس يسلم على الله بمثل معصيته) أي معصية إبليس والطرده من رحمة الله وإحباط العبادة التي امتدت أمداً غير قصير ، ومهما كان المراد بتحديد أمد عبادة إبليس فنحن غير مسؤولين عن معرفته يوم القيامة ، ولا يمت الى حياتنا بسبب قريب أو بعيد .

(كلا ، ما كان الله ليدخل الجنة بشراً بأمرٍ أخرج به ملكاً) بفتح اللام ، والمراد به هنا إبليس ، والمعنى ان الله طرد إبليس من رحمته لمعصية واحدة ، فكيف يرجو رحمته تعالى من عصاه في كثير من الذنوب ؟. كلا : « ان رحمة الله قريب من المحسنين - ٥٦ الاعراف » . (ان حكمه في أهل السماء الخ) .. ليس لله صداقة وعلاقة مع أحد من خلقه ، فكل عبادة عنده سواء يتعامل معهم على أساس العمل : « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد - ٤٦ فصلت » سواء أكانوا من أهل الأرض أم من أهل السماء .

وتسأل : كيف عدّ الإمام إبليس من الملائكة مع ان الآية ٥٠ من سورة الكهف تقول : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه » ؟
الجواب :

ان الإمام عدّ إبليس من الملائكة تبعاً لهذه الآية حيث اعتبرت إبليس من الملائكة ، ثم أخرجته من بينهم بعد أن فسق وتمرد... وهو من الجن ما في ذلك ريب، لنص الآية ، ولكن الله سبحانه أجرى عليه حكم الملائكة ، وأمره بالسجود كما أمرهم ، لأنه كان يشاركونهم في العبادة ويزيد ، ولما كان منه ما كان أخرج من بينهم وطرده وعليه فكان من الملائكة حكماً ، وهو من الجن موضوعاً .
نجيب بهذا المجرد التوجيه .. والله أعلم بغيبه .

في كل أمة جنود لإبليس .. فقرة ٣ - ٥ :

فَاذْرُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنْ يُغْدِيَكُمْ يَدَائِهِ ، وَأَنْ يَسْتَفِزَّكُمْ يَدَائِهِ ، وَأَنْ

يُجْلِبَ عَلَيْكُمْ بِخِيَلِهِ وَرَجُلِهِ . فَلَعَمْرِي لَقَدْ فَوْقَ لَكُمْ سَهْمَ أَلْوَعِيدِ ،
وَأَغْرَقَ لَكُمْ بِاللَّزَعِ الشَّدِيدِ ، وَرَمَاكُمْ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ . وَقَالَ :
« رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لِأَزَيِّنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، قَدْ فَاءَ
بِغَيْبٍ بَعِيدٍ ، وَرَجَاءٍ بَظَنٍّ مُصِيبٍ . صَدَقَهُ بِهِ أَبْنَاءُ الْحَمِيَّةِ ، وَإِخْوَانُ
الْعَصِيَّةِ ، وَفُرْسَانُ الْكِبَرِ وَالْجَاهِلِيَّةِ . حَتَّى إِذَا أَنْقَادَتْ لَهُ الْجَايِحَةُ
مِنْكُمْ ، وَأَسْتَحْكَمَتِ الطَّمَاعِيَةُ مِنْهُ فِيكُمْ ، فَتَنَجَمَتِ الْحَالُ مِنَ السَّرِّ
الْخَفِيِّ إِلَى الْأَمْرِ الْجَلِيِّ ، أَسْتَفْحَلَ سُلْطَانُهُ عَلَيْكُمْ ، وَدَلَفَ بِجُنُودِهِ
فَحَوْكُمُ . فَأَقْحَمُوكُمُ وَلَجَاتِ الذُّلِّ ، وَأَحْلَوْكُمُ وَرَطَاتِ الْقَتْلِ ،
وَأَوْطَأُوكُمُ إِنْخَانَ الْجِرَاحَةِ طَعْنًا فِي عُيُونِكُمْ ، وَحَزًّا فِي حُلُوقِكُمْ ،
وَدَقًّا لِمَنَاخِرِكُمْ ، وَقَصْدًا لِمَقَاتِلِكُمْ ، وَسَوْقًا بِخَزَائِمِ الْقَهْرِ إِلَى النَّارِ
الْمُعَدَّةِ (٣) . فَأَصْبَحَ أَعْظَمَ فِي دِينِكُمْ جَرْحًا ، وَأَوْزَى فِي دُنْيَاكُمْ
قَدْحًا مِنْ الَّذِينَ أَصْبَحْتُمْ لَهُمْ مُنَاصِبِينَ وَعَلَيْهِمْ مُتَأَلِّبِينَ . فَاجْعَلُوا
عَلَيْهِ حَدًّاكُمْ ، وَلَهُ جِدًّاكُمْ ، فَلَعَمْرُ اللَّهِ لَقَدْ فَنَخَرَ عَلَى أَصْلِكُمْ ،
وَوَقَعَ فِي حَسْبِكُمْ ، وَدَفَعَ فِي نَسْبِكُمْ ، وَأَجْلَبَ بِخِيَلِهِ عَلَيْكُمْ ، وَقَصَدَ
بِرَجُلِهِ سَبِيلَكُمْ . يَقْتَنِصُوكُمْ بِكُلِّ مَكَانٍ ، وَيَضْرِبُونَ مِنْكُمْ كُلَّ
بَنَانٍ . لَا تَمْتَنِعُونَ بِحِيلَةٍ ، وَلَا تَدْفَعُونَ بِعَزِيمَةٍ . فِي حَوْمَةٍ ذُلٌّ .
وَحَلَقَةٍ ضَيْقٍ . وَعَرَصَةٍ مَوْتٍ . وَجَوْلَةٍ بَلَاءٍ . فَاطْفُشُوا مَا كَمَنَّ فِي
قُلُوبِكُمْ مِنْ نِيرَانِ الْعَصِيَّةِ وَأَحْقَادِ الْجَاهِلِيَّةِ ، فَإِنَّمَا تِلْكَ الْحَمِيَّةُ

تَكُونُ فِي الْمُسْلِمِ مِنْ خَطَرَاتِ الشَّيْطَانِ وَنَحْوَاتِهِ ، وَنَزَعَاتِهِ وَنَفَثَاتِهِ^(١) .
وَأَعْتَمِدُوا وَضَعَ التَّذَلُّلِ عَلَى رُؤُوسِكُمْ ، وَلِقَاءَ التَّعَزُّزِ تَحْتَ أَقْدَامِكُمْ ،
وَحُلْعَ التَّكَبُّرِ مِنْ أَعْنَاقِكُمْ ، وَاتَّخِذُوا التَّوَاضُّعَ مَسْلَحَةً بَيْنَكُمْ
وَبَيْنَ عَدُوِّكُمْ إِبْلِيسَ وَجُنُودِهِ ، فَإِنَّ لَهُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ جُنُودًا وَأَعْوَانًا ،
وَرَجُلًا وَفُرْسَانًا . وَلَا تَكُونُوا كَالْمُتَكَبِّرِ عَلَى ابْنِ أُمِّهِ مِنْ غَيْرِ مَا
فَضَّلَ جَعَلَهُ اللَّهُ فِيهِ سِوَى مَا أَلْحَقَتْ الْعِظَمَةُ بِنَفْسِهِ مِنْ عِدَاوَةِ الْحَسَدِ ،
وَقَدَحَتْ الْحَمِيَّةُ فِي قَلْبِهِ مِنْ نَارِ الْغَضَبِ ، وَنَفَخَ الشَّيْطَانُ فِي أَنْفِهِ
مِنْ رِيحِ الْكِبَرِ الَّذِي أَعْقَبَهُ اللَّهُ بِهِ النَّدَامَةَ ، وَالْأَلَمَ آثَامَ الْقَاتِلِينَ
إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ^(٥) .

اللغة :

الرجل - بفتح الراء وسكون الجيم - جمع راجل أي يمشي على رجله .
وفوق السهم : وضعه في الوتر . وأغرق الأمر : بالغ فيه . ونزع بالسهم :
رمى به ، وبالذلو : جذبها . والجموح من الرجال : العنود . والطماعية : الطمع .
ونجمت : ظهرت . ودلف : مشى . وورطات : جمع ورطة - بفتح الواو -
وهي الأمر الشاق . وخزائم : جمع خزام أو خزيمة ، وهي حلقة يُشد فيها
الزمام . وأورى الزند : أخرج ناره . ومناصبين : مجاهرين بالعداوة . ومتألمين :
مجمعين ومحتشدين . وأجلب : صاح . والمسلحة : القوم المسلحون أو المكان الذي
يرابطون فيه .

الإعراب :

المصدر من أن يعديكم منصوب بترفع الخافض أي احذروا من عدواه لكم ،

وقدلاً نصب على المصدرية أي يقدف قدفاً أو في موضع الحال أي قاذفاً ، ومثله رجماً وطعناً وما بعده ، وفي حومة متعلق بمحذوف حالاً من كاف الخطاب في يقتنصونكم .

المعنى : .

(فاحذروا عباد الله — الى — التزع الشديد) . المراد بعدو الله إبليس ، وبندائه وخيله ورجله وسهمه — المغريات والشهوات ، وانه بها يصطاد ويضلل أبناء آدم عدوة اللدود ، وروي عن إبليس انه قال : مهما تورع ابن آدم ، واحتاط لدينه فلاني موقعه ، لا محالة ، بجريمة من ثلاث : أن يأخذ المال من غير حل ، أو يمنعه من غير حق ، أو ينفقه في غير وجهه .. فالدرهم والدينار هما المحك الوحيد أخذاً وعطاءً ، والحد الفاصل بين الإخلاص والخيانة ، وبها يمتحن المؤمن لا بصلاته وصيامه ، ولا بتواضعه ، أو بأية فضيلة من الفضائل .

(وربما كم من مكان بعيد وقال : « رب بما أغويني لأزين لهم في الأرض ولاغوينهم أجمعين — ٢٩ الحجر ») . الشيطان لا يعتدي على أحد ، انه يزين ويحسن ، ويفري ويكذب في المواعيد ، وخيار الانسان بيده ، فإن تنازل عنه للشيطان ، وأسلم له القياد — فعل به ما يشاء ، وربما من قريب حيث يجري منه مجرى الدم .. وقال بعض العارفين : إن الشيطان مهذب ، يقرع الباب، ويتوارى خلفه ، فإن فتحت له دخل وإلا تركك ومضى في سبيله .

(قدفاً بغيب بعيد ، ورجماً بظن مصيب) . وفي بعض النسخ « غير مصيب » بزيادة « غير » وهو خطأ بدليل قول الإمام بلا فاصل : « صدقه به أبناء الحمية » وقوله تعالى : « ولقد صدق عليهم إبليس ظنه — ٢٠ سبأ » أي أصاب في ظنه بهم ، ولم يخطئ ، واذن فكلمة « غير » حشو ، والمعنى ان إبليس قال : لأغوين بني آدم ، ولم يكن عند قوله هذا آدمي على وجه الأرض ، وانما قال ذلك ظناً ورجماً بالغيب .. ومع هذا صدق في ظنه ، لأن الناس كلهم من حزبه إلا قليلاً .

(صدقه به أبناء الحمية الخ) .. الهاء في صدقه لإبليس ، وفي « به » لظنه

في قوله : « ولاغوينهم أجمعين » والمعنى لقد صدق ظن إبليس على أهل المعصية والكبرياء والجاهلية ، وتسرب الى نفوسهم من طريق تعصبهم لأصلهم ، وسفههم وجههم للتعاظم والشهرة الزائفة (حتى اذا انقادت له الجماعة منكم الخ) .. المراد بالجماعة النفوس التي لم يقرع الشيطان بابها بعد ، ولكنها على تمام الاستعداد لأن تفتح له ، وتقاد اليه ، والمعنى ان نفوسكم طاهرة في الظاهر ، وخبيثة في الباطن ، ولما حركها الشيطان ظهرت على حقيقتها ، وتبين للجميع انكم من جند الشيطان وأنصاره .

(استفحل سلطانه عليكم - الى - النار المعدة لكم) . واو الجماعة في أقحموكم وما بعده من الأفعال هي لجنود إبليس ، والمعنى استحوذ عليكم الشيطان ، واحتل نفوسكم بجنوده فأوردوا موارد الذل والهلكة في الدنيا ، وساقها في الآخرة الى النار وغضب الجبار فأصبح أعظم في دينكم جرحاً الخ.. وفي بعض النسخ «حرجاً» وهو خطأ ، والضمير المستتر في أصبح يعود للشيطان ، والمعنى ان وساوس الشيطان والأعبيه أشد ضرراً عليكم دنياً ودينياً من اخوانكم في الانسانية الذين تجاهرونهم بالعداء وتتألبون على حربهم ومنايلتهم .

(فاجعلوا عليه حدكم ، وله جدكم) . الضمير في « عليه وله » للشيطان ، والمراد بالحد الغضب والحدة ، وبالجد - بكسر الجيم - الجهد والطاقة ، والمعنى حاربوا الشيطان بكل ما تملكون من طاقة وحول وقوة (فلعمري الله لقد فخر الخ) .. المراد بالأصل والنسب هنا آدم ، والمعنى ان إبليس ازدرى أبائكم آدم ، وربماكم بنبال الهوى ، وداسكم بأقدام الشهوات ، وضربكم بسيوف المغريات حتى أذلكم ، وأوقعكم في البلاء والشدة ، ولم يبق لكم من باقية . وهذا تكرار وتوكيد لما تقدم من قوله : (دلف بجنوده نحوكم الخ) .

(فأطفئوا ما كمن في قلوبكم - الى - نزغاته ونفثاته) . المسلم الحق هو الانسان المفتتح الذي يحب ويسع الناس جميعاً ، أما الذي يتعصب لعرق أو لون أو فئة - فما هو بمسلم ، بل هو من أتباع الشيطان ، وعلى سنة الجاهلية وأهلها ، وسيتكلم الإمام عن العصبية مطولاً في هذه الخطبة ، فإلى هناك (واعتمدوا وضع التدلل - الى - جنوده) . دعوا الترفع والتكبر ، فإنه ينم على صاحبه بالصغار ، وتواضعوا للحق ، وانقادوا له ، واسمعوا منه ، فإنه الدرع الواقي من إبليس وجنوده .

(فإن له - أي لإبليس - من كل أمة جنوداً وأعواناً) . وما كان إبليس في يوم من الأيام أقوى سلطاناً ، وأعز نفراً منه في هذا العصر ، فجنوده في الغرب يصنعون ويخترعون أسلحة الخراب والدمار ، أما الشرق فقد أصبح وكراً للخوثة وعملاء الغرب .. وعلى دوي القنابل ، واغنيات العملاء ، وبكاء المنكوبين ، وأنين الجائعين - يرقص الشيطان ويطرب ، وبخاصة بعد أن تعهد زعماء الاشتراكية أن لا يصطدموا مع زعماء الامبريالية .. لقد كان اختلافها رحمة ومناعة للضعيف ، فصار اتفاقها طعنة ونقمة .

(ولا تكونوا كالمتكبر على ابن أمه الخ) .. قيل : هذا إشارة الى ما حدث بين قابيل وهابيل ، وان نار الغضب وعداوة الحسد في قلب الأول طفئت على القربى وصلة الدم ، والسبب غواية الشيطان وفتنته (الكبر الذي أعقبه الله به الندامة الخ) .. قتل قابيل أخاه هابيل ، ثم ندم تماماً كما ندمت أمه حواء من قبل ، وباء بإثمه وإثم أخيه ، وكان من أصحاب الجحيم . ذلك جزاء من اقتص أثر الشيطان وترسم خطاه .

لا تطيعوا الأديعاء .. فقرة ٦ - ٨ :

أَلَا وَقَدْ أَمَعَنْتُمْ فِي الْبَغْيِ ، وَأَفْسَدْتُمْ فِي الْأَرْضِ مُصَارَحَةَ اللَّهِ بِالْمُنَاصَبَةِ ، وَمُبَارَزَةَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْمُحَارَبَةِ . فَاللَّهُ اللَّهُ فِي كِبَرِ الْحَيَّةِ وَفَخْرِ الْجَاهِلِيَّةِ . فَإِنَّهُ مَلَأَ قُبُحَ الشَّيْطَانِ الَّتِي خَدَعَهَا الْأُمَمَ الْمَاضِيَةَ ، وَالْقُرُونِ الْحَالِيَةَ . حَتَّى أُعْنَقُوا فِي حَنَادِسِ جَهَنَّمِ ، وَمَهَاوِي ضَلَالَتِهِ ، ذُلًّا عَلَى سِيَاقِهِ ، سُلْسًا فِي قِيَادِهِ . أَمْرًا تَشَابَهَتْ الْقُلُوبُ فِيهِ ، وَتَتَابَعَتْ الْقُرُونُ عَلَيْهِ . وَكِبَرًا تَضَايَقَتْ الصُّدُورُ بِهِ^(٦) . أَلَا فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنْ طَاعَةِ سَادَتِكُمْ وَكِبَرَاتِكُمْ الَّذِينَ تَكْبَرُوا عَنْ حَسَبِهِمْ ، وَتَرَفَّعُوا فَوْقَ نَسَبِهِمْ ، وَأَلْقُوا الْهَجِيئَةَ عَلَى رَبِّهِمْ ،

وَجَاهِدُوا اللَّهَ مَا صَنَعَ بِهِمْ . مُكَابَرَةً لِقَضَائِهِ ، وَمُغَالَبَةً لِآلَائِهِ ،
فَانْتَهُمُ قَوَاعِدُ أَسَاسِ الْعَصِيَّةِ . وَدَعَائِمُ أَرْكَانِ الْفِتْنَةِ ، وَسُيُوفُ اعْتِرَاضِ
الْجَاهِلِيَّةِ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَكُونُوا لِنِعْمِهِ عَلَيْكُمْ أُضْدَادًا ، وَلَا
لِفَضْلِهِ عِنْدَكُمْ حُسَادًا . وَلَا تُطِيعُوا الْأَذْغِيَاءَ الَّذِينَ شَرِبْتُمْ بِصَفْوِكُمْ
كَدَرَهُمْ ، وَخَلَطْتُمْ بِصِحَّتِكُمْ مَرَضَهُمْ ، وَأَدْخَلْتُمْ فِي حَقِّكُمْ بَاطِلَهُمْ ،
وَهُمْ أَسَاسُ الْفُسُوقِ وَأَحْلَاسُ الْعُقُوقِ . اتَّخَذْتُمْ لِبَيْسٍ مَطَايَا ضَلَالٍ ،
وَجُنْدًا بِهِمْ يَصُولُ عَلَى النَّاسِ . وَتَرَاجِمَةً يَنْطِقُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ . اسْتِرَاقًا
لِعُقُوبِكُمْ وَدُخُولًا فِي عُيُونِكُمْ ، وَنَفْثًا فِي أَسْمَاعِكُمْ . فَجَعَلَكُمْ مَرْمَى
نَيْلِهِ ، وَمَوْطِئَ قَدَمِهِ ، وَمَأْخِذَ يَدِهِ^(٧) . فَاعْتَبِرُوا بِمَا أَصَابَ الْأُمَمَ
الْمُسْتَكْبِرِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ وَصَوْلَاتِهِ ، وَوَقَائِعِهِ وَمَثَلَاتِهِ ،
وَأَتَعِظُوا بِمَنَاقِبِ خُدُودِهِمْ ، وَمَصَارِعِ جُنُوبِهِمْ ، وَأَسْتَعِذُوا بِاللَّهِ
مِنْ لَوَاقِحِ الْكِبَرِ كَمَا تَسْتَعِذُونَهُ مِنْ طَوَارِقِ الدَّهْرِ . فَلَوْ رَخَّصَ
اللَّهُ فِي الْكِبَرِ لِأَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ لَوَخَّصَ فِيهِ لِحَاصَةِ أَنْبِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ .
وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ كَرَّةً إِلَيْهِمُ التَّكَاثُرَ وَرَضِيَ لَهُمُ التَّوَاضُعَ . فَأَلْصَقُوا
بِالْأَرْضِ خُدُودَهُمْ ، وَعَقَرُوا فِي التُّرَابِ وُجُوهَهُمْ . وَخَفَضُوا أُنْجِحَتَهُمْ
لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَكَانُوا أَقْوَامًا مُسْتَضْعَفِينَ . وَقَدْ اخْتَبَرَهُمُ اللَّهُ بِالْمَخْمَصَةِ ،
وَأَبْتَلَاهُمْ بِالْمَجْهَدَةِ ، وَأَمْتَحَنَهُمْ بِالْمَخَافِ ، وَخَضَّعَهُمْ بِالْمُكَارِهِ . فَلَا
تَعْتَبِرُوا الرِّضَا وَالسُّخْطَ بِالْمَالِ وَالْوَلَدِ جَهْلًا بِمَوَاقِعِ الْفِتْنَةِ وَالْإِخْتِبَارِ

فِي مَوَاضِعِ الْغِنَى وَالْإِفْتِدَارِ ، وَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : « أَيَحْسَبُونَ
أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَيْنَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ »
فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ الْمُسْتَكْبِرِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ بِأَوْلِيَائِهِ الْمُسْتَضْعِفِينَ
فِي أَعْيُنِهِمْ^(٨) .

اللغة :

أمعنتم : أبعدتم وبالعنم . والمصارحة : المجاهرة أو المظاهرة . والمناسبة :
العداوة والمقاومة . والملاقح : من اللقاح أي علق الأنثى من الذكر . وأعنفوا :
غابوا . وحنادس : جمع حندس ، وهو الظلام الشديد . وسياقه : من ساق
الماشية . والهجنة : القبيحة . والاعتزاء : الانتساب والائتماء . وأحلاس : جمع
حلاس : كل ما يوضع على ظهر الدابة تحت السرج . والعقوق : العصيان .
ومثاوي : منازل . وخطودهم : حفرهم ، وفي بعض النسخ بالخاء ، وهو خطأ .
والمخمصة : الجوع . والمجهدة : المشقة .

الإعراب :

مصارحة مفعول من أجله لأفسدتم أي أفسدتم عداوةً ومقاومةً لله ، أو في موضع
الحال أي ناصبين العداة لله ، وذُللاً حال من واو وأعنفوا ، ومثله سُلُساً ،
وأمرأ مفعول لفعل محذوف أي اعتمدوا أمرأ ، ومكابرة مفعول من أجله لجاحدوا
ومثله إستراقاً ، ويجوز أن يكون في موضع الحال أي مسترقاً ، وجهلاً مفعول
من أجله لتعتبروا .

المعنى :

(ألا وقد أمعنتم في البغي الخ) .. كل بغي وفساد في الأرض هو حرب

على الله ومقاومة له بالذات ، وكل غضب وحرب على الظلم والضلال هو انتصار لله سبحانه .. فالارتباط بين العمل لوجه الله والعمل لخدمة الانسان - وثيق ومتمين ، ويستحيل ان يفترق أحدهما عن الآخر .. وأية جدوى من الإيمان بالله وجهه إذا لم يكن دافعاً على عمل يرضيه ، وعاصماً من الانحراف عن سبيله ووحياً من خلق محمد (ص) الذي بُعث ليتمم مكارم الأخلاق ؟

(فالله الله في كبر الحمية ، وفخر الجاهلية) . أبداً .. لا حدود لطموح الانسان ورغباته ، وقد صور الفيلسوف «راسل» هذا الطموح في كتاب «السلطان» بقوله : « كل إنسان يود أن يكون إلهاً ، وقليلون هم الذين يرون ذلك مستحيلاً وصعب المنال » . هذا صحيح ، ولكن الذين يتمنون التأليه ولا ينالوه - يشبعون رغبتهم من التعظيم ، أو الفخر بعظام الأموات ، أو المناصب ، أو الاعلان عنهم في الصحف وغير ذلك من الوسائل والدعايات المزيفة (فإنه ملاقح الشتان) . ان الفخر والكبر يمان عن الحق والصغار ، ويحدثان ردة فعل على صاحبها حيث يكرهه الناس ، ويتباعدون عن قربهِ (ومنافخ الشيطان الخ) .. أي نفخ الشيطان في أنوف الرؤساء من روحه التي تمردت على أمر الله وطاعته ، وبهذه النفخات أهلك الأمم الماضية ، وبهلك الأمم الآتية . وغرض الإمام (ع) أن يشجب رذيلة الكبرياء ، ويبين انها أصل البلاء .

(ألا فالخلد الخلد من طاعة ساداتكم) . حذر الإمام من الذين يعشقون المناصب والرياسة لا لشيء إلا للذة الحكم وشهوة السلطان ، وأيضاً حذر من الذين يتعشقون الكراسي كوسيلة تمكنهم من الوصول الى غاياتهم ومآربهم ، أما من يطلب الحكم لإقامة العدل وإحقاق الحق ، وللقضاء على الشر والفساد - أما هذا فواجب الطاعة والمؤازرة . قيل : ان الشيطان عرض على السيد المسيح (ع) ممالك الأرض اذا سجد له فأبى ، ولو كانت له مآرب أخرى لسجد وركع ، وتطوع للخيانة والعمالة كأكثر أمراء عصره وهذا العصر وحكامه .

(الذين تكبروا عن حسبهم ، وترفعوا عن نسبهم) أي احذروا السادات الذين يتنازرون بالألقاب ، ويتفاخرون بالمناصب . وفي الحديث الشريف : «حسب الرجل دينه ، ومروءته خلقه ، وأصله عقله » . (وألقوا الهجنية على ربهم) . ما زال الحديث عن الزعماء ، والمعنى انهم يتعاضمون على الناس ، لأن الله هو

الذي ألبسهم قيص العظمة ، وحرّم غيرهم منه ، كما يؤعمون ، وهذه جرأة وفرية على الله الذي قال : ان أكرمكم عند الله أتقاكم (وجاهدوا الله ما صنع بهم الخ) .. ان الزعماء يستظهرون بنعمة الله على عباد الله ، ويعاندون أمره بالشكر والتواضع ، ويجحدون آلاءه تمرداً وعناداً .

(فإنهم قواعد الخ) .. المراد بالعصبية التعصب لغير الحق ، وبالفتنة الفرقة والفساد ، وبالاتعزاء الانتساب . والقصد هو مجرد الدم ، وان الزعماء هم أصل الداء والبلاء (فاتقوا الله ولا تكونوا لنعمه عليكم أضداداً) . النعمة تستوجب الشكر والتواضع . والكبر ضد التواضع ، والكفران ضد الشكر . والقصد النهي عن رذيلة الكفران والكبر (ولا لفضله عندكم حسداً) . المراد بالحساد هنا الأعداء ، والمعنى لا تعملوا ما يستوجب زوال النعمة عنكم ، وإلا يكون شأنكم مع أنفسكم شأن العدو الذي يتمنى زوال النعمة عن عدوه . وبكلمة لا تكونوا أعداء أنفسكم .

(ولا تطيعوا الأعداء - الى العقوق) . الدعي هو الذي ينتسب الى غير أبيه ، ومثله النذل الخسيس حيث يدعي الشرف والمكانة ، والمعنى أنتم ودعاء وأبرياء ، لأنكم لا تهتدون الى شيء سوى العيش في أمان واستقرار وبكدّ اليمين وعرق الجبين ، أما الرؤساء الخبثاء فهم سفلة ولصوص قد تخصصوا بأساليب الخداع ، وتفنونوا في طرق السلب والاستغلال ، وعليكم أن تكافحوهم ، ولا تركنوا اليهم ، ومن تحالف معهم عن وعي وعلم ، ومن أجل الربح والكسب فهو مجرم وخائن ، ومن ركن إليهم عن غفلة وجهل أخذوا منه دينه وضميره الصافي النقي ، وبره لوطنه وأمنه ، وأعطوه الكدر والمرض والباطل .. وقد يُعذر المنعزل والساكت عن الأمر بالمعروف اذا أيقن بعدم الجدوى من وعظه وإرشاده .. وعلى أية حال فإن لكل ظروفه الخاصة ، شريطة أن لا يُحرّف ويُزيف بالتأويل والتضليل .

(اتخذهم إبليس مطايا الخ) .. إن الزعماء المنحرفين يفعلون بوحى من الشيطان ، وينطقون بلسانه ، وينظرون بعينه ، وبأذنه يسمعون ، بل هم في قبضته ونحت قدمه . وتقدم مثله أكثر من مرة في هذه الخطبة بالذات .

(فاعتبروا بما أصاب - الى - مثلاته) . المراد بالأهم المستكبرين الجبابرة من

سادة الأمم كفرعون موسى ونمرود ابراهيم، وغيرهما من طغاة الأكاسرة والقيصرية، أما الكثرة العاملة فكانت تصنع للكبار القصور والأهرامات، وتبني الحصون والسدود، وتحفر الترع والأنهار .. وقد أخذ سبحانه بصواقفه وعواصفه المستكبرين والتابعين لهم من المستضعفين ، أخذ أولئك بظلمهم ، وهؤلاء بنومهم على الضيم والظلم .. ويقول الإمام للمستضعفين : اتعظوا بمن سبق ، وكافحوا العدوان قبل أن ينزل عليكم العذاب بغتة ، ويعم الظالم والساکت عنه .

(واتعظوا بمثاوي خدودهم ، ومصارع جنوبهم) . وفي بعض النسخ حدودهم ، وهو خطأ ، والمعنى اتعظوا بالقبور التي أكلت الخدود، وأبليت الجنوب (واستعيدوا بالله من لواحق الكبر ، كما تستعيدونه من طوارق الدهر) . ما من عاقل إلا ويخشى المخبات والمفاجآت ، ولكن المتكبر لا يخشى، بل لا يتصور إطلاقاً عاقبة التعالي والكبرياء وإلا تواضع وتنازل عن شموخه ، وإذا سلم المتكبر من طوارق الدهر فهل يسلم من سكرات الموت وظلمة القبر .

(فلو رخص الله في الكبر لأحدٍ لرخص فيه لخاصة أنبيائه الخ) .. بل نهاهم عنه ، وقال لحاتمهم وسيدهم : « وانخفض جناحك للمؤمنين - ٨٨ الحجر » . وفي الحديث : من تواضع رفعه الله ، ومن تكبر خفضه الله « وقد امتحن سبحانه أنبياءه بأنواع من المكاره فصبروا ورضوا بما قضى وأحب .. وأوذى محمد (ص) في سبيل الله أشد الإيلاء ، فما تظلم أو تبرم ، بل تطلع الى خالقه ، وشكا اليه ضعفه وهوانه على الناس .. وخاف أن يكون قد غضب الله عليه ، فلاذ به ، وقال : أعوذ بنور وجهك أن تنزل بي غضبك ، أو تحل عليّ سخطك .. لك العتبي حتى ترضى .. إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي . أما قول الإمام عن الأنبياء والأولياء : « فالصقوا بالأرض خدودهم الخ » .. فهو كناية عن شدة خضوعهم وتواضعهم لله جل وعز .

(فلا تعتبروا الرضا والسخط بالمال الخ) .. لو كان رضا تعالى يعتبر بالمال لكان أصحاب الملايين في « وول سريت » وأرباب الشركات والاحتكارات ، في أعلى عليين عند الله ، وكان المكدبون في الأرض الدين لا عم لهم ولا خال - في الدرك الأسفل من النار .. حاشا لله .. ولكنه يختبر عباده بالمال والسلطان كما يختبرهم بالمخمصة والمجهدة ، لتظهر الأفعال التي يستحق بها الثواب والعقاب ..

هذا ، الى ان الدنيا دار زوال وفناء ، ولا تعادل عند الله جناح بعوضة ، وقد جعلها للمرور والتزود من الصالحات الى دار الخلد والبقاء ، فكيف يكون الحقير الزاقل جزاء من أحسن وتورع ؟.

وتسأل : هل لنا أن نفهم من اختباره تعالى عبادته بالمال أو الحرمان انها بقضائه وقدره ، وان العبد لا أثر له في شيء من ذلك ؟.

الجواب :

لقد جرت سنة الله في خلقه ان من عمل واجتهد رزقه الله، ومن أهمل وتكاسل حرمه الله ، وان من اقتصد ودبر عاش حميداً ميسوراً ، ومن بذّر وأسرف قعد ملوماً محسوراً مؤمناً كان أم كافراً ، برأ أم فاجراً .. ولن تجد لسنة الله تبديلاً.. واذن فللإنسان حريته وأثره ، والاختيار منه تعالى انما يكون بعد الجد والعمل ، فن أفاد مالا من عمل مشروع ، وأنفق في وجهه فهو من الطائعين ، وان أفاده من حرام ، وأنفق في غير حل فهو من العصاة .. وان فشل في عمله ، وذهب جهده سدى ، ومع هذا صبر وقال : ما فعل الله بي إلا خيراً ، فهو مشكور ومأجور ، وان سخط على الله وقضائه ، وخرج عن الحدود يميناً وشمالاً فهو من الذين باعوا بغضب من الله وعذابه .

موسى وفرعون .. فقرة ٩ - ١١ :

وَلَقَدْ دَخَلَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ وَمَعَهُ أَخُوهُ هَارُونُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عَلَى فِرْعَوْنَ وَعَلَيْهَا مَدَارِعُ الصُّوفِ وَبِأَيْدِيهَا الْعِصِيُّ فَشَرَطَا لَهُ إِنْ أَسْلَمَ بَقَاءَ مُلْكِهِ وَدَوَامَ عِزِّهِ فَقَالَ : « أَلَا تَعْجُبُونَ مِنْ هَذَيْنِ يَشْرِطَانِ لِي دَوَامَ الْعِزِّ وَبَقَاءَ الْمُلْكِ وَهُمَا بِمَا تَرَوْنَ مِنْ حَالِ الْفَقْرِ وَالذُّلِّ ، فَهَلَّا أُلْقِيَ عَلَيْهِمَا أَسَاوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ ، إِعْظَامًا لِلذَّهَبِ وَجَمْعِهِ ، وَاحْتِقَارًا لِلصُّوفِ وَلُبْسِهِ^(١) . وَلَوْ أَرَادَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِأَنْبِيَائِهِ حَيْثُ بَعَثْتُهُمْ أَنْ

يَفْتَحَ لَهُمْ كُنُوزَ الذُّهَبَانِ ، وَمَعَادِنَ الْعِقْيَانِ ، وَمَغَارِسَ الْجِنَانِ ،
وَأَنْ يَخْشُرَ مَعَهُمْ طُيُورَ السَّمَاءِ وَوُحُوشَ الْأَرْضِ لَفَعْلَ ، وَلَوْ فَعَلَ
لَسَقَطَ الْبَلَاءُ ، وَبَطَلَ الْجَزَاءُ ، وَأَضْمَحَلَّتِ الْأَنْبَاءُ . وَلَمَّا وَجِبَ
لِلْقَائِلِينَ أَجُورُ الْمُبْتَلِينَ ، وَلَا أُسْتَحَقَّ الْمُؤْمِنُونَ ثَوَابَ الْمُحْسِنِينَ ، وَلَا
لَزِمَتِ الْأَشْمَاءُ مَعَانِيهَا . وَلَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ رُسُلَهُ أُولِي قُوَّةٍ
فِي عَزَائِمِهِمْ ، وَضَعَفَةً فِيمَا تَرَى الْأَعْيُنُ مِنْ حَالَاتِهِمْ ، مَعَ قَنَاعَةٍ
تَمَلُّ الْقُلُوبَ وَالْعُيُونَ غِنًى ، وَخَصَاصَةً تَمَلُّ الْأَبْصَارَ وَالْأَشْمَاعَ
أَذًى^(١٠) . وَلَوْ كَانَتْ الْأَنْبِيَاءُ أَهْلَ قُوَّةٍ لَا تُرَامُ وَعِزَّةٍ لَا تُضَامُ ،
وَمُلْكٍ تَمْتَدُّ نَحْوُهُ أَعْنَاقُ الرِّجَالِ ، وَتُشَدُّ إِلَيْهِ عُقَدُ الرِّحَالِ لَكَانَ
ذَلِكَ أَهْوَنَ عَلَى الْخَلْقِ فِي الْإِعْتِبَارِ وَأَبْعَدَ لَهُمْ فِي الْإِسْتِكْبَارِ ،
وَلَا مَنُوا عَنْ رَهْبَةٍ قَاهِرَةٍ لَهُمْ أَوْ رَغْبَةٍ مَائِلَةٍ بِهِمْ ، فَكَانَتْ النِّيَّاتُ
مُشْتَرَكَةً وَالْحَسَنَاتُ مُقْتَسَمَةً . وَلَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ
الْإِتِّبَاعُ لِرُسُلِهِ وَالتَّصَدِيقُ بِكُتُبِهِ وَالْخُشُوعُ لِوَجْهِهِ وَالِاسْتِكَانَةُ
لِأَمْرِهِ وَالِاسْتِسْلَامُ لِطَاعَتِهِ أُمُورًا لَهُ خَاصَّةٌ لَا تَشُوبُهَا مِنْ غَيْرِهَا
شَائِبَةٌ . وَكَلَّمَا كَانَتْ الْبُلُوى وَالِاخْتِبَارُ أَعْظَمَ كَانَتْ الْمَثُوبَةُ وَالْجَزَاءُ
أَجْزَلَ^(١١) .

اللغة :

أساورة : جمع سوار . والذهبان : جمع ذهب . والعقيان — بكسر العين —

الذهب الخالص . والخصاصة : الفقر . وتشوبها من غيرها : تختلط من غيرها ، قال تعالى : « لشوباً من حميم - ٦٧ الصافات » أي خلطاً من حميم .

الإعراب :

هلا للطلب والتحضيض ، وإعظاماً مفعول من أجله ، لقال ، ولفعل جواب لو أراد الله ، وغنى تمييز ، ومثله أذى ، وأموراً خبر يكون الاتباع ، وخاصة صفة لأمر ، وله متعلق بخاصة أي أموراً مختصة به أو له .

لا حق ولا إنسانية إلا عند الأغنياء !

(ولقد دخل موسى - الى - لبسه) . انطلق موسى وهرون الى فرعون بأمر الله ، ودخلا عليه ، وهما يلبسان مدارع الصوف ، ويدهما العصي ، ودعواه الى الله ، وشرطاً له بقاء ملكه ودوام عزه ان أسلم وأطاع .. وسخر فرعون ممن يشترط له هذا ، ولا جاه له ولا مال .. فقال له موسى : « أو لو جئتك بشيء مبین ؟ . ولكن الشيء المبين والحق اليقين عند فرعون وأمثاله هو الذهب والملك .. ولذا قال فرعون : يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي ؟ . ثم قال لموسى : « لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين » .

وأقر « نيتشه » هذه الفلسفة ، واستدل عليها بقوله على لسان زرادشت : « إذا كان هناك إله فكيف أستطيع أن لا أكون إلهاً ، ولهذا فليس ثم من إله » .. أبدأ .. ليس للكون إله ، والدليل ان نيتشه أو زرادشت ليس بإله .. وأيضاً ليس للفقير من حق ، ويستحيل أن يكون الفقير محقاً ، والدليل انه بلا مال وجاه .. ولا عجب فهذا هو المنطق السائد عملياً في كل عصر ، وان كان باطلاً باتفاق الجميع من الوجهة النظرية .

(ولو أراد الله سبحانه لأنبياؤه - الى - لفعل) . لا واسطة بين الله وعباده إلا التبليغ عنه على لسان أنبيائه بهدف الإيمان به والعمل بشريعته عن قناعة لا عن رغبة أو رهبة .. وإذا كان هذا هو الغرض من بعثة الأنبياء فلا موجب لإذن - لأن يزودهم سبحانه بكنوز الدنيا وحدائقها وطيورها ووحوشها (ولو فعل) أي

لو زود سبحانه الأنبياء بمَتاع الحياة الدنيا (لَسَقَطَ البلاء) والاختبار والامتحان ، لأن الناس عبيد للدنيا ، ولمن في يده شيء منها ، وعليه يكون إيمانهم بالأنبياء الأغنياء إيماناً بالمال لا برسالة الله وأنبيائه .

(وبطل الجزء) لأنه لغير الله (واضمحت الأنبياء) والأحاديث عن الأنبياء وسيرتهم وعظمتهم وشريعتهم حيث يكون الحديث عنهم ، والحال هذه ، حديثاً عن الدنيا التي يملكونها ، لا حديثاً عن الله وحلاله وحرامه (ولما وجب للقابلين أجور المبتلين) لأن المراد بالمبتلى من أظهره التمحيص على حقيقته ولن يكون هذا إلا في الضراء وساعة العسرة (ولا استحق المؤمنون ثواب المحسنين) لأن أهل الإحسان يعطون ولا يطعمون في الريح (ولا لزمت الأسماء معانيها) لكل كلمة معنى تدل عليه ، ولكل اسم مسمى يُفهم منه ، ومعنى الإيمان بالله ورسله هو التصديق به وبهم ، ولو أسمىنا من آمن طمعاً، أسمىناه مؤمناً — لوضعنا الكلمة في غير مدلولها ، والاسم في غير مسماه .

(ولكن الله سبحانه جعل رسله أولي قوة الخ) .. أولياء الله أهون الناس شأنًا عند الطغاة وأهل الدنيا ، لفقرهم وقلة يدهم ، ولكنهم أغنياء بالصدق والأمانة، وبالهداية والتقوى، بل هم أقوى وأغنى من خلق الله ويخلق على الإطلاق، لا تهزمهم الملوك والجبابرة عن عزهم ولا تثنيهم الشهوات والأموال عن دينهم وضمائيرهم (ولو كانت الأنبياء أهل قوة الخ).. بماذا تبرهن على تجردك للحق ؟. أبا نقبادك له رغبة أو رهبة ، أو بإيمانك به لوجه الحق وثباتك عليه حتى ولو دفعت الثمن غالباً من نفسك وأهلك ومالك ؟. والجواب واضح وبسيط ، فمن آمن خوفاً أو طمعاً فهو تاجر ، ومن آمن لوجه الحق وحده مهما تكن النتائج والعواقب فهو المؤمن حقاً وواقعاً ، وعلى هذا لو كانت الدنيا مع الأنبياء لآمن من في الأرض جميعاً ، واختلط الحابل بالنابل ، والمؤمن بالفاجر .

(فكانت النيات مشتركة ، والحسنات مقسمة) لو ان الدنيا مع الأنبياء وآمن بهم من آمن لكان إيمانه مشوباً بحب الدنيا ، وهذا هو معنى الاشتراك ، وأيضاً كان عمله بأمر من الأنبياء موزعاً بين حب الله وحب الدنيا ، وهذا هو المراد بالتقسيم (ولكن الله سبحانه أراد أن يكون الاتباع — الى — شائبة) . جرد سبحانه أنبياءه من زينة الدنيا ليكون الإيمان خالصاً لوجهه الكريم ، قال تعالى :

« وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين - ه البينة » . وقال نبيه العظيم :
انما الأعمال بالنيات ، ولكل امرئ ما نوى .. ومن كانت هجرته الى الله
ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته الى دنيا يصيها أو امرأة
يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه .

(وكما كانت البلوى أعظم كانت المثوبة والجزاء أجزل) . ولذا قيل :
الأجر على قدر المشقة . وعن رسول الله (ص) : إن عظيم البلاء يكافأ به عظيم
الجزاء .

والخلاصة لا شيء عند الأنبياء إلا الله والحق ، ولا يعتزون إلا به ، ولا يخافون
إلا منه ، ومن ادعى الإيمان بالله ورسله ، ثم اعتز بغير الله ، وخاف من سواه
فهو كاذب في دعواه .

بيت الله الحرام .. فقرة ١٢ - ١٤ :

أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ اخْتَبَرَ الْأَوَّلِينَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ
عَلَيْهِ إِلَى الْآخِرِينَ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ بِأَحْجَارٍ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ ، وَلَا
تُبْصِرُ وَلَا تَسْمَعُ . فَجَعَلَهَا بَيْتَهُ الْحَرَامَ الَّذِي جَعَلَهُ لِلنَّاسِ قِيَامًا .
ثُمَّ وَضَعَهُ بِأَوْعَرِ بَقَاعِ الْأَرْضِ حَجْرًا ، وَأَقْلَّ تَتَائِقِ الْأَرْضِ مَدْرًا .
وَأَضْيَقِ بُطُونِ الْأَوْدِيَةِ قُطْرًا . بَيْنَ جِبَالٍ خَشِينَةٍ ، وَرِمَالٍ دَمِشَةٍ .
وَعُيُونٍ وَشَلَّةٍ ، وَقَرَى مُنْقَطِعَةٍ . لَا يَزْكُو بِهَا خُفٌّ ، وَلَا حَافِرٌ
وَلَا ظِلْفٌ^(١٢) . ثُمَّ أَمَرَ آدَمَ وَوَلَدَهُ أَنْ يَتَنُوءَ أَعْطَافَهُمْ نَحْوَهُ ،
فَصَارَ مَثَابَةً لِمُنْتَجِعِ أَسْفَارِهِمْ ، وَغَايَةً لِمَلَقَى رِحَالِهِمْ . تَهْوِي إِلَيْهِ
يَمَارُ الْأَفْنِدَةِ مِنْ مَفَاوِزِ قِفَارٍ سَحِيقَةٍ وَمَهَاوِي فِجَاجٍ عَمِيقَةٍ ، وَجَزَائِرِ

بِحَارٍ مُنْقَطِعَةٍ ، حَتَّى يَهْزُوا مَنَاكِبَهُمْ ذُلًّا يُهْلُونَ لِلَّهِ حَوْلَهُ . وَيَرْمُلُونَ
 عَلَى أَقْدَامِهِمْ شُغْنًا غُبْرًا لَهُ . قَدْ نَبَذُوا السَّرَاطِيلَ وَرَأَى ظُهُورِهِمْ ،
 وَشَوَّهُوا بِإِعْفَاءِ الشُّعُورِ نَحَاسِنَ خَلْقِهِمْ ، أَيْتِلَاءَ عَظِيمًا وَأَمْتِحَانًا شَدِيدًا
 وَأَخْتِبَارًا مُبِينًا . وَتَمَحِيصًا بَلِيغًا جَعَلَهُ اللَّهُ سَبِيلًا لِرَحْمَتِهِ ، وَوَصَلَةً إِلَى
 جَنَّتِهِ^(١٣) . وَلَوْ أَرَادَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَضَعَ بَيْتَهُ الْحَرَامَ وَمَشَاعِرَهُ الْعِظَامَ
 بَيْنَ جَنَاتٍ وَأَنْهَارٍ ، وَسَهْلٍ وَقَرَارٍ ، جَمِّ الْأَشْجَارِ ، دَانِي الثَّارِ ،
 مُلْتَفِّ الْبَنَاءِ ، مُتَّصِلِ الْقُرَى ، بَيْنَ بُرَّةٍ سَمَرَاءَ ، وَرَوْضَةٍ خَضْرَاءَ ،
 وَأُرْيَافٍ مُخْدِقَةٍ ، وَعِرَاصٍ مُغْدِقَةٍ ، وَرِيَاضٍ نَاضِرَةٍ ، وَطُرُقٍ عَامِرَةٍ ،
 لَكَانَ قَدْ صَغُرَ قَدْرُ الْجَزَاءِ عَلَى حَسَبِ ضَعْفِ الْبَلَاءِ . وَلَوْ كَانَ
 الْإِسَاسُ الْمَحْمُولُ عَلَيْهَا ، وَالْأَحْجَارُ الْمَرْفُوعُ بِهَا بَيْنَ زُمُرَدٍ خَضْرَاءَ ،
 وَيَاقُوتَةٍ سَمَرَاءَ وَنُورٍ وَضِيَاءٍ لَخَفَّفَ ذَلِكَ مُسَارَعَةَ الشَّكِّ فِي الصَّدُورِ ،
 وَلَوْ ضَعَّ تَجَاهِدَةَ إِبْلِيسَ عَنِ الْقُلُوبِ ، وَلَنَفَى مُعْتَلِجَ الرَّيْبِ مِنَ
 النَّاسِ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ بِأَنْوَاعِ الشَّدَائِدِ ، وَيَتَعَبَّدُهُمْ بِأَنْوَاعِ
 الْمَجَاهِدِ ، وَيَبْتَلِيهِمْ بِضُرُوبِ الْمَكَارِهِ إِخْرَاجًا لِلتَّكْبُرِ مِنْ قُلُوبِهِمْ ،
 وَإِسْكَانًا لِلتَّذَلُّلِ فِي نُفُوسِهِمْ . وَلِيَجْعَلَ ذَلِكَ أَبْوَابًا فَتْحًا إِلَى فَضْلِهِ ،
 وَأَسْبَابًا ذُلًّا لِعَفْوِهِ^(١٤) .

اللغة :

نقائق : جمع نقيقة أي الأرض المرتفعة ولو نسبياً . والمدن : قطع من الطين
اليابس . والقطر - بفتح القاف - المطر ، - وبكسرهما - ضرب من النحاس ،
وبضمها - كما هنا - الاقليم والناحية . ودمثة : سهلة لينة . ووشلة : قليلة .
ولا يزكو : لا ينمو . والخف : للجمل . والحافر : للفرس ونحوه . والظلف :
للبقرة والغنم . والمثابة : مجتمع الناس ، أو اسم لمكان الرجوع ، والمثوبة : الثواب
والجزاء . والمنتجع - بفتح الجيم - المكان يقصده الناس طلباً للمنفعة . والمراد
بالرحال هنا ما يصحبه المسافر . وتهوي : تسرع أو تحن . والمراد بهمار الأثدة
أمانيتها . ومهاوي : جمع مهوى أي الجو . وفجاج : الطريق بين جبلين .
ويرملون : يهرولون . والأشعث : المنتشر الشعر . والسراويل : كل ما يلبس .
والشعائر : الدلائل ، والمشاعر أمكنتها . والبرة : الحنطة ، والسمراء أجودها .
وأرياف : جمع ريف أي أرض فيها زرع وخصب . ومحدقة : من أهدت
الروضة إذا صارت حديقة . وعراض : جمع عرصة ، وهي الساحة . ومغدة :
فيها ماء . وناصرة : حسنة وجميلة . والإساس - بكسر الهمزة - جمع اس
وأساس أي أصل البناء . والاعتلاج : الالتطام والاختلاط .

الإعراب :

حجراً تميز ، ومثله مدرأ وقطراً ، وذُللاً حال لأنه جمع ذليل ، ومثله
شُعْثاً وغُبْراً ، وابتلاء نصب على المصدرية أي ابتلوا ابتلاء ، ومثله امتحاناً
واختباراً ، ولكان قد صغر جواب لو أراد سبحانه ، ونحلف جواب لو كان
الاساس ، وإخراجاً مفعول من أجله ليبتليهم .

المعنى :

(ألا ترون ان الله سبحانه اختبر الأولين الخ) .. بنى سبحانه البيت الحرام
من حجر وطن تماماً كالبيوت التي نسكنها ، وألزم بزيارته وحججه من استطاع
إليه سبيلاً .. يخضع ويتدلل ، ويستغيث ويستعير ، وهذا الإلزام والوجوب كان

من زمن سحيق يبتدىء بآدم ، الى آخر يوم ، و ابراهيم (ع) أعاد ما بدأه السابقون . وكان البيت الحرام وما زال في وادٍ غير ذي زرع، لا ثمر ولا مطر ، أما طريقه فكان بحاراً وجبالاً ، والحج اليه متاعب ومصاعب تزيد المؤمن ثواباً ، وتميزه عن عصي وتمرد .. كانوا يمشون أو يركبون الدواب الى شاطئ البحر ، ثم يركبون البحر الى الصحراء ، يقطعونها على الجبال ، ويعانون التعب والخوف من القتل أو السلب ، ويقاسرون الجوع والعطش ، والحر والبرد .

أما اليوم وبعد السيارة والطيارة فالحج زهرة وسياحة ، ولا شيء فيه للثواب والتميز والاختبار إلا النية الخالصة ، والتلبية لدعوة الله وحدها ، والشعور بالتوجه والانقطاع اليه تعالى أن يتوب ويغفر . وروي أن النبي (ص) أشار الى ذلك بقوله : « يأتي زمان على الناس يخرج أغنياؤهم الى بيت الله للسياحة ، وفقراؤهم للتجارة ، وعلماؤهم للسمعة ، وقلة منهم تخرج لوجه الله » . والمراد بالفقراء هنا كل من يتخذ الحج وسيلة للربح والانجار كالمعمرين الذين يقودون جماعة من الحجاج بأجر معلوم، أما العلماء فالمراد بهم أصحاب العائم الذين ترسلهم الحكومات باسم البعثة لا لشيء إلا للسمعة كما في الحديث .

ان بيت الله الحرام أحجار لا تضر ولا تنفع كما قال رسول الله (ص) من قبل وقال الإمام وغير الإمام من بعد ، ولكن هذه الأحجار رمز للإجماع على توحيد الله وعبادته ، وشعار لتقديسه وتعظيمه : « ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب - ٣٢ الحج » . وليس الإسلام بدعاً في ذلك، فكل الأمم والطوائف من بني آدم - لها رموز وشعائر مطهرة مقدسة . (انظر ما نقلناه في كتاب : « من هنا وهناك » بعنوان زيارة القبور) .

(ثم أمر آدم (ع) وولده أن يثنوا أعطافهم نحوه) أي ان يحجوا الى بيت الله الحرام ، وقيل : انه كان خيمة يطوف حولها آدم ، ثم بناها ابنه شيث بالحجر والطين (فصار مثابة لمنتجع أسفارهم) إشارة الى قوله تعالى في الآية ١٢٥ من سورة البقرة : « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً » . ومنتجع إشارة الى المنافع التي ذكرها سبحانه في الآية ٢٨ من سورة الحج : « ليشهدوا منافع لهم » . (تهوي اليهم ثمار الأفئدة) إشارة الى الآية ٣٧ من سورة ابراهيم : « فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم » . (من مغاوزه قفار) « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر - ٢٧ الحج » .

(حتى هزوا مناكبهم - الى - محاسن خلقهم) . على الحاج قبل كل شيء .
أن يلبس ثوبَي الاحرام ، وهما إزاران يلف أحدهما حول وسطه ، والثاني على
الظهر والصدر والكفتين ، ولا خيط يشبك أحدهما بالآخر ، والى هذا أشار الإمام
بقوله : « قد نبلوا السرايل الخ » .. أما إعفاء الشعور فهو إشارة الى ان المحرم
- بكسر الراء - يترك شعره بلا قص وحلق ونشف ، ثم يرفع صوته بالتلبية
والتهليل والتكبير ، ثم يطوف ويسعى ، ويصلي ويستغفر .

(ابتلاء عظيم ، وامتحاناً شديداً الخ) .. لماذا نبد السرايل ، وتشويه
المحاسن ، والهرولة ذهاباً وإياباً ، والطواف حول الأحجار بتدليل وتضرع ؟ ..
لا تسئل .. انك عبد مأمور .. ولولاك حق التمحيص والاختبار بالأمر والنهي ،
وما عليك إلا أن تطيع ، وعلى قدر طاعتك يُعرف مقدار حبك لله ، وجزاؤك
عنده .

(ولو أراد الله سبحانه أن يضع بيته الحرام الخ) .. الله على كل شيء
قدير ، وأيضاً هو عليم حكيم ، يعلم انه لو أعطى الدنيا لأنبيائه لآمن الناس بدنياهم
لا بنبوتهم ورسالتهم .. وأيضاً لو جعل بيته الحرام في حدائق وأنهار لكان مقهى
وملهى ، ومسرحاً و « بلاجاً » للشياطين لا مهبطاً للملائكة المقربين ، ومسجداً
للعاكفين : « وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع
السجود - ١٢٥ البقرة » .

وقيل : ان موقع مكة في الخريطة الجغرافية كموقع القلب من الجسد ، لأنها
وسط بين الشمال والجنوب ، وان نسبة بلاد الغرب اليها قريباً وبعداً كنسبة بلاد
الشرق .. ومهما يكن فإن رحلة المسلم الى مكة هي رحلة حب لله ورسوله ، انه
يحن ويهرع الى مكة ، ويقبل الحجر الأسود ، وهو يرجو أن تمس شفتاه نفس
المكان الذي قبله محمد ، ويطوف حول البيت ، وهو يأمل أن تقع قدماه في نفس
المكان الذي وطأه محمد (ص) .

(ولكن الله يختبر عبادہ بأنواع الشدائد الخ) .. تقدم مثله مع الشرح مفصلاً
في الخطبة ١٤١ وفي هذا المعنى قوله تعالى : « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع
ونقص من الأموال والأنفس والثمرات - ١٥٥ البقرة » .

العبادة رياضة نفسية .. فقرة ١٥ - ١٧ :

فَاللَّهُ اللَّهُ فِي عَاجِلِ الْبَغْيِ ، وَآجِلِ وَخَامَةِ الظُّلْمِ ، وَسُوهُ عَاقِبَةِ
الْكِبَرِ فَإِنَّهَا مَصِيدَةُ إِبْلِيسَ الْعُظْمَى ، وَمَكِيدَتُهُ الْكُبْرَى الَّتِي تُسَاوِرُ
قُلُوبَ الرِّجَالِ مُسَاوَرَةَ السُّمُومِ الْقَاتِلَةِ . فَمَا تُكْذِبُ أَبَدًا ، وَلَا
تُشْوِي أَحَدًا لَا عَالِمًا لِعَالِمِهِ ، وَلَا مُقِلًّا فِي طَمَرِهِ . وَعَنْ ذَلِكَ مَا
حَرَسَ اللَّهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّلَوَاتِ وَالزَّكَّاتِ ، وَتَجَاهِدَةِ الصِّيَامِ
فِي الْأَيَّامِ الْمَفْرُوضَاتِ تَسْكِينًا لِأَطْرَافِهِمْ ، وَتَخْشِيعًا لِأَبْصَارِهِمْ ،
وَتَذْلِيلًا لِنُفُوسِهِمْ ، وَتَخْفِيفًا لِقُلُوبِهِمْ ، وَإِذْهَابًا لِنُخِيلَاءِ عَنْهُمْ لِمَا فِي
ذَلِكَ مِنْ تَغْيِيرِ عِتَاقِ الْوُجُوهِ بِالْتَرَابِ تَوَاضَعًا ، وَالتَّصَاقِ كَرَائِمِ
الْجَوَارِحِ بِالْأَرْضِ تَصَاغُرًا ، وَلِحُوقِ الْبُطُونِ بِالْمُتُونِ مِنَ الصِّيَامِ
تَذَلُّلًا . مَعَ مَا فِي الزَّكَاةِ مِنْ صَرْفِ ثَمَرَاتِ الْأَرْضِ وَغَيْرِ ذَلِكَ
إِلَى أَهْلِ الْمَسْكَنَةِ وَالْفَقْرِ^(١٥) . أَنْظَرُوا إِلَى مَا فِي هَذِهِ الْأَفْعَالِ مِنْ
قَمْعِ نَوَاجِمِ الْفَخْرِ ، وَقَدْحِ طَوَالِعِ الْكِبَرِ . وَلَقَدْ نَظَرْتُ فَمَا
وَجَدْتُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ يَتَعَصَّبُ لشيءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ إِلَّا عَنْ عِلَّةٍ
تَحْتَمِلُ تَمْوِيهِ الْجُهْلَاءِ ، أَوْ حُجَّةَ تَلِيْطٍ بِعُقُولِ السُّفَهَاءِ غَيْرَكُمْ .
فَإِنَّكُمْ تَتَعَصَّبُونَ لِأَمْرٍ لَا يُعْرَفُ لَهُ سَبَبٌ وَلَا عِلَّةٌ . أَمَّا إِبْلِيسُ
فَتَعَصَّبَ عَلَى آدَمَ لِأَصْلِهِ . وَطَعَنَ عَلَيْهِ فِي خِلْقَتِهِ فَقَالَ : أَنَا نَارِيٌّ
وَأَنْتَ طِينِيٌّ . وَأَمَّا الْأَغْنِيَاءُ مِنْ مُتَرَفِّعَةِ الْأُمَمِ فَتَعَصَّبُوا لِأَثَرِ مَوَاقِعِ

النَّعَم . فَقَالُوا : نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ^(١٦) .
فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ مِنَ الْعَصِيَّةِ فَلْيَكُنْ نَعَصْبُكُمْ لِمَكَارِمِ الْخِصَالِ ،
وَتَحَامِدِ الْأَفْعَالِ ، وَتَحَاسِنِ الْأُمُورِ الَّتِي تَفَاضَلَتْ فِيهَا الْمُجْدَاهُ وَالنَّجْدَاهُ
مِنْ بُيُوتَاتِ الْعَرَبِ وَيَعَاسِيِبِ الْقَبَائِلِ بِالْأَخْلَاقِ الرَّغِيْبَةِ ، وَالْأَحْلَامِ
الْعَظِيْمَةِ ، وَالْأَخْطَارِ الْجَلِيْلَةِ ، وَالْآثَارِ الْمَحْمُودَةِ . فَتَعَصَّبُوا لِخِلَالِ
الْحَمْدِ مِنَ الْحِفْظِ لِلْجَوَارِ ، وَالْوَفَاءِ بِالذِّمَامِ ، وَالطَّاعَةِ لِلسُّبْرِ ،
وَالْمَغْفِيَةِ لِلْكِبْرِ ، وَالْأَخْذِ بِالْفَضْلِ ، وَالْكَفِّ عَنِ الْبَغْيِ ، وَالْإِعْظَامِ
لِلْقَتْلِ ، وَالْإِنْصَافِ لِلْخَلْقِ ، وَالْكَظْمِ لِلْغَيْظِ ، وَاجْتِنَابِ الْفَسَادِ
فِي الْأَرْضِ . وَآحْذَرُوا مَا نَزَلَ بِالْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مِنَ الْمَثَلَاتِ بِسُوءِ
الْأَفْعَالِ وَذَمِيمِ الْأَعْمَالِ . فَتَذَكَّرُوا فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ أَحْوَاهُمْ . وَآحْذَرُوا
أَنْ تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ ^(١٧) .

اللغة :

التساور : التواكب والتقابل . ولا تُكدي : لا تمتنع عن القتال . ولا تُشوي :
لا تخطيء في ضرباتها . والطمير - بكسر الطاء - الثوب البالي . والخشوع للقلب
لا للبصر ، ولكنه هنا كناية عن الدل والهوان . والخيلاء : الكبرياء . والنواجم :
جمع النجم ، وهو ما يبرز وظهر . والقُدع : المنع . وتليط : تلصق . والمراد
بالجوار هنا الأمان والعهد ، ومثله الدمام . والمثلات : العقوبات .

الإعراب :

الله نصب على التحدير ، لا عالماً ولا مقلداً بدل مفصل من مجمل ، والمبدل

منه «أحداً» ، وما حرس « ما مصدرية » والمصدر المنسبك مبتدأ ، وعن ذلك متعلق بمحذوف خبراً مقدماً أي وحراسة الله حاصلة لعباده المؤمنين ، وتسكيناً مفعول من أجله لمجاهدة أو لحرس ، وتواضعاً مفعول من أجله لتعفير ، وتصاغراً لالتصاق ، وتذللاً للحق ، وغيركم نصب على الاستثناء من أحد ، والمعنى فما وجدت أحداً إلا إياكم ، وأموالاً تميز ، والمصدر من أن تكون مجرور بمن محذوفة أي من كونكم أمثالهم .

المعنى :

(فالله الله في عاجل البغي الخ) .. البغي والظلم والجور بمعنى واحد ، والكبر ان تضع نفسك فوق موضعها .. وللظلم والكبر أسوأ الآثار دنيا وآخرة . وتقدم الكلام عن رذيلة الظلم في شرح الخطبة ١٧٤ ، وعن الكبر في هذه الخطبة ، وسئل الإمام الصادق عن الإلحاد ؟ فقال : ان الكبر أدناه . ونسب الإمام رذيلة الظلم والكبر إلى إبليس ، لأنه أول من ظلم وتكبر ، وانه يوسوس للعالم والجاهل وللغني والفقير ، فيقول للعالم : أنت بعلمك فوق الناس أجمعين . وللجاهل : أنت بدكائك غني عن التعلم والسؤال . وللغني ، أنت مالك الملك تؤتي الملك من تشاء . وللفقير : ليس لله عليك من فضل . وبالمناسبة نقل صاحب «الكافي» عن الإمام الصادق : ان الفقراء يتوجهون غداً الى الجنة تلقائياً ، وقبل أن يحاسبوا . فيقول خازن الجنان : كيف أقبلكم قبل الحساب ؟ فيقولون : ما أعطينا شيئاً نحاسبوننا عليه ؟ فيقول الله : صدقوا افتحوا لهم الأبواب .

(وعن ذلك ما حرس الله عباده المؤمنين بالصلوات والزكوات) . الصلاة تواضع ، والتواضع ضد الكبر ، وإذن فالصلاة تصون المصلي من هذه الرذيلة .. ثم ان الصلاة عهد لله على عبده أن ينتهي عن الفحشاء والمنكر . وإذا كانت الصلاة تُروّض النفس والأعضاء بالحركات فإن الزكاة تروضها بالمال وبذله ، ولا شيء أثقل عليها من ذلك (ومجاهدة الصيام الخ) .. ومن جرب وجده الجهاد الأكبر ، وهل للنفس من جهاد وترويض أكثر من الصبر على الجوع والعطش ، وعن الشاي والدخان ؟.

(تسكيناً لأطرافهم) وهي الأيدي والأرجل والعضو المعلوم ، والمراد بتسكينها

كفها عن الحرام (وتخشيماً لأبصارهم الخ) .. كناية عن التواضع والتذلل لله (ولما في ذلك من تعفير الخ) .. كأن سائلاً يقول : لماذا كانت العبادة سبباً للمنع عن المحرمات وذل النفوس والقلوب ؟ فأجاب الإمام بأن الصلاة ركوع وسجود ، والصيام جوع وعطش ، وكل ذلك يستوجب التذلل والانكسار .. هذا ، الى ان الزكاة تسد حاجة المعوزين ، وتربط رب المال بمجتمعه .

(انظروا الى هذه الأفعال الخ) .. إشارة الى الصلاة والصيام والزكاة ، وأنها تطهر النفس من رذيلة الكبر والفخر (ولقد نظرت فما وجدت الخ) .. يقول الإمام لأصحابه ما رأيتم أحداً يتعصب لشيء إلا ويبرره بسبب حقاً كان أم باطلاً ، وان المبطل قد يتغلب بالتمويه على عقل سفيه أو جاهل ، أو يعرض أفكاره للبلبله والاهتزاز - على الأقل - إلا أنتم (فإنكم تتعصبون لأمر ما يُعرف له سبب ولا علة) صحيحة ولا فاسدة كالعلة التي تدرّع بها إبليس حين تعصب على آدم وقال : « أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين - ١٢ الأعراف » .

(وأما الأغنياء من مترفة الأمم الخ) .. قال أهل اللغة : ترف الرجل اذا تنعم ، وأترفه المال أبطره وأفسده . ولا شيء أدل على فسادهم وإفسادهم من أنهم لا يفكرون إلا من خلال المال ، ولا يستمعون إلا للكسب والربح ، أما الحق والعقل ، والدين والعدل فحديث خرافة ، والذي يملك المال هو السيد المحق : « وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعدّين - ٣٥ سبأ » . وأنكر مترفو قريش نبوة محمد (ص) لا لشيء إلا لأنه لا يملك كنزاً ولا جنة يأكل منها : « أو يلقي اليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً - ٨ الفرقان » .

الاسلام والتسامح :

(فإن كان لا بد من العصبية الخ) .. التعصب للحق والدفاع عنه فضيلة ، أما التعصب للعرق أو اللون أو الأفراد والفئات ، وما الى ذلك فهو رذيلة . هذا ملخص ما أراده الإمام ، أما الوفاء والنجدة والبر والإنصاف وكظم الغيظ واجتناب الفساد فهي مجرد أمثلة ، وقد شهد التريب قبل البعيد انه لا عصبية ولا قبلية في

الاسلام ، وان أساس الفضل هو التقوى ، وان خير الناس أنفع الناس للناس ، كما قال الرسول الأعظم .

وقال الفيلسوف الانكليزي الشهير « برتراند راسل » في كتاب « السلطان » ، ترجمة خيرى حماد - الطبعة الأولى - آذار ١٩٦٢ ص ١٦٥ : « وقد أظهر المسلمون في بداية عهدهم تساعداً في التعامل مع المسيحيين الذين أخضعوهم ، ولا ريب في ان الفضل في سهولة فتوحاتهم واستقرار امبراطوريتهم يعود الى هذا التسامح الذي يبدو بارزاً اذا ما قورن بالحماسة التعسفية والاضطهادية التي عرفت بها الكنيسة الكاثوليكية » .

(واحذروا ما نزل بالأمم قبلكم الخ) .. تقدم هذا مراراً ، ومن ذلك قوله المتقدم في هذه الخطبة : « فاعتبروا بما أصاب الأمم المستكبرين من قبلكم الخ » .

الأذى في سبيل الحق .. فقرة ١٧ - ٢٠ :

فَإِذَا تَفَكَّرْتُمْ فِي تَقَاوُتِ حَالِيهِمْ فَالزُّمُوا كُلَّ أَمْرٍ لَزِمَتْ الْعِزَّةُ بِهِ شَأْنُهُمْ ، وَزَاوَتْ الْأَعْدَاءَ لَهُ عَنْهُمْ ، وَمَدَّتِ الْعَافِيَةُ فِيهِ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْقَذَتْ النِّعْمَةُ لَهُ مَعَهُمْ ، وَوَصَلَتْ الْكَرَامَةُ عَلَيْهِ حَبْلُهُمْ مِنْ أَلَاجِئِنَابِ الْفُرْقَةِ ، وَاللُّزُومِ لِلْأُلْفَةِ ، وَالتَّحَاضُّ عَلَيْهَا وَالتَّوَاصِي بِهَا ، وَاجْتِنِبُوا كُلَّ أَمْرٍ كَسَرَ فِقْرَتَهُمْ ، وَأَوْهَنَ مُنْتَهُمُ . مِنْ تَضَاغُنِ الْقُلُوبِ ، وَتَشَاخُنِ الصُّدُورِ ، وَتَدَابُرِ النُّفُوسِ ، وَتَخَاذُلِ الْأَيْدِي^(١٨) ، وَتَدَبُّرُوا أَحْوََالَ الْهَاضِمِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَكُمْ كَيْفَ كَانُوا فِي حَالِ التَّمَحْيِصِ وَالْبَلَاءِ . أَلَمْ يَكُونُوا أَثْقَلَ الْخَلَائِقِ أَعْبَاءَ ، وَأَجْهَدَ الْعِبَادِ بَلَاءَ ، وَأَضْيَقَ أَهْلَ الدُّنْيَا حَالاً . اتَّخَذْتُمْ الْفَرَاغَةَ عَبِيداً فَسَأَمُوهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ، وَجَرَّعُوهُمْ الْمُرَارَ فَلَمْ تَبْرَحِ الْحَالُ بِهِمْ فِي ذُلِّ الْهَلَكَةِ

وَقَهَرِ الْغَلْبَةَ . لَا يَجِدُونَ حِيلَةً فِي أَمْتِنَاعِ ، وَلَا سَبِيلًا إِلَى دِفَاعِ .
 حَتَّى إِذَا رَأَى اللَّهُ جِدَّ الصَّبْرِ مِنْهُمْ عَلَى الْأَذَى فِي حَبَّتِهِ ، وَالْإِحْتِمَالَ
 لِلْمَكْرُوهِ مِنْ خَوْفِهِ جَعَلَ لَهُمْ مِنْ مَصَائِقِ الْبَلَاءِ فَرَجًا ، فَأَبْدَلَهُمْ
 الْعِزَّ مَكَانَ الذُّلِّ ، وَالْأَمْنَ مَكَانَ الْخَوْفِ فَصَارُوا مُلُوكًا حُكَّامًا .
 وَأُيُومُهُ أَعْلَامًا ، وَبَلَغَتْ الْكَرَامَةُ مِنْ اللَّهِ لَهُمْ مَا لَمْ تَبْلُغِ الْآمَالُ
 إِلَيْهِ بِهِمْ^(١٩) . فَاَنْظُرُوا كَيْفَ كَانُوا حَيْثُ كَانَتْ الْأُمَلَاءُ مُجْتَمِعَةً ،
 وَالْأَهْوَاءُ مُتَّفِقَةً ، وَالْقُلُوبُ مُعْتَدِلَةً ، وَالْأَيْدِي مُتَرَادِفَةً ، وَالسُّيُوفُ
 مُتَنَاصِرَةً ، وَالْبَصَائِرُ نَافِذَةً ، وَالْعَزَائِمُ وَاحِدَةً . أَلَمْ يَكُونُوا أَرْبَابًا
 فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِينَ ، وَمُلُوكًا عَلَى رِقَابِ الْعَالَمِينَ . فَاَنْظُرُوا إِلَى مَا
 صَارُوا إِلَيْهِ فِي آخِرِ أُمُورِهِمْ حِينَ وَقَعَتِ الْفُرْقَةُ ، وَتَشَتَّتَتِ الْأُلُفَةُ
 وَأُخْتَلَفَتِ الْكَلِمَةُ وَالْأَفْئِدَةُ ، وَتَشَعَّبُوا مُخْتَلِفِينَ ، وَتَفَرَّقُوا مُتَحَارِبِينَ
 قَدْ خَلَعَ اللَّهُ عَنْهُمْ لِبَاسَ كَرَامَتِهِ ، وَسَلَبَهُمْ غَضَارَةَ نِعْمَتِهِ . وَبَقِيَ
 قِصَصُ أَخْبَارِهِمْ فَيْكُمْ عِبْرًا لِلْمُعْتَبِرِينَ^(٢٠) .

اللغة :

حاليهم — بفتح اللام — مثنى حال أي صفة الشيء وهيئته ، ويستوي فيه
 التدكير والتأنيث ، والمراد بالحالين هنا السعادة والشقاء . وتحاص القوم : حث
 بعضهم بعضاً . والفقرة : الخرزة من خرزات الظهر . وأوهن : أضعف .
 والمنة — بضم الميم — القوة . والمرار : شجر مر . والأسلاء — بفتح الهمزة —
 جمع ملأ أي القوم والجماعة . والأرباب : السادات . ومتحاربين : شيعاً وأحزاباً .

الإعراب :

شأنهم مفعول لزمّت ، وكيف كانوا « كيف » خبر مقدم لكانوا ، وعبراً
حال من قصص .

المعنى :

(فلماذا تفكرتم في تفاوت السخ) .. المراد بالأمر هنا السبب الموجب للقوة
والعزة ، والمعنى اذا رجعت الى تاريخ الأمم وجدتم أمة ضعيفة متخلفة ، وأخرى
قوة متحضرة ، فادرسوا مواطن الضعف واستقصوا أسباب التخلف في تلك ،
ومواطن القوة والتقدم وموجباته في هذه ، واعتبروا بما قد رأيتم من خير وشر ،
فإن الاعتبار مندر ناصح ، والعاقل من انتفع بالندر ، واعتبر بالغير .

وكرر القرآن الكريم هذه النصيحة في العديد من آياته ، من ذلك قوله :
« أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها وآذان يسمعون بها - ٤٦
الحج » . وأهملنا نحن هذه النصيحة ، وتلقفها الغرب ، فأنشأ مراكز لدراسة
القومية من كل أمة ، ودينها وتقاليدها وأوضاعها وتراثها وفناتها ، واقتصادها وما
تستهلكه من السلع كمّاً وكيفاً ، يدرس الغرب كل ذلك بهدف نهب المقدرات ،
وتصدير رأس المال واحتكار الأسواق ، وشن الحرب النفسية عندما تدعو الحاجة.

هذا وشبابنا يتلهون بأفلام الجنس والجريمة ، والرؤساء بالمشاحنات والخطابات ،
أما نصف العائث والقلانس أو أكثر فلأنها في شغل شاغل بالشعوذة والتخطيط
المنظم للحصول على المال من كل طريق حتى من أعداء الدين والانسانية ..
والمدهش أنه كلما تكرر العدوان على العرب ، وزادت حدته - عانوا مزيداً من
التفكك والانقسام . كما حدث بعد حرب ١٩٤٨ أو حرب ١٩٦٧ مع اسرائيل
مئة مليون عربي يلهم مليونان ونصف يهودي .. فهل حدث مثل هذا في
التاريخ ؟. وان قال قائل : انها أمريكا لا اسرائيل . قلنا في جوابه : بل الحلاف
والشقاق . فلقد أذلت فيتنام أمريكا ، وجعلتها تضرب في غمرة ، وتموج في حيرة
لا تدري أين السبيل ؟.

(وزاحت الأعداء له عنهم - الى التواصي بها) . ضمير « له وبه وعليه »

يعود للأمر في قوله : « فالزموا كل أمر » . وضمير « عنهم وعليهم ومعهم وحيلهم » يعود للأمة العزيزة في كيائها ومكانتها ، والمعنى عليكم أن تأخذوا درساً نافعاً من تاريخ الأمم ، وتسلكوا كل طريق جعل منها أمة قوية ترهبها الأعداء ، وغنية فيما تملكه من طاقة و ثراء ، وتبتعدوا عن طريق الضعف والتخلف ، وليس من شك ان وحدة الصفوف عامل من عوامل القوة والرقى ، فالزموا الالفسة ، واجتنبوا الفرقة ، وحثوا عليها ، وتواصوا بها (واجتنبوا كل أمر كسير النخ) .. مالكم وللضغينة والشحناء ؟ انها وهن للقرة ، ومنافرة للقلوب ، وشلل للأيدي وتحطيم للسيوف .

(وتدبروا أحوال الماضين من المؤمنين قبلكم النخ) .. المراد بالمؤمنين هنا المستضعفون ، وبالفراصة الجبابرة الطغاة ، والمراد بالصبر على الأذى في حجة الله — الإخلاص والثبات على الحق ، والمعنى كان فيما مضى مجموعة من المجانين يقول بعضهم : أنا الله ، انا ربكم الأعلى ، وآخر يقول : لستُ إلهاً ، ولكني مرسوم من قبل الله ، وكل من هذا وذاك يطارد الضعفاء وينكل بهم ، وهم لا يملكون حولاً ولا قوة إلا الهداية وتحابب القلوب وثباتها على الإخلاص والإيمان ، ولما علم الله فيهم خيراً جعل لهم فتحاً ومخرجاً ، ومن عليهم بالكرامة والسلطان ، والأمن والاستقرار ، وبالعلم ومعرفة الحقائق ، فعاشوا حياة ما كانوا يحلمون بها من قبل .

(فانظر كيف كانوا حيث كانت النخ) .. الجمل في هذه الأسطر مختلفة المبنى متحدة المعنى ، والقصد منها التأكيد على انه لا حياة لقوم إلا بوحدة الكلمة ، وانه متى تحققت هذه الوحدة والالفة اتجهت الجهود والعقول كلها الى العمل لحياة أفضل ، وانه لا شيء وراء الشتات إلا المذلة والهوان ، والشاهد على ذلك العيان ووقائع التاريخ .

وبالمناسبة قالت الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية : ان في الشرق الأوسط فراغاً يجب أن يملأ ، وقالت الصهيونية : ان فلسطين يجب أن تكون وطناً قومياً لليهود على الرغم من أنوف العرب وإرادة الشعوب العربية ! وملأت أمريكا الفراغ بدولة اسرائيل .. ولولا انقسام العرب بعضهم على بعض ما كان للفراغ والاستعمار والصهيونية عين ولا أثر .

وبعد ، فلا قومية عربية أو غير عربية إلا بوحدة الكلمة والنضال ، ولا إسلام ومسلمين وحق ومحقين إلا بالتعاون والتضامن ، ولا اتفاق وتعاون إلا بحاكم عادل ، ونظام لا تفاضل فيه ومحابة فئة على فئة وامتنياز فرد على غيره إلا بالعمل الصالح النافع .

النعمة برسول الله .. لفقرة ٢١ - ٢٣ :

فَاعْتَبِرُوا بِحَالِ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَبَنِي إِسْحَاقَ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ .
فَمَا أَشَدَّ أَعْتِدَالَ الْأَحْوَالِ ، وَأَقْرَبَ أَشْتِبَاءِ الْأَمْثَالِ . تَأَمَّلُوا أَمْرَهُمْ
فِي حَالِ تَشْتِيهِمْ وَتَفَرُّقِهِمْ لَيَالِي كَانَتْ الْأَكَاْسِرَةُ وَالْقِيَاصِرَةُ أَرْبَابًا لَهُمْ ،
يَجْتَازُونَهُمْ عَنْ رِيْفِ الْأَفَاقِ ، وَبَحْرِ الْعِرَاقِ وَخُضْرَةِ الدُّنْيَا إِلَى مَنَابِتِ
الشَّيْخِ ، وَمَهَابِي الرِّيحِ ، وَنَكْدِ الْمَعَاشِ . فَتَرَكَوْهُمْ عَالَةً مَسَاكِينَ
إِنْخَوَانَ دَبْرِ وَوَبَرٍ ، أَذَلَّ الْأُمَمِ دَارًا ، وَأَجْدَبَهُمْ قَرَارًا . لَا يَأْوُونَ
إِلَى جَنَاحِ دَعْوَةٍ يَغْتَصِمُونَ بِهَا ، وَلَا إِلَى ظِلِّ أَلْفَةٍ يَغْتَمِدُونَ عَلَى
عِزِّهَا . فَالْأَحْوَالُ مُضْطَرِبَةٌ ، وَالْأَيْدِي مُخْتَلِفَةٌ ، وَالْكَثْرَةُ مُتَفَرِّقَةٌ .
فِي بَلَاءٍ أَزَلٍ ، وَإِطْبَاقٍ جَهْلٍ ! مِنْ بَنَاتٍ مَوْغُودَةٍ ، وَأَصْنَامٍ مَعْبُودَةٍ ،
وَأَرْحَامٍ مَقْطُوعَةٍ ، وَغَارَاتٍ مَشْنُونَةٍ^(٢١) . فَاَنْظُرُوا إِلَى مَوَاقِعِ نِعْمِ
اللَّهِ عَلَيْهِمْ حِينَ بَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا ، فَعَقَدَ بِمِلَّتِهِ طَاعَتَهُمْ ، وَجَمَعَ
عَلَى دَعْوَتِهِ أَلْفَتَهُمْ . كَيْفَ نَشَرَتِ النُّعْمَةُ عَلَيْهِمْ جَنَاحَ كَرَامَتِهَا ،
وَأَسَالَتْ لَهُمْ جَدَاوِلَ نَعِيمِهَا ، وَالتَّقَتِ الْمِلَّةُ بِهِمْ فِي عَوَانِدِ بَرَكَتِهَا .

فَأَصْبَحُوا فِي نِعْمَتِهَا غَرِيقِينَ ، وَعَنْ خُضْرَةٍ عَيْشِيهَا فَكِيهِينَ . قَدْ تَرَبَّعَتِ
 الْأُمُورُ بَيْنَهُمْ ، فِي ظِلِّ سُلْطَانٍ قَاهِرٍ وَأَوْتَهُمُ الْحَالُ إِلَى كَنْفِ عِزٍّ
 غَالِبٍ . وَتَعَطَّفَتِ الْأُمُورُ عَلَيْهِمْ فِي ذُرَى مُلْكٍ ثَابِتٍ . فَهُمْ مُحْكَمٌ
 عَلَى الْعَالَمِينَ ، وَمُلوْكٌ فِي أَطْرَافِ الْأَرْضِينَ . يَمْلِكُونَ الْأُمُورَ عَلَى
 مَنْ كَانَ يَمْلِكُهَا عَلَيْهِمْ . وَيُنْضُونَ الْأَحْكَامَ فِيمَنْ كَانَ يُنْضِيهَا فِيهِمْ .
 لَا تُغْمَزُ لَهُمْ قَنَاءٌ ، وَلَا تُفْرَعُ لَهُمْ صَفَاءٌ^(٢٢) . أَلَا وَإِنَّكُمْ قَدْ
 نَفَضْتُمْ أَيْدِيَكُمْ مِنْ حَبْلِ الطَّاعَةِ . وَتَلَمَّتُمْ حِصْنَ اللَّهِ الْمَضْرُوبَ عَلَيْكُمْ
 بِأَحْكَامِ الْجَاهِلِيَّةِ . فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ أَمَتَّ عَلَى جَمَاعَةٍ هَذِهِ الْأُمَّةَ
 فِيمَا عَقَدَ بَيْنَهُمْ مِنْ حَبْلِ هَذِهِ الْأُلْفَةِ الَّتِي يَنْتَقِلُونَ فِي ظِلِّهَا ،
 وَيَأْوُونَ إِلَى كَنْفِهَا ، بِنِعْمَةٍ لَا يَعْرِفُ أَحَدٌ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ لَهَا قِيَمَةً
 لِأَنَّهَا أَرْجَحُ مِنْ كُلِّ ثَمَنِ وَأَجَلٌ مِنْ كُلِّ خَطَرٍ . وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ
 صِرْتُمْ بَعْدَ الْهِجْرَةِ أَهْرَابًا ، وَبَعْدَ الْمَوَالَاةِ أَحْزَابًا . مَا تَتَعَلَّقُونَ مِنْ
 الْإِسْلَامِ إِلَّا بِأَسْمِهِ . وَلَا تَعْرِفُونَ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَّا رَسْمَهُ^(٢٣) .

اللغة :

يحتازونهم : يقبضونهم . والريف : أرض الزرع والخصب . والآفاق : جمع
 أفق أي الناحية . وبحر العراق : دجلة والفرات . والشيخ : نوع من النبات .
 وعالة : فقراء . ودبر - بفتح الباء - القرحة في ظهر الدابة .. ووهر : شعر
 الجمل . والجناح : الملاذ . والمراد بالأزل هنا الشدة . وفكهي : راضين .

وتربعت : أقامت واطمأنت . وتُغمز . وتُختبر . والقناة : الرمح . والصفاة :
الحجر والصخرة . والثلمة : الخلل . وثلمتم : خرقتم . وكنفها : حصنها .

الإعراب :

ما أشد اعتدال « ما » مبتدأ ، وأشد فعل ماضٍ ، والفاعل مستتر ، والجملة
خبر ، واعتدال مفعول أشد ، وعالة حال ، واخوان مثله أي مصاحبين، وكذلك
أذل أي أذلاء ، وداراً تمييز ، ومثله قراراً ، وفي بلاء أزل متعلق بمحذوف
حالاً من الكثرة أي كائنة في بلاء .

اسرائيل :

(فاعتبروا بحال ولد اسماعيل وبني إسحق السخ) .. اسماعيل ابن إبراهيم
الخليل (ع) من هاجر، وإسحق ابنه من سارة ، وإسرائيل هو يعقوب بن إسحق
ابن إبراهيم ، أما سبب تسمية يعقوب بإسرائيل فقد أوضحتها التوراة في سفر
التكوين، الإصحاح ٣٢ ، وهو أن الله دخل في ذات ليلة على يعقوب ، وتصارع
معه حتى الفجر ، فما استطاع أحدهما أن يغلب الآخر ، وعندئذ منح الله يعقوب
لقب إسرائيل اعترافاً بمقدرته ، لأن إسرائيل في اللغة العبرية يعني « مصارع الله » .
ولإسرائيل هذا ١٢ ولداً ، وهم : شمعون وراؤبين ولاوي ويهوذا ويساكر
وزبولون وجاد وأشيرودان ونفتالي وبنامين ويوسف الصديق . وهؤلاء وأولادهم
وأحفادهم كلهم ما عدا يوسف مجرمون وقتلة الأنبياء بشهادة التوراة والانجيل
والقرآن .. وبدأ إجرامهم أول ما بدأ بمحاولة لقتل أخيهم يوسف ، لأنه طاهر
ونبيل ، ثم حاولوا قتل عيسى ومحمد ، وما بين المحاولتين قتلوا ورجموا الكثرة
الكاثرة من الأنبياء والمرسلين (انظر انجيل لوقا الإصحاح ١٣ وآيات القرآن
الكريم) .

والمدهش أنهم كانوا يقتلون أنبياء الله تقريباً الى الله بزعم انه هو الذي أمرهم
بقتل الناس حتى النساء والأطفال ، وبحرق المدن والقرى وتدميرها ما عدا الذهب
والنحاس (انظر التوراة سفر يشوع الإصحاح ٦ وغيره) . قال الاستاذ علي

الدالي في مقال نشرته « جريدة الجمهورية المصرية » تاريخ ١٨ مايو أيار ١٩٧٢ :
 « ان اليهودي في القرن العشرين الذي بقر بطون الجبال في دير ياسين هو نفس
 اليهودي الذي كان قبل المسيح ينشر عدوه بالمنشار نصفين من شعر رأسه إلى
 أسفله ، وهو نفس اليهودي الذي فتح بطون الأبرياء المسيحيين في قبرص أيام
 الرومان ، وتحزم بامعائهم ليفاخر العالم بقوته ، ويثبت تفوقه في الانتقام المروع » .
 ثم استشهد « الدالي » بنص نقله عن كتاب التلمود : « نحن شعب الله المختار ..
 نحن البشر على الصورة التي تركزت في مخيلة الله .. وغيرنا لا يبصر إلا موضع
 قدميه .. وقد شاءت الطبيعة أن نسود العالم ونسيطر عليه بأسره ... فيجب أن
 تكون مطامعنا واسعة ، وحماسنا خارقة ، وظمناً للانتقام حاراً ومستعراً » .

أما دين محمد (ص) فيقول : « أيها الناس ان ربكم واحد ، وان أباكم
 واحد ، كلكم من آدم ، وآدم من تراب ، وان أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس
 لعربي على عجمي فضل ، ولا لأبيض على أسود فضل إلا بالتقوى » .

ان العنصرية الإجرامية هي دين اليهود ومبدأهم وشعارهم بنص التوراة والتلمود أي
 الكتابين المقدسين عند اليهود .. وما من ريب ان هذه الروح الصهيونية تحمل في
 طبيعتها السبب الكافي للقضاء عليها .. وبهذا نطق القرآن والتوراة ، فلقد جاء في
 سفر التثنية من التوراة الاصحاح ٢٨ ما نصه بالحرف الواحد : « يجعلك الرب
 — الخطاب لشعب اسرائيل — منهزماً أمام أعدائك ، تخرج عليهم من طريق
 واحد ، وفي سبع طرق أمامهم ، وتكون قلقاً في جميع ممالك الأرض ، وتكون
 جثثك طعاماً لجميع طيور السماء ووحوش الأرض » .

أما دولة اسرائيل والاعتراف بها كأمر واقع فهي في علم الله الذي قال :
 « فلا يغرك تقلبهم في البلاد . كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم
 وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم
 فكيف كان عقاب — ه غافر » .

(فما أشد اعتدال الأحوال ، وأقرب اشتباه الأمثال) . المراد بالاعتدال
 التناسب ، وبلاشتباه المشابهة ، والمعنى ان أحوال المسلمين اليوم تشبه أحوال
 بني اسرائيل من قبل من حيث التشتت والتفرق ، والذل ونكد العيش ، وتسلط
 البعيد وتحكمه في المقدرات والمصير .. وقول الإمام : « الأكاسرة والقيصرة »

يشير الى الذين حكموا اليهود وفعلوا بهم الأفاعيل كبختنصر والفرس والرومان .. وحذر الإمام أن يصيب المسلمين ما أصاب بني اسرائيل ، ومن قبله وعظ وحذر رسول الله والقرآن .. وما أفاد الوعظ والتحذير .

(فالأحوال مضطربة - الى - مشنونة) . الكلام مستأنف ، والمراد به العرب ، فالأحوال أحوالهم ، والأيدي أيديهم ، والكثرة كثرتهم بدليل قوله : « بنات موعودة ، وأصنام معبودة .. وغارات مشنونة » . والقصد المقارنة والمشابهة من حيث الدم والقبح بين جاهلية العرب وعنصرية اليهود .

(فانظروا الى مواقع النعم عليهم الخ) .. ضمير « عليهم » يعود للعرب ، والمراد بالرسول محمد (ص) الذي دعا دعوة العدل والمساواة ، فسخر منه ومن دعوته الطواغيت لا شيء إلا لأنه جعل الآلهة إلهاً واحداً .. ولكنه صمد وأصر على كلمة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » فحاولوا أن يشوهوا بالحسنى ، فعرضوا عليه المال والسلطان ، فسخر منهم ومضى في دعوته ، فاضطهدوه ونكلوا به ، فما زاده ذلك إلا ثباتاً وإيماناً ، وعندئذ حاصروه وأحكموا الحصار عليه وعلى أسرته ثلاث سنوات ، فلم يعبأ .. ولما أعينتهم الحيل تأمروا على اغتياله ، فأعمى الله أبصارهم عنه ، وهاجر من بينهم الى المدينة ، فتنعوه بعدتهم وعددهم ، فانصبر عليهم بإذن الله .

وباسمه قضى المسلمون على ملك كسرى ، وحرروا المستعمرات من حكم قيصر ووصلوا الى حدود الهند والصين وجنوب فرنسا ، وبفضله أعطوا شرق الأرض وغربها فضلاً من العلوم والحضارة .. ثم انقسمت الخلافة ، وتعددت الممالك الاسلامية ، ومع هذا بقي للمسلمين شأن وكيان مدة ألف عام أو تزيد ، ولا أدري هل يعود المسلمون كما كانوا خير أمة أخرجت للناس تؤمن بالله ورسوله قولاً وعملاً ؟.

غاندي وعلماء المسلمين :

أكتب هذه الكلمات في سبتمبر (ايلول) سنة ١٩٧٢ ، والمؤتمر الاسلامي السابع ينعقد في القاهرة .. واذا عطفنا هذه « السبعة » على اخوتها في السعودية وليبيا والمغرب

لرأينا نمواً مستمراً وسريعاً في هذا الميدان .. لكن - يا للأسف - اذا التمسنا الثمرات والنتائج العملية لهذه التحركات مجتمعة - لوجدناها تماماً كضم صفر الى صفر ، لا يخرج منه أي شيء ايجابي يفيد المسلمين .

والنتيجة العملية التي يترقبها كل عربي ومسلم من هذا المؤتمر وأمثاله هي أن يرى بادرة خير ، وبارقة أمل في أن أمنه وزمامه في يد جيشه وحكومته ، لا في يد اسرائيل والصهيونية ، وان مصيره ومستقبله في إرادة شعبه وأمته، لا في إرادة موسكو وواشنطن ، أو مجلس الأمن والأربعة الكبار .. إن العدو يستهتر بجيوشنا ودولنا ويقابلها بازدراء وخشونة .. فهل يرضى علماء المسلمين أن تستهتر اسرائيل بهم أيضاً ، وتسخر منهم ومن تجمعاتهم وقراراتهم ؟.

إن الأيدي الخفية حركت بعض المؤتمرات التي حملت عنوان التعايش بين الأديان .. ونحن نبرء وننزه المؤتمر الاسلامي عن ذلك ، ولكن نتساءل : لماذا لا يصدر علماء المؤتمر نداء يُحرمون فيه البضائع والسلع الأمريكية شراء واستعمالاً ، كما فعل غاندي من قبل في مقاطعته السلبية ضد الانكليز ؟. وهل صاحب «العنزة» أكثر إخلاصاً لوطنه وأمته من علماء المسلمين لدينهم ووطنهم ؟ وهل يجهل علماء المؤتمر ان الولايات المتحدة هي أساس الداء والبلاء .. وان نداءهم هذا له وزنه وأثره ، وبخاصة اذا بذلوا وسعهم لكي يوقع النداء أيضاً كل عالم في كل قطر ، وتطوعوا لتنفيذه والعمل به زرافات ووحداً ؟.

ومما يُوجع ويُفجع أن اسرائيل تشدد وتكرر عدوانها على سوريا ولبنان، وتقتل الأبرياء والنساء والأطفال في نفس الوقت الذي يعقد فيه المؤتمر السابع لعلماء المسلمين ببلدة قناة السويس وبالقرب من جيوش العدو المرابط على ضفة القناة .

هذا ، وعلماء المؤتمر في شغل شاغل « بالبحث عن المجتمع المثالي في الإسلام ، وعن جدل القرآن ، وكيف يتكوّن المسلم في ظل المناهج ، وعن التأمينات ، وشهادة الاستمرار ، وودائع صندوق الادخار .. » الى آخر ما جاء في جريدة الأخبار المصرية تاريخ ٨ - ٩ - ١٩٧٢ .

أهلاً يا أصحاب الفضيلة تغيظون اسرائيل ؟ وتنتقمون من الولايات المتحدة ، وتنفذوننا من اليأس والقنوط، والدل والهوان ؟ وهل هذا هو واجب العلماء الوحيد الآن فقط لا غير يا حملة القرآن ؟

وكنت قد أرسلت برقية للمؤتمر الرابع أو الخامس - والتردد من ضعف الذاكرة - فاشدت فيها الرئيس والأعضاء أن يتدارسوا المقاطعة السلبية للسلع الأمريكية ، ولكنهم غضوا الأبصار ، وختموا على الآذان .. اللهم رُدّ علينا غربتنا ، وعرفنا بمن يسمع ويبصر من علمائنا ، ويزهر ويثمر من زعمائنا . انك حميد منان .

(ألا وانكم قد نفضتم - الى - الجاهلية) . المراد بحسن الله الإسلام الذي أمر بالآلفة والتعاون على الخير والصالح العام ، والمراد بأحكام الجاهلية الفرقة وانتهاك الحرمات ، والمعنى ان الله سبحانه قد تفضل عليكم بنور الإسلام ، فأبيتم إلا ظلمات الجاهلية وأرجاسها (ان الله سبحانه قد امتنّ على جماعة هذه الأمة الخ) .. أي على المسلمين ، والمراد بالعقد بينهم الآلفة التي تدعو الى التعاون المتكامل على أساس الإيمان والعقيدة ، ويقول الإمام : ان هذا التعاون هو (أرجح من كل ثمن ، وأجلّ من كل خطر) أي جليل ، لأن التعاون بهذا المفهوم يكون للخدمة الجميع لا لصالح فئة على حساب فئة أخرى . قال سبحانه : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الأثم والعدوان - ٢ المائدة » . ومن البدهة ان البر للجميع ، أما الاختصاص بفرد أو بفئة فإثم وعداوان .

(واعلموا انكم صرتم بعد الهجرة أعراباً) لا أثر للإسلام في قلوبكم وأعمالكم إلا قول : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . (وبعد الموالاة أحزاباً) . يشير بالموالاة الى قوله تعالى : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض - ٧١ التوبة » أي اهم كانوا كذلك في عهد رسول الله وهجرته ، ثم صاروا أعداء متخاصمين (ما تتعلقون من الاسلام الخ) .. إن الاسلام أبعد الأديان عن المظاهر والشكليات .. انه يقين ، ويقين المسلم انما هو في عمله الخالص لوجه الله لا في قوله ومظهره . وتقدم مثله في الخطبة ١٥٠ وغيرها .

الاسلام أمن وامان .. فقرة ٢٤ - ٢٥ :

تَقُولُونَ النَّارَ وَلَا الْغَارَ ، كَأَنَّهُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَكْفِفُوا الْإِسْلَامَ عَلَى وَجْهِهِ ، أَلَيْسَ كَالْحَرِيمِ ، وَتَقْضَى لِمِيشَاقِهِ الَّذِي وَضَعَهُ اللَّهُ لَكُمْ حَرَمًا

فِي أَرْضِهِ وَأَمْنًا بَيْنَ خَلْقِهِ . وَإِنَّكُمْ إِنْ لَجَأْتُمْ إِلَى غَيْرِهِ حَارَبَكُمْ أَهْلُ
الْكُفْرِ ، ثُمَّ لَا جَبْرَائِيلَ وَلَا مِيكَائِيلَ وَلَا مُهَاجِرُونَ وَلَا أَنْصَارُ
يَنْصُرُونَكُمْ إِلَّا الْمُقَارَعَةَ بِالسَّيْفِ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَكُمْ . وَإِنَّ عِنْدَكُمْ
الْأَمْثَالَ مِنْ بَاسِ اللَّهِ وَقَوَارِعِهِ ، وَأَيَّامِهِ وَقَوَاعِيهِ . فَلَا تَسْتَبْطِنُوا
وَعَيْدَهُ جَهْلًا بِأَخْذِهِ ، وَتَهَؤُنَا بِبَطْشِهِ ، وَيَأْسًا مِنْ بَاسِهِ . فَإِنَّ
اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَلْعَنِ الْقُرْنَ الْمَاضِي بَيْنَ أَيْدِيكُمْ إِلَّا لِتَرْكِهِمُ الْأَمْرَ
بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ . فَلَعَنَ اللَّهُ الشُّفَهَاءَ لِرُكُوبِ الْمَعَاصِي ،
وَالْحُلَمَاءَ لِتَرْكِ التَّنَاضُحِ^(٢٤) . أَلَا وَقَدْ قَطَعْتُمْ قَيْدَ الْإِسْلَامِ وَعَظَلْتُمْ
حُدُودَهُ وَأَمْتُمْ أَحْكَامَهُ ، أَلَا وَقَدْ أَمَرَنِي اللَّهُ بِقِتَالِ أَهْلِ الْبَغْيِ وَالنَّكَثِ
وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ فَأَمَّا النَّاكِثُونَ فَقَدْ قَاتَلْتُ ، وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَقَدْ
جَاهَدْتُ . وَأَمَّا الْمَارِقَةُ فَقَدْ دَوَّخْتُ . وَأَمَّا شَيْطَانُ الرَّدْهَةِ فَقَدْ كُفَيْتُهُ
بِصُعْقَةٍ سُمِعَتْ لَهَا وَجْبَةٌ قَلْبِهِ وَرَجَّةٌ صَدْرِهِ . وَبَقِيَتْ بَقِيَّةٌ مِنْ أَهْلِ
الْبَغْيِ . وَلَيْتَنِي أُذِنَ اللَّهُ فِي الْكَرَّةِ عَلَيْهِمْ لِأُذِلَّ مِنْهُمْ إِلَّا مَا يَتَشَدَّرُ
فِي أَطْرَافِ الْبِلَادِ تَشَدُّرًا^(٢٥) .

اللغة :

كفأ واكتفأ الإناء : أماله وقلبه . والميثاق . العهد . ونكثه : نقضه .
والقاسطون : الجاثرون عن الحق . والمارقة : الذين خرجوا من الدين . والردهة
— بفتح الراء — النقرة يجتمع فيها ماء السماء . وصُعِقَ : غشي عليه وذهب

عقله . ووجب القلب : اضطرب . ورجّ الصدر : اهتز . وأدلين منهم : أنتصر منهم . ويتشدر : يتفرق .

الإعراب :

النار والعار منصوبان بمحذوف أي ندخل النار ولا نتحمل العار ، وانتهاءً
مفعول من أجله لتكفوا ، لا جبرائيل بالفتحة اسم «لا» تشبيهاً بالنكرة مثل معضلة
ولا أبا حسن لها ، وجهلاً مفعول لأجله ، وتشدرأ مفعول مطلق .

المعنى :

(تقولون النار ولا العار) . هذا تفريع على قوله : « ما تتعلقون من الاسلام
إلا باسمه » والمعنى انكم تقولون بأفواهكم ما ليس في قلوبكم .. صحيح انكم
تنطقون بكلمة الشهادتين ، ولكنكم لا تعملون بموجبها ، وأيضاً تقولون : النار
ولا العار ، ومع هذا لا تصونون حقاً ، ولا تمنعون ضيماً (كأنكم تريدون أن
تكفوا الاسلام على وجهه الخ) .. هذا كناية عن معاكستهم لدين الله ، وانهم
تكبوا عن طريقه الى طريق المآلة والضلالة.وتقدم مثله في الخطبة ١٠١ و ١٠٦ .

(الذي وضعه الله لكم - الى - بيتكم) . ضمير وضعه يعود الى الاسلام ،
والمعنى ان الله سبحانه شرع لكم من الدين ما هو أمن وخير دينا وآخرة ، فإن
عاكستم وخالفتم عستم في خوف وحرب مع أهل الكفر والبغي ، ولا تجدون ولياً
ولا نصيراً إلا ما شاء الله (وان عندكم الأمثال من بأس الله الخ) .. المراد
بالأمثال الآيات والأحاديث عما أصاب الطغاة من السابقين الذين جعلهم سبحانه
عبرة وعظة للاحقين ، لعلهم يتقون ، والمراد بئأس الله وقواعده وأيامه ووقائعه
واحد ، وهو العذاب ، والانتقام ، والمعنى:لماذا تتهاونون بأمر الله ونهيه ، وأنتم
تعلمون بطشه وانتقامه ، وتهديده ووعيده ؟ هل استبطأتم ذلك ، وتقولون مثل
ما قال الأولون : اثنتا بما تعدنا ؟ انه تعالى يمهل ولا يهمل .

ثم بيّن الإمام السبب الموجب لغضب الله ولعنته على من أدبر وتولى ، بيّنه
بقوله : (إلا لتركهم الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر) ومعنى هذا ان دين

الله ايجابي لا سلبي ، فهو لا يرضى منك أن تترك المنكر وكفى ، بل عليك أيضاً أن تنهى عنه ، وتجاهد من أصر عليه بما تملك من طاقة (فلن الله السفهاء) وهم الشباب من أهل الجهل والطيش ، لعنهم سبحانه (لركوب المعاصي) كالفجور والخمر والميسر ، وأيضاً لعن (العلماء) أي الشيوخ المتقدمين في السن (لترك التناهي) . لا ينهى بعضهم بعضاً عن الفتن والدسائس والمؤامرات .

(ألا وقد قطعتم قيد الإسلام) . ان الإسلام قيد وجام يكبح ويمنع عن الجرائم والموبقات تماماً كالعقل يكبح الشهوات (وعظمت حدوده) وهي حلال الله وحرامه (وأتم احكامه) عطف تفسير (ألا وقد أمرني الله بقتال اهل البغي الخ) .. يشير الى الناكثين أصحاب الجمل ، والقاسطين أهل صفين ، والمارقين الخوارج، وان الله قد أمره بقتالهم فسمع وأطاع . وعن رسول الله (ص): ان علياً يقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين . نقل هذا الحديث الحافظ النيسابوري في « مستدرک الصحيحين » ج ٣ ص ١٣٩ طبعة حيدر آباد سنة ١٣٢٤ هـ وابن الأثير في « أسد الغابة » ج ٤ ص ٣٢ طبعة مصر سنة ١٢٨٥ هـ ، والمتقي الهندي في « كنز العمال » ج ٦ ص ٨٢ طبعة حيدر آباد سنة ١٣١٢ هـ . (نقلنا رقم الجزء والصفحة وتاريخ الطبع عن كتاب « فضائل الخمسة من الصحاح الستة ») .

(أما شيطان الردة الخ) . وهو حرقوص بن زهير ، وكان أسود منتن الريح ، وله عضد وليس له ذراع ، وعلى رأس العضد مثل ثدي المرأة ، ومن أجل هذا لُقّب بذي الثدي وبالمخدج أي الناقص ، وبذي الخويصرة ، وكان من رؤوس الخوارج . وفي صحيح مسلم كتاب « الزكاة » ، وأبي داود باب قتل الخوارج : ان رسول الله (ص) قد أشار الى هذا الشيطان بقوله : « يخرج قوم - أي الخوارج - من أمّي يقرأون القرآن ليس قراءتكم الى قراءتهم بشيء .. يمرقون في الإسلام كما يمرق السهم من الرمية .. وان فيهم رجلاً له عضد ، وليس له ذراع على رأس عضده مثل حلقة الثدي . وروى البخاري هذا الحديث في ج ٤ باب علامات النبوة في الإسلام : وان هذا الشيطان أتى النبي ، وهو يقسم قسمًا ، فقال : يا رسول اعدل ، فقال له : ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل ؟ .

وروى أهل التاريخ أن الإمام بعد أن انتهى من قتل الخوارج قال : اطلبوا ذا الثدي بين القتلى ، فبحثوا عنه فلم يجدوه . فقال الإمام : لقد أخبرني رسول

الله (ص) بقتله ، والله ما كذبت ولا كُذبت . اطلبوا الرجل وانه مع القتلى ، فبحثوا عنه حتى وجدوه في حفرة، فنسب اليها (وبقيت بقية من أهل البغي الخ) .. وهم معاوية وأصحابه ، ان تمكن منهم الإمام قضى عليهم وعلى دولتهم ، ولا يُبقي إلا مشمرأ وهارباً .

النبي وعلي .. لقرة ٢٦ - ٢٧ :

أَنَا وَضَعْتُ فِي الصَّغَرِ بِكَلاَ كُلِّ الْعَرَبِ ، وَكَسَرْتُ نَوَاجِمَ قُرُونِ رَيْبَةٍ وَمُضَرٍ . وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ ، وَالْمَنْزِلَةِ الْخَاصَّةِ . وَضَعَنِي فِي حَجَرِهِ وَأَنَا وَلَدٌ يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِهِ ، وَيَكْنُفُنِي إِلَى فِرَاشِهِ ، وَيُمِشُّنِي جَسَدَهُ وَيُشِمُّنِي عَرَفَهُ . وَكَانَ يَنْضَعُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلَقِّمُنِيهِ . وَمَا وَجَدَ لِي كَذِبَةً فِي قَوْلٍ ، وَلَا خَطْلَةً فِي فِعْلٍ . وَلَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلِكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ يَسْأَلُكَ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ ، وَتَحَاسِنَ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ^(٢٦) . وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ أَتْبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرِ أُمِّهِ ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ عِلْماً وَيَأْمُرُنِي بِالْإِقْدَاءِ بِهِ . وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءِ فَأَرَاهُ وَلَا يَرَاهُ غَيْرِي . وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْنْتُ وَاحِدٌ يَوْمٍ مِثْلِي فِي الْإِسْلَامِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا . أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرَّسَالَةِ ، وَأَشْمُ رِيحَ النُّبُوَّةِ . وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هَذِهِ الرَّثَّةُ ؟ فَقَالَ
هَذَا الشَّيْطَانُ أَيْسَ مِنْ عِبَادَتِهِ . إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ وَتَرَى
مَا أَرَى إِلَّا أَنَّكَ كُنْتَ بِنَسِيٍّ . وَلَكِنَّكَ وَزِيرٌ وَإِنَّكَ لَعَلَى
خَيْرٍ (٢٧) .

اللغة :

الكلاكل : الصدور ، والمراد بها هنا كبار العرب . ونواجه القرون : ما
برز منها ، والمراد بها هنا سادات القبائل . وعرفه : رايحه الذكية . وخطلة :
الخطأ . والفصيل : ولد الناقة . وحراء - بكسر الحاء - جبل من جبال مكة
المكرمة .

الإعراب :

بكلاكل الباء زائدة ، والفتحة على ربيعة ومضر علامة الجر ، لأنها ممنوعان
من الصرف للعلمية والتأنيث ، وقال الشيخ محمد عبده : هما بدل من قرون .
والأظهر جرهما بالإضافة .

الإمام علي :

(أنا وضعت في الصغر بكلاكل العرب الخ) .. من درس تاريخ الاسلام
رأى ان الدعوة الاسلامية مرت في العديد من المراحل ، والأساسية منها ثلاث :
المرحلة الأولى : إعلان الدعوة وبثها بلا عنف ، والثبات عليها مهما تكن
الظروف والمصاعب ، وتحمل العذاب والتنكيل بلا محاولة الدفاع والمقاومة ، لأن
المقاومة مع العجز انتحار .. وقد تحمل النبي (ص) والصحابه الكثير في هذه المرحلة ،
واستشهدت منهم أم عمار وأبوه ياسر ، واستمرت هذه المرحلة ١٣ سنة في مكة .

ولك أن تسميها بمرحلة المقاومة السلبية ، وبمثلها أو قريب منها حرر غاندي الهند من الاستعمار . ومن أقواله : « اذا كنا صادقين فإن القمع لن يثبط همتنا ، ولن يدفعنا الى المبادرة الغاضبة بمواجهة العنف بالعنف ، ذلك ان العنف انتحار » أي لمن لا يملك القوة الرادعة .

المرحلة الثانية : الدفاع بعد إكمال العدة والعدد لردع العدوان مع توطين النفس على الفداء والتضحية ، ومن هذه المرحلة حرب بدر وأحُد وغيرهما من الغزوات .
المرحلة الثالثة : الهجوم على العدو وتطويقه ، وأخذ المبادرة قبل أن يشب ويباغث بهجومه وعدوانه .. وأيضاً لا بد لهذا الهجوم الرادع من إكمال العدة والعزم على الفداء والتضحية ، وما بلغت الدعوة هذه القوة إلا بعد غزوة الأحزاب وتشيتها حيث هتف النبي يقول : لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ولا شيء بعده .. الآن نفزوهم ولا يغزونا ، وفي هذه المرحلة كان فتح مكة .

ورافق عليّ النبي (ص) في مراحلها كلها ، وسبق الناس الى الإيمان بدعوته ، والتمسك بعروته ، ودافع عنه وعنهما بنفسه لا يرجو إلا رضا الله ومودة الرسول ، بل كان علي يث الدعوة لمحمد (ص) قبل البعثة ، ويحدث الغلمان من أثرابه عن خلق محمد وعظمتهم ، قال الاستاذ عبد الرحمن الشرقاوي في كتاب « محمد رسول الحرية » الطبعة الأولى ص ٦٥ : « كان علي ، وهو في الثامنة يحدث الغلمان في مثل سنه عن ابن عمه ويقول : ان محمداً ألغى في بيته كلمة العبيد والجواري ، وأحل مكانها كلمة فتاي وفتاتي ، وهو يصبر على الخدم ، فما يقول لواحد منهم « أف » مهما يخطيء » .

وكان عاتة قریش يُغرون الصبيان برسول الله (ص) فيصحب معه علياً يلهم عنه . ومن جهاده في المرحلة الأولى مبيته على فراش رسول الله ليلة الهجرة . وهنا أدع الحديث لغيري تجنباً لمواضع التهم .. فقد نشرت جريدة الأخبار المصرية تاريخ ٨ - ١٢ - ١٩٦٧ كلمة بعنوان « مشاهدات فداية في تاريخ الإسلام » جاء فيها :

« ان تاريخ الإسلام حافل بضروب باسلة من أمثلة الفداية النبيلة .. وأظهر من نعرف من فدائيي العصر النبوي علي بن أبي طالب ، ومواقفه الفداية أكثر

من ان تحصر ، ولعل أولها في تاريخ الدعوة مبيته ليلة الهجرة على فراش ابن عمه متوقفاً ما سيحيق به من الموت المباغت إذ أحاط به الأعداء من كل صوب ، فهانت عليه نفسه وراء ما ينشد من تغذية صاحب الدعوة ، ومكث الليل الطويل ينتظر الموت ما بين لحظة وأخرى ، وقد برقت الأسنة ، ولمعت السيوف .. ان مخاطر علي الفدائية تغلغل في أعماقه حتى غدت إحدى وسائل النصر في بطولاته ، وحسبك أن تعلم انه في طليعة المتقدمين في ميدان المبارزة الحربية ، وانه بطل الإسلام .

أما الكاتب الإسلامي المصري الاستاذ عبد الكريم الخطيب فقد استوحى من المبيت معنى دقيقاً ما سبقه اليه عالم وباحث ، قال في كتاب علي بن أبي طالب ص ١٠٥ وما بعدها طبعة ١٩٦٧ :

« هذا الذي كان من علي في ليلة الهجرة .. لم يكن أمراً عارضاً ، بل هو عن حكمة لها آثارها ومعقباتها ، فلنا أن نسأل : أكان لإلباس الرسول (ص) شخصيته لعلي أكثر من جامعة القرابة القريبة بينهما ؟ وهل لنا أن نستشف من ذلك - أي من ان الرسول ألبس شخصيته لعلي - انه اذا غاب شخص الرسول كان علي هو الشخصية المهيأة لأن يخلفه ، ويمثل شخصيته ، ويقوم مقامه ؟ .. وأحسب اننا لم نتعسف كثيراً حين نظرنا الى علي ، وهو في برد الرسول ، وفي مثنوى منامه الذي اعتاد أن ينام فيه - فقلنا : هذا خلف الرسول والقائم مقامه .

وبحق قال الأستاذ الخطيب : إن شيعة علي لا يقيمون شاهداً من هذه الواقعة يشهد لعلي انه أولى الناس برسول الله على حين نراهم يتعلقون بكل شيء يرفع علياً الى تلك المنزلة أي الخلافة . ولي أن أجيب عن الشيعة بأنهم لا يستدلون بشيء على خلافة إمامهم إلا بأقوال السنة ، وعلى هذا جرت عادتهم منذ القديم تجنباً لمواطن التهم .. وما رأوا أحداً قبل الأستاذ الخطيب استدلل بهذه الواقعة على أولية علي بالخلافة ، ولما أنطقه الله به أخذوه عنه ، كما فعلت أنا . ثم قال الخطيب الكريم :

« إن علياً خدع قريشاً بمبيته على فراش رسول الله ، ومكر بها عن محمد حتى أفلت من بين أيديها ، وسلم من القتل ، وقد صفعها علي بفعلة هذه صفقة مذلة ومهينة ، فأضمرت قريش لعلي السوء ، وأرهقته وتجنبت عليه بعد أن دخلت

الاسلام .. إن هذا الذي كان من علي ليلة الهجرة في تحديه لقريش، هذا التحدي السافر ، وفي استخفافه بها ، ان ذلك لا تنساه قريش لعلي أبداً ، ولولا انها وجدت في قتل علي يومئذ إثارة فتنة تمزق وحدتها لشفت ما بصدرها منه، ولكنها تركته ، وانتظرت الأيام لتسوي حسابها معه .. ولحق النبي بالرفيق الأعلى، وترك علياً وراءه يصطدم بالأحداث ، ويكابد الشدائد حتى يلحق بالرسول .. ألا يبدو لنا من هذه الموافقات ما نستشف منه ان لعلي شأناً في رسالة الرسول ، ودوراً في دعوة الاسلام ليس لأحد غيره من صحابة الرسول .

وبعد ، فإن الأستاذ عبد الكريم الخطيب لا يمت الى الشيعة بأمر ولا أب ، ولا بتربية وبيئة ، وإنما نطق بوحى من ضميره ودراسته مجرداً عن كل غاية ، فالتقى مع شيعة علي من حيث لا يريد .. ثم تنبه للعواقب ، وخاف من تهمة التشيع ، وثورة المتعصبين من الشيوخ ، فاتقاهم بقوله : « وبعد فهذه خطرات لا نحسبها على تلك القضية ، ولا نأخذ بها فيها » . ولكن أسلوبك في التعبير — أيها الأستاذ الكريم — ينم عن شعور قلبك وإيمانه ، لا عن خطرات خيالك ووساوسه ، ان هذه الخطرات والوساوس تتجلى في اعتذارك بقولك « لا نأخذ بها فيها » ان هذا الأسلوب ان دل على شيء فإنه يدل على الشك والخيرة والارتباك. وعلى أية حال فأنت معذور لقوله تعالى : « الا ان تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه والى الله المصير — ٢٨ آل عمران » .

قدمنا ان الدعوة الإسلامية مرت بثلاث مراحل أساسية : الأولى مجرد الإيمان والإعلان مع الثبات والصبر على الأذى . والثانية ردع العدوان . والثالثة الهجوم الرادع ، وأشرنا الى جهاد الإمام في المرحلة الأولى . ومن جهاده في المرحلة الثانية بلاؤه يوم بدر ، وبعد أن تحدث عبد الكريم الخطيب عن هذا اليوم في كتاب « علي بن أبي طالب » قال : « فأنت ترى كيف كان ابن أبي طالب سيفاً بتاراً يضرب أئمة الكفر من قريش » .

وقال عن يوم أحد : « وكان لعلي يوم أحد ما كان له يوم بدر من الإطاحة برؤوس أئمة الكفر من قريش..ومن قتلى علي في هذا اليوم طلحة ابن أبي طلحة صاحب راية المشركين في تلك الوقعة ، فغير منكور إذن تلك اليد الضاربة ، وهذا السيف لعلي في معركة الإسلام ، وأيضاً غير منكور التراث التي كانت للمشركين عند علي ، والتي لم يخل منها بيت من بيوت قريش » .

وقال عن وقعة الأحزاب : « قال النبي (ص) حين برز علي لابن ودّ يوم الخندق : الآن برز الإسلام للشرك كله .. وقال حذيفة بن اليمان : لو قسمت فضيلة علي بقتل عمرو يوم الخندق بين المسلمين أجمعهم لوسعتهم. وقال ابن عباس في قوله تعالى : « وكفى الله المؤمنين القتال » بعلي . والحق ان مكان علي في معارك الاسلام أكبر من أن تخفى وراء التعصب في مواقف الحصومة والملاحاة ، ولو ان بطولة علي كانت موضع شك لما سار الحديث عنها مسير المثل ، فكان مما قيل : لا فتى إلا علي ، ولا سيف إلا ذو الفقار. إن علياً أكثر المسلمين شدة على مشركي قريش ، وإفجاءاً لهم في الأبناء والآباء والأعمام والأخوال ، وهذه الإحن على علي ، وتلك الترات في نفوس قريش المشركة ظلت جية بعد أن دخلت في الاسلام .. وبعد موت النبي تناولت قريش بسيفها شبيب بن هاشم وشبابها وصبيانها وشردت عقائلها وحرائرهما ، وكأنما تثار بهذا لقتلاها في بدر وأحد ، وحسبنا أن نذكر هنا مصرع الحسين وآل بيته في كربلاء ، وما تلا ذلك من وقائع » .

ومن جهاد الإمام في المرحلة الثالثة بلاؤه يوم خيبر وقتله مرحباً ، ويوم حنين ، وفي حصار الطائف ، وما الى ذلك مما ذكره أهل السير والتاريخ .

(وضعني في حجره ، وأنا ولد الخ) .. إن المعيار الصحيح للموازنة والمفاضلة بين صحابة رسول الله وغيرهم هي النصيح للإسلام ، والجهاد في سبيله ، والعلم والعمل به وأحكامه ، أما السبق الى الاسلام فقد كان في أول البعثة أعظم الفضائل وأهم أنواع الجهاد على الإطلاق حيث لا قوة للإسلام ، ولا جماعة للمسلمين ، وحيث يعاني النبي (ص) من السفهاء شراً وعتناً ، ولا ذابّ ومعين ، ومن أجل هذا يعتبر المسلم آنذاك من المؤسسين أو في حكمهم ، قال سبحانه : « الذين اتبعوه في ساعة العسرة - ١١٧ التوبة » . وقال : « السابقون السابقون أولئك المقربون - ١٠ الواقعة » أي السابقون عند البعثة ، أما بعد الهجرة ووجود العدة والعدد فلا فضل لسابق على لاحق إلا بما أشرنا اليه .

وكان لعلي فضيلة سبق الى التصديق بالاسلام ونبيه يوم لا مسلم إلا محمد وخديجة وهو ثالثهما ، كما قال بالإضافة الى الخلال الفضلى ، والى قرابة قريبة من رسول الله (ص) تجعله، مجتمعة فيه - أولى الناس برسول الله (ص) : « واولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله - ٦ الأحزاب » .

(ولم يجمع بيت واحد يومئذ الخ) .. في سيرة ابن هشام عن ابن اسحق :
 « كان أول ذكر أسلم وصلى علي بن أبي طالب ، والثاني زيد بن حارثة » .
 ومثله في كتاب « وحي القلم » لمصطفى صادق الرافعي ج ٢ ص ١٨ الطبعة الثانية ،
 وكتاب « اليمين واليسار في الاسلام » لأحمد عباس صالح ص ٥٠ طبعة سنة ١٩٧٢
 وكتاب « محمد رسول الحرية » لعبد الرحمن الشرقاوي ص ٦٩ الطبعة الأولى .
 ونقل الفيروزآبادي في كتاب « فضائل الخمسة من الصحاح الستة » ج ١ المقصد
 الثاني ، الفصل التاسع والعاشر ، نقل عن أكثر من عشرين مصدراً قديماً : إن
 علياً أول من أسلم وآمن ، وذكر صاحب « الفضائل » رقم الجزء والصفحة ،
 وزمان الطبع ومكانه .

(ولكنك وزير) . جاء في « الرياض النضرة ج ٢ ص ١٦٣ الطبعة الأولى
 بمطبعة الاتحاد المصري ، والدر المنثور للسيوطي عند تفسير قوله تعالى : « رب
 أشرح لي صدري » : إن رسول الله (ص) قال : « اللهم اني أسألك بما سألك
 أخي موسى أن تشرح لي صدري ، وأن تيسر لي أمري ، وأن تحلل عقدة من
 لساني يفقهوا قولي ، واجعل لي وزيراً من أهلي علياً أخي ، أشدد به أزري
 وأشركه في أمري كي نسبحك كثيراً ، انك كنت بنا بصيراً » .

وقال مسلم في صحيحه ج ٢ ص ١٠٨ طبعة سنة ١٣٤٨ هـ : إن رسول الله
 قال لعلي : أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هرون من موسى .

النبي والشجرة .. لقطة ٢٨ - ٣١ :

وَلَقَدْ كُنْتُ مَعَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لَمَّا أَتَاهُ الْمَلَأُ مِنْ قُرَيْشٍ ،
 فَقَالُوا لَهُ : يَا مُحَمَّدُ إِنَّكَ قَدْ أَدْعَيْتَ عَظِيمًا لَمْ يَدْعِهِ آبَاؤُكَ وَلَا
 أَحَدٌ مِنْ بَنِيكَ ، وَنَحْنُ نَسْأَلُكَ أَمْرًا إِنْ أَجَبْتَنَا إِلَيْهِ وَأَرَيْتَنَاهُ عَلِمْنَا
 أَنَّكَ نَبِيٌّ وَرَسُولٌ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ عَلِمْنَا أَنَّكَ سَاحِرٌ كَذَّابٌ . فَقَالَ

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : وَمَا تَسْأَلُونَ ؟ قَالُوا تَدْعُو لَنَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ
 حَتَّى تَنْقَلِعَ بِعُرُوقِهَا وَتَقِفَ بَيْنَ يَدَيْكَ ، فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ :
 إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، فَإِنَّ فَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ ذَلِكَ أَتُؤْمِنُونَ
 وَتَشْهَدُونَ بِالْحَقِّ ؟ قَالُوا نَعَمْ^(٢٨) . قَالَ : فَإِنِّي سَأَرِيكُمْ مَا تَطْلُبُونَ ،
 وَإِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكُمْ لَا تَفِيضُونَ إِلَى خَيْرٍ ، وَإِنِّي فِيكُمْ مَنْ يُطْرَحُ فِي
 الْقَلْبِ ، وَمَنْ يُحْزَبُ الْأَحْزَابَ . ثُمَّ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ :
 يَا أَيُّهَا الشَّجَرَةُ إِنَّ كُنْتُ تُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتَعْلَمِينَ أَنِّي
 رَسُولُ اللَّهِ فَانْقَلِعِي بِعُرُوقِكَ حَتَّى تَقِفِي بَيْنَ يَدَيَّ بِإِذْنِ اللَّهِ . فَوَالَّذِي
 بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَأَنْقَلَعَتْ بِعُرُوقِهَا وَجَاءَتْ وَلَهَا دَوِيٌّ شَدِيدٌ وَقَصْفٌ
 كَقَصْفِ أَجْنَحَةِ الطَّيْرِ حَتَّى وَقَفَتْ بَيْنَ يَدَيَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ
 عَلَيْهِ وَآلِهِ ، مُرْفَرَفَةً ، وَأَلْقَتْ بِغُصْنِهَا الْأَعْلَى عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ
 عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَيَبِغُضُ أَغْصَانُهَا عَلَى مَنْكِبِي ، وَكُنْتُ عَنْ يَمِينِهِ صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ^(٢٩) . فَلَمَّا نَظَرَ الْقَوْمُ إِلَى ذَلِكَ قَالُوا - عُلوًّا
 وَأَسْتِكَبَارًا - : فَمُرَّهَا فَلْيَأْتِكَ نِصْفُهَا وَيَبْقَى نِصْفُهَا فَأَمَرَهَا بِذَلِكَ ،
 فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ نِصْفُهَا كَأَعْجَبِ إِقْبَالٍ وَأَشَدِّ دَوِيًّا ، فَكَادَتْ تَلْتَفُ
 بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَقَالُوا - كُفْرًا وَعُتُوًّا - فَمُرْ هَذَا
 النِّصْفَ فَلْيَرْجِعْ إِلَى نِصْفِهِ كَمَا كَانَ فَأَمَرَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَرَجَعَ .

فَقُلْتُ أَنَا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَإِنِّي أَوَّلُ مُؤْمِنٍ بِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ،
 وَأَوَّلُ مَنْ أَقَرَّ بِأَنَّ الشَّجَرَةَ فَعَلَتْ مَا فَعَلَتْ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى تَصْدِيقاً
 بِنُبُوءَتِكَ وَإِجْلَالاً لِكَلِمَتِكَ^(٣٠) . فَقَالَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ : بَلْ سَاحِرٌ
 كَذَّابٌ ، عَجِيبُ السَّحْرِ خَفِيفٌ فِيهِ ، وَهَلْ يُصَدِّقُكَ فِي أَمْرِكَ إِلَّا
 مِثْلُ هَذَا (يَعْنُونِي) وَإِنِّي لِمَنْ قَوْمٍ لَا تَأْخُذُهُمْ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَا نِمْ
 سِيَاهُمْ سِيَا الصَّادِقِينَ ، وَكَلامُهُمْ كَلَامُ الْأَبْرَارِ . عَمَّارُ اللَّيْلِ وَمَنَارُ
 النَّهَارِ . مُتَمَسِّكُونَ بِحَبْلِ الْقُرْآنِ . يُحْيُونَ سُنَنَ اللَّهِ وَسُنَنَ رَسُولِهِ .
 لَا يَسْتَكْبِرُونَ وَلَا يَغْلُونَ ، وَلَا يَغْلُونَ وَلَا يُفْسِدُونَ . قُلُوبُهُمْ فِي
 الْجَنَانِ وَأَنْجَسَادُهُمْ فِي الْعَمَلِ^(٣١) .

اللغة :

لا تفيثون : لا ترجعون . والقلب : البشر . وقصف الرعد : اشتد صوته ،
 وقصف البعير : هدر في الشقشقة .

الإعراب :

مرفرفة حال من الضمير المستتر في وقفت ، وعلواً مفعول من أجله لقالوا ،
 ودودياً تمييز ، وتصديقاً مفعول من أجله ، وساحر خبر لمبتدأ محذوف أي هو
 ساحر ، وعمار الليل أي هم عمار الليل .

الحوار والمعجزات :

هذا الحديث عن الشجرة واضح لا يحتاج الى تفسير ، وقديماً قيل : توضيح الواضحات من أشكال المشكلات .. ومن المفيد أن نشير بهذه المناسبة الى من ينكر الحوار والمعجزات، انما ينكرها لسبب واحد، وهو انها خرق لسنن الطبيعة، وهذا ما يرفضه العلم بمعناه الحديث .

الجواب :

أولاً : إن خرق العادة ليس بعزيز . وما أكثر ما روى الرواة من ذلك على مر العصور .. وفي هذه السنة ١٩٧٢ التي نحن فيها نشرت الصحف طرفاً من هذا الباب ، ومنه ما جاء في جريدة « أخبار اليوم » المصرية تاريخ ٢٢-٧-١٩٧٢ : إن رجلاً مشهوراً في أمريكا « برويك » اذا تصور جسماً انعكست صورته في عينيهِ ، وقد تضايق من كثرة تردد العلماء عليه ، يأتيه أحدهم ومعه الكاميرا ، يطلب منه أن يتصور الأهرام أو برج ايفل - مثلاً - ثم يجعل عدسة الكاميرا في مواجهة عيني « برويك » وبعد أن يأخذ صورة العينين يفحصها ويطبّعها مراراً ، فتأخذه الدهشة حين لا يرى في الصورة إلا الشيء الذي طلبه .. وأحدث تجربة قام بها « برويك » هي انه طلب الى ثلاثة من المصورين أن يقفوا أمامه في وقت واحد ، ثم نظر الى العدسات الثلاث الواحدة تلو الأخرى ، فالتقطت كل عدسة من عينيهِ صورة للمبنى الأمم المتحدة من أربع جهات مختلفة .

وأيضاً يوجد الآن في هولندا رجل عجيب اسمه « سريوس » يستطيع أن يحرك أي شيء خفيف الوزن كالقلم بمجرد النظر اليه إذا شاء .. وتحير العلماء في تفسير هذه الظاهرة وتلك ، وبحثوا ، وأطالوا البحث الدقيق في عيني سريوس ودماغ برويك ، ولكنهم لم يصلوا الى شيء .. فهل يجب علينا أن ننكر الشيء الذي رأيناه بالعين ولمسناه باليد - لا لشيء إلا لأن العلم الحديث عجز عن تفسيره ؟ ان العلم يفسر الأشياء التي تسير على مبدأ النظام ، ولا نظام للشذوذ . ولذا قيل : الشاذ لا يقاس عليه ، وهذه الظواهر التي أشرنا اليها كلها شاذة ، ولكنها ممكنة الوقوع .

ثانياً : يجب أن نفرق بين مرتبة الإمكان وجواز حدوث الشيء عقلاً ، وبين

وقوعه بالفعل ، ولا نخلط بينهما ، فإذا أردنا أن نثبت أو ننفي حادثة ما — تعين علينا أن نبدأ أولاً من مرحلة الإمكان والجواز ، فإن كانت الحادثة جائزة الوقوع في ذاتها — انتقلنا الى مرتبة الوقوع ، ونظرنا : هل وقعت أم لا ، كالصعود للقمر ، أما إذا كانت الحادثة ممتنعة الوقوع عقلاً وذاتاً — فيجب نفيها بلا توقف وبحث ، لأن ما امتنع إمكانه امتنع وقوعه حتماً ، مثل دخول الجمل بطوله وعرضه في سم الخياط على ضيقه . والمعجزة بشئ أنواعها ممكنة الوقوع ، فإذا نُقلت إلينا بطريق صحيح وجب التصديق .

وبكلام آخر ان عالم الإمكان متقدم على عالم الوجود في الخارج بحكم البدئية .. والعقل هو الذي يفسر لنا أن هذا الشيء يمكن أن يوجد ، أو يستحيل وجوده في ذاته .. وإذن فمسألة الإمكان والامتناع نظرية عقلية بحتة ، فإذا حكم العقل بإمكان وقوع الشيء كالصعود للقمر والمريخ — بحثنا عنه في عالم الوجود ، ولكن لا يصح بحال أن ننفيه أو نثبتته إلا بالملاحظة والمشاهدة مباشرة ، أو بالرواية الصادقة عن شاهد وعين ، ولا ميدان للعقل ونظرياته في عالم الوقوع نفيًا وإثباتًا إلا إذا كان بين الشيء الذي رأيناه بالفعل وبين ما غابت عنا رؤيته — ملازمة عقلية كالملازمة بين الأثر والمؤثر والعللة والمعلول .

والذي أنكر المعجزات ونفاها من عالم الوجود لم يعتمد في انكاره هذا على الملاحظة والمشاهدة ، كما يجب ، وإنما اعتمد على العقل ونظرياته ، وهذا عين الخطأ والخلط بين عالم الإمكان الذي هو من شأن العقل ووظيفته ، وبين عالم الوقوع الذي هو من شأن الملاحظة والمشاهدة .

وعلى هذا يكون الاستدلال بالعقل على نفي المعجزة من الوجود تماماً كاستدلال به على نفي القمح من دكان القصاب لا لشيء إلا لأنه يبيع اللحم .

وتسأل : ان الصعود للقمر الذي جعلته مثلاً قد حصل بوسائل طبيعية معروفة ، أما المعجزة فليس لها من سبب معلوم .

الجواب :

قلنا : إن المعجزة لا بد أن تكون ممكنة الوقوع ، لا من النوع المستحيل عقلاً ، وهذا هو المهم ، أما كون سبب وجود المعجزة غير طبيعي فليس

بالشيء المهم ، لأن خالق الطبيعة عنده أسباب كثيرة ، ومن الجائز أن يكون من جملتها دعوة النبي أو غيرها مما نجهل .. وبكلمة : إن العقل حكم بإمكان المعجزة ، وقد ثبت وجودها بالدليل فوجب التصديق والإيمان تماماً كما آمن العلماء بأن صور الأشياء تنعكس في عيني «برويك» بمجرد تصويره لها مع جهلهم بالسبب .

الخطبة

- ١ -

همام وصفات المتقين .. فقرة ١ - ٤ -

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ حِينَ خَلَقَهُمْ غَنِيًّا عَنْ طَاعَتِهِمْ ، آمِنًا مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ ، لِأَنَّهُ لَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةٌ مِنْ عَصَاةٍ وَلَا تَنْفَعُهُ طَاعَةٌ مِنْ أَطَاعَةٍ . فَقَسَمَ بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ ، وَوَضَعَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَوَاضِعَهُمْ . فَاَلْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ . مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ ، وَمَلْبَسُهُمُ الْإِقْتِصَادُ ، وَمَشْيُهُمُ التَّوَاضُّعُ . غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَوَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ^(١) . نُزِلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلَاءِ كَالَّتِي نُزِلَتْ فِي الرَّخَاءِ . وَلَوْلَا الْأَجَلُ الَّذِي كُتِبَ لَهُمْ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرَفَةً عَيْنٍ شَوْقًا إِلَى الثَّوَابِ ، وَخَوْفًا مِنَ الْعِقَابِ . عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ ، فَهُمْ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَأَاهَا ، فَهُمْ فِيهَا مُنْعَمُونَ ، وَهُمْ وَالنَّارُ

كَمَنْ قَدْ رَأَاهُمْ فِيهَا مُعَذِّبُونَ . قُلُوبُهُمْ حَزُونَةٌ ، وَشُرُورُهُمْ
مَأْمُونَةٌ . وَأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ ، وَحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ ، وَأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ^(٢) .
صَبَرُوا أَيَّامًا قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً . تِجَارَةٌ مُرَبِّحَةٌ يَسَّرَهَا لَهُمْ
رَبُّهُمْ . أَرَادَتْهُمْ الدُّنْيَا فَلَمْ يُرِيدُواهَا . وَأَسَرَّتْهُمْ فَقَدُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا .
أَمَّا اللَّيْلُ فَصَافُونَ أَقْدَامَهُمْ تَالِينَ لِأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرْتَلُّونَهُ تَرْتِيلًا .
يُحْزَنُونَ بِهِ أَنْفُسُهُمْ وَيَسْتَشِيرُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ . فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا
تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعًا ، وَتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقًا ، وَظَنُّوا
أَنَّهَا نَصَبٌ أَعْيَنُهُمْ^(٣) . وَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ أَصْغَوْا إِلَيْهَا
مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ وَظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وَشَهيقَهَا فِي أُصُولِ آذَانِهِمْ . فَهُمْ
حَانُونَ عَلَى أَوْسَاطِهِمْ ، مُفْتَرِشُونَ لِحَبَائِبِهِمْ وَأَكْفَمِهِمْ وَرُكَّيهِمْ وَأَطْرَافِ
أَقْدَامِهِمْ ، يَطْلُبُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي فَكَاكِ رِقَابِهِمْ . وَأَمَّا النَّهَارُ فَحُلُمَاءُ
عُلَمَاءَ ، أَبْرَارُ أَتْقِيَاءَ . قَدْ بَرَّاهُمْ الْخَوْفُ بَرِّي الْقِدَاحِ^(٤) .

اللغة :

الاقتصاد : الاعتدال في الانفاق بلا تقتير أو تبذير . ويحزنون به أنفسهم :
يجلبون لها الحزن . ويستشيرون به دواء دَائِهِمْ : يوجدون الدواء للداء . والزفير
والشهيق : من صفات الصوت . وحانون على أوساطهم : راكمون . ومفترشون
لحبائهم : ساجدون . والقداح : السهام . وبريها : نحتها .

الإعراب :

غنيًا حال ، ومثله آمنًا ، وكالتي الكاف بمعنى مثل صفة المفعول مطلق محذوف ،

أي (نزلت نزولاً مثل نزول الخ) .. وشوقاً مفعول من أجله لتستقر ، وفاعل أعقبتهم ضمير مستتر يعود الى الأيام ، وتجارة مربحة خبر لمبتدأ محذوف أي تلك أو تجارتهم مربحة ، وطمعاً مفعول من أجله ، ومثله شوقاً .

المعنى :

قال الشريف الرضي : ان صاحباً لأمر المؤمنين (ع) يقال له همام وكان عابداً - سأل الإمام في ذات يوم أن يصف له المتقين كأنه ينظر اليهم . فتناقل ، ثم قال : يا همام اتق الله وأحسِّن . فلم يقتنع همام وألح ، فحميد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أما بعد فإن الله خلق الخلق حين خلقهم الخ » .. انه تعالى واجب الوجود بذاته وصفاته ، فهو - إذن - غني عن كل شيء ، واليه يفترق كل شيء وجوداً وبقاءً ، وتقدم ذلك مراراً .

(فقسم بينهم معاشهم الخ) .. ان الله تعالى لا يسيّر الكون عبثاً وجزافاً ، بل على نظام كامل ومطرد ، وأيضاً لا يتعامل مع الناس إلا عن طريق العمل ، ومن أجل هذا جهز الإنسان بأدوات العمل كالعقل والقدرة والإرادة ، وحدده له على لسان أنبيائه ورسله ، فمن سمع وأطاع ضمن سبحانه له الصلاح والفلاح دنيا وآخرة ، ومن أعرض وآثر البطالة فما له عند الله إلا الحرمان والخذلان : « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون - ١١٧ هود » . وتقدم الكلام عن ذلك في الخطبة ٢٣ وغيرها (منطقهم الصواب) لا يقولون ما لا يعتقدون ولا يفعلون (وملبسهم الاقتصاد) يلبسون ثوباً واحداً ، أو ثوبين - على الأكثر - بلا مضاهاة ومباهاة . (ومشيهم التواضع) يمشون على فطرتهم وطبيعتهم بلا خيلاء وتصنع .

(غضوا أبصارهم عما حرم الله عليهم) كناية عن عفة النفس ، وصونها عما يشين (وقفوا أنفسهم على العلم النافع لهم) . لا يقدسون إلا الحق والحكمة ، ولا يهتمون إلا بالعلم المنتج ، إذ لا دين بلا علم ، والعامل بغير علم يفسد أكثر مما يصلح (نزلت أنفسهم منهم في البلاء الخ) .. يرجون رحمة الله عند الشدة ، ويخافون بأسه عند النعمة . قال الإمام الصادق (ع) : « لا يكون العبد مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً ، ولا يكون خائفاً راجياً حتى يكون عاملاً لما يخاف ويرجو » .

وهذا شأن العاقل مؤمناً كان أم كافراً ، لا ييأس ويستسلم مها كانت المصاعب .
وأيضاً يخطأ ، ويحذر العواقب ، وإن أقبلت الدنيا عليه بكاملها .

(ولولا الأجل الذي كتب عليهم الخ) . . أنهم في قلق دائم ، يتنازعهم
عاملان : رجاء الثواب ، والخوف من العقاب ، وتعاذلت قوة هذا مع قوة ذاك ،
وإذا توازنت القوى بين المتصارعين كان لكل أثره البالغ ، ومن أجل هذا لم
تستقر أرواح المتقين وأجسادهم طرفة عين ، ومن أين يأتيها الاستقرار ، وهي
ساحة وميدان لهذه الحرب الشعواء ؟ ولولا الأجل المكتوب لذهبت أنفسهم ضحية
الخوف والقلق .

(عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم) . . أبداً لا تنفك المسبيات
عن أسبابها ، والنتائج عن مقدماتها . فالضعيف ينهزم أمام القوي ، والجهل أمام
العلم ، والعقيدة تحطم الحواجز ، والإخلاص يبعث على التضحية ، وكذلك من
أيقن بالله وجلاله ، وقدرته وكماله فإنه يرى كل من عداه وما عداه هباءً وسراباً ،
ولذا لا يبحث إلا عن مرضاة الله ، ولا يصدر في أعماله إلا عن قصد التعظيم
لله ، والرغبة في ثوابه ، والرغبة من غضبه وعذابه .

(فهم والجنة كمن قد رآها الخ) . . هذا تصوير ليقينهم وإيمانهم بالله ،
وانهم قد بلغوا الدروة منه عن علم وبصيرة لا عن تقليد ومحاكاة . وقال سبحانه
حكاية عن الجاحدين : « فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به
مشركين — ٨٤ غافر » . أما صفوة المتقين فقد رأوا بأس الله وعذابه ، وهم
في دار الدنيا ، رأوه بنور العلم والإيمان بلا شبهة ووسوسة شيطان ، وأشفقوا منه
وابتعدوا عن طريقه .

(قلوبهم محزونة) مخافة التفصير في جنب الله والحق . وكفى المرء نقصاً أن
يرى نفسه كاملاً (وشروهم مأمونة) . قال رسول الله (ص) : شر الناس من
تخاف الناس من شره . وقال الإمام : طوبى لمن عزل شره عن الناس . أسوأ
الناس من لم يثق بأحد لسوء ظنه ، ولا يثق به أحد لسوء فعله (وأجسادهم نحيفة)
من السهر والعمل فيما يرضي الله (وحاجاتهم خفيفة) لا يطلبون من الدنيا إلا
سد الحاجة (وأنفسهم عفيفة) استغنت بحلال الله عن حرامه .

(صبروا أياماً قصيرة — الى — ربهم) . ما من أحد إلا ويحتاج الى شيء من

متاع الدنيا ، ويسعى اليه جاهداً .. وقد تكون حاجته في يد ظالم لا يناها صاحبها إلا بكرامته والتلوث في دينه وضميره ، أو يقف دونها غير ذلك من الحواجز التي لا يتخطاها الانسان إلا بالدخول فيها لا يليق .. ومن صبر عن حاجته ، وضعى بها في سبيل دينه وكرامته — أبدله الله عنها ما هو خير وأبقى (أرادتهم الدنيا فلم يريدوها) كان في مقدورهم أن يبلغوا من الدنيا ما يريدون لو تنازلوا عن دينهم وكرامتهم ، ولكنهم أبوا إلا مرضاة الله .

(وأسرهم ففدوا أنفسهم منها) . حاولت الدنيا أن تمتلكهم وتستعبدهم بالمال والجاه ، فحرروا أنفسهم منها بالصبر عن الملذات والشهوات ، وعاشوا أحراراً لا سلطان عليهم إلا لله وحده (أما الليل فصافئون الخ) .. التزموا طريق الله وحده قياماً وصياماً ، وتسبيحاً وتهليلاً ، وعملاً وجهاداً .. يتلون القرآن لا للتغني والتلهي ، بل للاهتداء بنوره ، والاعتصام بحبله ، والوقوف عند حدوده . هذا ملخص لمعنى هذه الجمل العديدة من قوله : « أما الليل .. الى بري الأقداح » وهو توكيد وتوضيح لما تقدم ، وبماذا نفسر ونشرح كلمات كلها أو جلها للتبجيل والتكريم ؟ .

قوة في دين .. لقرة ٥ - ٨ :

يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّازِرُ فَيَحْسِبُهُمْ مَرْضَى وَمَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ وَيَقُولُ قَدْ خَوَّلُوا . وَلَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ . لَا يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلَ . وَلَا يَسْتَكْثِرُونَ الْكَثِيرَ . فَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ . وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ إِذَا زُكِّيَ أَحَدُهُمْ خَافَ مِمَّا يُقَالُ لَهُ فَيَقُولُ : أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي ، وَرَبِّي أَعْلَمُ بِي مِنْ نَفْسِي . اللَّهُمَّ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ ، وَاجْعَلْنِي أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ ، وَاعْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُونَ^(٥) . فَمِنْ عِلَامَةِ أَحَدِهِمْ أَنَّكَ تَرَى لَهُ قُوَّةً فِي دِينٍ ، وَحَزْماً فِي لِينٍ ،

وإِيمَانًا فِي يَقِينٍ . وَحِرْصًا فِي عِلْمٍ ، وَعِلْمًا فِي حِلْمٍ ، وَقَصْدًا فِي
 غِنَى ، وَخُشُوعًا فِي عِبَادَةٍ ، وَتَجَمُّلاً فِي فَاقَةٍ ، وَصَبْرًا فِي شِدَّةٍ .
 وَطَلَبًا فِي حَلَالٍ ، وَنَشَاطًا فِي هُدًى ، وَتَحَرُّجًا عَنْ طَمَعٍ . يَعْمَلُ
 الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَهُوَ عَلَى وَجَلٍ . يُسِيي وَهْمُهُ الشُّكْرُ ، وَيُصْبِحُ
 وَهْمُهُ الذِّكْرُ . يَبِيتُ حَذِيراً وَيُصْبِحُ فَرِحاً . حَذِيراً لِمَا حُذِرَ مِنْ
 الْغَفْلَةِ . وَفَرِحاً بِمَا أَصَابَ مِنَ الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ ^(٦) . إِنْ أَسْتَصَعَبَتْ عَلَيْهِ
 نَفْسُهُ فِيمَا تَكَرَّرَ لَمْ يُعْطِهَا سُؤْلَهَا فِيمَا تُحِبُّ . قُرَّةُ عَيْنِهِ فِيمَا لَا يَزُولُ .
 وَزَهَادَتُهُ فِيمَا لَا يَبْقَى . يَمْزِجُ الْحِلْمَ بِالْعِلْمِ . وَالْقَوْلَ بِالْعَمَلِ . تَرَاهُ
 قَرِيباً أَمَلُهُ . قَلِيلاً زَلَّ اللَّهُ . خَاشِعاً قَلْبُهُ . قَانِعَةً نَفْسُهُ . مَنُزُوراً أَكْلُهُ .
 سَهْلاً أَمْرُهُ . حَرِيْزاً دِينُهُ . مَيِّتَةً شَهْوَتُهُ . مَكْظُوماً غَيْظُهُ . الْخَيْرُ مِنْهُ
 مَأْمُومٌ ، وَالشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ . إِنْ كَانَ فِي الْغَافِلِينَ كُتِبَ فِي الذَّاكِرِينَ .
 وَإِنْ كَانَ فِي الذَّاكِرِينَ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ . يَغْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ ،
 وَيُعْطِي مَنْ حَرَمَهُ ، وَيَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ . بَعِيداً فُحْشُهُ . لَيِّنًا قَوْلُهُ .
 غَائِباً مُنْكَرُهُ . حَاضِراً مَعْرُوفُهُ . مُقْبِلاً خَيْرُهُ . مُذْهِباً شَرَّهُ ^(٧) .
 فِي الزَّلَازِلِ وَقُورٌ ، وَفِي الْمَكَارِهِ صَبُورٌ . وَفِي الرَّخَاءِ شُكُورٌ .
 لَا يَحِيفُ عَلَى مَنْ يُبْغِضُ . وَلَا يَأْتُمُ فِيمَنْ يُحِبُّ . يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ
 أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ . لَا يَضِيعُ مَا اسْتُحْفِظَ . وَلَا يَنْسَى مَا ذُكِّرَ . وَلَا
 يُنَابِرُ بِالْأَلْقَابِ . وَلَا يُضَارُّ بِالْجَارِ . وَلَا يَشْمَتُ بِالْمَصَائِبِ . وَلَا

يَدْخُلُ فِي الْبَاطِلِ . وَلَا يُخْرَجُ مِنَ الْحَقِّ . إِنْ صَمَتَ لَمْ يَغْمُهُ صَمْتُهُ ،
وَأِنْ ضَحِكَ لَمْ يَغْلُ صَوْتُهُ . وَإِنْ بُغِيَ عَلَيْهِ صَبْرٌ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ
هُوَ الَّذِي يَنْتَقِمُ لَهُ . نَفْسُهُ فِي عَنَاءٍ . وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ . أَتَعَبَ
نَفْسَهُ لِأَخْرَاجِهِ ، وَأَرَاخَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ . بُعْدُهُ عَمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْهُ
زُهْدٌ وَنَزَاهَةٌ . وَدُنُوهُ يَمُنُّ دَنَا مِنْهُ لِينٌ وَرَحْمَةٌ . لَيْسَ تَبَاعُدُهُ بِكِبَرٍ
وَعَظَمَةٍ ، وَلَا دُنُوهُ بِكِبَرٍ وَخَدِيعَةٍ^(٨) ،

اللغة :

خولطوا : فسدت عقولهم . مشفقون : خائفون . قصداً في غنى : معتدلون
في سعيهم لطلب المال . وتخرج : تجنب الحرج أي الإثم . وحريزاً : حصيناً .
ولا يحيف : لا يظلم . ولا ينافر : لا يعيب .

الإعراب :

المصدر من انك الخ مبتدأ مؤخر ، ومن علامة خبر مقدم ، وحلراً الثانية
تأكيد للأولى ، وأمله فاعل « قريباً » ومثله ما بعده .

المعنى :

(ينظر اليهم الناظر فيحسبهم الخ) .. كبرت نفوسهم ، وزكت قلوبهم على
حساب أجسامهم ، فقد هزلت وضعفت حتى تكاد تنهالك لإعياء ، وحتى ظن الرائي
أنهم مرضى أو من أهل الهلكة ! . كلا ، إنها الهممة والنفوس العالية :

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام

(لا يرضون من أعمالهم بالقليل) لأنهم خلقوا للنضال والعمل ، لا للبطالة والكسل ، وفي الوقت نفسه لا يغالون في قدراتهم ، ولا يخدعون أنفسهم بالغرور والمباهاة ، بل يخافون من الخطأ والتقصير (إذا زُكي أحد منهم خاف) من قول الزور وحبائل الغرور (فيقول أنا أعلم بنفسي من غيري) . للانسان حياثان : باطنية وظاهرية ، والظاهر للناس ، أما الباطن فله ولصاحبه . فهو وحده من بين الخلائق يستطيع أن يتأمل دخيلته ويعرفها ، ولا سبيل الى معرفة الآخرين بها إلا عن طريقه . قال تعالى : « ينهؤ الانسان يومئذ بما قدّم وأخّر بل الانسان على نفسه بصيرة - ١٤ القيامة » . وقال الفيلسوف الانكليزي « راسل » في كتاب « الفلسفة بنظرة علمية » : « إن معرفة بعض الحقائق عن الانسان مستحيلة إلا عن طريقه .. ولما كان هو أداة المعرفة لنفسه وجب دراسته كأداة للمعرفة » .

(اللهم لا تؤاخذني بما يقولون) يدعو الله ويعوذ به أن يدخل العجب والغرور الى نفسه من الإطراء ، فيكون من الخاسرين (واجعلني أفضل مما يظنون) في من الخير والحسنات (واغفر لي ما لا يعلمون) من الهفوات والسيئات .

(فن علامة أحدهم - الى - عن طمع) . إن الدليل القاطع على التقوى حقاً وصدقاً هو الاستقامة والمسلك السليم النابع عن الوعي واليقين ، والحزم والثبات ، والحلم والاعتدال ، والتواضع والتجمل عند الحاجة ، والنشاط والاجتهاد في الأعمال الصالحة النافعة مع القناعة والكف عن المحرمات ، والتعبد لله وحده ، والتوكل عليه دون سواه (يعمل - أي المتقي - الأعمال الصالحة على وجل) . العالم المتورع يتوقع الخطأ في أقواله وأفعاله ، ويخشى النقص والخلل ، ولذا يحترس ويحتاط جهد المستطاع ، والذي يرى عمله كاملاً من كل وجه فهو جاهل مركب .

(يمسى وهمه الشكر ، ويصبح وهمه الذكر) . هو شاكر ذاكر لله تعالى في جميع حالاته وأوقاته .. وتفلسف بعض الشارحين ، وأطال في الفرق بين الشكر مساء ، والذكر صباحاً معتمداً على وهمه وفهمه (بيت حذراً الخ) .. يتهم نفسه بالخطأ والتقصير فيخاف ، وأيضاً يرجو الصواب بتوفيق الله وفضله فيطمئن . وهذه هي سمة العلماء المتقين ، وقال قائل منهم : إن أصبت فن الله وعنايته ، وإن أخطأت فني ومن الشيطان (إن استعصت عليه نفسه الخ) .. للمتقي ميول

وأهواء تريد منه ، وتلج عليه ، وهو لا يستطيع أن يتحرر منها ، ويقتلعها من الجذور ، ولكنه لا يستجيب لها ، ولا تحيد به عن الطريق القويم .. إنها تناديه وتصرخ به ، وهو يتجاهل ويعرض .

(قرة عينه فما لا يزول ، وزهادته فيما لا يبقى) . تريده الأهواء للدنيا ، ويأبى هو إلا الآخرة (يمزج الحلم بالعلم) حلمه عن وعي وحكمة لا عن ضعف ومسكنة ، وهو تكرر لقوله : « علماً في حلم » . (والقول بالعمل) . يفعل ما يقول ، ولا يقول ما لا يفعل (تراه قريباً أمله الخ) .. لا يئأس من روح الله ، وإن زلت به القدم يوماً تاب وأتاب ، يكبح شهوته ، ويكظم غيظه .. خاشع قانع يأكل ليعيش ، ولا يعيش ليأكل .

(الخير منه مأمول : والشر منه مأمون) لأنه إنسان يعيش على حساب نفسه وأتعبه ، ووحش الغاب هو الذي يعتدي ويفترس (إن كان في الغافلين كُتِبَ مع الذاكرين) . لا يخوض مع الخائضين ، ولا يتأثر بحار السوء وببئس الفساد . انه على صلاحه ، ولو امتلأت الدنيا فساداً . (وإن كان في الذاكرين لم يُكْتَبَ من الغافلين) وإن عاشراً أقواماً ميامين انسجم معهم ، وطاب نفساً وعملاً (يعفو عن ظلمه) أي يدفعه بالحسنى والكلمة الطيبة ، فإن عاد الى صوابه وإلا جاهده بكل ما يملك ، لأن السكوت عن المعتدي اغراء له وتشجيع على الظلم والعدوان .

(ويصل من قطعه) إن كان المقاطع إنساناً شاكراً لا وحشاً كاسراً (بعيداً فحشه) عفيف اللسان (غائباً منكراً الخ) .. تكرر لقوله : « الخير منه مأمول ، والشر منه مأمون » . (لا يحيف على من يبغض الخ) .. إذا رضي لا يدخل في باطل ، وإذا غضب لا يخرج عن الحق (يعترف بالحق قبل أن يُشهد عليه) . لا يبغض الناس أشياءهم ، ولا يعتمد التهويش والمغالطة ، لأنه صادق مع نفسه وغيره (لا يضيع ما استحفظ) . هذا الوصف يختص بأهل العلم بالله وشريعته ، لأنه تعالى اثنهم عليها ، وأمرهم بتبليغها بلا تحريف ولا تزييف ، قال عز من قائل : « بما استُحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً » - ٤٤ المائدة .

(ولا يناز بالآلقاب) . لا يصف أحداً بلقب يكرهه (ولا يشمت بالمصائب)

لأن الشماتة تنم عن اللؤم والصغار.. ومن يحذر العواقب لا يشمت . وبحكمة قيل:
لا تشمت بأخيك ، فيعافيه الله ويبتليك (ولا يدخل في الباطل الخ) .. ألزم
نفسه أن يقوم بما عليه من واجب ، ويتساهل بما له من حق خاص، وان ينصر
المحقين ، ويجاهد المبطلين ، وان لا يحزن لفوات كلمة تبرزه ، وتومئ الى
مكانته ، وان لا يسيء الى مخلوق ، ولا يتكل إلا على نفسه بعد الله ، وان
يتأدب بآداب الشرع والدين بلا تحجر وتزمت ، ولا رياء ونفاق .

قال الشريف الرضي : فما أتم الإمام كلامه حتى صبق همام صعقة كانت نفسه
فيها . عليه رحمة الله ورضوانه . قال أمير المؤمنين (ع) : لقد كنت أخافها عليه..
هكذا تصنع المواعظ البالغة بأهلها فقال قائل : فما بالك يا أمير المؤمنين ؟
فقال : ان لكل أجل وقتاً لا يعدوه ، وسبباً لا يتجاوزوه . فهلاً ؟ لا تعد
لمثلها ، فإنما نفث الشيطان على لسانك .

ان الانسان ابن الأرض ، وبها يشبه ، وإذا قارنا بين هذا القائل وقسوته ،
وبين همام ورحمته - ظهر أن التفاوت بينها تماماً كالتفاوت بين البلد الطيب الذي
يخرج نباته بإذن ربه ، والبلد الخبيث الذي لا يخرج أبداً ، أو يخرج نكدأ .

وقال قائل : إن الإمام (ع) يصف في هذه الخطبة قوماً في الخيال لا في عالم
الوجود ، أو هو يصف نفسه ، أو أمنيته كما ينبغي أن يكون الانسان ، لا كما
هو كائن بالفعل .. ان للإنسان جسماً وعواطف ورغبات ، فكيف ينفصل عنها؟
وهل ينفصل الشيء عن نفسه وطبيعته ؟

الجواب :

أولاً : ان هذه الخطبة دعوة ودعاية الى التقوى وحسن السلوك ، ويومئ
الى ذلك اتباع الكلام أسلوباً يكثر فيه التكرار والترديد ، ومن شرط الأمر بالشيء
والدعوة اليه ان يكون ممكناً لا يستعصي على قدرة المكلف وإرادته ، وان يكون
فيه جهة خير وصلاح، وما من صفة ذكرها الإمام إلا وفيها خير كثير ، وتتناولها
إرادة المكلف وقدرته ، وإذن تصبح الدعوة الى التحلي بهذه الصفات ويجوز العقاب
على المخالفة والمعصية .

ثانياً : ان الغاية من الدعوة الى سبيل الله والاستقامة أن يكبح الانسان أهواءه
وميوله ، وان يحكمها ولا تتحكم به ، ولولاها لكان روحاً بلا جسد ، وملاكاً

من السماء لا ابن الأرض ، وكان التكليف بالنسبة اليه لغواً وعبثاً ، لأنه بلا معنى وموضوع .. أجل، ان المشكلة هي مشكلة البيئة والعيش في مجتمع الضلال والفساد، والعقري هو الذي يصمد أمام التقاليد ، وليس كل الناس أبا ذر .. ومن هنا كان عقاب المذنب في بيئة التقى والصلاح أشد منه في بيئة الضلال، وثواب المتقي في هذه أعظم منه في تلك حيث يكون القابض على دينه في بيئة الفسق والفجور كالقابض على الجمر . والإمام يدعو الى الاستقامة والثبات عليهما مهما كانت الظروف .

الخطبة

- ١٩٢ -

المنافقون .. فقرة ١ - ٣ :

تَحْمَدُهُ عَلَى مَا وَفَّقَ لَهُ مِنَ الطَّاعَةِ ، وَذَادَ عَنْهُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ . وَنَسَأَ لَهُ
لِمَنِّيهِ تَمَامًا وَبِحَبْلِهِ أَعْتَصَمًا . وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ خَاضَ
إِلَى رِضْوَانِ اللَّهِ كُلَّ غَمْرَةٍ ، وَتَجَرَّعَ فِيهِ كُلَّ غُصَّةٍ . وَقَدْ تَلَوَّنَ لَهُ
الْأَذْنُونُ ، وَتَأَلَّبَ عَلَيْهِ الْأَقْصُونَ . وَخَلَعَتْ إِلَيْهِ الْعَرَبُ أَعْنَتَهَا ،
وَضَرَبَتْ لِمَحَارَبَتِهِ بَطُونَ رَوَاحِلِهَا ، حَتَّى أَنْزَلَتْ بِسَاحَتِهِ عَدَاوَتَهَا
مِنْ أُبْعَدِ الدَّارِ وَأَسْحَقِ الْمَزَارِ . أَوْصِيكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ .
وَأَحْذَرُكُمْ أَهْلَ النِّفَاقِ فَإِنَّهُمْ الصَّاغُونَ الْمُضِلُّونَ ، وَالزَّالُّونَ الْمُزِلُّونَ .
يَتَلَوَّنُونَ أَلْوَانًا ، وَيَفْتَنُونَ أَفْتِنَانًا ، وَيَعْمِدُونََكُمْ بِكُلِّ عِمَادٍ ،
وَيَرْصُدُونَكُمْ بِكُلِّ مِرْصَادٍ . قُلُوبُهُمْ دَوِيَّةٌ ، وَصَفَا حُفْمُ نَقِيَّةٌ . يَمْشُونَ
الْخَفَاءَ . وَيَدْبُونِ الصَّرَاءَ ، وَصَفُهُمْ دَوَاءٌ ، وَقَوْلُهُمْ شِفَاءٌ ، وَفِعْلُهُمْ الدَّاءُ

الْعِيَاءُ . حَسَدَةُ الرَّخَاءِ ، وَمُؤْكَدُو الْبَلَاءِ ، وَمُقْنَطُو الرَّجَاءِ . لَهُمْ
بِكُلِّ طَرِيقٍ صَرِيحٌ ، وَإِلَى كُلِّ قَلْبٍ شَفِيعٌ ، وَلِكُلِّ شَجْوٍ ذُمُوعٌ .
يَتَقَارَضُونَ الثَّنَاءَ ، وَيَتَرَأَّقُونَ الْجَزَاءَ . إِنْ سَأَلُوا الْحَفُوءَ ، وَإِنْ عَدَّلُوا
كَشَفُوا ، وَإِنْ حَكَمُوا أَسْرَفُوا . قَدْ أَعَدُّوا لِكُلِّ حَقٍّ بَاطِلًا ،
وَلِكُلِّ قَائِمٍ مَائِلًا ، وَلِكُلِّ حَيٍّ قَاتِلًا ، وَلِكُلِّ بَابٍ مِفْتَاحًا ،
وَلِكُلِّ لَيْلٍ مِصْبَاحًا . يَتَوَصَّلُونَ إِلَى الطَّمَعِ بِالْيَأْسِ لِيُقِيمُوا بِهِ
أَسْوَأَهُمْ ، وَيُنَفِّقُوا بِهِ أَعْلَاهُمْ . يَقُولُونَ فَيُثَبِّهُونَ ، وَيَصِفُونَ
فَيُموِّهُونَ . قَدْ هَوَّنُوا الطَّرِيقَ ، وَأَضْلَعُوا الْمَضِيقَ . فَهُمْ لِمَّةُ الشَّيْطَانِ
وَحِمَّةُ النَّيِّرَانِ « أَوْلَيْكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ إِلَّا إِنْ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمْ
الْخَاسِرُونَ » .

اللغة :

الغمرة : الشدة . وتلون : تنكر . وأبعد وأسحق وأقصى بمعنى واحد .
ويفتنون : يتفننون ويسلكون أساليب متنوعة . ويعمدونكم : يدعمونكم بالكاذب
لدفع التهمة عنهم . ودوية : من الداء ، وهو المرض . وصفاحهم : وجوههم .
والداء العياء : أعيا الأطباء . وألحوا : ألحوا . والأعلاق : جمع علق ، وهو
الشيء النفيس . وأضلعوا المضيق : جعلوه ضيقاً . واللمة - بفتح الميم مع
التخفيف - الجماعة . وحمة - بالتخفيف - إبرة العقرب .

الإعراب :

على ما وفق له « ما » اسم موصول بمعنى الذي ، والهاء في « له » يعود الى

« ما » . وتاماً مفعول نسأله أي نسأله التام والاعتصام ، والخفاء منصوب بنزع الخافض أي في الخفاء ، ومثله الضراء ، ويجوز أن يكون نائباً عن المفعول المطلق أي يمشون المشي الخفي ، ويدبون الدبيب المضر .

المعنى

(نحمده على ما وفق له الخ) .. المؤمن يعلم حق العلم أن التوفيق الى الخير بشئ أنواعه هو من الله ، ولذا يحمده ويقول : « وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب - ٨٨ هود » . وليس من شك ان من يستصح الله ويخلص له يشملته تعالى بتوفيقه وعنايته (ونسأله لنته تماماً ، وبجمله اعتصاماً) . منته تعالى نعمته ، وحبله دينه وشريعته .. وهو سبحانه المسؤول أن يمن علينا بالسلامة في الدين والبصيرة .

(ونشهد أن محمداً الخ) .. كانت أسرة رسول الله (ص) قبل البعثة قوية وغنية ، ولما أرسله الله رحمة لهم وللعالمين ثارت عليه ثائرتهم ، ولقي منهم ومن غيرهم أشد الإيذاء ، وقالوا عنه من جملة ما قالوا : ساحر وشاعر ، وأبتر ومجنون ! وهل من شيء أدل على جنونه - بزعمهم - من رفضه لما عرضوه عليه من المال والسلطان ؟ .. وكان أشدهم عليه أبو جهل وأبوسفيان وأبو لهب . وكان يصبر ويستعين بكل شيء في سبيل دعوته ورسالته .. أخرجه أهل الطائف طرداً من بلدهم ، وسلطوا عليه سفهاءهم يرمونه بالحجارة حتى سال الدم من قدميه . فقال : اللهم اهد قومي ، فإنهم لا يعلمون .

النفاق :

للذب أنواع ودرجات ، فنه ما يكون مع الله تعالى ، ومنه مع المذنب نفسه ، ومنه مع الناس ، ومنه ما يجمع هذه الجرائم الثلاث كالنفاق . وليس من شك ان الاحتيال على الله غير ممكن ، لأنه يعلم السر وأخفى ، ولكن الاحتيال على عباد الله ذنب لا يغتفر .. وأيضاً لا يتصور النفاق من يعيش في عزلة عن الناس لأنه لم يلتق ويحتك بواحد منهم - كما هو القرض - ومعنى هذا ان النفاق داء

اجتماعي ، وجد مع المجتمعات التي تضم القوي والضعيف ، والخاضع والمسيطر ،
وانه يتطور معها جنباً الى جنب في جميع المراحل ، وانه يتعقد أكثر فأكثر كلما
زادت حياة الجماعة نمواً في التعقيد .

وبهذا نجد التفسير الصحيح لشيوع النفاق وتفاقه في هذا العصر « المتقدم » على
كل صعيد ... يغزون البلاد الآمنة باسم حماية الأقليات ، و يقيمون القواعد العسكرية
للعُدوان بعنوان المحافظة على السلم ، ويلقون ألوف الأطنان من القنابل على المنشآت
والنساء والرجال والأطفال بزعم القضاء على العنف والعُدوان ، وينهبون الأقوات
والقدرات باسم التجارة والتعاون ، وينتشرون للتجسس في شرق الأرض وغربها
تحت راية التبشير في الدين ، وينشئون المكاتب لتدبير المؤامرات وتحطيم إرادة
الشعوب بعنوان نوادي الثقافة ، ومكاتب الأنباء ، ويتجمع العملاء والخونة تحت
راية الجمعيات الخيرية والمجالس المذهبية والحفلات الدينية !. أما التجارب النووية
والأسلحة الكيماوية التي تهدد العالم بكارثة شاملة ، أما هذه فالقصد منها تطوير
العلوم لخير الانسان ، ومصلحة الحضارة .. الى غير ذلك من الجرائم التي ترتكب
باسم العلم والدين والانسانية .

ومن هنا شاع القلق والتشاؤم في هذا العصر بين جميع الفئات ، واهتزت القيم
والمبادئ ، وضاعت الثقة في كل شيء حتى في رجال الدين ، والمنظمات الخيرية
فضلاً عن السياسيين ، وعن الصحافة صاحبة الجلالة المملوثة على حد ما قال بعض
الصحفيين ، وساد الايمان بأن ما من أحد إلا ويعمل لمصلحه ومطامعه، وان المصلح
مخادع ، والمخلص مدلس .

ومن غريب الصدف أنني بعد ما كتبت هذه الأسطر قرأت في مجلة « الحوادث
البيروتية » تاريخ ٢٢ - ٩ - ١٩٧٢ ما نصه بالحرف : « في الفترة بين كانون
الثاني وحزيران أُلقت الطائرات الأمريكية على لاوس وكمبوديا وفيتنام الشمالية
والجنوبية ما زنته ١١٢ طن ، ومع هذا أعلنت الولايات المتحدة أنها ليست في
حالة حرب مع أية دولة من هذه الدول » .

وبعد ، فهل نطالب بالدليل إذا قلنا: ان النفاق من أمهات الرذائل الاجتماعية
التي لا تُحمد ولا تُعَد ، وانه مزيج من الخيانة والغدر، والكذب والمكر، والضلال
والفساد ، والظلم والاستبداد ، وانه أفسد المدنية الحديثة ؟ وقال بعض العلماء :

قل للذي قال « ليس بعد الكفر ذنب » : ماذا أبقيت للنفاق ؟. أليس سبحانه هو القائل : « ان المنافقين في الدرك الأسفل من النار — ١٤٥ النساء » ؟. وهل وراء الأسفل وراء ؟. ونجيب بأن النفاق زيادة في الكفر ، أو كفر وزيادة .

وبعد هذه الإشارة نعود الى شرح الكلمات ، ونوجز ما أمكن ، لأنها واضحة بخاصة بعد أن مهدنا بما تقدم (فإنهم الضالون المضلون) تماماً كوباء الكوليرا ، فاسد ومفسد (والزالون المزلون) عطف تفسير (يتلونون ألواناً) لهم ألف وجه ولسان (ويفتنون افتناناً) يفتنون في أساليب المكر والخداع (ويعمدونكم بكل عماد) اذا أسأتم بهم الظن حاولوا اقناعكم بشئ الأساليب انهم على خير (ويرصدونكم بكل مرصاد) يضعون ضدكم خطط الفتن والشقاق .

(قلوبهم دوية) إشارة الى قوله تعالى : « في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً — ١٠ البقرة » . (وصفاحهم نقية) إذا رأيتهم تعجبك أجسامهم (وان يقولوا تسمع لقولهم — ٤ المنافقون » . (يمشون الخفاء ، ويدبون الخفاء) . كجرثومة السرطان تفسد اللحم والدم دون أن تظهر بنفسها (وقولهم شفاء ، وفعلهم الداء العياء) « وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ — ١١٩ آل عمران » . (حسدة الرخاء) يحسدون كل ذي نعمة ، ويسخطون على الله ، لأنه أنعم بها عليه (ومؤكدو البلاء) إذا رأوا ضعيفاً مبتلي ازدروه ، وسخروا منه ، بل واعتدوا عليه سفهاً ولؤماً (ومقنطو الرجاء) إذا نزلت بإنسان نازلة حملوه على اليأس والقنوط من رحمة الله .

(لهم بكل طريق صريع) يغرون بالسذج البسطاء ، ويوقعونهم في الهلكات (والى كل قلب شفيح) . يستميلون القلوب بالملق والتواضع الكاذب (ولكل شجوة دموع) . الشجوة الحزن ، والمعنى يسكبون دموع التماسيح أمام الحزين المصاب لمآرب شخصية (يتقارضون الثناء ويتراقبون الجزاء) . يطري بعضهم بعضاً بقصد المقايضة والمبادلة في النفاق (ان سألوا ألحفوا) ان طلبوا حاجة ألحوا وبالغوا (وان عدلوا كشفوا) ان سخطوا أشاعوا وأذاعوا بالحق وبالباطل . (وان حكموا أسرفوا) في الجور والفساد والضلال .

(قد أعدوا لكل حق باطلاً الخ) . يمثلون جميع الأدوار في مسرح النفاق الكبير ، ويمجدون التمثيل في صنع المقالب والاحتيال ، وإثارة الشبهات حول الطيبين ، وإيقاظ الفتن ، وفساد كل مشروع فيه خير وصلاح (يتوصلون الى

الطمع باليأس الخ) .. يتوسلون الى الحياة الدنيا وزينتها بإظهار الزهد فيها ،
واليأس منها ، والرغبة في الآخرة وحدها كذباً ورياء (يقولون فيشبهون) أي
ان أقوالهم تثير الشكوك والشبهات حول الحقائق والنوايا الطيبة (ويصفون فيموهون).
يلبسون الحق بالباطل ، وهم يعلمون .

(قد هونوا الطريق) قربوا البعيد ، وبعدوا القريب (وأضلعوا المضيق) .
إذا وقع إنسان في مشكلة ، وضاق عليه المخرج لا يساعدونه على الخلاص ، بل
يزيدونه ضيقاً على ضيق ، وتعقيداً على تعقيد (فهم لمة الشيطان) حزه وجنوده
(رحمة النيران) حطب جهنم يصلونها فبئس المصير .

الخطبة

- ١٩٣ -

باب الله مفتوح للجميع .. فقرة ١ - ٣ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَظْهَرَ مِنْ آثَارِ سُلْطَانِهِ وَجَلَالِ كِبَرِيَّانِهِ مَا حَيْرَ مُقَلَّ الْعُيُونِ مِنْ عَجَائِبِ قُدْرَتِهِ ، وَرَدَعَ خَطَرَاتِ هَمَاهِمِ النُّفُوسِ عَنْ عِرْفَانِ كُنْهِ صِفَتِهِ . وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ شَهَادَةً إِيْمَانٍ وَإِيقَانٍ ، وَإِخْلَاصٍ وَإِذْعَانٍ . وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَرْسَلَهُ وَأَعْلَامُ الْهُدَى دَارِسَةً ، وَمَنَاهِجُ الدِّينِ طَائِمَةً . فَصَدَعَ بِالْحَقِّ ، وَنَصَحَ لِلخَلْقِ . وَهَدَى إِلَى الرُّشْدِ ، وَأَمَرَ بِالْقَصْدِ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ^(١) . وَأَعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثًا . وَلَمْ يُرْسِلْكُمْ هَمَلًا . عَلِمَ مَبْلَغَ نِعْمِهِ عَلَيْكُمْ ، وَأَحْصَى إِحْسَانَهُ إِلَيْكُمْ . فَاسْتَنْجُوهُ وَاسْتَنْجِحُوهُ ، وَأَطْلُبُوا إِلَيْهِ وَاسْتَمْنِحُوهُ . فَمَا قَطَعَكُمْ عَنْهُ حِجَابٌ ، وَلَا أَغْلِقَ عَنْكُمْ دُونَهُ بَابٌ . وَإِنَّهُ لَبِكُلِّ مَكَانٍ ، وَفِي كُلِّ حِينٍ وَأَوَانٍ ، وَمَعَ كُلِّ إِنْسٍ

وَجَانٌ . لَا يَشْلُمُهُ الْعَطَاءُ ، وَلَا يُنْقِصُهُ الْحَبَاءُ وَلَا يَسْتَنْفِدُهُ سَائِلٌ ،
وَلَا يَسْتَقْصِيهِ نَائِلٌ . وَلَا يُلَوِّيه شَخْصٌ عَنْ شَخْصٍ ، وَلَا يُلْبِيهِ
صَوْتُ عَنْ صَوْتٍ . وَلَا تَحْجُزُهُ هَبَّةٌ عَنْ سَلْبٍ . وَلَا يَشْغَلُهُ غَضَبٌ
عَنْ رَحْمَةٍ . وَلَا تُؤْلِيهِ رَحْمَةٌ عَنْ عِقَابٍ . وَلَا يُجْنِئُهُ الْبُطُونُ عَنْ
الظُّهُورِ . وَلَا يَقْطَعُهُ الظُّهُورُ عَنْ الْبُطُونِ . قَرُبَ فَنَائٍ ، وَعَلَا فَدَنَّا .
وَوَظَرَ فَبَطَنَ ، وَبَطَنَ فَعَلَنَ . وَدَابَ وَلَمْ يُدِنَ . لَمْ يَذَرِ الْخَلْقَ
بِاحْتِيَالٍ ، وَلَا أَسْتَعَانَ بِهِمْ لِكَلَالٍ^(٢) . أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ
فَإِنَّهَا الزُّمَامُ وَالْقَوَامُ . فَتَمَسَّكُوا بِوَتَائِقِهَا ، وَأَعْتَصِمُوا بِحَقَائِقِهَا تَوَوُّلُ
بِكُمْ إِلَى أَكْنَانِ الدَّعَةِ ، وَأَوْطَانِ السَّعَةِ ، وَمَعَاوِلِ الْحِرْزِ وَمَنَازِلِ الْعِزِّ
فِي يَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ، وَتُظْلِمُ لَهُ الْأَقْطَارُ . وَيُعْطَلُ فِيهِ
صُرُومُ الْعِشَارِ . وَيُنْفَخُ فِي الصُّورِ . فَتَزْهَقُ كُلُّ مُهْجَةٍ ، وَتَبْكُمُ كُلُّ
لَهْجَةٍ . وَتُدَكُّ الشَّمُ الشَّوَاخِ ، وَالصَّمُ الرُّوَاسِخُ . فَيَصِيرُ صَلْدُهَا سَرَابًا
رَقْرَقًا ، وَمَعْبَدُهَا قَاعًا سَمَلَقًا . فَلَا شَفِيعَ يُشْفَعُ وَلَا حَمِيمَ يَدْفَعُ ،
وَلَا مَعْذِرَةً تَنْفَعُ^(٣) .

اللغة :

مقل العيون : جمع مقلة ، وهي شحمة العين ، والمراد بالمثل هنا البصائر
لا الأبصار . والهمهمة : صوت يُسمع ولا يُفهم منه شيء ، والمراد بهماهم
النفوس هنا الأفكار . وطامسة : دارسة . وصدع الشيء : شقه ، وصدع بالحق :
تكلم به جهاراً . وهما : سدى . استفتحوه : اطلبوا منه النصر والفتح . واستنجدوه :

سألوه النجاح والصلاح . واستمنحوه : ادعوه أن يمنحكم من فضله . ولا يستنفده : لا تنفذ خزائنه . لا يثلمه : لا ينقصه . لا يلويه : لا يميله . لا توله : لا تذهله . لا يحنه : لا يستره . لا يقطعه : لا يفصله . ولم يدرأ . لم يخلق . وكل : تعب . والزم : المقود . والقوام - بفتح القاف - الاعتدال ، وبكسرهما العباد والنظام ، وبضمها الداء . والدعة - بتشديد الدال مع الفتح - السكينة والراحة وسعة العيش . وصروم : قطع من الإبل . والعشار : نوع من النوق . والشم : جمع أشم . والشوامخ : جمع شامخ ، والمعنى واحد أي عال ورفيع . والصمم : جمع أصم أي الصلب ، ومثله الصلد ، ولكنه أملس . وسملقاً : مستويًا .

الإعراب :

ما حير « ما » اسم موصول مفعولاً لأظهر ، واعلام الواو للحال ، وعبثاً مفعول لأجله ، أو في موضع الحال أي عابثاً .

المعنى :

لا جديد في هذه الخطبة ، فهي تكرر لما تقدم مضموناً ومحتوىً ، وسبق الكثير منها بالنص الحرفي ، ولذا نوجز في الشرح ، ونحيل اللاحق على السابق مع الإشارة إلى رقم الخطبة (الحمد لله الذي أظهر الخ) .. كل ما في الكون فيه قدرة وإبداع وحكمة تدل على الحكيم المبدع ، وآمن العديد من الفلاسفة والعلماء بوجود هذا الحكيم إيمانهم بأنفسهم ، ولكن عجزت عقولهم عن إدراك ذاته تعالى وحقيقته ، لأن العقل محدود ، والمحدود لا يدرك من لا حد له . هذا هو الواقع فن رضي وأقر فقد نجا وفاز ، ومن أبى قلنا له : « إنك ميت وأنهم ميتون » . وتقدم مرات ، منها في الخطبة ١ والخطبة ٨٩ والخطبة ١٨٠ .

(وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة إيمان الخ) .. لا يتطرق إليه الشك ، وتقدم مثله في الخطبة ٢ و ٩٩ و ١٧٦ (وأشهد أن محمداً عبده الخ) .. أرسل سبحانه قبل محمد (ص) العديد من الرسل ، الرسول بعد الرسول ، ومعه شريعة الله وتعاليمه : وبمرور الزمن صارت نسياً منسياً ، فبعث الله محمداً لإحيائها ، وبما

يجعل رسالته آخر الرسائل ، ونبوته خاتمة النبوات ، فأدى محمد أمانة الله كما أراد ، وسد بها كل فراغ .

(انه لم يخلقكم عبثاً الخ) .. الحكيم لا يعيث ، والقوي العادل لا يحابي ، وإذن فالتكليف عام ، والمسؤولية تشمل الجميع . وتقدم مثله في الخطبة ٦٣ و ٨٤ (وعلم مبلغ نعمه عليكم) فن شكرها فهو عند الله من المحسنين ، ومن كفر بها فهو من الخاسرين (فاستفتحوه الخ) .. أطيعوه والتجثوا اليه تعالى ، واسألوه وحده ، فيزيدكم من فضله . وروي ان كريماً قضى حاجةً لسائل ، وبعد أيام جاء اليه وقال : أنا الذي قضيت حاجته يوم كذا . فقال له : مرحباً لمن توسل الينا بنا .

(فما قطعكم عنه حجاب الخ) .. باب الله مفتوح لداعيه ، وحجابه مرفوع لراجيه ، والطريق اليه سهل يسير : الاخلاص في الدعاء ، والصدق في الرجاء . وأقسم اني طريقه ، فنلتُ أكثر مما أملت (وانه لبكل مكان) بعلمه وعنايته . وتقدم مرات ، منها في الخطبة ١٧٦ (وفي كل حين وآن) لانه سرمدى دائم (ومع كل إنس وجان) هو معكم أينما كنتم بعلمه وعنايته ، وعليه فهو عطف تفسير على ما قبله (لا يثلمه العطاء) لا تنقص خزائنه بالنوال (ولا ينقصه الجباء) عطف تفسير (ولا يستنفده سائل) . لو أعطى السائلين أضعاف ما سألوا ما أثر ذلك في ملكه وكرمه ، وتقدم في الخطبة ٨٩ .

(ولا يستقصيه نائل) . لا حد ولا نهاية لجوده ، واذن فن يستوعبه ويستقصيه ؟ (ولا يلويه شخص الخ) .. لا يذهله ويصرفه شيء عن شيء ، لانه محيط بكل شيء . وتقدم في الخطبة ١٧٦ و ١٨٠ (ولا تحجزه هبة عن سلب) . ارتبك الشارحون في تفسير هذه الجملة ، والذي نفهمه منها انه تعالى قد يعطي نعمة الدنيا لمن يكره ، ويمنعها عن من يحب ، فلا الكراهة تمنعها ، ولا الحب يوجبها ما دامت الحكمة هي الموجب والمقياس ، واستوحينا هذا المعنى من الجملة التالية بلا فاصل وهي (ولا يشغله غضب عن رحمة) أي قد يرحم من غضب عليه ، ويعفيه في الدنيا من البلوى ، وفي الوقت نفسه يبتلي من رضي عنه بأشد النوايب على حسب الحكمة .

(ولا توله رحمة عن عقاب) . الله كريم ، ما في ذلك ريب ، فإذا منع العطاء عن عبد من عبيده فلا ينتفي عنه وصف الكرم ، لأن المنع كان لسبب

موجب ، وأيضاً الله رحيم ، وإذا عاقب فلا ينتهي عنه وصف الرحمة، لأن العقاب كان لسبب موجب (ولا يجنه البطون عن الظهور ، ولا يقطععه الظهور عن البطون) . لا يجنه أي لا يستره ، والمعنى هو الباطن بذاته،الظاهر بآثاره (قرب) من كل شيء بعلمه وعنايته. (فنأى) عن كل شيء بذاته وصفاته . ليس كمثله شيء وسبق في الخطبة ٤٩ و ٦٤ وجاء في الخطبة ٨١ « علا بجوله » أي بسلطانه وقوته « ودنا بطوله » أي بفضله وإحسانه (ودان ولم يُدَن) . « لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون — ٢٣ الأنبياء » .

(لم يدرأ الخلق باحتيال) . المراد بالاحتيايل هنا المهارة ودقة النظر ، ومن ذلك قولهم : فلان حسن الحيلة . والله يقول للشيء كن فيكون (ولا استعان بهم لكلال) . ضمير « بهم » الى الخلق ، والكلال التعب ، والله يعين ولا يعان ، والتعب للعاجز . وتقدم في الخطبة ١٨٤ (فإنها الزمام والقوام). تقود التقوى الى كل خير ، وهي العباد الذي يركز عليه نظام الحياة (فتمسكوا بوثائقها الخ) . من أخذ بالتقوى فقد فاز دنياً وآخرة. وتقدم الكلام عن ذلك بالتفصيل في الخطبة ١٨٩ فقرة «التقوى» (في يوم تشخص الخ) .. يشير الى يوم القيامة وأهواله . وتقدم في الخطبة ١٠٧ (فلا شفيح الخ) .. ولا شيء يجدي يوم الدين إلا التقوى ، ولا يقل معها عمل ، وكيف يقل ما يقبل ؟ كما قال الإمام .

وبعد ، فإن الإيمان بالله يدخل في مفهومه الإيمان بعدله ، ولا يستقيم مع العدل الإلهي أن يستوي البر والفاجر ، ونقلت المسيء من العقاب ، ويحرم المحسن من الثواب « أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستون — ١٨ السجدة » .

الخطبة

- ١٩٤ -

بادروا الفوت :

بَعَثَهُ حِينَ لَا عِلْمَ قَائِمٌ . وَلَا مَنَارٌ سَاطِعٌ . وَلَا مَنَهْجٌ وَاصِحٌ .
 أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ .. وَأَحْذَرُكُمْ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا دَارُ شُخُوصٍ ،
 وَمَحَلَّةُ تَنَغِيصٍ . سَاكِنُهَا ظَالِعٌ . وَقَاطِنُهَا بَائِنٌ . يَمِيدُ بِأَهْلِهَا
 مَيْدَانَ السَّفِينَةِ تَقْصِفُهَا الْعَوَاصِفُ فِي لُجَجِ الْبِحَارِ . فَمِنْهُمْ الْغَرِقُ
 الْوَبْقُ . وَمِنْهُمْ النَّاجِي عَلَى بُطُونِ الْأَمْوَاجِ تَحْفِزُهُ الرِّيَّاحُ بِأَذْيَالِهَا ،
 وَتَحْمِلُهُ عَلَى أَهْوَالِهَا . فَمَا غَرِقَ مِنْهَا فَلَيْسَ بِمُسْتَدْرَكٍ ، وَمَا نَجَا مِنْهَا
 فَإِلَى مَهْلِكٍ . عِبَادَ اللَّهِ الْآنَ فَاعْلَمُوا وَالْأَلْسُنُ مُطْلَقَةٌ ، وَالْأَبْدَانُ
 صَحِيحَةٌ ، وَالْأَعْضَاءُ لَذَّةٌ ، وَالْمُنْقَلَبُ فَسِيحٌ ، وَالْمَجَالُ عَرِيضٌ ،
 قَبْلَ إِرْهَاقِ الْفَوْتِ ، وَحُلُولِ الْمَوْتِ . فَحَقِّقُوا عَلَيْكُمْ نُزُولَهُ ، وَلَا
 تَنْتَظِرُوا قُدُومَهُ .

اللغة :

دار شخوص : فراق وانتقال . والتنغيص : التكدير . وظاعن : راحل .
 وقاطن : مقيم . وبائن : مفارق . وتميد : تضطرب . ولجج : جمع لجة أي
 معظم الماء . والوبق : الهالك . ولدنة : لينة . والمراد بالإرهاق هنا اقتراب
 الأوان .

الإعراب :

فما غرق « ما » اسم موصول مبتدأ ، وجملة فليس بمستدرك خبر ، وقبل
 إرهاق متعلق بإعملوا .

المعنى :

(بعثه حين لا علم قائم الخ) .. الضمير في بعثه لرسول الله (ص) ، وعلم
 - بفتح اللام - والمراد منه ومن النار واحد ، والمنهج الطريق . وكل دعوة
 للصالح والإصلاح هي نتيجة لوجود الفساد ، فالدعوة الى التوحيد نتيجة لوجود
 الشرك ، والدعوة الى العلم نتيجة لانتشار الجهل . وبعث سبحانه محمداً (ص) حيث
 ساد الضلال والجاهلية ، ولا آمر وزاجر .

(وأحذر كم الدنيا الخ) . ليعمر الانسان في الحياة الدنيا نهاية ، والآخرة هي
 دار الخلود ، ومن حصر طموحه في ملذات الدنيا وكفى فقد آثر الزائل على
 الدائم ، ولذة ساعة على سعادة الأبد .. هذا ، الى ان ما من سرور في الدنيا
 إلا وهو مشوب بحزن وكدر (تميد بأهلها الخ) . كل بني آدم هدف للرزايا
 والخطوب ، لا يسلم منها واحد . ومن تخطاه الكدر في يومه فلن يفلت منه في
 غده تماماً كقوم في سفينة أصابها إعصار فاختلف توازنها ، وذهب تماسكها ، وتناثر
 ما فيها ومن فيها .. واذا أسعف القدر ، ونجا واحد الى البر بطريق أو آخر ،
 فأمامه ما يلحقه بالرفاق .

(الآن فاعلموا الخ) .. وفي بعض النسخ فاعملوا ، وهو أنسب بالسياق

(والألسن مطلقه الخ) .. بأدروا العمل ، وأنتم في سلامة من عقلكم ، وصحة من أجسامكم (والمتقلب فسيح السخ) .. الفرصة مؤاتية ، والتسوية يفوت المقصود ، والعاقل يأخذ بالحزم ، وينتهاز الفرص ، والأمل فيما بعد مع القدرة الآن - تقصير وحق (فحققوا عليكم نزوله) . اعملوا كأنكم ترون الموت مجسماً أمام أعينكم، وأنه لا يمهلك إلا بمقدار ما تعملون وتتزودون لآخرتكم (ولا تنتظروا قدومه) لأنه يأتيكم على غفلة .

الخطبة

- ١٩٥ -

مواساة علي للنبي :

وَلَقَدْ عَلِمَ الْمُسْتَحْفَظُونَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنِّي
لَمْ أَرُدَّ عَلَى اللَّهِ وَلَا عَلَى رَسُولِهِ سَاعَةً قَطُّ . وَلَقَدْ وَاسَيْتُهُ بِنَفْسِي
فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي تَنْكُصُ فِيهَا الْأَبْطَالُ ، وَتَتَأَخَّرُ فِيهَا الْأَقْدَامُ
نَجْدَةً أَكْرَمَنِي اللَّهُ بِهَا . وَلَقَدْ قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ
وَأَبْرَأَ رَأْسُهُ لَعَلَّيْ صَدْرِي . وَلَقَدْ سَأَلْتُ نَفْسَهُ فِي كَفِّي فَأَمَرَتْهَا
عَلَى وَجْهِي . وَلَقَدْ وَلَّيْتُ غُسْلَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَالْمَلَائِكَةُ
أَعْوَابِي ، فَضَجَّتِ الدَّارُ وَالْأَفْنِيَةُ مَلَأُ يَهْبِطُ وَمَلَأَ يَعْزُجُ وَمَا فَارَقَتْ
سَمْعِي هَيْئَةً مِنْهُمْ . يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى وَارَيْنَاهُ فِي ضَرْبِهِ . فَتَنَ ذَا
أَحَقُّ بِهِ مِنِّي حَيًّا وَمَيِّتًا ؟ فَاغْفِرُوا عَلَيَّ بِصَائِرِكُمْ ، وَلْتَصَدَّقَ نِيَّاتُكُمْ

فِي جَهَادٍ عَدُوَّكُمْ . فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنِّي لَعَلِّي جَادَّةٌ الْحَقِّ
وَلَا إِلَهُمْ لَعَلِّي مَزَلَّةٌ الْبَاطِلِ . أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي
وَلَكُمْ .

اللغة :

المستحفظون : مستودعو الأمانة . وواسيته وآسيته بمعنى واحد أي عاونته .
والنجدة : الشجاعة . وأفنية : جمع فناء — بكسر الفاء — ما اتسع أمام الدار
أي ساحته . والهيمنة : الصوت الخفي . والمزلة : موضع الزلل .

الإعراب :

نجدة نصب على المصدرية أي نجدت نجدة ، فن ذا « من » استفهام فيه معنى
الإنكار ، ومحملها الرفع بالابتداء ، وذا مبتدأ ثان ، وأحق خبره ، والجملة خبر
الأول ، ويجوز أن تكون « من ذا » كلمة واحدة بمعنى أي انسان ، وتكون
كلمة أحق خبراً لمن ذا ، وحياً حال من الضمير في « به » .

المعنى :

(ولقد علم المستحفظون من أصحاب محمد (ص) الخ) .. هم علماء الصحابة
الذين أمرهم الله تعالى أن يحفظوا شريعته ، ويبلغوها للتابعين كما سمعوها من رسول
الله (ص) بلا تحريف وتزييف . ويستشهد الإمام هؤلاء الحفظة على أنه كان أطوع
لرسول الله من بنائه ، وأنه ما ردّ ولا تردد في شيء من أمره حتى كأنهما نفس
واحدة . وليس الإمام بحاجة إلى الشهادة والشاهد بعد أن شهد الحاكم نفسه ،
وقال (ص) لعلي بصراحة : « أنت مني ، وأنا منك » .

نقل هذا الحديث صاحب كتاب فضائل الخمسة من الصحاح الستة ، نقله عن

اصحيح البخاري باب الصلح طبعة مصر سنة ١٣٢٠ هـ . وعن صحيح الترمذي ج ٢ ص ٢٢٩ طبعة بولاق سنة ١٢٩٢ هـ . وعن مسند أحمد ج ١ ص ١٠٨ طبعة مصر سنة ١٣١٣ .

(وقد واسيته بنفسه الخ) .. في كتاب الرياض النضرة عن الإمام أحمد والطبري والمتقي ج ٢ ص ١٧٢ الطبعة الأولى بمطبعة الاتحاد المصري : « ان علياً لما قتل أصحاب الألوية يوم أحد قال جبريل : يا رسول الله : ان هذه لهي المساواة . فقال النبي : ان علياً مني وأنا منه . فقال جبريل : وانا منك يا رسول الله . وتقدم الكلام في هذا الموضوع بالتفصيل في شرح الخطبة ١٩٠ فقرة : النبي وعلي .

(ولقد قبض رسول الله (ص) وان رأسه لعلى صدري) . نقل صاحب « فضائل الخمسة من الصحاح الستة » عن طبقات ابن سعد ج ٢ القسم ٢ ص ٥١ طبعة ليدن سنة ١٣٢٢ هـ . وعن « مجمع الزوائد » للهيتمي ج ١ ص ٢٩٣ طبعة سنة ١٣٥٢ هـ . الناشر مكتبة المقدسي ، نقل عن هذين وغيرهما : « ان رسول الله (ص) قبض ، ورأسه في حجر علي » .

(ولقد سألت نفسه في كفي ، فأمرتها على وجهي) . المراد بنفسه دمه (ص) . والنفس في اللغة تطلق على الدم ، يقال : دقق نفسه أي دمه . وقال الشيخ محمد عبده : « روي ان النبي (ص) قاء في مرضه دمأ يسيراً ، فتلقى دمه أمير المؤمنين في يده ، ومسح به وجهه » . (ولقد وليت غسله) روى ذلك كثير من أهل السير والتاريخ ، منهم الإمام ابن حنبل في مسنده ، وابو نعيم في حليته ، وابن سعد في طبقاته . (أنظر كتاب فضائل الخمسة) .

(والملائكة أعواني الخ) .. قال ابن أبي الحديد : « أما حديث الهينمة وسماع الصوت فقد رواه خلق كثير من المحدثين » . وقال الغزالي في « إحياء العلوم : إن الملائكة بأجمعها دخلت على النبي (ص) بعد موته ، وصلت عليه . » (فن ذا أحق به مني حياً وميتاً ؟) . نشأ الإمام في حجر النبي (ص) وكفاه الكثير من أموره قبل البعثة ، وبعد نزول الوحي كان أول من آمن بمحمد (ص) وصلى معه من الذكور ، وأول من فداه بنفسه — أنظر شرح الخطبة ١٩٠ — وضرب بين يديه بالسيف ، وهو في مقتبل العمر ، وقتل أبطال الشرك والضلال ، وفرج هموم النبي ، وواساه بنفسه في كل موطن ، وكان له شرف خدمته

وتمريرضه وملازمته عند الاحتضار ، ثم شرف غسله وتجهيزه ، وغيره من الصحابة في سقيفة بني ساعدة يتصارعون على الخلافة وسلطان محمد (ص) .. وكان الإمام بعلمه وأخلاقه امتداداً لشخصية النبي (ص) وبهذا الامتداد المحمدي ، وهذه الروح النبوية « حافظ على حيوية الحماة الأصلية في نفوس شطر من المؤمنين » على حد ما قال الفيلسوف الانكليزي الشهير « برتراند رسل » في كتاب السلطان ص ٦٥ طبعة آذار ١٩٦٢ . ألا تنطق هذه الحلال والكثير من أمثالها بأن الإمام أولى الناس بحب النبي حياً ، وبخلافته ميتاً ؟ .

(فانفذوا على بصائركم) يخاطب الإمام بهذا أصحابه ويقول لهم : امضوا الى قتال عدوكم ، فأنتم على بصيرة من أمركم ، وما عليكم إلا الصدق في النية ، والثبات على عزم الجهاد (فوالذي لا إله إلا هو) ان الجهاد مع الإمام كالجهاد مع رسول الله (ص) وان الجهاد مع التاكثين والقاسطين والمارقين كالجهاد مع أبي سفيان في بدر وأحد والأحزاب . قال المستشرق الألماني « فلهوزن » في كتاب « تاريخ الدول العربية » ص ٧٦ طبعة ١٩٥٨ : « ان رجالاً اقتحموا الموت من أجل علي هم أقوى دليل على انه مع الحق ، ونذكر منهم عبدالله بن ديل ، وهاشم بن عتبة ، وخصوصاً عمار بن ياسر الصحابي المسن الذي قال النبي فيه : سقتله الفئة الباغية » (انظر شرح الخطبة ١٧١ فقرة : « من هو الخليفة ؟ ») . وقال ابن الجوزي في كتاب « صيد الخاطر » ص ٣٨٥ : « لا يختلف العلماء ان علياً لم يقاتل أحداً إلا والحق معه لقول النبي : اللهم أدِرْ معه الحق كيفما دار » .

وبعد ، فقد شرحت كلمات هذه الخطبة بما جاء في كتب الثقات من أهل السنة ، لأن العلم يستمد قوته - في موضوعنا - من فلسفة الذي يخاطبه ، لا من عقيدة المتكلم وكفى . وأنا أكتب لكل راغب أياً كان دينه ومذهبه . وقد شرح صاحب « منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة » - هذه الخطبة بستين صفحة مملأها بروايات من البحار والصابي وزهر الربيع والكافي ، ولا أدري هل يجد قارئاً لها ؟ والقارئ الشيعة لا يحتاج الى هذا الإسراف ، ولا يهتم إلا بفهم المعنى المراد ، وغير الشيعة لا يقتنع إلا بمنطقه وفلسفته .

الخطبة

- ١٩٦ -

التقوى دواء .. فقرة ١ - ٣ :

يَعْلَمُ عَجِيجَ الْوُحُوشِ فِي الْفَلَوَاتِ ، وَمَعَاصِيَ الْعِبَادِ فِي الْخَلَوَاتِ ،
وَأَخْتِلَافَ النَّيْنَانِ فِي الْبِحَارِ الْغَامِرَاتِ ، وَتَلَاظُمَ الْمَاءِ بِالرِّيَّاحِ الْعَاصِفَاتِ
وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا نَجِيبُ اللَّهِ وَسَفِيرُ وَحْيِهِ وَرَسُولُ رَحْمَتِهِ . أَمَّا بَعْدُ ،
فَإِنِّي أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّذِي ابْتَدَأَ خَلْقَكُمْ ، وَإِلَيْهِ يَكُونُ مَعَادُكُمْ ،
وَبِهِ نَجَاحُ طَلِبَتِكُمْ ، وَإِلَيْهِ مُنْتَهَى رَغْبَتِكُمْ ، وَنَحْوُهُ قَصْدُ سَبِيلِكُمْ ،
وَإِلَيْهِ مَرَامِي مَفْرَعِكُمْ^(١) . فَإِنَّ تَقْوَى اللَّهِ دَوَاءٌ دَاءِ قُلُوبِكُمْ ، وَبَصَرُ
عَمَى أَفْنِدَتِكُمْ ، وَشِفَاءُ مَرَضِ أَجْسَادِكُمْ ، وَصَلَاحُ فَسَادِ صُدُورِكُمْ ،
وَطَهْرُ أَنْفُسِكُمْ ، وَجَلَاءُ عَشَا أَبْصَارِكُمْ وَأَمْنُ فَرْعِ جَاشِكُمْ ، وَضِيَاءُ
سَوَادِ ظُلُمَتِكُمْ . فَاجْعَلُوا طَاعَةَ اللَّهِ شِعَاراً دُونَ دِثَارِكُمْ ، وَدَخِيلَا دُونَ
شِعَارِكُمْ ، وَلَطِيفَا بَيْنِ أَضْلَاعِكُمْ وَأَمِيرَا فَوْقَ أُمُورِكُمْ ، وَمَنْهَلَا لِحِينِ

وَرُودِكُمْ ، وَشَفِيعاً لِدَرْكِ طَلَبَتِكُمْ وَجَنَّةٍ لِيَوْمِ فَرَعِكُمْ ، وَمَصَايِجَ
لِبُطُونِ قُبُورِكُمْ ، وَسَكَنًا لِبَطُولِ وَحْشَتِكُمْ ، وَنَفْسًا لِكُرْبِ
مَوَاطِنِكُمْ^(٢) . فَإِنَّ طَاعَةَ اللَّهِ حِرْزٌ مِنْ مَتَالِفِ مُكْتَنِفَةٍ ، وَخَافٍ
مُتَوَقِّعَةٍ ، وَأَوَارٍ نِيرَانِ مُوقَدَةٍ . فَمَنْ أَخَذَ بِالتَّقْوَى عَزَبَتْ عَنْهُ
الشَّدَايِدُ بَعْدَ ذُنُوبِهَا ، وَأَحْلَوْلَتْ لَهُ الْأُمُورُ بَعْدَ مَرَارَتِهَا ، وَأَنْفَرَجَتْ
عَنْهُ الْأُمُوجُ بَعْدَ تَرَائِكُمِهَا ، وَأُسْهَلَتْ لَهُ الصُّعَابُ بَعْدَ إِنْصَابِهَا ،
وَهَطَلَتْ عَلَيْهِ الْكَرَامَةُ بَعْدَ قُحُوطِهَا ، وَتَحَدَّثَتْ عَلَيْهِ الرَّحْمَةُ بَعْدَ
نُفُورِهَا ، وَتَفَجَّرَتْ عَلَيْهِ النِّعَمُ بَعْدَ نُضُوبِهَا ، وَوَبَلَّتْ عَلَيْهِ الْبَرَكَةُ
بَعْدَ إِرْذَاذِهَا . فَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَفَعَّلُكُمْ بِمَوْعِظَتِهِ ، وَوَعَّظْكُمْ بِرِسَالَتِهِ ،
وَأَمَّنْ عَلَيْكُمْ بِبِنْعَمَتِهِ . فَعَبِّدُوا أَنْفُسَكُمْ لِعِبَادَتِهِ ، وَآخِرُجُوا إِلَيْهِ
مِنْ حَقِّ طَاعَتِهِ^(٣) .

اللغة :

العجيج : رفع الصوت . والنينان : جمع نون أي الحوت . والغامرات :
المياه تغمر الأشياء وتغطيها . والنجيب : المختار . والسفير : الرسول يمثل من
أرسله . والمفزع : الملجأ . وجأش قلبه : اضطرب من حزن أو خوف . والشعار:
الثوب الداخلي يلصق بالبدن . والدثار فوق الشعار . والدرك : اللحاق والإدراك .
والجنة — بضم الجيم — الوقاية . والأوار : حرارة النار . وعزبت : غابت .
والإنصاب : الإنعاب . وتحدثت : عطفت . ونضب الماء : غار . والرذاذ
والارذاذ : مطر خفيف .

الإعراب :

ولايه خبر مقدم ليكون معادكم ، وبه نجاح أي ويكون به نجاح ، ومثله ما بعده ، ودخيلاً وما بعده من المنصوبات عطف على « شعاراً » وأوار عطف على متالف ، وعبّدوا فعل أمر .

المعنى :

تكلم الإمام (ع) في هذه الخطبة عن التقوى والنبي (ص) والإسلام والقرآن ، وهذه الموضوعات — كما ترى — متماثلة متشابكة ، فالحديث عن واحد منها حديث عن الجميع بخاصة القرآن والإسلام .. هذا ، الى أن الإمام تكلم عن ذلك بأسلوب خطابي لغرض الإقناع بإعداد النفوس وإثارتها وتشويقها . ومن شروط الأسلوب الخطابي الفصاحة والتوكيد والترديد وضرب الأمثال مع الحماسة وحسن الأداء والإيقاع ، وكل ما له صلة بالوصول الى الغرض المطلوب ، وهو تحريك الجماهير التي لا تعرف التعقل والتبصر . ومن البدهة ان مجال التفسير والتعليل هو للقضايا العقلية والفلسفية لا الخطابات الحماسية ، ومن أجل هذا نكتفي من الكلام بما يشبه التعليق ، كما فعل ابن أبي الحديد على خلاف عادته في شرح سائر الخطب .

(يعلم عجيبي الوحوش الخ) .. هذا تعظيم وتمجيد لله تعالى ، لأن كل من آمن بالله يعلم بأنه خير عليم .. وقد يكون الغرض النهي عن الخيانة في السر ، لأن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون (وأشهد أن محمداً الخ) .. أمين الله على وحيه ، وصفية من خلقه ، وقائد الخير ومفتاح البركة (أوصيكم بتقوى الله الذي ابتدأ خلقكم) هو سبحانه بدأ الخلق ثم يعيده (وبه نجاح طلبتكم) اليه وحده ترفع الحاجات ، وعنده نيل الطلبات (واليه منتهى رغبتكم) هو المقصود بالرغبة دون سواه . (ونحوه قصد سبيلكم) . اقصدوا الله فيما أهمكم (واليه مرامي مفزعكم) الجأوا اليه ، ولوذوا به (فإن التقوى دواء داء قلوبكم) تشفيها من الآثام كالحق والوهم والنفاق .

(وبصر عني أفثدتكم) . ويتفق هذا بظاهره مع قول الصوفية : إن تحرير النفس من قيود الجسم ومطالبه — طريق للمعرفة .. ولكن مراد الإمام ان الهوى

يُعْمِي وَيُصِمُّ عَنِ الْحَقِّ وَالْوَاقِعِ (وَشَفَاء مَرَضِ أَجْسَادِكُمْ) . لِأَنَّ التَّقْوَى تُلْزِمُ بِتَعَالِيمِ الْإِسْلَامِ أَيْ كَانَ نَوْعُهَا ، وَالْإِسْلَامُ يَنْهَى عَنِ التَّخَمُّعِ لِأَنَّهَا رَأْسُ كُلِّ دَاءٍ ، وَيَأْمُرُ بِالْحِمَاةِ لِأَنَّهَا أَصْلُ كُلِّ دَوَاءٍ (وَصَلَاحُ فَسَادٍ - إِلَى - أَبْصَارِكُمْ) عَطْفٌ تَفْسِيرٌ عَلَى دَوَاءِ دَاءِ قُلُوبِكُمْ ، وَبَصَرٌ عَمَى أَفْئِدَتِكُمْ (وَأَمِنْ فَرْعِ جَاشِكُمْ) . التَّقْوَى أَمَانٌ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ .

(وَضِيَاءُ سَوَادِ ظَلَمْتِكُمْ) . الْمُتَّقِي يَنْظُرُ إِلَى نَفْسِهِ بِعَيْنِ الصَّدْقِ وَالْوَاقِعِ لَا بِعَيْنِ الْغُرُورِ وَالْجَهْلِ الْمَرْكَبِ ، وَيَلُومُ نَفْسَهُ قَبْلَ أَنْ يَلُومَ الْآخَرِينَ ، وَيَرَى مِنْهُمْ أَحْسَنَ الصِّفَاتِ ، وَمِنْ نَفْسِهِ أَصْغَرَ السِّثَاتِ ، وَيَعْتَرِفُ بِأَخْطَاةِهِ وَيَحَاوِلُ تَفَادِيَهَا ، وَيَنْسِي وَيَغْفِرُ ، وَلَا يَهْرَبُ مِنَ الْوَاقِعِ بِالْمَكْرِ وَالْخِدَاعِ (فَاجْعَلُوا طَاعَةَ اللَّهِ شِعَاراً - إِلَى - أَضْلَاعِكُمْ) الدُّثَارُ ظَاهِرٌ ، وَالْمَرَادُ بِالشَّعَارِ وَالنَّخِيلِ وَاللَّطِيفِ بَيْنَ الْأَضْلَاعِ - الْخَفِيِّ الْمُسْتَوْرٍ ، وَالْمَعْنَى اجْعَلُوا طَاعَةَ اللَّهِ فِي السَّرَائِرِ لَا فِي الْمَظَاهِرِ ، وَفِي الْأَفْعَالِ لَا فِي الْأَقْوَالِ .

(وَأَمِيراً فَوْقَ أُمُورِكُمْ) . اصْدُرُوا فِي أَفْعَالِكُمْ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَمَرْضَاتِهِ لَا عَنْ الْمَصَالِحِ وَالْمَطَالِبِ الشَّخْصِيَّةِ (وَمِنْهَلًا لِحَيْنِ وَرُودِكُمْ) . طَاعَةُ اللَّهِ هِيَ الْمَنْهَلُ الْعَذْبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيْ تُوْدِي إِلَيْهِ (وَشَفِيعاً لِدَرْكِ طَلِبَتِكُمْ) . أَبْدَأْ لَا شَفَاعَةَ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا التَّقْوَى وَالطَّاعَةَ (وَجَنَّةً لِيَوْمِ فَرْعِكُمْ) طَاعَةُ اللَّهِ وَقَايَةُ مِنْ عَذَابِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (وَمَصَابِيحٌ لِبَطْنِ قُبُورِكُمْ) . الْعَبْدُ الصَّالِحُ يَسْتَضِيءُ فِي قَبْرِهِ بِنُورِ عَمَلِهِ (وَسَكَنًا لَطُولِ وَحْشَتِكُمْ) . الْمَرَادُ بِالسَّكَنِ هُنَا مَا تَطْمَئِنُّ بِهِ النَّفْسُ ، وَتَأْنِسُ بِهِ ، قَالَ تَعَالَى : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا - ٢١ الرُّومِ » وَكَذَلِكَ طَاعَةُ اللَّهِ تُوْنِسُ الْمَيِّتَ فِي لَحْدِهِ .

(وَنَفْسًا لِكَرْبِ مَوَاطِنِكُمْ) . نَفْسًا - بَفَتْحِ الْفَاءِ - وَهُوَ التَّيْسِيرُ وَالتَّسْهِيلُ ، وَالْمَعْنَى أَنْ طَاعَةَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ تَسْهَلُ وَتَمْتَدُّ لِلنَّجَاةِ وَالْأَمَانِ (فَإِنَّ طَاعَةَ اللَّهِ حَرَزُ الْخَيْرِ) .. مِنْ الْمَهَالِكِ (وَمَنْ أَخَذَ بِالتَّقْوَى عَزَبَتْ عَنْهُ الْخَيْرُ) .. النِّقْمَةُ ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِ الرَّحْمَةُ (فَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي الْخَيْرُ) .. هَذَا كَمِ سَبِيلِ الرِّشَادِ ، وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً (فَعَبِّدُوا أَنْفُسَكُمْ) . عَبْدُ الطَّرِيقِ : مَهْدُهُ وَيَسِّرُهُ لِلْسَّيْرِ ، وَعَبْدُ النَّفْسِ : ذَلَّلَهَا وَجَعَلَهَا سَلْسَلَةَ الْقِيَادِ (لِعِبَادَتِهِ) الْمُخْلِصُ يَعْبُدُ اللَّهَ بِلَا تَأَفُّفٍ وَتَبَرُّمٍ ، عَلَى عَكْسِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ إِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى .

وبعد ، فإن الانسان يمتوي مع الحيوان في غريزة الجنس والطعام والشراب ، ويفترق عنه من وجوه ، وأظهرها ان في الانسان الاستعداد التام وقابلية العمل ليومه وغده ، ولا أثر لذلك في الحيوان ، ولا شيء عنده إلا الساعة التي هو فيها ، وإذن فن الضروري ان نستغل هذه القابلية ، ونعمل للعاجلة والآجلة معاً ، ولا نهتم بالأولى فحسب ، فإن حلاوة العاجلة تذهب مع الريح ، وتستحيل الى أسى ومرارة إلا من اتقى وأصلح .

الاسلام .. فقرة ٤ - ٦ :

ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْإِسْلَامَ دِينُ اللَّهِ الَّذِي أَصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ ، وَأَصْطَنَعَهُ عَلَى عَيْنِهِ ، وَأَضْفَاهُ خَيْرَةَ خَلْقِهِ ، وَأَقَامَ دَعَائِمَهُ عَلَى مَحَبَّتِهِ . أَذَلَّ الْأَدْيَانَ بَعِزَّتِهِ ، وَوَضَعَ الْمِلَلَ بِرَفْعِهِ ، وَأَهَانَ أَعْدَاءَهُ بِكَرَامَتِهِ ، وَخَذَلَ مُخَادِبِهِ بِنَصْرِهِ ، وَهَدَمَ أَرْكَانَ الضَّلَالَةِ بِرُكْنِهِ . وَسَقَى مَنْ عَطِشَ مِنْ حَيَاضِهِ ، وَأَتَقَّ الْخِيَاضَ بِمَوَاتِحِهِ^(١) . ثُمَّ جَعَلَهُ لَا أَنْفِصَامَ لِعُرْوَتِهِ ، وَلَا فَكَّ لِحِلْقَتِهِ ، وَلَا انْهْدَامَ لِأَسَاسِهِ ، وَلَا زَوَالَ لِدَعَائِمِهِ ، وَلَا انْقِلَاعَ لِشَجَرَتِهِ ، وَلَا انْقِطَاعَ لِمُدَّتِهِ ، وَلَا عَفَاءَ لِشَرَائِعِهِ ، وَلَا جَذَّ لِفُرُوعِهِ ، وَلَا ضَنْكَ لِطُرُقِهِ ، وَلَا وُعُوثَةَ لِسُهُولَتِهِ ، وَلَا سَوَادَ لَوَضْحِهِ ، وَلَا عِوَجَ لِإِتِّصَابِهِ ، وَلَا عَصَلَ فِي عُودِهِ . وَلَا وَعْثَ لِفَجْهِهِ ، وَلَا أَنْطِفَاءَ لِمَصْنَبِاحِهِ ، وَلَا مَرَارَةَ لِحَلَاوَتِهِ ، فَهُوَ دَعَائِمُ أَسَاحٍ فِي الْحَقِّ أَسْنَاخًا ، وَثَبَّتَ لَهَا أَسَاسًا وَيَنَاسِيعُ غَزُرَتْ عُيُونُهَا ، وَمَصَائِيعُ شَبَّتْ نِيرَانُهَا ، وَمَنَارُ اقْتَدَى بِهَا سَفَارُهَا ، وَأَعْلَامُ

قَصِدَ بِهَا فِجَاجَهَا ، وَمَنَاهِلُ رَوِيَّ بِهَا وَرَادُّهَا^(٥) جَعَلَ فِيهِ مُنْتَهَى
رِضْوَانِهِ ، وَذِرْوَةَ دَعَائِمِهِ ، وَسَنَامَ طَاعَتِهِ . فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ وَثِيقُ
الْأَرْكَانِ ، رَفِيعُ الثَّنِيَّانِ ، مُنِيرُ الْبُرْهَانِ ، مُضِيءُ النِّيرَانِ ، عَزِيزُ
السُّلْطَانِ ، مُشْرِفُ الْمَنَارِ مُعَوِزُ الْمَشَارِ . فَشَرُّفُوهُ وَأَتَّبِعُوهُ ، وَأَذُوا
إِلَيْهِ حَقَّهُ ، وَضَعُوهُ مَوَاضِعَهُ . ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَالْآلِ بِالْحَقِّ حِينَ دَنَا مِنَ الدُّنْيَا الْإِنْقِطَاعُ ، وَأَقْبَلَ مِنَ الْآخِرَةِ
الْإِطْلَاعُ . وَأَظْلَمَتْ بَهْجَتُهَا بَعْدَ إِشْرَاقِ ، وَقَامَتْ بِأَهْلِهَا عَلَى سَاقٍ .
وَحَشُنَ مِنْهَا مِهَادُ ، وَأَرِفَ مِنْهَا قِيَادُ . فِي أَنْقِطَاعٍ مِنْ مُدَّتِهَا ،
وَأَقْتِرَابٍ مِنْ أَشْرَاطِهَا ، وَتَصَرُّمٍ مِنْ أَهْلِهَا ، وَانْفِصَامٍ مِنْ حَلَقَتِهَا ،
وَانْتِشَارٍ مِنْ سَبَبِهَا ، وَعَفَاؤٍ مِنْ أَعْلَامِهَا ، وَتَكْشُفٍ مِنْ عَوْرَاتِهَا ،
وَقِصَرٍ مِنْ طُولِهَا . جَعَلَهُ اللَّهُ بَلَاغًا لِرِسَالَتِهِ ، وَكَرَامَةً لِأُمَمِهِ ،
وَرَبِيعًا لِأَهْلِ زَمَانِهِ ، وَرِفْعَةً لِأَعْوَانِهِ ، وَشَرَفًا لِأَنْصَارِهِ^(٦) .

اللغة :

اصطنعه على عينه : شرعه على علمه . وأصفاه خيرة خلقه : أثره به .
ومحاديثه : مخالفه . وأتاق الحياض : ملأها . وبمواتحه : بدلائه ، ومتح بها :
سقى بها . ولا انفصام : لا انكسار . والعفاء : ذهاب الأثر . والجد : القطع .
والوعوثة : الصعوبة . والوضح : البياض . والعصل : الاعوجاج . والفج :
الطريق الواسع بين جبلين . وأساخ هذا في هذا : أدخله فيه . وأسناخها : أصولها .
وسعوز المثار : تعجز العقول عن الإحاطة بأسراره .

الإعراب :

المفعول الثاني لجعله محذوف أي ثم جعله قوياً لا انفصام الخ .

من هو المشرع ؟

(ثم ان هذا الاسلام دين الله الخ) .. يفترق الاسلام عن سائر الأديان بأن سلطة التشريع لله وحده ، وان خالق الطبيعة هو واضع الشريعة ، وان النبي ليس له منها إلا التبليغ .. وفي كتب أصول الفقه للسنة بحث خاص في ان النبي هل له أن يجتهد ويحكم بما يرى ؟. فأجاز ذلك جماعة ، ومنعه آخرون . وقال الشيعة بكلمة واحدة : إن النبي لا يجتهد إطلاقاً ، ولا ينطق بحكم من الأحكام إلا عن الوحي بدليل ما رواه السنة والشيعة أن المسلمين كانوا يسألون النبي (ص) في كثير من الأحيان عن بعض أمورهم ، فيقول : ما عندي بهذا علم من الله ، ثم ينزل القرآن بالحكم ، فينبئهم النبي به . وكان يقول ويكرر : « إن أتبع إلا ما يوحى إلي - ١٥ يونس » .

ونعطف على ذلك ان القول بجواز الاجتهاد على النبي (ص) - يفتح لأعداء الاسلام الطعن والشك فيه ، وان بعضه من ظن الرسول واستحسانه ١. وعليه فقلت الزمام ، ويهبط الاسلام من السماء الى الأرض ١. كلا ، إن الاسلام واحد لا يتجزأ ، انه رسالة السماء من ألفه الى يائه ، ولا شائبة فيه للأرض وأهل الأرض : « إن هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى - ٦ النجم » .

والاسلام حين يجرد البشرية كلها من حق التشريع يجرد في الوقت نفسه كل انسان من حق السيطرة والاستعلاء على غيره ، ويضع الجميع على مستوى واحد أمام الله ، ولا يبقى لأحد فضلاً وامتيازاً على آخر إلا بما يقدم من عمل صالح ، وبالتالي يُبطل مزاعم الذين يرون لأنفسهم حقوقاً مقدسة . ومن بحث عن أسباب الآلام التي عانتها وتعانيها الآن الانسانية، وجدها أو وجد أكثرها يعود الى القوانين التي شرعها الانسان لمصلحته كفرد ، أو لمصلحة مجموعة من الأفراد يرتبط بهم المشرع بسبب من الأسباب .

أما الديانة المسيحية فإنها ربطت الدين بأصوله وفروعه ، ودعائمه وأحكامه ، ربطته بإرادة الكنيسة وربطتها بالدين خاطبهم انجيل متى الإصحاح ١٨ فقرة ١٨ ، وقال لهم : « كل ما تربطونه في الأرض يكون مربوطاً في السماء ، وكل ما تحلّونه على الأرض يكون محلولاً في السماء » . فالكنيسة هي تحلل وتحرم ، ثم تنسخ متى تشاء ما حلت وحرمت . ومن هنا جاء تجريد السيد المسيح من طبيعة الناسوت ، والغفران والحرمان ، وبيع أذرع في السماء والجنة ، وتحريم زواج الاكليروس ، ولكن الكنيسة الانكليزية التي حرمت الزواج على رجال الدين أباحت اللواط ، كما ان بابا روما برأ اليهود من دم السيد المسيح، وضرب بعرض الجدار النص الذي جاء في انجيل متى .. الى الكثير الكثير .. وكله حق من عند الله . ولا أدري كيف يتسبب « دين » الى الله ، وهو من أوهم الناس ؟.

وكان من نتيجة هذه السلطة ثورة الملوك والأقوياء في أوروبا على الكنيسة لتدخلها في شؤونهم ، وانفصال السياسة عن الدين ، ولكن الثورة انتقلت من الحاكمين الى داخل الاكليروس أنفسهم ، فندبض سنوات ثار جاعة منهم في هولندا على سلطة البابا . ومن مطالبهم الرئيسية السماح بالزواج لرجال الدين ، وقامت ثورة مماثلة في فرنسا وإيطاليا وألمانيا . ويستحيل أن يحدث هذا بين المسلمين لانفاق مذهبهم على ان التشريع لله وحده : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون — ٤٤ المائدة » .

(أذل الأديان بعزته الخ) .. وذلك بإظهاره على الدين كله أمداً غير قصير ، ثم بصموده مئات السنين ، وانتشاره شرقاً وغرباً على رغم تظاهر الأديان عليه ، ومحاربة أهلها له بكل سلاح .. والآن ، وفي القرن العشرين تقوم المساجد في ألمانيا وفرنسا وانكلترا وأمريكا ، ويرتفع صوت المؤذن من على المآذن بالشهادة لله بالوحدانية ، ولمحمد بالرسالة . ويبلغ عدد المسلمين اليوم أكثر من ٧٠٠ مليون .

وقرأت في جريدة « أخبار اليوم » المصرية تاريخ ٣١ - ١٢ - ١٩٦٦ ، نقلاً عن كتاب « الإسلام في التاريخ الحديث » لصاحبه « ويلفريد سميث » ما نصه بالحرف : ان الإسلام نتيجة لتمييزه بالقوة الروحية صمد للأحداث بعد انهيار الدولة العربية في بغداد عام ١٢٥٦ م . وأرغم الفاتحين من المغول والتتار الذين قضوا على الدولة الإسلامية ، أرغمهم الإسلام على اعتناقه ، مما أدى الى

تجدد الدولة الإسلامية بعد انتقال الحكم فيها من العرب الى الأتراك العثمانيين ،
ولى اتساع الرقعة الجغرافية للإسلام على أيدي الأتراك ، ولا شك في ان هذه
القوة الروحية هي التي مكّنت الإسلام من الصمود أمام السيطرة الغربية في السنوات
الآخيرة .

(وسقى من عطش من حياضه) أي من هدايته وعلمه (وأتاق الحياض
بموائحه) . هذا العلم الغزير في الإسلام هو من الله ، ومن فهمه فقد فهم عنه
تعالى (ثم جعله لا انفصام لعروته الخ) .. الإسلام قوي ومتين بأصوله ومبادئه .
ومهما تأخر المسلمون اليوم فإن العيب فيهم لا في الإسلام تماماً كالذي يأمر بالمعروف
ولا يحد من يسمع ، ودين السيد المسيح دين الحب والسلام ، وأكثر أتباعه
وحوش كاسرة يمتصون دماء الشعب بلؤم وقسوة .

قال « راسل » في كتاب « السلطان » فصل العقائد منابع السلطان : « لاريب
في ان الديانة التي جاء بها محمد كانت عنصراً أساسياً في النجاح الذي حققته بلاده
وحققه قومه .. وقد أظهر المسلمون منذ بداية عهدهم تسامحاً في التعامل مع
المسيحيين الذين أخضعوهم ، ولا ريب ان الفضل في سهولة فتوحاتهم واستقرار
امبراطوريتهم يعود الى هذا التسامح الذي يبدو بارزاً إذا ما قورن بالحماسة التعسفية
والاضطهادية التي عُرِفَت بها الكنيسة الكاثوليكية » .

(ولا انقلاع لشجرته، ولا انقطاع لمدته الخ) .. يومئذ الى ان الاسلام يصلح
لكل عصر ، فلا يتعارض مع العقل والعلم ، ولا يدعو الى الجمود، ولا يضر بأحد،
ولا يتسبب في التخلف، بل ان الصيحة لنهضة المسلمين وانقاذهم من الضعف والتخلف كانت
وما زالت مقرونة بالدعوة الى الحرص على الاسلام والعمل به ، وان أخوف ما
يخافه أعداء المسلمين أن يرجعوا الى كتاب ربهم وسنة نبيهم ، ومن هنا كان
تحديهم الرهيب للإسلام وشريعته وأهدافه .. ولا أدري متى يتحرك المسلمون ،
ويبعث فيهم هذا التحدي السافر روح اليقظة والنهضة ؟.

(ولا وعوثة لسهولته) . الاسلام رحمة للعالمين ، قال الرسول الكريم (ص) :
« بعثت بالحنفية السهلة السمحة » . وقال تعالى : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم
العسر — ١٨٥ البقرة » (ولا سواد لوضحه) خالص من كل شائبة تعوق الحياة
عن التقدم والانطلاق (ولا عوج لانتصابه الخ) .. لا ينقضه طعن ، ولا تثنيه

شبهة ، وبهذه افتراء ، لأنه الحق المبين والصراط القويم (فهو دعائم أساخ في الحق أسناخها) وثيق الأركان ، رفيع البنيان ، كما يأتي بعد قليل (وينابيع غزرت عيونها) أي كثرت علوم الاسلام وفوائده (ومصاييح شبت نيرانها) واضح الدلالة لا غموض فيه ولا تعقيد (ومناراً اقتدى بها سفارها) أي المسافرون ، والمراد بهم العلماء ، وان الاسلام يهديهم للتي هي أقوم ، ليهدوا بدورهم غيرهم (وأعلام قصد بها فجاجها) أي طرقها ، والأعلام تدل عليها ، وإذا سار المسافرون على هذه الطرق انتهت بهم الى مقاصدهم .

(ومناهل روي بها واردها) من نهل من معين الاسلام فلا يظماً (جعل الله فيه منتهى رضوانه) «رضيت لكم الاسلام ديناً - ٣ المائدة» (وذروة دعائمه) يعلى الاسلام ، ولا يُعلى عليه (وسنام طاعته) من عمل بالاسلام بلغ من الطاعة لله أقصاها (فهو عند الله وثيق الأركان الخ) .. عطف تفسير على أساخ في الحق أسناخها وثبت لها أساسها (منير البرهان ، مضيئ النيران) عطف تفسير على مصاييح شبت نيرانها (عزيز السلطان) عطف تفسير على لا انهدام لأساسه ، ولا زوال لدعائمه (معوز المثار) لا يُدرك غباره ولا يُلحق مضماره (فشرّفوه) عظّموه وأحيوه بالعمل ، لا بالمظاهر (وضعوه في مواضعه) لا تتاجروا بالدين ، وتأكلوا به كما تأكل الفاجرة بلحمها . (انظر شرح الخطبة ٣٢ ، فقرة « المرائي والمومس » .

(ثم ان الله سبحانه بعث محمداً (ص) بالحق حين دنا من الدنيا الانقطاع) . المراد بالدنيا هنا دنيا أهل ذاك الزمان الذي بُعث فيه محمد (ص) وحياتهم ، والمراد بالانقطاع نهايتهم وهلاكهم بسبب الفساد والضلال (وأقبل من الآخرة الاطلاع) . المراد بالآخرة نهاية أهل ذاك الزمان المظلم ، وبإقبال الاطلاع قرب هذه النهاية . وتقدم مثله في الخطبة ٢٨ و ٥٢ .

(وأظلمت بهجتها بعد لإشراق) . رسالة محمد (ص) حلقة من سلسلة الرسائل السابقة التي أشرقت الدنيا بها كرسالة ابراهيم وعيسى وغيرها من الأنبياء ، ثم أظلمت الدنيا من بعدهم برهة من الزمن حتى ولد الهدى والنور بمولد رسول الله (ص) (وقامت بأهلها على ساق) . كناية عن عصر الجاهلية الجاهلاء ، وجرائمه وآثامه (وأزف منها قياد الخ) .. أوشكت الجاهلية المجرمة أن تقود أهلها الى الهلاك (واقترّب من اشراطها) أي اقتربت علامات النهاية . وتقدم مثله مرات ، منها في الخطبة ٨٧ .

وبالإيجاز ان العالم قبل رسالة محمد (ص) كان في ضلال مبين، فجاءت رسالته إيداناً بالتحول الخطير في حياة الأمة العربية، وحياة العالم كله من أقصاه الى أقصاه .

القرآن .. فقرة ٧ - ٨ :

ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْكِتَابُ نُورًا لَا تُمْسِكُهُ مُصَابِيحُهُ ، وَسِرَاجًا لَا يَخْبُو تَوَقُّدُهُ ، وَبَحْرًا لَا يُدْرِكُ قَعْرُهُ ، وَمِنْهَاجًا لَا يُضِلُّ نَهْجُهُ ، وَشُعَاعًا لَا يُظْلِمُ ضَوْؤُهُ ، وَفُرْقَانًا لَا يَخْمُدُ بُرْهَانُهُ ، وَبَيِّنَاتٍ لَا تَهْدِمُ أَرْكَانُهُ . وَشِفَاءٌ لَا تُخْشَى أَسْقَامُهُ ، وَعِزٌّ لَا تُهْزِمُ أَنْصَارُهُ ، وَحَقٌّ لَا تُخْذِلُ أَعْوَانُهُ .

فَهُوَ مَعْدِنُ الْإِيمَانِ وَبُحْبُوحَتُهُ ، وَبِنَايِيعُ الْعِلْمِ وَبُحُورُهُ ، وَرِيَاضُ الْعَدْلِ وَغُدْرَانُهُ ، وَأَثَافِي الْإِسْلَامِ وَبُنْيَانُهُ ، وَأَوْدِيَةُ الْحَقِّ وَغَيْطَانُهُ . وَبَحْرٌ لَا يَنْزِفُهُ الْمُسْتَنْزِفُونَ ، وَعُيُونٌ لَا يُنْضِبُهَا الْمَاتِحُونَ ، وَمَنَاهِلٌ لَا يُغِيضُهَا الْوَارِدُونَ ، وَمَنَازِلٌ لَا يُضِلُّ نَهْجَهَا الْمَسَافِرُونَ^(٧) . وَأَعْلَامٌ لَا يَغْنَى عَنْهَا السَّائِرُونَ وَآكَامٌ لَا يَجُوزُ عَنْهَا الْقَاصِدُونَ . جَعَلَهُ اللَّهُ رِيًّا لِعَطَشِ الْعُلَمَاءِ ، وَرَيِّعًا لِقُلُوبِ الْفُقَهَاءِ ، وَتَحَاجًّا لِبُطُونِ الصُّلَحَاءِ ، وَدَوَاءً لَيْسَ بَعْدَهُ دَاءٌ ، وَنُورًا لَيْسَ مَعَهُ ظُلْمَةٌ ، وَحَبْلًا وَثِيقًا عُزْوَتُهُ ، وَمَعْقِلًا مَنِيْعًا ذِرْوَتُهُ ، وَعِزًّا لِمَنْ تَوَلَّاهُ ، وَسِلَاقًا لِمَنْ دَخَلَهُ ، وَهُدًى لِمَنْ أَتَمَّ بِهِ ، وَغُدْرًا لِمَنْ أُنْتَحَلَهُ ، وَبُرْهَانًا لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ ، وَشَاهِدًا لِمَنْ خَاصَمَ بِهِ ، وَفَلَجًا لِمَنْ حَاجَّ بِهِ ، وَحَامِلًا لِمَنْ حَمَلَهُ ، وَمَطِيَّةً لِمَنْ أَعْمَلَهُ ، وَآيَةً لِمَنْ تَوَسَّمَ ، وَجَنَّةً لِمَنْ اسْتَلَامَ . وَعِلْمًا لِمَنْ وَعَى ، وَحَدِيثًا لِمَنْ رَوَى ، وَحُكْمًا لِمَنْ قَضَى^(٨) .

اللغة :

لا ينجو : لا ينجد . والمنهاج : الطريق . ونهج الأمر : أوضحه ، والثوب : أحاطه ، والطريق سلكه . وبجوحة الدار : وسطها وسعتها . والأثافي : يوضع عليها القدر . وغيطان : أراضٍ مطمئنة . لا ينزف : لا ينضب . والماتحون : مستخرجو الماء . وآكام : أراضٍ مرتفعة . والفالج : الظفر . وتوسم : تفرس .

الإعراب :

نوراً حال من الكتاب أي منيراً ، وجملة لا تُطفأ صفة للنور .

المعنى :

قبل أن نبدأ بشرح هذه الخطبة قلنا : ان الإمام (ع) تكلم فيها عن التقوى والنبي (ص) والإسلام والقرآن ، وان هذه الموضوعات الأربعة متماثلة متشابكة ، وبالحصوص الإسلام والقرآن ، فإنهما شيء واحد .

ولذا وصف الإمام القرآن بنفس الصفات التي وصف بها الإسلام ، وعلى سبيل التمثيل ان قوله عن القرآن : (نور لا تُطفأ مصابيح) مثل قوله السابق عن الإسلام : « لا انطفاء لمصابيح » وقوله هنا : (بجرأ لا يدرك قعره) كقوله هناك : « ينابيع غزرت عيونها » أي عيون دعائم الإسلام . وقوله : (لا ينضبها الماتحون) نظير « أتاق الحياض بمواتحه » .. الى قوله هنا : (لعطش العلماء) وهناك : « سقى من عطش » .. وهكذا ، بالإضافة الى أن التعبير هنا أوضح منه هناك ، وان الكلام عن القرآن تقدم في الخطبة ١٠٨ و ١٨١ . وإذن فما الغاية من الشرح والإعادة ؟

وبعد ، فإن وصف الله لكتابه يغني عن كل وصف : « ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم أجراً كبيراً — ٩ الإسراء » . أما الذي نزل القرآن على قلبه فوصفه بقوله : « من قرأ القرآن — أو من حفظ القرآن — فقد استدرج النبوة بين جنبيه غير أنه لا يوحى إليه » أي قرأ وفهم وعمل حيث أنزله النبي (ص) منزلة الأنبياء بلا وحي .

ونقل حسين هيكل في كتاب « حياة محمد » أقوالاً عن المستشرقين المسيحيين في صدق القرآن ، منها ما قاله « وليم موير » في كتابه حياة محمد ما نصه بالحرف : « ان كل ما في القرآن صورة صادقة كاملة لما أوحى به الى محمد ، ونستطيع أن نؤكد استناداً الى أقوى الأدلة ان كل آية من القرآن دقيقة في ضبطها تماماً كما تلاها محمد » . انظر ص ٣١ من كتاب « هيكل » عن محمد الطبعة التاسعة .. وحتى الآن ما عرفت البشرية كتاباً من نوع القرآن . والقول الفصل : « فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين - ٣٨ يونس » .

الخطبة

- ١٩٧ -

الصلاة والزكاة .. فقرة ١ - ٤ :

تَعَاهِدُوا أَمْرَ الصَّلَاةِ وَحَافِظُوا عَلَيْهَا ، وَاسْتَكْثِرُوا مِنْهَا ، وَتَقَرَّبُوا
بِهَا ، فَإِنَّهَا كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا . أَلَا تَسْمَعُونَ إِلَى جَوَابِ
أَهْلِ النَّارِ حِينَ سُئِلُوا : « مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ؟ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنْ
الْمُصَلِّينَ » وَإِنَّهَا لَتَخْتِ الذُّنُوبَ حَتَّى الْوَرَقِ ، وَتُطْلِقُهَا إِطْلَاقَ الرَّبْقِ
وَتُشَبِّهُهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِالْحِمَّةِ تَكُونُ عَلَى
بَابِ الرَّجُلِ فَهُوَ يَغْتَسِلُ مِنْهَا فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ خَمْسَ مَرَّاتٍ فَمَا عَسَى
أَنْ يَبْقَى عَلَيْهِ مِنَ الدَّرَنِ^(١) . وَقَدْ عَرَفَ حَقَّهَا رِجَالٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
الَّذِينَ لَا تَشْغَلُهُمْ عَنْهَا زِينَةُ مَتَاعٍ وَلَا قُرَّةُ عَيْنٍ مِنْ وَلَدٍ وَلَا مَالٍ .
يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ « رِجَالٌ لَا تُلِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ

وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نَصِيْبًا بِالصَّلَاةِ بَعْدَ التَّبَشِيرِ لَهُ بِالْجَنَّةِ لِقَوْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ « وَأُمِرُ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ، فَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ وَيَصْبِرُ عَلَيْهَا نَفْسُهُ »^(٢) .

ثُمَّ إِنَّ الزَّكَاةَ جُعِلَتْ مَعَ الصَّلَاةِ قُرْبَانًا لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ . فَمَنْ أَعْطَاهَا طَيِّبَ النَّفْسِ بِهَا فَإِنَّهَا تُجْعَلُ لَهُ كَفَّارَةً ، وَمِنَ النَّارِ حِجَازًا وَوِقَايَةً . فَلَا يُتَّبَعْنَهَا أَحَدٌ نَفْسُهُ ، وَلَا يُكْثَرَنَّ عَلَيْهَا لَهْفُهُ . فَإِنَّ مَنْ أَعْطَاهَا غَيْرَ طَيِّبِ النَّفْسِ بِهَا يَرْجُو بِهَا مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْهَا فَهُوَ جَاهِلٌ بِالسَّنَةِ مَغْبُوثُ الْأَجْرِ . ضَالُّ الْعَمَلِ . طَوِيلُ النَّدَمِ^(٣) . ثُمَّ آدَاءُ الْأَمَانَةِ ، فَقَدْ خَابَ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا . إِنَّهَا عُرِضَتْ عَلَى السَّمَوَاتِ الْمَبْنِيَّةِ ، وَالْأَرْضِينَ الْمَدْحُورَةِ ، وَالْجِبَالِ ذَاتِ الطُّوْلِ الْمَنْصُوبَةِ ، فَلَا أُطْوَلَ وَلَا أَعْرَضَ وَلَا أَعْلَى وَلَا أَعْظَمَ مِنْهَا . وَلَوْ أَمْتَنَعَ شَيْءٌ بِطُولٍ أَوْ عَرْضٍ أَوْ قُوَّةٍ أَوْ عِزٍّ لَا مَتَنَعَنَّ ، وَلَكِنْ أَشْفَقَنَّ مِنَ الْعَثْوِيَّةِ ، وَعَقَلَنَّ مَا جَاهِلَ مَنْ هُوَ أَضْعَفُ مِنْهُمْ وَهُوَ الْإِنْسَانُ « إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا » .

إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مَا الْعِبَادُ مُقْتَرِفُونَ فِي لَيْلِهِمْ وَنَهَارِهِمْ . لَطَفَ بِهِ خُبْرًا ، وَأَحَاطَ بِهِ عِلْمًا ، أَعْضَاؤُكُمْ شُهُودُهُ ، وَجَوَارِحُكُمْ جُنُودُهُ ، وَضَمَائِرُكُمْ عُيُونُهُ ، وَخَلَوَاتُكُمْ عِيَانُهُ^(٤) .

اللغة :

حت الورق عن الشجر : أسقطه ، وحت الشيء عن الثوب : حكه وأزاله .
والربق : حبل فيه عرى . والحة - بفتح الحاء وتشديد الميم - عين معدنية
يستشفى بها . ونصباً : تبعاً . ومقترفون : مكتسبون . وخبراً : علماً .

الإعراب :

فما عسى « ما » للاستفهام ، والمعنى أي شيء الخ .. واشتبه من قال هي
نافية ، وعسى تامة ، لا تحتاج الى خبر ، وفاعل يبقى ضمير مستتر يعود الى
« ما » وطيب النفس حال ، ومثله غير طيب النفس ، واداء الأمانة نصب على
المصدرية أي أدوا الأمانة ، وخبراً تمييز ، ومثله « علماً » .

الصلاة :

تكلم الإمام (ع) في هذه الخطبة عن الصلاة والزكاة والأمانة ، وفي الخطبة
١٠٨ و ١٩٠ تكلمنا عن الصلاة والزكاة تبعاً لإشارة الإمام اليها في هاتين الخطبتين ،
والآن نتناول منها بعض الجهات التي لم نتعرض لها فيما سبق ، من ذلك ما أشار
اليه الإمام بقوله :

(وانها لتحت الذنوب - الى - فما عسى أن يبقى عليه من الدرن) . يدل
هذا الكلام بظاهره على ان الصلاة حسنة لا تضر معها سيئة ، وان الله يغفر
سيئات المصلي مهما تضاعفت وتنوعت . وليس من شك ان هذا الظاهر يصطدم
مع حكم العقل والبديهة ، ومع قوله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ،
ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره - آخر الزلزلة » . فما هو وجه الجمع ؟

الجواب :

لا أحد يجراً على الزعم والادعاء أنه منزّه عن التقصير والخطأ إلا جاهل مغرور
حاشا الانبياء .. والخطيئة أنواع ، ولكل نوع درجات ، فهناك حق الله وحق
الناس ، وهناك الكبيرة والصغيرة وبعض الخطايا تقبل المغفرة والتسامح ، ويختصر

فيها على اللوم والعتاب أو التوبيخ ، وبعضها يوجب العقاب الخفيف ، وثالثة العقاب الوسط ، ورابعة العذاب الأكبر . وتقدمت الإشارة الى الذنب الكبير والصغير في شرح الخطبة ١٧٤ فقرة « ألا وإن الظلم ثلاثة » . وأفحش الخطايا على الاطلاق الشرك بالله ، والاعتداء على حريات الناس بكمّ الأفواه ، وتعذيب الأرواح والأجسام ، ونهب الثروات ، واغتصاب الأرض والمقدّرات .. وما الى ذلك من الجرائم التي يرتكبها الأقوياء ضد الضعفاء الذين لا قدرة لهم ، ولا حيلة ووسيلة . وهذا النوع من الذنوب لا يغفر إطلاقاً، وإن صلّي المذنب الظالم وصام، وحجّ الى بيت الله الحرام .

وما عدا هذا النوع من الذنوب يقبل الغفران ، شريطة أن لا يكون فيه شائبة اعتداء على الآخرين ، وإن كانت مثقال ذرة . ومن الأمثلة التي تقبل التسامح والمغفرة سقطات اللسان مع عدم الإضرار بالآخرين ، وأكل الخبائث أو شربها بلا ضرورة ، وصناعة التماثيل والنظرة الآثمة والعصبية اذا لم يترتب عليها فساد ، بل وحلق اللحية والإسراف في الأموال على القول بالتحريم .

وغير بعيد أن يكون المراد بالذنوب التي تحتها الصلاة وتطهر المصلي منها هذا النوع بالخصوص .. ومن الجائز أيضاً أن يكون القصد من حث الذنوب أن الصلاة بطبيعتها تحث المصلي على التوبة التي تطهره من الذنوب . ويؤمى الى ذلك ويؤيده قوله تعالى : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر - ٤٥ العنكبوت » أي تنهى المصلي عنها بمجرد الدعوة والارشاد ، ولا تدفعه عنها قسراً ، أو تخلق في نفسه النفور منها قهراً .. لأن هذا لم يحدث بشهادة العيان . وليس من شك أن إهمال التوبة من المنكرات ، فيشمله نهى الصلاة عن المنكر .

(وقد عرف حقها رجال من المؤمنين الخ) .. الذين وجدوا حلاوة الإيمان بالله ، وبرد اليقين ، وجلال القرب منه ، وعقلوا أسرار الصلاة وأهدافها ، وإن الله سبحانه يكتب لهم من ثوابها على قدر محافظتهم عليها ، واهتمامهم بها ، وإذن فلا عجب إذا أعطوها عن طيب نفس كل همهم واهتمامهم ، وجعلوها شغلهم الشاغل حتى عن الولد والمال .

ونحن نعرف الكثير من عظمة الصلاة عند الله ، وأنها عمود الدين وقربان كل تقى .. وأيضاً نتحدث عن فضلها ونكتبه ونذيعه ، ولكن صلاتنا - ويا لسوء العمل - أشبه بحركة آلية أو تلقائية .. أبداً لا شيء فيها من الحضور والخشوع ..

نحن نصلي والله يقصد القربة لله .. ولكن بماذا نفكر أثناء الصلاة ؟ .. بالتفاهات وزينة الحياة .. قال رسول الله (ص) : ان خير أعمالكم الصلاة . وتقول نفسنا الأمارة : لا ، ان خير أعمالكم الشهرة والسمعة ، والجمع للوارث التارك للصلاة ! اللهم هدايتك وغفرانك .

ونختتم هذه الإشارة بهذه الفضيلة الرائعة من فضائل الصلاة ومنافعها ، وأول من كشف عنها - فيما نعلم - الإمام جعفر الصادق (ع) وهي ان الأمم الماضية نسوا أنبياءهم بمرور الزمن وطول العهد ، فألزم سبحانه أمة محمد (ص) بالصلوات الخمس لفوائد ، منها أن يكون المسلم مع نبيه مدى حياته ، فيذكره ليل نهار فرضاً وندباً ، ولا ينساه أبداً مهما امتد الزمن ، وأن يقرن اسمه باسم الله في الأذان والإقامة ، وفي التشهد والتسليم ، وأيضاً في الركوع والسجود على وجه الاستحباب . ومن ترك الصلاة فقد ترك الله ومحمداً رسول الله الذي قال : بين الرجل والكفر ترك الصلاة .. الصلاة هي العهد بيننا وبينكم ، فمن تركها فقد كفر . (وكان رسول الله (ص) نصيباً بالصلاة) أي يتعب بها نفسه ، ويجهداها في عبادة الله حتى تورمت قدماه ، واصفر لونه ، وحتى عاتبه سبحانه على ذلك بقوله : « طه أنهزلناه عليك القرآن لتشقى » أي لتشق على نفسك ، وتحملها المشقة والعناء .

الزكاة :

(ثم ان الزكاة جعلت مع الصلاة قرباناً للسخ) .. أي يتقرب بها الى الله سبحانه .. حث الاسلام على الزكاة تماماً كما حث على الصلاة ، لأنه يحرص كل الحرص على الأخوة والتعاون بين الناس ، وأقام هذا التعاون على أسس قوية وثابتة ، منها أو من أهمها العمل لصالح الأغلبية العظمى التي تتكون من الفقراء والمستضعفين ، وتقديمه على صالح الأفراد ، والمساواة بين الجميع في الحقوق والواجبات . ومن البهامة ان الزكاة ضرب من التعاون وأساس له ، ولذا أطلق عليها في عصرنا اسم العدل الاجتماعي أو العدالة الاجتماعية. وكثير من الفقهاء يتجاوزون النسبة المثوية المحددة في الزكاة ويوجبون في أموال الأغنياء كل ما يحتاجه الفقراء . وقد اشتهر القول عن ابن حزم : « ان للسلطان أن يجبر الأغنياء على أن

يقوموا بحاجة الفقراء إن لم تقم الزكاة بهم ، فإذا رفض الأغنياء أجبرهم السلطان وحاربهم ، وإذا رفض السلطان ذلك حاربهم الفقراء أنفسهم ، وكانوا أصحاب حق ، وكان السلطان والأغنياء الفئة الباغية . ومعنى هذا ان للفقراء حق الثورة على الأغنياء ، وأخذ ما يحتاجون اليه من أموالهم بالقهر والغلبة وبلاضمان وعوض أيضاً . وليس هذا ببعيد عن روح الاسلام الذي قال : ما آمن بالله من بات شبعاً وأخوه جائع . وقال : « وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان — ٧٥ النساء . » وتكلمنا عن الزكاة في الخطبة ١٠٨ و ١٩٠ .

الأمانة :

(ثم أداء الأمانة فقد خاب من ليس من أهلها، أنها عرضت على السموات الخ)..
تُطلق الأمانة على الوديعة كالمال والمصاغ والصك ونحو ذلك مما يتركه المرء عند غيره ، ويسأله المحافظة عليه ، وهذه الأمانة يجب الوفاء بها للمؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، ولا تحمل خيانتها عقلاً وعرفاً وشرعاً ، قال الإمام زين العابدين (ع) : « والذي بعث محمداً بالحق لو ان قاتل أبي الحسين اثنمني على السيف الذي قتله به لأديته اليه . وأيضاً تطلق الأمانة على الوفاء بمعناه العام الذي يشمل الوفاء للدين والوطن ، والأهل والأصدقاء ، والمبدأ والانسانية جمعاء . والوفاء خلق كريم عند أهل السماء والأرض ، والخيانة لؤم وغدر .

واستشهاد الإمام بالآية يومئذ الى انه يريد من الأمانة المعنى العام ، وهو الوفاء ، لأن المراد من الأمانة فيها دين الله والمسؤولية عنه . وإذن فن الأفضل أن نشير الى معنى الآية ، ومتى عرفناه انضح مراد الإمام ، أو ازداد وضوحاً . قال تعالى : « انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان انه كان ظلوماً جهولاً » - ٧٢ الأحزاب . وخلاصة المعنى أن الله سبحانه منح الإنسان القدرة والعقل والإرادة ، وميَّزه بذلك عن جميع الكائنات التي نعرفها ، وأهله بهذه النعمة لتحمل المسؤولية عن دين الله الذي يبينه على لسان أنبيائه .

وعليه فعنى حمل الإنسان للأمانة أن فيه كل الشروط والصفات التي تؤهله للخطاب بالدين ، والتكليف بالحلال والحرام ، واستحقاق العقاب ان قصر وأهمل ،

لأن الله سبحانه لم يترك له من عذر يتعلل به ، ومعنى رفض السموات والأرض والجبال للأمانة أو للدين ، معناه أنها تفقد هذه الشروط والمؤهلات ، وهي القدرة والعقل والإرادة ، وبالتالي فلا يصح تكليفها بحال . وقديماً قيل : اذا أخذ ما أوجب سقط ما أوجب . ومن أقوال الإمام : متى ملّكنا الله كلفنا ، ومتى أخذنا منا وضع عنا تكليفه لنا . وبكلمة أبلغ وأجمع : « لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها - ٧ الطلاق » .

(لطف به خبراً) . الضمير في « به » يعود الى « ما » في قوله : (لا يخفى عليه ما العباد مقترفون) . ويشير الإمام بقوله : « لطف به خبراً » الى الآية ١٠٣ من سورة الانعام : « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » . والخبير والعليم بمعنى واحد ، واللطيف هو العالم بدقائق الأمور وغوامضها (وأحاط به علماً) عطف تفسير (وضما تركم عيونه) أي ان ذات الصدور تشهد على العصاة تماماً كما تشهد عليهم أعضاؤهم (وخلواتكم عيونه) كل سر عنده علانية ، وكل غيب عنده شهادة .

الخطبة

- ١٩٨ -

معاوية يغدر ويفجر :

وَاللّٰهُ مَا مُعَاوِيَةُ بِأَذْهَىٰ مِنِّي وَلَكِنَّهُ يَغْدِرُ وَيَفْجُرُ . وَلَوْ لَا كَرَاهِيَةُ
الْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَذْهَىٰ النَّاسِ ؛ وَلَكِنْ كُلُّ غُدْرَةٍ فُجْرَةٌ ، وَكُلُّ
فُجْرَةٍ كُفْرَةٌ . وَلِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَاللّٰهُ
مَا أَسْتَغْفَلُ بِالْمَكِيدَةِ ، وَلَا أَسْتَغْمَزُ بِالشَّدِيدَةِ .

اللغة :

غُدْرَةٌ وفُجْرَةٌ وكُفْرَةٌ - بضم الحرف الأول وفتح الثاني - للمبالغة أي
غدر وفجور وكفور . وما أَسْتَغْفَلُ بالمكيدة : لا تجوز المكيدة على كما تجوز على
الغافلين . ولا أَسْتَغْمَزُ للشديدة : لا أضعف للخطوب وإن اشتدت .

الإعراب :

بأذهى خبر ، والباء زائدة ، ومنى متعلق بأذهى .

المعنى :

(والله ما معاوية بأدهى مني الخ) .. ما كان لمعاوية من هدف إلا المجد والسلطان ، وكل الوسائل حق وعدل عنده ما دامت تؤدي بنجاح الى بلوغ هذا الهدف ، ولا غاية لعل إلا الدين وإحقاق الحق ، وفي سبيله تجب التضحية بكل عزيز وثمين . هذا هو الفرق بين الاثنين، أما نجاح معاوية فيعود الى شيء واحد، وهو أن الظروف في المجتمع الفاسد تعاكس المحق ، وتواتي المبطل بخاصة إذا كان بارعاً في الكذب والاحتيال . ولقد برع معاوية ونجح في الغدر والمكر ، وصفت له الأيام في بيئة الضلال ، واستشهد الإمام غدرأ واغتيالاً .. ولكن التاريخ أنصف ، وكشف كلاً على حقيقته ، فكل الأجيال تصف معاوية بالمواربة والانتهازية ، وتعترف للإمام بالإخلاص والتضحية ، والصلابة في الحق مهما تكن الخسائر .

وتقدم مضمون هذه الخطبة ومحتواها في الخطبة ٤١، وشرحناه بضرب من التفصيل، واستشهدنا هناك بما قاله الإمام هنا (انظر المجلد الأول ص ٢٥٧ فقرة «علي والسياسة»). وتجدر الإشارة الى ان ابن أبي الحديد المعتزلي كتب في شرح هذه الخطبة حوالي عشرين صفحة بالقطع الكبير ، فمن أراد التوسع فليرجع اليه والى كتاب « النصائح الكافية » لمن يتولى معاوية « تأليف ابن عقيل .

الخطبة

- ١٩٩ -

بجمع الناس الرضا والسخط :

أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَسْتَوْحِشُوا فِي طَرِيقِ الْهُدَى لِقِلَّةِ أَهْلِهِ ، فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ
اجْتَمَعُوا عَلَى مَا نِدَّةٍ شَبَعَهَا قَصِيرٌ ، وَجُوعَهَا طَوِيلٌ . أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا
يَجْمَعُ النَّاسَ الرِّضَاءُ وَالسُّخْطُ . وَإِنَّمَا عَقَرَ نَاقَةَ ثَمُودَ رَجُلٌ وَاحِدٌ
فَعَمَّهُمْ اللَّهُ بِالْعَذَابِ لَمَّا عَثَمُوهُ بِالرِّضَا فَقَالَ سُبْحَانَهُ : « فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا
نَادِمِينَ ، فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ خَارَتْ أَرْضُهُمْ بِالْخَسْفَةِ خَوَارَ السَّكَّةِ الْمُحْمَاةِ
فِي الْأَرْضِ الْخَوَّارَةِ . أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ سَلَكَ الطَّرِيقَ الْوَاضِحَ وَرَدَّ
الْهَمَاءَ ، وَمَنْ خَالَفَ وَقَعَ فِي التَّيِّهِ .

اللغة :

الحوار : الصوت ، قال سبحانه : «عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خَوَار - ١٤٨ الأعراف» .
والسكة : حديدة المحراث .

الإعراب :

كان ناقصة ، واسمها محذوف ، وتسبك ان وما بعدها بمصدر خبراً لكان ،
والتقدير لما كان عذابهم إلا خوار أرضهم .

لا تخش لومة لائم :

(أيها الناس لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلة أهله) . كل ما يجلب النفع ،
ويدفع الضر عن الفرد والجماعة في حدود حلال الله وحرامه فهو خير وصلاح ،
وكل ما يضر بالناس بجهة من الجهات فهو شر وضلال ، ومن آمن واقتنع بطريق
أو بآخر ان هذا خير وصلاح ، وذلك شر وفساد - فعليه أن يتصرف بوحى من
إيمانه وقناعاته ، ولا يقيم وزناً لأقوال الناس وآرائهم ، فإنهم لا يصدرون عن
عقل وعلم ، ولا عن دين وضمير .. ويندفعون بمحض الرغبة والعاطفة الموهجة ،
والتقاليد الموروثة ، بخاصة في هذا العصر الذي أفسدته المدنية الحديثة ، وأجهزت
الدعائيات الكاذبة على كل ما يسمى هدى وإنسانية .

قال رسول الله (ص) : « استفت قلبك .. البر ما اطمأنت اليه النفس ،
واطمأن اليه القلب ، والإثم ما حاك في القلب ، وتردد في الصدر ، وإن أفتاك
الناس وأفتوك » . وقال الإمام : « لا تزيدني كثرة الناس حولي عزة ، ولا
تفرقهم عني وحشة » وتقدم في الخطبة ١٢٨ قوله لأبي ذر: لا يؤنسك إلا الحق ،
ولا يوحشك إلا الباطل .

وكلنا يعلم ان الدين صنعوا التاريخ ، وتقدمت الحياة بجهودهم كانوا حمقى
ومجانين عند قومهم ، لأنهم تمردوا على مقاييسهم ، ورفضوا التنازل عما يؤمنون به
ويعتقدون ، وساروا وحدهم على طريق الهدى بوحى من عقولهم وصفاء قلوبهم ،
وكان من الطبيعي أن يصطدموا بالكثير من العقبات ، ويعانوا النكبات ، ولكنهم
ثبتوا وضحووا فكانوا من الهداة الخالدين ، ولو خافوا من قوة الدولة ومنطق
الجماعة لخسروا أنفسهم ، وما تركوا خيراً لإنسان .

(اجتمعوا على مائدة شعبها قصير ، وجوعها طويل) . المراد بالمائدة الدنيا ،
وقد يشبع الإنسان منها ، ولكن الى أمد ينتهي بزواله الى اللحد حيث لا طعام

ولا شراب ولا شيء إلا العمل (إنما يجمع الناس الرضا والسخط) . قسّم الشيوعيون الناس على أساس اقتصادي ، وبعضهم على أساس عنصري أو جغرافي ، وآخرون على أساس ثقافي ، أما القرآن فإنه يقسم الناس على أساس التقوى والعمل الصالح ، وإلى هذا يرجع كلام الإمام حيث جعل الناس فريقين : فريقاً في الجنة ، وفريقاً في السعير ، والفريق الأول هم العاملون بالخير ، ومن رضي عنه وعنهم ، ومن هنا كان للنوايا الطيبة وزنها وثوابها عند الله ، والفريق الثاني هم الساخطون على الخير وأهله .. فقد جمع الرضا بين أولئك في جنة الخلد ، وجمع السخط بين هؤلاء في عذاب الحريق .

وعن النبي وأهل بيته (ص) : « العامل بالظلم ، والمعين له ، والراضي به شركاء ثلاثتهم .. من رضي أمراً فقد دخل فيه ، ومن سخطه فقد خرج منه .. من غاب عن أمر فرضي به كان كمن شهدته وأثاه .. ولو أن رجلاً قُتل في المشرق فرضي بقتله رجل في المغرب لكان الراضي شريك القاتل » .
أبداً لا يحق لأحد أن يدعي الإسلام الحق ، أو أنه إنسان طيب ، وهو يقيم مع الظالم علاقات سياسية أو اقتصادية أو ثقافية .. حتى ولو ملأ الدنيا بسبّه ولعنه ، لأن أية علاقة مع الظالم هي عون له وحياة .. ومن أجل هذا أسمح لنفسني أن أسمى الاتفاق الجديد بين الاشتراكية والامبريالية ، أسميه بالانتهازية العلنية.. ولا تبعد كثيراً تسميتي هذه عن تسمية الاشتراكيين والامبرياليين لاتفاقيتهم « بالتجارية » .

(وإنما عقر ناقة ثمود رجل واحد الخ) .. ثمود قبيلة من العرب ، سميت باسم جدها ثمود بن عامر ، وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام ، فأرسل الله صالحاً لهدايتهم ، وهو أشرفهم نسباً ، وأوسعهم حلماً ، فطلبوا منه أن يأتيهم بآية تصدق رسالته ، فقال لهم : هذه ناقة الله لا مثل لها في تاريخ النوق ، فرماها شقي بسهم فخرت على الأرض ، وما أنكر هذه الجريمة منكراً من ثمود ، فأخذهم الله بغتة ، وهم لا يشعرون .

(فما كان إلا أن خارت أرضهم بالخشفة خوار السكة المحاة في الأرض) .

نحات الأرض لانت وارتخت بحيث يغور فيها ما على ظهرها من الأثقال كما
تغور حديدة المحراث الحامية في الأرض اللينة . والمعنى ان الأرض ابتلعت
ثمود ، لأن بعضهم فعل المنكر ، والبعض الآخر رضي به وسكت عنه (من
سلك الطريق الواضح ورد الماء) أي نال ما يبتغيه (ومن خالف وقع في التيه)
حيرة وضلالة : « كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب - ٣٤ غافر » .

الخطبة

- ٢٠٠ -

عند دفن بضعة الرسول (ص) :

السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنِّي وَعَنِ ابْنَتِكَ النَّازِلَةِ فِي جَوَارِكَ
وَالسَّرِيعَةِ اللَّحَاقِ بِكَ . قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنْ صَفِيَّتِكَ صَبْرِي ، وَرَقِّ
عَنْهَا تَجَلُّدِي . إِلَّا أَنَّ لِي فِي النَّاسِ بِعَظِيمِ فُرْقَتِكَ ، وَفَادِحِ مُصِيبَتِكَ
مَوْضِعَ تَعَزُّ . فَلَقَدْ وَسَدُّتُكَ فِي مَلْحُودَةِ قَبْرِكَ ، وَفَاضَتْ بَيْنَ نَحْرِي
وَصَدْرِي نَفْسُكَ . إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . فَلَقَدْ أَسْتَرْجَعْتَ
الْوَدِيعَةَ ، وَأَخَذْتَ الرِّهْنَةَ . أَمَا حُزْنِي فَسَرَمَدٌ ، وَأَمَا لَيْلِي فَمُسْهَدٌ
إِلَى أَنْ يَخْتَارَ اللَّهُ لِي دَارَكَ إِلَيَّ أَنْتَ يَا مُقِيمٌ . وَسَتُنَبِّئُكَ ابْنَتُكَ
بِتَضَافُرِ أُمَّتِكَ عَلَى هَضْمِهَا فَأَحْفِهَا السُّوَالَ وَاسْتَخْبِرْهَا الْحَالَ . هَذَا
وَلَمْ يَطُلِ الْعَهْدُ . وَلَمْ يَخْلُ مِنْكَ الذِّكْرُ . وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمَا سَلَامَ مُودَعٍ

لَا قَالَ وَلَا سَتِيمٌ . فَإِنْ أَنْصَرِفْ فَلَا عَنْ مَلَالَةٍ . وَإِنْ أُقِمْ فَلَا عَنْ
سُوءِ ظَنٍّ بِّمَا وَعَدَ اللَّهُ الصَّابِرِينَ .

اللغة :

رق : ضعف . وتجلد فلان : تكلف الجلد والصبر . والتأسي : التعزية .
وملحودة : مشقوقة ومحفورة . ومسهد : قليل النوم . فأحضرها السؤال : استقص
في مسائلها .

الإعراب :

في التأسي خبر ان مقدماً على اسمها وهو موضع تعز ، والحال منصوب بنزع
الخالص أي استخبرها عن الحال . وهذا فاعل للفعل محذوف أي حدث هذا ،
وعن ملالة متعلق بفعل محذوف أي فلا أنصرف عن ملالة .

فاطمة (ع) :

أبوها خاتم الأنبياء وسيد الكونين ، وأمها خديجة بنت خويلد أول انسان آمن
وصدق برسول الله (ص) وشاركه في حياته ، ومنها ذريته ، وزوج فاطمة علي
أخو رسول الله أول من آمن به وصلى معه وفداه بنفسه من الذكور ، ولكن
أولادها منه يُنسبون الى علي لغة ، والى النبي شرعاً لقوله : « كل ولد آدم فإن
عصبتهم لأبيهم خلا ولد فاطمة فإنني أنا أبوهم وعصبتهم » .
ولدت فاطمة (ع) بمكة يوم الجمعة ٢٠ جمادى الآخرة بعد النبوة بخمس
سنين ، وسميت فاطمة لأن الله فطمها وذريتها عن النار يوم القيامة ، كما في
كتاب « ذخائر العقبى » عن رسول الله . وكانت أشبه الناس سمتاً ودلاً وهدياً
وقياماً وقعوداً بأبيها رسول الله (ص) ، كما في « صحيح الترمذي » عن عائشة.
وتوفيت بالمدينة ٣ جمادى الآخرة سنة ١١ هـ ، وعمرها الشريف ١٨ سنة، وعاشت
بعد أبيها ٩٥ يوماً .

وفي « حلية الأولياء » لأبي نعيم ان النبي (ص) قال لها : يا بنية أما ترضين انك سيدة نساء العالمين ؟ قالت : يا أبت فأين مريم بنت عمران ؟ قال: تلك سيدة نساء عالمها ، وأنت سيدة نساء عالمك ، أما والله زوّجتكِ سيداً في الدنيا والآخرة .

وقرأت في جريدة «الأخبار» المصرية تاريخ ٢١ - ٥ - ١٩٧٠ كلمة للأستاذ محسن محمد، تحدث فيها عن كتاب جديد في أهل البيت بلغ أكثر من ٦٠٠ صفحة لمؤلفه توفيق أبو علم وكيل وزارة العدل بمصر . وقال الكاتب فيها قال ، وهو يعرض نماذج من هذا الكتاب الجديد :

« هؤلاء هم أهل البيت : فاطمة الزهراء، وزوجها علي، وأولادهما الحسن والحسين وأحفادهما . ولقد زرت مكة والمدينة ، ووقفت بكربلاء ، وعبرت الطريق الى النجف والكوفة ، وتمثلت لي في لحظة مواقفهم .. بطولاتهم .. استشهادهم » .

« والسيدة فاطمة أصغر بنات الرسول وأحبهن اليه ، وأما خديجة التي ردت السكينة والأمن لرسول الله ، وتعلمت منها فاطمة أعظم الدروس ، فكانت تضمند جراح أبيها في غزوة أحد ، وتقوم وحدها بعمل البيت لا يعينها أحد ، عاشت على الكفاف لا تكذب ولا تشكو ، وتردد دائماً قول أبيها : طوبى لمن هدى للإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع به . أعرضت عن طيب الدنيا ، واستوى عندها الغنى والفقر ، والراحة والعناء ، والموت والحياة .. وعلمت ولدها الحسن دعاء يردده : الحمد الذي لا ينسى من ذكره ، ولا ينخب من دعاه ، ولا يقطع رجاء من رجاء » .

وإذن يحق للإمام أن تذهب نفسه أسى على بضعة رسول الله (ص) ويندبها بهذه الكلمة الناثحة : « السلام عليك يا رسول الله عني وعن ابنتك النازلة في جوارك والسريعة للحاق بك) . روى البخاري في صحيحه باب علامات النبوة في الإسلام : ان النبي (ص) دعا فاطمة في شكواه الذي قبض فيه فبكت ، ولما أسرّ اليها بشيء ضحككت ، فسألته عائشة عن بكائها ثم ضحكها ؟ فقالت : سارني انه يقبض في مرضه هذا فبكيت ، ثم سارني اني أول أهل بيته أتبعه فضحككت .

(قلّ يا رسول الله عن صفتك صبري ، ورق عنها تجلدي) . قوله :

« صفيتك » يشير الى مكانتها عند الله ورسوله ، قال الخطيب في تاريخ بغداد ج ١ ص ٢٥٩ طبعة ١٣٤٩ هـ بمصر : « قال رسول الله : عليّ حبيب الله ، والحسن والحسين صفوة الله ، وفاطمة خيرة الله » . (عن كتاب فضائل الخمسة من الصحاح الستة) .

(إلا أن في التأسي الخ) .. المصاب بفقد السيدة بضعة النبي (ص) عظيم وأليم على قلب الإمام ، ولكنه جليل اذا قيس بفقد رسول الله ، وقد صبر الإمام على هذا فبالأولى ان يصبر على ذلك . ومن أقواله : ان صبرت جرى عليك القدر وأنت مأجور ، وان جزعت جرى عليك القدر ، وأنت مأزور (فلقد وسدتك في ملحودة قبرك) كأن الإمام يقول بهذا لرسول الله : انه معه في عقله وروحه وجسمه بعد أن انتقل الى الرفيق الأعلى تماماً كما كان معه في حياته (وفاطمة بين نحري وصدري نفسك) . تقدم في الخطبة ١٩٥ .

(فلقد استرجعت الوديعة ، وأخذت الرهينة) . المراد بالوديعة والرهينة السيدة أم الحسين ، وكانت عند الإمام عوضاً عن رؤية رسول الله كما تكون الرهينة عوضاً عن الأمر الذي أخذت عليه على حد ما قال ابن أبي الحديد (أما حزني فسرمد) دائم (وأما ليلى فسهل) كناية عن شدة الآلام والأتراح التي تمنع من النوم .

(وستنبئك ابنك بتضايف أمتك على هضمها الخ) . يشير بهذا الى قصة فذك ، ولفذك في التاريخ الاسلامي أدوار وأخبار ، وتتلخص بأن فذكاً قرية في الحجاز ، وكانت ملكاً لليهود ، فصالحوا رسول الله عليها ، ولما انتقلت اليه وهبها لابنته فاطمة . وعن كتاب « الدر المنثور » للسيوطي عند تفسير قوله تعالى : « وآت ذا القربى حقه - ٢٦ الإسراء » ان رسول الله (ص) دعا فاطمة ، وأعطاه فذكاً .. ولما قبض النبي انتزعها أبو بكر من فاطمة ، ولم يردها عمر في عهده لبضعة محمد (ص) ولما جاء عثمان وهبها لمروان بن الحكم ، وحين تولى عمر بن عبد العزيز ردها الى أولاد فاطمة ، وبعده انتزعها منهم يزيد بن عبد الملك . ثم ردها السفاح العباسي الى الفاطميين ، ثم أخذها منهم المنصور الدوانيقي وأرجعها اليهم المأمون ، وانتزعها منهم المتوكل ، وانتهى عهد الفاطميين بفذك . (سلام مودع) لا قال ولا ميفض (ولا ستم) لا ملول (وان أقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين) إن اخترت المقام عند قبرك يا رسول الله فأقيم

عنده وأنا صابر وراضٍ بقضاء الله طلباً لثواب الصابرين ، لا جازع ولا متبرم .
 وقريب من هذا قول الرسول الأعظم (ص) عند موت ولده ابراهيم : « تدمع
 العين ، ويحزن القلب ، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا ، وإنا بك يا ابراهيم لمحزونون » .
 وروي ان النبي (ص) بكى عند موت صاحبه عثمان بن مظعون .

وقال كاتب انكليزي: «نجد كثيراً من القصص تدل على دماثة محمد وحساسيته .
 فقد بكى على ابن عمه جعفر ، وأيضاً بكى حين رأى ابنة زيد بن حارثة تبكي
 على أبيها الذي قتل مع جعفر ، وفي ذات يوم رأى طفلاً حزيناً ، فسأله عن
 السبب فأجاب الطفل بأن بلبله قد مات . فبذل محمد كل جهده لتعزيته » .

الخطبة

- ٢٠١ -

الدنيا والآخرة :

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا الدُّنْيَا دَارُ مَجَازٍ وَالْآخِرَةُ دَارُ قَرَارٍ ، فَخُذُوا مِنْ
تَمَرِكُمْ يَلْقَرِكُمْ . وَلَا تَهْتِكُوا أَسْتَارَكُمْ عِنْدَ مَنْ يَعْلَمُ أَسْرَارَكُمْ .
وَأَخْرِجُوا مِنَ الدُّنْيَا قُلُوبَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُخْرَجَ مِنْهَا أَبْدَانُكُمْ . فَفِيهَا
اخْتَبِرْتُمْ ، وَلِغَيْرِهَا خُلِقْتُمْ . إِنَّ الْمَرْءَ إِذَا هَلَكَ قَالَ النَّاسُ مَا تَرَكَ
وَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ مَا قَدَّمَ . لِلَّهِ آبَاؤُكُمْ فَقَدُّمُوا بَعْضًا يَكُنْ لَكُمْ
قَرْضًا وَلَا تُخْلَفُوا كُلًّا فَيَكُونَ فَرَضًا عَلَيْكُمْ .

اللغة :

المجاز : المرر . والقرار : البقاء .

الإعراب :

لله آبائكم « لله » خبر مقدم، وآباؤكم مبتدأ مؤخر ، واللام الجارة تفيد التعجب،
ويكن على الجزم بجواب الأمر ، فيكون على النصب بأن مضمرة بعد الفاء .

المعنى :

(انما الدنيا دار مجاز) هي طريق ، والغاية القيامة (والآخرة دار قرار) وخلود ، لا موت فيها ، ولا انتقال منها (فخلدوا من ممركم) أي اعملوا في دنياكم (لممركم) . سئل النبي (ص) عن أفضل الأعمال فقال : بذلُ السلام للعالم . وقال الإمام : بشئ الزاد الى المعاد العدوان على العباد . ومن فضل الله ورحمته انه جعل مجرد حب الخير للناس وكف الأذى عنهم وسيلة لمرضاته وثوابه ، قال رسول الله (ص) لأبي ذر : كف أذاك عن الناس ، فإنه صدقة تتصدق بها على نفسك (ولا تهتكوا أستاركم عند من يعلم أسراركم) . اذا علمتم خيراً في السر فلا تنطقوا به وتعلنوه أمام الناس ، فإن الله يعلمه منكم ، ويثيبكم عليه . وقيل : معناه لا تتجاهروا بالمعصية ١ . وهو بعيد عن دلالة اللفظ .

(وأخرجوا من الدنيا قلوبكم الخ) .. أي من حرامها : « قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن - ٣٣ الأعراف » . (ففيها اختبرتم ، ولغيرها خلقتكم) . خلّق الإنسان للبقاء والخلود في الآخرة ، أما الدنيا فهي لمجرد الاختبار والتمييز بين من يستحق النعيم ومن يستحق الجحيم في دار الحساب والجزاء (إن المرء اذا هلك قال الناس : ما ترك) من حطام الدنيا .. وهذا شيء طبيعي ، لأنهم أبناء الدنيا ، وهي همهم وشغلهم (وقالت الملائكة : ما قدّم) وهذا طبيعي أيضاً ، لأنهم من أهل الآخرة ، ولا يمتنون الى الدنيا بسبب .

(لله آباؤكم) . الآباء غير مقصودين على الإطلاق ، والقصد مجرد التعجب من انصراف المخاطبين عن الآجلة الباقية الى العاجلة الفانية (فقدموا بعضاً) من عمل الخير (يكن لكم قرضاً) أي ديناً تستوفونه يوم لا ينفع مال ولا بنون . وفيه إيماء الى قوله تعالى : « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له - ٢٤٥ البقرة » . (ولا تخلفوا كلاماً) لا تركوا للوارث كل أموالكم دون أن تنفقوا منها شيئاً في سبيل الله (فتكون فرضاً عليكم) ان أنفقتم كان الدين لكم ، وان أمسكتم كان الدين عليكم ، 'تحاسبون عليه يوم القيامة، ولا تستطيعون الرفاء .

الخطبة

- ٢٠٢ -

تجهزوا للرحيل :

تَجَهَّزُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ فَقَدْ نُودِيَ فِيكُمْ بِالرَّحِيلِ . وَأَقْلُوا الْعُرْجَةَ عَلَى الدُّنْيَا . وَأَنْقَلِبُوا بِصَالِحِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ مِنَ الزَّادِ فَإِنَّ أَمَامَكُمْ عَقَبَةَ كَوْوَدًا ، وَمَنَازِلَ مَخُوفَةٍ مَهُولَةٍ لَا بُدَّ مِنَ الْوُرُودِ عَلَيْهَا وَالْوُقُوفِ عِنْدَهَا . وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَلَاحِظَ الْمَنِيَّةِ تَحْوَكُمُ دَارِيَّةٌ . وَكَأَنَّكُمْ بِمَخَالِبِهَا وَقَدْ نَشِبَتْ فِيكُمْ ، وَقَدْ دَهَمَتْكُمْ فِيهَا مُفْطَعَاتُ الْأُمُورِ وَمُغْضِلَاتُ الْمَحْذُورِ . فَقَطَّعُوا عَلاَئِقَ الدُّنْيَا ، وَأَسْتَظْهِرُوا بِزَادِ التَّقْوَى .

اللغة :

العرجة — بضم العين — الإقامة . وانقلبوا : انصرفوا . وكؤود : شاقة . ودائبة : جادة . والمخالب : الأظفار . ونشبت : علفت . والمفطعات والمعضلات : الخطوب والشدائد . وعلائق : جمع علاقة أي التعلق والارتباط . واستظهروا : استعينوا .

الإعراب :

نحوكم نصب على الظرفية ، لأن النحو هنا بمعنى الجهة ، ويجوز نصب بنزع الخافض أي الى نحوكم .

المعنى :

هذه الخطبة في معنى التي قبلها بلا فاصل : التزهيد في الدنيا ، والترغيب في عمل الآخرة ، وتكرر ذلك بالعشرات ، ولذا نمر بهذه الخطبة مسرعين (فقد نودي فيكم بالرحيل) . الأصوات ملء الأسماع بأن الرحيل من هذه الحياة الى الآخرة - وشيك ، فاستعدوا لها (واقلوا العرجة على الدنيا) لا تحبسوا أعمالكم على الدنيا وحدها ، وتنسوا نصيبكم من الآخرة (وانقلبوا بصالح ما بحضرتكم من الزاد) . المراد بحضرتكم القدرة والاستطاعة ، والمعنى ما دمتم قادرين الآن على العمل فتزودوا بالأعمال الصالحات ليوم فاقتكم .

(فإن أمامكم عقبة النخ) .. وهي الموت وسكراته ، والقبر ووحشته ، والقيامة وأهوالها : « وان منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً - ٧١ مريم » . (واعلموا أن ملاحظ المنية نحوكم النخ) .. لا نجاة من الموت، انه لكم بالمرصاد، وكأن اظفاره قد علقت بأجسامكم وقلوبكم (فقطعوا علائق الدنيا) ازيلوا حبها من قلوبكم وانظروا اليها كوسيلة لا كغاية (واستظهروا بزاد التقوى) . استعينوا على عذاب الله بتقواه ، فلا مهرب منه إلا اليه .

الخطبة

- ٢٠٣ -

مع طلحة والزبير .. فقرة ١ - ٢ :

لَقَدْ نَقِمْتُمَا يَسِيرًا وَأَرْجَأْتُمَا كَثِيرًا . أَلَا تُخْبِرَانِي أَيُّ شَيْءٍ لَكُمْ فِيهِ
حَقٌّ دَفَعْتُكُمْ عَنْهُ ، وَأَيُّ قَسَمٍ اسْتَأْثَرْتُ عَلَيْكُمَا بِهِ ، أَمْ أَيُّ حَقٍّ رَفَعَهُ
إِلَيَّ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ضَعُفْتُ عَنْهُ أَمْ جَهِلْتُمَا ، أَمْ أَخْطَأْتُ بَابَهُ . وَاللَّهِ
مَا كَانَتْ لِي فِي الْخِلَافَةِ رَغْبَةٌ ، وَلَا فِي الْوِلَايَةِ إِرْبَةٌ . وَلَكِنَّكُمْ
دَعَوْتُمُونِي إِلَيْهَا وَحَمَلْتُمُونِي عَلَيْهَا . فَلَمَّا أَفْضَتْ إِلَيَّ نَظَرْتُ إِلَى كِتَابِ
اللَّهِ وَمَا وَضَعَ لَنَا وَأَمَرَنَا بِالْحُكْمِ بِهِ فَاتَّبَعْتُهُ ، وَمَا اسْتَسَنَّ النَّبِيُّ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَاقْتَدَيْتُهُ . فَلَمْ أُحْتَجْ فِي ذَلِكَ إِلَى رَأْيِكُمَا وَلَا
رَأْيِ غَيْرِكُمَا ، وَلَا وَقَعَ حُكْمٌ جَهِلْتُهُ فَاسْتَشِيرْتُكُمْ وَإِخْوَانِي الْمُسْلِمِينَ ،
وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ لَمْ أُرْغَبْ عَنْكُمْ وَلَا عَنْ غَيْرِكُمَا (١) . وَأَمَّا مَا ذَكَرْتُمَا
مِنْ أَمْرِ الْأُسُوءَةِ فَإِنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ لَمْ أَحْكَمْ أَنَا فِيهِ بِرَأْيِي وَلَا وَلِيِّتُهُ

هَوَى مِنِّي . بَلْ وَجَدْتُ أَنَا وَأَنْتُمَا مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَأَلِهِ وَسَلَّمَ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ ، فَلَمْ أُحْتَجْ إِلَيْكُمَا فِيمَا فَرَعَ اللَّهُ مِنْ قَسَمِهِ
وَأَمْضَى فِيهِ حُكْمَهُ . فَلَيْسَ لَكُمَا وَاللَّهِ عِنْدِي وَلَا لِغَيْرِكُمَا فِي هَذَا عُتْبَى .
أَخَذَ اللَّهُ بِقُلُوبِنَا وَقُلُوبِكُمْ إِلَى الْحَقِّ ، وَأَلْهَمَنَا وَإِيَّاكُمْ الصَّبْرَ . (ثُمَّ قَالَ
عَلَيْهِ السَّلَامُ) رَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا رَأَى حَقًّا فَأَعَانَ عَلَيْهِ ، أَوْ رَأَى جَوْرًا
فَرَدَّهُ وَكَانَ عَوْنًا بِالْحَقِّ عَلَى صَاحِبِهِ ^(٢) .

اللغة :

إربة : حاجة وغاية . وأفضت : صارت . والأسوة : القدوة ، ومراد
الإمام اتباع سنة النبي (ص) ويجوز أن يريد التسوية في قسمة الأموال . والعتبي:
الرجوع عن الإساءة وطلب الرضا ممن أسأت إليه .

الإعراب :

أي شيء مبتدأ ، وجملة دفعكما خبر ، ولكما فيه حق مبتدأ وخبر ، والجملة
صفة شيء . وفي بعض النسخ كان لكما فيه حق ، وعليه فإن في «كان» ضميراً
مستتراً اسماً لكان ، وجملة لكما فيه حق خبر ، والجملة من كان واسمها وخبرها
صفة شيء ، وأنا تأكيد ، وهوى مفعول من أجله لوليته .

المعنى :

(لقد نعمتما يسيراً ، وأرجأتما كثيراً) . الخطاب لطلحة والزبير ، والمراد
باليسير الذي غضباً من أجله المصلحة الخاصة ، وبالكثير الذي تجاهلاه مصلحة
الإسلام والمسلمين ، والمعنى ان طلحة والزبير أثارا الفتن ، وسفكا الدماء ، وأضاعا

هبة الإسلام ، وقوة المسلمين ، كل ذلك لأن الإمام لم يعط البصرة لطلحة ، والكوفة للزبير ، وسأوى بينهما وبين المسلمين في الحقوق .

وفيما سبق أشرنا أن الصحابة كانوا يختلفون فيما بينهم ، ولكن ما من واحد منهم حدث نفسه أن يخرج على الجماعة ويشهر السيف حرصاً على مصلحة الإسلام.. فقد كان الإمام وحزبه يرون أنه أحق الناس بالخلافة ، وعارضوا من سبقه من الخلفاء ، ولكن بهدوء ، وبالحجة لا بالسيف خوفاً من الفتنة وعواقبها ، قال سبحانه : « واثقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة - ٢٥ الأنفال » . وفي صحيح البخاري كتاب الفتن عن رسول الله : « لا تردوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض .. من خرج من السلطان مات ميتة جاهلية » . ولكن أصحاب الجمل وصفين يريدون الحكم والاستئثار ولو على دين الجاهلية .

(ألا تخبراني أي الخ) أي حق استهنت به خاصاً كان أم عاماً ؟ صحيح اني ملكت دونكما وقسمت، ولكن هل استأثرت بشيء أو آثرت أحداً من أهلي دون الناس ؟ ألا تريان اني أقدر نفسي وأهلي بضعة الرعية، أو ترياني جاهلاً بدين الله ، أو حرقته استجابة للأهواء والأغراض ؟

وقد أجاب التاريخ عن هذه التساؤلات . قال الكاتب المصري أحمد عباس صالح في كتاب اليمين واليسار ص ١١٨ طبعة سنة ١٩٧٢ : « ان طلحة والزبير لم يظهرهما حقيقة مقصدهما من خلع البيعة لعلي ، فهما قد خلعاها لأمرين : الأول لطمعهما في الخلافة . الثاني لإبقاء الأوضاع الاجتماعية القائمة » أي في عهد عثمان . وقال في ص ١١٧ : « ثار طلحة والزبير بعلي لطمعهما في الخلافة ، وانهما يكرهان أيضاً ما يتصوران أنه مغلاة في تطبيق المبادئ الإسلامية » .

(والله ما كانت لي في الخلافة رغبة الخ) .. أراد المسلمون علياً بعد مقتل عثمان ، وقصدوه بالبيعة فتوقف ، وقال : انا لكم وزيراً خير مني أميراً . وظلت الخلافة شاغرة ٥ أيام وقيل ٨ . وبعد إلحاح وإصرار المهاجرين والأنصار ومن حضر من غيرهم - استجاب الإمام . وتقدم الكلام عن ذلك مفصلاً في شرح الخطبة ٩٠ ج ٢ ص ٤٩ . (فلما أفضت إلي نظرت الى كتاب الله الخ) .. كان الإمام هو الصراط القويم للعلم بكتاب الله وسنة نبيه بشهادة العديد من الأحاديث النبوية ، من ذلك :

١ - « أنا مدينة العلم ، وعلي بابها » روى هذا الحديث الحاكم في مستدرک الصحيحين ج ٣ ص ١٢٦ طبعة حيدر آباد سنة ١٣٢٤ هـ ، والخطيب في تاريخ بغداد ج ٣ ص ١٢٧ طبعة مصر سنة ١٣٤٩ هـ ، وابن حجر في تهذيب التهذيب ج ٦ ص ٢٣٠ طبعة حيدر آباد سنة ١٣٢٥ ، والحافظ في الرياض النضرة الطبعة الأولى بمصر . وغير ذلك من الكتب (انظر ج ٢ فضائل الخمسة من الصحاح الستة) .

٢ - « علي مع القرآن ، والقرآن مع علي » . رواه ابن حجر في صواعقه المحرقة ص ٧٥ طبعة مصر سنة ١٣١٢ هـ ، والحاكم في المستدرک ج ٣ ص ١٢٤ .
٣ - جاء في تاريخ بغداد ج ٤ ص ١٥٨ أنه قيل : يا رسول الله عمن نأخذ العلم ؟ . فقال عن علي وسلمان . (الجزء الثاني من فضائل الخمسة) .

وقد شاع واشتهر ان الصحابة كانوا بعد النبي (ص) يرجعون الى الإمام في مهمات الشريعة . وعلى سبيل المثال ان أبا بكر سئل عن حكم المأبون ، فرجع فيه الى الصحابة ، وما وجد الجواب إلا عند الإمام ، فعمل به . نقل هذا صاحب « فضائل الخمسة » عن كنز العمال ج ٣ ص ٩٩ . واشتهر عن الخليفة الثاني قوله : «لولا علي لهلك عمر .. أعوذ بالله أن أعيش في قوم ليس فيهم أبو الحسن» ، وجاء في موطأ مالك : ان عثمان أخذ بقول علي في طلاق المريض ، وفي أقل مدة الحمل .. حتى معاوية كان يسأل الإمام عن أحكام الشريعة . روى هذا صاحب « فضائل الخمسة » عن موطأ مالك ، وفي كتاب «الاستيعاب» لابن عبد البر : ان معاوية لما بلغه قتل الإمام قال : ذهب العلم والفقهاء بموت ابن أبي طالب . فقال له أخوه عتبة : لا يسمع منك هذا أهل الشام . فقال له : دعني عنك . واذا كان الإمام هو المرجع الأول في العلم بعد رسول الله (ص) .. حتى لمعاوية - فهل يحتاج الى مشورة طلحة والزبير ؟ . وقد اشتهر عنه قوله : «سلوني قبل أن تفقدوني» . وما تجرأ على مثلها أحد من الصحابة ، ولولا إجماع الكلمة على علمه لسكت عنها تجنباً للريب والتهمة .

(وأما ما ذكرتما من أمر الأسوة الخ) .. ساوى النبي (ص) في العطاء بين المسلمين ، ومثله فعل أبو بكر من بعده ، وخالفها عمر وعثمان ، ولما انتهت الخلافة الى الإمام عاد الى سيرة رسول الله (ص) فعارض طلحة والزبير وأصحاب المراكز الممتازة ، عارضوا لا من وجهة اقتصادية وكفى ، بل كرهاً لمبدأ المساواة ،

لأن التقسيم بالسوية معناه ان علياً يتفقد سنة النبي في تساوي البشر في جميع الحقوق، فلا فضل لعربي ، ولا لقرشي، ولا لصحابي إلا بالتقوى وإلا يوم القيامة حيث الحساب والجزاء ، لا في الدنيا .. وهذا هو الهدم والتهديد لنفوذ طلحة والزبير وغيرهما من «الشاخين» وكان عمر قد خوفهم وحذرهم من ولاية علي بقوله : « إن وليها الأجلح ليحملنكم على المحجة البيضاء والصراط المستقيم » . وفي كتاب « اليمين واليسار في الاسلام » : « كان علي يطلب من كل مسلم أن يكون على طراز رسول الله ، أو على طرازه هو حتى يتحقق الاسلام في صورته المثلى » .

(فليس لكما والله عندي ، ولا لغيركما في هذا عتبي) . هذا إشارة الى العدل والمساواة ، والعتبي الرضا ، والمعنى ان الإمام على بصيرة من دينه يمضي فيه ، ويصر عليه ، ولا يسخط الله برضا الناس مهما كانت الظروف والنتائج (رحم الله رجلاً رأى حقاً الخ) .. لا خير فيمن لا يقاوم الفساد والجور ، ولا يناصر الحق والعدل . قال رسول الله (ص) : من رأى منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان » .

وتسأل : إن تقديم اليد على اللسان يتنافى مع هو معروف شرعاً وعقلاً وعرفاً من تقديم اللسان على اليد حيث يجب أولاً النهي عن المنكر، فإن لم يجد فالحرب ؟
الجواب :

فرق بعيد بين تغيير المنكر ، وبين النهي عنه ، فإن النهي في الغالب يكون قبل الوقوع ، فهو أشبه بالوقاية ، أما تغيير المنكر فيكون بعد وقوعه، وموضوع الحديث الشريف تغيير ما وقع بالفعل من المنكر، لا النهي عن ارتكابه قبل الوقوع.

الخطبة

- ٢٠٤ -

لا تكونوا سبّايين :

إِنِّي أَكْرَهُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا سَبَّايِينَ ، وَلَكِنَّكُمْ لَوْ وَصَفْتُمْ أَعْمَالَهُمْ
وَذَكَرْتُمْ حَالَهُمْ كَانَ أَصَوْبَ فِي الْقَوْلِ وَأَبْلَغَ فِي الْعُذْرِ ، وَقُلْتُمْ مَكَانَ
سَبِّكُمْ إِيَّاهُمْ : اللَّهُمَّ أَحْقِنِ دِمَاءَنَا وَدِمَاءَهُمْ ، وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا وَبَيْنِهِمْ ،
وَأَهْدِهِمْ مِنْ ضَلَالَتِهِمْ حَتَّى يَعْرِفَ الْحَقَّ مِنْ جِهَلِهِ وَيَرْعُوِي عَنِ الْغَيِّ
وَالْعُدْوَانِ مَنْ لَهَجَ بِهِ .

اللغة :

ذات الشيء نفسه ، وذات الصدور بواطنها ، وذات الشمال جهتها ، وذات
اليمين الحال ، وهذا المعنى هو المراد هنا أي أصلح حالنا وحالهم ، ويرعوي عن
الشيء : ينصرف عنه ويرجع ، ولهج به : ولع به .

الإعراب :

سبكم من إضافة المصدر الى فاعله ، وإياهم مفعول سبكم ، وذات مفعول به

لأصلح ، لأنها بمعنى الحال. كما أشرنا ، وبيننا مجرور بالإضافة ، ويعرف منصوب بأن مضمرة بعد حتى .

المعنى :

قال الشريف الرضي: سمع الإمام قوماً من أصحابه يسبتون أهل الشام أيام حربهم بصفين فقال : (اني أكره لكم أن تكونوا سبابين) . قال أكثر العلماء : لا يحل لأحد أن يذكر آخر بجرمة اقترفها إلا إذا أعلنها المجرم ، وجاهر بها غير مكثرت بما قيل ويقال . وعن الإمام جعفر الصادق (ع) : « إذا جاهر الفاسق بنفسه فلا حرمة له ولا غيبة » . أما السب واللعن فهو محرم بالذات ، ومن أكبر الكبائر بمخاصة على الطيبين الأخيار .. ولا يحل على أحد بحال إلا بالإذن والترخيص من صاحب الدين والشرع ، وقد أذن بذلك في موارد ، منها :

١ - اللعنة على إبليس ، قال تعالى : « وان عليك اللعنة إلى يوم الدين - ٣٥ الحجر » .

٢ - كل من يكتم الحق ، أو يحرفه عن قصد ، قال سبحانه : « ان الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون - ١٥٩ البقرة » .

٣ - كل مناقق دجال ، قال عز من قائل : « لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض - الى - ملعونين أينما ثقفوا - ٦١ الأحزاب » .

٤ - المفسدون ، قال عظمت كلمته : « ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار - ٢٥ الرعد » . وبخاصة إذا كان الفساد بالظلم حيث خص سبحانه الظالمين باللعن صراحة : « إلا لعنة الله على الظالمين - ١٨ هود » .

وليس من شك ان أهل صفين ظلموا وأفسدوا في الأرض ، وقد نعتهم النبي (ص) بالفئة الباغية ، ولذا جاز قتالهم ، فيجوز سبهم بطريق أولى . وعلى هذا فنهي الإمام هنا محمول على ان الترك أولى ، وان غير السب أفضل وأجدي ، وهو ما أشار اليه بقوله : (ولكنكم لو وصفتم أعمالهم الخ) .. وهذا الذي ذكره الإمام بالغ الأهمية والأثر ، وهو من أحدث أساليب الحرب في العصر الحديث ، ويُسمى بالحرب الدعائية ، وهي اقناع الرأي العام بأن الخصم هو الباغى والمعتدى ،

وانه لا يقيم وزناً للقوانين الدولية ، ولا للقيم الانسانية .. وقد ضرب المستعمرون والصهاينة الرقم القياسي في الدعايات الكاذبة ، وتلاعبوا بالألفاظ والعقول والحقائق .. انهم يعتدون ويقولون : نحن المعتدى عليهم ، ويقتلون بالجملة ويقولون : نحن أنصار السلم والعدل .

وقد أثبتت التجارب ان أية قضية مهما كانت حقاً وعدلاً فلإنها تحتاج إلى الدعاية والدعاة ، لأن التأثير النفسي من قوى التنفيذ للحق وإبطال الباطل ، وهذا ما أراده الإمام بقوله : (وأبلغ في العذر) أما قوله : (كان أصوب في القول) فلإنه يشير الى وجوب الأخذ بالعدل والإنصاف حتى مع أعدى الأعداء ، وانه لا يحل الافتراء عليه بما هو بريء منه عملاً بقوله تعالى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى - ٨ المائدة » .

(اللهم احقق دماءنا ودماءهم الخ) .. المؤمن المخلص يكظم غيظه ، ولا يشفيه بالانتقام من عدوه ، والتنكيل به ، ويسأل الله سبحانه أن يصلح الحال ، ويزيل ما في نفس العدو من أوهام وأضغان ، وأن يهديه سبيل الخير والرشاد . كما قال الرسول الأعظم (ص) : اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون . وأيضاً هذا الدعاء من الدعاية الحكيمة العادلة ضد العدو والحصم .

الخطبة

- ٢٠٥ -

نسل رسول الله (ص) :

اُمَلِكُوا عَنِّي هَذَا الْغُلَامَ لَا يَهْدِيَنِي ، فَإِنِّي أَنفَسُ بِهِدَيْنِ (يَعْنِي الْحَسَنَ
وَالْحُسَيْنَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ) عَلَى الْمَوْتِ لِثَلَاثٍ يَنْقَطِعُ بِهِمَا نَسْلُ رَسُولِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ .

اللغة :

املكوا عني : خلدوا عني . وأنفس بهدين : أبخل بهما .

الإعراب :

لا يهديني - بفتح الدال - على نصب المضارع ، لأن الأصل لثلاث يهديني .

المعنى : .

قال الشريف الرضي: في بعض أيام صفين رأى الإمام ولده الحسن (ع) يسرع الى

الحرب فقال لأصحابه : (املكوا عني هذا الغلام الخ) .. الحسن والحسين هما ابنا رسول الله شرعاً لا عرفاً ، لقوله تعالى : « فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم - ٦١ آل عمران » وما دعا النبي (ص) أحداً من الأبناء غير الحسن والحسين ، ومن النساء غير فاطمة ، وما كان من الأنفس إلا هو والإمام باتفاق المفسرين . وقال (ص) : « كل ولد آدم فإن عصبتهم لأبيهم خلا ولد فاطمة ، فلإني أنا أبوهم وعصبتهم » . وتقدم الكلام عن ذلك في شرح الخطبة ٢٠٠ فقرة : فاطمة .

وتسأل : إن الإمام الحسن ولد في شهر رمضان المبارك سنة ثلاث من الهجرة ووقعة صفين كانت سنة ٣٦ فيكون عمره الشريف ٣٣ فكيف أطلق الإمام عليه كلمة غلام ؟.

الجواب :

جاء في قواميس اللغة ان كلمة غلام للكبير والصغير ، وان العرب يطلقونها على الذكر ساعة ولادته ، ويقولون : رزق فلان غلاماً ، وعلى من طر شاربه وعلى الكهل .

الخطبة

- ٢٠٦ -

كنت أميراً فأصبحت مأموراً :

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَمْ يَزَلْ أَمْرِي مَعَكُمْ عَلَى مَا أَحْبَبْتُ حَتَّى نَهَكْتَكُمْ
الْحَرْبُ ، وَقَدْ وَاللَّهِ أَخَذْتُ مِنْكُمْ وَتَرَكْتُ ، وَهِيَ لِعَدُوِّكُمْ أَنْهَكُ .
لَقَدْ كُنْتُ أَمْسِ أَمِيرًا فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَأْمُورًا . وَكُنْتُ أَمْسِ نَاهِيًا
فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَنِيئًا . وَقَدْ أَحْبَبْتُمُ الْبَقَاءَ وَلَيْسَ لِي أَنْ أُحِلَّكُمْ عَلَى
مَا تَكْرَهُونَ .

المعنى :

في كتاب «الإمامة والسياسة» لابن قتيبة ص ١١٨ طبعة ١٩٥٧ ما نصه بالحرف:
« لما عظم الأمر - أي في صفين - واستحضر القتال قال للإمام رأس من أهل
العراق : ان هذه الحرب قد أكلتنا ، وأذهبت الرجال ، والرأي المودعة ،
وقال بعضهم : لا ، بل نقاتلهم اليوم على ما قاتلناهم بالأمس ، وكانت الجماعة
قد رضيت ، وجنحت الى الصلح والمسالمة ، فقام علي خطيباً فقال الخ ..
وذكر ابن قتيبة هذه الخطبة كما هي في نهج البلاغة بلا تقليد أو تطعيم .

(أيها الناس انه لم يزل أمري معكم على ما أحب) . كنتم صفاً واحداً على حرب أهل الشام ، كما أحببت وأردت ، ومضيتم في قتالهم على هدى وبصيرة مختارين لا مكرهين ، ولما اشتدت نار الحرب وهنتم وتخاذلتم ، وتفرقت كلمتكم .. أهذا تكيدون عدو الله وعدوكم ؟ (وقد والله أخذت منكم وتركت) . أجل ، لقد استشهد منكم في هذه الحرب من استشهد كأية حرب من الحروب ، ولكن بقي منكم ما فيه الكفاية وزيادة ، فامضوا في الجهاد قدماً حتى النصر ، وما هو منكم ببعيد (وهي لعدوكم أنهلك) أي نالت الحرب منه أكثر مما نالت منكم .

(لقد كنت أمس أميراً) تسمعون لي وتطيعون قبل حرب صفين (فأصبحت اليوم - أي بعد الحرب - مأموراً الخ) .. كان الإمام ينصح أصحابه، ويرشدهم سواء السبيل ، ويدع الخيار لهم فيما يرون ، وقد نهاهم عن قبول التحكيم، ويبتن لهم ان رفع المصاحف حيلة وغيلة ، فأصروا على الضلال، وسكت هو دفعاً للضرر الأشد بالضرر الأخف . وسبق الكلام عن ذلك مراراً ، منها في الخطبة ١٢٠ .

(وقد أحببت البقاء) وما أحب الحياة قوم إلا ذلّوا (وليس لي أن أحلّكم على ما تكرهون) لأن الجهاد فريضة كالصلاة وعلى الانسان أن يؤديها بملء إرادته . بالإضافة الى ان القتال بلا ايمان وقناعة لا يحقق الغرض المطلوب ، وربما أدى الى عكسه . وهذه هي سيرة رسول الله (ص) في جميع حروبه ، ينادي مناديه بالحرب ، فمن استجاب لها فقد استجاب لله ورسوله ، ومن تخلف عنها وأعرض فحسابه على ربه : « يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ، يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال - ٦٤ الأنفال ، .

الخطبة

- ٢ ٧ -

العلاء وأخوه عاصم :

مَا كُنْتُ تَصْنَعُ بِسِيعَةِ هَذِهِ الدَّارِ فِي الدُّنْيَا . وَأَنْتَ إِلَيْنَا فِي الْآخِرَةِ
 كُنْتَ أَحْوَجَ ، وَبَلَى إِنَّ شُئْتَ بَلَغْتَ بِهَا الْآخِرَةَ تَقْرِي فِيهَا الضَّيْفَ وَتَصِلُ
 فِيهَا الرَّحِمَ ، وَتُطْلِعُ مِنْهَا الْحُقُوقَ مَطَالِعَهَا ، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ بَلَغْتَ بِهَا
 الْآخِرَةَ . يَا عُدَيَّ نَفْسِهِ لَقَدْ اسْتَهَامَ بِكَ الْحَبِيبُ ، أَمَا رَحِمْتَ أَهْلَكَ
 وَوَلَدَكَ . أَتَرَى اللَّهَ أَحَلَّ لَكَ الطَّيِّبَاتِ وَهُوَ يَكْرَهُ أَنْ تَأْخُذَهَا ؟
 أَنْتَ أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ ذَلِكَ . وَيَحْكُ إِلَيَّ لَسْتُ كَأَنْتَ ، إِنَّ اللَّهَ
 فَرَضَ عَلَى أُمَّةٍ الْعَدْلَ أَنْ يُقَدِّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِضَعْفَةِ النَّاسِ كَيْلًا يَتَّبِعَ
 بِالْفَقِيرِ فَقْرُهُ .

اللغة :

تُطْلِعُ : تُظْهِرُ أَوْ تُوْدِي . وَمَطَالِعَهَا : مَوَاضِعُهَا . وَيُقَدِّرُ : يَقِيسُ أَوْ يُشَبِّهُ .
 وَيَتَّبِعُ : يَتَّبِعُ بِهِ .

الإعراب :

ما للاستفهام مبتدأ ، وكنت زائدة ، وجملة تصنع خبر المبتدأ ، وويحك كلمة ترحم ، ونُصبت بفعل محذوف أي ألزمتك الله ويحاً أي رحمة ، وتستعمل للتوجع والتعجب ، وكانت الكاف بمعنى مثل خبراً وليس أي لست مثلك .

لا سلبية في الاسلام .

قال الشريف الرضي : كان الإمام بالبصرة ، فدخل على العلاء بن زياد الحارثي يعود ، وهو من أصحابه ، فلما رأى سعة داره قال : (ما كنت تصنع بسعة هذه الدار في الدنيا الخ) .. الانسان يحب الحياة والمال بطبعه ، والاسلام لا ينهي عن الثراء المشروع ، ولا يكره الرفاهية والطيبات من الرزق : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق - ٣٢ الأعراف » شريطة أن يكون هذا الثراء عوناً على الحق ، ووسيلة لمرضاة الله وثوابه ، لا للطغيان والمضاهاة والمباهاة . قال رسول الله (ص) : من طلب الدنيا مكائراً مفاخراً لقي الله ، وهو عليه غضبان ، ومن طلبها استعفافاً وصيانة لنفسه جاء يوم القيامة ، ووجهه كالقمر ليلة البدر . وقال رجل للإمام جعفر الصادق (ع) : اني أحب الدنيا . قال : تصنع بها ماذا ؟ قال : أتزوج منها وأحج وأنفق على عيالي وأنيل اخواني وأتصدق . قال الإمام : ليس هذا من الدنيا ، هذا من الآخرة . وتقدم الكلام عن ذلك في شرح الخطبة ٩٧ .

وأيضاً يأمر الإسلام بالعلم والعمل ، وممارسة الحياة بحلوها ومرها ، ومشاركة المجتمع في سرائره وضرائره ، والتعاون من أجل حياة أفضل ، وإقامة العلاقات على هذا الأساس ، ومقاومة الفساد والمنكر ، قال تعالى : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » والسعي حركة لا جمود ، ونضال لا اعتزال من أجل العبادة ، بل تعاون من أجل الصالح العام ، ومساهمة في تحمل المسؤولية . قال رسول الله (ص) : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » . وقال : « الدين النصيحة لله ورسوله ولعامة المسلمين .. من لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » . بهذه التعاليم وغيرها كان للمسلمين تاريخ وحضارة .

قال العلاء : يا أمير المؤمنين أشكو اليك أخي عاصم . قال : وماله ؟ قال لبس العباءة وتخلّى عن الدنيا . قال عليّ به . فلما جاء قال الإمام : (يا عدي نفسه) بضم العين تصغير عدو (لقد استهام بك الخبيث) أزلك الشيطان ، وجعلك هائلاً لا تهتدي الى رشد (اما رحمت أهلك وولدك الخ) ؟ كيف تقعد عن السعي والعمل ، وأنت مسؤول أمام الله عن أسرتك ومجتمعك ؟ وهل منحك سبحانه القدرة والعقل : وأودع فيك ما أودع من الطاقات لمجرد أن تلبس العباءة وتقيم الصلاة ؟ وهل تستقيم الأمور ، وتمتلئ البطون ، وتسكن النفوس بهذا الجمود، وهذه السلبية ؟ وهل تدفع منكراً ، وتنشر معروفاً بهذا الجمول والانزواء ؟ قال عاصم : يا أمير المؤمنين هذا أنت في خشونة ملبسك وجشوبة مأكلك . قال الإمام : (ويحك، اني لست كأنت الخ) .. على القائد أعباء قاسية وجسيمة، وأولها إقامة العدل والمساواة بين الناس في السراء والضراء على أن يبدأ القائد بنفسه وأهله .. وان وُجد فقير واحد في رعيته عمل لدفع المضرة عنه ، وان عجز شاركه في مكاره العيش لثلاث بزداد ألماً على ألم ، أو يعيبه ويعيره ببلواه عائب ومعير ما دامت هذه هي حال الخليفة ودنياه .

وإذن فخشونة الإمام في عيشه جزء من جهاده وعمله من أجل الفقراء والمستضعفين، وفضيلة من فضائل القادة والحاكمين ، أما خشونة عاصم وأمثال عاصم فجمود وانهازام .

وتجدر الإشارة الى أن صاحب « منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة » كتب حول هذه الخطبة ٣٦٥ صفحة بقياس كتابي هذا ١. وكان الأجدر أن يفرد لها في كتاب مستقل عن الصوفية .

الخطبة

- ٢٠٨ -

الأحاديث .. فقرة ١ - ٤ :

إِنَّ فِي أَيْدِي النَّاسِ حَقًّا وَبَاطِلًا . وَصِدْقًا وَكَذِبًا . وَنَاسِحًا وَمَنْسُوحًا
وَعَامًّا وَخَاصًّا . وَنُحْكَمًا وَمُتَشَابِهًا . وَحِفْظًا وَوَهْمًا . وَلَقَدْ كَذَبَ
عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَلَى عَهْدِهِ حَتَّى قَامَ خَطِيبًا
فَقَالَ : « مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » (١) .
وَلِئَمَّا أَتَاكَ بِالْحَدِيثِ أَرْبَعَةُ رِجَالٍ لَيْسَ لَهُمْ خَامِسٌ : رَجُلٌ مُنَافِقٌ
مُظْهِرٌ لِلْإِيمَانِ ، مُتَصَنِّعٌ بِالْإِسْلَامِ لَا يَتَأَثَّمُ وَلَا يَتَحَرَّجُ ، يَكْذِبُ
عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مُتَعَمِّدًا ، فَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّهُ
مُنَافِقٌ كَاذِبٌ لَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُ وَلَمْ يُصَدِّقُوا قَوْلَهُ ، وَلَكِنَّهُمْ قَالُوا
صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ رَأَى وَسَمِعَ مِنْهُ وَلَقِيَ عَنْهُ
فَيَأْخُذُونَ بِقَوْلِهِ ، وَقَدْ أَخْبَرَكَ اللَّهُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ بِمَا أَخْبَرَكَ ،

وَوَصَّفَهُمْ بِمَا وَصَّفَهُمْ بِهِ لَكَ ، ثُمَّ بَقُوا بَعْدَهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ السَّلَامُ
فَتَقَرَّبُوا إِلَى أَيْمَةِ الضَّلَالَةِ وَالِدُعَاةِ إِلَى النَّارِ بِالزُّورِ وَالْبُهْتَانِ ، فَوَلَّوهُمْ
الْأَعْمَالَ وَجَعَلُوهُمْ حُكَمَاءَ عَلَى رِقَابِ النَّاسِ ، وَأَكَلُوا بِهِمُ الدُّنْيَا . وَإِنَّمَا
النَّاسُ مَعَ الْمُلُوكِ وَالْدُّنْيَا إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللَّهُ فَهُوَ أَحَدُ الْأَرْبَعَةِ^(٢) .
وَرَجُلٌ سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ شَيْئاً لَمْ يَحْفَظْهُ عَلَى وَجْهِهِ فَوَهِمَ فِيهِ ، وَلَمْ
يَتَعَمَّدْ كَذِباً فَهُوَ فِي يَدَيْهِ وَيَرَوِيهِ وَيَعْمَلُ بِهِ وَيَقُولُ أَنَا سَمِعْتُهُ مِنْ
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَلَوْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّهُ وَهِمَ فِيهِ لَمْ
يَقْبَلُوهُ مِنْهُ ، وَلَوْ عَلِمَ هُوَ أَنَّهُ كَذَلِكَ لَرَفَضَهُ . وَرَجُلٌ ثَالِثٌ سَمِعَ
مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ شَيْئاً يَأْمُرُ بِهِ ثُمَّ نَهَى عَنْهُ وَهُوَ
لَا يَعْلَمُ ، أَوْ سَمِعَهُ يَنْهَى عَنْ شَيْءٍ ثُمَّ أَمَرَ بِهِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ ، فَحَفِظَ
الْمَنْسُوخَ وَلَمْ يَحْفَظِ النَّاسِخَ ، فَلَوْ عَلِمَ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ لَرَفَضَهُ ، وَلَوْ عَلِمَ
الْمُسْلِمُونَ إِذْ سَمِعُوهُ مِنْهُ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ لَرَفَضَهُ^(٣) . وَآخَرُ رَابِعٌ لَمْ
يَكْذِبْ عَلَى اللَّهِ وَلَا عَلَى رَسُولِهِ ، مُبْغِضٌ لِلْكَذِبِ خَوْفاً مِنَ اللَّهِ
وَتَعْظِيماً لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَلَمْ يَهْمُ ، بَلْ حَفِظَ مَا سَمِعَ
عَلَى وَجْهِهِ ، فَجَاءَ بِهِ عَلَى مَا سَمِعَهُ لَمْ يَزِدْ فِيهِ وَلَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ ،
فَحَفِظَ النَّاسِخَ فَعَمِلَ بِهِ ، وَحَفِظَ الْمَنْسُوخَ فَجَنَّبَ عَنْهُ ، وَعَرَفَ
الْخَاصَّ وَالْعَامَّ فَوَضَعَ كُلَّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ ، وَعَرَفَ الْمُتَشَابِهَ وَتَحْكَمَهُ^(٤) .

اللغة :

لا يتأثم ولا يتحرج : لا يتجنب الإثم والحرَج . ولقف : تناول بسرعة .
ولم يهم : من الوهم لا اليهم أي الجنون . والمحكم الواضح . والمتشابه :
المشكل .

الإعراب :

خطيئاً حال ، ومثله متممداً ، ورجل وما بعده من الرجال الى الرابع بدل
مفصل من مجمل ، والمبدل منه أربعة ، ومبغض صفة لرابع ، وخوفاً مفعول
من أجله للفعل المنفي ، وهو لم يكذب .

المعنى :

(إن في أيدي الناس حقاً وباطلاً الخ) .. اتفق السنة والشيعه ان أحاديثهم
المروية عن رسول الله (ص) - فيها الضعيف والصحيح ، ومن هنا وضعوا عشرات
الكتب في علم الرجال ، وهو يبحث عن حال كل واحد من رواة الحديث على
حدة ، وانه هل هو ثقة في النقل أو غير ثقة ؟ وأيضاً وضعوا كتباً في علم
الدراية، ويبحث هذا العلم عن صفة الحديث من حيث المتن والسند والتواتر وعدهه ،
والإرسال وغيره .. الى غير ذلك مما هو مذكور في كتب الدراية .
(وناسخاً ومنسوخاً ، وعاماً وخاصاً ، ومحكماً ومتشابهاً) ذكرنا تحديد معاني
هذه الكلمات في شرح الخطبة الأولى ج ١ ص ٦٥ (وحفظاً ووهماً) . والمراد
بالحفظ ضبط الحديث كما هو عن رسول الله (ص) وعدم الخطأ فيه والذهول ،
والوهم ضده (من كذب عليّ فليتبوأ مقعده من النار) . لا ريب في هذا
الحديث باتفاق المذاهب . وكان النفاق والكذب على الله وملائكته ورسوله ، وعلى
الناس ، بل وعلى نفس الكاذب، كان قبل النبي (ص) وبعده .. والى آخر يوم .
وقال قائل : « إن الانسان هو الحيوان الذي يستطيع أن يكذب » .

ثم قسم الإمام رواة الحديث الى أربعة أقسام :

١ - (رجل منافق مظهر للإيمان متصنع بالاسلام الخ) . والمتصنع هو الذي

يُظهر من نفسه ما ليس فيه ، وكان المنافقون يكفرون بالله ورسوله ، ويستخفون بكفرهم هذا ، ويقولون بألسنتهم : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ليعصموا دماءهم وأموالهم ، وقد أنزل الله فيهم سورة خاصة في كتابه العزيز ، واستمروا بعد النبي (ص) على النفاق ، وكان المسلمون يعاملونهم كسائر الصحابة المؤمنين جهلاً بدخيلتهم ، ويرجعون إليهم في الكثير من أمور دينهم ، ومن ارتاب بواحد منهم يسكت ولا يجراً على الطعن فيه ، لأنه يتحصن بصحبة رسول الله (ص) وبقيت هذه الحصانة لجميع الصحابة عند السنة الى يومنا هذا . قال الغزالي في المستصفى : « ان عدالة الصحابة معلومة » وتكررت هذه الجملة في العديد من كتب أصول الفقه للسنة .

(فتقربوا الى أئمة الضلالة) . كان المنافقون وما زالوا يكيّفون الدين وأحكامه وفقاً لأهواء الأقوياء والحاكمين ، ويقبضون الثمن وظيفه في الدولة ، أو دواهم معدودات .

٢ - (ورجل سمع من رسول الله شيئاً لم يحفظه على وجهه الخ) .. قال علماء المسلمين : يشترط في راوي الحديث من جملة ما يشترط أن يكون من الدين يحسن ضبط ما يسمعون ويؤدونه على وجهه ، ولا ثقة بقول من لا يحسن الضبط وإن لم يكن فاسقاً .

٣ - (ورجل ثالث سمع من رسول الله (ص) شيئاً يأمر به ، ثم انه نهى عنه الخ) .. كان رسول الله (ص) يبلّغ بعض الأحكام ، فيسمعه من كان حاضراً ، وقد يكون الحاضر السامع صادقاً واعياً لما سمع ، ولكن الرسول قد ينهى عما كان قد أمر به من قبل ، لأن المصلحة التي أوجبت العمل قد انتهت وذهبت بذهاب وقتها ، فيسمع النهي من حضر غير الذي سمع الأمر ، فينقل عن النبي النهي من سمعه ، وينقل الأمر من سمعه أيضاً ، والإحاطة بجميع أحاديث الرسول (ص) أمر عسير .

٤ - (وآخر رابع لم يكذب على الله الخ) .. هذا الرابع عالم قدير كما هو راوٍ ثقة وخبير ، يميز بين موارد الحقيقة والمجاز ، وبين الحديث الواضح الذي لا يجوز تأويله بحال ، والمشكل الذي يمكن تأويله بما يتفق مع العقل ومقاصد الشريعة ، ويعرف العمومات والمطلقات ، وما يعارض المعنى الظاهر من المخصصات

والمطلقات ، ويجمع بينها بما يقتضيه الفن والصناعة ، وأيضاً يعرف زمن النسخ وزمن النسخ ، ولا يخلط بين المتقدم والمتأخر ، ويضع كل شيء في موضعه .
ولا يجوز الأخذ والعمل برواية الأول والثاني إطلاقاً ، وأما الثالث فيؤخذ بروايته نظرياً إذا كان صادقاً ضابطاً ، ولا يجوز الأخذ بها عملياً إلا بعد التتبع والبحث عما يعارض الرواية من الأدلة والقرائن ، فإن لم نجد المعارض عملنا بها كما هي ، وإلا قارنا بينها وبين المعارض ، وعملنا بما تستدعيه الأصول والقواعد ، والرابع كالثالث ، ولا أثر للعلم وكثرته في صحة الحديث وقوته .

كلام ذو وجهين .. فقرة ٥ :

وَقَدْ كَانَ يَكُونُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الْكَلَامُ لَهُ
وَجَهَانٍ : فَكَلَامٌ خَاصٌّ وَكَلَامٌ عَامٌّ ، فَيَسْمَعُهُ مَنْ لَا يَعْرِفُ مَا
عَنِ اللَّهِ بِهِ وَلَا مَا عَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ،
فَيَحْمِلُهُ السَّمْعُ وَيُوجِّهُهُ عَلَى غَيْرِ مَعْرِفَةٍ بِمَعْنَاهُ وَمَا قَصِدَ بِهِ وَمَا خَرَجَ
مِنْ أَجْلِهِ . وَلَيْسَ كُلُّ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ
كَانَ يَسْأَلُهُ وَيَسْتَفْهِمُهُ حَتَّى أَنْ كَانُوا لِيُحِبُّونَ أَنْ يَجِيءَ الْأَعْرَابِيُّ
وَالطَّارِئُ فَيَسْأَلَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى يَسْمَعُوا . وَكَانَ لَا يَمُرُّ بِي مِنْ
ذَلِكَ شَيْءٌ إِلَّا سَأَلْتُ عَنْهُ وَحَفِظْتُهُ . فَهَذِهِ وَجْهُ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ فِي
اخْتِلَافِهِمْ وَعَلَلِهِمْ فِي رِوَايَاتِهِمْ^(٥) .

الإعراب :

قد كان يكون « كان » زائدة ، و « يكون » تامة والكلام فاعلها ، ومن الرسول متعلق بمحذوف حالاً من الكلام ، ويجوز أن تكون ناقصة ، والكلام اسمها ، ومن الرسول خبرها ، وله وجهان مبتدأ وخبر ، والجملة صفة الكلام ، وحتى إن كانوا « إن » مخففة مهملة ، واللام بعدها للفرق بينها وبين إن النافية .

المعنى :

(وقد كان يكون من رسول الله (ص) الكلام له جهان الخ) .. ربما يكون بل كثيراً ما يكون للجسم الطبيعي جهتان تختلف إحداها عن الأخرى أشد الاختلاف حتى لو أخذت لكل جهة صورة على حدة ، ثم عرضتها على أي إنسان لتوهم أنها صورتان لكائنين مختلفين ، وما هما في الواقع إلا لكائن واحد من جهتين . ومن الكلام ما هو قطعي الدلالة مثل لا إله إلا الله .. وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه . وليس لهذا النوع إلا وجه واحد . ومن الكلام ما هو ظني الدلالة ، وهذا النوع يمكن أن يكون له وجهان أو أكثر كقوله تعالى : « اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم الى الكعبين - ٦ المائدة » فقد عطف السنة الأرجل على الوجوه فأوجبوا غسلها ، وعطفها الشيعة على الرؤوس فأوجبوا مسحها . ولكل دليله ، وعرضنا الدليلين في كتاب فقه الإمام الصادق (ع) .

وفي كلام الله ورسوله الكثير من هذا النوع (فيحمله السامع ، ويوجهه على غير معرفة بمعناه) . يسمع الكلام من المعصوم ، ولا يفتن لمراذه ، لأن له وجهين ، فيفسره بغير الوجه المراد ، وكان عليه أن يهتم نفسه ، ويسأل النبي (ص) عما أراد من قوله ، ولكن (ليس كل أصحاب رسول الله (ص) من كان يسأله) هيبة لعظمته ، أو حرصاً على راحته (حتى ان كانوا يحبون أن يجيء الأعرابي والطائر فيسأله حتى يسمعوا) . انهم يشعرون بالحاجة الى تعلم العلم من النبي ، ولكنهم يكفون بعض الأحيان عن سؤاله لما أشرنا، ويتمنون أن يأتي من يفتح لهم الباب .

على العكس من الإمام فإنه كما قال : (وكان لا يمر بي من ذلك شيء إلا سألت عنه وحفظته) . قال الطبري في تفسيره ج ٢٩ ص ٣٥ طبعة بولاق بمصر سنة ١٣٢٣ هـ . : « إن رسول الله قال : يا علي إن الله أمرني أن أدنيك ولا أقصيك ، وأن أعلمك وأن تعي ، وحق على الله أن تعي » . فنزلت هذه الآية : « وتعيها اذن واعية » .

الخطبة

- ٢٠٩ -

حول الكون :

وَكَانَ مِنْ أَقْتِدَارِ جَبَرُوتِهِ وَبَدِيعِ لَطَائِفِ صَنَعَتِهِ أَنْ جَعَلَ مِنْ مَاءِ
الْبَحْرِ الزَّائِحِ الْمَتْرَاكِمْ الْمُتَقَاصِفِ يَبَسًا جَامِدًا . ثُمَّ فَطَرَ مِنْهُ أَطْبَاقًا
فَفَتَقَهَا سَبْعَ سَمَوَاتٍ بَعْدَ ارْتِاقِهَا فَاسْتَمْسَكَتْ بِأَمْرِهِ ، وَقَامَتْ عَلَى
حَدِّهِ . وَأَرَسَى أَرْضًا يَحْمِلُهَا الْأَخْضَرُ الْمُشْعَنْجَرُ وَالْقَمَقَامُ الْمُسَخَّرُ . قَدْ
ذَلَّ لِأَمْرِهِ ، وَأَذْعَنَ لِهَيْئَتِهِ ، وَوَقَفَ الْجَارِي مِنْهُ لِحَشِيَّتِهِ . وَجَبَلَ
جَلَامِيدَهَا وَنُشُوزَ مُتُونِهَا وَأَطْوَادَهَا . فَأَرَسَاهَا فِي مَرَاسِيهَا . وَأَلْزَمَهَا
قَرَارَتَهَا فَمَضَتْ رُؤُوسُهَا فِي الْهَوَاءِ ، وَرَسَتْ أَصُولُهَا فِي الْمَاءِ . فَأُنْهَدَ
جَبَالُهَا عَنْ سُهُولِهَا ، وَأَسَاخَ قَوَاعِدُهَا فِي مُتُونِ أَقْطَارِهَا وَمَوَاضِعِ
أَنْصَابِهَا . فَأَشْهَقَ قِلَالُهَا ، وَأَطَالَ أَنْشَاؤُهَا . وَجَعَلَهَا لِلْأَرْضِ عِمَادًا ،
وَأَرْزَاهَا فِيهَا أَوْتَادًا فَسَكَنَتْ عَلَى حَرَكَتِهَا مِنْ أَنْ تَمِيدَ بِأَهْلِهَا أَوْ تَسِيخَ

يَحْمِلُهَا أَوْ تَرُولَ عَنْ مَوَاضِعِهَا . فَسُبْحَانَ مَنْ أَمْسَكَهَا بَعْدَ مَوْجَانِ
مِيَاهِهَا ، وَأَجَدَهَا بَعْدَ رُطُوبَةِ أَكْنَفِهَا . فَجَعَلَهَا لِخَلْقِهِ مِهَاداً ، وَبَسَطَهَا
لَهُمْ فِرَاشاً فَوْقَ بَحْرِ لُجِّيٍّ رَاكِدٍ لَا يَجْرِي ، وَقَانِمٍ لَا يَسْرِي .
تُكَرِّرُهُ الرِّيَّاحُ الْعَوَاصِفُ . وَتَمَخُّضُهُ الْغَمَامُ الذَّوَارِفُ . إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى .

اللغة :

الزواجر : الملاّن . والتقاصُفُ : تراحم الأمواج يقصف بعضها بعضاً . واليبس :
اليابس . وفطر : خلق . والأطباق : الطبقات . والرتق : ضد الفتق . والمثعجر :
الماء الكثير . والقمقام : البحر . وجبل : خلق . والجلاميد : الصخور .
والنشوز : الارتفاع . وأنهد : رفع . وأساخ : أدخل . والأنصاب : جمع
نصب ، وهو المنتصب . وأشهى : جعلها شاهقة . وقلال : جمع قلة ، وقلة
الجلل أعلاه . وارزها : ثبتها . وتميد : تضطرب . وأكنافها : جوانبها أو
أقطارها . والمهاد : الفرش . وتكركره : تحركه وتردده . والذوارف : من ذرف
الدمع إذا سال .

الإعراب :

المصدر من أن جعل اسم مؤخر لكان ، ومن اقتدار خبر مقدم ، وأوتاداً
حال من هاء أرزها .

المعنى :

أشار الإمام في هذه الخطبة الى خلق الكون ، وتقدمت هذه الإشارة منه أكثر
من مرة ، والغرض مجرد التنبيه الى قدرة الله وعظمته ، كما هو دأب القرآن

الكريم .. ولست من علماء الفلك والطبيعة كي أشرح وأجري المعادلات كما يفعل المتخصصون ، واذا ذكرت شيئاً من ذلك فإنما ألنقطه من أقوالهم ، وأنقله عنهم للقارئ . وفعلت ذلك في شرح الخطبة الأولى وغيرها . ولذا أختصر هنا ما أمكن .

(وكان من اقتدار جبروته ، وبديع لطائف صنعته) . الجبروت القدرة والسلطة ، والبديع المبتدع والمخترع ، ولطائف الصنعة جودتها ودقتها التي تدل على قدرة صانعها وعظمته (ان جعل ماء البحر الزخار الخ) .. يشير بهذا الى ان الكون خلق من الماء . وتقدم الكلام عن ذلك في شرح الخطبة الأولى فقرة « حول الكون » (يحملها الأخضر المثلج) أي البحر ، وهو أخضر في رؤية العين (والقمام المسخر) سخر سبحانه البحر لمنفعة الناس وغيرهم من الخلق .

(ووقف الجاري منه لخشيته) الكون بكل ما فيه من بحار وظواهر حية وجامدة يسير على مبدأ النظام الذي أودعه الله فيه ، وقد مرت ألوف السنين أو ملايينها ، والكون على نظامه هذا ، وتمر أيضاً ملايين أخرى ، وهو على ما كان من ضبط ودقة وثبات ، ومن هنا استطاع العلماء أن يستخرجوا من ظواهر الطبيعة قوانين راسخة ثابتة إذ لا قانون بلا نظام ثابت (وجبل جلاييدها الخ) .. خلق سبحانه الصخر والجبال ، وجعل أصولها راسخة ، وأعاليلها شاحخة لتكون أوتاداً للأرض تمنعها من الانهيار والاضطراب . وتقدم مثله مع الشرح في الخطبة ٨٩ .

(فجعلها لخلق مهاداً ، وبسطها لهم فراشاً فوق بحر لحي الخ) .. قال أحمد زكي في كتاب « مع الله في السماء » ما يتلخص بأن في الأرض صخراً ، يغمر أكثره طبقة من ماء ، وفوق الصخر والماء طبقة من هواء ، ونحن بني الانسان والحيوان والنبات نعيش في أعماق هذه الأشياء الثلاثة ، فن الهواء نستمد أنفاسنا ، ويبنى النبات جسمه ، ونحن نأكل النبات والحيوان الذي يأكل النبات ، ومن كليهما نبنى أجسامنا .. نحن مقيدون بالأرض ، ولصالح الانسان كان هذا القيد ، ان الانسان لو ذهب في الأرض سفلاً لطمره الصخر ، أو ذهب في البحر نزولاً أغرقه الماء ، أو صعد في الهواء علواً تعذر عليه التنفس . فعن حكمة إذن كان ربط الانسان بهذه الأرض (ان في ذلك لعبرة لمن يخشى) الله وسطوته .

وبعد، فلا شيء لدي أقوله هنا إلا ان أكرر مع القرآن الكريم ونهج البلاغة :
ان هذا النظام الدقيق الذي يجري عليه الكون من مجراته الى الذرة ، ومنذ وجوده
الى نهايته ، والذي يعلم الانسان ما ينبغي أن يتعلم ، ان هذا النظام العليم الحكيم
ينطق بصراحة ، ويقول بوضوح لكل ذي قلب وسمع : سبح - معي - اسم
ربك الأعلى الذي خاق فسوى ، والذي قدر فهدى .

القطبة

- ٢١٠ -

المقالة العادلة :

اللَّهُمَّ أَيُّمَا عَبْدٍ مِنْ عِبَادِكَ سَمِعَ مَقَالَتَنَا الْعَادِلَةَ غَيْرَ الْجَائِرَةِ ، وَالْمُضِلَّةَ فِي الدِّينِ وَالْدُّنْيَا غَيْرَ الْمُفْسِدَةِ فَأَبَى بَعْدَ سَمْعِهِ لَهَا إِلَّا النُّكُوصَ عَنْ نُصْرَتِكَ ، وَالْإِبْطَاءَ عَنْ إِعْزَازِ دِينِكَ ، فَإِنَّا نَسْتَشْهِدُكَ عَلَيْهِ بِأَكْبَرِ الشَّاهِدِينَ شَهَادَةً . وَنَسْتَشْهِدُ عَلَيْهِ جَمِيعَ مَنْ أَسْكَنْتَهُ أَرْضَكَ وَسَمَوَاتِكَ ، ثُمَّ أَنْتَ بَعْدُ الْمُغْنِي عَنْ نَصْرِهِ وَالْآخِذُ لَهُ بِذَنْبِهِ .

الإعراب :

أَيُّمَا « ما » زائدة ، وأي مبتدأ ، وجملة سمع صفة لعبد ، وأبى عطف على سمع ، وجملة فَإِنَّا نَحْبِرُ أَي ، وبعْدُ ظَرْفٌ بِمَعْنَى الْآنَ ، وَهُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى الضَّمِّ ، وَالْمَغْنِي نَحْبِرُ أَنْتَ .

المعنى :

(اللهم أَيُّمَا عبد من عبادك سمع مقالتنا العادلة الخ) .. وهذه المقالة هي الدعوة

الى الحرب والضرب لا الى وليمة، ولكلّ أهل ، دعوة الى تحطيم الشر والفساد، واقتلاعه من الجذور .. ولكن من يسمع ، وهل يداوى الداء بالداء ، وتستخرج الشوكة بالشوكة على حد ما قال الإمام في الخطبة ١١٩ ؟

قضى رسول الله (ص) على الشرك والخرافات والتقاليد الفاسدة، وحطم زعامات البغي والضلال ، ولكن بمعونة الخواريين الذين وصفهم سبحانه بقوله : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم - ٢٩ الفتح » .. أبداً لا علاقة لهم إلا مع الله ، ولا يحبون ويبغضون إلا فيه ومن أجله .. لا يحملون ضغناً على مؤمن ، ولا يشهرون في وجهه سيفاً . ودعا الإمام دعوة النبي الى تحطيم قيادات البغي والفساد في الأرض، وهو في مستوى الدعوة والنهوض بأعبائها، ولكن المسلمين في عهده كانوا يتناحرون على السلطان ، ويقتل بعضهم بعضاً من أجله ، وما نجحت دعوة في التاريخ البشري كله إلا إذا اتفقت كلمة الأنصار ، وأحاطوها بقلوبهم ودافعوا عنها بدمائهم . وكان أصحاب الإمام كما خاطبهم في الخطبة ٩٥ : « يا أشباه الإبل غاب عنها راعيها، كلما جُمعت من جانب تفرقت من آخر » .

(فإننا نستشهدك عليه بأكبر الشاهدين شهادة) . ضمير عليه يعود الى من نكص عن دعوة الإمام ، وقال الشيخ محمد عبده : « أكبر الشاهدين هو النبي والقرآن » . والحق انه الله تعالى لقوله : « قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم - ١٩ الانعام » .

(ثم أنت بعد المغني عن نصره) . ان شئت ان تنصرونا فعلت ، وان نكص من نكص لأنك القائل : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله - ٢٤٩ البقرة » . (والآخذ له بذنبه » تعاقبه على التخلف عن نصرته الحق .

الخطبة

- ٢١١ -

تعظيم الله تعالى :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ عَنْ شَبَهِ الْمَخْلُوقِينَ ، الْغَالِبِ لِمَقَالِ الْوَاصِفِينَ ،
الظَّاهِرِ بِعَجَائِبِ تَذْيِيرِهِ لِلنَّاطِرِينَ ، الْبَاطِنِ بِجَلَالِ عِزَّتِهِ عَنْ
فِكْرِ الْمُتَوَهِّمِينَ . الْعَالِمِ بِأَلَا أَكْتِسَابٍ وَلَا أَرْذِيَادٍ وَلَا عِلْمٍ
مُسْتَفَادٍ ، الْمُقَدِّرِ لِجَمِيعِ الْأُمُورِ بِأَلَا رَوِيَّةٍ وَلَا ضَمِيرٍ . الَّذِي
لَا تَغْشَاؤُ الظُّلْمِ وَلَا يَسْتَضِيءُ بِالْأَنْوَارِ ، وَلَا يَرْتَهَقُهُ لَيْلٌ ، وَلَا
يَجْرِي عَلَيْهِ نَهَارٌ . لَيْسَ إِذْرَاكُهُ بِالْأَبْصَارِ وَلَا عِلْمُهُ بِالْأَخْبَارِ .
أَرْسَلَهُ بِالضِّيَاءِ وَقَدَّمَهُ فِي الْأَصْطِفَاءِ فَرَّتْ بِهِ الْمَفَاتِقُ ، وَسَاوَرَ بِهِ
الْمُغَالِبَ . وَذَلَّلَ بِهِ الصَّعُوبَةَ ، وَسَهَّلَ بِهِ الْحَزُونََةَ حَتَّى سَرَحَ الضَّلَالِ
عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ .

اللغة :

لا يرهقه ليل : لا يدركه . والرتق : ضد الفتق . وساور به : غلب به .
والخزونة : الخشونة . وسرَّح : أبعد .

الإعراب :

عن شبه متعلق بالعلي ، ولمقال اللام زائدة لمجرد التوكيد ، ومقال مفعول
الغالب .

المعنى :

(الحمد لله العلي) أي العالي بذاته وصفاته (عن شبه المخلوقين) لأن المخلوق
حادث وممكن ومحدود بدايةً ونهايةً ، والله واجب أزلي أبدي (والغالب لمقال
الواصفين) لا ترقى الأفهام الى الإحاطة بذاته وصفاته ، لأن للأفهام حداً تنتهي
عنده ، والمحدود لا يدرك المطلق الذي لا أول لأوله ولا آخر لآخره ، وإنما
يدرك وجوده من خلال آثاره .

(الظاهر بمعجائب تدبيره للناظرين) . الأفهام لا تدرك ذات الله سبحانه كما
أشرنا ، ولكنها تدرك انه قادر حكيم من خلال عظمة الكون ، ونظامه المحكم
الذي يسير عليه منذ القديم والى أن يشاء الله ، وأيضاً تدرك الأفهام ان الله رحمن
رحيم ، وجواد كريم من خلال النعم التي نلقاها فيها ، ونعيش عليها (والباطن
بجلال عزته عن فكر المتوهمين) كما عجزت الألسن عن وصف الذات عجزت
الأفكار أيضاً عن إدراكها والإحاطة بها ، وحسب هذه ان تستشعر قدرة الله
ورحمته وحكمته ، وحسب تلك أن تسبح بحمده ومجده .

(العالم بلا اكتساب الخ) .. بلا دراسة نهائياً ، ومطالعة ليلاً ، وبلا روى
فلان عن فلان .

وتسأل : إن الإمام يطيل ويكرر في هذا الموضوع ، كقوله في هذه الخطبة:
«بلا روية ولا ضمير .. ولا إبصار وإخبار» وقوله في الخطبة ١٥٠ : «بلا أداة»

وفي الخطبة ١٨٤ « لا يجوز فكرة » .. الى أمثال ذلك مع ان الأمر في غاية
الوضوح ، ويكفي القول : انه تعالى عالم بداته ، أو بلا اكتساب ؟.

الجواب :

كان الناس في عهد الإمام جديدي عهد بالإسلام ، وكان البعض منهم يقيس صفات
الخالق بصفات المخلوق .. حتى اليوم يوجد هذا النوع . وروي عن بعض الأعراب
انه نادى الله بقوله : يا أبيض الوجه ، وناداه آخر : يا أبا المكارم . فدعت
الحاجة الى التكرار والتوكيد .

(أرسله بالضياء الخ) .. اصطفى الله محمداً (ص) لحمل الأمانة ، وأداء
الرسالة ، فقام بها على أكمل وجه ، جمع شمل المتفرقين ، وقضى على الشرك
والمشركين ، ورفع راية الأمن والعدل ، وحرر الناس من العبودية والجهل ،
وجعلهم « سواسية كأسنان المشط » .

الخطبة

- ٢١٢ -

ان للخبر أهلاً .. فقرة ١ - ٣ :

وَأَشْهَدُ أَنَّهُ عَدْلٌ عَمَلٌ وَحَكْمٌ فَصَل . وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ
وَرَسُولُهُ وَسَيِّدُ عِبَادِهِ كَلَّمَآ نَسَخَ اللَّهُ الْخَلْقَ فِرْقَتَيْنِ جَعَلَهُ فِي خَيْرِهِمَا .
لَمْ يَسْهَمْ فِيهِ عَاهِرٌ وَلَا ضَرْبٌ فِيهِ فَاجِرٌ . أَلَا وَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ لِلْخَيْرِ
أَهْلًا . وَلِلْحَقِّ دَعَائِمَ ، وَلِلطَّاعَةِ عِصْمًا وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَ كُلِّ طَاعَةٍ
عَوْنًا مِنَ اللَّهِ يَقُولُ عَلَى الْأَلْسِنَةِ وَيُثَبِّتُ الْأَفْئِدَةَ . فِيهِ كَفَاءٌ لِمُكْتَفٍ ،
وَشِفَاءٌ لِمُشْتَفٍ ^(١) . وَأَعْلَمُوا أَنَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُسْتَخْفِظِينَ عِلْمَهُ يَصُونُونَ
مَصُونَهُ ، وَيُفَجِّرُونَ عُيُونَهُ . يَتَوَاصِلُونَ بِالْوِلَايَةِ . وَيَتَلَقَّوْنَ
بِالْمَحَبَّةِ . وَيَتَسَاقَوْنَ بِكَأْسِ رَوْيَةٍ . وَيَصْنُدُونَ بِرِيَّةٍ . لَا تَشُوْبُهُمْ
الرِّيَّةُ ، وَلَا تُسْرِعُ فِيهِمُ الْغَيْبَةُ . عَلَى ذَلِكَ عَقَدَ خَلْقَهُمْ وَأَخْلَقَهُمْ .
فَعَلَيْهِ يَتَحَابُّونَ وَبِهِ يَتَوَاصِلُونَ . فَكَانُوا كَتَفَاضِلِ الْبَذْرِ يُنْتَقَى ،

فِيؤْخَذُ مِنْهُ وَيُلْقَى . قَدْ مَيَّزَهُ التَّخْلِيصُ ، وَهَذَّبَهُ التَّمْجِيسُ ^(٢) .
 فَلْيَقْبَلِ أَمْرُؤُ كَرَامَةً بِقَبُولِهَا . وَلْيَحْذَرْ قَارِعَةً قَبْلَ حُلُولِهَا . وَلْيَنْظُرِ
 أَمْرُؤُ فِي قَصِيرِ أَيَّامِهِ ، وَقَلِيلِ مُقَامِهِ فِي مَنْزِلٍ حَتَّى يَسْتَبْدِلَ بِهِ مَنْزِلًا .
 فَلْيَصْنَعْ لِلتَّحَوُّلِ وَمَعَاصِرِ مُنْتَقَلِهِ . فَطُوبَى لِمَنْ لَدَيْ قَلْبٍ سَلِيمٍ أَطَاعَ
 مَنْ يَهْدِيهِ ، وَتَجَنَّبَ مَنْ يُرْذِيهِ ، وَأَصَابَ سَبِيلَ السَّلَامَةِ بِبَصَرٍ مَنِ
 بَصَرُهُ وَطَاعَةَ هَادٍ أَمْرُهُ . وَبَادَرَ الْهُدَى قَبْلَ أَنْ تُغْلَقَ أَبْوَابُهُ وَتُقَطَّعَ
 أَسْبَابُهُ . وَاسْتَفْتَحَ التَّوْبَةَ وَأَمَاطَ الْحَوْبَةَ . فَقَدْ أَقِيمَ عَلَى الطَّرِيقِ
 وَهُدًى نَهَجَ السَّبِيلِ ^(٣) .

اللغة :

نسخ الخلق : نقلهم بالتناسل من فريق الى فريقين، أو كما قال ابن أبي الحديد:
 قسّم الأب الواحد الى ابنين . والعاشر : الزاني ، ومثله الفاجر . والعصم - بكسر
 العين وفتح الصاد - جمع عصمة ، وهي الحصانة والوقاية من الذنوب . والكفاء:
 الكفاية . والمراد بالولاية هنا الأخوة الصادقة . والرية - بكسر الراء - من زوال
 العطش . والقارعة : المصيبة والقيامة . وطوبى : الهناء والخير . والحوبة :
 الإثم .

الإعراب :

انه عدل الضمير للقضاء والقدر ، وكلما نصب على الظرفية ، لأن « ما »
 مصدرية ظرفية ، والمصدر المنسبك مجرور بإضافة كل أي في كل زمان نسخ أو

ينسخ الخ وعوناً اسم ان ، وعلمه مفعول المستحفظين، ونهج السبيل منصوب بنزع الخافض أي الى نهج السبيل .

المعنى :

(وأشهد انه عدل) . ما من شيء إلا وراءه قضاء وتدبير، وهذا هو الدليل : « إن هو - أي القرآن - إلا ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين - آخر صورة التكوير » . وكل قضاء الله عدل ، ثم أكد الإمام ذلك بصيغة الفعل الماضي وقال : « عدل » لا شائبة في قضائه للظلم (وحكم فصل) بين الحق والباطل .

(وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وسيد عباده) جاء في كتاب « الصواعق المحرقة » وغيره : إن النبي (ص) قال مشيراً الى علي : هذا سيد العرب . فقالت له عائشة : ألسنت أنت سيد العرب ؟ قال : أنا سيد العالمين، وهو سيد العرب (كلما نسخ الله الخلق فريقين الخ) .. اذا تشعب الناس الى فرق وقبائل قبل محمد (ص) كان هو في خيرها وأفضلها أمماً وأباً ، وقد جاء في الصحاح ، ومنها صحيح مسلم كتاب « الفضائل » باب : فضل نسب النبي ، انه قال : إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم (لم يسهم فيه عاهر الخ) . هو خير أهل الأرض طراً حسباً ونسباً انتقل من أصلاب طاهرة الى أرحام مطهرة . هذه هي عقيدة الشيعة الإمامية في جميع الأنبياء دون استثناء. وتقدم مثله مع الشرح في الخطبة ٩٢ .

(ألا وإن الله سبحانه قد جعل للخير أهلاً) وهم موجودون في كل عصر وجيل ، ومن علامة أحدهم انه يحب الخير لكل الناس، ولا يضمر شراً لمخلوق ، ولا يعيش على حساب الآخرين ، بل من كد اليمين وعرق الجبين (وللحق دعائم) وهم العلماء الذين يبينون حكم الله للناس ولا يشتركون به ثمناً قليلاً (وللطاعة عصماً) من أراد الإدمان على طاعة الله في كل شيء ، ولا يعصيه في شيء فالطريق الى ذلك سهل يسير ، وهو كتاب الله ، قال سبحانه : « كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون - ١٨٧ البقرة » .

(وان لكم عند كل طاعة عوناً الخ) .. لكل عمل جزاء غداً عند الله ، وأيضاً لكل عمل أثره في الحياة الدنيا ، فمن فتح قلبه للشيطان في الذنب الصغير اتخذته مقراً له وموطناً ما دام حياً، ومن أقبل على الله في طاعة ولو مقدار ذرة كان الله في عونه إلى غيرها ، ودفع به إلى ما هو خير وأبقى : « والذين اهتدوا زادهم هدى - ١٧ محمد » . (يقول على الألسنة) أي ان ما جاء على ألسنة الأنبياء هو عون للعبد على طاعة الله (ويثبت الأفئدة) . انه تعالى يثبت الذين آمنوا وعملوا الصالحات بما وعدهم من فضله وإحسانه .

(واعلموا ان عباد الله المستحفظين علمه) . المراد بعلمه سبحانه هنا دينه ، وبالمستحفظين العلماء بالدين ، لأن من علم بدين الله كان الدين وديعة لله عنده يجب عليه أن يحفظها ويحرص عليها (يصونون مصونه) أي يصونون دين الله من التحريف والتزييف (ويفجرون عيونه) ينشرون الدين بين الناس (يتواصلون بالولاية الخ) .. تأخوا في الله، وتعاونوا على الصالحات ، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر على تحمل المشاق من أجله (لا تشوبهم الرية) لأنهم على بصيرة من دينهم (ولا تسرع فيهم الغيبة) لأنها تنم عن الصغار ، وتقود إلى النار .

(عند خلقهم وأخلاقهم) هم أبناء الإنسان ظاهراً وواقعاً ، وخلقاً وشياً بكل ما في الإنسانية من فضائل، وغيرهم حيوان في شكل إنسان (فعليه يتحابون ، وبه يتواصلون) أي على عقد الأخلاق الرضية وبه يتبادلون الإخلاص والثقة ، والبر والرحمة (فكانوا كنفاضل البدر الخ) .. التمحيص والتخليص : الغربلة والتمييز بين الجيد والرديء ، والمعنى ان الأخيار يمتازون عن سائر الناس كما يمتاز البدر الصالح للزرع عن البدر الفاسد الذي لا يصلح إلا للطرح مع القمامة .

(فليقبل امرؤ كرامة بقبولها) . يأخذ نصيحتي مجاناً ومن غير ثمن إلا أن يقبلها ويعمل بها ، وسيرى أنها تعود عليه بكل خير (وليحذر قارعة الخ) .. وليتأهب ويستعد للموت قبل أن يأتيه بغتة (فليصنع لتحوله ومعارف منقلبه) أي يعمل لآخرته فإنه يتحول وينقلب إليها عما قريب (فطوبى لذي قلب سلم الخ) .. يستمع القول فيتبع أحسنه أياً كان قائله ، لأن الحكمة ضالة المؤمن يأخذها ولو من منافق ، كما قال الإمام :

(وبادر الهدى قبل أن تغلق أبوابه) دونكم بالعجز أو الموت، وأبواب الهدى

هي أبوابه تعالى ، والله لا يخلقها أبداً، ولا يصد أحداً عنها . ولكن العبد يعرض وينصرف ، أو يرغب بعد فوات الأوان (وأماط الحوبة) يندم على ما فرط وقصّر ، ويتضرع الى الله أن يغفر ويرحم (فقد أقيم على الطريق الخ) .. الأدلة قائمة على سبيل الرشd والهداية ، ومن نكب عنها قامت عليه الحجة ، وحققت عليه كلمة العذاب .

الخطبة

- ٢١٣ -

لله الحجة :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يُضَيِّحْ بِي مَيْتًا وَلَا سَقِيمًا ، وَلَا مَضْرُوبًا عَلَى
عُرْوِي بِسُوءٍ ، وَلَا مَأْخُوذًا بِأَسْوَأِ عَمَلِي ، وَلَا مَقْطُوعًا دَابِرِي ، وَلَا
مُرْتَدًّا عَنْ دِينِي ، وَلَا مُنْكَرًا لِرَبِّي ، وَلَا مُسْتَوْحِشًا مِنْ إِيْمَانِي ،
وَلَا مُلْتَبِسًا عَقْلِي ، وَلَا مُعَذَّبًا بِعَذَابِ الْأَمَمِ مِنْ قَبْلِي . أَصْبَحْتُ
عَبْدًا تَمْلُوكًا ظَالِمًا لِنَفْسِي ، لَكَ الْحُجَّةُ عَلَيَّ وَلَا حُجَّةَ لِي . لَا أَسْتَطِيعُ
أَنْ أَخْذَ إِلَّا مَا أُعْطَيْتَنِي ، وَلَا أَتَّقِيَ إِلَّا مَا وَقَيْتَنِي . اللَّهُمَّ إِنِّي
أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَفْتَقِرَ فِي غِنَاكَ ، أَوْ أَضِلَّ فِي هُدَاكَ ، أَوْ أَضَامَ فِي
سُلْطَانِكَ ، أَوْ أَضْطَهَّدَ وَالْأَمْرُ لَكَ . اللَّهُمَّ اجْعَلْ نَفْسِي أَوَّلَ كَرِيْمَةٍ
تَنْتَرِعُهَا مِنْ كَرَامِي ، وَأَوَّلَ وَدِيعَةٍ تَرْتَجِعُهَا مِنْ وَدَائِعِ نِعَمِكَ

عِنْدِي . اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نَذْهَبَ عَنْ قَوْلِكَ ، أَوْ نَفْتِنَ
عَنْ دِينِكَ . أَوْ تَتَابَعَ بِنَا أَهْوَاؤُنَا دُونَ الْهُدَى الَّذِي جَاءَ مِنْ
عِنْدِكَ .

اللغة :

عروقي : أعضائي . ودابري : نسلي . وملتبساً : مختلطاً . والتتابع - بالياء -
التهافت في الشر واللجاجة ، وفي بعض النسخ تتابع بالباء لا بالياء .

الإعراب :

يُصْبِحُ تامة ، وميتاً حال من ياء المتكلم ، والمصدر من أن أفترق وان نذهب
مجرور بمن محذوفة .

المعنى :

(الحمد لله الذي لم يصبح بي ميتاً الخ) .. بحمد الإمام (ع) خالقه تعالى
على نعمه التي لا تحصى ، ومنها انه أصبح سليماً معافى في بدنه وصحته . ومن
أقواله : نعمتان مجهولتان : الصحة والأمان (ولا مضروباً على عروقي بسوء) أي
سليم الأعضاء .

لا إيمان بلا خوف من الله :

(ولا مأخوذاً بأسوأ أعمالي) . حقر الإمام الدنيا وصغرتها ، وقوتها بعفطة
عنز ، أو ورقة في فم جرادة ، ونعتها بالأفعى وبكل سوء ورذيلة ، ولذا قطع
معها العلاقات والصلات ، ومع هذا يتهم نفسه بسوء العمل ، ويحمد الله الذي لم
يأخذه من مأمته !.. وليس هذا مجرد تواضع ، ولا هو درس وتعليم للآخرين

— كما يقال — كلا ، انه صدق في الايمان ورسوخ في اليقين، ومن بداهة الحقائق ان الخوف من الله يقاس بمعرفته والفهم عنه . وكذلك الرجاء .

ومها شككت فلاني لا أشك إطلاقاً ان من أكبر الكبائر أن يمتلئ قلب المرء رعباً من المخلوق ولا يخاف الخالق في شيء ، وان من كان هذا شأنه يُعامل في الآخرة معاملة الكافر الملحد إلا ان يشاء الله . وأنا أعرف من يعترف بلسانه لله بالوحدانية ولمحمد بالرسالة ، ولكن لا أثر في تصرفاته للخوف من الله في كثير أو قليل .. انها تصدر عن مصلحته ، ولا شيء وراءها ، فكيف أصدق انه من الله في شيء؟ حتى ولو طلب العون منه لقضاء مصلحة من مصالح دينه .. أبداً لا دليل على الإيمان الصادق إلا الخوف من الله عملياً لا نظرياً فقط .

(أصبحت عبداً مملوكاً ظالماً لنفسي الخ) .. فرق بعيد بين الطاغية والإمام العادل ، فالأول يريد السيطرة كغاية ، والتحكم بدماء الناس ومقدراتهم ، ويعمل جاهداً لتثبيت السلطان ودوامه في يده وفي نسله ، أو فيمن يشاء من بعده ، والوسيلة الوحيدة التي تضمن له هذه السيطرة ودوامها — كما يفكر ويعتقد — أن يملأ القلوب رعباً وهلعاً من بطشه وهيبته ، ومن أجل هذا يعتبر القوة هي النظام الحكيم لسيادته وراثته .

أما الإمام العادل فإنه ينظر الى الحكم على أنه تحمّل تبعات ومسؤوليات بتأمين الدعة والأمن للرجعية ، وإقامة العدل والمساواة بين الجميع ، وانه لو وُجد مظلوم واحد في رعيته فهو المسؤول الأول عن ظلامته . ومن أجل هذا الشعور بالمسؤولية ، وانه أجبر مؤتمن — يرى أنه قد ظلم نفسه بالتصدي للحكم وقبول السلطان ، ولذا ترك بوذا الملك ، وولى هارباً .. ولو أحجم الإمام عن الخلافة في مثل الظروف التي كان عليها المسلمون آنذاك ، والأحداث التي قُتل فيها عثمان — ما اخضر للإسلام عود ، ولكن الإمام تحمل المسؤولية على ضخامتها ، وظلم نفسه ، لا شيء إلا لأنه عبد مملوك — كما قال — لله وللإسلام وصالح المسلمين .

(اللهم اجعل نفسي أول كريمة تنتزعها من كرائمي الخ) .. أراد بالكرائم عقله وسمعه وبصره ، وكل شيء فيه يعينه على التصرف والحركة ، والإمام (ع) يتوسل الى الله أن يبقيه سالماً من الآفات ، ويقبضه اليه قبل أن يُرد الى أرذل العمر ، فيعيش بعيداً لا يقوى على شيء ، فيضجر منه القريب ، وينفر البعيد ..

والإمام أخذ هذا الدعاء من رسول الله (ص) فقد سُمع منه أكثر من مرة (أو
تتابع بنا الأهواء الخ) .. أي نعوذ بالله أن تنحرف بنا الأهواء عن الهدى الى
الضلال .

وبعد ، فإن الدعاء ضرب من العبادة ، ما في ذلك ريب ، فقد حث عليه
الله ورسوله والأئمة الأطهار ، ولكن أفضل الدعاء ترك الذنوب .

الخطبة

- ٢١٤ -

الراعي والرعية .. لقرة ١ - ٢ :

أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِي عَلَيْكُمْ حَقًّا بِوِلَايَةِ أَمْرِكُمْ ، وَلَكُمْ عَلَيَّ مِنْ الْحَقِّ مِثْلُ الَّذِي لِي عَلَيْكُمْ . فَالْحَقُّ أَوْسَعُ الْأَشْيَاءِ فِي التَّوَاضُّعِ ، وَأَضْيَقُهَا فِي التَّنَاضُّعِ . لَا يَجْرِي لِأَحَدٍ إِلَّا جَرَى عَلَيْهِ ، وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ إِلَّا جَرَى لَهُ ، وَلَوْ كَانَ لِأَحَدٍ أَنْ يَجْرِيَ لَهُ وَلَا يَجْرِيَ عَلَيْهِ لَكَانَ ذَلِكَ خَالِصًا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ دُونَ خَلْقِهِ ، لِقُدْرَتِهِ عَلَى عِبَادِهِ وَلِعَدْلِهِ فِي كُلِّ مَا جَرَتْ عَلَيْهِ صُرُوفُ قَضَائِهِ . وَلَكِنَّهُ جَعَلَ حَقَّهُ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يُطِيعُوهُ ، وَجَعَلَ جَزَاءَهُمْ عَلَيْهِ مُضَاعَفَةَ الثَّوَابِ تَفَضُّلاً مِنْهُ وَتَوْشَعاً بِمَا هُوَ مِنَ الْمَزِيدِ أَهْلُهُ^(١) . ثُمَّ جَعَلَ سُبْحَانَهُ مِنْ حُقُوقِهِ حُقُوقاً افْتَرَضَهَا لِبَعْضِ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ ، فَجَعَلَهَا تَتَكَافَأُ فِي وُجُوهِهَا وَيُوجِبُ بَعْضُهَا بَعْضاً . وَلَا يُسْتَوْجَبُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْضٍ . وَأَعْظَمُ مَا افْتَرَضَ

سُبْحَانَهُ مِنْ تِلْكَ الْحُقُوقِ حَقُّ الْوَالِي عَلَى الرَّعِيَّةِ وَحَقُّ الرَّعِيَّةِ عَلَى الْوَالِي . فَرِيضَةٌ فَرَضَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِكُلِّ عَلَى كُلِّ ، فَجَعَلَهَا نِظَامًا لِأُلُفَّتِهِمْ وَعِزًّا لِدِينِهِمْ . فَلَيْسَتْ تَصْلُحُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِصَلَاحِ الْوَلَاةِ ، وَلَا تَصْلُحُ الْوَلَاةُ إِلَّا بِاسْتِقَامَةِ الرَّعِيَّةِ ^(٢) .

اللغة :

التواصف : تفاعل يكون بين اثنين أو أكثر ، وذلك بأن أصف لك شيئاً ، ثم تصفه أنت لي بما ترى . والتناصف : ان انصفك من نفسي ، وتنصفني من نفسك .

الإعراب :

تفضلاً مفعول من أجله لجعل ، ومن المزيد متعلق بـ « توسعاً » وفريضة بالرفع خبر مبتدأ محذوف أي هي فريضة .

المعنى :

(أما بعد فقد جعل الله سبحانه لي عليكم حقاً بولاية أمركم) أي بصفتي ممثلاً للسلطة ، لا بصفتي الشخصية ، أو بأية صفة أخرى .. وقد أتى على الناس حين من الدهر لم يعرفوا فيه حاكماً ولا محكوماً ، ولا شيئاً من الحقوق العامة ، وبعد أن انتقل الانسان من حياة العزلة والانفراد الى حياة الجماعة ، وخضع الفرد لشعورها آمن بضرورة الخضوع للرئيس والحاكم وتعظيمه وتقديسه دون أي مقابل.. وهكذا خضع أهل الصين للأباطرة أبناء السماء ، وأهل مصر للفراعنة أبناء الشمس الخ . وبمرور الزمن عرفت الجماعات الحقوق العامة والمتبادلة بين الحاكم والمحكوم ، وأصبح لها مؤلفات وعلماء وكليات. وأشار الإمام في بداية هذه الخطبة

الى ان الله سبحانه شرّع أحكاماً حدد فيها حق الراعي على الرعية، وحقها عليه، وذكر طرفاً من ذلك في الخطبة ٣٤ . ثم قال :

(فالحق أوسع الأشياء في التواصف ، وأضيّقها في التناصف) . الحق ميدان واسع للوصف والقول ، والناس يصلون فيه ويجولون خطابة وكتابة ومحاضرات، ولكنهم يضيقون به صدرأ إذا جاء دور التطبيق والعمل (ولا يجري لأحد إلا جرى عليه الخ) .. هذه قسمة عادلة متوازنة: لك مثل الذي عليك ، وعليك مثل الذي لك ، وان كنت لا ترى حقاً عليك لغيرك فعليك أن لا ترى حقاً لك عليه ، وقديماً قيل : أحب لغيرك ما تحب لنفسك ، واكره له ما تكره لها .. هذا هو مبدأ العدل والانصاف ، وقانون الطبيعة أيضاً ، ولا أحد فوق الطبيعة إلا خالق الطبيعة .. ومن هنا تفجر الصراع الرهيب بين الأقوياء الذين ينكرون التوازن العادل ويصرون على الامتياز الظالم ، وبين الضعفاء الذين يرفضون الاستبداد والعدوان على حقوقهم وحرياتهم ، أما تحديد الحق فهو وليد الروابط بين الناس، ويختلف بحسبها .

الثواب تفضل لا استحقاق :

(ولكنه سبحانه جعل حقه على العباد أن يطيعوه) . لا حق متبادل بين الخالق والمخلوق ، والواجب والممكن ، وهل يقاس النقص بالكمال ، والضعف بالاعتدار ؟. إن الأمر كله لله ، وعلينا أن نسمع ونطيع ، وهو يثبنا على الشكر والطاعة لا لشيء إلا لأنه تعالى كتب على نفسه الرحمة ، كما قال في الآية ١٢ من سورة الأنعام ، وكرر هذا القول في الآية ٥٤ من السورة نفسها ، واذن فلا ثمرة وراء النزاع في ان ثواب المطيع لله تعالى هل هو لزوم واستحقاق لمبدأ العدالة الإلهية ، كما قال المعتزلة ، أو هو كرم وتفضل ، كما قال الأشاعرة ، والطاعة من العبد مجرد وفاء لأنعم الله ؟ لا جدوى من هذا النزاع ما دام سبحانه قد كتب على نفسه أنه لا جزاء للإحسان إلا الإحسان .

« وقول الإمام : (جعل جزاءهم عليه الخ) .. يرمي الى أن الثواب حتم بإرادة الله لا يجعل جاعل سواء ، وعلى هذا يحمل قوله تعالى في الآية ١٧٣ من سورة النساء : « فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفّيهم أجورهم » أي التي كتبها هو على نفسه .

(ثم جعل سبحانه من حقوقه حقراً الخ) .. لله على عباده حقوق هي له وحده لا صلة لها بغيره على الإطلاق ، منها الإيمان به وبكتبه وملائكته ورسله ، والتعبد له دون غيره : « وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه - ٢٣ الإسراء » .

ومنها حقوق للناس ، ولكن لا على سبيل الانفراد والاستقلال ، بل على سبيل التكافؤ والتضامن بين الناس بعضهم مع بعض بحيث يكون أحد الواجبين بالنسبة للآخر كالجزم المتمم له ، أي يجبان معاً ويسقطان معاً ، ومن هذا النوع التعاون على البر والصالح العام الذي يتجاوز مساعدات الفرد بسد حاجة من حاجاته الخاصة ، فإن هذا عظيم عند الله ، ما في ذلك ريب ، ولكنه عون من جانب واحد ، والتعاون مشاركة بين اثنين أو أكثر . وأيضاً من هذا النوع الحقوق الزوجية التي أشار سبحانه إليها بقوله : « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف - ٢٢٨ البقرة » .

وأيضاً من هذا النوع قول الإمام : (حق الوالي على الرعية) وهو الولاء للسلطة المشروعة في شخص الوالي العادل لا الولاء لشخصه بالذات ، لأنه وكيل لا أصيل (وحق الرعية على الوالي) وهو تأمين حاجات الرعية وتحقيق أهدافها ، وهذه الحقوق الانسانية المتكافئة المتبادلة بين الراعي والرعية هي (فريضة فرضها الله) ولأنه هو أصلها ومصدرها صبح القول فيها : أنها حقوق الله وحقوق الناس في آن واحد .

(فجعلها نظاماً لإلفتهم وعزاً لدينهم) أي بهذا التضامن والترابط بين الحاكم والمحكوم تستقيم الأمور ، ويعيش الجميع اخواناً متحابين ، ومن أجل هذا جعله سبحانه دستور الحكم وأساسه . والانحراف عنه فساد وضلال يؤول بالمجتمع الى الهلاك والوبال .

(فليست تصلح الرعية إلا بصلاح الولاة) . أبداً لا تصلح الأوضاع ، ويتم الاستقرار إلا إذا كان الوالي كفؤاً للقيام بأعباء الحكم : ومخلصاً يساوي نفسه وأهله بأضعف ضعيف من رعيته (ولا تصلح الولاة إلا باستقامة الرعية) وهذه الاستقامة معناها الولاء للسلطة القوية العادلة ، والتعاون معها على أساس مصلحة الجميع وتأمين حقوقهم .

النصيحة بمبلغ الجهد .. فقرة ٣ - ٤ :

فَإِذَا أَدَّتِ الرَّعِيَّةُ إِلَى الْوَالِي حَقَّهُ ، وَأَدَّى الْوَالِي إِلَيْهَا حَقَّهَا ، عَزَّ الْحَقُّ
 بَيْنَهُمْ ، وَقَامَتْ ، مَنَاهِجُ الدِّينِ ، وَأَعْتَدَلَتْ مَعَالِمُ الْعَدْلِ ، وَجَرَتْ
 عَلَى أَذْلَالِهَا السُّنَنُ فَصَلَحَ بِذَلِكَ الزَّمَانُ ، وَطُمِعَ فِي بَقَاءِ الدَّوْلَةِ ،
 وَيُسِّتَ مَطَامِعُ الْأَعْدَاءِ . وَإِذَا غَلَبَتِ الرَّعِيَّةُ وَالْيَهَا ، وَأَجْحَفَ الْوَالِي
 بِرِعِيَّتِهِ اخْتَلَفَتْ هُنَالِكَ الْكَلِمَةُ . وَظَهَرَتْ مَعَالِمُ الْجَوْرِ . وَكَثُرَ
 الْإِذْغَالُ فِي الدِّينِ وَتُرِكَتْ تَحَايُ السُّنَنِ . فَعَمِلَ بِالْهَوَى . وَعُطِّلَتْ
 الْأَحْكَامُ . وَكَثُرَتْ عِلَلُ النُّفُوسِ . فَلَا يُسْتَوْحَشُ لِعَظِيمِ حَقِّ عُطْلٍ .
 وَلَا لِعَظِيمِ بَاطِلٍ فُعِلَ ، فَهِنَالِكَ تَذِلُّ الْأَبْرَارُ وَتَعِزُّ الْأَشْرَارُ ، وَتَغْظُمُ
 تَبِعَاتُ اللَّهِ عِنْدَ الْعِبَادِ^(٣) . فَعَلَيْكُمْ بِالتَّنَاصُحِ فِي ذَلِكَ وَحُسْنِ التَّعَاوُنِ
 عَلَيْهِ ، فَلَيْسَ أَحَدٌ وَإِنْ أَشَدَّ عَلَى رِضَاءِ اللَّهِ حِرْصُهُ وَطَالَ فِي الْعَمَلِ
 اجْتِهَادُهُ يَبَالِغُ حَقِيقَةً مَا اللَّهُ أَهْلُهُ مِنَ الطَّاعَةِ لَهُ . وَلَكِنْ مِنْ
 وَاجِبِ حُقُوقِ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ النَّصِيحَةُ بِمَبْلَغِ جُهْدِهِمْ ، وَالتَّعَاوُنُ عَلَى
 إِقَامَةِ الْحَقِّ بَيْنَهُمْ . وَلَيْسَ أَمْرٌ وَإِنْ عَظُمَتْ فِي الْحَقِّ مَنَزِلَتُهُ ، وَتَقَدَّصَتْ
 فِي الدِّينِ فَضِيلَتُهُ بِفَوْقِ أَنْ يُعَاوَنَ عَلَى مَا حَمَلَهُ اللَّهُ مِنْ حَقِّهِ ، وَلَا أَمْرٌ
 وَإِنْ صَغُرَتْهُ النُّفُوسُ وَأَقْتَحَمَتْهُ الْعُيُونُ بِدُونِ أَنْ يُعِينَ عَلَى ذَلِكَ أَوْ
 يُعَانَ عَلَيْهِ^(٤) .

اللغة :

مناهج الدين : طرقه الواضحة . ومعالم : جمع معلم أي ما يُستدل به على الطريق . وأذلال بفتح الهمزة - جمع ذل - بكسر الدال - أي التعبيد، وأذلال السنن كثرة العمل بها أو العمل بها على وجهها وحقيقتها . والإدغال في الأمر : أن يدخل فيه ما يُفسده . واقتحمته العيون : احتقرته .

الإعراب :

فصلح بذلك جراب اذا أدت ، فهناك إشارة الى الزمان البعيد، ومغله النصب على الظرفية أي في ذلك الزمان ، وببالغ اسم ليس والباء زائدة ، ومثله بفوق .

المعنى :

(فإذا أدت الرعية الى الوالي حقه ، وأدى الوالي الخ) .. مهما اجتهدت القيادة وأخلصت في عملها ومقاصدها فإنها لا تأتي بخير إلا بمعونة الجماعة ، تلك تخطط ، وهذه تنفذ ، ومتى تم التعاون بين الطرفين تحققت الأهداف (وقامت مناهج الدين) أي استقام الناس على الطريق القويم (واعتدلت معالم العدل) ومعنى اعتدالها العمل بموجبها (وجرت على أذلالها السنن) جمع سنة ، وهي قول المعصوم أو فعله أو تقريره ، والمعنى اذا أدى كل من الراعي والرعية ما عليه سارت سنة رسول الله (ص) في مجراها الطبيعي بلا تحريف وتزييف من أرباب الأهواء والأغراض .

(فصلح بذلك الزمان) ذلك إشارة الى صيانة الحق المتبادل بين الراعي والرعية ، ومن البداهة أن صلاح الزمان بصلاح أهله (وطُبع في بقاء الدولة) أي ثبتت واستمرت ، لأنها تقوم على الحق والعدل (واذا غلبت الرعية واليهما ، وأجحف الوالي الخ) .. ان تجاوز الراعي حقه المقرّر انتهى الى الاستبداد ، وان تجاوزت الرعية الحدود عمّت الفوضى ، وانشقت الصفوف . وأميتت السنة ، وكثرت البدع ، ولا زاجر عن منكر وأمر بمعروف (فهناك تلد الأبرار . وتُعرز

الأشرار) تبعاً للأوضاع القائمة ، والبيئة التي يعيشون فيها (وتعظم تبعات الله سبحانه عند العباد) . المراد بالتبعات المسؤوليات أو العقاب ، ولا شك في وجود الترابط بين الجرائم والعقاب كماً وكيفاً .

(فعليكم بالتناصح في ذلك ، وحسن التعاون عليه) . أشار الإمام أولاً الى ان أمور المجتمع لا تستقيم ، ولا تصلح فيه الأوضاع إلا إذا أدى كل من الراعي والرعية ما عليه ، فإن قصر أحدهما أو كلاهما ظهر الجور ، وسادت البدع ، وتعطلت الأحكام ، ثم أشار الإمام الى الطريق السليم لعلاج الأوضاع الفاسدة ، وهو التناصح والتعاون بين العقلاء وأولي الشأن ، وذلك بأن يبحثوا عن السبب والمصدر ، فإن كان التقصير من الحاكم نصحه وقومه ، فإن استقام وإلا عزلوه ، وان كان من بعض الرعية وفثاتها تعاونوا مع الحاكم على إصلاحها ، فإن فاءت وإلا قاتلوها حتى تفي الى أمر الله .

(فليس احد وان اشتد على رضا الله حرصه الخ) . أبدأ ما من أحد بالغا ما بلغ من العلم والعمل إلا وهو في حاجة الى النصيحة والتعاون ، لأنه إنسان غير معصوم، وهذا الانسان لا يعرف اخطائه وعيوب نفسه ، لأنها تخدعه عن حقيقتها .. وغيره أعرف منه بها ، وإذن فعليه أن يتعاون معه لمعرفة . ومن الذي لا يحابي نفسه ، وينحاز اليها ، ويحاول بشئ الوسائل أن يبرهن عن صفاتها وصوابها ؟ ولا علاج لهذا الداء الا أن نعرف رأي الآخرين فيما الذين ينصفون ولا يبنون أقوالهم على الهوى والجهل .

(وليس امرؤ وان عظمت في الحق منزلته الخ) .. لنفترض - حقيقة لا جدلاً - ان انساناً يخطأ لدينه ، ويحتس من الأخطاء جهد طاقته فهل يجوز لنا أن نفترض - أيضاً حقيقة لا جدلاً - انه لا يخطئ في قول أو فعل مع العلم بأنه غير معصوم ؟. واذن هو دائماً في حاجة الى العون والمساعدة (ولا امرؤ وإن صغرت النفوس الخ) .. وأيضاً ما من أحد - وإن ازدرتة الأعين - إلا وفيه جهة ايجابية ينتفع بها الآخرون مع العلم بأن فيه كثيراً من الجهات السلبية ، وانه في أمس الحاجة الى النصيحة والمساعدة من أجلها .

والخلاصة ان الانسان ، أي انسان ، لا يستطيع أن يصنع نفسه بنفسه ، وانه بحاجة الى معونة الآخرين من أبناء نوعه حتى ولو كانوا دونه بمراتب ، والسر ان

طبيعة الناس واحدة تلو على كل الفوارق ، وتضم تحت لواثها كل من يمشي على رجلين ، والشيء الواحد لا ينفصل عن نفسه ، وان تلونت فروعه ، وتنوعت في شكلها ولونها .

كراهية الإطراء .. لقرة ٥ - ٧ :

إِنَّ مِنْ حَقِّ مَنْ عَظَّمَ جَلَالَ اللَّهِ فِي نَفْسِهِ ، وَجَلَّ مَوْضِعُهُ مِنْ قَلْبِهِ أَنْ يَصْغَرَ عِنْدَهُ لِعَظَمِ ذَلِكَ كُلِّ مَا سِوَاهُ . وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ لِمَنْ عَظَّمَتْ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَلَطَفَ إِحْسَانُهُ إِلَيْهِ . فَإِنَّهُ لَمْ تَعْظُمْ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا أَزْدَادَ حَقِّ اللَّهِ عَلَيْهِ عِظَمًا ، وَإِنَّ مِنْ أَسْخَفِ حَالَاتِ الْوُلَاةِ عِنْدَ صَالِحِ النَّاسِ أَنْ يُظَنَّ بِهِمْ حُبُّ الْفَخْرِ ، وَيُوضَعَ أَمْرُهُمْ عَلَى الْكِبَرِ . وَقَدْ كَرِهْتُ أَنْ يَكُونَ جَالٍ فِي ظَنِّكُمْ أَنِّي أَحَبُّ الْإِطْرَاءِ وَاسْتِمَاعِ الثَّنَاءِ . وَلَسْتُ بِحَمْدِ اللَّهِ كَذَلِكَ^(٥) . وَلَوْ كُنْتُ أَحَبُّ أَنْ يُقَالَ ذَلِكَ لَتَرَكْتُهُ انْحِطَاطًا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ عَنْ تَنَاوُلِ مَا هُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنَ الْعَظَمَةِ وَالْكَبَرِيَاءِ . وَرُبَّمَا اسْتَحَلَّى النَّاسُ الثَّنَاءَ بَعْدَ الْبَلَاءِ . فَلَا تُثْنُوا عَلَيَّ بِجَمِيلِ ثَنَاءٍ لِإِخْرَاجِي نَفْسِي إِلَى اللَّهِ وَإِلَيْكُمْ مِنَ التَّقِيَّةِ فِي حُقُوقِ لَمْ أَفْرُغْ مِنْ أَدَائِهَا ، وَفَرَائِضَ لَا بُدَّ مِنْ إِمْضَائِهَا ، فَلَا تُكَلِّمُونِي بِمَا تُكَلِّمُ بِهِ الْجَبَّارَةَ ، وَلَا تَحْفَظُوا مِنِّي بِمَا يُتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْبَادِرَةِ . وَلَا تُخَالِطُونِي بِالْمُصَانَعَةِ . وَلَا تَظُنُّوا بِي

أَسْتَنْقِلَا فِي حَقِّ قِيلَ لِي وَلَا أَلْتَمَسَ إِعْظَامَ لِنَفْسِي^(٦) . فَإِنَّهُ مَنْ
 أَسْتَنْقَلَ الْحَقَّ أَنْ يُقَالَ لَهُ أَوْ الْعَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ كَانَ الْعَمَلُ بِهِمَا
 أَثْقَلَ عَلَيْهِ . فَلَا تَكْفُوا عَنْ مَقَالَةٍ بِحَقِّ أَوْ مَشُورَةٍ بِعَدْلِ ، فَإِنِّي
 لَسْتُ فِي نَفْسِي بِفَوْقِ أَنْ أُخْطِئَ ، وَلَا آمَنُ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِي إِلَّا أَنْ
 يَكْفِيَنِي اللَّهُ مِنْ نَفْسِي مَا هُوَ أَمْلَكُ بِهِ مِنِّي . فَإِنَّمَا أَنَا وَأَنْتُمْ عَبِيدُ
 تَمْلُوكُونَ رَبًّا لَا رَبَّ غَيْرُهُ . يَمْلِكُ مِنَّا مَا لَا تَمْلِكُ مِنْ أَنْفُسِنَا ،
 وَأُخْرِجَنَا بِمَا كُنَّا فِيهِ إِلَى مَا صَلَحْنَا عَلَيْهِ ، فَأَبْدَلْنَا بَعْدَ الصَّلَاةِ بِالْهَدَى ،
 وَأَعْطَانَا الْبَصِيرَةَ بَعْدَ الْعَمَى^(٧) .

اللغة :

السخف : ضعف العقل . والمراد من التقية هنا الخروج من المسؤولية الملقاة
 على عاتقه والقيام بما يجب . والبادرة : الحدة . والمصانعة : المداواة .

الإعراب :

من حق متعلق بمحذوف خبراً مقدماً لـ « ان » والمصدر من أن يصغر اسمها ،
 ولأن اللام للتأكيد ، ومن خبر ان أحق ، والمصدر من ان يظن اسم ان من
 أسخف ، وان يكون جالاً « يكون » زائدة ، والمصدر من اني أحب فاعل
 جال ، وانحطاطاً مفعول من أجله لتركته ، فإنه الضمير للشأن ، والمصدر من
 أن يقال بدل اشتمال من الحق ، والمصدر من ان يعرض بدل اشتمال من العدل .

المعنى :

قال الشريف الرضي : فأجاب الإمام (ع) رجل من أصحابه بكلام طويل

يكثُر فيه الثناء عليه ، ويذكر سمعه وطاعته . فقال (ع) : (ان من حق من عظم جلال الله سبحانه في نفسه الخ) .. نحن نقرأ ونسمع مبهورين عن العقول الالكترونية ، وصعود الانسان على القمر ، وغير ذلك من ابتكار العلم .. أما الذي تمكنت في نفسه عظمة الخالق وجلاله فإنه لا يرى ذلك ولا العقل الذي هو مصدر العلم والابتكار ولا الكون بما فيه — لا يرى كل أولاء شيئاً مذكوراً الى جانب ذرة من عظمه الله وجلاله ، بل يزداد إيماناً بالله وفهماً لعظمته ، لأنه هو المبدأ الأول لكل شيء . وتقدم في الخطبة ١٩١ قول الإمام (ع) في وصف المؤمنين : « عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم » . والإمام سيد العارفين بالله وكمال وجلاله ، وأعلم العلماء بأن معرفته هذه هي من أعظم نعم الله عليه ، وانه أحق الناس أن يشكره عليها ، ومن شكره وتواضعه لله أن يرى كل ما سواه حتى نفسه ليس بشيء، وإذن كيف يسمح ويسمع للمديح والإطراء .

(وان أحق من كان كذلك) أي ان من صغر وحقر كل ما سوى الله هو الذي (عظمتم نعمته الله عليه ، ولطف إحسانه اليه) والإمام يشعر من الأعماق بعظيم نعم الله عليه ، ولطف إحسانه إليه ، وذلك بأنه أول من آمن برسول الله من الذكور ، وجاهد بين يديه ، وفداه بنفسه ، وأخذ العلم عنه حتى قال واقعاً: سلوني قبل أن تفقدوني . وما دامت نعم الله عليه كثيرة وعظيمة فحقوقه عليه كذلك (فإنه لم تعظم نعمته الله على أحد إلا ازداد حق الله عليه عظماً) . وقديماً قيل : « وكما تراني يا جميل أراك » نقول هذا ، ونحن نعلم بأن أحداً لا يبلغ من شكره تعالى بعض ما تستوجهه نعمة واحدة، فكيف بما لا يبلغها العد والإحصاء ! .

(وان من أسخف حالات الولاة عند صالح الناس الخ) .. العقلاء يسخرون من الحاكم الذي هو مظنة الكبر والفخر ، ويرونه سخيفاً وحقيراً في نفسه وواقعه ، قال رسول الله (ص): « آفة الحسب الافتخار .. حسب المرء دينه وأدبه » . والحسب في اللغة كل ما يعد من المفاخر في مفهوم العامة (وقد كرهت أن يكون جال في ظنكم الخ) . كيف تظنون بي حب الثناء ، وأنا أكرهه ، وأكره من يحبه ومن يظن اني أحبه، وأحمد الله على هذه الكراهية (ولو كنت أحب — الى — الكبرياء) الإمام يكره المديح ، ولو افترض أن حدثته به نفسه لجزرها تأديباً مع الله ورسوله ، فإنها أحق منه بذلك وأولى .

(وربما استحل الناس الثناء بعد البلاء) أي بعد أن أجهدوا أنفسهم في العمل

وأحسنوا فيه ، وليس ذلك بمحرم عليهم ما داموا بعيدين عن الرياء ، فما من أحد إلا وهو يجب أن يظهر له الخير أمام الناس إلا صفوة الصفوة كالإمام الذي قال لأصحابه : (فلا تشنوا علي بجميل ثناء) لخير عملته ، وجهد بذلته ، لأنني ما عملت واجتهدت للثناء والإطراء بل (لإخراجي نفسي الى الله سبحانه واليكم من التقية في حقوق الخ) .. أي انما فعلت الذي فعلت لأحرر نفسي من المسؤولية التي نحللتها بولايتي عليكم ، وأصبح عليّ بموجبها حقوق وفرائض لله ولكم ، وأعمل جاهداً للوفاء بها، وما زلت مقصراً في هذا الميدان .. واذن فعلام المديح!.. وهكذا العظيم يستقل من نفسه كل خير يفعله ، وكل نوال يبذله مهما غزر وكثر. (فلا تكلموني بما تُكَلِّم به الجبابرة) الذين يعانون من سرطان العظمة والكبرياء . قال الفيلسوف الصيني « لين يوتانج » : كلما زاد عدد الدجالين والمنافقين ازداد المصفيقون والهاثفين (ولا تحفظوا مني بما يُتَحَفَظُ به عند أهل البادرة) وهم الأقوياء الذين اذا خوطبوا بغير ما يشتهون من التفخيم ثاروا وهددوا، والمعنى: خاطبوني بما يخاطب به بعضكم بعضاً ، فلاني واحد منكم .. هذا هو الاسلام بروحه وجوهه يحطم التمييز بين الناس مهما كانت الأنساب والمناصب . دخل على النبي (ص) أعرابي غريب ، فارتجف من هيئته . فقال له : هوّن عليك ، فلاني ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة .

(ولا تخاطبوني بالمصانعة) أي بالنفاق والرياء ، بل بصراحة وعلى سجيتم (ولا تظنوا بي استثقلاً في حق قيل لي الخ) .. انا لله وللحق ومع الحق ، وقد ملك عليّ عقلي وقلبي ، واختلط حبه بلحمي ودمي فكيف أتبرم به ، وأنفر منه ؟ (فإنه من استثقل الحق أن يقال له الخ) .. هذا من الواضحات التي لا يختلف فيها عالمان ولا جاهلان ، ويسميه علماء الأصول بمفهوم الموافقة ، وهو إعطاء حكم المنطوق به للمسكوت عنه بطريق أولى ، ومن أمثلته « ولا تقل لها أف » فالمنطوق به التأفيف ، وحكمه التحريم ، فثبت الحكم للضرب بطريق أولى، لأن علة التحريم الإساءة للوالدين ، وهي في الضرب أشد وأقوى . وأوضح مثال أو درس على الخضوع لكلمة الحق هذه الرائعة: قال أعرابي لرسول الله (ص) : يا محمد هذا المال مال الله أو مال أبيك ؟. فشهّر صحابي عليه سيفه . فقال له نبي الرحمة : دعه، ان لصاحب الحق مقالاً .

(فلاني لست في نفسي بفوق أن اخطيء الخ) .. أبداً لا ترى عظيماً ، ولن

تراه إلا وهو متهم لنفسه حتى ولو كان نبياً ، فقد شهد شاهد من أهلها ببراءة يوسف ، ومع هذا قال : « وما أبريء نفسي ان النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي - ٥٣ يوسف » حتى الإيمان بالله يحتاج الى عونهِ وتوفيقهِ : « فن شاء اتخذ الى ربه سبيلاً وما تشاؤون إلا أن يشاء الله - ٣٠ الدهر » أي الا ان يوفق ويعين (فلنما أنا وأنتم عبيد الخ) .. والعبد لا يملك شيئاً مع سيده (وأخرجنا مما كنا فيه الخ) .. الله هداانا بعنايته الى الاسلام ، وأخرجنا من الظلمات الى النور : « وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان - ٥٢ الشورى » .

الخطبة

- ٢١٥ -

اَللّٰهُمَّ اِنِّىْ اَسْتَعْدِيْكَ عَلَى قُرَيْشٍ فَاِنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوْا رَجِيْمِيْ ، وَاَكْفَأُوْا
اِنَايِيْ ، وَاَجْمَعُوْا عَلَى مُنَازَعَتِيْ حَقًّا كُنْتُ اَوَّلِيْ بِهِ مِنْ غَيْرِيْ ، وَقَالُوْا
اَلَا اِنَّ فِي الْحَقِّ اَنْ تَاْخُذَهُ وَفِي الْحَقِّ اَنْ تُنْصَحَهُ ، فَاصْبِرْ مَغْمُومًا اَوْ
مُتً مُّتَّاسِفًا ، فَفَنَظَرْتُ فَاِذَا لَيْسَ لِيْ رَايِدٌ وَلَا دَابٌّ وَلَا مُسَاعِدٌ اِلَّا
اَهْلَ يَبْنِيْ ، فَضَنَنْتُ بِهِمْ عَنِ الْمَنِيَّةِ فَاَغْضَيْتُ عَلَى الْقَذَى ، وَجَرَعْتُ
رِيْقِيْ عَلَى الشَّجَى ، وَصَبَرْتُ مِنْ كَظْمِ الْغَيْظِ عَلَى اَمْرٍ مِّنَ الْعَلَقَمِ ،
وَالْمَ لِّلْقَلْبِ مِنْ حَزَنِ الشُّفَارِ .

اللغة :

استعديك : استعينك . اكفأوا : اناثوا . قلبوه . والرافد : المعين . والذاب :
المدافع . وضننت : بخلت . وأغضيت : صبرت . والقذى : ما يقع في العين أو
في الشراب من تبنة ونحوها . والشجى : ما اعترض في الحلق من عظم ونحوه .
والشفار : جمع شفرة أي حد السيف ونحوه .

الإعراب :

حقاً منصوب بنزع الخافض أي منازعتي في حق ، ومغموماً حال، ومثله متأسفاً.

المعنى :

قال الشريف الرضي : «مضى هذا الكلام في أثناء خطبة متقدمة إلا اني ذكرته هنا لاختلاف الروايتين » . والخطبة المتقدمة التي أشاها اليها الشريف هي الخطبة رقم «٢٦» والخطبة رقم «١٧٠» وأيضاً نظلم الإمام من قريش في الخطبة رقم «٣٣» . وبالإيجاز قامت قيامة قريش على رسول الله (ص) وحاول عتاتها جاهدين أن يطمسوا رسالته ، وقالوا عنه : انه مجنون وكاهن وشاعر وطالب مُلك .. وأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون .. وبعد أن انتقل النبي الى الرفيق الأعلى اقتصوا منه بشخص أهل بيته . قال الكاتب المصري الاسلامي عبد الكريم الخطيب في كتاب « علي بن أبي طالب » ص ١٤٦ طبعة سنة ١٩٦٧ : « إن علياً كان أكثر المسلمين شدة على مشركي قريش، وأكثرهم تنكيلاً وإفجاءاً في الأبناء والآباء والأعمام والأخوال - الى أن قال - : وسرى آثار ذلك وشواهدة حين تقف قريش في وجه بني هاشم وحين تدودهم عن الخلافة ، ثم تنالهم بسيفوها ، فتقتل شبيها وشبابها وصبيانها وتشرذم بعائلها وحراثها ، وكأنما تثار بهذا لقتلاها في بدر وأحد » . وأشرنا الى ذلك في شرح الخطبة ١٩٠ .

الخطبة

- ٢١٦ -

فظائع أصحاب الجمل :

فَقَدِمُوا عَلَى عُمَالِي وَخُزَّانِ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي فِي يَدَي ، وَعَلَى أَهْلِ مِصْرٍ كُلِّهِمْ فِي طَاعَتِي وَعَلَى بَيْعَتِي ، فَشَتَّتُوا كَلِمَتَهُمْ ، وَأَفْسَدُوا عَلَيَّ جَمَاعَتَهُمْ . وَوَثَبُوا عَلَى شِيعَتِي فَقَتَلُوا طَائِفَةً مِنْهُمْ غَدْرًا ، وَطَائِفَةً عَضُّوا عَلَى أَسْيَافِهِمْ فَضَارَبُوا بِهَا حَتَّى لَقُوا اللَّهَ صَادِقِينَ .

المعنى :

عضوا على السيوف كناية عن الصبر والثبات في الحرب . دخل عسكر الجمل البصرة ، وأمن قادة الجمل وعسكره أهلها على أنفسهم وأموالهم .. وسرعان ما غدروا وقتلوا ونهبوا ، ونكّلوا ومثلوا ، ووقف لهم جماعة من أصحاب الإمام وشيعته ، وقاتلوه حتى استشهدوا ، واليهام أشار الإمام بقوله : (وطائفة عضوا على أسيافهم ، فضاربوا بها حتى لقوا الله صادقين) وتقدم الكلام عن ذلك في الخطبة ١٧٠ .

وقال المستشرق الألماني « فلهوزن » في « تاريخ الدول العربية » ، ترجمة أبو ريدة ص ٥١ وما بعدها طبعة سنة ١٩٥٨ : « كانت لعلّ مكانة أكبر من

مكانة طلحة والزبير ، وحين حوَّصر عثمان كان الإمام يصلي بالناس ، وكان في نظر كافة أهل المدينة خصوصاً الأنصار هو الخليفة الطبيعي لعثمان ، وقد تلقى البيعة العامة في المسجد .. وانقلب عليه طلحة والزبير انقلاباً مخزياً ، لأنه بتلقيه البيعة نال دونهما نجاحاً قانونياً .. وكانا في حياة عثمان لم يألوا جهداً في الكيد له ، وكان يبدو أن ذلك من أجل علي، فقد قدماه على نفسيَّتهما ، ولكنها الآن خرجا عليه خروج المنافسين ، واتهماه بأنه هو الذي دبر مقتل عثمان .

الخطبة

- ٢١٧ -

قتلى قريش :

لَقَدْ أَصْبَحَ أَبُو مُحَمَّدٍ بِهَذَا الْمَكَانِ غَرِيبًا . أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ أَكْرَهُ
أَنْ تَكُونَ قُرَيْشٌ قَتَلِي تَحْتَ بُطُونِ الْكَوَاكِبِ . أَذْرَكْتُ وَتَرِي مِنْ
بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ وَأَفْلَتَنِي أَعْيَانُ بَنِي جُمَحٍ ، لَقَدْ أَتَلَعُوا أَعْنَاقَهُمْ إِلَى
أَمْرٍ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَهُ فَوُقِصُوا دُونَهُ .

اللغة :

الوتر : الثَّأْرُ ، والمراد به هنا القصاص الشرعي . واتلَعوا : رفعوا أو مدوا .
فوقِصوا : اندقت أعناقهم أو كُسرت .

الإعراب :

أفْلَتَنِي ، الأصل أَفَلَتَ مِنِّي ، ولما حُدِفَتْ « من » تخفيفاً اتصلت الياء بالفعل.

المعنى :

قال الشريف الرضي : لما مر الإمام بطلحة وعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد، وهما قتيلان يوم الجمل قال : (لقد أصبح أبو محمد بهذا المكان الخ) .. وأبو محمد هو طلحة بن عبد الله أو عبيد الله ، وكان من الصحابة المعروفين ، ولكنه أول من حارب الصحابة ، وشهر عليهم السيف هو والزبير وأم المؤمنين ، وكان طلحة من بني تيم بن مرة ، وينتسب هو والزبير بالأم الى عبد مناف ، كما قال ميثم البحراني ، والذي قتل طلحة مروان بن الحكم ، وكاننا معاً من أصحاب الجمل يقاتلان الإمام ، كما أسلفنا .

أما عبد الرحمن بن عتاب فلم يكن صحابياً بل تابعياً وأمويأ من بني عبد مناف، وحارب الإمام في عسكر الجمل، وقُتل، وبنو جمح ينتسبون الى لؤي بن غالب، وكان منهم جماعة مع الجمل ، فقتل بعضهم ، وهرب آخرون . والإمام يكره القتل والقتلى من قريش وغير قريش، وإنما خصهم بالذكر، لأنهم أسرة النبي (ص) وأسرته ، ويتمنى لو كانوا أنصاراً للإسلام لا أعداء له ، يُقتلون على تنزيل القرآن تارة ، وعلى تأويله تارة أخرى . ومراد الإمام بقوله : (أدركت وقرى) أنه اقتصر بحكم القرآن لقتلى من قتل أصحاب الجمل من شيعته ورعيته ظلماً وعدواناً .

الخطبة

- ٢١٨ -

صاحب التقوى :

قَدْ أَحْيَا عَقْلَهُ وَأَمَاتَ نَفْسَهُ ، حَتَّى دَقَّ جَلِيلُهُ ، وَلَاطَفَ غَلِيظُهُ ،
وَبَرَّقَ لَهُ لَامِعٌ كَثِيرُ الْبَرْقِ فَأَبَانَ لَهُ الطَّرِيقَ وَسَلَكَ بِهِ السَّبِيلَ ،
وَتَدَا فَعَتَهُ الْأَبْوَابُ إِلَى بَابِ السَّلَامَةِ وَدَارِ الْإِقَامَةِ ، وَتَبَتَّتْ رِجْلَاهُ
بِطُمَأْنِينَةٍ بَدَنِهِ فِي قَرَارِ الْأَمْنِ وَالرَّاحَةِ بِمَا اسْتَعْمَلَ قَلْبُهُ وَأَرْضَى رَبُّهُ .

المعنى :

يطلب الإمام أن يكون كل مسلم صورة مثلى للإسلام على طراز هذا المسلم
الذي وصفه بقوله : (قد أحيا قلبه) بمعرفة الله ودينه وشريعته (وأمات نفسه)
بكبحها عن الشهوات والمحرمات (حتى دق جليله) نحل جسمه ، لأنه يأكل
ليعيش ، ولا يعيش ليأكل (ولطف غليظه) لا غلاظة ولا فظاظة في أخلاقه .

(وبرق له لامع كثير البرق الخ) .. أطال الشارحون الكلام حول هذه الجملة ،
وفسروها بأقوال الصوفية في مجاهدة النفس وترويضها . والذي نفهمه نحن ان الذي
يجمع بين العلم والتقوى تتكشف له مسالك الهدى الى الحق والعدل ، وتظهر أمامه

بوضوح بلا شبهات ولا عثرات، وقد صرح القرآن بهذا في أكثر من آية : «والذين
 اهتدوا زادهم هدى - ١٧ محمد » . « أنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى
 - ١٣ الكهف » والعكس بالعكس : « في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً -
 ١٠ البقرة » . « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم - ٥ الصف » .

(وتدافعت الأبواب الخ) .. قال الشارحون : المراد أبواب الرياضة وتطويع
 النفس الأمار ، والانتقال من مقام الى مقام حسب حدده الصوفية .. والصحيح
 - على فهمنا - ان كل الأبواب التي يدخل منها هذا العالم المتقي هي أبواب الهدى
 والحكمة والسلامة .. أبداً لا سفه ولا جهل ولا ضلال في أي شيء من أفعاله
 وتصرفاته ، هذا هو المراد من أبواب المتقي، وقد انتهت به الى قرار مكين وأمين.

الخطبة

- ٢١٩ -

النكائر .. فقرة ١ - ٢ :

يَا لَهُ مَرَامًا مَا أَبْعَدَهُ ، وَزَوْرًا مَا أَغْفَلَهُ ، وَخَطَرًا مَا أَفْظَعَهُ . لَقَدْ
 اسْتَخْلَوْا مِنْهُمْ أَيَّ مُدَّكِرٍ ، وَتَنَافَسُوا مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ، أَفِيْمَصَارِعِ
 آبَائِهِمْ يَفْخَرُونَ ، أَمْ بِعَدِيدِ الْهَلَكَى يَتَكَثَّرُونَ ؟ يَرْتَجِعُونَ مِنْهُمْ
 أَجْسَادًا خَوَتْ ، وَتَحَرَّكَاتٍ سَكَنْتْ . وَلَآنَ يَكُونُوا عِبْرًا أَحَقُّ مِنْ
 أَنْ يَكُونُوا مُفْتَخَرًا ، وَلَآنَ يَهْبِطُوا بِهِمْ جَنَابَ ذِلَّةٍ أُحْجَى مِنْ أَنْ
 يَقُومُوا بِهِمْ مَقَامَ عِزَّةٍ . لَقَدْ نَظَرُوا إِلَيْهِمْ بِأَبْصَارِ الْعُشْوَةِ . وَضَرَبُوا
 مِنْهُمْ فِي غَمْرَةِ جَهَالَةٍ . وَلَوْ اسْتَنْطَقُوا عَنْهُمْ عَرَصَاتِ تِلْكَ الدِّيَارِ
 الْخَاوِيَةِ وَالرُّبُوعِ الْخَالِيَةِ لَقَالَتْ ذَهَبُوا فِي الْأَرْضِ ضَلَالًا ، وَذَهَبْتُمْ
 فِي أَعْقَابِهِمْ جُهَالًا . تَطَّأُونَ فِي هَامِهِمْ ، وَتَسْتَثْبِتُونَ فِي أَجْسَادِهِمْ ،
 وَتَرْتَعُونَ فِيمَا لَفَظُوا ، وَتَسْكُنُونَ فِيمَا خَرَّبُوا ، وَإِنَّمَا الْأَيَّامُ بَيْنَكُمْ

وَيَبْنِيهِمْ بَوَالِكٍ وَتَوَاتِحُ عَلَيْهِمْ^(١) . أُولَئِكَ سَلَفُ غَايَتِكُمْ ، وَفَرَّاطُ
مَنَاهِلِكُمُ الَّذِينَ كَانَتْ لَهُمْ مَقَاوِمُ الْعِزِّ وَحَلَبَاتُ الْفَخْرِ مُلُوكًا وَسُوقًا .
سَلَكَوا فِي بُطُونِ الْبَرْزَخِ سَبِيلًا سُلِّطَتِ الْأَرْضُ عَلَيْهِمْ فِيهِ ، فَأَكَلَتْ
مِنْ لُحُومِهِمْ وَشَرِبَتْ مِنْ دِمَائِهِمْ . فَأَصْبَحُوا فِي فَجَوَاتِ قُبُورِهِمْ
جَمَادًا لَا يَنُمُونَ ، وَصِمَارًا لَا يُوجَدُونَ . لَا يُفْرِغُهُمْ وَرُودُ الْأَهْوَالِ ،
وَلَا يَحْزِنُهُمْ تَنَكُّرُ الْأَحْوَالِ ، وَلَا يَحْفَلُونَ بِالرَّوَاجِفِ ، وَلَا يَأْذَنُونَ
لِلْقَوَاصِفِ . غُيْبًا لَا يُنْتَظَرُونَ ، وَشُهُودًا لَا يَحْضُرُونَ . وَإِنَّمَا كَانُوا
جَمِيعًا فَلْتَشَنَّتُوا ، وَآلَفًا فَافْتَرَقُوا . وَمَا عَنْ طُولِ عَهْدِهِمْ وَلَا بُعْدِ
حَلَّتِهِمْ عَمِيَتْ أَنْخَبَارُهُمْ وَصَمَّتْ دِيَارُهُمْ ، وَلَكِنَّهُمْ سُقُوا كَأَسَا بَدَلْتَهُمْ
بِالنُّطْقِ خَرَسًا ، وَبِالسَّمْعِ صَمَمًا ، وَبِالْحَرَكَاتِ سُكُونًا . فَكَأَنَّهُمْ فِي
ارْتِجَالِ الْأَصْفَةِ صَرَعَى سُبَاتٍ^(٢) .

اللغة :

المرام : المراد . والزور - بفتح الزاي - للزائر مفرداً أو جمعاً أو منى .
وما أفضعه : ما أشنعه . واستخلوا منهم : وجدوا الديار خالية منهم . ومدكر:
من الإذكاء بمعنى الاعتبار . وتناولوهم : تناولوهم . ويتكاثرون : يتغالبون في
كثرة المال والرجال . ونخوت : سقطت أو خلت . وأحجى : أقرب للصواب .
والعشوة : ضعف البصر . والغمرة : الحيرة . قال تعالى : « بل قلوبهم في
غمرة - ٦٣ المؤمنون » أي في حيرة . وهامهم : رؤوسهم أو أعلاها . ولفظوا:
تركوا . وفرَّاط وفرطون : جمع فارط ، وهو الذي يتقدم القوم الى الماء أو

الكلاء . ومناهل : جمع منهل أي مورد . وحلبات : جمع حلبه - بفتح الحاء -
الدفعة من الحبل . والبرزخ : ما بين الدنيا والآخرة ، والحاجز بين شيئين كالقبر
ونحوه . وفجرات : جمع فجوة كالشق ونحوه . والضمار - بكسر الضاد - غيبة
بلا رجعة . ويأذنون : يستمعون . ورعد قاصف : شديد الصوت . وآلاف :
جمع ألف . وارتجال الصفة : الوصف على البديهة . والسبات - بضم السين -
النوم .

الإعراب :

يا له مرأماً « يا » للنداء ، وقيل لمجرد التنبيه ، ومرأماً تمييز ، وهو بيان
للضمير في « له » واللام للتعجب ، ما أبعد « ما » مبتدأ ، وأبعده فعل ماضٍ ،
والهاء مفعول ، والجملة خبر ، وأي مذكر حال من ضمير « منهم » أي كاملين
في الاعتبار ، مثل : مررت بزيد أي رجل ، أي كاملاً ، ولأن يكونوا اللام للابتداء ،
والمصدر من أن يكونوا مبتدأ ، والخبر أحق أي كونهم عبراً أحق من كونهم
مفتخراً ، وضلالاً حال ، ومثله جهال .

المعنى :

قال الشريف الرضي تلا الإمام قوله تعالى : « ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر »
وقال : (يا له ما أبعد مرأماً) . أتريدون أن تثبتوا الفضائل والمكارم لأنفسكم
بكثرة الأموال والرجال حيث يقول بعضكم لبعض : رهطي أكثر أموالاً ، وأعز
نفرأ ؟ .. هيهات ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم .. إن الغنى والفقر ، والعز والذل
بعض العرض على الله (وزوراً ما أغفله) يشير بهذا الى قوله تعالى : « حتى
زرتم المقابر » والمعنى عجباً من غفلتكم ! . أنتم في الطريق الى زيارة المقابر ،
ومع هذا تتلهون بالترهات ، وتباهون بعظام الأموات (وخطراً ما أفظعه) ان
الذي تنتهون اليه شيء فظيع وخطير ، وهو الموت والقبر والحساب والجزاء .
مالكم أفلا تبصرون ؟ .

(لقد استخلوا منهم) . تمادى الأحياء في الافتخار والاعتزاز بالموتى من
الأجداد والآباء .. وحين زار الخلف المكارث الأجداد ما وجد فيها أحداً من

السلف الدابر (أي مدسّر) ان هذه موعظة وذكرى للعالمين (وتناوشوهم من مكان بعيد) أي ذكروا الماضين بالعز والمجد، وبين الفريقين أبعد ما بين الخافقين (أفبمصارع آبائهم الخ) .. أنفخرون بالأجسام الفانية ، والعظام البالية ؟ (ولأن يكونوا عبراً الخ) .. جدير بالعاقل أن يتعظ بالموتى لا أن يفخر بهم (ولأن يهبطوا بهم الخ) .. وأيضاً جدير به أن يدل ويخشع لا ان يتعالى ويشمخ .

(لقد نظروا اليهم بأبصار العشوة الخ) .. نظروا الى الموتى بعيون غير سليمة ، فخاضوا من ذكرهم في بحر من الجهالة (ولو استنطقوا عنهم — الى — أعقابهم جهالاً) . لو أن الأحياء سألوا المقابر عن أجدادهم وآبائهم — لأجابتهم بلسان الحال : أنهم في الضلالة والهاوية ، وأنتم في الجهالة والغواية ، ولاحقون بهم الى أسفل سافلين (تطأون في هاماتهم) . قال ابن أبي الحديد : أخذ هذا المعنى أبو العلاء المعري فقال :

خفف الوطء ما أظن أديم الأر ض إلا من هذه الأجساد

(وتستثبتون في أجسادهم) . تستحيل أجسادهم الى تراب ، فتغرسون فيها الأشجار ونحوها (وترتعون فيما لفظوا) تتقلبون في الذي تركوا من حطام الدنيا ومتاعها (وتسكنون فيما خربوا) أي فيما تركوا ، تقول : خربت الديار إذا باد أهلها ، لأنها بهم تحيا وتثمر (وإنما الأيام بينكم الخ) .. بكت الأيام أو الديار على الآباء وناحت ، وعمما قريب تبكي عليكم وتنوح (أولئك سلف غايتكم) المراد بالسلف من مضى وبالغاية الموت ، والمعنى هم السابقون الى المقابر ، وأنتم اللاحقون .

(وفراط مناهلكم الخ) .. مضى من كان قبلكم من الأجيال ملوكاً ومملوكين ، وكان لهم في العز دعائم ، وفي الفخر سباق ، وأنتم على آثارهم تهرعون ، فلماذا تعمهون ؟ وقال الإمام مخاطباً أهل القبور : يا أهل الوحدة ، يا أهل الوحشة ، أنتم لنا فرط سابق ، ونحن لكم تبع لاحق (سلکوا في بطون البرزخ) القبور (سيلاً سلّطت الأرض عليهم الخ) .. فإبقت لهم جلدأ لا لحماً ، ولا دماً ولا عظماً .. أبداً لا شيء في القبر على الإطلاق إلا الظلمات والآفات .. وأنباء القبر عند الإمام كثيرة وكثيرة ، ولا يمل من تكرارها ، وقد مرت هذه الصفات في الخطبة ١٠٩ و ١٩٥ « والحبل على الجرار » .

وقال ميثم البحراني ما معناه : ان قول الإمام : « أصبحوا جاداً .. لا يفزعهم .. لا يحزنهم » ان هذا يشعر بأنه لا حساب ولا عذاب في القبر . وأجاب البحراني بأن مراد الإمام ان الموتى جاد بالنسبة الى الحياة الدنيا ، أما بالنسبة الى الآخرة فإنهم يحسون ويشعرون .

وبعد ، فإن غرض الإمام من كلامه عن القبور وأهلها هو التنبيه الى ان العاقل اذا تأمل وتدبر بداية الإنسان ونهايته - ينتهي لا محالة الى الإيمان بأنه مغلوب لقوة قاهرة تنصرف فيه كيف تشاء ، ولا راد لما تريد ، وانه لا نجاة من غضبها إلا بالسمع والطاعة لأمرها ونهيها .

انقطعت الأسباب .. لفقرة ٣ - ٥ :

جِيرَانُ لَا يَتَأَسُونُ ، وَأَحِبَّاءُ لَا يَتَزَاوَرُونَ . بَلَّيْتُ بَيْنَهُمْ عُرَى
التَّعَارُفِ وَانْقَطَعَتْ مِنْهُمْ أَسْبَابُ الْإِخَاءِ . فَكُلُّهُمْ وَحِيدٌ وَهُمْ جَمِيعٌ .
وَيَجَانِبُ الْهَجْرِ وَهُمْ إِخْلَاءٌ . لَا يَتَعَارَفُونَ لِلَّيْلِ صَبَاحاً وَلَا لِنَهَارٍ
مَسَاءً . أَيُّ الْجَدِيدَيْنِ ظَعَنُوا فِيهِ كَانَ عَلَيْهِمْ سَرْمَدًا . شَاهَدُوا مِنْ
أَخْطَارِ دَارِهِمْ أَفْطَحَ مِمَّا خَافُوا ، وَرَأَوْا مِنْ آيَاتِهَا أَعْظَمَ مِمَّا قَدَرُوا .
فَكَلَّمْنَا الْغَايَتَيْنِ مُدَّتْ لَهُمْ إِلَى مَبَاسَةٍ فَاتَتْ مَبَالِغَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ .
فَلَوْ كَانُوا يَنْطِفُونَ بِهَا لَعَيُوا بِصِفَةِ مَا شَاهَدُوا وَمَا عَايَنُوا . وَلَكِنَّ
عَمِيَتْ آثَارُهُمْ وَانْقَطَعَتْ أَخْبَارُهُمْ^(٣) . لَقَدْ رَجَعَتْ فِيهِمْ أَبْصَارُ الْعَبْرِ ،
وَسَمِعَتْ عَنْهُمْ آذَانُ الْعُقُولِ ، وَتَكَلَّمُوا مِنْ غَيْرِ جِهَاتِ النُّطْقِ . فَقَالُوا
كَلَّحَتِ الْوُجُوهُ النَّوَاضِرُ وَخَوَتِ الْأَجْسَادُ النَّوَاعِمُ . وَلَيْسْنَا أَهْدَامَ

الْبَلَى . وَتَكَاهِدَنَا ضَيْقُ الْمَضْجِعِ . وَتَوَارِثُنَا الْوَحْشَةَ . وَتَهَكِّمَتِ عَلَيْنَا
الرُّبُوعُ الصَّمُوتُ فَأَنْمَحَتِ مَحَاسِنُ أَجْسَادِنَا ، وَتَنَكَّرَتِ مَعَارِفُ صُورِنَا ،
وَطَالَتِ فِي مَسَاكِينِ الْوَحْشَةِ إِقَامَتُنَا . وَلَمْ تَجِدْ مِنْ كَرْبٍ فَرَجًا ، وَلَا
مِنْ ضَيْقٍ مُتَسَعًا . فَلَوْ مَثَلْتَهُمْ بِعَقْلِكَ أَوْ كَشِفَ عَنْهُمْ مَحْجُوبُ الْغِطَاءِ
لَكَ وَقَدِ ارْتَسَخَتْ أَسْمَاعُهُمْ بِالْهُوَامِ فَاسْتَكَّتْ ، وَاكْتَحَلَتْ أَبْصَارُهُمْ
بِالْتَّرَابِ فَخَسَفَتْ ، وَتَقَطَّعَتِ الْأَلْسِنَةُ فِي أَفْوَاهِهِمْ بَعْدَ ذَلَالَتِهَا ^(٤) .
وَهَمَدَتِ الْقُلُوبُ فِي صُدُورِهِمْ بَعْدَ يَقْظَتِهَا . وَعَاثَ فِي كُلِّ جَارِحَةٍ مِنْهُمْ
جَدِيدٌ بَلَى سَمَّجَهَا ، وَسَهَّلَ طُرُقَ الْآفَةِ إِلَيْهَا ، مُسْتَسْلِمَاتٌ فَلَا أَيْدٍ
تَدْفَعُ ، وَلَا قُلُوبٌ تَجْزَعُ لِرَأْيَتِ أَشْجَانِ قُلُوبٍ ، وَأَقْدَاءِ عُيُونٍ .
لَهُمْ فِي كُلِّ فِطَاعَةٍ صِفَةٌ حَالٍ لَا تَلْتَقِلُ ، وَغَمْرَةٌ لَا تَمْجَلِي ^(٥) .

اللغة :

العرى : جمع عروة أي مقبض الكوز ونحوه . والجديدان : الليل والنهار .
والسرمد : الدائم لا أول له ولا آخر . والمبأة : مكان النزول والاستقرار .
والعبر : الأحوال التي تنعظ بها . وكلحت الوجوه : عبت وكشّرت . ونخوت
الأجسام : تهدمت ، ومثلها تهكمت . والهوام : الحشرات . وعاث : أفسد .
وسمّجها : قبّحها وشوّها . وأقْدَاءُ العيون : ما يقع فيها فيؤذيها .

الإعراب :

جيران خبر لمبتدأ محذوف أي هم جيران ، ولثن الواو للقسم ، واللام للتوطئة

وجواب القسم لقد رجعت ، وهو ساد مسد جواب إن الشرطية ، فلو مثلتهم
« لو » حرف امتناع لامتناع كما يقول العربون ، أو حرف شرط ، ومثلتهم
فعله ، ولرأيت جوابه ، ومستسلات حال من الضمير في « اليها » .

المعنى :

(جيران لا يتأنسون الخ) .. لا علاقات ولا مواصلات بين أهل القبور تماماً
كما هو الشأن بين الأحياء والأموات (فكلهم وحيد) في أعماق قبر مظلم وموحش
(وهم جمع) قبوراً لا أرواحاً (أي الجديدين ظعنوا فيه كان عليهم سرمداً) .
أي هنا بمعنى أحد، والجديدان هما الليل والنهار حيث يتجددان ويتعاقبان باستمرار،
وضمير « فيه » يعود الى «أي» والمعنى ان الميت لا يعرف ليلاً ولا نهراً سواء
أفارق الحياة الدنيا في ذا أم ذاك ، لأن حاله واحدة دائمة لا تحول ولا تزول من
حيث القتام والظلام .

(شاهدوا من أخطار دارهم أظنع بما خافوا الخ) .. كانوا ، وهم أحياء ،
يخافون من وحشة القبر ، ولدى العيان رأوا من القضاة فوق ما تصوروا
(فكلتا الغايتين الخ) .. وهما جنة المتقين ، وجحيم الغاوين ، والمعنى ان
المتقين وجدوا عند ربهم أفضل مما وعدهم به من الثواب ، وكذلك الغاوين
وجدوا من العذاب فوق ما كانوا يتصورون (فلو كانوا ينطقون بها
— أي بمبالغ الخوف والرجاء — لعيوا بصفة ما شاهدوا) . كل فريق من المتقين
الذين رجوا الثواب ، والغاوين الذين خافوا العذاب — يعجز عن وصف ما هو
فيه لو أسعفه النطق .

(ولئن عميت آثارهم — الى — من ضيق متسعاً) . تكاءدنا : شق علينا
وصعب ، وتكررت: تغيرت ، والمعنى ان الموتى لا يعبرون عن أحوالهم واختباراتهم
بلسان المقال ، ولكنهم نطقوا بلسان الحال ، وسمعناهم نحن بأذان العقول يتحدثون
ويقولون : الوجوه منا قد تشوهت ، والأجسام قد تهدمت ، والأرواح في شدة
وضيق ، ووحدة ووحشة ، وقد طال علينا الأمد ، وانقطع منا الأمل .. وبكلمة
أجمع وأبلغ قالها الرسول الأعظم (ص) : « ما رأيت منظراً إلا والقبر أظنع منه » .
وهل من صدمة أظنع وأعنف من الدس في التراب حيث لا عدة ولا قوة ؟ .

(فلو مثلتهم بعقلك - الى - أقذاء عيون) . لو استطعت أن تتصور الموتى على حقيقتهم ، أو تكشف لك الغطاء عنها - لرأيت عجباً ، فالأسماع للحشرات ، والأبصار للتراب ، والألسن للبلب ، والقلوب جمود وهمود ، وما من عضو فيهم إلا وأفسدته الآفات .. وأي شيء أكثر للقلب شجىً ، وللعين قذى من ذلك ؟ .

وبعد . فإن ما ذكره الإمام (ع) من أحوال الموتى ليس بالشيء الجديد ، فإن الروح متى خرجت من الجسم صار جيفة خفيفة ، سواء أكان الجسم لانسان ، أم لحيوان ، أما شقاء الروح أو هناؤها فيرتبط بالأعمال لا بالأبدان « وأزلقت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين - ٩١ الشعراء » .

للموت غمرات .. فقرة ٦ - ٧ :

وَكَمْ أَكَلَتِ الْأَرْضُ مِنْ عَزِيزٍ جَسَدٍ وَأَيْنِقٍ لَوْنٍ كَانَ فِي الدُّنْيَا غَذِيًّا تَرَفٍ وَرَيْبَ شَرَفٍ . يَتَعَلَّلُ بِالشَّرُورِ فِي سَاعَةِ حُزْنِهِ ، وَيَفْزَعُ إِلَى السَّلْوَةِ إِنْ مُصِيبَةٌ نَزَلَتْ بِهِ ، ضَنَا بِغَضَارَةِ عَيْشِهِ وَشَحَاحَةً بِلَهْوِهِ وَاعْبِهِ . فَبَيْنَا هُوَ يَضْحَكُ إِلَى الدُّنْيَا وَتَضْحَكُ إِلَيْهِ فِي ظُلِّ عَيْشٍ غَفُولٍ إِذْ وَطِئَ الدَّهْرُ بِهِ حَسَكَهُ ، وَانْقَضَتِ الْأَيَّامُ قُوَاهُ ، وَنَظَرَتْ إِلَيْهِ الْخُتُوفُ مِنْ كَثَبٍ . فَخَالَطَهُ بَثٌّ لَا يَعْرِفُهُ ، وَنَجِيٌّ هُمْ مَا كَانَ يَحِدُّهُ . وَتَوَلَّدَتْ فِيهِ فتراتٌ عِلَلٍ آتَسَ مَا كَانَ بِصِحَّتِهِ . فَفَزَعَ إِلَى مَا كَانَ عَوْدَهُ الْأَطْبَاءُ مِنْ تَسْكِينِ الْحَارِّ بِالْقَارِّ ، وَتَحْرِيكِ الْبَارِدِ بِالْحَارِّ ، فَلَمْ يُطْفِئْ بِيَارِدٍ إِلَّا ثَوْرَ حَرَارَةٍ ، وَلَا حَرَكَ بِجَارٍ إِلَّا

هَيْجَ بُرُودَةٍ ، وَلَا أَعْتَدَلْ بِمَازَجِ لَيْلِكَ الطَّبَائِعِ إِلَّا أَمَدًا مِنْهَا كُلِّ
ذَاتِ دَاءٍ حَتَّى فَرَّ مُعَلِّلُهُ ، وَذَهَلَ مُرْضُهُ ، وَتَعَايَا أَهْلُهُ بِصِفَةِ دَائِهِ ^(٦) ،
وَنَحَرُسُوا عَنْ جَوَابِ السَّائِلِينَ عَنْهُ . وَتَنَازَعُوا دُونَهُ شَجِيًّا خَبِيرًا
يَكْتُمُونَهُ ، فَقَائِلُ يَقُولُ هُوَ لِمَا بِهِ ، وَمَنْ لَهُمْ إِيَابَ عَافِيَّتِهِ ، وَمُصَبِّرُ
لَهُمْ عَلَى فَقْدِهِ ، يُذَكِّرُهُمْ أَسَى الْمَاضِينَ مِنْ قَبْلِهِ . فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ
عَلَى جَنَاحٍ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا وَتَرْكِ الْأَجْبَةِ ، إِذْ عَرَضَ لَهُ عَارِضٌ
مِنْ غَصَصِهِ فَتَحَيَّرَتْ نَوَافِذُ فِطْنَتِهِ ، وَتَبَسَّتْ رُطُوبَةُ لِسَانِهِ . فَكَمْ
مِنْ مُهِمٍّ مِنْ جَوَابِهِ عَرَفَهُ فَعَيَّ عَنْ رَدِّهِ ، وَدَعَاؤُهُ مُؤَلِّمٍ لِقَلْبِهِ تَبِيعَهُ
فَتَصَامَ عَنْهُ مِنْ كَبِيرٍ كَانَ يُعْظَّمُهُ أَوْ صَغِيرٍ كَانَ يَرَحِّمُهُ . وَإِنْ لِلْمَوْتِ
لَغَمَرَاتٍ هِيَ أَفْطَحُ مِنْ أَنْ تُسْتَغْرَقَ بِصِفَةِ أَوْ تَعْتَدِلَ عَلَى قُلُوبِ
أَهْلِ الدُّنْيَا ^(٧) .

اللغة :

يتعلل : يظهر العلة ، أو يشغل نفسه بالأباطيل ، وهذا هو المراد هنا .
ويغزع : يلجأ . والسلوة : ما يسليك وينسيك عما يززعجك . وضناً : بخلاً .
وغضارة العيش : سعة . وعيش غفول : يوجب الغفلة والبطيان . والحسك :
نبات شائك . والخوف : الموت الطبيعي أو المهلكات . والكثب : القرب .
والبث : النشر والحال وأشد الحزن ، وهو المراد هنا . والنجي : المناجى .
وفترات : من الضعف والفتور لا من الفترة بمعنى الهدنة . والقار : البارد .
ومعلله : من يسليه أو يطببه . وممرضه : من يخدمه في مرضه . وتعايا أهله :

أظهروا العي عند السؤال . والأسى : ما يتأسى به . والغمرات : الشدائد والأهوال .

الإعراب :

كم خبرية ، ومحلها النصب مفعولاً لأكلت ، ومن عزيز تمييز « كم » والتقدير كم من عزيز جسد أكلت الأرض ، وضناً مفعول من أجله ليفزع ، وإذ فجائية لوقوعها بعد بينا ، وآنس حال من ضمير « فيه » ، وما بمعنى شيء ، وكان زائدة ، وبصحته متعلق بمحذوف خبراً لمبتدأ محذوف أي آنس شيء هو بصحته مثل مررت برجل هو شيء من الأشياء .

المعنى :

(فكم أكلت الأرض الخ) . من أجسادنا نحن الآدميين كباراً وصغاراً حتى من تقلب في النعيم ، وعاش على الطيبات طوته الأرض في بطنها ، وما زالت ضامرة تطلب المزيد تماماً كجهنم (يتعلل بالسرور الخ) .. الضمير المستتر في يتعلل يعود الى المترف الذي كان اذا نزلت به نازلة انصرف عنها الى العود والكأس ، وعبث الحياة ولهاها (فبينما هو يضحك - الى - صحته) . اغتاله الدهر بغوائله ، وهو آمن نشوان من سكرات الفراغ والجيدة ، فتحطم وذهبت قواه مع الريح دون إشعار وسابق إنذار :

وقد يسلم الانسان من حيث يتقي ويؤتى الفتى من أمنه وهو غافل

(ففزع الى ما كان - الى - برودة) . كان الأطباء القدماء يقيسون صحة الجسم بتوازن اليبوسة مع الرطوبة ، والحرارة مع البرودة ، فإذا اختل التوازن وزاد أحد العنصرين المتقابلين على الآخر اعتل الجسم .. وكان العلاج في نظرهم هو العمل لإعادة التوازن والتعديل ، فإذا ارتفعت الحرارة أطفأوا حدة بالبارد ، وإذا طغت البرودة قهروها بالحرار ، ولكن تطيب ذاك المريض المترف الغافل بهذا

العلاج — جاء على العكس .. فالبارد يرفع من حرارته ، والحرار يزيد في برودته ! وهل لداء الموت طب أو علاج ؟.

(ولا اعتدل بمزاج لتلك الطبائع إلا أمدّ منها كل ذات داء) . كلما بُدلت الجهود والعناية في اتقان الدواء وتركيبه ، وعولج به هذا المريض المترف لكسي يعتدل مزاجه — تراكت أسقامه ، واحتدمت آلامه ، تماماً كمن يلقي في النار ما يزيد اشتعالاً (حتى فتر معله) يأساً من شفائه (وذهل ممرضه) عنه وعن أوجاعه (وتعايا أهله الخ) .. وحاروا في جواب السائلين عن عليهم ماذا يقولون ؟ (وتنازعوا دونه شجيّ خبر يكتمونونه) . واو الجماعة يعود الى أهل المريض ، وشجيّ خبر أي خبر مؤلم عن ذي حزن وألم ، وهو المريض ، والمعنى ان أهل المريض تناجوا في شأنه ، وحاولوا جهدهم أن يخفوا عنه ما يتشاورون فيه من أمره حرصاً منهم على راحته .

(فقاليل يقول : هو لما به) أي مأبوس منه ، أو مجهول المصير (ومنّ لهم) أي جعلهم يتمنون ويأملون (إياب عافيته) ورجوع صحته الى سابق عهدها (ومصبرّ لهم على فقدّه) ويقول ، إن هو إلا كأجداده وآبائه ، وكلنا على الأثر (فبينما هو كذلك — الى — لسانه) . إنه ذاهب الى غير رجعة ، ولكنه قبل الوداع الأخير فوجيء بنصّة وحشرجة في أنفاسه ، قبضت لسانه ، وأطارت صوابه (فكّم من مهمّ من جوابه عرفه فعيّ عن رده) يسأله السائل ، وهو في حاله تلك ، عن أشياء تهمة وتهم الوارث ، فيفهم السؤال ، ويعرف الجواب ، ولكنه يعجز عن النطق به .

(ودعاء مؤلم بقلبه سمعه فتصام عنه) . المراد بالدعاء النداء أي ان بعض أحبائه يناديه باسمه ، فيسمع النداء ، ومع هذا يتجاهل عجزاً عن الجواب (من كبير كان يعظمه) كوالده الحنون (أو صغير كان يرحمه) كطفله وفلذة كبده (وان للموت لغمرات للخ) .. وسكرات يعجز الوصف عن استيعابها أو ان الوصف يحيط بحقيقة الموت وأحواله كما لو كان يعلم الإمام وبلاغته ، ولكن العقول لا تهضم ولا تصدق ، لأنه فوق ما تدرك وتتصور .

وبعد ، فإن الإنسان يمتلك من الطاقات ما ارتفعت به الى القمر كخطوة أولى الى غيره من الكواكب .. ومع هذا يعجز العلماء مجتمعين أن يردوا الروح الى

مكانها بعد أن تنطلق منه ، أو يمنعوها من الانطلاق ، ويحبسوها حيث هي ..
وقد تحدى سبحانه بذلك كل جاحد ومعاند حيث قال في آخر سورة الواقعة :
« فلولا إذا بلغت الحلقوم ... ترجعونها ان كنتم صادقين » بأنه لا يرى ولا
خالق .. تأمل في هذا التحدي بلا جهل وعناد .. فإنه حجة دامغة كما هو
موعظة بالغة .

الخطبة

- ٢٢٠ -

ذكر الله سبحانه .. فقرة ١ - ٢ :

إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ الذِّكْرَ جَلَاءً لِلْقُلُوبِ تَسْمَعُ بِهِ بَعْدَ الْوَقْرَةِ ،
وَتُبْصِرُ بِهِ بَعْدَ الْعَشْوَةِ ، وَتَنْقَاضُ بِهِ بَعْدَ الْمُعَانَدَةِ . وَمَا بَرِحَ اللَّهُ
- عَزَّتْ أَلَاؤُهُ - فِي الْبُرْهَةِ بَعْدَ الْبُرْهَةِ وَفِي أَرْزَامِ الْفَتَرَاتِ عِبَادُ
نَاجَاهُمْ فِي فِكْرِهِمْ ، وَكَلَمَتِهِمْ فِي ذَاتِ عُقُولِهِمْ ، فَاسْتَصْبَحُوا بِنُورِ
يَقْظَةٍ فِي الْأَسْمَاعِ وَالْأَبْصَارِ وَالْأَفْئِدَةِ . يُذَكِّرُونَ بِأَيَّامِ اللَّهِ ،
وَيُخَوِّفُونَ مَقَامَهُ بِمَنْزِلَةِ الْأَدِلَّةِ فِي الْفُلُوتِ . مَنْ أَخَذَ الْقَصْدَ حَمِدُوا
إِلَيْهِ طَرِيقَهُ وَبَشَّرُوهُ بِالنَّجَاةِ . وَمَنْ أَخَذَ يَمِينًا وَشِمَالًا ذَمُّوا إِلَيْهِ
الطَّرِيقَ ، وَحَذَّرُوهُ مِنَ الْهَلَكَةِ ، وَكَانُوا كَذَلِكَ مَصَابِيحَ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ
وَأَدِلَّةَ تِلْكَ الشُّبُهَاتِ ^(١) . وَإِنَّ لِلذِّكْرِ لَأَهْلًا أَخَذُوهُ مِنَ الدُّنْيَا بَدَلًا

فَلَمْ تَشْعَلْهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعٌ عَنْهُ ، يَقْطَعُونَ بِهِ أَيَّامَ الْحَيَاةِ وَيَهْتِفُونَ
بِالزَّوْاجِرِ عَنْ حَرَامِ اللَّهِ فِي أَشْمَاعِ الْغَافِلِينَ . وَيَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ
وَيَأْتِمُرُونَ بِهِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَتَنَاهَوْنَ عَنْهُ . فَكَأَنَّمَا قَطَعُوا
الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ وَهُمْ فِيهَا فَشَاهِدُوا مَا وَرَاءَ ذَلِكَ ، فَكَأَنَّمَا أَطْلَعُوا
غُيُوبَ أَهْلِ الْبَرْزَخِ فِي طُولِ الْإِقَامَةِ فِيهِ ، وَحَقَّقَتِ الْقِيَامَةُ عَلَيْهِمْ
عِدَاتِهَا . فَكَشَفُوا غِطَاءَ ذَلِكَ لِأَهْلِ الدُّنْيَا حَتَّى كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَ مَا لَا
يَرَى النَّاسُ ، وَيَسْمَعُونَ مَا لَا يَسْمَعُونَ (٢) .

اللغة :

الوقرة : ثقل السمع . والعشوة : ضعف البصر . والبرهة : المدة الطويلة .
والفترات : جمع الفترة أي الهدنة . والقصد : الاعتدال . والبرزخ : الحاجز
وما بين الموت والبعث .

الإعراب :

ما برح من اخرات كان ترفع الاسم وتنصب الخبر ، ولله اسمها ، وعباد خبرها ،
ومصاييح بدل من كذلك ، وبدلاً حال من الهاء في أخذه ، والأيام مفعول به
ليقطعون ، لأنها مثل قطعت الحيط .

المعنى :

تلا الإمام (ع) قوله تعالى: « يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم
تجارة ولا بيع عن ذكر الله - ٣٧ النور » . وقال : (ان الله سبحانه وتعالى

جعل الذكر - الى - المعائدة) . قيل المراد بالذكر هنا القرآن ، لقوله تعالى مشيراً اليه : « وهذا ذكر مبارك أنزلناه - ٥١ الأنبياء » . وهذا بعيد عن سياق الكلام الظاهر في كل ذكر يكون جلاءً للقلوب ، وبقظة للأسماع والابصار .. وليس من شك ان أفضل الذكر النضال في سبيل الحق ، وجهاد المعتدين عليه ، وليس هذا راجحاً فحسب ، بل هو لرض لا يغني عنه صوم ولا صلاة ولا حج وزكاة .

(وما بريح لله - الى - الأفتدة) . قوله : « عزت آلاؤه » أي عظمت وكرمت نعمه ، وقوله : « في أزمان الفترات » أي الأزمنة الخالية من وجود الأنبياء ، والمعنى ان الأرض قد تخلو من رسول ونبي حيناً من الدهر ، ولكنها لا تخلو إطلاقاً من العارفين بالله العاملين بخير ، وهم الذين رأوا بحواسهم البقطة ، وأدركوا بعقولهم النيرة ان هذا الكون هو من صنع الله سبحانه ، واستوحوا منه حكمته وعظمته ، فخافوه واتقوا بطشه وغضبه . وأسند الإمام هذا الإدراك المصيب الى الله ، لأنه مستوحى من الكون ، وهو من خلق الله وآثاره ، واليه وحده تنتهي سلسلة الأسباب مهما تعددت وتنوعت .. حتى الصورة التي يستوحىها الشاعر والرسام من أشياء الطبيعة وجهاها هي وحي من الله بالاعتبار الذي أشرنا اليه .

(يذكرون بأيام الله الخ) .. أي بعذابه الذي صبه على من طغى في البلاد فأكثر فيها الفساد ، والمعنى ان العارفين يذكرون ويهدون الخلق الى طريق الحق ، والذكرى تنفع الضمائر الحية تماماً كما تنفع علامات الطريق السليم في الصحارى والقفار (من أخذ القصد حمدوا اليه طريقه الخ) .. من سلك طريق الهداية شجعوه وأثنوا عليه ، وبشروه برضوان الله وثوابه ، ومن انحرف يمنة ويسرة ذمموه ، وأنذروه بعذاب يخزيه ويرديه (وكانوا كذلك الخ) .. أئمة يهدون الى الحق ، وبه يعملون ، والمراد بالظلمات والشبهات الشرك وعبادة الأصنام ونحوها من التصادمات التي سادت في عصر المتنقين القلائل .

(وان للذكر لأهلاً) وهم الذين وصفهم الإمام ببقطة الحواس والأفتدة ، وبالأدلة في الفلوات (أخذوه من الدنيا بدلاً الخ) .. أدركوا ان الدنيا الى زوال ، وان الآخرة خير لمن قدمت يده من الخير ، فسعوا له سعيه ، لا تلهيهم عنه تجارة ولا بيع ، أو قيل وقال (يقطعون به أيام الحياة) لا يقتلون الوقت بالغرور

والأباطيل ، لأن الأيام تأخذ من الانسان أثمن ما يملك ، فعليه أن يأخذ منها أهلى الأثمان وأعلاها . قال الإمام : ليس لأنفسكم ثمن إلا بالجنة ، فلا تبيعوها إلا بها . وقال : لبس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمناً ، ومما لك عند الله عوضاً .

(ويهتفون بالزواج - الى - يتناهون) . يأمرهم بالمعروف ويأثمرون به ، وينهون عن المنكر ، ويتناهون عنه ، كما هو شأن المؤمنين حقاً لا شأن من يتاجر بالدين (فكأنما قطعوا الدنيا الى الآخرة ، وهم فيها السخ) .. هم في الدنيا بأجسامهم ، وفي الآخرة بأرواحهم وأهدافهم ، نظروا الى هذه على انها دار البقاء والخلود ، فأسسوها وبنيوها ، ونظروا الى تلك نظرة المسافرين العابر ، فتركوها لمن شاءها وأرادها لا ينافسونه في شيء من حطامها (فكأنما اطلعوا غيوب - الى - عداتها) . البرزخ عالم ما بين الموت ويوم القيامة ، والمعنى ان العارفين بالله ينظرون بعين اليقين والإيمان الى عالم البرزخ ، فيرون كل ما وعد الله به من ثواب الأخيار ، وعذاب الأشرار ، ومن أصدق من الله حديثاً ؟ .

(فكشفوا غطاء ذلك لأهل الدنيا) . أخبروهم بما يحدث لهم بعد الموت لعلمهم يتقون (حتى كأنهم يرون ما لا يرى الناس ، ويسمعون ما لا يسمعون) يتحدث العارفون بالله عن عالم البرزخ كأنهم فيه بجميع حواسهم وشعورهم بصراً وسمعاً وعقلاً وقلباً ، أما أهل الدنيا فهم مع الآخرة بالسمع لا بالعيان ولا بشيء من الشعور والاتعاظ .. وقال ابن أبي الحديد : كأن الإمام يشرح هنا ما قاله في مكان آخر : « لو كشف الغطاء ما ازدادت يقيناً » .

حاسب نفسك .. فقرة ٣ :

قُلُوا مَثَلْتُمْ لِعَقْلِك فِي مَقَاوِمِهِمُ الْمُحْمُودَةِ ، وَتَجَالِسِهِمُ الْمَشْهُودَةِ وَقَدْ تَشَرُّوا دَوَابِينَ أَعْمَالِهِمْ ، وَفَرَّغُوا لِحَاسَبَةِ أَنْفُسِهِمْ عَنْ كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ أَمَرُوا بِهَا فَقَصَّروا عَنْهَا ، أَوْ نَهَوْا عَنْهَا فَقَرَّطُوا فِيهَا ، وَتَحَمَّلُوا ثِقَلَ أَوْزَارِهِمْ ظُهُورَهُمْ فَضَعُفُوا عَنِ الْأَسْتِقْلَالِ بِهَا فَتَشَجُّوا تَشِيحاً

وَتَجَاوَبُوا نَجِيًّا . يَعِجُّونَ إِلَى رَبِّهِمْ مِنْ مَقَاوِمٍ نَدَمَ وَاعْتِرَافٍ لَرَأَيْتَ
أَعْلَامَ هُدًى ، وَمَصَابِيحَ دُجًى . قَدْ حَفَّتْ بِهِمُ الْمَلَائِكَةُ ، وَتَنَزَّلَتْ
عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ ، وَفُتِحَتْ لَهُمُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ، وَأُعِدَّتْ لَهُمْ مَقَاعِدُ
الْكَرَامَاتِ فِي مَقَامٍ أَطْلَعَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِيهِ فَرَضِي سَعْيِهِمْ وَحَدَّ مَقَامِهِمْ
يَتَنَسَّمُونَ بِدُعَائِهِ رَوْحَ التَّجَاوُزِ . رَهَائِنُ فَاقَةٍ إِلَى فَضْلِهِ ، وَأَسَارَى
ذِلَّةٍ لِعَظَمَتِهِ . جَرَحَ طُولُ الْأَسَى قُلُوبَهُمْ ، وَطُولُ الْبُكَاءِ عُيُونَهُمْ .
لِكُلِّ بَابٍ رَغْبَةٌ إِلَى اللَّهِ مِنْهُمْ يَدٌ قَارِعَةٌ يَسْأَلُونَ مَنْ لَا تَضِيقُ لَدَيْهِ
الْمَنَادِحُ وَلَا يَخِيبُ عَلَيْهِ الرَّاغِبُونَ . فَحَاسِبْ نَفْسَكَ لِنَفْسِكَ فَإِنَّ
خَيْرَهَا مِنَ الْأَنْفُسِ لَهَا حَسِيبٌ خَيْرُكَ^(٣) .

اللغة :

مقاوم : جمع مقام . ويتنسمون : يتنفسون أو يشمون . والمناوح : المندوحة
أي السعة والفسحة .

الإعراب :

نجياً مفعول مطلق لتجاوبوا من غير لفظه ، ولرأيت جواب لو مثلتهم ، ورهائن
خبر مبتدأ محذوف أي هم رهائن ، ولكل باب خبر مقدم ، ويد مبتدأ مؤخر .

المعنى :

(فلو مثلتهم لعقلك — الى — لرأيت أعلام هدى) . لأهل الله مجالس

وخلوات يحاسبون فيها أنفسهم : هل تركت واجباً ، أو ارتكبت محرماً ؟ .
ويشهدون عليها بالكسل والتقصير في جنب الله والحق ، ويعنفونها بكل جارح
ومؤلم .. وما أخذت المسكينة من الدنيا شيئاً ، ولكن مطامح الانقياء الى الفوز
برضوانه تعالى ليس لها حد محدود ، ومن أجل هذا يستجيرون بكسرم الله أن
يرحمهم ويغفر ، ولا شك ان هذا الطموح والحساب الدقيق مصدره الخوف من
سواد الوجه عند الله ، ولا مصدر لهذا الخوف إلا العلم بالله وعظمته .

ولعلمهم بالله وخوفهم منه (قد حفت بهم الملائكة) . هذا كناية عن عظيم
منزلتهم عند الله وملائكته ورسله وخالص المؤمنين (تنزلت عليهم السكينة الخ) ..
المراد بالسكينة هنا الاطمئنان والرحمة والكرامة والنعمة ، وبكلمة واحدة : السعادة
كما هي عند الله ، والمعنى ان من يعيش ويحيا في الإيمان بالله وحده ، ويلتزم
بهذا الإيمان في جميع أقواله وأفعاله كهؤلاء العارفين ، ان من كان كذلك لا بد
أن ينتهي الى السكينة بالمعنى الذي أشرنا اليه (فرضي) الله (سعيهم) لأنه خالص
لوجهه الكريم (يتنسّمون بدعائه روح التجاوز) عن تقصيرهم فيما كانوا يطمحون
اليه من طاعة الله ومرضااته .

(رهائن فاقة الى فضله) أي يشعرون بالحاجة الى رحمة الله تعالى منها علماً
واجتهادوا (وأسارى ذلة لعظمته) لا يرون لهم حولاً ولا قوة إلا بالله وحده
(جرح طول الأسمى الخ) .. يحزنون ويبكون خوفاً من الحساب والجزاء (لكل
باب الخ) .. يقرعون كل باب ، ويسلكون كل سبيل يوصلهم الى الله سبحانه
(يسألون من لا تضيق عليه الخ) .. يسألون من عنده خزائن الأرض والسموات .
ونيل المطالب والحاجات ، ويُسْتغْنَى به ، ولا يُسْتغْنَى عنه . وتقدم مثله في
الخطبة ٨٩ .

حاسب نفسك :

(فحاسب نفسك لنفسك ، فإن غيرها من الأنفس لها حاسب غيرك) .
ما لك ولعيوب الناس وأخطائهم ؟ . وهل أنت في عصمة من الخطأ والخطيئة .
أو أنت وكيل على غيرك وحسيب ؟ والله سبحانه يقول لسيد الكونين : « وما

جعلناك عليهم حفيظاً وما أنت عليهم بوكيل - ١٠٧ الأنعام . عليك أن
تراقب وتحاسب نفسك بنفسك، لتقف بين يدي الله طاهرة من دنس الذنوب والآثام،
وأن تكون لها قائداً لا مقوداً ، ومدرّباً لا مستعبداً، ولا تتغافل عنها أدنى تغافل..
ولإلا جمحت بك من حيث لا تشعر . وتقدم مثله في الخطبة ١٣٨ .

الخطبة

- ٢٢١ -

ما هرك بربك الكريم .. لقرة ١ - ٢ :

أدحضُ مَسْئُولِ حُجَّةٍ ، وَأَقْطَعُ مُعْتَرٍ مُعْذِرَةٍ . لَقَدْ أْبْرَحَ جَهَالَةً
بِنَفْسِهِ . يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا جَرَأَكَ عَلَى ذَنْبِكَ ، وَمَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ،
وَمَا آتَاكَ بِهَلَكَةِ نَفْسِكَ . أَمَا مِنْ دَايِكَ بُلُولٌ . أَمْ لَيْسَ مِنْ
نَوْمَتِكَ يَقْظَةٌ . أَمَا تَرْحَمُ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَرْحَمُ مِنْ غَيْرِكَ . فَرُبَّمَا
تَرَى الضَّاحِيَ يَحْرُ الشَّمْسُ فَتَنْظِلُهُ ، أَوْ تَرَى الْمُبْتَلَى بِالْمِ يُمِضُ جَسَدَهُ
فَتَبْكِي رَحْمَةً لَهُ ، فَمَا صَبْرَكَ عَلَى دَايِكَ ، وَجَلْدَكَ عَلَى مُصَابِكَ ،
وَعَزَاكَ عَنِ الْبُكَاءِ عَلَى نَفْسِكَ ، وَهِيَ أَعَزُّ الْأَنْفُسِ عَلَيْكَ . وَكَيْفَ
لَا يُوقِظُكَ خَوْفُ بَيَاتِ نِقْمَةٍ وَقَدْ تَوَرَّطَ بِمُعَاصِيهِ مَدَارِجَ سَطَوَاتِهِ .
فَتَدَاوَى مِنْ دَاءِ الْفِتْرَةِ فِي قَلْبِكَ بِعَزِيمَةٍ ، وَمِنْ كَرَى الْغَفْلَةِ فِي نَاطِرِكَ
بِيقْظَةٍ^(١) . وَكُنْ لِلَّهِ مُطِيعًا ، وَبِذِكْرِهِ آتِسًا . وَتَمَثَّلْ فِي حَالِ تَوَلُّيكَ

عَنْهُ إِقْبَالُهُ عَلَيْكَ . يَدْعُوكَ إِلَى عَفْوِهِ وَيَتَغَمَّدُكَ بِفَضْلِهِ وَأَنْتَ مُتَوَلٍّ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ . فَتَعَالَى مِنْ قَوِيٍّ مَا أَكْرَمَهُ ، وَتَوَاضَعْتَ مِنْ ضَعِيفٍ مَا أَجْرَأَكَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ وَأَنْتَ فِي كَنْفِ سِتْرِهِ مُقِيمٌ ، وَفِي سَعَةِ فَضْلِهِ مُتَقَلِّبٌ . فَلَمْ يَمْنَعْكَ فَضْلُهُ وَلَمْ يَهِنِكَ عَنْكَ سِتْرُهُ ، بَلْ لَمْ تَخُلْ مِنْ لُطْفِهِ مَطْرَفَ عَيْنٍ ، فِي نِعْمَةٍ يُخْذِلُهَا لَكَ ، أَوْ سَيِّئَةٍ يَسْتُرُهَا عَلَيْكَ ، أَوْ يَلِيَّةٍ يَضْرِفُهَا عَنْكَ . فَمَا ظَنُّكَ بِهِ لَوْ أَطْعَمَهُ ؟ وَآيِمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ هَذِهِ الصِّفَةَ كَانَتْ فِي مُتَفَقِّهٍ فِي الْقُوَّةِ ، مُتَوَازِينَ فِي الْقُدْرَةِ لَكُنْتَ أَوَّلَ حَاكِمٍ عَلَى نَفْسِكَ بِذِمِّهِ الْأَخْلَاقِ وَمَسَاوِي الْأَعْمَالِ (٢) .

اللغة :

أدحض : أشد دحضاً أي بطلاناً . وأقطع : أشد قطعاً أي بعداً وإبانة . وأبرح : أعجب أو أشد . وآتسك : ضد أوحشك . والبلول : الشفاء من المرض . والضاحي : من أصابته الشمس . ويُمض : يؤلم ويوجع . وجلدك : صبرك أي جعلك صابراً . وتورطت : وقعت فيما لا خلاص لك منه . والكرى : النعاس ، وليس النوم كما ظن بعض المعلقين . والكنف : الظل والجانب .

الإعراب :

أدحضُ خبرٌ لمبتدأ محذوف أي الانسان أو هو أدحض ، وحجة تمييز، ومثلها معذرة وجهالة . وما جرأكَ «ما» للاستفهام مع الإنكار ، ومحلها الرفع بالابتداء ، وجملة ما بعدها خبر ، فلربما اللام زائدة ، و «ما» كافة ، ورحمة مفعول من أجله لتبكي ، وكيف حال أي على أي حال لا يوقظك خوف ، ومطرف نصب على الظرفية ، لأن الأصل قدر مطرف .

الله يجهل ولا يهمل :

تلا الإمام (ع) قوله تعالى : « يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم » وقال : (أدحض مسؤول - الى - نفسه) . أبداً لا حجة ولا عذر لك أيها المتجريء على معصية الله ، وما أنت إلا جاهل مغرور .. وقال قائل : إن الذي أغراه بالمعصية قوله سبحانه : « ما غرك بربك الكريم » حيث ألهمه الجواب وعلمه أن يقول غداً اذا سئل عن ذنبه : غرني حلمك وكرمك .! وهذا خطأ ، لأن الله سبحانه لا ينهى عن المعصية ، ثم يغري بها .

أما الإمام فإنه يفسر الكرم في الآية بالحلم والإمهال ، وأنه تعالى يجهل ولا يهمل أي لا يعجل العقوبة ، وإلا ما ترك على ظهرها من دابة .. انه يمد للعاصي ، وينعم عليه ، عسى أن يؤوب الى رشده ، ويرجع عن غيئه ، وعليه يكون معنى الآية : لا تغتر أيها الانسان بحلم الله وسكوته عنك ، فإن هذا تأنيب لك واختبار . وأجل ما قرأت في هذا الباب مناجاة للإمام زين العابدين (ع) قال فيها من جملة ما قال :

« سبحانه ما أعجب ما أشهد به على نفسي ، وأعدده من مكتوم أمري ، وأعجب من ذلك أناتك عني ، وإبطائك عن معالجاتي ، وليس ذلك من كرمي عليك ، بل تأنيباً منك لي ، وتفصيلاً منك عليّ ، لأن أرتدع عن معصيتك المسخطة ، وأقلع عن سيئاتي المخلفة ، لأن عفوك عني أحب اليك من عقوبيتي » .

(يا أيها الانسان ما جرأك - الى - هلكة نفسك) . الإمام يشعر بآلام الناس ، ويتوجع لها ولهم ، حتى عذابهم في الآخرة يشفق عليهم منه ، بل توجعه لهم من أجل هذا أشد وأعظم ، لأنه أقسى وآلم .. ومن أجل هذا خاطب من يستهين بمعصية الله ، خاطبه بلسان الشفيق الناصح ، ونهاه بأسلوب السؤال والاستفهام : كيف أعرض عن خالقه ، وصرف وجهه عن دعوته ، وطلب النوال من غيره ؟ . وما الذي جرأه على هذا الضلال والاستسلام للتهلكة ؟ .

(أما لدائك بلول الخ) .. الى متى هذا التماادي في الغي ؟ ألا تفيق من نشوتك ؟ (أما ترحم نفسك - الى - أعز الأنفس عليك) . عجباً منك ! . ترى غريقاً فتسعه ، أو متألماً من لفحة الهجير فتظله ، ثم لا تقي نفسك من عذاب الحريق ، وأنت تملك القدرة على خلاصها وسلامتها ؟ ما شأنك ؟ هل

ران على بصرك وبصيرتك ، أم أنت في غنى عن نفسك ؟ ولو كنت على شيء من الوعي لبكيت عليها دماً (وكيف لا يوقظك خوف بيات نقمة) ومن الذي يعصمك من الله إن أراد بك سوءاً ؟ وهل أخذت منه عهداً وأماناً ؟ : « وكَم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قاتلون — ٤ الأعراف » . (وقد تورطت بمعاصيه الخ) .. أي تصديت لغضب الله وعذابه ، فادفعه عنك إن كنت ذا قوة وطول .

(فتداو من داء الفترة في قلبك بعزيمة الخ) .. المراد بالفترة هنا الفتور وعدم العزم والنشاط بقريئة قوله « بعزيمة » والمعنى كن يقظاً ونشطاً ، ولا تكسل في طاعة الله ، وتستوحش من ذكره (وتمثل في حال توليك عنه إقباله عليك) . أنت تعرض عن الله لاهياً بملذاتك وشهواتك ، وهو يُقبل عليك بفضله وإحسانه.. تصور حالك ووضعك هذا بينك وبين نفسك عسى أن تكف وتهتدي (يدعوك إلى عفوه) أي إلى التوبة وطلب العفو ، لأن عفوه تعالى عن ذنبك أحب إليه من عذابك: « ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم — ١٤٧ النساء » .

(ويتغمذك بفضله ، وأنت متول عنه إلى غيره) . أهذا جزاء من غمرك بالإحسان : تأكل رزقه ، وتعبد غيره ؟. فأين الوفاء والحياء ؟ (فتعالى — الله — من قوي ما أكرمه) ١. نُقْصِر في طاعته عمداً ، وننتهك حرمانه قصداً ، ومع هذا يحلم ولا يعاجل .. سبحانه ربنا إنا كنا ظالمين (وتواضعت من ضعيف — إلى — يصرفها عنك) الخطاب للإنسان ، وتواضعت : من الضعة والحقارة ، والمعنى من أنت أيها الجاهل الوضيع حتى تجرأ على الله ، وتحالفه في أمره ونهيه ؟ فكَم من نعمة أسداها إليك ، وخزي ستره عليك ، ومكروه دفعه عنك ، كل هذا ، وأنت متماد في الغي والضلال (فما ظنك به لو أطعته) وطلبت منه الرضوان والأمان ، فإنه يعطيك ما أملت ، ويزيدك من فضله .. انه واسع رحيم .

(لو ان هذه الصفة) وهي الإساءة للمحسن (كانت في متفقين الخ .. قوة وقدرة ، لكنت أول حاكم على نفسك بلذيم الأخلاق ، ومساوئ الأعمال) لأنك أسأت لمن أحسن إليك ، فكيف والذي أحسن إليك خالفك وخالف الكائنات ؟. وقيل : ان القدرة أشد وأعظم من القوة ، ولذا جاء في القرآن الكريم : ان الله على كل شيء قدير . وليس فيه على كل شيء قوي. وفيه ان الله قوي عزيز.

أسلوب أهل البيت في التربية :

وبعد ، فهذا هو أسلوب أهل البيت (ع) في التربية والتعليم ، ومكافحة الضلال والفساد .. أنهم يخلقون الشعور بالمسؤولية في نفس الإنسان ليكون له رادع من الداخل لا من الخارج فقط ، وكلنا يعلم ان المسؤولية هي التي تدفعنا الى العلم والعمل ، وبناء الحضارة والمدنية ، والخضوع لصالح الجماعة ، والتعاون على الخير ودفع الشر ، وصيانة الحقوق واحترامها ، ومن أقوال الإمام : « من كان له من نفسه واعظ كان عليه من الله حافظ » أي من الفوضى ومجازة الحدود . وقد اختلف العلماء والفلاسفة في تعريف الانسان وتحديد هويته ، وفي رأينا انه الحيوان الوحيد الذي يشعر بالمسؤولية ، أو الذي ينبغي أن يشعر بها .

رب ناصح متهم .. لفقرة ٣ - ٤ :

وَحَقًّا أَقُولُ مَا الدُّنْيَا غَرَّتْكَ وَلَكِنْ بِهَا أَغْتَرَرْتَ . وَلَقَدْ كَاشَفَتْكَ
الْعِظَاتُ وَآذَنَتْكَ عَلَى سَوَاءٍ . وَلَهِيَ بِمَا تَعْدُكَ مِنْ نُزُولِ الْبَلَاءِ بِجِسْمِكَ
وَالنَّقْصِ فِي قُوَّتِكَ أَصْدَقُ وَأَوْفَى مِنْ أَنْ تَكْذِبَكَ أَوْ تَغُرَّكَ . وَلَرُبَّ
نَاصِحٍ لَهَا عِنْدَكَ مُتَّهَمٌ ، وَصَادِقٍ مِنْ خَبَرِهَا مُكَذَّبٌ . وَلَيْتَن تَعَرَّفْتَهَا
فِي الدِّيَارِ الْخَاوِيَةِ وَالرُّبُوعِ الْخَالِيَةِ لَتَجِدَنَّهَا مِنْ حُسْنِ تَذْكِيرِكَ وَبَلَاغِ
مَوْعِظَتِكَ بِمَحَلَّةِ الشَّفِيقِ عَلَيْكَ وَالشَّحِيحِ بِكَ . وَلَنِعْمَ دَارُ مَنْ لَمْ
يَرْضَ بِهَا دَارًا ، وَتَحَلَّ مَنْ لَمْ يُوطَّنْهَا تَحَلًّا . وَإِنَّ السُّعْدَاءَ بِالدُّنْيَا غَدَاً
هُمْ أَهَارِبُونَ مِنْهَا الْيَوْمَ^(٣) . إِذَا رَجَفَتِ الرَّاجِفَةُ . وَحَقَّتْ بِجَلَالِهَا
الْقِيَامَةُ . وَلَحِقَ بِكُلِّ مَنْسَكٍ أَهْلُهُ ، وَبِكُلِّ مَعْبُودٍ عَبْدُهُ ، وَبِكُلِّ
مُطَاعٍ أَهْلُ طَاعَتِهِ ، فَلَمْ يُجْزَ فِي عَذْلِهِ وَقِسْطِهِ يَوْمَئِذٍ خَرَقُ بَصَرٍ فِي

أَهْوَاهُ ، وَلَا هَمْسُ قَدَمٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا بِحَقِّهِ . فَكَمْ حُجَّةٍ يَوْمَ ذَلِكَ دَاحِضَةٍ ، وَعَلَائِقٍ عُذْرٍ مُنْقَطِعَةٍ . فَتَحَرَّ مِنْ أَمْرِكَ مَا يَقُومُ بِهِ عُذْرُكَ ، وَتَثَبَّتْ بِهِ حُجَّتُكَ . وَخُذْ مَا يَبْقَى لَكَ مِمَّا لَا تَبْقَى لَهُ . وَتَيَسَّرْ لِسَفَرِكَ . وَشِمِّ بَرَقَ النَّجَاةِ . وَأَرْحَلْ مَطَايَا التَّشْمِيرِ^(١) .

اللغة :

أَذْنَتَكَ عَلَى سِوَاءٍ : أَعْلَمْتُكَ عَلَى عَدَلٍ . وَتَعَرَّفْتُهَا : طَلَبْتُ مَعْرِفَتَهَا . وَيُوطِّنُهَا : يَتَّخِذُهَا وَطْناً . وَالرَّاجِفَةُ : النَّفْخَةُ الَّتِي تَمُوتُ مِنْهَا الْخَلَائِقُ . وَحَقَّتْ : وَقَعَتْ . وَجَلَّائِلُهَا : عِظَائِمُهَا . وَمَنْسَكٌ : مَوْضِعُ النِّسَكِ أَيْ الْعِبَادَةِ . وَالْعَلَائِقُ : جَمْعُ الْعَلَاقَةِ . وَتَحَرَّ : ابْحَثْ وَاطْلُبْ مَا هُوَ أُخْرَى بِكَ . وَشَمِّ : مَنْ شَامَ الْبَرْقَ إِذَا نَظَرَ إِلَيْهِ . وَأَرْحَلُ الْمَطَايَا : إِذَا شَدَّ عَلَى ظَهَرِهَا لِلرَّحِيلِ . وَالتَّشْمِيرُ : الْجَدُّ .

الإعراب :

حقاً صفة لمفعول مطلق محذوف أي أقول قولاً حقاً ، والعظاات بالرفع فاعل كاشفنتك ، وبالنصب على حذف الخافض أي بالعظاات ، والفاعل ضمير مستتر يعود الى الدنيا ، ولرب اللام للتوكيد، ومحللاً مفعول ثان ليوطئها ، لأن الفعل متضمن معنى يتخذها ، وقيل محلاً تمييز ومثلها دارا ، وكم خبرية ، ومحلها الرفع بالابتداء ، وداحضة خبر ، ويوم ذلك متعلق بداحضة .

المعنى :

(ما الدنيا غرتك الخ) .. لأن كل ما فيها عظاات وعبر ، ولا يعنى عنها إلا أعمى ، ولا يغير بها إلا ضال عن الهدى (وأذنتك على سواء) أي اعلمتك بحقيقتها صدقاً وعدلاً ، وهذا من الأساليب القرآنية ، قال تعالى : « فلن تولوا فقل أذنتكم على سواء — ١٠٩ الأنبياء » أي أدبتي ما عليّ بأمانة ، وما تركت

لكم من عذر (ولهي بما تعدك - الى - تغرك) . كل ما أصابك ويصيبك من مرض وفقر ونكبات فقد أنبأك الدنيا به سلفاً بما رأيت وسمعت مما حدث لغيرك من العبر ، ولكنك لم تعتبر ، وأخذت العزة بالإثم ، وظننت أنك قوي لا يُضام . (ولرب ناصح لها عندك متهم) . المراد بالناصح هنا ما يحدث في الحياة الدنيا من عبر وعظات ، وضمير لها يعود للدنيا ، واللام في « لها » للاختصاص مثل هذا الشعر لفلان ، والمراد بالتهمة الاعراض عن النصيحة ، والمعنى ان الدنيا تنصح وأنت لا تسمع . ومن أقوال الإمام : الاعتبار منذر ناصح ، أي ما يحدث لغيرك هو خير مرشد لك (وصادق من خبرها مكذب) عطف تفسير ، لأن المعنى لا تصدق من صدقك (ولئن تعرفتها - الى - الشحيح بك) . لو درست أحوال الماضين بلمعان ، واتعظت بما أصابهم - لوجدت الدنيا أشفق عليك من أمك وأبيك بما ألفت عليك من دروس نافعة لو كنت من الذين يعقلون . (ولنعم دار من لم يرض بها داراً) أي نعم الدار غيرها ، وهي الآخرة ، أما الدنيا فبئست الدار هي (ومحل من لم يوطنها محلاً) عطف تفسير (وان السعداء بالدنيا غداً هم الهاربون منها) أي العاملون للآخرة لا للدنيا فقط (اذا رجفت الراجفة - الى - بحقه) . قوله : « فلم يجز » جواب إذا رجفت ، والمراد بحرق البصر وهمس القدم أن ما من شيء له أثر في الحياة الدنيا إلا ويجري عليه الحساب والجزاء عند الله حتى ولو كان طرفه عين أو وطء قدم ، والمعنى إذا قامت القيامة بأهوالها ، ولحق كل عابد بمعبوده ، وكل تابع بمبتوعه - فلا يسوغ إلا الحق ، ولا يجري إلا العدل : « فن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ٨ - الزلزلة » .

(فكم حجة يومذاك داحضة) كما قال سبحانه : « فيومئذ لا ينفع الظالمين معذرتهم ولا هم يستعتبون - ٥٧ الروم » لأنهم ظلموا وأفسدوا بعد قيام الحجة عليهم بالبيان والنهي عن الفساد والإفساد (وعلائق عذر منقطعة) . العذر هنا بمعنى الحجة ، وانقطاع العلاقة بينه وبين أفعال الغاوين معناه إبطال عذرهم ودحضه ، وعليه يكون العطف للبيان والتفسير .

(فتحرق من أمرك الخ) .. عليك أن تنسجم في أقوالك وأفعالك مع الصدق والعدل ، لتكون الحجة لك لا عليك فيما تقول وتفعل (وخذ ما يبقى لك مما لا تبقى له) . الباقي الدار الآخرة ، والفاني الحياة الدنيا ، فخذ من هذه ما ينفعك

في تلك . ومثله في الخطبة ٢٠١ : خذوا من ممركم لمقركم (وقيسر لسفرك)
هيء له الأسباب بصالح الأعمال (وشيم برق النجاة) . استضيء بنور الهداية
لتبلغ دار السلام (وارحل مطايا التشمير) . تزود للرحيل بالإخلاص لله، والنصح
لعباده .

ومزة ثانية نقول : ان غرض الإمام من هذه الخطبة وأمثالها - أن يكون
للإنسان من نفسه على نفسه حسيب ورقيب فيما يفعل أو يدع ، لأن هذا الرقيب
أو هذا الشعور بالمسؤولية هو شعلة مباركة تهدي للتي هي أسلم وأقوم .

اقطبة

- ٢٢٢ -

الإمام وأخوه عقيل .. فقرة ١ - ٢ :

وَاللّٰهُ لَآنَ أَيِّتَ عَلَىٰ حَسَبِكِ السَّعْدَانِ مُسَهَّدًا ، وَأَجْرٌ فِي الْأَغْلَالِ
مُصَفَّدًا ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِمًا لِبَعْضِ
الْعِبَادِ ، وَغَاصِبًا لِّشَيْءٍ مِنَ الْخَطَامِ . وَكَيْفَ أَظْلِمُ أَحَدًا لِنَفْسِي يُسْرِعُ
إِلَى الْبَلَى قُفُوهُمَا ، وَيَطُولُ فِي الثَّرَى حُلُهُمَا . وَاللّٰهُ لَقَدْ رَأَيْتُ عَقِيلًا
وَقَدْ أَمْلَقَ حَتَّى اسْتَأْجَنِي مِنْ بُرْكَكُمْ صَاعًا ، وَرَأَيْتُ صَبِيَانَهُ شُعَثَ
الشُّعُورِ غُبَرَ الْأَلْوَانِ مِنْ فَقْرِهِمْ كَأَنَّمَا سُودَّتْ وُجُوهُهُمْ بِالْعِظْمِ ،
وَعَاوَدَنِي مُوَكَّدًا وَكَرَّرَ عَلَيَّ الْقَوْلَ مُرَدَّدًا فَأَضْغَيْتُ إِلَيْهِ سَمْعِي فَظَنَّ
أَنِّي أَبِيعُهُ دِينِي وَأَتَّبِعُ قِيَادَهُ مُفَارِقًا طَرِيقِي ، فَأَحْمَيْتُ لَهُ حَدِيدَةً ثُمَّ
أَذْنَيْتُهَا مِنْ جِسْمِهِ لِيَعْتَبَرَ بِهَا فَضَجَّ صَنِيجَ ذِي دَفٍ مِنْ أَلَمِهَا ، وَكَادَ

أَنْ يَحْتَرِقَ مِنْ مِيسَمِيَا . فَقُلْتُ لَهُ تُكَلِّتُكَ الشَّوَاكِلُ يَا عَقِيلُ ، أَتَيْتُ
 مِنْ حَدِيدَةٍ أَحْمَاهَا إِنْسَانُهَا لِلْعَبِيهِ ، وَتَجَرُّنِي إِلَى نَارٍ سَجَرَهَا جَبَّارُهَا لِغَضَبِهِ .
 أَتَيْتُ مِنْ الْأَذَى وَلَا أَيْتُ مِنْ لَظَى ^(١) . وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ طَارِقُ
 طَرَقَنَا بِمَلْفُوفَةٍ فِي وَعَائِيهَا ، وَمَعْجُونَةٍ شَنَنْتَهَا كَأَنَّمَا عُجِنَتْ بِرَيْقِ حَيَّةٍ
 أَوْ قَيْشِيهَا ، فَقُلْتُ أَصْلَةُ أَمْ زَكَاةُ أَمْ صَدَقَةٌ فَذَلِكَ مُحَرَّمٌ عَلَيْنَا أَهْلَ
 الْبَيْتِ . فَقَالَ لَا ذَا وَلَا ذَاكَ ، وَلَكِنَّهَا هَدِيَّةٌ . فَقُلْتُ هَبْلَتِكَ الْهَبُولُ
 أَعَنْ دِينَ اللَّهِ أَتَيْتَنِي لِتَخْدَعَنِي ، أُمْتَحِبْتُ أَنْتَ أَمْ ذُو جِهَةٍ أَمْ تَهْجُرُ .
 وَاللَّهِ لَوْ أُعْطِيتُ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلَاكِهَا عَلَى أَنْ أُعْصِيَ اللَّهَ
 فِي مَمْلَكَةٍ أَسْلُبَهَا جِلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُ وَإِنْ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي لِأَهْوَنِ مِنْ
 وَرَقَةٍ فِي فَمٍ جَرَادَةٍ تَقْضُمُهَا ، مَا لِعَلِّي وَلِنَعِيمٍ يَفْنَى وَلَذَّةٍ لَا تَبْقَى .
 نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ سُبَاتِ الْعَقْلِ وَقُبْحِ الزَّلَلِ وَيَهِّ نَسْتَعِينُ ^(٢) .

اللغة :

السعدان : نبت له شوك . ومسهداً : ساهراً أرقاً . ومصفداً : مقيداً .
 وقفوها : رجوعها أو فناؤها . وأملق : افتقر . واستماحي : طلب مني منحة . وشعث
 الشعور : شعورهم متلبدة بالأوساخ . والعظم : صبغة النيل . والقياد : حبل يقاد به .
 والدنف : المرض . والميسم - بكسر الميم وسكون الياء وفتح السين - المكواة .
 وتكلك : فقدتك . والثواكل والثاكلات : النساء . وشنتتها : كرهتها . والصلة
 العطية أو الرشوة . وهبلك : تكلك . والهبول : الثاكلة . ومحبط : تتصرف

بغير هدى . وتهجر : تهذو . وجلب الشعيرة : قشرتها . وتقصمها : تكسرها
بأسنانها .

الإعراب :

المصدر من أن أبيت مبتدأ ، وأحب خبر ، وظالمًا حال ، ومثله شعث
الشعور ، لأن رأيت هنا بصرية لا تتعدى الى مفعولين ، وكذا غبر الألوان
ومؤكدًا ومرددًا ومفارقًا ، وصلة خبر لمبتدأ محذوف أي أهذه صلة ، وما لعلني ؟
مبتدأ وخبر .

المعنى :

(والله لأن أبيت الخ) .. كل انسان اذا خيّر بين التقلب على الأشواك
والجر في الحبال والأغلال ، وبين عذاب الحريق — يختار الحال الأولى لأنها أهون
الشرين ، سواء أكان المخير علياً أم معاوية .. والفرق أن علياً لو خيّر بين
المبيت على الأشواك مع الجر بالأغلال والأصفاد ، وبين أن يملك الكون بأرضه
وسمائه ، ورجاله ونسائه على أن يظلم نملة في قشرة شعيرة — لفضّل عذاب الدنيا
ومرّها على ظلم النملة فما دونها ، وما ذاك إلا لعلمه بالله ، وإيمانه بالعدل ،
وزهده في الدنيا ، وخوفه من عاقبة الظلم .

أما معاوية فحب الدنيا والسيطرة جزء من طبيعته وكيانه ، والناس كلهم قطيع
لعظمته وسلطانه ، ولا شيء لمن يعترض ويقاوم إلا السيف أو السم في العسل ،
أما حديث الآجلة فخرافة ، أو لا يهم ما دامت العاجلة تاج وعرش .. وبكلمة
ان معاوية لا يرى في الوجود إلا معاوية وابنه يزيد ، ومن رأى غير هذين فله
الموت ، وحكاية « ان مات هذا فهذا ، ومن أبى فهذا » أشهر من تذكر ،
والإشارة الأولى الى معاوية ، والثانية الى يزيد ، والأخيرة الى السيف^١ .

١ في العقد المريد ج ٥ ص ١١٢ طبعة سنة ١٩٥٣ : خطب يزيد بن الملقع في حضور معاوية وقال : أمير
المؤمنين هذا ، وأشار الى معاوية ، فان هلك فهذا ، وأشار الى يزيد ، فمن أبى فهذا ، وأشار الى السيف .
فقال له معاوية : أنت سيد الخطباء .

وقد يكون معاوية مهذباً مع الآخرين ، بل وسخياً ، ولكن على شرطه ، وهو أن تتفق أعمالهم مع أهدافه ، أو لا تتصادم معها - على الأقل - قال العقاد في كتاب « معاوية » ص ٥٧ طبعة ١٩٦٦ : « كل دهاء يذكر للمعاوية فلإنما يذكر الى جانبه رفقاً أو عطاء وولاية يستفيد منها من ينصره ولا ينخدع عنها في مبادلة النفع بينه وبينه ، ولا جرم كان العطاء عماد هذا الدهاء ، وكان نقش الخاتم الذي تختم به بعدُ ولايته : « لكل عمل ثواب » . وتقدم الكلام عن سياسته في شرح الخطبة ١٢٠ فقرة : عشاق الكراسي .

(والله لقد رأيت عقيلاً - الى - لظى) . قصة الإمام مع أخيه عقيل يعرفها القاصي والداني ، وقد حكاه الإمام هنا بوضوح ، والمفردات التي تحتاج الى تفسير ذكرناها في فقرة : اللغة . واذن فلا داعي للتطويل بلا طائل ، وأكثر الذين كتبوا عن الإمام ، أو الكثير منهم استشهدوا على صلابته في الحق بموقفه مع عقيل ، وآخر من ذكر هذا الموقف وأشاد به من المؤلفين الكاتب المصري الأستاذ عبيد الكريم الخطيب - فيما نعلم - قال في كتاب « علي بن أبي طالب » ص ٤٣٩ وما بعدها ، الطبعة الأولى سنة ١٩٦٧ :

« في موقف علي من أخيه عقيل ما يغني عن كل مثل يُورد ، وعن كل قول يقال ، فعقيل هو شقيق علي الأكبر .. وبينهما أخوة صادقة خالصة ، لا تشوبها شائبة كدر أو جفوة ، وبذلك الاخوة وبحبها جاء عقيل الى أخيه يسأله بعض المال الذي اقتضته الحياة منه ، وقصرت يده عنه .. فقال له : مرحباً بك وأهلاً . ما أقدمك علينا ؟ قال : ركبنا دين عظيم ، فجئت لتصلي . فقال له علي : والله مالي مما ترى شيئاً إلا عطائي ، فإذا خرج فهو لك . فقال عقيل : أترى شخوصي اليك من أجل عطائك ؟ .

فقال الإمام : أترى أن يحرقني الله بنار جهنم في صلتك بأموال المسلمين ؟ .. ثم أشار الخطيب الى قصة الحديدة .. فقال عقيل : والله لأخرجن الى رجل هو أوصل لي منك .. يريد معاوية . فقال له الإمام : راشداً مهدياً . «
« ولما قدم عقيل على معاوية وصله بثلاثمائة ألف درهم .. وقال له : أنا أحسن

أم أخوك ؟ قال عقيل : أنت خير لي في دنياي ، وأخسى لي في ديني .. هذه بعض أمثلة لموقف علي من رجاله وأنصاره .. وقد تحول كثير منهم الى جبهة معاوية بفعل هذه السياسة .

الإمام والوافدون على معاوية :

كان الإمام (ع) يعلم ان أصحابه من أهل الدنيا لن يستطيعوا معه صبراً ، وأنهم تاركوه الى معاوية .. ولعل هذا من جملة الأسباب التي دعت الإمام أن يحقر الدنيا ويطلب في بيان مساوئها ، ويحذر الراغبين فيها من سوء المنقلب وكآبته .. ومهما كان فإن الإمام لم يستكره أحداً على البقاء معه ، أو يرضيه ويحاييه على حساب دينه وحساب المسلمين .. وكان يتوجه الى العقول والقلوب ، ويخاطبها بمنطق الدين والضمير ، ويبالغ في الوعظ والنصيحة ، وينذر ويحذر من عذاب الله وغضبه ، كما رأينا في خطبه ، ثم يدع الناس وما يختارونه لأنفسهم ، وهذه هي طريقة الرسول العظيم (ص) والقرآن الكريم : « قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ - ١٠٥ الأنعام » .

وعلى هذا الطريق سار الإمام مع أهله وجيشه وأنصاره ، لا يمارس ضغطاً ، ولا يرشي ضميراً ، ولا يتنازل عن حق أياً كانت الظروف والنتائج .. قيل له : إن جماعة من أصحابه أو رعيته لحقوا بمعاوية ، فما زاد على قوله : « والله لم ينفروا من جور ، ولم يلحقوا بعدل » . هذا هو الإمام لا يبتغي من دنياه شيئاً ، ولا يقيم علاقة مع قريب أو بعيد إلا على أساس العدل والحق .. ولو ان أهل الأرض كانوا في جانب ، والحق في جانب ، لكان وحده مع الحق غير خائف ولا مستوحش ، وبهذا سطر الإمام صفحات جليلة في تاريخ الاسلام والمسلمين ، وصدق من قال : « لو لم يسر علي سيرته المثالية أكانت تبقى تلك الجدوة مشتعلة وكامنة في النفوس ؟ إن علياً لعب دوره الجليل كأعظم ما يلعب الانسان الفائق دوره في التاريخ » .

(واعجب من ذلك طارق) وهو الأشعث بن قيس رأس المنافقين في أصحاب الإمام تماماً كعبدالله بن أبي بن سلول في أصحاب النبي (ص) . (طرقنا بملفوفة)

من الحلوى (في وعائها) وضعت في وعاء مغطى ، كما هو المعتاد (ومعجونة شنتتها) المعجونة هي الملفوفة ، وشنتتها كرهتها (كأنما عجنت برقيق حبة أو قيثها) . هذا بيان لشدة الكراهية والنفرة من حلوى الأشعث ، وإنها تماماً كالسم الناقع في جوف الأفعى .

(فقلت : أصلة) ورشوة تتوصل بها الى غاية دينية وخبيثة من غاياتك (أم زكاة) مفروضة عليك (أم صدقة فذلك محرم علينا أهل البيت) . الرشوة يحرم عطاؤها وأخذها إطلاقاً على أهل البيت وغيرهم ، والزكاة حرام على كل هاشمي إلا إذا كانت من هاشمي مثله ، والمراد بالصدقة هنا ما كان ندباً لا فرضاً بدليل مقارنتها مع الزكاة المفروضة . وللفقهاء في هذه الصدقة قولان : الأول : أنها تحل لكل هاشمي سواء أكان من أهل البيت ، أم من غيرهم . القول الثاني أنها تحرم على أهل البيت فقط ، وهم محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين (ع) أما غيرهم من الهاشميين فلا تحرم عليهم صدقة الندب . وظاهر قول الإمام هنا يعزز هذا الرأي ويؤيده . وعلى أية حال فلا جدوى من النقاش في هذا الموضوع ، لأن أهل البيت الآن عند الرفيق الأعلى .

(فقال : لا ذا ولا ذاك ، ولكنها هدية) وهي حلال لجميع الناس (فقلت : هبلك الهول) ثكلتك أمك (أعن دين الله أتيتني لتخدعني) فيه إيماء الى أن الأشعث كان قد طالب من الإمام أمراً لا يحل له ، وأنه حاول أن يستميله بحلواه ، فزجره الإمام ووبخه بقوله : (أختبط أنت) . تختبط خبط عشواء أي تتصرف على غير بصيرة (أم ذو جنة) بك مس من الجنون (أم تهجر) تقول بلا خبرة ، وتهرف بما لا تعرف .

(والله لو أعطيت الأقاليم السبعة الخ) .. يزهّد الإمام في الكون بجميع أقاليمه طلباً لما هو أكثر وأعظم ، ورغبة في ثواب الله ورضوانه ، ويدل على ذلك بوضوح قوله : (على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلت) لأن الكون بما فيه مع غضب الله ما هو بشيء ، والمبيت على حسك السعدان والجر بالأغلال مع مرضاته تعالى هو كل شيء .

أليس هذا عين الطموح والرغبة فيما هو أجلّ وأعظم من الأقاليم السبعة ؟ وهل تُقدر مرضاة الله بشيء ؟ .. أبداً لا وزن لشيء عند الإمام ، ولا يصدع رأسه

في التفكير بشيء إلا برضا الله ، فهو وحده المثل الأعلى ، والغرض الأسمى ،
وفيه وحده راحته وهناؤه وسعادته .. وما أبعد ما بين فلسفة الإمام هذه ، والفلسفة
البرجاءية الأمريكية التي تقول : لا حق ولا خير ولا جمال في الوجود ، ولا مجتمع
ومجتمعات ، وإنسان وإنسانيات .. أبداً لا شيء على الإطلاق إلا ما يحقق لك النفع
والنجاح بزيادة الدخل في هذه الحياة .

الخطبة

- ٢٢٣ -

أعوذ بالله من الفقر :

اللَّهُمَّ صُنْ وَجْهِي بِالْيَسَارِ ، وَلَا تَبْذُلْ جَاهِي بِالْإِقْتَارِ فَاسْتَزِقْ طَالِي
رِزْقَكَ ، وَأَسْتَغْطِفْ شَرَّارَ خَلْقِكَ ، وَأُبْتَلى بِحَمْدٍ مَن أَعْطَانِي ، وَأَفْتَنَ
بِذَمٍّ مَن مَنَعَنِي ، وَأَنْتَ مِن وَرَاءَ ذَلِكَ كُلِّهِ وَلِيُّ الْإِعْطَاءِ وَالْمَنْعِ
« إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

اللغة :

صُنْ : احفظ واسر . واليسار : الغنى . والإقتار : الفقر . واسترزق :
أطلب الرزق . وافتن : ابتلى .

الإعراب :

استرزق منصوب بأن مضمرة بعد الفاء ، ونُصب الفعل الذي بعده للعطف،
عليه ، وولي خبر أنت ، ومن وراء متعلق به .

المعى :

(اللهم صُنْ وجهي باليسار ، ولا تبذل جاهي بالإقتار) . صيانة الوجه حفظه من التعرض للسؤال ، وقديماً قيل : السؤال ذل ولو أين الطريق . وبذل الجاه السقوط عن درجة الاعتبار والاحترام . وليس من شك ان الفقر سبب للمزيد من هذا السقوط والانهيـار . وفي الحديث : الفقر الموت الأحمر . وقال الإمام : الفقر يخرس القَطِين عن حجته ، والمقلُّ غريب في بلده .. الفقر في الوطن غربة .. الفقر الموت الأكبر .. الفقر منقصة للدين ، مدهشة للعقل ، داعية للمقت .. وقال الإمام جعفر الصادق : ما افتقر أحد قط إلا أصابه ثلاث خصال : رقة في دينه ، وضعف في عقله ، وذهاب في مروءته .. ولذا كان النبي (ص) يكرر القول في دعائه : اللهم ارزق محمداً وآل محمد الكفاف والعفاف .

وإنما كان الفقر رقة ومنقصة في الدين لأن النفس اذا احتاجت تعرضت لما لا يجوز ، ودخلت مداخل الشر والسوء ، واذا أحرزت قوتها سكنت واطمأنت . ومن هنا كان السعي للرزق ديناً ، والتدبير عقلاً . وتقدم الكلام عن ادواء الفقر وأثره في المجتمع في شرح الخطبة ١٢٤ و ١٢٧ .

(فاسترزق طالبي الخ) .. الإمام لا يسترزق ولا يستعطف مخلوقاً على الاطلاق ، ومهما كانت الظروف وتكون ، ولا يمدح من لا يستحق المدح ، وان أعطاه الدنيا بكاملها ، ولا يذم من هو أهل للمدح ، وان أساء لشخصه .. ولكنه أراد التعريض بمن يمدح ويقدم على أساس المنفعة والمصلحة الخاصة .

والجدير بالإشارة ان هذا الدعاء ورد بالحرف الواحد في الصحيفة السجّادية للإمام زين العابدين حفيد الإمام أمير المؤمنين ، وهو قطعة من الدعاء المعروف بمكارم الأخلاق .

وبعد ، فإن الاسلام يرى الفقر موتاً وكفراً ، وبؤرة لكل رذيلة وجريمة ، ولذا أعلن الثورة عليه وعلى الاحتكار ، وعلى كل نظام أو عمل يؤدي الى الاستغلال والإفقار .

الخطبة

- ٢٢٤ -

الدنيا :

دَارُ الْبَلَاءِ مَخْفُوقَةٌ ، وَبِالْغَدْرِ مَعْرُوقَةٌ . لَا تَدُومُ أَحْوَالُهَا ، وَلَا تَسْلُمُ نَزَاهُهَا أَحْوَالُ مُخْتَلِفَةٍ ، وَتَارَاتُ مَتَصَرِّقَةٍ . الْعَيْشُ فِيهَا مَذْمُومٌ وَالْأَمَانُ فِيهَا مَعْدُومٌ . وَإِنَّمَا أَهْلُهَا فِيهَا أَغْرَاضُ مُسْتَهْدَفَةٍ تَرْمِيهِمْ بِسِهَامِهَا وَتُفْنِيهِمْ بِحِمَامِهَا . وَأَعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّكُمْ وَمَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا عَلَى سَبِيلِ مَنْ قَدْ مَضَى قَبْلَكُمْ يَمِّنْ كَانَ أَطْوَلَ مِنْكُمْ أَعْمَارًا ، وَأَعْمَرَ دِيَارًا ، وَأَبْعَدَ آثَارًا . أَصْبَحَتْ أَضْوَاتُهُمْ هَامِدَةً ، وَرِيَاحُهُمْ رَاكِدَةً ، وَأَجْسَادُهُمْ بَالِيَةً ، وَدِيَارُهُمْ خَالِيَةً ، وَآثَارُهُمْ عَافِيَةً . فَاسْتَبْدَلُوا بِالْقُصُورِ الْمَشِيدَةِ وَالنَّمَارِقِ الْمُمَهَّدَةِ الصُّخُورَ وَالْأَنْحَجَارَ الْمُسْنَدَةَ ، وَالْقُبُورَ اللَّاطِئَةَ الْمُلْحَدَةَ . أَلَّتِي قَدْ بُنِيَ بِالْخَرَابِ فِنَاوُهَا ، وَشِيدَ بِالْتَرَابِ بِنَاوُهَا . فَمَحَلُّهَا مُقْتَرِبٌ وَسَاكِنُهَا مُعْتَرِبٌ . بَيْنَ أَهْلِ مَحَلَّةٍ

مُوحِشِينَ وَأَهْلٍ فَرَاغٍ مُتَشَاغِلِينَ لَا يَسْتَأْنِسُونَ بِالْأَوْطَانِ ، وَلَا
يَتَوَاصِلُونَ تَوَاصِلَ الْجِيرَانِ عَلَى مَا بَيْنَهُمْ مِنْ قُرْبِ الْجَوَارِ وَدُنُو الدَّارِ .
وَكَيفَ يَكُونُ بَيْنَهُمْ تَزَاوُرٌ وَقَدْ طَحَنَهُمْ بِكَلْكَلِهِ الْبِلَى ، وَأَكَلَتْهُمْ
الْجَنَادِلُ وَالزَّرَى . وَكَأَن قَدْ صِرْتُمْ إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ ، وَأَرْتَهُنَكُمْ
ذَلِكَ الْمَضْجَعُ ، وَضَمُّكُمْ ذَلِكَ الْمُسْتَوْدَعُ . فَكَيفَ بِكُمْ لَوْ تَنَاهَتْ
بِكُمْ الْأُمُورُ ، وَبُعِثَتْ الْقُبُورُ « هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ ،
وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » .

اللغة :

تارات : جمع تارة ، وهي الحين والمرة . والمارق : الوسائل يستند إليها ،
وتُعلق النمرقة على البساط . واللاطئة : اللاصقة ، والملحدة : جُعِلوا في القبور
لحدوداً . وفناؤها — بكسر الفاء — ساحتها . والكلكل : صدر البعير . والجنادل :
الصخور .

الإعراب :

دار خبر مبتدأ محذوف أي هي دار ، وأحوال أي هي أحوال ، وعلى سبيل
خبر انكم ، وأعماراً تمييز ، ومثله دياراً وآثاراً ، وموحشين صفة لأهل محلة ،
وكان مخففة ، واسمها محذوف أي كأنكم ، وكيف بكم « كيف » خبر مقدم ،
والباء زائدة و « كم » مبتدأ لأنها قائمة مقام أنتم ، واشتبه بعض الشارحين في قوله :
إن المبتدأ محذوف .

المعنى :

(دار بالبلاء مخوفة الخ) .. كل ما في هذه الخطبة هو تكرار وإعادة لما

جاء في الخطب السابقة من ذم الدنيا وبيان كوارثها ومآسيها .. ولا نهاية لكلام الإمام عن الدنيا ما دام حبها والتعلق بها علة العلل للويلات والمشكلات .. وأيضاً لا ينتهي حب الناس للدنيا وتمسكهم بعروتها إلا من شدة أياً كان الناهي والزاجر. فقد نهى القرآن الكريم عن الغش والتفاق والفتنة والبغي ، وأمر المؤمنين بالانحداد والاعتصام بالله جميعاً ، وقال الرسول (ص) : لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ، ومع هذا يغش المسلمون بعضهم بعضاً ، وقد ضرب بعضهم رقاب بعض بالأمس البعيد والقريب ، والآن تقوم الحرب والمذابح بينهم في باكستان والأردن واليمن .. ولكن هذا لا يمنع من النهي عن الفساد في الأرض ، لقيام الحجة من جهة ، وعسى أن يفيء الباغي الى رشده من جهة ، وإن ضعف الأمل .

هذا فيما يعود الى تكرار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أما فيما يعود إليّ شخصياً كشارح ومفسر فلا جديد لدي أشرح به هذه الخطبة بعد الذي قلته فيما سبق اللهم إلا أن أخلص ما جاء في بعض الشروح بما يلي :

ذكر الإمام في هذه الخطبة العديد من مساوئ الدنيا : أولها ان البلاء يحف بها من كل جانب . وثانيها : انها معروفة بالغدر . وثالثها : إن أحوالها متقلبة . ورابعها : إن أهلها يموتون . وخامسها : انها تتغير من حال لآخر . وسادسها : ان عيشها مدموم . وسابعها : انه لا أمان فيها . وثامنها : إن أهلها هدف للبلايا والرزايا .. الى غير ذلك . ويمكن تلخيص هذا التلخيص بكلمة واحدة : « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » .

(وكيف بكم لو تناهت الخ) .. قال أهل العلم بالله وعدالته : إن للانسان قيامتين : صغرى وكبرى ، والأولى عالم البرزخ ، وبينديء بالموت ، وينتهي بالبعث ، وفي هذا العالم نوع من الثواب والعقاب ، ولكن لا على سبيل التوفية الكاملة والحكم النهائي المبرم، أما القيامة الكبرى فتبتديء حيث تنتهي القيامة الصغرى أي من البعث الذي يرد الله فيه الأرواح الى الأجساد ، ويعيها الى جنة أو الى نار ، وهذا البعث أو المعاد هو دار القرار ، وفيها يتم الحساب وتوفية الثواب أو العقاب ، وينتهي كل شيء .. قال سبحانه : « وانما توفون أجوركم يوم القيامة — ١٨٥ آل عمران » أي انكم في البرزخ وغرفة الانتظار تعاملون بما كنتم تعملون في الدنيا، ولكن كمربون أو بشاره .. أما التوفية الكاملة، والجزاء التام فيوم القيامة .

وقد حث الإمام في هذه الخطبة على العمل والاستعداد للقيامة الكبرى التي توفي فيها كل نفس ما كسبت وهم لا يُظلمون .. وتساءل الإمام : ماذا تصنعون آنذاك إذا كنتم عزلاً من كل سلاح .. أنتم الآن على مفترق الطرق ، وعليكم أن تختاروا لأنفسكم السلامة والنجاة . وتقدم قوله في الخطبة ١١٨ : اعملوا ليوم تذخر فيه الدخائر ، وتبلى فيسه السرائر ، واتقوا ناراً حرها شديد ، وقعرها بعيد ، وحليتها حديد ، وشرابها صديد .. ونختم هذه الكلمة بقول الرسول الأعظم (ص) : « ان الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس ، وهو من أهل النار، وان الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس، وهو من أهل الجنة » .

الخطبة

- ٢٢٥ -

الأنس بالحبيب :

اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَنْسُ الْآنِسِينَ لِأَوْلِيَانِكَ . وَأَحْضَرُهُمْ بِالْكَفَايَةِ لِلْمُتَوَكِّلِينَ
عَلَيْكَ . تُشَاهِدُهُمْ فِي سَرَائِرِهِمْ ، وَتَطْلُعُ عَلَيْهِمْ فِي ضَمَائِرِهِمْ وَتَعْلَمُ
مَبْلَغَ بَصَائِرِهِمْ . فَاسْرَارُهُمْ لَكَ مَكْشُوفَةٌ ، وَقُلُوبُهُمْ إِلَيْكَ مَلْهُوفَةٌ .
إِنْ أَوْحَشَتْهُمْ الْغُرْبَةُ أَنْسَهُمْ ذِكْرُكَ ، وَإِنْ صَبَّتْ عَلَيْهِمُ الْمَصَائِبُ
لَجَأُوا إِلَى الْأَسْتِجَارَةِ بِكَ ، عِلْمًا بِأَنَّ أَرْزِمَةَ الْأُمُورِ بِيَدِكَ ، وَمَصَادِرَهَا
عَنْ قَضَائِكَ . اللَّهُمَّ إِنْ فَهَيْتُ عَنْ مَسْأَلَتِي ، أَوْ عَمِيتُ عَنْ طَلْبَتِي
فَدُلِّنِي عَلَى مَصَالِحِي ، وَخُذْ بِقَلْبِي إِلَى مَرَاشِدِي ، فَلَيْسَ ذَلِكَ بِنُكْرٍ
مِنْ هِدَايَاتِكَ وَلَا يَبْدَعُ مِنْ كِفَايَاتِكَ . اللَّهُمَّ أَتَحْمِلْنِي عَلَى عَفْوِكَ وَلَا
تَحْمِلْنِي عَلَى عَذَابِكَ .

اللغة :

آنس : أشد أنساً . وتلهف عليه : حزن وتحسر ، وبه استغاث ، واليه اشتاق .
وفهت : عييت وعجزت عن البيان .

الإعراب :

علماً مفعول من أجله للجأوا ، والمصدر المنسبك من ان أزمة الخ .. مجرور
بالباء ، ومتعلق بـ « علماً » ونكر خبر ليس ، والباء زائدة .

المعنى :

(اللهم انك آنس الآتسين لأولائك) . ان أولياء الله سبحانه يرتاحون ويأنسون
بطاعته تعالى ومناجاته ، وهو أيضاً يزيدهم أنساً بذلك : « والذين اهدوا زادهم
هدى - ١٧ محمد » . (وأحضرهم بالكفاية للمتوكلين عليك) . وأيضاً يُغني
ويكفي من توكل عليه ، لأنه خير من كفى وأغنى . (تشاهدكم - الى - مكشوفة) .
هو سبحانه أعلم بهم من أنفسهم ، ولما رآهم أصفياء أتقياء شملهم ببره وإحسانه
(وقلوبهم اليك ملهوفة) . وإذا التهفت القلوب وأخلصت أذعت الجوارح ،
وخلصت الأعمال من الشوائب ، لأن القلوب هي المصدر والمنبع ، ومن هنا أسند
سبحانه طاعته وتعظيم شعائره الى تقوى القلوب حيث قال : عز من قائل ، في
الآية ٣٢ من سورة الحج : « ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب » .
(ان أوحشتهم الغربة - الى - قضائك) . انهم يعلمون ويؤمنون بأن كل
شيء في الكون من الذرة الصغيرة الى المجرات الكبيرة - تسير على أساس وقانون ،
وان المسببات تُنشط بأسبابها ، والنتائج بمقدماتها ، ولكنهم الى جانب هذا العلم
والإيمان المادي يؤمنون بأن الله هو المبدأ لكل شيء ، واليه ينتهي كل شيء ،
وانه خلق الكون وأودع فيه الطاقات والأسباب .. ولذا يلتجئون اليه ، وبه يتوسلون
في المهمات وعند الملمات (اللهم ان فهت الخ) .. أنت أعلم مني بحالي ، وقد
عجزت عن بيان حاجتي اليك ، فاختر لي ما فيه خير وصلاح لديناي وآخرتي
(فليس ذلك بنكر من هدايتك) كيف وأنت خير مرجو ، وأكرم مدعو ؟

(ولا يبدع من كفايتك) بعد أن تتابع برك ، واتصل بخيرك ، وعظم فضلك .
 (اللهم احملني على عفوك ، ولا تحملني على عدلك) . اذا كان الإمام يسأل
 الله العفو ، ولا يطبق العدل فكيف بغيره ؟ وما من شك ان الله غني عن العالمين
 يعفو ويرحم إلا الوحش الكاسر الذي يظلم عباد الله ، ويقسو عليهم بلا رحمة ،
 وفي الحديث : من لا يَرْحَم لا يُرْحَم . وقيل للإمام زين العابدين (ع) : ان
 الحسن البصري يقول : ليس العجب ممن هلك كيف هلك ، وإنما العجب ممن
 نجا كيف نجا . فقال الإمام : أما أنا فأقول : ليس العجب ممن نجا كيف نجا ،
 وإنما العجب ممن هلك كيف هلك مع رحمة الله التي وسعت كل شيء .

الخطبة

- ٢٢٦ -

لله فلان :

لله بلاء فلان فقد قَوْمَ الأَوْدَ ودَاوَى العَمَدَ . خَلَفَ الفِتْنَةَ وَأَقَامَ
السُّنَّةَ . ذَهَبَ نَقِيَّ الثَّوْبِ ، قَلِيلَ الْعَيْبِ . أَصَابَ خَيْرَهَا وَسَبَقَ شَرَّهَا .
أَدَّى إِلَى اللَّهِ طَاعَتَهُ وَاتَّقَاهُ بِحَقِّهِ . رَحَلَ وَتَرَكَهُمْ فِي طُرُقٍ مُتَشَعِّبَةٍ لَا
يَهْتَدِي فِيهَا الضَّالُّ وَلَا يَسْتَيْقِنُ الْمُهْتَدِي .

اللغة :

الأود : الاعوجاج : والعمد - بفتح العين والميم - المرض . وخلف الفتنة :
مات قبل حدوثها . واتقاه بحقه : أدى الحق لصاحبه وقاية لمطالبته . وتركهم في
طرق متشعبة : مختلفين . ولا يستيقن المهتدي : يجهل مصيره لكثرة الاختلاف .

الإعراب :

لله خبر مقدم ، وبلاء أو بلاد مبتدأ مؤخر ، والقصد المدح .

المعنى :

(لله بلاء - أو بلاد - فلان السخ) .. قيل : المراد بفلان أبي بكر . وقيل : عمر ، وهو الأشهر ، وأياً كان فإن الناس كانوا سعداء مع رسول الله (ص) وما سد فراغه أبو بكر ولا عمر ، ولكن عهدهما كان أفضل من عهد عثمان الذي فتح على أمة محمد (ص) باب « القتل والقتال الى يوم القيامة » . فلا فتنة في عهد الشيخين ، ولا خلافة موروثه ، ولا كسروية وقيصريّة ، ولا طاغية يتخذ مال الله دولاً ، وعباده خولاً .

وأي مسلم يُفضل عهد الأمويين والعباسيين وأمثالهم على عهد الشيخين ؟ فلقد استطاعا سيرتهما في الخلافة أن يحظيا عبر التاريخ بالرضا من أكثر المسلمين ، ولا يختلف اثنان في ان الإمام كان يرى انه الأول والأحق منهما بالخلافة ، وأيضاً لا اختلاف في أنه كان يراها أفضل من عثمان ، وقد صارحه بذلك حين قال له - كما في الخطبة ١٦٢ - : « وما ابن أبي قحافة وابن الخطاب بأولى بعمل الحق منك » . وإذن فأية غرابة في قول الإمام : « لله فلان » : وكتب ابن أبي الحديد حول هذه الخطبة ٨٧ صفحة بالقياس الكبير .. واختصر شارح آخر مكتفياً بأربعين صفحة .

وبعد ، فإن المهم في منطقي ومنطق أمثالي ، ليس لأحد أن يحكم مع وجود الإمام .. والأهم في منطق علي (ع) أن يرضى الناس عن الحاكم ، ولا يشكو منه فقير أو ضعيف ، وقد أعلن ذلك بقوله : والله لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين ، ولم يك فيها جور إلا علي خاصة .

الخطبة

- ٢٢٧ -

حول بيعة الإمام :

وَبَسَطْتُمْ يَدَيَّ فَكَفَفْتُهَا ، وَمَدَدْتُمُوهَا فَقَبَضْتُهَا ، ثُمَّ تَدَاكَكْتُمْ عَلَيَّ
تَدَاكَ الْإِبِلِ الْهِيمِ عَلَى حَيَاضِهَا يَوْمَ وَرُودِهَا حَتَّى انْقَطَعَتِ النَّعْلُ
وَسَقَطَتِ الرِّدَاءُ وَوُطِئَ الضَّعِيفُ وَبَلَغَ مِنْ سُرُورِ النَّاسِ بِبَيْعَتِهِمْ إِيَّايَ
أَنْ أُتْبِهَجَ بِهَا الصَّغِيرُ وَهَدَجَ إِلَيْهَا الْكَبِيرُ وَتَحَامَلَ نَحْوَهَا الْعَلِيلُ ،
وَحَسَرَتْ إِلَيْهَا الْكَعَابُ .

اللغة :

تدَاكَكْتُمْ : تراحمتم . والهيم : العطاش . وهَدَجَ : مشى مشياً ضعيفاً لكبر سنه .
وتَحَامَلَ : تكلف على مشقة وإعياء . والعليل : المريض . وحسرت : كشفت عن
وجهها . والكعاب والكاعب : الجارية الناهد ، قال سبحانه : « وكواعب أثرباً
- ٧٣ النبأ » .

الإعراب :

فاعل بلغ محذوف ، ومن سرور بيان له أي بلغ الحال من سرور الخ ، والمصدر من ان ابتهج مجرور بمحذوف أي الى ابتهاج الصغير .

المعنى :

(وبسطم يدي فكففتها الخ) .. قال الشريف الرضي : تقدم مثله بألفاظ مختلفة .. يشير الى ما جاء في خطبة الشقشقية والخطبة ٩٠ وغيرهما . وفي شرح هاتين الخطبتين عرضت بالتفصيل ما أشار اليه الإمام هنا ، ولا جديد لدي أعطفه على ما سبق سوى اني قرأت اليوم كلمة مطولة بعنوان « شرح في خلافة المسلمين » بقلم الأستاذ سامي محمود نشرها في جريدة « أخبار اليوم » المصرية تاريخ ٢١ - ١٠ - ١٩٧٢ ، وفيها ما يناسب المقام ، وهو قوله :

« عندما تولى عثمان أسرف على الناس وعلى أهله من بني أمية الذين طغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد ، فانتشر التدمير ، وشاعت الفتنة ، وقتل عثمان ، أما علي هو وأبناؤه أحفاد رسول الله ، فكان طريقهم معروفاً واضحاً مستقيماً لم يترددوا فيه ، ولم يفكروا لحظة واحدة في دنيا يصيبونها ، أو امرأة يتزوجونها ، وإنما كانت هجرتهم الى الله ورسوله .. أما معاوية فقد تكالب على الملك ، وجعله في ذريته من بعده ، وخالف أحكاماً كثيرة من تعاليم الاسلام ، ولم يبال معاوية وبنوه من بعده بقتل حفيد رسول الله (ص) واستباحة مكة والكعبة ، وإحلال المدينة المنورة لجنودهم ثلاثة أيام » .

الخطبة

- ٢٢٨ -

العمل يُرفع .. فقرة ١ :

فَإِنَّ تَقْوَى اللَّهِ مِفْتَاحُ سَدَادٍ ، وَذَخِيرَةُ مَعَادٍ . وَحِثُّكَ مِنْ كُلِّ مَلَكَ ،
وَنَجَاةٌ مِنْ كُلِّ هَلَكَةٍ . بِهَا يَنْجَحُ الطَّالِبُ ، وَيَنْجُو الْهَارِبُ ، وَتُنَالُ
الرَّغَائِبُ . فَاعْمَلُوا وَالْعَمَلُ يُرْفَعُ ، وَالتَّوْبَةُ تَنْفَعُ ، وَالِدُّعَاءُ يُسْمَعُ .
وَالْحَالُ هَادِتُهُ ، وَالْأَقْلَامُ جَارِيَةٌ . وَبَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ عُمَرَا نَاكِسًا ،
وَمَرْضَا حَابِسًا أَوْ مَوْتًا خَالِسًا . فَإِنَّ الْمَوْتَ هَادِمٌ لَذَاتِكُمْ ، وَمُكَدِّرُ
شَهَوَاتِكُمْ ، وَمُبَاعِدُ طَيِّبَاتِكُمْ . زَايِرٌ غَيْرُ مَحْبُوبٍ ، وَقِرْنٌ غَيْرُ
مَغْلُوبٍ ، وَوَارِثٌ غَيْرُ مَطْلُوبٍ . قَدْ أَعْلَقْتُكُمْ حَبَائِلُهُ وَتَكَنَّفَتْكُمْ
غَوَائِلُهُ ، وَأَقْصَدَتْكُمْ مَعَابِلُهُ . وَعَظُمَتْ فِيكُمْ سَطَوَتُهُ وَتَتَابَعَتْ
عَلَيْكُمْ عَدَوَتُهُ ، وَقَلَّتْ عَنْكُمْ نُبُوَّتُهُ . فَيُوشِكُ أَنْ تَغْشَاكُمْ دَوَاجِي
ظُلُمِهِ ، وَآخِذَامُ عَلَيْهِ . وَحَنَادِسُ غَمَرَاتِهِ ؛ وَغَوَاشِي سَكْرَاتِهِ ،

وَأَلِيمُ إِزْهَاقِهِ ، وَدُجُوْهُ إِطْبَاقِهِ ، وَجُشُوْبَةُ مَذَاقِهِ . فَكَأَن قَدْ أَتَاكُمْ
بَغْتَةً فَأَسْكَتَ نَجِيَّتَكُمْ ، وَفَرَّقَ تَدْيِيَّتَكُمْ ، وَعَفَى آثَارَكُمْ ، وَعَطَّطَ
دِيَارَكُمْ ، وَبَعَثَ وَرَائَكُمْ يَفْتَسِمُونَ تُرَائِكُمْ بَيْنَ حَمِيمٍ خَاصٍّ لَمْ يَنْفَعِ ،
وَقَرِيبٍ مَحْزُونٍ لَمْ يَمْنَعِ ، وَآخِرَ شَأْمٍ لَمْ يَجْزَعْ^(١) .

اللغة :

المراد بالملكة هنا الرق بقرينة قوله : « عتق » . وناكساً : راجعاً الى أرذل
العمر لا إدراك ولا حراك تماماً كالطفل في المهد . وحابساً : مانعاً عن العمل .
وخالساً : خاطفاً . وطياتكم : منازل سفركم ، وقيل : نياتكم ومقاصدكم .
والقرن - بكسر القاف - الكفؤ . والواتر : الجاني ، والموتور من وقعت عليه
الجنابة . وتكنفتكم : أحاطتكم . وغوائله : مصائبه . ومعابله : جمع معبلة أي
حديدة السهم والرمح . وعدوته : عدوانه . وظُّلُّه : سحابه وغيومه . والاحتدام :
الاشتداد . والحنادس : الظلمات . وغمراته : شدائده . والغواشي : الطامات
الغامرات . والإزهاق : الهلاك . والإرهاق : حمل ما لا يطاق . والدجو : الظلام .
والجشوبة : الغلظة . والنجي : من تناجيه . والندي : المكان يجتمع فيه القوم .

الإعراب :

فكأن مخففة ، وأصلها فكأنه ، وبغته مصدر في موضع الحال أي مباغتاً .
وآخر لا ينصرف ، ولذا جرُّ بالفتحة .

المعنى :

(فإن تقوى الله مفتاح سداد) وهو الصواب في القول والعمل (وذخيرة
معاد) حيث الحساب والجزاء (وعتق من كل ملكة) . تحرير من رق الشهوات

(وبها ينجح الطالب) ويفوز بثواب الله ومرضاته (وينجو الهارب) من العذاب والعقاب (وتُنال الرغائب) عطف تفسير على ينجح الطالب . وتقدم الكلام عن التقوى مرات، وتحدثنا عنها بشيء من التفصيل في شرح الخطبة ١٨٩ فقرة «التقوى» . (والعمل يُرفع) الى الله سبحانه ، فيقبله ويُثيب عليه : « اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه - ١٠ فاطر » . (والتوبة تنفع) لأن الثائب من الذنب كمن لا ذنب له . وتقدم الكلام عن التوبة في الخطبة ٩٢ و ١٨١ وغيرهما . (والدعاء يسمع) ما دتم أحياء فتستطيعون أن تتضرعوا لله وتسألوه الرحمة (والحال هادئة) أي أنتم في حال تمكنتكم من العمل لآخرتكم (والأفلام جارية) تكتب لكم ثواب ما تعملون من الصالحات .

(وبادروا بالأعمال الخ) .. استبقوا الخيرات قبل أن تهرموا وتُردوا الى أرذل العمر ، أو يمنعه المرض من الحركة أو يخطفكم الموت بغتة ، ويحول بينكم وبين ما تقصدون . وقال فيلسوف : ان الانسان يدفن أجزاء نفسه باستمرار منذ ولادته الى يومه الأخير ، لأن كل يوم يمر فهو في عالم الأموات ، ومعنى هذا ان الانسان يشرع بالموت بمجرد ما يولد ، وان الفترة التي يحياها إنما هي المدة التي تستغرق عملية الوفاة . وقال آخر : ان وجود الإنسان كآثار أقدام فوق الرمال . وسئل حكيم عن أخيه ؟ فقال : مات . قيل له : وما سبب موته ؟ فقال حياته . أي ان الانسان لا يموت لأنه يمرض أو يهرم ، بل لأنه حي . فسبحان الحي الذي لا يموت .

(وقلتُ عنكم نبوته) . الهاء في نبوته تعود الى الموت . ونبا السيف : لم يقطع ، والمعنى ان دلائل الموت إذا ظهرت على الإنسان فإنها لا تخطيء إلا قليلاً ولكن سرعان ما يصحح الموت خطأه ، وبكلمة الإمام ان الموت غالب غير مغلوب ، وواتر غير مطلوب أي ان الموت يقتل دون أن يطالب بدية أو قصاص . (فيوشك أن تغشاكم الخ) .. إن سيف الموت مصلت فوق رقابكم يهددكم به في كل لحظة (فكأن قد أتاكم بغتة الخ) .. وجعلكم جنثاً هامة باردة لا تصلح إلا للدفن والطمير ، وبعده تخلو الديار ، وتقسم الأموال .. وقائل يقول : رحمه الله ، وآخر يقول : أبعد الله . هذه هي لعبة الموت مع الانسان. وطوبى لمن أعد له عدته .

وبعد ، فإن كل واحد منا يتنازعه أمران : لذة الحياة الدنيا وروعتها، وهول

الموت وما بعده من ظلمات وآفات . ومن يحرص على سعادته في الحال والاستقبال فعليه أن يُدخل فكرة الموت في حياته كيلا يطنى ويتجاوز الحدود، وأيضاً يُدخل فكرة الحياة بعد موته كي يستعد لها ويقبل عليها آمناً مطمئناً . ولذا قال الإمام: « فعليكم بالجد والاجتهاد والتأهب والاستعداد » .. الى آخر المقطع الآتي :

ما تدري نفس متى وأين تموت ؟

ولمناسبة الحديث عن الموت أشير الى أمر لا يحسن السكوت عليه بحال ، وهو أن الصهيونية تعمل جاهدة على التشكيك بالقيم الانسانية ، وبكل دعوة تقوم على الصدق والعدل ، وتنكر الزور والبغي، وتسأوي بين الناس في الحقوق والواجبات . ذلك بأن لليهود - بوجه العموم - عقيدة عنصرية تعتبر انهم شعب الله المختار ، وان غيرهم من الناس مسخر لخدمتهم ومصالحهم ، وان لليهودي كل الحق أن يمتلك أي انسان في الشرق والغرب ، ويفعل به ما يشاء تماماً كما يمتلك الحيوان.. وعلى هذا نصت التوراة بوضوح وصراحة في سفر التثنية الإصحاح السابع ، وسفر العدد الإصحاح ٣١ .

أما كتاب التلمود فيقول : « نحن شعب الله المختار نحتاج الى نوعين من الحيوان : نوع أعجم كاللدواب والأنعام والطير ، ونوع الحيوان الانساني ، وهم سائر الأمم من أهل الشرق والغرب » .

ولما كان القرآن والانجيل حرباً على هذه الوحشية الكاسرة ، وعلى كل عنصرية قرر اليهود قتل عيسى ومحمد .. ولما عجزوا عن اغتيال رسول الله بالسّم والقضاء على رسالته دسوا الأحاديث المكذوبة على لسانه ، ثم طبعوا ألوف النسخ من القرآن بعد أن حرقوا الكثير من آياته ، واشتروا بعض المزييفين من أرباب العمام للتشويه والتضليل باسم الدين .

وحين ظهر أمرهم وافتضح مكرهم سلكوا سبيلاً آخر أدهى وأحكم، اكتشفته، وأنا أقرأ جريدة « أخبار اليوم » المصرية تاريخ ٢١ - ١٠ - ١٩٧٢ ، وأحسب ان أحداً من القراء لم ينتبه اليه .. وهو أن اليهود - بحكم ما لهم من سيطرة ونفوذ على أجهزة الاعلام - نشروا في الصحف الغربية أن الكلاب في جزيرة « باربادوس » اذا قاربت الوفاة تذهب الى مقبرة خاصة لتموت فيها .. حتى كلاب الجزر الأخرى المجاورة تسبح المحيط وتتجه الى هذه المقبرة دون معرفة

سابقة بها ، وتموت هناك كما أحببت وأرادت .

وأيضاً ان القوط في جزيرة « أوزيل » حين تشعر بدنو الأجل تسرع الى مقبرة معينة لتموت فيها بهدوء ، وان القوط في هذه المقبرة تتعاش مع فيرانها بأمن وسلام ، لأن القوط في شغل بالتفكير في الموت وأهواله عن الفئران ! .

تنشر الصهيونية هذه الأباطيل والأضاليل في صحف غربية ، وبلغة أجنبية ابعاداً للشبهة ، وإحكاماً للخطوة ، ثم تصل هذه الصحف بطريق أو بآخر الى الكاتبين ومحرري الصحف في مصر وغير مصر، ويتلقفها بعضهم ويترجمها وينشرها عن قصد أو غير قصد ، وهذا ما تريده الصهيونية وتهدف اليه عسى أن يصدق جاهل أو ذاهل فيشكك فيما نطق به القرآن وأكده بقوله: « وما تدري نفس ... بأي أرض تموت - ٢٤ لقمان » .

ونسأل : لماذا اختصت بهذه المنقبة والفضيلة كلاب باربادوس وقوط اوزيل دون غيرها من القوط والكلاب ، ودون العالم كله منذُ وجد الى اليوم ؟. وقال أهل الاختصاص والعارفون بطبائع الحيوانات : انها لا تخاف الموت إطلاقاً لأنها لا تشعر به ، وان الانسان هو الحيوان الوحيد الذي يعرف انه سيموت ، أما غيره من الحيوانات فإنه يشعر بلداته كموجود وكفى .

وبعد ، فهل نحن في حاجة الى الحديث عن قوط اوزيل وكلاب باربادوس ، أو الحديث عن توحيد الكلمة وإعداد العدة لتحرير أرضنا المحتلة .

· الجدل والاجتهاد .. فقرة ٢ :

فَعَلَيْكُمْ بِالْجِدِّ وَالْإِجْتِهَادِ ، وَالتَّاهِبِ وَالْإِسْتِعْدَادِ ، وَالتَّزَوُّدِ فِي مَنْزِلِ الزَّادِ . وَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الدُّنْيَا كَمَا غُرَّتْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ وَالْقُرُونِ الْخَالِيَةِ الَّذِينَ أَحْتَلَبُوا دِرَّتَهَا ، وَأَصَابُوا غِرَّتَهَا ، وَأَفْنَوْا عِدَّتَهَا ، وَأَخْلَقُوا جِدَّتَهَا . أَصْبَحَتْ مَسَاكِينُهُمْ أَجْدَاثًا ، وَأَمْوَالُهُمْ مِيرَاثًا . لَا يَعْرِفُونَ مَنْ أَتَاهُمْ ، وَلَا يَخْفُلُونَ مَنْ بَكَاهُمْ ، وَلَا يُجِيبُونَ

مَنْ دَعَاهُمْ . فَاحْذَرُوا الدُّنْيَا فَإِنَّهَا غَدَارَةٌ ، غَرَارَةٌ خَدُوعٌ ، مُعْطِيَةٌ
مَنْوَعٌ ، مُلْبِسَةٌ نَزُوعٌ . لَا يَدُومُ رَخَاوُهَا ، وَلَا يَنْقُضِي عَنَاوُهَا ، وَلَا
يَرْكُدُ بَلَاوُهَا . كَانُوا قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَلَيْسُوا مِنْ أَهْلِهَا فَكَانُوا
فِيهَا كَمَنْ لَيْسَ مِنْهَا . عَمِلُوا فِيهَا بِمَا يُبْصِرُونَ ، وَبَادَرُوا فِيهَا مَا
يُحْذَرُونَ . تَقَلَّبُ أَبْدَانُهُمْ بَيْنَ ظَهْرَانِي أَهْلِ الْآخِرَةِ ، يَرَوْنَ أَهْلَ الدُّنْيَا
يُعْظِمُونَ مَوْتَ أَجْسَادِهِمْ وَهُمْ أَشَدُّ إِعْظَامًا لِمَوْتِ قُلُوبِ أَحْيَائِهِمْ ^(٢) .

اللغة :

الدرة — بكسر الدال — اللبن. والغرة — بكسر الغين — الغفلة . والأجداث :
القبور . وظهرا نبيهم : وسطهم .

الإعراب :

عليكم بالجد « عليكم » اسم فعل أي الزموا . وفيها خبر كانوا ، وكمن ليس
منها الكاف بمعنى مماثلين حالاً من الواو في « كانوا » أي كانوا موجودين في
الدنيا مماثلين للذين ليسوا من الدنيا ، وإعظاماً تمييز .

المعنى :

(فليكن بالجد الخ) .. بعد أن أشار إلى الموت قال : أعدوا له عدته
(ولا تغرنكم الحياة الدنيا الخ) .. كيف تركزون إليها ، وقد رأيتم مكرها
وغدرها بالسابقين واللاحقين (وأصابوا غرتها) ذهلت الدنيا عنهم ، أو هادنتهم
بعض الوقت انتهبوا فيه الملذات وأشبعوا الشهوات (وأفنوا عدتها) أي متاعها
من طعام وشراب وجنس، والمراد بالإفناء مجرد الاستعمال والانتفاع (وأخلقوا جدتها)

كثوب جديد ، أو سيارة من طراز حديث (وأصبحت مساكنهم الخ) . تركوا ما جمعوا للوارث ، وذهبوا الى القبور لا يحملون معهم إلا السيئات والمهلكات . (معطية منوع) تعطي الحسيس ، وتمنع الشريف ، وكثيراً ما يكون الغنى سبباً للفساد في الأرض ، فعن السيد المسيح : ليحذر من يستبطئ الله في الرزق أن يغضب عليه فيفتح الدنيا عليه (ملبسة نزوع) قد تعطي صحة أو مالا أو جاهاً ، ولكن سرعان ما تنزعه ولو بالموت (ولا يركد بلاؤها) أي لا يهادن ، وإن جانب منها اعذوذب فاحلولى أمر منها جانب فأوبى كما قال الإمام . وتقدم ذم الدنيا مرات ، ومن أبلغ الخطب في هذا الموضوع الخطبة ١٠٩ .

(كانوا - أي الزاهدون والمتقون - قوماً من أهل الخ) .. هم في الدنيا يأكلون ويعملون ويلتذون ، ولكنهم أدركوا بصفاء عقولهم ان أحق اللذات بالطلب ما كان خيراً وأبقى ، فأنفقوا العمر في اللذة الباقية بقاء الأبد ، وبهذا افترقوا عن غيرهم من أبناء الدنيا، وكانوا معهم بالأبدان، وفي الآخرة بالأعمال والأرواح . (ويرون أهل الدنيا الخ) .. المراد بيعظمون يستعظمون ، وضمير «هم» يعود الى أهل الآخرة ، والمعنى ان المهم عند أهل الدنيا هو الجسم وملذاته ، أما العقل والقلب فحديث خرافة، ولذا يرون موت الجسم أو حرمانه من الملذات أمراً فظيماً ، أما أهل الآخرة فعلى النقيض يرون موت العقل والقلب بالجهل والضلالة هو الغريب الفظيع ، أما موت الشهوات أو كبجها فليس بغريب ولا بفظيع .

الخطبة

- ٢٢٩ -

الرسول :

فَصَدَعَ بِمَا أَمَرَ بِهِ ، وَبَلَغَ رِسَالَاتِ رَبِّهِ فَلَمْ يَلَهُ فِيهِ الصَّدْعَ . وَرَتَقَ
بِهِ الْفَتْقَ . وَأَلْفَ بِهِ ذَوِي الْأَرْحَامِ بَعْدَ الْعَدَاوَةِ الْوَاعِرَةِ فِي الصُّدُورِ ،
وَالضَّغَائِنِ الْقَادِحَةِ فِي الْقُلُوبِ .

اللغة :

صدع بالحق : تكلم به جهاراً . والصدع : الشق . والرتق - بفتح الراء -
ضد الفتق - بفتح الفاء - . والواغرة : المتوقدة ، من أوغر صدره غيظاً ،
ومثلها القادحة . والضغائن : الأحقاد .

المعنى :

قال الشريف الرضي : خطبها بندي قار ، وهو متوجه الى البصرة ، وذكرها
الواقدي في كتاب «الجمال» . وذو قار موضع قريب من البصرة ، (فصدع بما
أمر به ، وبلغ رسالات ربه) . الضمير لرسول الله (ص) وامتد تبليغه الرسالة

الإلهية مدى ٢٣ سنة ، وهي مدة نبوته حيث نزل عليه الوحي ، وهو في الأربعين من عمره الشريف ، وانتقل الى الرفيق الأعلى ، وهو في سن الثالثة والستين ، منها ١٣ سنة بمكة ، وفيها نزل ٨٢ سورة من القرآن، ومنها ١٠ سنوات بالمدينة ، وفيها نزل باقي القرآن الكريم .

(فلم الله به الصدع) . ألّف الرسول الأعظم (ص) بين القلوب القاسية المتنافرة ، وهداها الى الحق والخير بالموعظة الحسنة ، والسياسة الحكيمة، والشرعية السهلة السمحة . وحُسن الموعظة أن تكون بالرفق واللين ، وحكمة السياسة أن تخاطب العقل والضمير ، أما سماحة الشريعة الاسلامية وسهولة العقيدة فندع الكلام عنها للفرنسي الشهير جوستاف لوبون الذي قال في كتابه « حضارة العرب » : « للإسلام وحده كل الفخار في انه أول دين أدخل التوحيد الخالص الى العالم وسهولة الاسلام العظيمة تشتق من التوحيد الخالص. وهذا هو السر في قوة الاسلام». وتقدم الكلام حول الرسول ورسالته مرات ، منها في الخطبة ١ و ١٠٣ و ١٨٣ .

الخطبة

- ٢٣٠ -

حول المال :

إِنَّ هَذَا أَلْهَانَ لَيْسَ لِي وَلَا لَكَ وَإِنَّمَا هُوَ فِيهِ لِلْمُسْلِمِينَ وَجَلْبُ
أَسْيَافِهِمْ ، فَإِنْ شَرِكْتَهُمْ فِي حَرِيمِهِمْ كَانَ لَكَ مِثْلُ حَظِّهِمْ ، وَإِلَّا فَجَنَازَةٌ
أَيْدِيهِمْ لَا تَكُونُ لِغَيْرِ أَفْوَاهِهِمْ .

اللغة :

الفِيءُ في اللغة الرجوع ، وعند الفقهاء الخراج .

الإعراب :

وجلب عطف على الفِيء ، وجنَازَةٌ مبتدأ ، وجملَةٌ لا يكون خبر .

المعنى :

قال الشريف الرضي : كلم الإمام بهذا عبدالله بن زمعة ، وهو من شيعته ،

وذلك انه قدم عليه في خلافته يطلب منه مالا ، فقال (ع) : (ان هذا المال ليس لي الخ) .. كان في سالف الأزمان للمسلمين دولة وسلطان استولت بالحسنى حيناً ، وبالسيف أحياناً على كثير من البلدان يوم كان للإسلام سيوف ورجال .. ثم قُدِّرَ لأمة الإسلام ما قُدِّرَ لغيرها من الأمم المتحضرة : شباب ، ثم كهولة ، ثم شيخوخة فهرم . وبكلمة: ابتلعت الحضارة الإسلامية من كان قبلها فابتلعها ما جاء بعدها من الحضارات .

والمال الذي أشار اليه الإمام هنا هو مال الغنيمة الذي حازه المسلمون بالجهاد ، وأوجفوا عليه بخيل وركاب ، وقوله : (جلب أسيافهم فإن شركتهم في حربهم) واضح وصریح في ذلك .. والمسلمون الآن في طور الهرم ، يأخذ منهم الأقوياء والطامعون كل شيء ، وهم لا يأخذون شيئاً .. وإذن فالحديث عن مال الغنيمة تماماً كالحديث عن حكم العبيد والإماء لا جدوى منه . ومن أراد معرفة التراث والمعالم الأثرية فليرجع الى كتب الفقه للمذاهب الإسلامية .

أما سياسة الإمام في المال - بوجه العموم - فهي أشهر من أن تذكر ، ومع هذا تحدثنا عنها مراراً ، منها في شرح الخطبة ٢٢٢ ، والخطبة ١٢٤ التي قال فيها الإمام : « لو كان المال لي لسويت بينهم ، فكيف وإنما المال مال الله » ؟ .

الخطبة

- ٢٣١ -

حول اللسان :

أَلَا إِنَّ اللِّسَانَ بَضْعَةٌ مِنَ الْإِنْسَانِ فَلَا يُسْعِدُهُ الْقَوْلُ إِذَا أُمْتَنَعَ وَلَا يُمِيزُهُ النُّطْقُ إِذَا اتَّسَعَ . وَإِنَّا لَأُمَرَاءُ الْكَلَامِ ، وَفِينَا تَنْشِبَتْ عُرُوقُهُ وَعَلَيْنَا تَهَدَّلَتْ غُصُونُهُ . وَأَعْلَمُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ أَنَّكُمْ فِي زَمَانٍ الْقَائِلُ فِيهِ بِالْحَقِّ قَلِيلٌ ، وَاللِّسَانُ عَنِ الصِّدْقِ كَلِيلٌ ، وَاللَّازِمُ لِلْحَقِّ ذَلِيلٌ . أَهْلُهُ مُعْتَكِفُونَ عَلَى الْعِصْيَانِ . مُصْطَلِحُونَ عَلَى الْإِذْهَانِ . فَتَاهُمْ عَارِمٌ ، وَشَائِبُهُمْ آثِمٌ ، وَعَالِمُهُمْ مُنَافِقٌ ، وَقَارِئُهُمْ مُمَازِقٌ . لَا يُعْظَمُ صَغِيرُهُمْ كَبِيرُهُمْ ، وَلَا يَعُولُ غَنِيُّهُمْ فَقِيرُهُمْ . . .

اللغة :

البضعة : القطعة . وتنشبت عروق الشيء : علفت وتمكنت . وتهدلت :

تدلت . والعارم : الشرس المعاكس . ولبن مدق : ممزوج بالماء ، وفلان ممدق
أو مدق : لا يخلص في وده .

الإعراب :

من الإنسان متعلق بمحذوف صفة لبضعة ، واللام في لأمرأ للتأكيد ، وباصطلاح
النحاة للابتداء ، وعن الصدق متعلق بكليل .

المعنى :

قالوا : هذا الكلام جزء من خطبة طويلة ، قالها الإمام المناسبة . وهي أنه
أمر ابن أخته أم هاني جعدة بن هيرة المخزومي القرشي ، أمره أن يخطب بالناس
ولما صعد المنبر أرتج عليه ، فصعد أمير المؤمنين المنبر وقال : (ألا وإن اللسان
بضعة من الانسان) . للتعبير صور عديدة ، منها التصوير والتمثيل والخط والإشارة
والحركة ، وأهمها وأوسعها جميعاً الصورة الكلامية ، لأنها تعبر نثراً وشعراً عن
الله وصفاته ، وعن الكون وعجائبه ، وعن الإنسان وحقيقته ، وعما كان ويكون..
بالإضافة الى أنها صلة الوصل بين أفراد المجتمع ، ولذا امتن سبحانه على الإنسان
بموهبة البيان حيث قال ، عز من قائل : « خلق الانسان علمه البيان — ٤
الرحمن » .

ولهذه الصورة الكلامية أركان لا بد من توافرها : الأول : اللسان . الثاني :
معرفة اللغة . الثالث : حضور المعاني في الذهن ، لأن الانسان يستطيع التفكير
بلا تعبير ، ولا يستطيع التعبير بلا تفكير .. اللهم إلا اذا كان مجنوناً . الرابع :
عدم المانع والصارف عن الكلام ، فإن لم تحضر المعاني في ذهن الانسان ، أو
حضرت ولم يرغب في الكلام ، أو رغب ولكن وجد المانع ، إن كان شيء من
ذلك سكن اللسان وجُمد ، والى هذا أشار الإمام بقوله : (فلا يسعده القول
اذا امتنع) أي ان اللسان أو الانسان يعجز أو يمتنع عليه الكلام اذا غابت عنه
المعاني ، أو حضرت ولا مقتضى لبيانها ، أو وجد المقتضي مقارناً لوجود المانع ،
واذن فليس من الضروري أن يكون الصمت عجزاً عن الكلام ، بل قد يكون

لأمر عارض وخارج عن الذات .. وفي هذا إيماء الى الاعتذار عما أصاب جمعة من الحصر .

(ولا يمهله النطق اذا اتسع) . اذا حضرت المعاني ، ووُجد المقتضي بلا مانع اتسع المجال أمام اللسان ، وتحرك بسرعة ، وانطلق بسهولة ، حيث تراكم المعاني وتندافع للخروج والانطلاق في صورة كلامية (وإنا لأمرء الكلام) . وجعده ابن اختنا ، وفيه من شمائلنا ، ورؤي أن جمعة أبدى شجاعة وثباتاً في حرب صفين ، فقال له قائل : هذه الشجاعة من خالك . فقال له جمعة : لو كان خالك كخالي لنسيت أباك . وتقدم الكلام حول الناس في شرح الخطبة ٧٦ و ١٧٤ .

(وفيما تنسبت عروقه ، وعلينا تهذلت غصونه) والشاهد الحسي على ذلك السنة النبوية ، ونهج البلاغة، والصحيفة السجادية وغيرها . قيل لرسول الله (ص) : ما رأينا أفصح منك . فقال : وما يمنعني من ذلك ، وبلساني نزل القرآن ؟ . وقال : « أنا أفصح من نطق بالضاد .. وقد اختصر لي الكلام .. وأوتيت جوامع الكلم » أي المعاني الكبار في كلمات قصار يحتاج شرحها الى مجلدات .

(واعلموا رحمكم الله انكم في زمان القائل فيه بالحق قليل) . لا يختص هذا بزمان دون زمان ، ذلك بأن الحق ثقیل ، والباطل خفيف ، كما قال الإمام في كلماته القصار ، وقال غاندي : ان طريق الحقيقة ضيق مثلما هو مستقيم (واللسان عن الصدق قليل) أي قاصر وضعيف ، لأن الكذب والنفاق هو السائد والمسيطر (واللازم للحق ذليل) وهل يكون المحق عزيزاً في بيئة الباطل والفساد (أهله معتكفون الخ) .. الضمير في أهله يعود الى الزمان الذي يعاني الفقير فيه من استغلال الغني ، والمحكوم من جور الحاكم ، والضعيف من طمع القوي .

(مصطلحون على الإدهان) وهو الرياء والمراوغة (فتاهم عارم) شرس معاكس ، وجاهل تستخفه صور الانحلال « والتقاليع » نحوكما الصهيونية لتسيطر على عقله كما تريد ان تسيطر (وشائبهم آثم) لا يردعه عقل ولا دين (وعالمهم منافق) الدين عنده صكوك بيع وشراء (وقارئهم مماذك) يتلو القرآن ، والقرآن يلعنه ، لكذبه وريائه .

(ولا يعول غنيهم فقيرهم) . ان الله سبحانه جعل للفقراء حقاً معلوماً

ومحدوداً في أموال الأغنياء، واعتبرهم فيه شركاء، ولا فرق أبداً في نظر الإسلام بين أن يمسك الغني هذا الحق عن الفقير، وبين أن يسلبه ثوبه أو قوته وقوت عياله.. هذا، إذا كان الغني قد اكتسب أمواله من حل. أما إذا اكتسبها من حرام فعليه أن يرد كل مال حرام إلى أهله أن عرفهم بالذات، وأن تعذر عليه ذلك كان المال الحرام بكامله للفقراء، وفي سبيل الله من المصالح العامة، ولا شيء منه لمن هو في يده.

الخطبة

- ٢٣٢ -

الطويل والقصير :

إِنَّمَا فَرَّقَ بَيْنَهُمْ مَبَادِيءَ طِينِهِمْ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا فِلَقَةً مِنْ سَبَخِ أَرْضٍ
وَعَذِيهَا ، وَحَزَنِ تُرْبَةٍ وَسَهْلِيهَا . فَهُمْ عَلَى حَسَبِ قُرْبِ أَرْضِهِمْ
يَتَقَارِبُونَ ، وَعَلَى قَدَرِ اخْتِلَافِهَا يَتَفَاوَتُونَ . فَتَأْمُ الرُّوَاءِ نَاقِصُ الْعَقْلِ ،
وَمَادُّ الْقَامَةِ قَصِيرُ الْهِمَّةِ ، وَزَاكِي الْعَمَلِ قَبِيحُ الْمَنْظَرِ ، وَقَرِيبُ
الْقَعْرِ بَعِيدُ السَّبْرِ ، وَمَعْرُوفُ الضَّرِيبَةِ مُنْكَرُ الْحَلِيبَةِ ، وَتَائِهُ الْقَلْبِ
مُتَفَرِّقُ أَلْبٍ ، وَطَلِيقُ اللِّسَانِ حَدِيدُ الْجَنَانِ .

اللغة :

طينهم : جمع طينة . والفلقة - بكسر الفاء - القطعة . وسبخ : أرض ذات
نزرٍ وملح . والحزن : ضد السهل . والرواء - بضم الراء - حسن المنظر . ومادّ

القائمة : طوليلها . وقريب القعر : قصيرها . والضريبة : الطبيعة والسجية ، يقال : هذه ضربته التي ضُرب عليها أي طبيعته التي طبع عليها . والجلية : التصنع أي يستجلب لنفسه ما ليس فيها . واللب : العقل . والجنان - بفتح الجيم - القلب .

الإعراب :

المصدر من أنهم كانوا خبر ذلك ، أي ذلك كونهم ، ويجوز جره بباء محذوفة ، والمجرور خبر ، ومن سبخ متعلق بمحذوف صفة لفظة .

المعنى :

قالوا : حضر جماعة في مجلس الإمام (ع) فأنهى بهم الحديث إلى اختلاف الناس في طبائعهم وغرائزهم . فقال : (إنما فرق بينهم مبادئ طبيعهم الخ) .. وهذا الكلام يدل بظاهره على أن الناس يتفاوتون نقصاً وكمالاً في عقولهم وغرائزهم على حسب الطبيعة التي خلقوا منها خبثاً وطيبة .. وأيضاً على حسب الشكل والصورة قبحاً وجالاً ، وطولاً وقصراً ، فالطويل قصير في طموحه ، والقصير طويل في همته ، والجميل ناقص في إدراكه ، والقبیح زارٍ في عمله . وليس من شك أن الإمام لا يقرر هذا كقاعدة تعم وتطرد على كل قصير وطويل ، وكل قبيح وجميل في شكله وهيئته ، لأن الواقع على خلاف ذلك ، بل ذكره على سبيل الأعم الأغلب ، وأنه لو ترك على سجيته لترتب عليه الأثر المذكور ، ولكن التربية والبيئة والإيحاءات تهذب الكثير من مشاعره وغرائزه تماماً كالحیوان الأليف يتكيف بالرياضة والتدريب .

وعلى أية حال فما أنا من أهل هذا الفن في شيء ، ولذا رجعت إلى كثير من المصادر التي تبحث عن الإنسان وأصله وطبيعته .. حتى ما يزعم منها أننا أحفاد القرد .. وبُحث ونُقب لعلني أرتضي شيئاً أشرح به كلمات هذه الخطبة ، أو أجد ما يناسبها ، فرأيت أكثر الآراء أو الكثير منها مجرد خيالات لا تقوم على أساس ، واحتمالات لا تركز إليها النفس ، ويقتنع بها العقل .. أجل ،

قرأت في بعض المصادر الشهيرة ما يتفق مع بعض كلمات الإمام في هذه الخطبة . وأعني ببعض المصادر كتاب « الإنسان ذلك المجهول » الذي بلغ ذروة الشهرة والانتشار ، وترجم الى العديد من اللغات ، وطبعت منه ملايين النسخ ، ومؤلفه العالم الفرنسي الدكتور « ألكسيس كاريل » الحاصل على إجازة الطب ، وإجازة العلوم . وقد ترجم الكتاب الى العربية شفيق أسعد فريد . وجاء في ص ٧٩ طبعة سنة ١٩٦١ ما نصه بالحرف .

« ان طبائع الانسان خاضعة لشكله ، وطريقته في شد قامته ، وشكل وجهه » . ويتفق هذا مع قول الإمام : (فتام الرواء .. وقبح المنظر الخ) .. يتفق هذا مع قول الإمام في إناطة الطبيعة بالشكل وخضوعها له . وأيضاً جاء في نفس الصفحة : « العباقرة ليسوا طوالاً » ، فقد كان نابليون قصيراً . وهذا عين قول الإمام : (ومادّ القامة قصير الهمة .. وقريب القعر بعيد السبر) أي الغور والاختبار . وفي ص ٨٠ من الكتاب المذكور : « ان طوال القامة أكثر استعداداً للإصابة بالجنون المطبق في حين ان قصار القامة أكثر استعداداً للجنون الأدوارى » . وإذا أثبت العلم ما قاله الإمام فيما يعود الى الشكل وأثره في السلوك — فمن الجائز أن يُثبت في يوم من الأيام — ولو بعد ملايين السنين — ان أفراد الإنسان يختلفون على حسب طبيعتهم وأرضهم تماماً كما قال الإمام . وما يدرينا أن بعض العلماء في هذا العصر قد أدرك وقرر ذلك ، ولم يصل اليه قوله بعد . ومهما يكن فإن كل ما في الإنسان ينطق ويسبح بحمد خالقه وخالق الأكوان : « وصوركم فأحسن صوركم واليه المصير — ٣ التغابن » .

(ومعروف الضريرة منكر الجلية) . ان الذي يعرفه الناس بطبيعة خاصة يتصنع ويتكلف بغير ما تعرفه من طبعه ، ويظهر ذلك عليه ، ويُستنكر منه (وتائه القلب متفرق اللب) من ضُرب قلبه يتشتت عقله في أجواء لا تمت الى حياته بسبب (وطلق اللسان حديد الجنان) وذو الحدة في ذكائه أو غضبه ينطلق لسانه بسرعة البرق .

الانسان والعلوم:

وبعد ، فإن الانسان يُبحث عنه في علم التاريخ لما يترك من آثار ، وفي علم

الطبيعة لأنه كائن طبيعي ، وفي علم الحيوان لأنه من صنوفه ، وعلم الاجتماع باعتباره عضواً من المجتمع ، وعلم النفس لما فيه من غرائز وملكات، وعلم الأخلاق بالنظر الى سلوكه بعقل وإرادة ، وعلم الطب وعلم وظائف الأعضاء باعتباره كائناً حياً وعضوياً ، وعلم الفقه بالنظر الى ما يحل له ويحرم عليه من الأفعال والتروك، وعلم الفلسفة لإدراكه ونظرياته وكونه أداة لمعرفة نفسه بنفسه وغير ذلك . ويكفي القول : إن الانسان هو مصدر العلوم ، وليس للعلوم حد ولا عد .

الخطبة

- ٢٣٣ -

تأبين الرسول الأعظم :

بأبي أنت وأُمِّي لَقَدْ انْقَطَعَ بِمَوْتِكَ مَا لَمْ يَنْقَطِعْ بِمَوْتِ غَيْرِكَ مِنْ
النُّبُوَّةِ وَالْأَنْبَاءِ وَأَخْبَارِ السَّمَاءِ . خَصَّصْتَ حَتَّى صِرْتَ مُسَلِّياً عَمَّنْ سِوَاكَ
وَعَمَّمْتَ حَتَّى صَارَ النَّاسُ فِيكَ سَوَاءً . وَلَوْ لَا أَنَّكَ أَمَرْتَ بِالصَّبْرِ
وَنَهَيْتَ عَنِ الْجَزَعِ لَأَنْفَدْنَا عَلَيْكَ مَاءَ الشُّوْثِ ، وَلَكَانَ الدَّاءُ مُمَاطِلاً
وَالْكَمَدُ مُحَالِفاً وَقَلَّالَكَ ، وَلَكِنَّهُ مَا لَا يُمَلِّكَ رَدُّهُ وَلَا يُسْتَطَاعُ
دَفْعُهُ . بِأبي أنت وأُمِّي أَذْكُرُنَا عِنْدَ رَبِّكَ وَأَجْعَلُنَا مِنْ بَالِكَ .

اللغة :

الشُّوْثُ : عروق الدمع . والمماطل : المسوف . والمحالف : الملازم .

الإعراب :

أنت مبتدأ ، وبأبي متعلق بمجذوف خبراً ، وأُمِّي عطف على أبي ، والمصدر
من أنك أمرت مبتدأ أي لولا ثبوت أمرك .

المعنى :

قال الشريف الرضي : ان الإمام قال : وهو يلي غسل رسول الله (ص) وتجهيزه : (بأبي أنت وأمي يا رسول الله الخ) .. كل الناس يحزنون ويتألمون لفقد عزيز أو قريب ، ويسكبون الدموع أياماً ، ثم ينتهي كل شيء كأن لم يكن إلا اذا كان للفقيد صلة وثقى بالثاكل ، أو كان عظيم الخطر في نفسه ، فحزن الولد على الوالد — مثلاً — يكون على قدر عطفه عليه ، وبره به ، وفائدته منه ، فإذا كان لهذا الوالد البار شأن وخطر تضاعف الحزن وتراكم .

وكان الرسول الأعظم (ص) أباً لعل ولزوجته وأبنائه ، وفي الوقت نفسه كان أخاً له بالمؤاخاة .. وأيضاً كان استاذة طوال ٣٠ عاماً حتى آتت النبوة أكلها في نفس الإمام علماً وخلقاً ، ومن هنا كان لعل خصائص لم تكن لأحد سواه ، واذا عطفنا على ذلك خطر الرسول ، وانه سيد الأولين والآخرين — أدركنا الى أي مدى بلغ الشجن والأسى في نفس الإمام لفقد سيد الكائنات .

(لقد انقطع بموتك الخ) .. يشير الى ان النبوة ختمت برسول الله (ص) وانه لا خبر بعده من السماء ، لأن الله سبحانه قد بين كل ما أراد أن يقوله ، بيّنه كاملاً وواضحاً على لسان محمد (ص) الى هذا أشار خاتم النبيين بقوله : « انما مثلي في الأنبياء كمثلي رجل بنى داراً ، فأكملها وحسنها إلا موضع لبنة ، فكان من دخل فيها ونظر اليها قال : ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة ، فأنا موضع اللبنة ، ختم بي الأنبياء » .

(خصصت حتى صرت الخ) .. الخطاب لرسول الله (ص) . قال الشيخ محمد عبده : « النبي (ص) خص أقاربه وأهل بيته حتى كان فيه الغنى والسلوة لهم عن جميع من سواه ، وهو برسالته عام للخلق ، فالناس بالنسبة الى دينه سواء » . (ولولا انك أمرت — الى — الشؤون) أنت يا رسول الله أمرت بالصبر ، وقلت عند موت ولدك ابراهيم : « تدمع العين ، ويحزن القلب ، ولا نقول إلا ما يرضي الرب » ونحن على سنتك يا رسول الله وطوع لإرادتك . وقد رُوي النبي (ص) أكثر من مرة يبكي لميت ، ولحزين بائس ، وخوفاً من الله ، وعلى أمته ، وعند سماع القرآن .

(ولكان الداء بمأطلاً) أي لا تبرح الكتابة من القلب بحال تماماً كالمدين الماطل،

انه يسوّف ويؤجل ، ولا يفي بما عليه و(الكمد محالفاً) عطف تفسير و (قلّ لك)
 قلّ فعل ماض والألف ضمير التثنية ، يعود الى مماثلة الداء ومحالفة الكمد ،
 والمعنى ان هذين قليلا ن لفقدك يا رسول الله (ولكنه ما لا يُملك رده الخ) .
 ضمير الغائب للموت ، ويملك مبني للمجهول ، والمعنى ان الموت حتم ، والجزع
 لا يُرجع ما فات ، وإذن فالصبر أولى وأجدى . ومن حيكم الإمام : ان صبرت
 جرى عليك القدر وأنت مأجور ، وان جزعت جرى عليك القدر وأنت مأزور .

الخطبة

- ٢٣٤ -

حول الهجرة :

فَجَعَلْتُ أَتَّبِعُ مَا خَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَأَطَأُ ذِكْرَهُ
حَتَّى أَتَنَّهُتُ إِلَى الْعَرَجِ .

المعنى :

(فجعلت اتبع ماخذ رسول الله (ص) فأطأ ذكره حتى انتهيت الى العرج)
بفتح العين والراء ، وهو موضع بين مكة والمدينة . قيل : ان هذا من كلام
ذكر فيه الإمام خروجه من مكة الى المدينة لاحقاً بالنبي (ص) بعد أن بات على
فراشه، وسلم وداعه الى أهله كما أمره رسول الله (ص) . وقال الشريف الرضي:
« فأطأ ذكره » من الكلام الذي رُمي به الى غايته الإيجاز والفصاحة ، أراد
أنني كنت أعطى خبره من بدء خروجه الى ان انتهيت الى العرج .
وتقدم الكلام عن الهجرة وقصة المبيت على الفراش في شرح الخطبة ١٨٩ فقرة
« الإمام علي » ، وفي شرح الخطبة ٢٢٩ أشرنا الى مدة النبوة ، وكم قضى منها
النبي (ص) في مكة والمدينة ، والى عمره الشريف . ونعطف على ما أسلفنا قول
المستشرق الفرنسي « جان بروا » في كتابه « محمد نابليون السماء » ترجمة محمد
صالح البنداق طبعة سنة ١٩٤٧ .

قال حول الهجرة في ص ٤٤ : « حين وصل النبي (ص) الى المدينة أراد كل واحد من الزعماء أن يزداد منزلةً بضيافته .. والنبي ذو الخلق الكبير ترك القيادة للناقة كي يساوي بين الجميع ، وما زالت الناقة تقطع طرقا المدينة حتى أناخت أمام دار أبي أيوب الأنصاري » . وفي ص ٤٦ : « أفلت النبي من مؤامرة قريش الفتاة ، وترك على فراشه نهباً لسيوف المؤامرة البطل المصحّي والمؤمن الشاب ابن عمه وربيه علي بن أبي طالب » .

الخطبة

- ٢٣٥ -

خذ من نفسك لنفسك :

فَاعْمَلُوا وَأَنْتُمْ فِي نَفْسِ الْبَقَاءِ وَالصُّحُفُ مَنْشُورَةٌ ، وَالتَّوْبَةُ مَبْسُوطَةٌ .
وَالْمَذْبُورُ يُدْعَى ، وَالْمُسِيءُ يُرْجَى . قَبْلَ أَنْ يَخْمَدَ الْعَمَلُ ، وَيَنْقَطِعَ
الْمَهْلُ ، وَيَنْقُضِيَ الْأَجَلُ ، وَيُسَدَّ بَابُ التَّوْبَةِ وَتَصْعَدَ الْمَلَائِكَةُ .
فَأَخَذَ أَمْرُؤُ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ . وَأَخَذَ مِنْ حَيٍّ لِمَيِّتٍ ، وَمِنْ فَاِنٍ
لِبَاقٍ ، وَمِنْ ذَاهِبٍ لِدَائِمٍ . أَمْرُؤُ خَافَ اللَّهَ وَهُوَ مُعَمَّرٌ إِلَى أَجَلِهِ ،
وَمَنْظُورٌ إِلَى عَمَلِهِ ، أَمْرُؤُ أَلْجَمَ نَفْسَهُ بِلِجَامِهَا وَزَمَّهَا بِزِمَامِهَا ، فَأَمْسَكَهَا
بِلِجَامِهَا عَنْ مَعَاصِي اللَّهِ وَقَادَاهَا بِزِمَامِهَا إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ .

اللغة :

في نفس البقاء — بفتح الفاء — أي في سعته وفسحته . والمهل : من الإمهال .
ومعمر الى أجله : عاش إلى أجله . وزمها بزمامها : قادها بقيادها .

الإعراب :

فاعملوا الفاء لترتيب الكلام عليها ، وأنتم الواو للحال ، فأخذ امرؤ أمر في صيغة الماضي ، وامرؤ خاف بدل من امرئ في قوله : « فأخذ امرؤ » ويجوز أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف أي الناجي امرؤ خاف ، ومثله امرؤ ألجم نفسه .

حول العمل والبطالة :

(فاعملوا وأنتم في نفس البقاء) . للإنسان أعضاء وملكات ، وفيه قوى وطاقات : مادية كالسمع والبصر واليدين والرجلين ، وروحية كالإدراك والحب والكرهية ، وهي بمجموعها تشكل مصنعاً هائلاً يعمل وينتج ، وقد يدع ويتكر بمجرد أن يوطن النفس على الجدة والكفاح ، ومن أهمل وأثر الراحة والبطالة على العمل فهو تماماً كمن أقفل مصنعاً ينتج الخير وينفع صاحبه والناس .. هذا الى ان البطالة سرطان يقتل الروح والجسم ، ويسلب الإنسان إنسانيته ، ويجعل الحيوان خيراً منه . وأفضل ، لأنه يعمل وينتج . حتى الحجر قد يُنتفع به ، أما البطال فوته خير من حياته ، وعلمه خير من وجوده .

ويقول الإمام : بادروا العمل النافع الصالح ما دتم مزودين بأدوات القدرة وآلاتها ، واغتنموا الفرصة قبل فوات الأوان ، واعتبروا بمن أضعافها، وعما قريب يجري القدر عليها وعليكم ، ويذهب كل شيء ، فتتحسرون وتندمون حيث لا تجدي الحسرات والآهات (والصحف منشورة) تسطر ما فعلتم بتلك الثروة والطاقة التي أنعم الله بها عليكم : هل أسأتم استعمالها، أو وضعتم كل شيء منها في موضعه ، وحققتم الهدف الذي وجد من أجله .

(والتوبة مبسطة) . فن أخطأ واعترف بخطيئته ، وطلب العفو من الله يقبل منه ويصفح عنه ، لأنه صدق مع الله والناس ومع نفسه أيضاً ، ورفض الكذب والخداع ، وفي الحديث : من تاب من الذنب كمن لا ذنب له (والمدير) عن الحق (يدعى) اليه بالحكمة والموعظة الحسنة (والمسيء يُرجى) منه أن يُقلم عن إساءته (قبل أن يخذل العمل الخ) .. هذه الجملة وما بعدها تفسير وبيان لقوله في أول الخطبة : « فاعملوا وأنتم في نفس البقاء » وتقدم الشرح .

(فأخذ امرؤ من نفسه لنفسه) على الانسان أن يجتهد، ويضحي ويصبر من أجل مصيره ومستقبله وحرية وكرامته . وتقدم قول الإمام في الخطبة ١٩١ وهو يصف المتقين : « صبروا أياماً قصيرة أعقبتهم راحة طويلة » (وأخذ من حي لميت الخ) .. كل انسان يعرف انه سيموت ، لا محالة ، ولكن عليه أن يعرف على أي شيء يموت؟ وماذا يترك بعد موته لنفسه وأمه ووطنه، وليس لأبنائه ووارثه وكفى ؟ وقد يعيش واحد من الناس نكرة لا أحد يعبا به ، أو يعرف عنه شيئاً ، ولكنه يجعل من موته تاريخاً ومجداً له ولوطنه ، كما لو مات موتاً شجاعاً يصنع الانتصار على الطغاة والمعتدين ، وقد يموت أغنى الأغنياء وأقوى الرؤساء ، ويختفي أثره بسرعة تماماً كموت الحشرات والحيوانات .

ويقول الإمام لكل حي : انك ستموت على أية حال، وفي مقدورك أن تجعل من موتك حياة لك وللآخرين ، فلا تحرم نفسك وغيرك من حياة لا ذل فيها وهوان ، ولا خوف وآلام (امرؤ خاف الله الخ) .. فسيطر على أهوائه ، وتغلب على أطماعه ، وحررها من كل شائبة ، وبدلها أو بدل منها فيما افترض عليه لربه ووطنه ومجتمعه .

الخطبة

- ٢٣٦ -

حول الحكمين :

جُفَاءَ طَعَامٍ ، وَعَبِيدُ أَقْزَامٍ . جُجِعُوا مِنْ كُلِّ أَوْبٍ ، وَتُلْقَطُوا مِنْ
كُلِّ شَوْبٍ يَمُنُّ يَنْبَغِي أَنْ يُفَقَّهَ وَيُؤَدَّبَ ، وَيُعَلَّمَ وَيُدَرَّبَ ، وَيُوَلَّى عَلَيْهِ
وَيُؤَخَذَ عَلَى يَدَيْهِ . لَيْسُوا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَلَا مِنَ الَّذِينَ
تَبَوَّأُوا الدَّارَ . أَلَا وَإِنَّ الْقَوْمَ اخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ أَقْرَبَ الْقَوْمِ يَمَّا
تَكَرَّهُونَ ، وَإِنَّمَا عَهْدُكُمْ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ بِالْأَمْسِ يَقُولُ : « إِنَّهَا
فِتْنَةٌ فَقَطَّعُوا أَوْتَارَكُمْ وَشِيمُوا سُيُوفَكُمْ » ، فَإِنْ كَانَ صَادِقًا فَقَدْ أَخْطَأَ
بِمُسِيرِهِ غَيْرَ مُسْتَكْرِهِ ، وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا فَقَدْ لَزِمَتْهُ التُّهْمَةُ . فَادْفَعُوا
فِي صَدْرِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ بِعَبْدِ اللَّهِ ابْنِ الْعَبَّاسِ ، وَخُذُوا مَهْلَ الْأَيَّامِ
وَحُوطُوا قَوَاصِي الْإِسْلَامِ . أَلَا تَرَوْنَ إِلَى بِلَادِكُمْ تُغْزَى ، وَإِلَى
صَفَاتِكُمْ تُرْمَى .

اللغة :

جفأة : غلاظ في العشرة . وطغام : أوعاد في الدناءة والحقارة . وأقزام : أراذل في اللؤم والخساسة . والأوب : الناحية . والشوب : الخلط . وتبوأوا الدار : سكنوها ، والإيمان : ثبتوا عليه . وشيموا : أغمدوا . والقواصي : الأطراف . والمراد بصفاتكم هنا قوتكم .

الإعراب :

جفأة خبر لمبتدأ محذوف أي هم جفأة ، والمصدر من أن يفقه فاعل ينبغي، أي ينبغي تفقيحه وتأديبه .

المعنى :

(جفأة طغام الخ) .. المقصود بالدم جيش معاوية ، فقد كانوا أوباشاً رعاهاً تجمعوا خليطاً من ههنا وههنا ، ما فيهم من له بالدين علم ، ولا بالجهاد سابقة ، ولا من الخلق نصيب (ممن ينبغي أن يفقه ويؤدب) يحتاج الواحد منهم الى من يعلمه الضرورات من أحكام الدين ، وآداب الإسلام (ويولئى عليه) يحجر عليه لسفاهه (ويؤخذ على يديه) يمنع من التصرف في أمواله ، ويقام عليه قيم يدبر شؤونه (ولا من الذين تبوأوا الدار) أي مدينة رسول الله (ص) التي كانت آنذاك عاصمة الإسلام وعلومه (والإيمان) أي ما عمر قلبه بالإيمان ، ولا تمسك بعروته .. هكذا كان جيش معاوية ، ولو كان على شيء من الدين والوعي لما حارب الصحابة الأبرار .. أما الإمام فقد كان في جيشه ألفان وثمانون من المهاجرين والأنصار ، منهم ثمانون بدرياً . (أعيان الشيعة ج ٣ عن المسعودي) .

(ألا وإن القوم اختاروا لأنفسهم أقرب القوم مما يحبون) . المراد بالقوم هنا جيش معاوية ، والتكرار للتوكيد، والذين اختاروه للتحكيم هو ابن العاص ، والشيء الذي يحبون هو الانتصار على أهل العراق ، وقد حقق لهم عمرو ما يبتغون بمكره وألعيه وخداعه للأشعري المغفل (وانكم اخترتم لأنفسكم أقرب القوم مما تكرهون)

الخطاب لأهل العراق ، والمراد بالقوم هنا عامة الناس ، والشيء الذي يكرهونه خذلانهم وانكسارهم الذي حدث بالفعل .

(وانما عهدكم بعبد الله بن قيس) وهو أبو موسى الأشعري (بالأمس) أي في وقعة الجمل ، وكان أبو موسى آنذاك والياً على الكوفة ، وقد نهى أهلها عن المسير الى الحرب مع الإمام ، وقال من جملة ما قال : (انها فتنة فقطعوا أوتاركم ، وشيموا سيوفكم) أي لا تطلقوا في هذه الحرب سهماً ، ولا تشهروا سيفاً .

(فلن كان صادقاً — الى — التهمة) . كيف تختارون الأشعري للتحكيم ، وقد أقام الدليل من نفسه على نفسه انه لا يصلح لشيء ، ولا يوثق به في شيء ، فبالأمس القريب نهى عن السير مع الإمام ، ثم سار معه مختاراً وعن طيب نفس ، وأظهر الحب والإخلاص للإمام وجيش الإمام ، ولذا أصر أهل العراق على اختياره .. فلن كان مؤمناً بما نهى عنه من قبل فقد خالف إيمانه وبقينه عن إرادة وقصد ، وان كان كاذباً فيما نهى عنه ، وعالمًا بأنه ينهى عن المعروف لا عن المنكر فهو مجرم فاسق .. وفي الحالين لا يجوز الوثوق به والركون اليه .

وقال ابن عبد البر في « الاستيعاب » ، وهو يترجم لأبي موسى الأشعري ما نصه بالحرف : « روي فيه كلام كرهت ذكره ، والله يغفر له » . وقال ابن أبي الحديد المعتزلي في شرح هذه الخطبة : « روى أبو موسى الأشعري عن النبي (ص) انه قال : « كان في بني اسرائيل حكيمان ضالان ، وسيكون في أمتي حكيمان ضالان ، وضال من اتبعهما » . فقيل له : احذر أن تكون أحدهما . فقال : كلا . فلما بلي به قيل فيه : البلاء موكل بالمنطق .

(فادفعوا في صدر الخ) .. قال الكاتب الإسلامي المصري عبد الكريم الخطيب في كتابه « علي بن أبي طالب » ص ٤٩٧ وما بعدها : « كان الإمام قد أعد ابن عباس ليلقي عمرو بن العاص : ولكن أصحاب الإمام اختلفوا عليه ، وكان الأشعث بن قيس رأس الجماعة التي نازعت في اختيار ابن عباس ، والأشعث هو الذي مهّد للتحكيم ، وأكرهه هو وقومه علياً على قبوله .. ولا شك ان الصلة كانت قد توثقت بين معاوية والأشعث » . وهذا الذي سجله الخطيب يتفق تماماً مع ما نقلناه عن كتاب « علي وبنوه » لطف حسين في شرح الخطبة ١٩ ج ١ ص ١٥٢ : من أن الأشعث وابن العاص قد دبرا رفع المصاحف ، واختارا الحكيمين سلفاً .

ثم قال عبد الكريم : « كان ابن العاص صاحب مصلحة محققة في أي خير يصيبه معاوية من التحكيم ، لأن الصلح بملك مصر في يده .. وليس لابن عباس شيء ان خلصت الخلافة لعلي ، وهل لأحد مع علي مطمع ؟ ان كل الذين يعملون مع علي يعملون لله لا له ، فليس لهم عنده يد يرجون المثوبة عليها إلا من الله ، فإذا يخشى القوم من ابن عباس إذن ؟ انهم لا يخشون إلا ان يدفع ابن العاص عن كيد مدبر لا يفطن اليه إلا رجل أوتي مثل ما أوتي ابن عباس من المعية وذكاء » .

(وخذوا مهل الأيام) . لقد بذلت لكم النصيح فاقبلوه قبل أن تفوت الفرصة ، وتقولوا : يا ليتنا سمعنا وأطعنا .. وبالفعل ندموا على ما فرطوا حيث لا ينفع الندم (وحوطوا قواصي الإسلام) احفظوا أطراف المملكة الإسلامية ونواحيها من غارات أعداء الإسلام (ألا ترون الى بلادكم تُغزى) ؟ ولا بد من الإشارة أن الغزو كان من معاوية ، وزبائنه بعد التحكيم لا قبله ، وعليه فهذا الفصل ملحق بهذه الخطبة ، وليس منها . والمعروف عن الشريف الرضي أنه كان يختار من خطب الإمام فصولاً ، ويجمعها في كلام واحد (والى صفاتكم تُرمى) . المراد بصفاتهم هنا قوتهم ، لأن أصل الصفة الحجر الصلد ، والمعنى ان العدو اتخذ قوتكم مرمى لسهامه ، وغرضاً لهجومه .

الخطبة

- ٢٣٧ -

أهل البيت :

هُمْ عَيْشُ الْعِلْمِ وَمَوْتُ الْجَهْلِ . يُخْبِرُكُمْ جِلْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ .
وَصَمْتُهُمْ عَنْ حِكْمِ مَنْطِقِهِمْ . لَا يُخَالِفُونَ الْحَقَّ وَلَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ .
هُمْ دَعَائِمُ الْإِسْلَامِ وَوَلَانِجُ الْأَعْتِصَامِ ، يَهْمُ عَادَ الْحَقِّ فِي نِصَابِهِ ،
وَأَنْزَاحَ الْبَاطِلِ عَنْ مُقَامِهِ ، وَأَنْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنْ مَنَابِتِهِ . عَقَلُوا الدِّينَ
عَقْلَ وَعَايَةٍ وَرِعَايَةٍ ، لَا عَقْلَ سَمَاعٍ وَرِوَايَةٍ . فَإِنَّ رُوَاةَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ
وَرِعَاةُ قَلِيلٌ .

اللغة :

عيش العلم : حياته .. وولائج : جمع وليجة ، وهي الموضع الذي يُعْتَصَمُ
به . وعاد الى نصابه : الى أصله ومستقره . والمراد بانقطاع اللسان هنا انقطاع

الحجة . وعقل الوعاية : حفظ في فهم . وعقل الرعاية : دعم الدين ودفع الشبهات عنه بمنطق العقل والبديهة .

الإعراب :

عقل وعاية مفعول مطلق ، لأن المعنى أدركوا إدراك وعاية ، لا عقل سماع « لا » حرف عطف مثل : هذا زيد لا عمرو .

المعنى :

(هم عيش العلم - الى - لا يختلفون فيه) . ضمير « هم » لأهل البيت ، وتقديم الثناء عليهم في العديد من الخطب ، والصفات التي ذكرها الإمام هنا هي تكرار لما جاء في آخر الخطبة ١٤٥ . وشرحناها في ج ٢ ص ٣٤٢ (وهم دعائم الاسلام) أي قوته وسلاحه ، وحجته ولسانه ، فولأوهم والإخلاص لهم ولاء وإخلاص للاسلام بالذات ، ومن هنا قال الرسول الأعظم (ص) : « من صلتى صلاة لم يصل فيها عليّ » ، ولا على أهل بيتي لم تقبل منه » (رواه الدارقطني في سننه ص ١٣٦ مطبعة الأنصاري بدلي عاصمة الهند . عن فضائل الخمسة) . وإذا عطفنا هذا الحديث على حديث « الصلاة عمود الدين » كانت النتيجة ان الصلاة على أهل البيت عمود الدين . اللهم صل على محمد وآل محمد وسلم .

وفي « الصواعق المحرقة » لابن حجر وغيرها ان الشافعي قال :

يا أهل بيت رسول الله حبكم فرض من الله في القرآن أنزله
كفاكم من عظيم الفخر انكم من لا يصلي عليكم لا صلاة له

(وولائج الاعتصام) لمن أراد معرفة الإسلام على حقيقته أصولاً وفروعاً
(بهم عاد الحق الى نصابه) أي اذا تولوا الشؤون العامة يصابان لكل ذي حق

حقه ، ويجوز أن يكون المراد بالحق هنا الدين ، وأن أهل البيت يأخذونه من منبعه ومصدره لا من الشيوخ والرواة . وهذا المعنى أقرب الى السياق ، وأنسب بقول الإمام : (عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية) فهموه وعملوا به وأرشدوا إليه كما هو عند الله (فإن رواة العلم كثير ، ورعاته قليل) تماماً كعماثم الفاشلين المرتزقة في عصرنا .. كذب وتزوير ، وتكوير بلا تفكير .

الخطبة

- ٢٣٨ -

ما يريد عثمان إلا أن أكون جملاً .

يَا أَبْنَ عَبَّاسٍ مَا يُرِيدُ عُثْمَانُ إِلَّا أَنْ يُجْعَلَنِي جَمَلًا نَاصِحًا بِالْغَرْبِ أَقْبَلُ
وَأَذِيرُ ، بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أُخْرَجَ ، ثُمَّ بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أَقْدَمَ ، ثُمَّ هُوَ
الآنَ يَبْعَثُ إِلَيَّ أَنْ أُخْرَجَ . وَاللَّهِ لَقَدْ دَفَعْتُ عَنْهُ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ
أَكُونَ آثِمًا .

اللغة :

الناصح : البعير يُحمل عليه لسقي الزرع . والغرب : الدلو العظيمة .

الإعراب :

المصدر من أن يجعلني مفعول يريد ، وأن أخرج « أن » مفسرة بمعنى أي ،
ومثلها أن أقدم .

المعنى :

قال الشريف الرضي : قال الإمام هذا لابن عباس ، وقد جاءه برسالة من عثمان ، وهو محصور يسأله فيها الخروج الى ماله لينبئ ليقول هتف الناس باسمه للخلافة بعد أن سأله مثل ذلك من قبل . وقال الشيخ محمد عبده : « كان الناس يهتفون باسم أمير المؤمنين للخلافة ، وينادون به ، وعثمان محصور ، فأرسل اليه عثمان يأمره أن يخرج الى ينبع ، وكان فيها رزق لأمر المؤمنين ، فخرج ثم استدعاه لينصره فحضر ، ثم عاود الأمر بالخروج مرة ثانية » . فقال الإمام : (ما يريد عثمان إلا أن يجعلني الخ) .

ينبع - بفتح الياء وسكون النون وضم الباء - هي أرض من خراج المدينة . قالوا : إن النبي (ص) قسم الأنفال ، فكانت هذه من نصيب الإمام ، فاحتفر بها عيناً فخرج ماء ينبع كنعق البعير، فسامها الإمام ينبع ، ثم أوقفها على الفقراء والمساكين .

وتلخيص الحكاية أن الثورة اشتعلت على عثمان في كل نفس بعد أن كان منه ما كان ، وتلاقت جموع المسلمين بالمدينة ، وتراكت حتى سدت الطرق والمسالك ، وهي تطالب بعزل عثمان أو برأسه ، ودافع الإمام عنه بلسانه ويده وبسوطه ، وكان يرسل المساء في القرب الى عثمان وأهله ، وطلحة يمنع وصوله اليهم .. وكان الثوار يهتفون باسم الإمام للخلافة ، وعثمان يسمع ويغضب، ويرسل الى الإمام ان يخرج من المدينة ، فيستجيب ولكن الثورة تزداد غضباً ولهباً، فيرسل عثمان الى الإمام أن أقدم ودافع ، فيأتي ويحاول جهده أن يفرق الحشد بالسوط تارة ، وبالتفريق أخرى حتى خشي أن يكون آثماً في ذلك ، كما قال ، لأنه ربما ضرب بسوطه من الجموع المحتشدة من لا يستحق الضرب ، وأهان من لا يستحق الإهانة .. وأخيراً جرى المقدّر الذي يعرفه القريب والبعيد . وأشرنا اليه فيما سبق .

وفي كتاب « عبقرية الإسلام » للعقاد فصل البيعة: كانت حيرة علي بين التقريب والإبعاد أشد من حيرته بين الخليفة والثوار، فكان يؤمر تارة بمبارحة المدينة ليكف الناس عن الهتاف باسمه ، ويُستدعى اليها تارة ليردع الناس عن مهاجمة الخليفة .

الخطبة

- ٢٣٩ -

حول الجهاد :

وَاللَّهُ مُسْتَأْدِيكُمْ شُكْرَهُ وَمُورِثُكُمْ أَمْرَهُ ، وَنَمِهُلُكُمْ فِي مِضْمَارٍ تَحْدُودٍ
لِتَتَنَازَعُوا سَبْقَهُ . فَشُدُّوا عُقْدَ الْمَآزِرِ ، وَأَطَوْوا فَضُولَ الْخَوَاصِرِ ، وَلَا
تَجْتَمِعْ عَزِيمَةٌ وَوَلِيْمَةٌ . مَا أَنْقَضَ النَّوْمَ لِعَزَائِمِ الْيَوْمِ ، وَأَنْحَى الظُّلَمَ
لِتَذَاكِيرِ الْهِمَمِ . وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ وَعَلَى آلِهِ
مَصَابِيحِ الدُّجَى وَالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَسَلَّمْ تَسْلِيماً كَثِيراً .

اللغة :

مستأديكم : يطلب منكم الأداء . وأمره : أرضه وسلطانه . والمضمار : السباق
والمجال ، والمراد به هنا المدة والفسحة .. لتتنازعا : لتتنافسا في الخيرات .
والعقد - بضم العين - جمع العقدة . والمآزر : جمع المئزر ، وشدة العقد هنا
كناية عن الجدة . وفضول الخواصر : ما يتدلى من الثوب واللباس على القدمين .
والعزيمة : من العزم والصبر والثبات . والوليمة : لمد «الصحون» وامتلاء البطون .
والظلم - بفتح اللام - جمع ظلمة . والتذاكير : جمع التذكيرة ، وهي التي تذكرك بالشئ .

الإعراب :

شكره مفعول مستأديكم ، وأمره مفعول مورثكم ، والمصدر من لتتنازعوا متعلق بمهلكم ، وما انقض « ما » بمعنى شيء مبتدأ وانقض فعل ماضٍ ، والفاعل مستر يعود الى ما ، والجملة خبر .

المعنى :

(والله مستأديكم شكره) . يطلب سبحانه منكم أن تشكروه ، والمراد بالشكر الطاعة ، وأفضل الطاعات على الإطلاق الجهاد والتعاون لردع الطغاة عن البغي (ومورثكم أمره) . المراد بالأمر هنا أرض الله وسلطانه ، والمعنى ليس لكم - بمشيئة الله وإرادته - شيء من الدنيا والآخرة إلا بالعمل والكفاح ، ومن البداهة ان القوة شرط أساسي لكل جهاد ونضال .. وأيضاً من البداهة انه لا قوة إلا بتوحيد الصفوف والتضامن فيما بينها ، وهل قام للإسلام والمسلمين دولة وكيان إلا بالوحدة والتوحيد ؟. وهل ذهبت الأندلس من قبل ، وفلسطين من بعد إلا من تفريق الكلمة وتصديع الصفوف ؟.

(ومهلكم في مضمار محدود) أو ممدود كما في بعض النسخ ، والمعنى لا تيأسوا وتسدوا كل النوافذ وتقولوا فات الأوان .. كلا ، فإن الطريق أمامكم ، والأمد يتسع لحل ما تعانون من مشكلات ، ولا ينقصكم شيء إلا الإخلاص وصدق النية والعزم على التضحيات (فشدوا عقد المآزر ، واطووا فضول الخواصر) هذا هو ججر الزاوية : لا نصر بلا جهاد وصبر على آثاره المريرة وخسائره القاسية (ولا تجتمع عزيمة ووليمة) . هيهات أن تجمع بين الكرامة وحب الحياة ! أبداً لا حياة لقوم لا يستقبلون الموت في سبيل حريتهم بثغر باسم ، كما قال السيد الأفغاني .

نعمة النوم :

(ما انقض النوم لعزائم اليوم) . قال الشارحون في تفسيره : قد يعزم الانسان ، وهو في ساعة من ساعات النهار أن يعمل في الليل كيت وكيت .. حتى اذا جاء الليل أثر النوم ، وتبخر العزم .. وهكذا همم النهار يمحوها الليل ، وقالوا : ان غرض الإمام أن يبقى الانسان على عزمه ، ولا يتخلد للراحة والكسل .

وظاهر الكلام يتحمل هذا المعنى ، ولكن خير منه أن الإنسان في حياته يواجه الكثير من المتاعب والمصائب التي لا صبر له عليها ، فينتهي به العجز الى العزم على الخلاص منها بالهرب والفرار ، أو بارتكاب رذيلة كانتحار ونحوه .. فلماذا نام وأخذ قسطاً من الراحة هدأت نفسه ، وخفت أثقاله ، وعدل عزمه وما مضى من أفكاره . قال الفيلسوف الفرنسي « فولتير » : « ان السماء أرادت أن تعوض عما بُلينا به من محن الحياة ، فنحننا الأمل من جهة ، والنوم من جهة ثانية » . وقال الكاتب الانكليزي الشهير : « ه.ج. ويلز » : « ان النوم نعمة لا تقدر » . وفي بدر خاف الصحابة من كثرة المشركين ، فعالج سبحانه خوفهم بالنوم وما استيقظوا إلا وأنفسهم تغمرها السكينة : « اذ يغشاكم النعاس أمنة - ١١ الأنفال » أي انه تعالى ألقى النوم عليهم ليحل الأمن في نفوسهم مكان الخوف .

وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي ، وعلى آله مصابيح السجى والعروة الوثقى ، وسلم تسليماً كثيراً .

قسم الرسائل

والمراد بها ما يشمل الوصايا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرسالة

- ١ -

الى أهل الكوفة :

مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ جَبَّةَ الْأَنْصَارِ ،
وَسَنَامِ الْعَرَبِ . أَمَّا بَعْدُ فَأِنِّي أَخْبِرُكُمْ عَنْ أَمْرِ عُثْمَانَ حَتَّى يَكُونَ
سَمْعُهُ كَعْيَانِهِ . إِنَّ النَّاسَ طَعَنُوا عَلَيْهِ ، فَكُنْتُ رَجُلًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ
أَكْثَرُ اسْتِعْتَابَهُ وَأَقْلُ عِتَابَهُ ، وَكَانَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ أَهْوَنُ سَيْرِهِمَا فِيهِ
الْوَجِيفُ ، وَأَرْفَقُ حَدَاثِهَا الْعَنِيفُ ، وَكَانَ مِنْ عَائِشَةَ فِيهِ فَلْتَةٌ
غَضَبٍ فَأُتِيحَ لَهُ قَوْمٌ فَقَتَلُوهُ ، وَبَايَعَنِي النَّاسُ غَيْرَ مُسْتَكْرِهِينَ وَلَا
مُجْبَرِينَ بَلْ طَائِعِينَ مُخَيَّرِينَ . وَأَعْلَمُوا أَنَّ دَارَ الْهِجْرَةِ قَدْ قَلَعَتْ بِأَهْلِهَا
وَقَلَعُوا بِهَا ، وَجَاشَتْ جَيْشَ الْمُرْتَجِلِ وَقَامَتِ الْفِتْنَةُ عَلَى الْقُطْبِ ،
فَأَسْرِعُوا إِلَى أَمِيرِكُمْ وَبَادِرُوا جِهَادَ عَدُوِّكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

اللغة :

جبهة الأنصار : جماعتهم، والمراد بالأنصار هنا الأعوان ، لا الصحابة الأنصار.
 والمراد بالسنام الرفعة . واستعنا به : استرضاه . والوجيف : العدو بسرعة .
 والقلعة : الهفوة والبغته . وأتيح له : قُدِّر له . ودار الهجرة : المدينة . وقلعت
 بهم الدار : أخرجنهم . وقلعوا بها : خرجوا منها . وجاشت: غلت . والمرجل:
 القدر . والقطب : الذي عليه المدار .

الإعراب :

من عبد الله متعلق بمحذوف خبراً لمبتدأ محذوف، أي: هذه الرسالة كائنة أو تأتيكم
 من عبد الله ، والرسالة عطف بيان من هذه . كميانه الكاف بمعنى مثل خبر يكون،
 وأهون مبتدأ ، والوجيف خبر ، والجملة خبر كان .

المعنى :

خرج الإمام (ع) من المدينة لحرب الناكثين والقاسطين بعد أربعة أشهر من
 خلافته ، ولما انتهى الى الرّبذة - مكان بين مكة والكوفة - كتب الى أهلها هذه
 الرسالة ، وكان أبو موسى الأشعري واليها ، وشريح الكندي قاضيها من قبيل
 عثمان ، فثبط الأشعري الناس ، وحثهم شريح على المسير مع الإمام ، وقال من
 جملة ما قال : « والله لو لم يستنصر بنا لنصرناه سمعاً وطاعة » . وفي تاريخ
 ابن الأثير حوادث سنة ٣٦ : « ان عدد الذين استجابوا للإمام من أهل الكوفة
 اثنا عشر ألف رجل ورجل » . ونقل ابن الأثير عن أبي الطفيل انه قال :
 « سمعت علياً يقول : يأتيكم من أهل الكوفة اثنا عشر ألف رجل ورجل ،
 فأحصيتهم ، فزادوا رجلاً ، ولا نقصوا رجلاً » . وأيضاً نقل هذا بالحرف
 عبد الكريم الخطيب في كتابه : « علي بن أبي طالب » عن الطبري ج ٥
 ص ١٩٩ .

(إن الناس طعنوا عليه الخ) .. أي على عثمان ، وذكرنا طرفاً من هذه

المطاعن في شرح الخطبة ٣ ، ونعطف على ما سبق هذه الحكاية رواها ابن الأثير في حوادث سنة ٣٥ ، واستغرقت أكثر من صفحتين بالقطع الكبير ، وملخصها ان عثمان حين أيقن بالقتل ذهب الى بيت الإمام وقال له : يا ابن عم ، قد جاء من القوم ما ترى ، ولك عندهم قدر ، فردهم عني . فقال الإمام : وعلى أي شيء أردتهم عنك ؟ قال : على ان أعمل بما تشير . قال الإمام : كلمتك المرة بعد المرة ، وتعد وترجع وتعمل برأي مروان وغيره . قال عثمان : أنا أعصيه وأطيعك . فركب علي ومعه ثلاثون من المهاجرين والأنصار ، وردوا الناس عن عثمان . ولكن سرعان ما جاء مروان وأصحابه وأفسدوا ما أصلح الإمام ، فغضبت نائلة زوجة عثمان وأسمعت مروان ما يكره ، فرد عليها بما هو آلم وأوجع .

(وكان طلحة والزبير الخ) .. نقل الشيخ محمد عبده في تعليقه على هذه الجملة : « إن أم المؤمنين عائشة أخرجت نعلي رسول الله (ص) وقيصه من تحت ستارها ، وعثمان يخطب على المنبر ، وقالت له : هذان نعل رسول الله وقيصه لم تبل ، ولقد بدلت من دينه ، وغيّرت من سنته . وجرى بينهما كلام المخاشنة . فقالت عائشة : اقتلوا نعلنا . تشبهه برجل معروف ، « فأتيح له أي قدر له قوم فقتلوه » أي ان القوم استجابوا بقصد أو غير قصد لأمر أم المؤمنين بقتل عثمان . وتقدم الكلام عما كان منها ومن طلحة والزبير ضد عثمان في شرح الخطبة ٢٢ و ١٣٥ .

(وبايعني الناس غير مستكرهين الخ) .. تقدم مع الشرح في الخطبة ٣ والخطبة ٩٠ (واعلموا ان دار الهجرة الخ) .. خرج الإمام من المدينة متوجهاً الى العراق ، ومعه الكثير من أهل المدينة ، وفيهم العديد من المهاجرين والأنصار (وقامت الفتنة) التي أثارها الزبير وطلحة وأم المؤمنين (على القطب) أي بلغت الفتنة أشدها .

ومن المفيد أن نشير هنا الى ما قاله ابن أبي الحديد في شرح هذه الخطبة ، ويتلخص بأن أصحابه المعتزلة حكموا بهلاك أهل الجمل بكاملهم إلا من تاب ، وان عائشة تابت واعترفت للإمام بخطئها ، وسألته المذرة ، وأنها قالت : ليتني مت قبل الجمل ، ووددت ان لي من رسول الله عشرة بنين ثكلتهم كلهم ، ولم يكن الجمل . أما الزبير فقد رجع عن الحرب تائباً ، وأما طلحة فإنه قبل أن تخرج الروح منه مر به فارس ، فقال له طلحة : من أي الفريقين أنت ؟

قال من أصحاب علي أمير المؤمنين . فقال له طلحة : امدد يدك بأبيك لعلي
أمير المؤمنين ، فدها وباعه .
ونحن لا نناقش هذه الرواية ، لأنها اعتراف صريح بالخطأ ، وأيضاً لا نناقش
هذه التوبة ونردها بقوله تعالى : « وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا
حضر أحدَهم الموت قال اني تبت الآن - ١٨ النساء » . لا نرد ولا نناقش بعد
الاعتراف بالخطأ .

الرسالة

- ٢ -

أيضاً أهل الكوفة :

وَجَزَاكُمْ اللَّهُ مِنْ أَهْلِ مِصْرٍ عَنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ أَحْسَنَ مَا يَجْزِي
الْعَامِلِينَ بِطَاعَتِهِ وَالشَّاكِرِينَ لِنِعْمَتِهِ ، فَقَدْ سَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ ، وَدُعِيتُمْ
فَأَجَبْتُمْ .

المعنى :

(وجزاكم الله من أهل مصر الخ) .. الخطاب لأهل الكوفة ، ما في ذلك
ريب، لأنه جاء بعد الانتهاء من حرب الجمل وفتح البصرة . قال الشريف الرضي:
« من كتاب له (ع) اليهم بعد فتح البصرة » . وضمير « اليهم » الى أهل
الكوفة ، لأنه ذكر بعد الرسالة اليهم بلا فاصل ، ولا سبيل الى التوهم بأنه
يعود لأهل البصرة . أولاً : لأنهم أعلنوا عليه الحرب ، وانضموا مع خصومه ،
فكيف يقول لهم : (جزاكم الله أحسن ما يجزي العاملين بطاعته ، والشاكرين
لنعمة) ؟ .

ثانياً : إن الشريف الرضي نفسه قال عند الخطبة ١٣ : « بعد وقعة الجمل

قال الإمام لأهل البصرة : كنتم جند المرأة ، وأتباع البهيمة ، رَغَا فَأَجَبْتُمْ ،
وعقر فهِرْتُمْ النخ . وقال المسعودي في « مروج الذهب » : دخل الإمام البصرة
بعد وقعة الجمل ، وقد خطب خطبة طويلة ، قال فيها : يَا أَهْلَ السَّبْحَةِ ، يَا أَهْلَ
الْمُؤْتَفَكَةِ .. يَا جُنْدَ الْمَرْأَةِ النَخ . ثم قال المسعودي : وذم الإمام أهل البصرة بعد
هذا الموقف مراراً كثيرة .

الرساله

- ٣ -

شريح والدار :

بَلَّغَنِي أَنَّكَ ابْتَعْتَ دَارًا بِثَمَانِينَ دِينَارًا وَكَتَبْتَ كِتَابًا وَأَشْهَدُ فِيهِ
شُهُودًا ، فَقَالَ شُرَيْحُ : قَدْ كَانَ ذَلِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ . قَالَ فَنَظَرَ
إِلَيْهِ نَظَرٌ مُغْضَبٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ : يَا شُرَيْحُ ، أَمَا إِنَّهُ سَيَأْتِيكَ مَنْ لَا يَنْظُرُ
فِي كِتَابِكَ ، وَلَا يَسْأَلُكَ عَنْ بَيِّنَتِكَ حَتَّى يُخْرِجَكَ مِنْهَا شَاخِصًا ،
وَيُسَلِّمَكَ إِلَى قَبْرِكَ خَالِصًا . فَاَنْظُرْ يَا شُرَيْحُ لَا تَكُونُ ابْتَعْتَ هَذِهِ
الدَّارَ مِنْ غَيْرِ مَالِكَ ، أَوْ تَقَدَّتِ الثَّمَنَ مِنْ غَيْرِ حَلَالِكَ فَإِذَا أَنْتَ
قَدْ خَسِرْتَ دَارَ الدُّنْيَا وَدَارَ الْآخِرَةِ . أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي عِنْدَ
شِرَائِكَ مَا أَشْتَرَيْتَ لَكَ كِتَابًا عَلَى هَذِهِ النُّسخَةِ فَلَمْ تَرْغَبْ
فِي شِرَاءِ هَذِهِ الدَّارِ بِدِرْهَمٍ فَمَا فَوْقُ . وَالنُّسخَةُ : هَذَا مَا أَشْتَرَى
عَبْدٌ ذَلِيلٌ مِنْ عَبْدٍ قَدْ أَزْعَجَ لِلرَّحِيلِ ، أَشْتَرَى مِنْهُ دَارًا مِنْ دَارِ

الْعُرُورِ مِنْ جَانِبِ الْفَانِينَ ، وَخِطَّةِ أَهْلَالِكِينَ ، وَيَجْمَعُ هَذِهِ الدَّارَ
 حَدُودُ أَرْبَعَةٍ : الْحَدُّ الْأَوَّلُ يَنْتَهِي إِلَى دَوَاعِي الْأَفَاتِ ، وَالْحَدُّ الثَّانِي
 يَنْتَهِي إِلَى دَوَاعِي الْمُصِيبَاتِ ، وَالْحَدُّ الثَّلَاثُ يَنْتَهِي إِلَى الْهَوَى الْمُرْدِي ،
 وَالْحَدُّ الرَّابِعُ يَنْتَهِي إِلَى الشَّيْطَانِ الْمُغْوِي ، وَفِيهِ يُشْرَعُ بَابُ هَذِهِ الدَّارِ .
 اشْتَرَى هَذَا الْمُغْتَرُّ بِالْأَمَلِ مِنْ هَذَا الْمُرْزَعِ بِالْأَجَلِ هَذِهِ الدَّارَ
 بِالْخُرُوجِ مِنْ عِزِّ الْقَنَاعَةِ وَالْدُّخُولِ فِي ذُلِّ الطَّلَبِ وَالضَّرَاعَةِ ، فَمَا
 أَدْرَكَ هَذَا الْمُشْتَرِي فِيمَا اشْتَرَى مِنْ دَرَكٍ فَعَلَى مُبْلِلِ أَجْسَامِ الْمُلُوكِ ،
 وَسَالِبِ نَفُوسِ الْجَبَابِرَةِ ، وَمُزِيلِ مُلْكِ الْفَرَاغَةِ ، مِثْلٍ كِشْرَى
 وَقَيْصَرَ ، وَتُبَّعٍ وَخَمِيرٍ ، وَمَنْ جَمَعَ أَلْمَالِ عَلَى أَلْمَالٍ فَأَكْثَرَ ، وَبَنَى
 وَشَيْدَ وَذَخَرَ ، وَنَجَّدَ وَأَدَّخَرَ ، وَاعْتَقَدَ وَنَظَرَ بِرِغْمِهِ لِلْوَلَدِ —
 إِشْخَاصَهُمْ جَمِيعاً إِلَى مَوْقِفِ الْعَرَضِ وَالْحِسَابِ ، وَمَوْضِعِ الثَّوَابِ
 وَالْعِقَابِ . إِذَا وَقَعَ الْأَمْرُ بِفَضْلِ الْقَضَاءِ « وَخَيْرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ »
 شَهِدَ عَلَى ذَلِكَ الْعَقْلُ إِذَا خَرَجَ مِنْ أَسْرِ الْهَوَى وَسَلِمَ مِنْ عِلَاقِ
 الدُّنْيَا ، .

اللغة :

ابْتَعَتْ : اشترت . وشاخصاً : ذاهباً . وخالصاً : مجرداً . وأزعج : سيق .
 والخطبة : الشأن أو تخطيط الأرض المعدة للبناء . والضراعة : الدلة . ودرك — بفتح
 الراء — التبعة . ومبيلل الأجسام : المثير والمهيج لأدوائها وأسقامها . وتُبَّعٍ وخمير :
 من ملوك اليمن .

الإعراب :

أما للتنبيه وافتتاح الكلام ، وشاخصاً حال من كاف الخطاب ، ومثله خالصاً .
فما أدرك «ما» شرطية بدليل دخول الفاء على جوابها وهو « فعلى مببل الخ » ،
وفيما اشترى « ما » اسم موصول و « منه » الضمير يعود على «ما» ومن درك
«من» بيان لاسم الموصول أي من ضمان الذي اشتراه ، وعلى مببل خبر مقدم ،
ولشخصهم مبتدأ مؤخر ، وجميعاً حال من الضمير في إشخاصهم ، وإلى موقف
متعلق بإشخاصهم .

المعنى :

شُريح تابعي ، وليس بصحابي ، أدرك عصر النبي (ص) وما رآه ، واستعمله
الحليفة الثاني قاضياً على الكوفة ، واستمر في هذا المنصب أكثر من ستين سنة
حيث عاش مئة أو تزيد ستاً ، ومات في خلافة عبد الملك ، وكان ذا بديهة
وذكاء ، مخاصم لديه رجلا ، فتكلم المدعى عليه بما يشكل اعترافاً بدعوى خصمه
من حيث لا يشعر ، فأدانه شريح ، ولما سأله : من الذي شهد عليه قال له
شريح : شهد عليك ابن أخت خالتك .. وجاءته امرأة تبكي وتظلم ، فما رق لها ،
ولما عوتب قال : إن اخوة يوسف جاءوا أباهم عشاء ييكون .

وفي « الأغاني » ج ١٦ ص ٣٦ الطبعة القديمة : إن الإمام فقد درعاً ، ثم
رآها مع يهودي ، فقال له : هذه درعي سقطت مني يوم كذا وكذا . فقال
اليهودي : ما أدري ما تقول ، وبينني وبينك قاضي المسلمين ، فانطلق معه الإمام
إلى قاضيه شريح ، ولما رآه قام له من مجلسه ، فقال له الإمام : مكائك ،
فجلس وقال لليهودي : ما تقول ؟ قال : درعي في يدي ، فطلب القاضي
البينة من الإمام ، فاستشهد بولده الحسن ومولاه قنبر . فقبل شريح شهادة المولى
لسيده ، ورد شهادة الولد لوالده . قال له الإمام : أما سمعت حديث رسول
الله (ص) « الحسن والحسين سيديا شباب أهل الجنة ؟ » . قال شريح : اللهم
نعم . وبالرغم من ذلك تنازل الإمام عن الدرع تنفيذاً لحكم قاضيه .

فأكبر اليهودي ما رأى وقال : أمير المؤمنين مشى معي إلى قاضيه ، فقضى

عليه ورضي ، ثم قال اليهودي للإمام : صدقت ، انها درعك ، سقطت منك في اليوم الذي ذكرتَ عن جمل أورك - أي رمادي اللون - فالتقطتها ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله . فسرَّ الإمام بإسلامه وقال : الدرع لك ومعها هذا الفرس ، وقد فرضت لك ٩٠٠ درهم . ولم يزل مع الإمام حتى قتل يوم صفين .. وقد كفانا اليهودي المسلم عن الكلام حول هذه المنقبة والفضيلة .

وقال الشريف الرضي : إن شريحاً قاضي أمير المؤمنين (ع) اشترى على عهده داراً بثمانين ديناراً ، فبلغه ذلك فاستدعاه وقال : (بلغني انك ابتعت داراً الخ) . كان الإمام شديداً على عماله وقضاته ، وعلى كل من يأتمنه على عمل ، وكانت مواعظه اللافحة تلهب قلوبهم وأرواحهم خشية الخيانة أو التقصير .. ومن هنا قال من لا يفهم إلا بلغة صكوك البيع والشراء ، قال : علي لا يحسن السياسة .. أجل ، انه لا يحسن ، بل لا يستطيع إطلاقاً أن يخون أمانة الله وعياله الله . وبأني قوله لبعض عماله : ان عملك ليس لك بطعمة ، ولكنه أمانة في عنقك .

(فانظر يا شريح لا تكون ابتعت هذه الدار من غير مالك الخ) .. لا بأس عليك أبداً أن تشتري أو تبني بكد اليمين ، اما أن تسكن أو تأكل أو تلبس على حساب الآخرين فإنك تلهو به قليلاً ، وفي النهاية وبال عليك وخسران (اما انك لو كنت اتيتني الخ) .. وهذه الحدود التي ذكرها الإمام هي حدود حقيقية للدنيا لا لدار شريح وكفى ، وقد أخذها الإمام من القرآن الكريم الذي قال عن الحياة الدنيا : أنها لعب ولهو وزينة وتفاخر وزخرف وفناء ومتاع الغرور ، وان الآخرة هي دار البقاء ، وان الناجح الرابع من فاز بها لا من فرح يسيراً ، وحزن طويلاً .

(فما أدرك هذا المشتري الخ) .. المبلبل والسالب والمزبل هو ملك الموت ، ونجّد : من التجديد أي النقش والتزيين ، والمراد بالاعتقاد هنا ادخار المال لمجرد الكنز والتكديس ، ونظر للولد أي جمع له ليحيا من بعده براحة وهناء ، والمعنى ان كل من بنى جداراً من حرام ، واكتسب درهماً من غير حل - فقد أقام حجاباً بينه وبين الله ، ثم يجرده الموت من كل شيء ، ويسوقه عرياناً الى العرض على الله للحساب والجزاء تماماً كما فعل من قبل ويفعل من بعد بالجبايرة والقياصرة .

(إذا وقع الأمر بفصل القضاء الخ) .. المراد بالأمر أمر الله تعالى ، وبفصل القضاء حكمه الذي لا يرد، وعندئذ يربح ويفوز الأمين المخلص ، وينحسر ويهلك الخائن المنافق (شهد على ذلك العقل الخ) .. لحكمه بالعدل الإلهي الذي لا يستوي عنده مصير البر والفاجر ، والمؤمن والكافر .. وهل من عاقل على وجه الأرض يشك في هذا المبدأ : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » ؟ .

الرسالة

- ٤ -

جهاد أهل البغي :

فَإِنْ عَادُوا إِلَى ظِلِّ الطَّاعَةِ فَذَلِكَ الَّذِي نُحِبُّ ، وَإِنْ تَوَافَتِ الْأُمُورُ
بِالْقَوْمِ إِلَى الشُّقَاقِ وَالْعِصْيَانِ فَانْهَدِ بِمَنْ أَطَاعَكَ إِلَى مَنْ عَصَاكَ ، وَأَسْتَغْنِ
بِمَنْ أَنْقَادَ مَعَكَ عَمَّنْ تَقَاعَسَ عَنْكَ فَإِنَّ الْمُتَكَارَةَ مَغِيبُهُ خَيْرٌ مِنْ شُهُودِهِ ،
وَقُعُودُهُ أَغْنَى مِنْ نُحُوضِهِ .

اللغة :

توافت : أدت ، وقيل : تتابعت وتمت ، والأول أنسبُ بالسياق . وانهد :
انهض . وتقاعس : أبطأ . والمتكارة : الكاره ، وقيل : المتشاكل ، والمعنى قريب من الأول .

المعنى :

وصل أصحاب الجمل الى البصرة ، وعليها عامل الإمام عثمان بن حنيف ،
فكتب اليه يخبرهم ، فأجابه بقوله : (فان عادوا الى ظل الطاعة الخ) .. وان

جئحوا للسلم فاجئح لها وتوكل على الله - ٦١ الأنفال» (وان توافت الأمور الخ)، فإن أبوا إلا العنف والفتنة فاقض عليها بالجهاد ، ولا تكره عليه (فإن المتكاره مغنيه خير من شهوده) ذلك ان الجهاد الحق لا يكون ولن يكون إلا بالإيمان والعقيدة ، فقرة الإيمان وحدها تسوق الانسان الى الجهاد والاستشهاد .. وهل تاريخ الشهداء إلا تاريخ العقيدة ؟ أما الجهاد مع المشكك والمتناقل فإنه يفرق الآراء ، ويصدع الصفوف ، والنتيجة الفشل والحسران .. واذن فعدم الكاره أو المتقاعس خير من وجوده ، وغيابه خير من حضوره .

الرسالة

- ٥ -

الوظيفة أمانة لا طعمة :

وَإِنَّ عَمَلَكَ لَيْسَ لَكَ بِطُعْمَةٍ وَلَكِنَّهُ فِي عُقْنِكَ أَمَانَةٌ ، وَأَنْتَ مُسْتَرْعَى
لِمَنْ فَوْقَكَ . لَيْسَ لَكَ أَنْ تَفْتَتَ فِي رَعِيَّةٍ وَلَا تُخَاطَرَ إِلَّا بِوَيْقَةٍ ،
وَفِي يَدَيْكَ مَالٌ مِنْ مَالِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَنْتَ مِنْ خُزَّانِهِ حَتَّى
تُسَلَّمَهُ إِلَيَّ ، وَلَعَلِّي أَنْ لَا أَكُونَ شَرًّا وَلَا تِكَ لَكَ وَالسَّلَامُ .

اللغة :

الطعمة : المأكلة والارتزاق . وفتات : تستبد . ولا تخاطر : لا تقدم .

الإعراب :

بطعمة خبر ليس ، والباء زائدة واسمها ضمير مستتر يعود الى عملك و « لك »
متعلق بطعمة ، والمصدر من أن فتات اسم ليس الثانية ، وخبرها « لك » ولعلي
« ألا » « ألا » كلمتان « ان » و « لا » والمصدر المنسبك خبر لعل .

المعنى :

كان الأشعث بن قيس عاملاً على اذريجان من قبل عثمان ، ولما تولى الإمام الخلافة كتب اليه يطالبه بما في يده من أموال المسلمين ، وقال له من جملة ما قال : (وان عملك ليس لك بطعمة الخ) .. أنت موظف ، والوظيفة أمانة في عنقك لله والمسلمين ، وليست مزرعة لك ومتجراً (وأنت مسترعى لمن فوقك) . إن عليك حسياً ورقبياً ، وهو الخليفة ، يحصي عليك جميع أعمالك ، ويأخذك بها ان خنت وخالفت (ليس لك ان تفتت في رعية) أي تستبد وتستغل الرعية التي أنت لها خادم وأجير .

(ولا تخاطر إلا بوثيقة) . لا تقدم على أي عمل إلا وأنت على يقين من مكانه وصحته وفائدته ، ولديك الحجة الكافية الوافية على ذلك (وفي يدك مال من مال الله) والناس عيال الله ، وإذن فالمال لهم ولسد حاجاتهم ، وليس لك ولا للخليفة الذي هو عليك حسيب ورقيب (ولعلي الا اكون الخ) .. لقد أثبتت على عثمان الذي ولاك ، وأرجو أن تنفي علي أيضاً .. وفيه إيماء الى انه على الأشعث أن يستقيم على الطريقة وإلا رأى من الإمام ما يكره . وتكلمنا عن هذا الأشعث في شرح الخطبة ١٩ .

الرسالة

- ٦ -

البيعة لأهل الحل والمقد:

إِنَّهُ بَايَعَنِي الْقَوْمُ الَّذِينَ بَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ عَلَى مَا بَايَعُوهُمْ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَكُنْ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَخْتَارَ وَلَا لِلْغَائِبِ أَنْ يَرُدَّ، وَإِنَّمَا الشُّورَى لِلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، فَإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى رَجُلٍ وَسَمَّوْهُ إِمَامًا كَانَ ذَلِكَ لِلَّهِ رِضًى، فَإِنْ خَرَجَ مِنْ أَمْرِهِمْ خَارِجٌ يَطْعَنُ أَوْ بِدْعَةٍ رَدُّوهُ إِلَى مَا خَرَجَ مِنْهُ، فَإِنْ أَبَى قَاتَلُوهُ عَلَى اتِّبَاعِهِ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ وَوَلَّاهُ اللَّهُ مَا تَوَلَّى. وَلَعَمْرِي يَا مُعَاوِيَةَ لَئِنْ نَظَرْتُ بِعَقْلِكَ دُونَ هَوَاكَ لَتَجِدَنِي أَبْرَأَ النَّاسِ مِنْ دَمِ عُثْمَانَ، وَلَتَعْلَمَنَّ أَيُّ فِي عُزْلَةٍ عَنْهُ إِلَّا أَنْ تَتَجَنَّبَنِي فَتُجِنَّ مَا بَدَأَ لَكَ وَالسَّلَامُ.

اللغة :

تنجني : تفترني .

الإعراب :

انه الضمير للشأن ، ولعمري اللام للابتداء ، وعمري مبتدأ ، والخبر محذوف وجوباً أي قسمي ، ولئن السلام توطئة للقسم ، ولتجدني اللام في جواب القسم الساد مسد جواب الشرط .

المعنى :

بعد أن تمت البيعة للإمام كتب معاوية رسالة مع جرير بن عبدالله البجلي ، ومنها (انه بايعني القوم الخ) .. في شرح الخطبة ٣ والخطبة ٩٠ نقلنا عن المؤرخين ، ومنهم الطبري ، ان المهاجرين والأنصار وكثيراً غيرهم بايعوا الإمام بعد امتناعه وقوله : « أنا لكم وزيراً خيراً مني أميراً » وانه ما مدّ يده الى البيعة إلا بعد إلحاح الجماعة ، والصحابة في الطليعة ، ومعهم الزبير وطلحة ، وما كتب الإمام لمعاوية إلا تجنباً للفتنة .

قال عبد الكريم الخطيب في كتابه «علي بن أبي طالب» ص ٣٧٥ و٣٧٧ : « لم يكن من طبيعة علي أن يبدأ أحداً بالقتال قبل أن يبدأه ، ولم يكن يلجأ الى القتال إلا بعد أن يُنذر ويعذر .. كان يقاتل تحت هذا الشرط الذي أخذ به نفسه .. أما مقاتلوه فإنما هي الحرب عندهم يُطلب فيها الغلب والنصر بكل أسلوب ممكن ، وبكل وسيلة مسعفة ، قال ابن حزم : « في أيام علي كانت وقعة الجمل وصفين ، وعلم الناس منه كيف كان قتال أهل البغي » .

(فلم يكن للشاهد أن يختار) اذا تمت البيعة من أكرهية الصحابة ، وحضرها غيرهم — فقد لزمته وليس له أن يرفض ويعترض (ولا للغائب أن يرد) بيعة الإمام الذي بايعه الصحابة . وهذه الحجة تدمغ معاوية وأصحاب الجمل ، وتلقمهم حجراً .. انهم يعترفون بخلافة الثلاثة لأنها تمت ببيعة المهاجرين والأنصار ، وكذلك بيعة الإمام .. فكيف نقضوا هنا ما أبرموه هناك ؟ . وقال كثير من أرباب التاريخ والسير : إن بيعة أبي بكر لم يجمع الصحابة عليها ، فسعد بن عباد لم يبايع ، ولا واحد من أهله ، وكذلك بنو هاشم وأنصارهم ، وما توقف معاوية وأضرابه عن تصحيح بيعة أبي بكر لامتناع من امتنع عنها . (أنظر ما كتبناه حول التسنن والتشيع في كتاب : فلسفة التوحيد والولاية) .

(فإن خرج عن أمرهم خارج الخ) .. الضمير في أمرهم للصحابة الذين بايعوا الإمام ومن قبله ، والخارج بطعن معاوية ، والخارج يبدعة أصحاب الجمل الناكثون ، وولاه ما تولى إشارة الى قوله تعالى : « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونُصّله جهنم وساءت مصيراً - ١١٥ النساء » أي من ترك الحق واتبع الباطل أوكله سبحانه اليه وعامله بما يستحق .
(ولعمري يا معاوية لئن نظرت الخ) .. أنت تعلم براءتي من دم عثمان وبدفاعي عنه ، ولكنك تكذب مع نفسك ، وتفترى عليّ لمآرب شيطانية ، ولو كنت من المتقين لمنعتك التقوى من أساليب المكر والخداع .. فافعل ما شاء لك الهوى فإن الله بالمرصاد لكل ظالم وآثم .

وقال العقاد في « عبقرية الإمام » فصل « البيعة » : كان معاوية أقدر من الإمام على الدفاع عن عثمان ، لأنه كان والياً على الشام عزيز الجند ، يستطيع أن يرسله اليه ليحميه من الشدة اللازمة حتى ولو أبى عثمان ذلك .. أما علي فقد كان موقفه أصعب موقف يتخيله العقل في تلك الأزمة المحفوفة بالمصاعب من كل جانب .. كان الثوار يحسبونه أول مسؤول عن السعي في الإصلاح ، وكان الخليفة يحسبه أول مسؤول عن كف الثوار ، ولم يكن في العالم الاسلامي كله رجل آخر يعاني مثل هذه المعضلة التي تلقاه من جانبيه كلما حاول الخلاص منها ولا خلاص .
ثم قال العقاد : « ومع هذا صنع الإمام غاية ما يصنعه رجل متعلق بالنقيضين .. جاءه الثوار وعرضوا عليه البيعة ، فلقبهم أسوأ لقاء ، وأندرهم ان عادوا ليكونن جزاؤهم عنده جزاء المفسدين في الأرض » . ومعاوية يعرف ذلك أكثر مما يعرفه العقاد ، ولكنه يأبى إلا التجني والافتراء على الإمام .

الرسالة

-٧-

جواب الإمام معاوية :

أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ أَتَنَنِي مِنْكَ مَوْعِظَةٌ مُوَصَّلَةٌ ، وَرِسَالَةٌ نُحْبِرُهُ نَمَقَّتْهَا
بِضَّةُ لَالِكٍ ، وَأَمْضِيَّتَهَا بِسُوءِ رَأْيِكَ ، وَكِتَابُ أَمْرِيءَ لَيْسَ لَهُ بَصَرٌ
يَهْدِيهِ وَلَا قَائِدٌ يُرْشِدُهُ ، قَدْ دَعَاهُ الْهَوَى فَاَجَابَهُ ، وَقَادَهُ الضَّلَالُ
فَاتَّبَعَهُ فَهَجَرَ لَاغِطًا وَضَلَّ خَابِطًا . لِأَنَّهَا بَيْنَعَةٌ وَاحِدَةٌ لَا يُثْنَى فِيهَا
النَّظَرُ وَلَا يُسْتَأْنَفُ فِيهَا الْخِيَارُ . الْخَارِجُ مِنْهَا طَاعِنٌ ، وَالْمُرَوِّى
فِيهَا مُدَاهِنٌ .

اللغة :

موصولة : مجموعة من كل واد عصا . ومجبرة : مزينة . وأمضيتها : أجزتها
وأنفذتها . وهجر : هذى . ولاغطاً : مصوتاً . وخابطاً : سائراً بغير هدى .
والمروى : المفكر . والمداهن : المصانع .

الإعراب :

لاغطاً حال من الضمير المستتر في هجر ، ومثله ضل خابطاً ، والهاء في « لأنها » للقصة ، وبيعة خبر « أن » وبيان وتفسير للهاء .

المعنى :

(أما بعد فقد أتني منك موعظة الخ) .. اتفق الشارحون على ان الخطاب لمعاوية ، وانه جواب عن رسالة بعث بها الى الإمام ، كما هو صريح قوله : « أتني منك » واختلفوا في تحديد الرسالة التي أجاب عنها الإمام بهذا الجواب ، لأن معاوية بعث الى الإمام أكثر من رسالة .. وأنا كشارح لا أكثر وأهتم إلا ببيان ما قصد الإمام وأراد من كلماته ، ويتلخص مراده هنا ان معاوية تعسف وتكلف ، وحاول أن يقلد أهل البلاغة والفصاحة في رسائلهم ، فجاء كلامه مزيجاً من أقوال شتى ، ومعبراً عن غيه وضلاله .

(لأنها بيعة واحدة) لا تتجزأ بطبيعتها الى رضا الصحابة بها ، ورفض من عداهم لها (ولا يُشتى فيها النظر) لا تقبل الشك والمراجعة ، لأنها محكمة مبرمة (ولا يُستأنف فيها الخيار) لأنها تأباه بطبيعتها تماماً كالوفاء بالعهد ، والصدق في الشهادة ، فما لأحد أن يقول : لي الخيار في أن أفي بما عليّ ، وأشهد بما أريد (الخارج منها طاعن) من رفض ما عقده الصحابة من البيعة فقد عصى وتمرد على الحق ، وطعن على أهله (والمروى فيها مداهن) ومن تردد وأبطأ عن البيعة التي عقدها الصحابة فقد داهن ونافق ، وما قصد إلا التشويش والتخريب .

الرسالة

- ٨ -

الى جرير البجلي :

أَمَّا بَعْدُ فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي فَأَحْمِلْ مُعَاوِيَةَ عَلَى الْفَصْلِ ، وَخُذْهُ بِالْأَمْرِ
الْجَزْمِ ، ثُمَّ خَيْرُهُ بَيْنَ حَرْبٍ مُجَلِيَّةٍ أَوْ سِلْمٍ مُخْزِيَّةٍ فَإِنْ اخْتَارَ الْحَرْبَ
فَأَنْبِذْ إِلَيْهِ ، وَإِنْ اخْتَارَ السِّلْمَ فَخُذْ يَمِينَهُ وَالسَّلَامَ .

اللغة :

الفصل : الحكم القاطع لكل قول . وحرب مجلية : تجلي العدو عن موقفه ،
وتلجته الى العدول عنه . وسلم مخزية : تفرض عليه شروط العدل فيستسلم لها
مرغماً . فانبذ اليه : ارم اليه عهد السلم والأمان وأعلن عليه الحرب .

الإعراب :

والسلام مبتدأ والخبر محذوف أي عليك .

المعنى :

في شرح الرسالة السادسة قلنا : إن الإمام أرسلها لمعاوية مع جرير بن عبدالله

البحلي ، وأيضاً تقدّم في الخطبة ٤٣ : إن أصحاب الإمام أشاروا عليه بالاستعداد للحرب معاوية بعد إرساله جريراً الى الشام ، وانه أجاب بقوله : « إن استعدادي لحرب أهل الشام وجرير عندهم لإغلاق للشام .. ولكن وقت لجرير وقتاً لا يقيم بعده إلا مخدوعاً أو عاصياً » . ولما مضى الأمد المضروب كتب الإمام الى جرير هذه الرسالة ، وملخصها : لا موجب للتأخير والتطويل ، وعليك أن تنهي الأمر مع معاوية بكلمة واحدة : البيعة أو الحرب .

الرسالة

- ٩ -

النبي وقريش :

فَأَرَادَ قَوْمُنَا قَتْلَ نَبِيِّنَا وَأَنْجَتِيَا حَ أَصْلِنَا ، وَهُمْوَا بِنَا الْهُمُومَ وَفَعَلُوا
بِنَا الْأَفَاعِيلَ ، وَمَنْعُونَا الْعَذْبَ ، وَأَحْلَسُونَا الْخَوْفَ ، وَاضْطَرُّونَا إِلَى
جَبَلٍ وَغَيْرِ ، وَأَوْقَدُوا لَنَا نَارَ الْحَرْبِ ، فَعَزَمَ اللَّهُ لَنَا عَلَى الذَّبِّ
عَنْ حَوْزَتِهِ ، وَالرَّمْيِ مِنْ وَرَاءِ حُرْمَتِهِ . مُؤْمِنْنَا يَنْبَغِي بِذَلِكَ الْأَجْرَ ،
وَكَافَرُنَا يُحَامِي عَنِ الْأَصْلِ . وَمَنْ أَسْلَمَ مِنْ قُرَيْشٍ يَخْلُوُ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ
بِحِلْفٍ يَمْنَعُهُ أَوْ عَشِيرَةٍ تَقُومُ ذُونَهُ ، فَهُوَ مِنَ الْقَتْلِ بِمَكَانٍ أَمْنٍ .
وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِذَا أَحْمَرَ الْبَأْسُ وَأَنْجَحَمَ النَّاسُ قَدَّمَ
أَهْلَ بَيْتِهِ فَوْقَ بَيْتِهِمْ أَصْحَابَهُ حَرَّ السُّيُوفِ وَالْأَسِنَّةِ . فَقُتِلَ عُبَيْدَةُ بْنُ
الْحَارِثِ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَقُتِلَ خَمْزَةُ يَوْمَ أُحُدٍ ، وَقُتِلَ جَعْفَرُ يَوْمَ مُوْتَةَ .
وَأَرَادَ مَنْ لَوْ شِئْتُ ذَكَرْتُ أَسْمَهُ مِثْلَ الَّذِي أَرَادُوا مِنَ الشَّهَادَةِ ،

وَلَكِنْ آجَاهُمْ عَجَلَتْ وَمَنِيتُهُ أَجَلَتْ . فَيَا عَجَباً لِلدَّهْرِ إِذْ صِرْتُ
يُقَرَّنُ بِي مَنْ لَمْ يَسْعَ بِقَدَمِي ، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ كَسَابِقِي الَّتِي لَا يُدْبِلُ
أَحَدٌ بِمِثْلِهَا إِلَّا أَنْ يَدَّعِيَ مُدَّعٍ مَا لَا أَعْرِفُهُ ، وَلَا أَظُنُّ اللَّهَ يَغْرِفُهُ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ . وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ مِنْ دَفْعِ قَتْلَةِ عُثْمَانَ إِلَيْكَ
فَإِنِّي نَظَرْتُ فِي هَذَا الْأَمْرِ فَلَمْ أَرَهُ يَسْعُنِي دَفْعُهُمْ إِلَيْكَ وَلَا إِلَى
غَيْرِكَ ، وَلَعَمْرِي لَئِنْ لَمْ تَنْزِعْ عَنْ غَيْكِ وَشِقَاقِكَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ عَنْ
قَلِيلٍ يَطْلُبُونَكَ ، لَا يُكَلِّفُونَكَ طَلَبَهُمْ فِي بَرٍّ وَلَا بَحْرٍ وَلَا جَبَلٍ وَلَا
سَهْلٍ ، إِلَّا أَنَّهُ طَلَبُ يَسْؤُوكَ وَجِدَانُهُ ، وَزَوْرٌ لَا يَسْرُكَ لِقْيَانُهُ
وَالسَّلَامُ لِأَهْلِهِ .

اللغة :

قومنا : قريش . والاجتياح : الاستئصال . وهموا : قصدوا . والهموم :
الأحزان . والأفاعيل : الإساءات . وأحلسونا : ألزموها . وعزم : أراد .
وحوزة الله : دينه وشريعته ، وحوزة النبي : جانبه ومكانته . واحمر البأس :
اشتد القتال . ومؤتة : مكان في الشام . وسابقي : فضيلتي . ويدلي : يتوسل .
وتنزِع : تنتهي . والشقاق : الخلاف . والزور : الزائرون . واللقيان : اللقاء .

الإعراب :

العلب صفة لمفعول محذوف أي العيش العذب ، وخلق خبر من أسلم ، ومثل
الذي مفعول أراد ، فيا عجباً أي يا عجبني احضر ، وضمير انه للشأن ،
وضمير لقِيَانِهِ للزور ، وأفراده باعتبار اللفظ دون المعنى .

المعنى :

(فأراد قومنا قتل نبينا واجتياح أصلنا الخ) .. كانت قريش — قبيلة النبي وعلي — تعيش بمكة ، وتستأثر بكل الحقوق ، وما لأحد معها شيء ، ونشأ محمد (ص) فيها يتيم الأم والأب ، فكفله جده عبد المطلب سبع سنين ، ثم عمه أبو طالب ، ولما بلغ الأربعين من عمره اختاره الله لأمره ، فأنفذه في نفسه وزوجته خديجة وابن عمه علي وغلामه زيد ، ثم في نفر قليل .

ثم انتشر ذكر الرسول (ص) في بلاد العرب ، فأوجست قريش خيفة من رسالته ، ونظرت إليها كثورة تجتاح سيطرتها ، وتستأصل امتيازها من الجذور .. وإذن فلا بدع أن تحاول قريش قتل النبي ، وتعتبره العدو الألد ، وانه المعتدي والباديء . وماذا ترقب وتنتظر من قريش وغير قريش ، بل مني ومنك أيضاً إذا حاول مريد أن يسلبك كرسي الحكم ومالك من أمر ونهي — ان كان لك شيء منها — ويساوي بينك وبين من تستعبده وتستغله ، يساويك به في جميع الحقوق والواجبات ؟. أما الحق والعدل وصالح الجماعة والإنسانية والمسؤولية ، أما هذه القيم وأمثالها فكلام فارغ في مفهوم أهل القوة والثروة .

هذا ، الى ان قبيلة النبي أرادت العيش معه بسلام ، فعرضت عليه المال والسلطان على أن يتنازل عن دعوة المساواة بين الناس ، وإنصاف الضعيف من القوي ، فرفض وقال : ما جئكم لأطلب أموالكم والملك عليكم .. إنما أنا رحمة مهداة .. كلكم من آدم وآدم من تراب .. وكلمة لا إله إلا الله لا تنفصل عن كلمة الناس كلهم لإخوة وعيال الله ولا يعبدون أحداً سواه .. وافعلوا ما شئتم ، فسأصبر على أذاكم حتى يحكم الله بيني وبينكم .

ولما استأسوا منه عمدوا الى إيدائه بالقول وبالفعل ، فشنوا عليه وعلي رسالته حرب الدعايات الكاذبة والأضاليل ، ومن أراد التفصيل فليرجع الى كتب السيرة والتاريخ .. وليس النقل من دأبي إلا لضرورة ، أنا أقدرها .. آذوا النبي (ص) ونكلوا بالكثير من أصحابه، ولكن لم يبلغوا منه ما أرادوا ، فأزعموا على الخلاص منه ، وخططوا لقتله بأن يضربوه مجتمعين ضربة رجل واحد ، ويذهب دمه هدراً .. فأبى الله إلا أن يُتم نوره ولو كره الكافرون .

نحن وحوش :

وبعد ، فإن أهل القوة والثروة فعلوا الأفاعيل ضد رسول الله ، ما في ذلك ريب ، ونحن نلعنهم بعنف ، ونتقرب الى الله بلعنهم والبراءة منهم دون ان نحاسب أنفسنا وننظر الى سلوكنا .. وهل من واحد منا - إذا كان له امتياز واستعلاء - يضمن نفسه أن لا يفعل مع المصلحين ما فعله عتاة قريش مع رسول الله (ص) ؟ وأي فرق بين أبي جهل ، وبين من يبيع دينه للشيطان ولا يقيم وزناً إلا لصكوك البيع والشراء ؟ وهل يحق لأحد أن يدعي الدين والانسانية ، وهو لا يشعر بآلام من حوله وما حوله ؟ والطامة الكبرى أن لا ترى إلا همك وفريستك ، وفي الوقت نفسه تجهل دخيلتك وصفاتك . وبالتالي فنحن وحوش كاسرة ، ولكن في صورة إنسان .

(ومن أسلم من قريش خلو مما نحن فيه السخ) .. كانت قريش بطوناً وفروعاً ، وفي كل فرع منها فقراء ومستضعفون ، فإن أسلم واحد منهم كان في أمن وأمان من أذى الطغاة بعشيرته أو حلفائها وأنصارها ، أما آل البيت فقد تظاهرت عليهم قوى الشر حتى من العشيرة والأحلاف ، وفي طليعتهم عمه أبو لهب الذي نزل فيه وفي امرأته سورة خاصة ، ولولا أن يدفع الله عن نبيه بعمه أبي طالب لقضي على الاسلام ، وهو في المهد ، وقال أهل السير والتاريخ : إن أبا طالب عانى الكثير الكثير في سبيل الاسلام ونبيه ، وانه كان يستنجد بأخيه أبي لهب ، ويستثير فيه النخوة والحمية شعراً ونثراً ، ليدفع عن ابن أخيه محمد (ص) فيرفض ، بل وساهم بقسط وافر في أذى رسول الله (ص) والكيد له ، والتأليب عليه ، والسبب الأول زوجته أم جميل أخت أبي سفيان التي وصفها القرآن بحالة الخطب ، لأنها توقد نار الفتنة والبغضاء ضد رسول الله (ص).

(وكان رسول الله اذا احمر البأس الخ) .. كانت بدر المعركة الأولى للمسلمين مع المشركين ، واليها أشار سبحانه بقوله : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة - ١٢٣ آل عمران » وفيها قُتل ابن عم النبي عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب . وفي ج ٢ من « أعيان الشيعة » : « قتل الإمام في يوم بدر على اتفاق الروايات خمسة وثلاثين رجلاً من المشركين » . وقال عبد الكريم الخطيب في كتاب « علي ابن أبي طالب » ص ١٣١ وما بعدها : « حين تنفر في وجوه القتلى الذين

أضيفوا الى عليّ نرى انهم كان وجوه قريش ، وأهل العزة والقوة فيها ، كما انهم كانوا رؤوساً في الكفر ، والمحادة لله ورسوله ، وانه قلّ أن يكون بيت من بيوت قريش لم ينله سيف علي في تلك الواقعة .. انه بطلها وفارسها .

وقُتل عم النبي حمزة في معركة أحد ، والبها أشار سبحانه بقوله : «إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم — ١٥٣ آل عمران» . وقال الخطيب في ص ١٣٧ : « لقد كان لعلي في يوم أحد من الإطاحة برؤوس أئمة الكفر من قريش ما كان له في يوم بدر » . واستشهد ابن عم النبي جعفر بن أبي طالب بمؤتة ، وكان حامل الراية ، قطعت يده ، وما فر من المعركة ، وقال رسول الله (ص) : إن الله أبدله بهما جناحين يطير بهما في الجنة .

(وأراد من لو شئت ذكرت اسمه الخ) .. يشير الإمام الى نفسه ، وانه تمى الشهادة ، وتلهف عليها تماماً كما يتلهف معاوية على الحكم والسلطان ، وفي الخطبة ١٥٥ : « فقلت: يا رسول الله ، أليس قلت لي يوم أحد حيث استشهد من استشهد من المسلمين ، وحيزت عني الشهادة ، فشق ذلك عليّ » ، فقلت لي: أبشر فإن الشهادة من ورائك ، فقال لي : ان ذلك لكذلك فكيف صبرك إذن؟ فقلت : يا رسول الله ليس هذا من مواطن الصبر ، ولكن من مواطن البشري والشكر » .

(فيا عجباً للدهر ! إذ صرت يقرن الخ)..لقد بلغ من فعل الأيام وعجائبها ان يقال : علي ومعاوية ا. « هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور » ؟ قال ابن أبي الحديد : « يشير الإمام الى معاوية في الظاهر ، والى من تقدم من الخلفاء في الباطن بدليل قوله: لا بد لي أحد بمثلها » . وفي الخطبة ٣ قال الإمام بصراحة : « متى اعترض الريب فيّ مع الأول حتى صرت أقرن الى هذه النظائر » ؟. وهذا هو الشأن في كل وضع فاسد (الا ان يدعي مدع) كدباً وزوراً بأن له مثل الإمام فضيلة وجهاداً (ولا أظن الله يعرفه) حيث لا عين له ولا أثر، وعلى حد ما قال ابن أبي الحديد : هذا من باب العلم بالسلب ، لا سلب العلم .

(واما ما سألت من دفع قتلة عثمان اليك الخ) .. معاوية لا يعترف بولاية الإمام على المسلمين ، ومع هذا يُلزمه بواجبات الوالي من رد المظالم والأخذ على أيدي الظالمين تماماً كمن يقول لك : أنا لا أعترف بمعرفتك بالفقه ، ومع هذا

عليك أن تُفقه الناس ١. وقد نبهه الإمام الى هذا التناقض في بعض ما أرسله اليه ، وقال : « قد اكثرت في قتلة عثمان ، فادخل فيما دخل فيه الناس ، ثم حاكم القوم لي » ، أحملك وإياهم على كتاب الله ، أما تلك التي تريد فإنها خدعة الصبي عن اللبن في أول الفصل » .

هذا ، الى ان جاهير المسلمين هي التي قتلت عثمان لأحداث نقومها عليه ، بعد أن استعتهوه وأصر .. وهل في مقدور أحد على وجه الأرض أن يحاكم الجاهير ويقتنص منها ؟ ومعاوية يعرف ذلك ، ولكنه يكذب على نفسه .. وعلى أية حال فإن الجاهير التي يصير معاوية على القصاص منها ستأتيه بنفسها ، وتدور عليه دائرة السوء ، إن لم يرتدع عن غيه وضلاله .

وأشرنا فيما سبق الى ان معاوية تجاهل دم عثمان بعد أن تم له الحكم والأمر حتى كأنه لم يحارب علياً تحت راية قيصر عثمان ١. قال العقاد في عبقرية الإمام : « علل معاوية ثورته على الإمام بآتهامه بدم عثمان ، فاذا صنع بقاتليه حين صار الملك اليه ، ووجب عليه أن ينفذ العقاب الذي من أجله ثار واستباح القتال ؟ . انه تبع علياً فيما صنع بقاتلي عثمان .. وقد ذكره بعض الناس بدم الخليفة، وألحوا في تذكره فما زاده ذلك إلا إصراراً على الإغضاء والإعفاء » .

الرسالة

- ١٠ -

الدنيا ومعاوية :

وَكَيْفَ أَنْتَ صَانِعٌ إِذَا تَكَشَّفَتْ عَنْكَ جَلَابِيبُ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ
دُنْيَا قَدْ تَبَهَّجَتْ بِزِينَتِهَا وَتَخَدَّعَتْ بِلَذَّتِهَا . دَعَتْكَ فَأَجَبْتَهَا ، وَقَادَتْكَ
فَاتَّبَعْتَهَا ، وَأَمَرَتْكَ فَأَطَعْتَهَا . وَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَقْفَكَ وَأَقْبُ عَلَى مَا
لَا يُنْجِيكَ مِنْهُ مِجَنٌّ . فَأَقْعَسْ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ ، وَخُذْ أَهْبَةَ الْحِسَابِ ،
وَتَشْمُرْ لِمَا قَدْ نَزَلَ بِكَ ، وَلَا تُتَمَكِّنِ الْغَوَاةَ مِنْ سَمْعِكَ ، وَلَا تَفْعَلْ
أَعْمَالَكَ مَا أَغْفَلْتَ مِنْ نَفْسِكَ ، فَإِنَّكَ مُتَرَفٌ قَدْ أَخَذَ الشَّيْطَانُ مِنْكَ
مَأْخُذَهُ ، وَبَلَغَ فِيكَ أَمَلُهُ ، وَتَجَرَّى مِنْكَ تَجَرَّى الرُّوحِ وَالْدَّمِ .
وَمَتَى كُنْتُمْ يَا مُعَاوِيَةُ سَاسَةَ الرَّعِيَّةِ وَوَلَاةَ أَمْرِ الْأُمَّةِ ؟ بَعِيرٍ قَدِمَ
سَابِقٍ وَلَا شَرَفٍ بَاسِقٍ ، وَنَعُودُ بِاللَّهِ مِنْ لُزُومِ سَوَاقِي الشَّقَاوِ .
وَأَحْذَرُكَ أَنْ تَكُونَ مُتَمَادِيًا فِي غِرَّةِ الْأُمْنِيَّةِ مُخْتَلِفَ الْعَلَانِيَةِ وَالسَّرِيرَةِ .

وَقَدْ دَعَوْتَ إِلَى الْحَرْبِ فَدَعِ النَّاسَ جَانِباً وَأَخْرِجْ إِلَيَّ وَأَعْفِ
 الْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْقِتَالِ لِيَعْلَمَ أَئِنَّا الْمَرِينُ عَلَى قَلْبِهِ وَالْمُغْطَى عَلَى بَصَرِهِ ،
 فَأَنَا أَبُو حَسَنِ قَاتِلُ جَدِّكَ وَخَالِكَ وَأَخِيكَ شَدْخَا يَوْمَ بَدْرٍ ، وَذَلِكَ
 السِّيفُ مَعِيَ ، وَبِذَلِكَ الْقَلْبِ أَلْقَى عَدُوِّي ، مَا اسْتَبَدَلْتُ دِيناً ، وَلَا
 اسْتَحْدَثْتُ نَبِيّاً . وَإِنِّي لَعَلَى الْمُنْهَاجِ الَّذِي تَرَكَتُمُوهُ طَائِعِينَ وَدَخَلْتُمْ
 فِيهِ مُكْرَهِينَ . وَزَعَمْتَ أَنَّكَ جِئْتَ ثَائِراً بِعُثْمَانَ . وَلَقَدْ عَلِمْتَ
 حَيْثُ وَقَعَ دَمُ عُثْمَانَ فَاطْلُبُهُ مِنْ هُنَاكَ إِنْ كُنْتَ طَالِباً ، فَكَأَنِّي قَدْ
 رَأَيْتُكَ تَضِجُ مِنَ الْحَرْبِ إِذَا عَصَّيْتِكَ ضَجِيجَ الْجِمَالِ بِالْأَثْقَالِ وَكَأَنِّي
 بِجَمَاعَتِكَ تَدْعُونِي — جَزَعاً مِنَ الضَّرْبِ الْمُتَتَابِعِ وَالْقَصَاءِ الْوَاقِعِ
 وَمَصَارِعَ بَعْدَ مَصَارِعَ — إِلَى كِتَابِ اللَّهِ ، وَهِيَ كَافِرَةٌ جَا حِدَةً ،
 أَوْ مُبَايَعَةٌ حَائِدَةٌ .

اللغة :

جلايبب : جمع جلابب ، ضرب من اللباس . وتبهجت : صارت ذات
 بهجة وحسن . ويقفك : يُطْلَعُكَ أَوْ يَجْبِسُكَ . والمجن : الترس . وأقعس :
 تأخر . والأهبة : العدة . وشمر : اجتهد . والمترف : المتنعم . والسابق :
 الغالب . والباسق : العالي . وممادياً : مضى قدماً لا يلوي على شيء . والغرة
 — بكسر الغين — الغفلة ، وبضمها البياض في الجبهة . والمرين على قلبه : مَنْ
 طغت الذنوب على قلبه . وشَدْخَا : كسراً . واستحدث : ابتدع . والمنهاج :
 الطريق الواضح . والمراد بالحائدة هنا الناكثة .

الإعراب :

انه الضمير للشأن ، وواقف اسم يوشك ، والمصدر المنسبك من أن يقفك خبرها ، وفاعل يقفك ضمير مستتر يعود على الواقف المتأخر لفظاً والمتقدم رتبة ، لأن الأصل يوشك واقف أن يقفك ، وألاً كلمتان : «ان» الشرطية و «لا» النافية ، وجانباً نصب على الظرفية ، ومكرهين حال ، وكذا ثائراً ، وجزعاً مفعول من أجله لتدعوني وليس تمييزاً كما توهم بعض الشارحين ، والى كتاب الله متعلق بتدعوني .

المعنى :

كتب الإمام الى معاوية من جملة ما كتب : (وكيف أنت صانع الخ) .. لا تحذعنك ما أنت فيه من شهوات وملذات ، فإن الموت أمامك ، وما بعده أدهى وأمر ، فبادر العمل قبل الأجل إن كنت حقاً من المؤمنين ، ولا تصبغ لمن يغريك بما يرديك .. والإمام يعلم ان معاوية وهب حياته لندياه ، وانه لا يردعه عنها أي رادع ، ولكن يقيم عليه الحجة وكفى ، والدليل على معرفة الإمام بحقيقة معاوية ويأسه منه قوله : (فإنك مترف قد أخذ الشيطان منك مأخذه ، وبلغ فيك مأمله ، وجرى منك مجرى الروح والدم) . وكلمة «ترف» تشير الى ان المرء كلما أسرف في الملذات ازداد بعداً عن الروحيات ، وتحكمت فيه الأهواء والشهوات ، وكفى شاهداً على ذلك قوله تعالى : « إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى - ٦ العلق » .

(ومتى كنتم يا معاوية ساسة الخ) .. لا ريب ان أبا سفيان كان زعيماً ، ولكنه كان زعيم الشرك والجاهلية الجاهلاء ، ورئيس البغي والعدوان .. قاد الجيوش ضد الاسلام وضد نبي الرحمة ، وضد كل عدل وخير ، ولما قهره الاسلام استسلم للقوة .. وفي ذات يوم نظر أبو سفيان الى رسول الله (ص) نظرة حائرة ، وقال في نفسه : ليت شعري بأي شيء غلبني محمد ! فأدرك الرسول ما يحاك في صدره ، وضرب بكفه بين كتفيه وقال له : بالله غلبتك يا أبا سفيان . ولما قامت دولة الأمويين باسم الاسلام ، وسنحت الفرصة عادوا الى طبيعتهم وجاهليتهم الأولى . وبناء على هذا يكون مراد الإمام من السيادة وفيها عن أمية

السيادة الحقّة العادلة لا سيادة البغي والعدوان ، ويومئ الى ذلك قوله : (ونعوذ بالله من لزوم سوابق الشقاء) أي سوابق الأسواء كزعامة أمية التي هي شر وبلاء. واذن فعلى معاوية أن ينجل من زعامة أبيه لا أن يفخر بها ويعتز، وهل في حرب الرسول الأعظم (ص) فخر ومجد ؟.

(واحذر أن تكون الخ) .. زعامتك يا معاوية كزعامة أبيك فساداً وضللاً مع فارق واحد ، وهو ان أباك كان حرباً على الاسلام جهرة وبلا رياء ، وأنت حرب على الاسلام في الواقع ، وسلم له في الظاهر .

(وقد دعوت الى الحرب فدع الناس الخ) .. في كتاب «الإمامة والسياسة» لابن قتيبة ص ١٠٦ وما بعدها طبعة ١٩٥٧ ما نصه : « قال علي لمعاوية : علام يقتتل الناس ؟ .. أبرز إليّ ودع الناس ، فيكون الأمر لمن غلب . قال ابن العاص لمعاوية : أنصفك الرجل . فقال معاوية : طمعت فيها يا عمرو ! قال ابن العاص : أتجن عن علي وتتهمني ؟ . والله لأبارزن علياً ولو مت ألف موة . فبارزه عمرو ، وطعنه علي فصرعه ، فأنقاه عمرو بعورته ، فانصرف عنه علي حياً وتكرماً وتنزهاً .

(فأنا أبو حسن قاتل جدك) وهو عتبة بن ربيعة أبو هند أم معاوية ، برز اليه يوم بدر عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، واشترك الإمام في قتله (وأخيك) وهو حنظلة بن أبي سفيان ، برز اليه حمزة ، واشترك الإمام في قتله (وخالك) هو الوليد بن عتبة بن ربيعة قتله الإمام (شدخاً) كسرت رؤوسهم ، وفصلتها عن أجسامهم (وذلك السيف معي) . أنا من تعلم يا معاوية ما غيرت ولا بدلت إيماناً وعزماً وجهاداً (واني لعلی المنهاج الذي تركتموه الخ) .. قال الشيخ محمد عبده : « المنهاج هو طريق الدين الحق لم يدخل فيه أبو سفيان ومعاوية إلا بعد الفتح كرهاً » . وقال طه حسين في كتاب « مرآة الإسلام » : « عند الفتح قال أبو سفيان : لا إله إلا الله ، وأظهر التردد في الشهادة بأن محمداً رسول الله ، ولكنه اضطر آخر الأمر أن يعلنها » .

(وزعمت أنك جئت ثائراً بدم عثمان الخ) .. وكل الناس يعرفون انك ما حملت قميص عثمان ، وحاربت تحت رايته إلا الحاجة في نفسك ، وأنت جعلت هذا القميص مثلاً لكل مكر وخداع على مدى الأيام ، ولو كنت حقاً تطلب بدم عثمان لطلبته من أصحاب الجمل ، ومن نفسك أيضاً ، لأنك خذلته ، وأنت

قادر على نصرته .

وقرأت كلمة في جريدة « الجمهورية المصرية » تاريخ ٢٥ - ١١ - ١٩٧٠
 لكاتب مصري، اسمه علي الدالي ، تكلم بوحى التاريخ وبعيداً عن كل ميل وتعصب،
 ومما جاء في هذه الكلمة : « بدأ معاوية بتعكير الماء في عهد عثمان حتى يحقق
 أغراضه ، فتقوم القوضى في البلاد ، ولا تجتمع كلمة المسلمين ، وبذلك يقفز
 الى السلطة .. ويقضي على الشورى ، ويجعل الخلافة كسروية إرثاً لأولاده، ولبنى
 أمية السادة » .

(فكأنى قد رأيتك تضج من الحرب الخ) .. يشير الإمام بهذا الى ما سيحدث
 لمعاوية وجيشه في صفين من الضعف واللجوء الى المكر والخديعة برفع المصاحف.
 قال الشيخ محمد عبده : « تفرّس الإمام فيما سيكون من معاوية وجنده ، وكان
 الأمر كما تفرّس » . وقال ابن أبي الحديد : « إما أن يكون قوله هذا فراسة
 نبوية صادقة، وهو عظيم، وإما أن يكون إخباراً عن غيب مفصل، وهو أعظم وأعجب » .
 (وهي كافرة جاحدة الخ) .. هي تعود الى جماعة معاوية ، والمعنى ان منهم
 من يضمّر الكفر ويظهر الاسلام، ومنهم من بايع الإمام ونكث وحارب مع أهل الجمل
 بالبصرة ، ثم مع معاوية بصفين ، وكلا الفريقين لا يؤمن بالقرآن ولا يعمل به ،
 ولكن يتخذ منه وسيلة وأداة لأغراضه وآثره .

الرسالة

- ١١ -

فن الحرب :

فَإِذَا نَزَلْتُمْ بَعْدُ أَوْ نَزَلَ بِكُمْ فَلْيَكُنْ مُعَسْكَرُكُمْ فِي قُبَيْلِ الْأَشْرَافِ
أَوْ سِفَاحِ الْجِبَالِ ، أَوْ أَثْنَاءِ الْأَنْهَارِ كَيْمَا يَكُونَ لَكُمْ رِذَا وَدُونَكُمْ
مَرَدًّا . وَلْتَكُنْ مُقَاتِلَتُكُمْ مِنْ وَجْهِ وَاحِدٍ أَوْ اثْنَيْنِ . وَاجْعَلُوا لَكُمْ
رُقْبَاءَ فِي صِيَاصِي الْجِبَالِ وَمَنَاكِبِ الْهَضَابِ لِئَلَّا يَأْتِيَكُمُ الْعَدُوُّ مِنْ
مَكَانٍ خَفَاءٍ أَوْ أَمْنٍ . وَأَعْلَمُوا أَنَّ مُقَدِّمَةَ الْقَوْمِ عُيُونُهُمْ ، وَعُيُونُ
الْمُقَدِّمَةِ طَلَائِعُهُمْ . وَإِيَّاكُمْ وَالتَّفَرُّقَ ، فَإِذَا نَزَلْتُمْ فَانْزِلُوا جَمِيعًا ، وَإِذَا
ارْتَحَلْتُمْ فَارْتَحِلُوا جَمِيعًا ، وَإِذَا غَشِيَكُمُ اللَّيْلُ فَاجْعَلُوا الرِّمَاحَ كَفَّةً ،
وَلَا تَذُوقُوا النَّوْمَ إِلَّا غَرَارًا أَوْ مَضْمَضَةً .

اللغة :

المعسكر : موضع العسكر . والأشراف : الأماكن العالية . وقبيلها : ما استقبلك

منها . وسفاح الجبال - بكسر السين - أسافلها . وأثناء الأنهار : ما انعطفت منها .
والردء - بكسر الراء - العون . والمرد : من الرد والدفع . والصياصي : الأعالي .
والمناكب : المرتفعات . والهضاب : الجبال . والكفة - بكسر الكاف - المستديرة .
وغراراً : قليلاً أو خفيفاً . ونوم المضحضة : أن تنام ثم تستيقظ ثم تنام ، تماماً
كما تأخذ الماء بفمك ثم ترميه .

الإعراب :

إياكم والتفرُّق «إياكم» مفعول لفعل محذوف وجوباً أي إياكم احذُّر ، وجميعاً
حال ، وغراراً صفة لمفعول مطلق محذوف أي ذوقاً غراراً .

المعنى :

ليست الحرب مجرد رجال وسلاح .. انها عدة وعدد ، وتخطيط ودهاء ،
وتحصين وتمويه ، وهجوم وانسحاب ، ومناورات واستنزاف طاقات .. الى غير
ذلك من الأسباب التي لا بد منها للانتصار وكسب المعركة ، وقد أشار الإمام في
وصيته هذه لبعض جنوده ، أشار الى طوف من هذه الأسباب :

١ - أن ينزلوا في مكان حصين يأمنون فيه مباغطة العدو ، وإليه أشار بقوله :
(فليكن معسكركم في قُبَيْلِ الأَشْرَافِ) أي في مكان مرتفع يحمي ظهوركم ،
وتشرفون منه على العدو (أو سفاح الجبال ، أو أثناء الأنهار) أو في مكان
منخفض كسفح جبل ، أو ما يجري مجرى الخنادق بحيث لا يراكم العدو ، ولا
تصل سهامه اليكم وضرباته لكم عن بعد .

٢ - أن يقاتلوا العدو كفرقة واحدة أو فرقتين على الأكثر حسبما تستدعيه
الظروف ، لأن توزيع القوة يعرضها للخطر ، وتوحيدها أدعى للنصر . وأشار
الإمام الى ذلك بقوله : (ولتكن مقاتلتكم من وجه واحد أو اثنين) .

٣ - ان يتابعوا أخبار العدو ، ويتجسسوا على قوته وتحركاته ، لأن عمليات
الاستطلاع هي التي تقرر نتيجة الحرب ، والذي لا يعرف شيئاً عن عدوه يقاتله ،
وهو مغمض العينين . والى هذا أشار بقوله : (واجعلوا لكم رقباء الخ) .

٤ - ان يكونوا في آرائهم وأفعالهم ، وفي حلهم وترحالهم كرجل واحد ، فإن ذلك يبعث الهيبة والرعب في نفس العدو ، ويجنب العسكر الكثير من المخاطر. وهذا ما أراده بقوله : (ولما كم والتفرق) .

٥ - أن يقيموا عليهم في الليل حراساً ، وان يكون سلاحهم معداً ومهيئاً ، وأن لا يناموا إلا بقدر الحاجة والضرورة كيلا يهاجمهم العدو بغتة ، وهم لا يشعرون . واليه أوماً بقوله : (وإذا غشيكم الليل) .

وبعد فإن هذه الوصايا أو التعليمات أفضل ما يمكن أن يوجهه قائد لرجاله وجنوده في العصر القديم والحديث .

الرسالة

- ١٢ -

لا تقاتلن إلا من قاتلك :

إِتَّقِ اللَّهَ الَّذِي لَا بُدَّ لَكَ مِنْ لِقَائِهِ وَلَا مُنْتَهَى لَكَ دُونَهُ .
وَلَا تُقَاتِلَنَّ إِلَّا مَنْ قَاتَلَكَ . وَسِرِّ الْبَرِّدَيْنِ . وَغَوَّزِ النَّاسِ . وَرَفَّةِ
بِالسَّيْرِ . وَلَا تَسِرْ أَوَّلَ اللَّيْلِ ، فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَهُ سَكَنًا وَقَدْرَهُ مُقَامًا
لَا ظَنُّنَا . فَأَرِخْ فِيهِ بَدَنَكَ وَرَوْحَ ظَهْرِكَ . فَإِذَا وَقَفْتَ حِينَ
يَنْبَطِحُ السَّحَرُ أَوْ حِينَ يَنْفَجِرُ الْفَجْرُ فَسِرْ عَلَى بَرَكََةِ اللَّهِ . فَإِذَا لَقِيتَ
الْعَدُوَّ فَقِفْ مِنْ أَصْحَابِكَ وَسَطًا ، وَلَا تَدْنُ مِنَ الْقَوْمِ دُنُوًّا مَنْ
يُرِيدُ أَنْ يُنْشِبَ الْحَرْبَ ، وَلَا تَبَاعِذْ عَنْهُمْ تَبَاعِذَ مَنْ يَهَابُ الْبَأْسَ
حَتَّى يَأْتِيَكَ أَمْرِي ، وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ شَنَاْنُهُمْ عَلَى قِتَالِهِمْ قَبْلَ دُعَائِهِمْ
وَالْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ .

اللفة :

البردين : الغداة والعشي حيث يكون الوقت بارداً . وغور بالناس : انزل بهم في الغائرة أي في نصف النهار وقت شدة الحر . ورفه : خفف وهون . والظعن : السفر . وروح الإبل : ردها الى المراح . وينبطح : ينبسط . والشنان البغضاء . والإعدادار : رفع الملامة .

الإعراب :

لا تقاتلن مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد ، ومجله الجزم بلا الناهية ، والبردين نصب على الظرفية : ولا ظعنأ «لا» عاطفة ، وسطاً صفة لمحدوف أي موقفاً وسطاً ، وقبل متعلق بقتالهم .

المعنى :

(ولا تقاتلن إلا من قاتلك) الخطاب لقائد المحاربين ، وهو معقل بن قيس الرياحي ، وكان الإمام قد أنفذه الى الشام في ثلاثة آلاف مقاتل .. وهذا هو الإسلام ، لا عدوان إلا على من اعتدى ، فلكل إنسان - كائناً من كان - حرمة المحرومة حتى ينتهك هو حرمة بيده بعدوانه على حرمة غيره (وسر البردين الخ) .. لا تسر في الهاجرة، ولا تسرع الخطو وقت المسير ، ولا تسافر في الليل لأنه للراحة، ولا تتعب نفسك وجندك ودوابك . والغرض الرفق بالإنسان والحيوان (فإذا وقفت) أي تهيأت للسفر فسر (حين ينبطح السحر) أي ينبسط ويمتد ، والسحر قبيل الفجر (أو حين ينفجر الفجر) يطلع وينشق .

(فإذا لقيت العدو فقف من أصحابك وسطاً) اذا دارت رحى الحرب فكن في قلب الجيش لا في المقدمة ولا في المؤخرة حيث يكون المقاتلون جميعاً بالنسبة اليك على سواء ، يمكنك أن تلقي اليهم الأوامر ، ويمكنهم مراجعتك فيما أهمهم (ولا تدن من القوم) أي جيش العدو (دنو من يريد أن ينشب الحرب) على كل حال (ولا تباعد عنهم) الى حيث يشعرون بأنك خائف منهم ..

وتجدر الإشارة الى أن هذه التعاليم الحربية تتفق مع أيام زمان حيث لا صواريخ
وألغام برية وبحرية .

(ولا يحملنكم شئناهم الخ) .. لا يجوز البطش وابتداء القتال إطلاقاً ، ومهما
تكن الأسباب إلا بعد التفاوض ، والياس من السلم العادل ، لأن الإسلام دين
السلم لا دين الحرب والعدوان ، ودين الاخوة والمساواة لا دين عبيد وسادات .

الرسالة

- ١٣ -

حول مالك الأشتر:

وَقَدْ أَمَرْتُ عَلَيْكُمْ وَعَلَى مَنْ فِي حَيْزِكُمْ مَالِكُ بْنُ الْحَارِثِ الْأَشْثَرُ
فَاسْتَمِعَا لَهُ وَأَطِيعَا ، وَأَجْعَلَا دِرْعًا وَمِجَنًّا ، فَإِنَّهُ يَمُنُّ لَا يُخَافُ وَهَنُهُ
وَلَا سَقَطَتُهُ وَلَا بُطُوهُ عَمَّا الْإِسْرَاعُ إِلَيْهِ أَحْزَمُ ، وَلَا إِسْرَاعُهُ إِلَى مَا
الْبُطْءُ عَنْهُ أُمَثَلُ .

اللغة :

في حيزكما : في إمرتكما . والمجن : الترس . والوهن : الضعف . والسقطة :
الغلطة . واحزم : أولى ، والحازم : العاقل المجرب . والأمثل : الأفضل .

المعنى :

قالوا : إن الإمام بعث اثني عشر ألف مقاتل كمقدمة الى أهل الشام ، وأمر
عليهم زياد بن النضر وشريح بن هاني ، ثم دعت الأسباب الى أن يرسل مالك

الأشتر أميراً على هذا الجند ، فكتب الى زياد وشريح : (وقد أمرت عليكما الخ) . قال ابن أبي الحديد : « الأشتر هو مالك بن الحارث بن عبد يغوث .. وكان فارساً شجاعاً ، ومن عظماء الشيعة ، شديد التحقيق بولاء أمير المؤمنين ونصره » ثم ذكر ابن أبي الحديد طرفاً من فضائل الأشتر ، وقال : روى المحدثون حديثاً يدل على فضيلة عظيمة للأشتر ، وهي شهادة قاطعة من النبي (ص) بأنه مؤمن ، وروى هذا الحديث ابن عبد البر في كتاب « الاستيعاب » ، حرف الجيم باب : جندب . ثم ذكر ابن أبي الحديد الحديث بكامله ، ورجعت الى « الاستيعاب » فوجدت الحديث بالحروف التي ذكرها ابن أبي الحديد ، وألخصه فيما يلي مع الحرص والمحافظة على المعنى .

ثقلت الهموم والأسقام على أبي ذر في منفاه بالربذة ، وظهرت على وجهه دلائل الموت ، فبكت أم ذر ، فنادتها أن تستودعه الله ، وتبصر الطريق ، وتخبر من يمر ليساعدها على تجهيزه ودفنه ، وتبصر أم ذر نفساً من المسلمين ، فسألنهم العون ، وأسرعوا ، وهم يقدون أبا ذر بأبائهم وأمهاتهم ، ولما دخلوا عليه قال لهم : أبشروا فلاني سمعت رسول الله (ص) يقول لنفر أنا فيهم : ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض يشهده عصابة من المؤمنين . وليس من أولئك إلا وقد هلك في قرية وجاعة ، والله ما كذبت ولا كذبت . ولو كان عندي ثوب يسعني كفناً لي ولامرأتي لم أكفن إلا في ثوب هو لي أو لها ، واني أنشدكم الله أن لا يكفني رجل منكم كان أميراً .. فكفنه رجل من الأنصار .

وقال صاحب الاستيعاب : كان الأشتر وحجر بن الأبرد مع الدين جهزوا أبا ذر ودفنوه ، والدين وصفهم رسول الله (ص) بالمؤمنين . وقال ابن أبي الحديد : حجر بن الأبرد هو حجر بن عدي الذي قتله معاوية ، وكان من أعلام الشيعة وعظماؤها .

أبو ذر وشيعة جبل عامل :

تكلمت عن أبي ذر في ج ٢ ص ٢٦٤ شرح الخطبة ١٢٨ ، والآن أعطف على ما سبق : ان أديباً جاء الى بيتي في يومي هذا ١٩ - ١١ - ١٩٧٢ وقال : ما الدليل على أن أبا ذر هو الذي بدر التشيع في جبل عامل ؟ قلت : لا شيء لدي سوى الشهرة والإشاعة . قال : أريدك أن تفكر في ذلك ، وتسجل ما

تنتهي اليه من رأي . وبعد انصرافه رأيتني أفكر فيما قال من غير قصد، وانتهيت الى ما يلي :

من الواقع الثابت باتفاق المؤرخين وأرباب السير أن أبا ذر كان يتشيع لعلي أمير المؤمنين ، ويجتهد في الدعوة اليه سرّاً وجهراً ، وأنه نُفي الى دمشق ، وان الجماهير أقبلت عليه أيما إقبال، وترددت أصداء كلماته وعظاته في جميع بلاد الشام، وكان يزداد عدد الذين يحضرون مجلسه يوماً بعد يوم ، وكان يغرس في نفوسهم الثورة على الطغاة ، وحب آل الرسول منار العلم والعدل حتى أحس معاوية ان الأرض تميد من تحته .

وكان أهل جبل عامل يقصدون دمشق في أكثر أيامهم ، يبيعون فيها ما عندهم من ناتج ، ويشترون منها حاجاتهم ، لقربها من جبلهم ، ولأنها مركز الحكم وعاصمة الإقليم ، وكان خبر أبي ذر قد انتشر في كل ناحية من نواحي الشام ، وتقصدته الناس زرافات ووحداً : فمن الجائر القريب جداً أن جماعة من العاملين الذين كانوا يكثرّون التردد على دمشق قد اجتمعوا اليه ، واستمعوا منه ، وآمنوا بكلماته وعظاته ، وبشروا بها بعد أن عادوا الى بلادهم ، فانتشر فيها التشيع عن هذا الطريق .

وإذن فليس من الضروري - في إسناد التشيع - بجبل عامل الى أبي ذر - أن يذهب هو بنفسه الى هذا الجبل ، فإن أكثر الرسائل والأفكار تنتشر عن طريق النقباء والسفراء ، كما انتشر الاسلام وغير الاسلام . ثم تفرع عن النواة التي غرسها أبو ذر ، أو عن شجرتها بطريق أو بآخر - اثنا عشر فرعاً أي إماماً . وليس ذلك من قصدنا في هذا المقام ، وإنما الغرض الأول والأخير هو أن نثبت لإمكان نسبة التشيع من حيث هو في جبل عامل الى هذا الصحابي العظيم .

الرسالة

- ١٤ -

لا تقتلوا مدبراً :

لَا تُقَاتِلُوهُمْ حَتَّى يَبْدَأُوكُمْ فَإِنْ كُنُمْ بِحَمْدِ اللَّهِ عَلَى حُجَّةٍ ،
وَتَرَكُوكُمْ إِيَّاهُمْ حَتَّى يَبْدَأُوكُمْ حُجَّةً أُخْرَى لَكُمْ عَلَيْهِمْ . فَإِذَا
كَانَتِ الْهَزِيمَةُ بِإِذْنِ اللَّهِ فَلَا تَقْتُلُوا مُدْبِرًا ، وَلَا تُصِيبُوا مُعْوِرًا ،
وَلَا تُجْهِزُوا عَلَى جَرِيحٍ . وَلَا تَهَيِّجُوا النِّسَاءَ بِأَذَى وَإِنْ شَتَمْنَ
أَعْرَاضَكُمْ وَسَبَّيْنَ أَمْرَاءَكُمْ ، فَإِنَّهُنَّ ضَعِيفَاتُ الْقُوَى وَالْأَنْفُسِ وَالْعُقُولِ .
إِنْ كُنَّا لَنُؤَمِّرُ بِالْكَفِّ عَنْهُنَّ وَإِنَّهُنَّ لَبَشَرِكَاتٌ . وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ
لَيَتَنَاوَلُ الْمَرْأَةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِالْفِهْرِ أَوْ الْهِرَاوَةِ فَيُعِيرُ بِهَا وَعَقِبُهُ مِنْ
بَعْدِهِ .

اللغة :

معوراً : عاجزاً عن الدفاع يستطيع قتله كل إنسان. ولا تُجْهِزُوا : لا تقتلوا.

ولا تهيجوا : لا تثربوا . والفهر : الحجر . والهاوة : العصا .

الإعراب :

حجة أخرى خبر لترككم ، وان كان « ان » مخففة ، ومهملة عن العمل ، واللام في لتؤمنر فارقة بينها وبين « ان » النافية ، ومثلها وان كان الرجل .

المعنى :

(لا تقتلوهم حتى يبدأوكم) تقدم مثله قبل قليل في الرسالة ١٢ . وفي شرح ابن أبي الحديد عن الإمام أنه قال : ما نُصرتُ على الاقارن الذين قتلتهم إلا لأنني ما ابتدأتُ أحداً بقتال ومبارزة (فإنكم بحمد الله على حجة) وهي الآية ٩ من سورة الحجرات : (فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله) . (وترككم إياهم حتى يبدأوكم حجة أخرى) لأن البادئ هو الظالم . قال الإمام : « للظالم غداً بكفه غصة » كناية عن الندم ، وإشارة إلى قوله تعالى : « يوم يعرض الظالم على يديه - ٢٧ الفرقان » .

(فإذا كانت الهزيمة الخ) .. من العدو فدعوا من هرب وشأنه ، ولا تتعرضوا له بسوء ، وأيضاً لا تتعرضوا للعاجز الذي لا يستطيع الدفاع عن نفسه ، ولا تقتلوا جريحاً ، وإياكم والنساء وإن أسأن اليكم بالقول .. وهذه هي تعاليم الإسلام ، ولذا أسندها الإمام إلى نبي الرحمة بقوله : (وان كنا لنؤمنر - أي كان رسول الله يأمرنا - بالكف عنهن وإنهن لمشركات) . وعلق الشيخ محمد عبده على ذلك بقوله : « هذا حكم الشريعة الإسلامية ، لا ما يتوهمه جاهلونها من إباحة التعرض لأعراض الأعداء نعوذ بالله » . وقال الإمام جعفر الصادق (ع) : نهى رسول الله (ص) أن يُلقي السم في بلاد المشركين .. وعن قتل النساء والولدان في دار الحرب .. وعن الأعمى والشيخ الفاني .. وما بيّت عدواً قط في ليل .

وبالمناسبة كانت الطائرات الأمريكية في فيتنام تحلق فوق الغيوم والسحب المطارة ، وتبذر فيها المواد السامة قبل أن ينزل منها الماء حتى اذا جاء الأوان أمطرت سماً

قاتلاً .. وهذه العملية ونحوها أتلقت مليوني هكتار من الغابات بما فيها عدا
الحقول والبساتين .. قال ، عز من قائل : « وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا
عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج — ه الحج » . وعليه يحق
لنا أن نسمي هذه الحرب حرباً على الله وعدله وحكمته .

الرسالة

- ١٥ -

ما أسلموا ولكن استسلموا :

اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَفْضَتِ الْقُلُوبُ . وَمَدَّتِ الْأَعْنَاقُ . وَشَخَصَتِ الْأَبْصَارُ ،
وَنُقِلَتِ الْأَقْدَامُ ، وَأَنْصَبَتِ الْأَبْدَانُ . اللَّهُمَّ قَدْ صَرَخَ مَكْتُومُ الشَّانِ .
وَجَاشَتْ مَرَاجِلُ الْأَضْغَانِ . اللَّهُمَّ إِنَّا نَشْكُو إِلَيْكَ غَيْبَةَ نَبِيِّنَا .
وَكَثْرَةَ عَدُوِّنَا ، وَتَشَتَّتَ أَهْوَانُنَا . « رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا
بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ » . لَا تَشْتَدَنَّ عَلَيْنَا فَرَّةٌ بَعْدَهَا كَرَّةٌ ،
وَلَا جَوْلَةٌ بَعْدَهَا خَمَلَةٌ ، وَأَعْطُوا السُّيُوفَ حُقُوقَهَا . وَوَطَّئُوا لِلْجُنُوبِ
مَصَارِعَهَا وَأَذْمُرُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَى الطَّعْنِ الدَّعْسِيِّ وَالضَّرْبِ الطَّلْحَفِيِّ .
وَأَمِيتُوا الْأَصْوَاتَ فَإِنَّهُ أَطْرَدُ لِلْفَشْلِ . فَوَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ
النَّسَمَةَ مَا أَسْلَمُوا وَلَكِنْ اسْتَسْلَمُوا وَأَسْرُوا الْكُفْرَ ، فَلَمَّا وَجَدُوا
أَعْوَانًا عَلَيْهِ أَظْهَرُوهُ .

اللغة :

أفضت : وصلت . وشخصت : ارتفعت . وأنضيت : هزلت . وصرّح : انكشف . وجاشت : غلت . والمراجل : القدور . والأضغان : الأحقاد . ولا تشتدن : من الشدة والصعوبة . والمراد بالجولة هنا الهزيمة لقوله : « بعدها حملة » تماماً مثل « فرة بعدها كرة » . واذمروا : حرضوا . والدعسي : يدعس قلوب الأعداء . والطلحفي : الشديد . والنسمة : الخلق .

الإعراب :

بعدها خبر مقدم ، وكرة مبتدأ مؤخر ، ومثلها بعدها حملة ، وقال ميثم : الياء في الطلحفي للمبالغة ، وما أسلموا جواب القسم ، وهو فوالذي فلق الحبة .

المعنى :

قال الشريف الرضي : كان الإمام (ع) يقول اذا لقي العدو محارباً : (اللهم اليك افضت - الى - الأبدان) . أبداً لا هدف للإمام من الحرب إلا وجه الله وحده ، فلا لية ولا خطوة ولا كلمة ولا شيء من وراء القتال إلا رضوان الله سبحانه ، وغيظ من كفر بالله وعصاه : « ولا يطأون موطئاً يغيظ الكفار وينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح - ١٢٠ التوبة » .

ثم بيّن الإمام السبب الموجب لقتاله ، بيّنه بقوله : (اللهم قد صرّح مكنون الشنآن) لك وفارت أحقاد الجاهلية في صدور المنافقين على نبيك الكريم ، فأعلنوا الحرب من بعده على أهل بيته (اللهم إنا نشكو اليك غيبة نبينا وكثرة عدونا الخ) . وفيه إيحاء الى ان المنافقين من قريش لم يجرأوا في عهد النبي (ص) على إظهار أحقادهم على رسول الله ورسالته ، فأضمرها حتى أتيت لهم الفرصة بموت الرسول الأعظم ، فاقتصوا منه بشخص أحب الخلق الى قلبه ، وهم أهل البيت .

وفما سبق أشرنا الى ما جاء في كتاب « علي بن أبي طالب » لعبد الكريم الخطيب ص ١٤٦ ، وهو ما نصه بالحرف : « حين يُمتحن المسلمون بتلك الفتن التي أطلت برأسها بعد وفاة النبي ، وحين تقف قريش في وجه بني هاشم ، وحين تذودهم

عن الخلافة ، ثم تناولهم بسيوفها ، فتقتل شبيهم وشبابهم وصبيانهم ، وتشرد بعقائهم وحرائرهم ، وكأنها إنما تثار بهذا لقتلاها في بدر وأحد .

وقال الشريف الرضي : وكان الإمام يقول لأصحابه عند الحرب : (لا تشتدون عليكم فرة بعدها كرة) . فيه إيماء الى ان بعض أصحابه فرّوا من ميدان القتال ثم ضعب ذلك عليهم ، فحفف عنهم الإمام وقال : لا بأس بالفرار إن دعت اليه الضرورة على أن يعود الفارّ الى مكانه في الميدان ، والمهم أن يكون على نية الجهاد والتضحية .. وقد فر الصحابة عن رسول الله (ص) في أحد حتى خلص اليه المشركون ، وجرحوا وجهه الشريف ، وكسروا رباعيته ، وهشموا البيضة على رأسه ، وأيضاً فرّوا عنه يوم حنين حتى قال أبو سفيان شامتاً : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر .

(ولا جولة بعدها حملة) عطف تفسير على ما قبلها (واعطوا السيوف حقوقها) من الضرب في هام المعتدين (ووطئوا للجنوب مضارعها) أي هيئوا بضرباتهم المحكمة أماكن لسقوط الأعداء صرعى (واذمروا أنفسكم على الطعن الدعسي ، والضرب الطلحفي) حرّضوا أنفسهم على الجهاد والعزم ان تطعنوا الطعن القاتل ، وتضربوا الضرب المميت (وأميتوا أصواتكم) لا ترفعوها ، وتقدم مثل هذا والذي قبله مع الشرح في الخطبة ١٢٢ .

(فوالذي فلق الحبة الخ) .. قال المعتزلي ابن أبي الحديد : « أقسم الإمام ان معاوية وابن العاص ، ومن والاها من قريش ما أسلموا ، ولكن استسلموا خوفاً من السيف ونافقوا ، فلما قدروا على إظهار مسا في أنفسهم أظهره » . واتفق المسلمون كلمة واحدة على انه كان بين الصحابة منافقون ، لأن الله سبحانه أنزل فيهم سورة خاصة . وقال المفسرون : ان جماعة من المنافقين الذين كانوا يصلّون خلف النبي ويحاربون معه - اتفقوا على اغتياله والفتك به ، فأخبره الله عنهم فاحترز منهم ، ونزل فيهم : « وهووا بما لم ينالوا - ٧٤ التوبة » .

الرسالة

- ١٦ -

معاوية يساوم علياً :

فَأَمَّا طَلَبُكَ إِلَيَّ الشَّامَ فَإِنِّي لَمْ أَكُنْ لِأَعْطِيكَ الْيَوْمَ مَا مَنَعْتِكَ أَمْسٍ .
وَأَمَّا قَوْلُكَ إِنَّ الْحَرْبَ قَدْ أَكَلَتْ الْعَرَبَ إِلَّا حُشَاشَاتِ أَنْفُسٍ بَقِيَتْ
أَلَا وَمَنْ أَكَلَهُ الْحَقُّ فَإِلَى الْجَنَّةِ وَمَنْ أَكَلَهُ الْبَاطِلُ فَإِلَى النَّارِ . وَأَمَّا
أَسْتَوِاؤُنَا فِي الْحَرْبِ وَالرِّجَالِ فَلَسْتُ بِأَمْضَى عَلَى الشُّكِّ مِنِّي عَلَى الْيَقِينِ .
وَلَيْسَ أَهْلُ الشَّامِ بِأَحْرَصَ عَلَى الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ عَلَى الْآخِرَةِ .
وَأَمَّا قَوْلُكَ إِنَّا بَنُو عَبْدٍ مَنَافٍ فَكَذَلِكَ نَحْنُ . وَلَكِنْ لَيْسَ أُمِّيَّةٌ
كَهَاشِمٍ . وَلَا حَرْبٌ كَعَبْدِ الْمُطَّلِبِ . وَلَا أَبُو سُفْيَانَ كَأَبِي طَالِبٍ .
وَلَا الْمُهَاجِرُ كَالطَّلِيقِ ، وَلَا الصَّرِيحُ كَاللَّصِيقِ ، وَلَا الْمُحِقُّ كَالْمُبْطِلِ ،
وَلَا الْمُؤْمِنُ كَالْمُذِلِّ . وَلَيْسَ الْخَلْفُ خَلْفٌ يَتَّبِعُ سَلَفًا هَوَى فِي
نَارِ جَهَنَّمَ . وَفِي أَيْدِينَا بَعْدُ فَضْلُ النُّبُوَّةِ الَّتِي أَذَلَّلْنَا بِهَا الْعَزِيزَ وَنَعَشْنَا

بِهَا الذِّيلَ . وَلَمَّا أَذْخَلَ اللَّهُ الْعَرَبَ فِي دِينِهِ أَفْوَاجاً وَأَسْلَمَتْ لَهُ
هَذِهِ الْأُمَّةُ طَوْعاً وَكَرْهاً كُنْتُمْ يَمِّنَ دَخَلَ فِي الدِّينِ إِمَاماً رَغْبَةً
وإِمَاماً رَهْبَةً عَلَى حِينٍ فَازَ أَهْلُ السَّبْقِ بِسَبْقِهِمْ ، وَذَهَبَ الْمُهَاجِرُونَ
الْأَوَّلُونَ بِفَضْلِهِمْ . فَلَا تَجْعَلَنَّ لِلشَّيْطَانِ فِيكَ نَصيباً ، وَلَا عَلَى نَفْسِكَ
سَبِيلاً .

اللغة :

حشاشات أنفس : بقايا أنفس . والطلاق : من أطلق بعد أسر وإذلال .
واللصيق : الدعي . والمدغل : المفنن المفسد . ونعشنا : رفعنا . وأفواجاً : جماعات .

الإعراب :

خلف مبتدأ ، وهو المراد من الدم ، وخبره جملة بنس الخلف ، ويجوز أن
يكون خبراً لمبتدأ محذوف أي هو خلف ، وجملة يتبع صفة ، وأفواجاً حال ،
وطوعاً وكرهاً مصدران في موضع الحال أي طائعين وكارهين .

المعنى :

(فأما طلبك إليَّ الشام) . كتب معاوية الى الإمام ، وقال فيما قال : كنت
سألتك الشام فأبيت ، وأنا أدعوك اليوم الى ما دعوتك اليه أمس . فقال الإمام :
(فإنني لم أكن لأعطيك اليوم ما منعتك أمس) . قال الشيخ محمد عبده معلقاً
على هذا : « كتب معاوية الى عليّ يطلب منه أن يترك له الشام .. فأجابه أمير
المؤمنين بما ترى » . وقال ابن قتيبة في « الإمامة والسياسة » ص ٩٥ طبعة سنة
١٩٥٧ : « طلب معاوية من عليّ أن يجعل له الشام ومصر جباية ، فإن حضرته
الوفاة لم يجعل لأحد من بعده بيعة في عتق معاوية » . ونقل ذلك بعض الشارحين

عن « مروج الذهب » للمسعودي ، وكتاب « صفين » لنصر بن مزاحم، وكتاب « قيس الكوفي » .

ولا عجب أن يطلب معاوية الشام طعمة، ولا يحتاج طلبه هذا الى سند وإثبات، لأنه بطبعه يحمل الدليل على صحته .. فإن الذي يعطي مصر طعمة وجباية لابن العاص يطلب الشام وأكثر من الشام لنفسه طعمة وجباية .. وأيضاً لا عجب أن يرفض الإمام هذا الطلب ، لأن من حرّم أموال المسلمين على نفسه فبالأحرى أن يجرمها على غيره . وتقدم في الخطبة ١٢٤ قوله : « أتأمروني أن أطلب النصر بالجوهر .. لو كان هذا المال لي لسويت بينهم ، فكيف وإنما المال مال الله » .

وأيضاً قال معاوية في كتابه للإمام : رقت الأجناد ، وذهبت الرجال، وأكلت الحرب العرب إلا حشاشات أنفس . فقال الإمام : (ومن أكله الحق فألى الجنة، ومن أكله الباطل فألى النار) . نحن سيلم لمن سالم الحق والعدل ، وحرب على من حاربهما وعاندتهما ، ولا نساوم أبداً على دين الله ، ولا نستسلم للباطل وأهله مهما كانت الظروف ، ونستमित دون الحق ، ومن مات في نصرته فهو مع الدين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين ، ومن مات في نصرة البغي فمصييره الى النار وبئس القرار .^{٥٠}

وقال معاوية في كتابه المذكور: أنا وأنت في الحرب والرجال سواء . يشير بهذا الى أنه يفاوض الإمام، ويساومه على الشام من مكان القوة، لا من مكان الضعف . فقال الإمام: (فلست بأمضى على الشك مني على اليقين الخ) .. أما قولك عندك رجال ومحاربون فصحيح، وأما قولك نحن في الحرب سواء فبعيد عن الصواب، لمكان الفرق بين من يحارب وهو على بينة من أمره ، ويقين من حقه ، وبين من يحارب وهو على يقين بأنه كاذب ومخادع في حربه ، أو يشك — على الأقل — فالأول ينطلق من موقع العقيدة والایمان ، ويصنع الانتصارات بحجراته وتضحياته ، كأهل العراق الذين يحاربون طلباً لمرضاة الله وثوابه في دار الخلود ، والثاني ينطلق من موقع الشك ، وقلبه مغمم بالرعب، كأهل الشام الذين يحاربون معلن طمعاً بحطام الدنيا.. واذن فلا مبرر للمقارنة والمعادلة. والى مثل هذا أشار سبحانه بقوله: «وترجون من الله ما لا يرجون — ١٠٥ النساء » . وضمير المخاطب في الآية للمؤمنين ، وضمير الغائب لأعدائهم الكافرين .

وأيضاً قال معاوية للإمام في كتابه : نحن بنو عبد مناف، وليس لبعضنا فضل

على بعض . فقال الإمام : (فكذلك نحن) . تنقسم قريش الى بطون : منها بنو هاشم بن عبد مناف ، وبنو أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، والإمام هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، ومعاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف (ولكن ليس أمية كهاشم الخ) . قال الشيخ محمد عبده في تعليقه : صفات الخير كلها لبني هاشم ، وصفات الشر لبني أمية .

وقال العقاد في كتاب « أبو الشهداء » : « الهاشميون والأمويون من أرومة واحدة ترتفع الى عبد مناف، ولكن الأسرتين مختلفان في الأخلاق ، فبنو هاشم في الأغلب أرحميون ، ولا سيما أبناء فاطمة الزهراء ، وبنو أمية في الأغلب نفيعيون، ولا سيما الأصلاء منهم .. كان الهاشميون سراعاً الى النجدة ونصرة الحق والتعاون عليه ، ولم يكن بنو أمية كذلك » .

وقال أحمد عباس صالح في كتاب « اليمين واليسار » ص ١٢٢ طبعة سنة ١٩٧٢ : « لقد تربى معاوية في حجر أبي سفيان رأس القوى الرجعية في مكة ، وتربى علي في حجر النبي بكل ما تحمله النبوة من فداء وتضحية وإيجابية للخير المطلق .. إن معاوية هو القطب الأثري الكامن في الكون ، قلب السلب المطلق - أي الشر - وقد تصادم القطبان - أي علي ومعاوية - السالب والموجب بقدر ما يتيح إمكانية البشرية أن تكون سلباً مطلقاً ، أو إيجاباً مطلقاً » .

(ولا المهاجر) الى الله ورسوله وهو الإمام (كالطليق) ابن الطليق وهو معاوية (ولا الصريح) الواضح النسب (كالصديق) بغير أبيه . قال العقاد في كتاب « أبو الشهداء » : « في نسل أمية شبهة نشير إليها ولا نزيد ، فهي محل الإشارة والمراجعة في هذا المقام . دخل دغفل النسابة على معاوية فقال له : من رأيت من علي قريش ؟ قال : رأيت عبد المطلب بن هاشم ، ورأيت أمية بن عبد شمس . فقال له معاوية : صفها لي . قال : كان عبد المطلب أبيض مديد القامة ، حسن الوجه ، في جبينه نور النبوة وعز الملك .. ورأيت أمية شيخاً قصيراً نحيف الجسم ضريباً يقوده عبده ذكوان . قال معاوية : ذاك ابنه . قال دغفل : ذاك شيء أحدثتموه ، وأما الذي عرفت فهو الذي أخبرتك به) .

(ولبئس الخلف الخ) .. أنت معاوية ، تفخر بأبائك وأجدادك ، وهم وقود النار (وفي أيدينا بعد فضل النبوة الخ) .. أما الإمام فإنه يعتز بالله وبالإسلام

الذي أذل الطغاة ، ورفع من شأن المستضعفين ، وأنصفهم من الأقوياء المعتدين (ولما أدخل الله العرب في دينه الخ) .. كنتم يا معاوية ألد أعداء النبي (ص) أطلقتم حوله الشائعات والدعايات ، وجمعتم لحربه الجيوش لا شيء إلا لأنه كان مع الضعيف ضد القوي ، ومع الفقير ضد الغني ، ولما انتشر الإسلام في الجزيرة العربية وخاب منكم الأمل استسلمتم للقوة ، وقلتم : عسى أن يكون الإسلام تجارة رابحة في الحياة الدنيا .. وقد ظهرت أحقادكم على الرسول والرسالة في مقاصدك وأفعالك بعد أن اختار الله نبيه الى جواره .

وتسأل : ان بعض الناس يثنون على معاوية فما هو السر ؟.

الجواب :

جاء في تاريخ الخلفاء للسيوطي عن الإمام أحمد بن حنبل : انه سأل أباه عن علي ومعاوية ؟ فقال : اعلم ان علياً كان كثير الأعداء ، ففتش له أعداؤه عيباً فلم يجدوه ، فجاءوا الى رجل قد حاربه وقاتله فاطروه كيداً منهم لعل . وبعد أن نقل العقاد هذا الخبر في كتاب معاوية قال : « هذه دخيلة من دخائل النفس الصغيرة لا تصدر الثناء عن حب للمثني عليه ، بل حقداً على غيره ، وكثير من هذا الحقد تبعه الفضائل ، ولا تبعه العيوب . ان تاريخ معاوية لا يحتاج الى مزيد من تفصيل ، وإنما يحتاج الى تصحيح الموازين التي تؤتى من قبلها احكام الناس على الحوادث والرجال » .

الرسالة

- ١٧ -

البصرة مهبط ابليس :

أَعْلَمُ أَنَّ الْبَصْرَةَ مَهْبِطُ إِبْلِيسَ وَمَغْرَسُ الْفِتَنِ ، فَحَادِثُ أَهْلِهَا بِالْإِحْسَانِ
إِلَيْهِمْ ، وَأَحْلُلُ عُقْدَةَ الْخَوْفِ عَنْ قُلُوبِهِمْ . وَقَدْ بَلَغَنِي تَنَمُّرُكَ لِبَنِي
تَمِيمٍ وَغِلْظَتُكَ عَلَيْهِمْ ، وَإِنَّ بَنِي تَمِيمٍ لَمْ يَغِبْ لَهُمْ نَجْمٌ إِلَّا طَلَعَ لَهُمْ
آخَرُ ، وَإِنَّهُمْ لَمْ يُسَبِّقُوا بُوْغْمٍ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ . وَإِنَّ لَهُمْ بَنًا
رَحِمًا مَاسَّةً وَقَرَابَةً خَاصَّةً نَحْنُ مَأْجُورُونَ عَلَى صَلَاتِهَا وَمَأْزُورُونَ عَلَى
قَطِيعَتِهَا . فَارْتَبِعْ أَبَا الْعَبَّاسِ رَحِمَكَ اللَّهُ فِيمَا جَرَى عَلَى لِسَانِكَ وَيَدِكَ
مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ فَإِنَّا شَرِيكَانِ فِي ذَلِكَ ، وَكُنْ عِنْدَ صَالِحِ ظَنِّي بِكَ ،
وَلَا يَفِيلَنَّ رَأْيِي فِيكَ . وَالسَّلَامُ .

اللغة :

حادث : فعل أمر ، عامل أو تعهد . والتنمر : التكرار . والبوغم : الحرب والحقد .
وماسة : قرية . ومأزورون : آثمون . اربع : ارفق او قف . ويفيل : يضعف .

الإعراب :

المصدر من ان البصرة ساد مسد مفعولي اعلم ، وأبا العباس أي يا أبا العباس ، والسلام مبتدأ والخبر محذوف أي والسلام عليك .

المعنى :

قال الشريف الرضي : كان ابن عباس عاملاً للإمام على البصرة ، فأرسل إليه كتاباً قال فيه : (ان البصرة مهبط إبليس ، ومغرس الفتن) . كناية عن كثرة ما يحدث فيها من فتن وضلال ، وانها ملجأ لمن يفسد في الأرض ، ويخرج على النظام .. وفيها حدثت أول فتنة كبرى في الإسلام حيث استقبلت الجمل وأصحابه ، وحاربت تحت لوائه ، وجرأت أهل الشام على شق العصا (فحدث أهلها بالإحسان اليهم) . ارفق بهم ، وقربهم منك بالمعروف ، عسى أن يسكنوا اليك فيسمعوا ويطيعوا : « ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم - ٣٤ فصلت » .

(واحلل عقدة االخوف عن قلوبهم) . كان أهل البصرة جنود الجمل وحماة ، ولما انعقرت قوائمه ذلوا واستسلموا ، وخافوا أن يعاملهم الإمام بما يستحقون ، فأوصى عامله عليهم أن يعاملهم بالحسنى ، ويبدلهم من بعد خوفهم أمناً (وقد بلغني تنمرك لبني تميم الخ) .. لأنهم أو الكثير منهم كانوا الركن الركين للجمل وهودجه (وان بني تميم لم يغب لهم نجم الخ) .. وان مات منهم سيد قام سيد

من هو العالم ؟

(وانهم لم يسبقوا بوغم الخ) .. لم يهدر لهم دم لشجاعتهم وبأسهم على حد تفسير ابن أبي الحديد ، ونقل هذا الشارح الكثير من مآثر بني تميم وخصالهم التي « ملأت السهل والجبل » . وكان في سابق الأزمان كل من يحفظ المناقب والمثالب أو يدونها - يُعد من العلماء الأعلام . والعالم الطيب اليوم في مفهوم الواعين الطيبين هو الذي يخدم الحياة ويطورها ، ويجعلها أكثر خصباً وعدلاً وأماناً .

(وان لهم بنا رحماً ماسة) . يشير الى أن بني هاشم يلتقون بالنسب مع بني تميم في إلياس بن مضر .. ولكن الإمام قال : القريب من قربته الأخلاق .. ورب قريب أبعد من بعيد ، ورُبُّ بعيد أقرب من قريب .. ولكن هذا لا يمنع من الإحسان لمن أساء . ومن أقواله : عاتب أخاك بالإحسان اليه ، واردد شره بالإنعام عليه (ومأزورون على قطيعتها) المراد بالوزر هنا ترك الأولى والأرجح.

الموظف :

(فاربغ أبا العباس الخ) .. أنت موظف مسؤول عن الرعية ، ولا يحق لأي موظف أن يصدر عن ذاته وميوله ، لأن صفة الوظيفة تمحو الصفة الشخصية ، ومن هنا رأينا الأنبياء والمصلحين لا يدخلون في حسابهم المنافع الشخصية (إننا شريكان في ذلك) . أنت مسؤول عن لديك أمام الله والناس ، وأنا مسؤول عنك أيضاً أمام الله والناس ، لأنني مهدت لك السبيل . وبكلمة قصيرة كلانا مسؤول على أساس المهمة والوظيفة .. ولكن أولاد الحرام رؤساء ومرؤسين يتخذون من الوظيفة متجراً ومكسباً على حساب الكادحين والمستضعفين . وتكلمنا حول هذا الموضوع في شرح الخطبة ١٢٠ فقرة : حول عشاق الكراسي .

الرسالة

- ١٨ -

المعاهدون :

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ دَهَاقِينَ أَهْلَ بَلَدِكَ شَكُّوا مِنْكَ غِلْظَةً وَقَسْوَةً ، وَأَحْتِقَارًا
وَجَفْوَةً ، وَنَظَرْتُ فَلَمْ أَرُهُمْ أَهْلًا لِأَنْ يُدْتَنُوا لِشُرَكِيهِمْ وَلَا أَنْ يُفْصَوْا
وَيُجْفَوْا لِعَهْدِهِمْ ، فَالْبَسَ لَهُمْ جِلْبَابًا مِنَ اللَّيْلِ تَشْوِبُهُ بِطَرَفٍ مِنْ
الشَّدَّةِ ، وَدَاوِلَ لَهُمْ بَيْنَ الْقَسْوَةِ وَالرَّافَةِ ، وَأَمْزَجَ لَهُمْ بَيْنَ التَّقْرِيبِ
وَالْإِبْعَادِ وَالْإِقْصَاءِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

اللغة :

دهاقين : زعماء . والجلباب : ضرب من اللباس . وداول : فسره الإمام
بقوله : بين القسوة والرافة وبين الإدناء والإقصاء .

الإعراب :

دهاقين : جمع دهقان معرب أي اسم نكرة تلقته العرب من العجم ، وعليه
يكون مصروفًا .

المعنى :

(أما بعد ، فإن دهاقين أهل بلدك الخ) .. الخطاب من الإمام لبعض عماله . ولم يشر الشريف الرضي وابن أبي الحديد وميثم الى اسم هذا العامل . ويرى بعض الشارحين انه عمر بن أبي سلمة ، وأمه أم سلمة زوجة رسول الله (ص) وانه كان أميراً على فارس ، وأهلها كانوا آنذاك على الشرك . ، ومهما يكن فإن ظاهر الكلام يدل على ان نفرأ من رؤوس المشركين كان بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق شكوا الى الإمام غلظة عامله وقسوته ، فكتب اليه أن لا يسيء اليهم لمكان العهد ، ولا يذنبهم منه لمكان الشرك ، ويسلك معهم منهجاً وسطاً ، ومعنى هذا أن يدعهم وشأنهم .

وتسأل : كيف نهى الإمام عن إدناء المشركين ، والله سبحانه يقول : « لا ينهاكم الله عن الدين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبرّوهم وتقسطوا اليهم — ٨ الممتحنة » ؟ .

الجواب :

الإدناء شيء والبر والعدل شيء آخر ، فليس من الضروري اذا أحسنت وعدلت مع انسان أن تقربه اليك ، وترفع من شأنه .

الرسالة

- ١٩ -

تهديد زياد ابن أبيه :

وَلِيَّ أَقْسَمُ بِاللَّهِ قَسَمًا صَادِقًا لِّئِنْ بَلَغَنِي أَنَّكَ خُنْتَ مِنْ فِئَةِ الْمُسْلِمِينَ
شَيْئًا صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا لَا أَشُدُّ عَلَيْكَ شِدَّةً تَدْعُكَ قَلِيلَ الْوَفْرِ ثَقِيلَ
الظَّهِرِ ضَعِيفَ الْأَمْرِ . وَالسَّلَامُ .

اللغة :

الشدة - بفتح الشين - الحملة . والوفر : المال . وثقيل الظهر : من عجز
عن نفقة عياله . والضئيل : الحقير .

المعنى :

قال الشريف الرضي : كان عبدالله بن عباس عاملاً للإمام على البصرة والاهواز
وفارس ، فاستعان بزياد ابن أبيه في تدبير البصرة نيابة عنه ، ولما علم الإمام بذلك

كتب الى زياد : (واني أقسم بالله قسماً صادقاً لئن بلغني انك خنت الخ) ..
ويدل هذا بظاهره أن زياداً ما خان ، ولكن الإمام خاف من خيائته فهدده
وحذره من سوء العاقبة ان فعلها ، وانه لا يفلت من العقوبة ، وأدناها أن ينتزع
ما في يده من مال ، ويتركه فقيراً حقيراً .

الرسالة

- ٢٠ -

موعظة زياد ابن أبيه :

فَدَعَ الْإِسْرَافَ مُقْتَصِدًا ، وَأَذْكُرُ فِي الْيَوْمِ غَدًا ، وَأَمْسِكُ مِنَ الْمَالِ
بِقَدْرِ ضَرُورَتِكَ ، وَقَدِّمِ الْفَضْلَ لِيَوْمِ حَاجَتِكَ . أَتَرْجُو أَنْ يُعْطِيكَ
اللَّهُ أَجْرَ الْمُتَوَاضِعِينَ وَأَنْتَ عِنْدَهُ مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ . وَتَطْمَعُ - وَأَنْتَ
مُتَمَرِّغٌ فِي النَّعِيمِ تَمْنَعُهُ الضَّعِيفَ وَالْأَرْمَلَةَ - أَنْ يُوجِبَ لَكَ ثَوَابَ
الْمُتَصَدِّقِينَ . وَإِنَّمَا الْمَرْءُ مَجْزِيٌّ بِمَا أَسْلَفَ ، وَقَادِمٌ عَلَى مَا قَدَّمَ . وَالسَّلَامُ .

اللغة :

مقتصدًا : معتدلاً ، والفضل ما زاد عن الاعتدال . ومتمرغ في النعيم : متقلب فيه .

الإعراب :

مقتصدًا حال من فاعل « دع » وهو أنت ، وغداً مفعول به لاذكر ، لأن
الذكر حاصل اليوم لا في الغد ، والمصدر من أن يوجب مجرور بحار محذوف أي
في وجوب الثواب ، والمجرور متعلق بتطمع .

المغنى :

(فدع الإسراف الخ) .. المال وسيلة لسد حاجات المعوزين ، لا للتبذير والإسراف ، والتضاهي والتباهي ، وما زاد عن حاجة المحتاجين يُنفق في مشروع عام ، أو يُدخر للشدائد كالحرب وردد العدوان .

(أترجو أن يعطيك الله الخ) .. لكل عمل جزاؤه الخاص ، فالحسنى لمن أحسن ، والسؤى لمن أساء ، والعكس أو المساواة هنا محال في العدل الإلهي .. والمتكبر يغريه المال ويطغيه ، ويبيذه على ملذاته وشهواته ، ويمنعه عن المحرومين الذين لا عم لهم ولا خال. وجزاء هذا من عند الله عذاب الحريق. والمتواضع يرى نفسه مقصراً ومضيعاً في طاعة الله ، وإن أقبلت الدنيا عليه بلها في سبيل الله ، وازداد له شكراً ، ومنه خوفاً ، ولعباده تواضعاً . وله عند الله مثوبة وحسن مآب . وهذا ما أراده الإمام بقوله : (المرء مجزي بما أسلف) .

الرسالة

- ٢١ -

حول السرور والأسف :

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الْمَرْءَ قَدْ يَسُرُّهُ دَرَكُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيَقُوتَهُ ، وَيَسُوغُهُ قَوْتُ
مَا لَمْ يَكُنْ لِيُذِرْكَهُ . فَلْيَكُنْ سُرُورُكَ بِمَا نِلْتَ مِنْ آخِرَتِكَ . وَلْيَكُنْ
أَسْفُكَ عَلَى مَا فَاتَكَ مِنْهَا . وَمَا نِلْتَ مِنْ دُنْيَاكَ فَلَا تُكْثِرْ فِيهِ فَرَحًا .
وَمَا فَاتَكَ مِنْهَا فَلَا تَأْسَ عَلَيْهِ جَزَعًا . وَلْيَكُنْ هَمُّكَ فِيمَا بَعْدَ الْمَوْتِ .

اللغة :

الدرك - بفتح الراء - اللحاق . ولا تأس : لا تحزن .

الإعراب :

أما - بفتح الهمزة وتشديد الميم - قيل : هي حرف شرط بمعنى مهما يكن
من شيء ، وفي منظومة ابن مالك : « أما كمها يك من شيء وفا » لتأولوها
وجوباً ألفاً . وقال ابن هشام في المغني : تأتي أيضاً للتفصيل والتوكيد . ويجوز
أن تكون «أما» للشرط ويكون المعنى هكذا مهما يكن من شيء فإن المرء الخ ..

ويجوز أن تكون للتوكيد ، والمعنى يؤكد بعد حمد الله ان المرء الخ . والوجه الأول أرجح لكسر همزة « إن » . وفرحاً تمييز . وجزعاً مفعول مطلق لتأس .

المعنى :

أرسل الإمام كتاباً لابن عباس جاء فيه : (أما بعد ، فإن المرء قد يسره الخ) . ونقل الشريف الرضي عن ابن عباس انه قال : ما انتفعت بكلام بعد كلام رسول الله (ص) كانتفاعي بهذا الكلام . ويتلخص بأنه من العبت أن تفرح بما هو آت لا محالة ، وأن تحزن على ما فات ، لأن الفائت لا يرجع بالحزن ، والآتي لا يستدام بالفرح ، والذي ينفعك بالآخرة ، ويبقى ببقاء الله هو الأثر الطيب الذي تركه لأخيك الانسان .

واذن (فليكن سرورك بما نلت من آخرتك) وهو الذي أشرنا اليه من العمل لخدمة الحياة ، والإخلاص لله وعباده وعباله (وما نلت من دنياك) كمنصب وعقار وعمار (فلا تكثر به فرحاً) لأنه يعود عليك بالشر والوبال ، وبالأخص اذا كان من حرام . وتقدم مثله في الخطبة ١١٢ وغيرها ، ويأتي أيضاً .

الرمضان

- ٢٢ -

وصية الإمام باين ملجم :

وَصِيَّتِي لَكُمْ أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا . وَتُحَمَّدُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ
فَلَا تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ . أَقِيمُوا هَذَيْنِ الْعَمُودَيْنِ وَخَلَاكُمْ ذَمٌّ . أَنَا بِالْأَمْسِ
صَاحِبُكُمْ ، وَالْيَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ ، وَغَدًا مُفَارِقُكُمْ . إِنْ أَبَقَ فَأَنَا وَلِيٌّ
دَمِي ، وَإِنْ أَفْنَى فَالْفَنَاءُ مِيعَادِي . وَإِنْ أَعْفُ فَالْعَفْوُ لِي قُرْبَةٌ وَهُوَ
لَكُمْ حَسَنَةٌ ، فَاعْفُوا « أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ » . وَاللَّهُ مَا
فَجَّحَنِي مِنَ الْمَوْتِ وَارِدُ كَرِهَتُهُ ، وَلَا طَالِعُ أَنْكَرَتُهُ . وَمَا كُنْتُ
إِلَّا كَقَارِبٍ وَرَدَّ وَطَالِبٍ وَجَدَ « وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ » .

اللغة :

القارب : طالب الماء ليلاً ، والسفينة الصغيرة .

الإعراب :

المصدر من ان لا تشركوا خبر وصيتي أي وصيتي لكم التوحيد ، ومحمد مبتدأ ، وجملة لا تضيعوا خبر ، وعبرة خبر لمبتدأ محذوف أي وأنا اليوم عبرة ، وكذا مفارقتكم .

المعنى :

قال الشريف الرضي : أورد الإمام هذا على سبيل الوصية لما ضربه ابن ملجم ، وقد مضى بعضه . يشير الرضي الى ما جاء في الخطبة ١٤٧ ، ويأتي الحديث مفصلاً عن استشهاد الإمام (ع) في الرسالة ٤٦ (وصيتي لكم أن لا تشركوا بالله شيئاً) . وكلمة شيء هنا تفيد العموم والشمول ، لأنها نكرة في سياق النفي . والمعنى لتكن جميع أقوالكم وأفعالكم خالصة لوجه الله ، ولا تخافوا أو ترجوا أحداً إلا الله ، ولا تستمسكوا إلا بحبله وحده لا شريك له .

(ومحمد (ص) فلا تضيعوا سنته الخ) .. وسنة محمد عمل وجهاد لا تصوف ورهبانية، واخوة وتعاون لا طوائف ومذاهب، وحرية وكرامة لا عبودية واستسلام . (وخلاكم ذم) لا بأس عليكم ولا لوم اذا قمتم بواجب التوحيد وسنة الرسول . وقال ابن أبي الحديد : « يرد الإمام بهذا على الذين كلفوا أنفسهم أموراً من النوافل شاقة جداً .. وهم يتلون قوله تعالى : يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر . وقول الرسول الكريم : بُعثت بالحنفية السهلة السمحة » . ونعطف على ذلك هذه الرواية : « دخل رسول الله يوماً الى المسجد فرأى رجلاً يتعبد الأوقات كلها ! فقال له : من يسعى عليك ؟ قال : أخى . فقال له النبي (ص) : أخوك أعبد منك .. »

(أنا بالأمس صاحبكم) أدافع عنكم ، وأدبر أموركم ، وأهديكم سبيل الرشاد (واليوم عبرة لكم) ملقى على فراش الموت لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرراً (وغداً مفارقتكم) بلا رجعة الى دار الفناء . وتقدم هذا والمعطوف عليه بالحرف الواحد في الخطبة ١٤٧ (ان أبق فأنا الخ) .. ان سلمت من هذه الضربة رأيت رأيي في صاحبها : اما عفواً واما قصاصاً ، وإلا فالموت غاية الأحياء إلا وجهه الكريم .

الإمام يوصي بقاتله :

(وهو - أي العفو - لكم حسنة ، فاعفوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم) .
علي يأمر بالعفو عن قاتله ، وفي رواية انه قال : أطيبوا طعامه ، وألبنوا فراشه ..
فهل هذه أريحية وجود ، أو رحمة ورأفة ؟ كلا ، انها رغبة في الجزاء الأكبر ،
والتواب الأوفر ، لأن العفو أقرب للتقوى ، والتقوى مثل الإمام الأعلى ، ولذا
قال ، وهو فرح باستشهاده بين يدي الله : فزتُ ورب الكعبة . ومن قبل عاتب
الإمام وطالب رسول الله (ص) بوعده له يوم أحد بالشهادة ، كما في الخطبة ١٥٤
ومن أقواله : أكرمُ الموت القتلى ، والذي نفس ابن أبي طالب بيده لألفُ ضربة
بالسيف أهون من ميتة على فراش . واذن فلا بدع أن يعفر الإمام عن قاتله ،
وإن بدا هذا العفو كأنه عطاء ورحمة .

(والله ما فجئني من الموت الخ) .. كان الإمام يتطلع الى الشهادة شوقاً ،
ويعلم انها آتية لا ريب فيها ، لأن الصادق الأمين (ص) وعده بها ، وما لوعده
مترك ، وكان ينتظرها بفارغ الصبر ، ويقول : ما ينتظر أشقأها أن ينخسب هذه
من دم هذا ، كما في «الاستيعاب» لابن عبد البر ، باب «علي» . وقال أكثر
من مرة : والله ليخضبنها من فوقها . وبهذا نجد تفسير قوله : « ما فجئني من
الموت الخ » . ثم أوماً الى السبب الموجب لحبه الموت بقوله تعالى : « وما عند
الله خير للأبرار - ١٩٨ آل عمران » وعلي صفوة الأبرار وإمام الأخيار . ولنا
عودة الى حديث شهادته في الرسالة ٤٦ .

الرسالة

- ٢٣ -

وصية الإمام في أمواله :

هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فِي مَالِهِ أَيْتِغَاهُ وَجْهَ اللَّهِ
لِيُوجِلَّهُ بِهِ الْجَنَّةَ وَيُعْطِيَهُ بِهِ الْأَمْنَةَ . وَإِنَّهُ يَقُومُ بِذَلِكَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ
يَأْكُلُ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ وَيُنْفِقُ فِي الْمَعْرُوفِ ، فَإِنْ حَدَثَ بِحَسَنِ حَدَثٌ
وَحُسَيْنٌ حَيٌّ قَامَ بِالْأَمْرِ بَعْدَهُ وَأَصْدَرَهُ مَصْدَرَهُ . وَإِنَّ لِبَنِي فَاطِمَةَ
مِنْ صَدَقَةِ عَلِيٍّ مِثْلَ الَّذِي لِبَنِي عَلِيٍّ ، وَإِنِّي إِنَّمَا جَعَلْتُ الْقِيَامَ بِذَلِكَ
إِلَى ابْنِي فَاطِمَةَ أَيْتِغَاهُ وَجْهَ اللَّهِ وَقُرْبَةً إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ، وَتَكْرِيمًا
لِحُرْمَتِهِ وَتَشْرِيفًا لَوْصَلَتِهِ . وَيَشْتَرِطُ عَلَى الَّذِي يَجْعَلُهُ إِلَيْهِ أَنْ يَتْرَكَ
الْمَالَ عَلَى أَصُولِهِ ، وَيُنْفِقَ مِنْ ثَمَرِهِ حَيْثُ أَمَرَ بِهِ وَهُدًى لَهُ ، وَأَنْ
لَا يَبِيعَ مِنْ أَوْلَادِهِ نَخْلٍ هَذِهِ الْقُرَى وَدِيَّةَ حَتَّى تُشْكِلَ أَرْضَهَا غِرَاسًا .
وَمَنْ كَانَ مِنْ إِمَائِنِي اللَّاتِي أُطُوفُ عَلَيْهِنَّ لَهَا وَلَدٌ أَوْ هِيَ حَامِلٌ

فَتُمْسِكُ عَلَى وَلَدِهَا وَهِيَ مِنْ حَظِّهِ ، فَإِنْ مَاتَ وَلَدُهَا وَهِيَ حَيَّةٌ فِيهِ
عَتِيقَةٌ قَدْ أَفْرِجَ عَنْهَا الرِّقُّ وَحَرَّرَهَا الْعِتْقُ .

اللغة :

يولجه : يدخله . الأمانة : الأمن . والمراد بالحدث هنا الموت ، وبالوُصلة
القراية . والوديّة : النخلة الصغيرة تنبت على جذر النخلة الكبيرة . وتشكل :
تمتلىء . ومن حظه : من نصيبه .

الإعراب :

ابتغاء مفعول من أجله ، وغراساً تمييز .

شعار علي سيف ومعول :

كان الصحابة في عهد رسول الله (ص) يمارسون الحياة ويكافحون كسائر الناس
فكان منهم التاجر والفلاح والعامل والراعي والخطاب وصاحب الصنعة ، وما كانوا
يعتمدون على الفئ وكفى . وكان الإمام قبل الخلافة وبعدها يحيا الأرض الموات
بكد اليمين وعرق الجبين، ويستعمرها بالحرث والزرع والغرس والسقي بيده الشريفة.
قال ابن أبي الحديد في شرح هذه الوصية : « قد علم كل أحد أن علياً (ع)
استخرج عيوناً بكده يده في المدينة وينبع وسويعة ، وأحيا بها موانئاً كثيراً ، ثم
أخرجها عن ملكه ، وتصدق بها على المسلمين ، ولم يمت وشيء منها في ملكه» .
وفي كتاب « الاستيعاب » لابن عبد البر : « قُتل علي ، ولا مال احتجبه ، ولا
دنيا أصبا بها » .

لقد عمل علي في الأرض من أجل الجائعين تماماً كما جاهد بالسيف في سبيل
الله والدين . وإذا كان شعار الاشتراكيين المطرقة والمنجل فإن شعار علي السيف
والمعول ، هذا للمعوزين ، وذلك للمعتدين على أقوات العباد وأرزاقهم ، وكلاهما

بمنزلة سواء عند الله وفي منطق الحياة وتقدمها .. وغريبة الغرائب أن شيعة علي يكثرون الكلام والتأليف في فضائله ومناقبه ، ويجهلون أو يتجاهلون عمله ونضاله في الأرض من أجل الانتاج ومنافع الناس، ويركزون همهم واهتمامهم على النصوص والأقوال .. ولا سر — فيما نعتقد — إلا لأنهم أو الكثير منهم يستهلكون ولا ينتجون ، وفي الوقت نفسه يتطلعون بشوق الى المديح والثناء مكافأة على الكسل والاسترخاء .

(هذا ما أمر به عبدالله علي بن أبي طالب الخ) .. جعل الإمام في وصيته الولاية على صدقاته التي أنشأها بيده — للإمام الحسن ، ومن بعده للإمام الحسين، واشترط على الولي شرطين : الأول أن (يأكل منه بالمعروف) أي بمقدار الحاجة والضرورة كأني إنسان يتولى الصدقات أو أموال الأيتام .. هذا إذا كان في حاجة ماسة، قال تعالى : « ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف — ٦ النساء » . وفي الحديث : ان رجلاً سأل النبي (ص) عن يتيم في حجره : هل يأكل من ماله ؟ قال له : كل بالمعروف . الشرط الثاني أن (ينفق منه بالمعروف) أي على ذوي الحاجات بما يسدها من غير تجاوز .

(وان لابي فاطمة من صدقة علي الخ) .. يحق لأولاد الإمام أن يأكلوا بالمعروف من ثمار ما تصدق وأوقف ، سواء أكانوا من سيدة النساء أم من غيرها. وكانوا — على رواية الشيخ المفيد — ٢٧ ذكراً وإناثاً : أربعة من سيدة النساء، والباقيون من أمهات شتى (ويشترط على الخ) .. الولي ان لا يتصرف في أصول الوقف كالشجر وما ينبت على جذوره ، لا يتصرف ببيع ولا هبة ، أو بأي نحو يضر بالأعيان ، وله التصرف في الثمار على وجهها .. وهذا الشرط حتم حتى ولو سكنت عنه، لأنه من طبيعة آثار العقد تماماً كالاستمتاع بين الزوجين بالنسبة الى عقد الزواج .

أما الحديث عن العبيد والإماء في عصرنا فضيعة للوقت، وتكثير كلام بلا جدوى.

الرسالة

- ٢٤ -

العمال :

أَنْطَلِقْ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ . وَلَا تُرَوِّعَنَّ مُسْلِمًا ،
وَلَا تَجْتَازَنَّ عَلَيْهِ كَارِهًا ، وَلَا تَأْخُذَنَّ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِي
مَالِهِ ، فَإِذَا قَدِمْتَ عَلَى الْحَيِّ فَانْزِلْ بِمَا يَهُمُّ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخَالِطَ
أَيَّائَهُمْ ، ثُمَّ أَمْضِ إِلَيْهِمْ بِالسَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ حَتَّى تَقُومَ بَيْنَهُمْ فَتُسَلِّمْ
عَلَيْهِمْ ، وَلَا تُخْدِجْ بِالتَّحِيَّةِ لَهُمْ ، ثُمَّ تَقُولُ : عِبَادَ اللَّهِ ، أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ
وَلِيُّ اللَّهِ وَخَلِيفَتُهُ لِأُخَذَ مِنْكُمْ حَقُّ اللَّهِ فِي أَمْوَالِكُمْ ، فَهَلْ لِلَّهِ فِي
أَمْوَالِكُمْ مِنْ حَقٍّ فَتَوَدُّوهُ إِلَى وَلِيِّهِ ؟ فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ لَا ، فَلَا تُرَاجِعْهُ ،
وَلِنْ أَنْعَمَ لَكَ مُنْعِمٌ ، فَانْطَلِقْ مَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخِيفَهُ أَوْ تُوعِدَهُ أَوْ
تُعْصِفَهُ أَوْ تُرْهِقَهُ ، فَخُذْ مَا أَعْطَاكَ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ . فَإِنْ كَانَ

لَهُ مَا شِئَتْ أَوْ إِبِلٌ فَلَا تَدْخُلَهَا إِلَّا بِإِذْنِهِ ، فَإِنْ أَكْثَرَهَا لَهُ ، فَإِذَا
 أَتَيْتَهَا فَلَا تَدْخُلْ عَلَيْهَا دُخُولَ مُتَسَلِّطٍ عَلَيْهِ وَلَا عَنِيفٍ بِهِ ، وَلَا
 تُنْفِرَنَّ بِهِمَةَ وَلَا تُفْرِعَنَّهَا وَلَا تَسُوْنَنَّ صَاحِبَهَا فِيهَا ، وَأَصْدَعِ الْمَالَ
 صَدْعَيْنِ ثُمَّ خَيْرُهُ ، فَإِذَا اخْتَارَ فَلَا تَعْرِضَنَّ لِمَا اخْتَارَهُ . ثُمَّ أَصْدَعِ
 الْبَاقِي صَدْعَيْنِ ثُمَّ خَيْرُهُ ، فَإِذَا اخْتَارَ فَلَا تَعْرِضَنَّ لِمَا اخْتَارَهُ . فَلَا
 تَوَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَبْقَى مَا فِيهِ وَفَالَهُ لِحَقِّ اللَّهِ فِي مَالِهِ فَأَقْبِضْ حَقَّ
 اللَّهِ مِنْهُ . فَإِنْ اسْتَقَالَكَ فَأَقْلُهُ ثُمَّ أَخْلِطْهَا ثُمَّ أَصْنَعْ مِثْلَ الَّذِي
 صَنَعْتَ أَوَّلًا حَتَّى تَأْخُذَ حَقَّ اللَّهِ فِي مَالِهِ . وَلَا تَأْخُذَنَّ عَوْدًا وَلَا
 هَرِمَةً وَلَا مَكْسُورَةً وَلَا مَهْلُوسَةً وَلَا ذَاتَ عَوَارٍ ، وَلَا تَأْمَنْنَ عَلَيْهَا
 إِلَّا مَنْ تَثِقُ بِدِينِهِ رَافِقًا بِمَالِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى يُوصِّلَهُ إِلَى وَلِيِّهِمْ فَيَقْسِمَهُ
 بَيْنَهُمْ ، وَلَا تُؤْكَلْ بِهَا إِلَّا نَاصِحًا شَفِيقًا وَأَمِينًا حَفِيزًا ، غَيْرَ مُعْغِبٍ
 وَلَا مُجْهِفٍ ، وَلَا مُلْغِبٍ وَلَا مُتْعِبٍ ، ثُمَّ أَحْدِرْ إِلَيْنَا مَا اجْتَمَعَ
 عِنْدَكَ نُصَيِّرُهُ حَيْثُ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ . فَإِذَا أَخَذَهَا أَمِينُكَ فَأَوْعِزْ إِلَيْهِ أَلَّا
 يَحُولَ بَيْنَ نَاقَةٍ وَبَيْنَ فَصِيلِهَا وَلَا يَمَصِّرَ لَبَنَهَا فَيَضُرَّ ذَلِكَ بَوْلَدَهَا ،
 وَلَا يَجْعَدَنَّهَا رُكُوبًا . وَلْيَعْدِلْ بَيْنَ صَوَاحِبَاتِهَا فِي ذَلِكَ وَبَيْنَهَا ،
 وَلْيُرَفِّهْ عَلَى اللَّاعِبِ . وَلْيَسْتَأْنِ بِالنَّقَبِ وَالظَّالِعِ . وَلْيُورِدْهَا مَا تَمُرُّ
 بِهِ مِنَ الْغَدْرِ وَلَا يَعْدِلْ بِهَا عَنْ نَبْتِ الْأَرْضِ إِلَى جَوَادِّ الطَّرِيقِ ،

وَلْيُرَوِّحَهَا فِي السَّاعَاتِ ، وَلْيُسْمِلْهَا عِنْدَ النَّطَافِ وَالْأَعْشَابِ حَتَّى تَأْتِينَا
بِإِذْنِ اللَّهِ بُدْنًا مُنْقِيَاتٍ غَيْرَ مُتْعَبَاتٍ وَلَا مَجْهُودَاتٍ ، لِنَقْسِمَ بِهَا عَلَى
كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَعْظَمُ لِإِجْرِكَ
وَأَقْرَبُ لِرُشْدِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

اللغة :

لا تروِّع : لا تفرع . لا تجتاز : لا تمر . لا تُخْذَج : لا تبخل . وأنعم :
قال نعم . والعسف : الجور . والرهق : تكليف ما لا يطاق . وصدعين :
نصفين . والعود : المسن . والمهرم : أسن . والمهلوسة : الضعيفة أو المريضة .
والعوار : العيب . والملغب والمتعب بمعنى . واحدر : أسرع . والفصيل : ولد
الناقة . ولا بمصر لبنها : لا يحلب كل ما في الضرع . والنقب : ما نقب خفه .
والظالم : الأخرج أو البطيء في مشيه . والغدر : جمع غدير . والنطاف : الماء
القليل . وبُدنًا : سمانًا ، لأن البدين سمين .

الإعراب :

على تقوى الله متعلق بانطلق ، و «على» هنا بمعنى مع مثل : وَيُطْعَمُونَ الطعام
على حبه ، وحده حال من كلمة الجلالة ، وكأرها حال من ضمير عليه ،
وأكثر صفة لمفعول محذوف أي لا تأخذ منه شيئاً أكثر من حق الله ، وركوباً
تميز ، وبُدنًا حال .

المعنى :

كان الإمام (ع) يزود كل واحد من الجبابة والسعاة في أموال الصدقة يزوده
بالتعليمات التالية :

١ - أن يكون أميناً مخلصاً ، لا يستبيح للدولة والرعية حقاً من حقوقها .
وعبر الإمام عن ذلك بتقوى الله ، لأنها الأساس لكل خلق كريم بخاصة الأمانة والإخلاص .

٢ - أن يكون مع الذي في ماله الحق - هيناً ليناً لأن الدولة للجميع ورعايتهم وتوفير الأمن والعدل لكل فرد، والعامل فيها أجير مؤتمن يتحمل التبعات، ويؤاخذ إذا أساء استعمال المهنة والوظيفة . وهذا ما أراده الإمام بقوله : (ولا تروعن مسلماً الخ) ..

٣ - أن لا يأخذ أكثر من الحق المفروض ، لأن التجاوز بغى وعدوان .
٤ - أن لا ينزل ضعفاً على أحد ، فليس كل الناس يملكون أسباب الضيافة، أو يسعهم أن يطردوا الضيف ويصارحوه بعجزهم .

٥ - أن لا يدع مجالاً للنقد والملاحظة عليه بقول أو فعل ، وإن يكون في تحيته وجميع حركاته مبشراً لا منفراً .

(فإن قال قائل : لا) حق لله في مالي (فلا تراجعه) لأن الزكاة في الإسلام عبادة تماماً كالصوم والصلاة ، ولا واسطة بين الله وعباده ، ولا يجوز للمخلوق أن يتكلم باسم الخالق ، ويقيم نفسه وكيلاً عنه فيما يعود الى عبادته تعالى والإخلاص له (وإن أنعم الخ) .. صاحب المال وقال ، عليّ الله حق فيما وهب وأعطى ، فاذهب معه الى أمواله التي فيها الحق ، وعامله كأخ متواضع ، لا كمتسلط أو نظير ، لأنه هو الشريك الأكبر والذي كدح وناضل . وتجدر الإشارة الى أن الإمام لا يوصي الجابي بذلك حرصاً على تحصيل المال ، بل لأن موظف الدولة يجب أن يكون وديعاً ورقيقاً مع أصحاب العلاقات ، تماماً كما يجب أن يكون أميناً ونزيهاً ، فإن تقاعس عن خدمة الناس ، وأضفى من وظيفته على نفسه هيبة وهالة وجب أن يعاقب بما هو أهل له .

(واصدع المال صدعين الخ) .. إقسم المال الذي فيه حق الله نصفين ، واجعل الخيار لصاحبه في أحدهما ، ثم اقسم النصف الذي تركه شطرين ، وأفعل ما فعلت في المرة الأولى ، وهكذا حتى يبقى مقدار ما في ماله من الحق ، فاقبضه ، وهلم به البناء ، وإن شاء أن يستأنف ويعيد القسمة من جديد فاستجب لمشيئته شريطة أن لا يقع النقص والاجحاف في حق الله ، فيختص المالك بالسليم ، ويعطيك السقيم .

(ولا توكل بها إلا ناصحاً شفيقاً الخ) .. ضمير « بها » يعود ماشية الصدقات.
والإمام يوصي بها وبالرفق في الحيوان على وجه العموم ، فلا يُرهقه في المسير
ولا الحمل والركون ، ولا يُحرم الصغير من لبن أمه ، وتجب مراعاة الهزيل
والمريض بما يستدعيه ضعفه ومرضه ، ولا يجار عليه إذا تلكأ في السير . قال
رسول الله (ص) : للدابة على صاحبها خصال ست : أن يبدأ بعلفها إذا نزل ،
ويعرض عليها الماء إذا مر به ، ولا يضرب وجهها ، ولا يقف على ظهرها إلا
في سبيل الله ، ولا يحملها فوق طاقتها ، ولا يكلفها من المشي إلا ما تطيق .

الرسالة

- ٢٥ -

أعظم الخيالة خيالة الأمة :

أَمْرُهُ بِتَقْوَى اللَّهِ فِي سَرَائِرِ أَمْرِهِ وَخَفِيَّاتِ عَمَلِهِ ، حَيْثُ لَا شَهِيدَ
غَيْرُهُ وَلَا وَكِيلَ دُونَهُ . وَأَمْرُهُ أَنْ لَا يَعْمَلَ بِشَيْءٍ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ
فِيمَا ظَهَرَ فَيُخَالِفَ إِلَى غَيْرِهِ فِيمَا أَسْرَ ، وَمَنْ لَمْ يَخْتَلِفْ سِرَّهُ
وَعَلَانِيَتُهُ وَفِعْلُهُ وَمَقَالَتُهُ فَقَدْ أَدَّى الْأَمَانَةَ وَأَخْلَصَ الْعِبَادَةَ . وَأَمْرُهُ
أَنْ لَا يُجَبِّهَهُمْ وَلَا يَعْضَهُهُمْ ، وَلَا يَرْغَبَ عَنْهُمْ تَفَضُّلاً بِالْإِمَارَةِ
عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّهُمْ أَلِإِخْوَانُ فِي الدِّينِ وَالْأَعْوَانُ عَلَى أَسْتِخْرَاجِ الْحَقُوقِ .
وَأَنَّ لَكَ فِي هَذِهِ الصَّدَقَةِ نَصِيباً مَفْرُوضاً وَحَقّاً مَعْلوماً ، وَشُرَكَاءَ أَهْلِ
مَسْكَنَتِهِ ، وَضِعْفَاءَ ذَوِي فَاقَةٍ ، وَإِنَّا مُوَفُّوكَ حَقَّكَ فَوْقَهُمْ حُقُوقَهُمْ ،
وَلَا تَفْعَلْ فَإِنَّكَ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ خُصُوماً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَبُؤْساً يَلْمَنُ

خَصَّمُهُ عِنْدَ اللَّهِ الْفُقَرَاءَ وَالْمَسَاكِينَ وَالسَّائِلُونَ وَالْمَذْفُوعُونَ وَالْغَارِمُ
وَأَبْنُ السَّيْلِ . وَمَنْ أَسْتَهَانَ بِالْأَمَانَةِ وَرَتَعَ فِي الْحَيَاةِ وَلَمْ يُنْزِ
نَفْسَهُ وَدِينَهُ عَنْهَا فَقَدْ أَحَلَّ بِنَفْسِهِ فِي الدُّنْيَا الْحِزْيَ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ
أَذَلُّ وَأَخْزَى . وَإِنَّ أَعْظَمَ الْحَيَاةِ خِيَانَةَ الْأُمَّةِ ، وَأَفْظَعَ الْغِشِّ غِشُّ
الْأُمَّةِ وَالسَّلَامُ .

اللغة :

يجبهم : يستقبلهم ويفاجئهم . ويعضهم : لرميهم بالزور والبهتان . والبؤس :
الفقر والشدة . والغارمون : العاجزون عن وفاء ديونهم .

الإعراب :

أمره فعل مضارع ، والفاعل ضمير مستتر يعود الى الإمام أي ان الإمام عبّر
عن نفسه بضمير الغائب ، وهذا كثير في لغة العرب ، والهاء تعود على العامل ،
والمصدر من أن لا يعمل مجرور بالباء المحذوفة ، ومثله أن لا يجبهم ، وشركاء
عطف على «نصيياً» أي وان لك في هذه الصدقة شركاء ، وأهل مسكنة صفة
لشركاء ، ولا يجوز جعل أهل بدلاً بحال ، لأن بدل الكل يستغنى به عن المبدل
منه مثل جاء زيد أخوك ، وهنا لا يستغنى من حيث المعنى عن كلمة شركاء .
وخصوصاً تمييز ، وبؤساً عطف عليه .

المعنى :

(أمره بتقوى الله — الى — دونه) . يستطيع الانسان أن يخون ويغدر دون
أن يشعر به مخلوق . وفي مثل هذه الحال لا رادع ولا زاجر إلا من الداخل ،

وهو الإيمان بالله والخوف من حسابه وعذابه ، والإمام يحذر عماله من الخيانة ومعصية الله في الخفاء ، لأنه بكل شيء عليم . وفي الحديث : خَفَ الله كأنك تراه ، فإن كنت لا تراه فإنه يراك (أمره ألا يعمل بشيء الخ) .. لا تطع الله في الظاهر دون الباطن ، بل أطعه فيها معاً ، وكل ظاهر يخالف باطناً فهو تلبيس وتضليل (ومن لم يختلف سره - الى - العبادة) . كل من تنسجم أقواله وأفعاله مع حقيقته وواقعه فهو مخلص وأمين ، بل ومثل أعلى يجب أن يُحتذى في ذلك كائناً من كان .

(وأمره أن لا يجهلهم الخ) .. على موظف الدولة أن لا يستقبل أحداً من الرعية بما يكره ، ويستعلي عليه بالمنصب والمركز ، ويلقي اليه الأوامر في عنجبية وعجرفة كنبوس الموظفين ، لأنه أجبر لا أمير .. والرعية هي السيد والأصل والعمود الفقري للدولة وخزینتها (وان لك في هذه الصدقة - الى - ذوي الفاقة) يشير الى الآية ٦٠ من سورة التوبة : « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل » والعاملون الجباة ، والفقراء والمساكين هم الذين أشار اليهم الإمام بقوله : « أهل مسكنة وضعفاء ذوي فاقة » ، والمؤلفة قلوبهم يستعان بهم للذب عن الاسلام ، والغارمون العاجزون عن وفاء ديونهم ، وفي الرقاب تحرير العبيد ، وابن السبيل الغريب بلا نفقة ، وفي سبيل الله ووجوه البر والإحسان .

(وإنا موفوك حقك فوفهم حقوقهم) . أبداً لا أدع أحداً يعتدي على سهمك من الصدقات ، ويغتصبه منك ، فحقيق بك - اذن - أن تحرص على حقوق الآخرين ، ولا تخونهم في شيء (وإلا تفعل الخ) .. فجزاؤك عندنا التأديب ، وعند الله عذاب الحريق حيث يخاصمك لديه تعالى سائر الشركاء الذين ذكرتهم الآية ٦٠ من سورة التوبة (فقد أحل بنفسه الذل والخزي الخ) .. لأن كل نفس بما كسبت رهينة .

(وان أعظم الخيانة خيانة الأمة) . وقد تكون خيانة الأمة بدورهم يختلسه موظف من مال الدولة ، أو رشوة يقبضها من مزور كاذب ، أو محتكر غاصب ، وهذه من أعظم الخيانات ، وفساد كبير ، ما في ذلك ريب . وأعظم منها ومن كل الجرائم مجتمعة التأمر على كيان الأمة وتقويضها من الأساس بالعمالة لسفاحي

الشعوب وأعداء الله والانسانية . وما أكثر العملاء في الشرق ، وبالخصوص في بلاد المسلمين ، وبالأخص عندنا نحن العرب .. وهل من دليل على ذلك أقوى وأدل من وجود « السيدة اسرائيل » التي تنقض ليل نهار بطائراتها ودباباتها علينا تقتل وتدمر ، وتحتل وتشرذ على مسمع ومرأى من قادة العرب والعروبة .. وما زادهم هذا وذاك إلا تناحراً وتثلياً !.

الرسالة

- ٢٦ -

الى محمد بن أبي بكر .. فقرة ١ - ٢٠ :

فَاخْفِضْ لَهُمْ جَنَاحَكَ ، وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ ، وَأَبْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ ،
وَأَسِرْ بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ وَالنَّظَرَةِ حَتَّى لَا يَطْمَعَ الْعُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ لَهُمْ
وَلَا يَيَاسَ الضَّعَفَاءُ مِنْ عَذْلِكَ بِهِمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُسَائِلُكُمْ مَعَشَرَ
عِبَادِهِ عَنِ الصَّغِيرَةِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ وَالْكَبِيرَةِ ، وَالظَّاهِرَةِ وَالْمُسْتُورَةِ ،
فَإِنْ يُعَذِّبُ فَأَنْتُمْ أَظْلَمُ ، وَإِنْ يَغْفِرُ فَهُوَ أَكْرَمُ^(١) . وَأَعْلَمُوا عِبَادَ
اللَّهِ أَنَّ الْمُتَّقِينَ ذَهَبُوا بِعَاجِلِ الدُّنْيَا وَآجِلِ الْآخِرَةِ ، فَشَارُكُوا
أَهْلَ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ ، وَلَمْ يُشَارِكُهُمْ أَهْلُ الدُّنْيَا فِي آخِرَتِهِمْ . سَكَنُوا
الدُّنْيَا بِأَفْضَلِ مَا سُكِنَتْ ، وَأَكَلُوهَا بِأَفْضَلِ مَا أُكِلَتْ ، فَحَظُّوا مِنْ
الدُّنْيَا بِمَا حَظِّي بِهِ الْمُتَرَفُونَ ، وَأَخَذُوا مِنْهَا مَا أَخَذَهُ الْجَبَّارَةُ
الْمُتَكَبِّرُونَ . ثُمَّ أَنْقَلَبُوا عَنْهَا بِالزَّادِ الْمُبْلَغِ وَالْمَتَجَرِّ الرَّابِحِ .

أَصَابُوا لَذَّةَ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ ، وَتَيَقَّنُوا أَنَّهُمْ جِيرَانُ اللَّهِ غَدًا فِي آخِرَتِهِمْ . لَا تُرَدُّ لَهُمْ دَعْوَةٌ ، وَلَا يَنْقُصُ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ لَذَّةِ (٢) .

اللغة :

آس : من المؤاساة بمعنى المساواة . وحافّ عليه : جار عليه ، وحاف له : جار على الغير من أجله ، كمن يبني لأولاده من أموال الأرامل والأيتام . وحظوا : نالوا .

الإعراب :

آس فعل أمر ، ومعشر عباده أي يا معشر عباده ، وما سكنت «ما» مصدرية أي سكنناها ، وبما حظي أي بمثل الذي حظي ، ومثله ما أخذه .

المعنى :

قال الشريف الرضي وغيره : حين قلّد الإمام محمد بن أبي بكر الولاية كتب إليه : (فاحفض لهم جناحك - الى النظرة) . روي أن رجلاً نادى رسول الله (ص) : يا سيدنا وابن سيدنا وخيرنا وابن خيرنا . فقال : لا يستهوينكم الشيطان .. أنا محمد بن عبدالله .. عبده ورسوله .. والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي . وكان أصحابه إذا رأوه قادمًا عليهم لم يقوموا له ، لأنهم يعرفون كراهيته لقيامهم .. وكان يكره أن يمشي أصحابه وراءه ، وإذا فعل ذلك أحدهم أخذ بيده ودفعه الى جانبه .

وعن كتاب « الوفا بأحوال المصطفى » لعبد الرحمن بن الجوزي ان النبي (ص) : « كان يحب لأمنته أن تنتقد ، وأن تطالب بحقها ، وأن تعترض ، وأن تبدي رأيها فيما ينفعها وما يريبها من سلوك الأمراء » .
(حتى لا يطمع العظماء الخ) .. انهم تماماً كالشيطان ، من جعل له سيلاً

الى نفسه قاده الى الهاوية . وفي الحديث : « المعدة بيت الداء ، والحمية رأس الشفاء » . ويصح هنا القياس ، وعليه فلك أن تقول : الضعف والهزيمة أمام الطغاة بيت الداء ، وقوة الإصرار على الصمود في حربهم ومجاهبتهم رأس الشفاء (ولا يئأس الضعفاء من عدلك) . الضعفاء هم المقياس الصحيح لعدل الحاكم وجوره ، فإن خافوا على أنفسهم من شر الأقوياء كان معنى هذا ان الحاكم ظلوم لا يهجمه من أمر الرعية إلا السيطرة والاستعلاء ، وإلا السلب والنهب ، وإذا أمن الضعفاء من شر الأقوياء فعنى ذلك ان الحاكم يشعر بتبعات الحكم الملقاة على عاتقه ، وأنه لله وللعدل ، لا لأهوائه وأبنائه .

(إن المتقين ذهبوا بعاجل الدنيا) حيث تمتعوا بنسائها على كتاب الله وستة نبيه ، وأكلوا من طيباتها بكد اليمين وعرق الجبين ، وأيضاً سعدوا وابتهجوا بمنابر الطبيعة ، وعاطفة الأبوة والبنوة ، وبلدة العلم والمعرفة ، وراحة الضمير والحديث الى الأصدقاء ، ورجاء الثواب والرضا من الله ، وما الى ذلك من نعمه تعالى التي لا تعد ولا تحصى ، وتقدم في الخطبة ١١٢ قول الإمام: وما أحل لكم أكثر مما حرم عليكم (وآجل الآخرة) وأيضاً فاز المتقون بجنة عرضها السموات والأرض .

(فشاركوا أهل الدنيا الخ) .. في الملذات التي أشرنا اليها ، وجمعوا بينها وبين الجنة . أما الطغاة العتاة فتمتعوا قليلاً ، ثم الى عذاب الجحيم . وتقدم مرات إنه لا صراع ولا اصطدام بين طيبات الدنيا وجنات الآخرة ، وإنما التضاد والصراع بين الحرام ومرضاة الله وثوابه . قال رسول الله (ص) لقوم حرموا الطيبات على أنفسهم : « إنما أنا أعلمكم بالله ، وأخشاكم له ، ولكني أقوم وأنا ، وأصوم وأفطر ، وأنزوج النساء ، ومن رغب عني فليس مني » .

الصبر مصدر السعادة :

(سكنوا الدنيا بأفضل الخ) .. المتقون سكنوا في بيوت متواضعة، وسكن المترفون قصوراً شاهجة ، ولكن الكوخ مع الأمانة والتقوى خير ألف مرة من القصر المنيف مع الخيانة والفساد ، ونفس الشيء يقال في المأكل والملابس (فحظوا من الدنيا بما حظي به المترفون الخ) .. من حيث سد الحاجات واستمرار الحياة ، لا من

حيث المظاهر الفارغة ، وزادوا عليهم براحة الضمير وصفاء النفس والاطمئنان الى المصير . سمع امبراطور الصين القديم عن أسرة صينية فقيرة ، ولكنها أسعد أهل الصين إطلاقاً .. عاشت عشرات السنين تحت سقف واحد بلا إزعاج ، وما يكدر صفو الحياة . فبعث الأمبراطور رسوله يسأل رب الأسرة العجوز عن سر هذه السعادة . فبعث اليه العجوز برسالة طولها متران ، وحين فتحها الأمبراطور وجدها منقوشة بكلمة واحدة من أولها الى آخرها ، وهي كلمة الصبر .

(أصابوا لذة زهد الدنيا) المراد بلذة الزهد هنا الرضا بالميسور . وسئل الحكيم الصيني بوذا عن السعادة ؟ فقال : القناعة . وسئل عن أكثر شيء لإيلاماً للنفس ؟ فقال : تأنيب الضمير . ومن صفات رسول الله (ص) انه كان في طعامه لا يرد موجوداً ، ولا يتكلف مفقوداً (انهم جيران الله) أي ان المتقين قريبون من رحمة الله وكرامته (ولا ترد لهم دعوة) في طلب العفو وحسن المآب (ولا ينتقص لهم نصيب من لذة) نالوا من الدنيا ما فيه الكفاية ولهم في الآخرة أجر عظيم .

لا تسخط الخالق برضا المخلوق .. فقرة ٣ - ٦ :

فَاحْذَرُوا عِبَادَ اللَّهِ الْمَوْتَ وَقُرْبَهُ ، وَأَعِدُّوا لَهُ عُدَّتَهُ ، فَإِنَّهُ يَأْتِي بِأَمْرِ عَظِيمٍ وَتَحْطِبُ جَلِيلٍ ، بِخَيْرٍ لَا يَكُونُ مَعَهُ شَرٌّ أَبَدًا ، أَوْ شَرٌّ لَا يَكُونُ مَعَهُ خَيْرٌ أَبَدًا . فَمَنْ أَقْرَبُ إِلَى الْجَنَّةِ مِنْ عَامِلِهَا ؟ وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَى النَّارِ مِنْ عَامِلِهَا ؟ . وَأَنْتُمْ طُرَدَاءُ الْمَوْتِ إِنْ أَقَمْتُمْ لَهُ أَخَذَكُمْ . وَإِنْ فَرَرْتُمْ مِنْهُ أَذْرَكُمْ ، وَهُوَ أَلْزَمُ لَكُمْ مِنْ ظِلِّكُمْ . الْمَوْتُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيكُمْ وَالْدُّنْيَا تُطَوَّى مِنْ خَلْفِكُمْ^(٣) . فَاحْذَرُوا نَارًا قَعْرُهَا بَعِيدٌ ، وَحَرُّهَا شَدِيدٌ ، وَعَذَابُهَا جَدِيدٌ . دَارٌ لَيْسَ فِيهَا رَحْمَةٌ ، وَلَا تُسْمَعُ فِيهَا دَعْوَةٌ ، وَلَا تُفَرَّجُ فِيهَا كُرْبَةٌ . وَإِنْ

أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ يَشْتَدَّ خَوْفُكُمْ مِنَ اللَّهِ وَأَنْ يَحْسُنَ ظَنُّكُمْ بِهِ فَاجْتَمِعُوا بَيْنَهُمَا ،
فَإِنَّ الْعَبْدَ إِنَّمَا يَكُونُ حُسْنُ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ عَلَى قَدَرِ خَوْفِهِ مِنْ رَبِّهِ ،
وَلِإِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ ظَنًّا بِاللَّهِ أَشَدُّهُمْ خَوْفًا لِلَّهِ ^(٤) . وَأَعْلَمُ يَا مُحَمَّدُ بْنُ
أَبِي بَكْرٍ أَنِّي قَدْ وَلَّيْتُكَ أَعْظَمَ أَجْنَادِي فِي نَفْسِي أَهْلَ مِصْرَ ، فَأَنْتَ
مُحَقَّقٌ أَنْ تُخَالَفَ عَلَى نَفْسِكَ ، وَأَنْ تُنَافِحَ عَنْ دِينِكَ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ
لَكَ إِلَّا سَاعَةٌ مِنَ الدَّهْرِ ، وَلَا تُسْخِطِ اللَّهَ بِرِضَا أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ
فَإِنَّ فِي اللَّهِ خَلْفًا مِنْ غَيْرِهِ وَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ خَلْفٌ فِي غَيْرِهِ ^(٥) . صَلِّ
الصَّلَاةَ لَوَقْتِهَا الْمَوْقُوتِ لَهَا ، وَلَا تُعَجِّلْ وَقْتُهَا لِفِرَاقٍ ، وَلَا تُؤَخِّرْهَا
عَنْ وَقْتِهَا لِإِشْتِغَالٍ . وَأَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ عَمَلِكَ تَبَعٌ لِصَلَاتِكَ .
فَإِنَّهُ لَا سِوَاهُ إِمَامٍ الْهُدَى وَإِمَامٍ الرَّدَى ، وَوَلِيُّ النَّبِيِّ وَعَدُوُّ النَّبِيِّ .
وَلَقَدْ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ . إِنِّي لَا أَخَافُ عَلَى
أُمَّتِي مُؤْمِنًا وَلَا مُشْرِكًا . أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَمْنَعُهُ اللَّهُ بِإِيمَانِهِ ، وَأَمَّا
الْمُشْرِكُ فَيَقْصِمُهُ اللَّهُ بِشُرْكِهِ ، وَلَكِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ كُلَّ مُنَافِقِ الْجَنَانِ
عَالِمِ أَلْسَانٍ ، يَقُولُ مَا تَعْرِفُونَ وَيَفْعَلُ مَا تُنْكِرُونَ ^(٦) .

اللغة :

طرداء : جمع طريد أو مطارد . ومحقوق : مطالب بالحق . وتنافح : تدافع .
ويقصمه : يقهره . والجنان - بفتح الجيم - القلب .

الإعراب :

دار أي هي دار ، وظناً تمييز . ومثله خوفاً ، وأهل مصر بدل من أعظم اجنادي ، والمصدر من تخالف مجرور بالباء المحذوفة .

المعنى :

(فاحذروا عباد الله الموت الخ) .. استعدوا له واعملوا لما وراءه من حساب وجزاء . وتقدم الكلام عن الموت مرات ومرات .. بالإضافة الى وضوح الكلام هنا وصراحته (بخير لا يكون معه شر أبداً ، أو شر لا يكون معه خير أبداً) . يدل هذا بظاهره ان الانسان يعامل غداً كمسيء بحث لا يثاب على حسنة أبداً أياً كان نوعها ، أو كمحسن محض لا يعاقب على سيئة أبداً مهما تكن ، ولا ثالث خلط عملاً صالحاً ، وآخر سيئاً .. وليس من شك ان هذا يتنافى مع العدالة الإلهية ، ومع الكثير من النصوص القرآنية التي قالت بوضوح : « إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تلك حسنة يضاعفها - ٤٠ النساء » . « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان - ٦٠ الرحمن » ؟ وهل تكون الحسنة عند الله سيئة أو هباء ؟.

الجواب :

قال سبحانه في الآية ٢٤ من سورة الصافات : « وقفوهم انهم مسؤولون » . وقال في الآية ٣٩ من سورة الرحمن : « فيومئذ لا يسأل عن ذنبه انس ولا جان » . وقد وفق المفسرون وجمعوا بين الآيتين بأن في القيامة مواقف يجري في بعضها الحساب والسؤال ، وفي بعضها لا سؤال ولا حساب .. وعلى هذا يحمل كلام الإمام ، أو يجوز أن يحمل عليه ، ويقال هكذا : من أحسن وأساء في عمله اليوم يعامل غداً في بعض المواقف بالحسن فقط ، وفي موقف يعامل كمسيء فقط .. وفي النهاية هو الى الجنة إن تغلبت الحسنات ، أو الى النار إن تغلبت السيئات .

(فمن أقرب الى الجنة الخ) .. قد تأتي الآفات على ما تزرع ، والزلازل على ما تبني ، ويذهب جهدك مع الريح ، وقد تخسر في تجارتك ويذهب رأس المال

بعضه أو كله ، أما طاعتك لله فإنها تؤدي بك حتماً الى جنته ، وأيضاً معصيتك له تفودك الى ناره لا محالة إنجازاً لوعده تعالى ، وقضاء لأمره إلا أن يشاء ، ولا يشاء إلا الحكمة .

(والدنيا تُطوى من خلفكم) لأنكم تطوون الليل والنهار (وان استطعتم الخ) .. أن تجمعوا بين الخوف من الله الذي يزجركم عن الحرام ، ويدعوكم الى التخلي عن العيوب والتوبة من الذنوب ، أن تجمعوا بين ذلك وبين الرجاء والأمل بثوابه الذي يبعثكم على الصالحات والسباق الى الخيرات (فاجمعوا بينهما) ومن وفق الى الجمع فقد فاز .

(فإن العبد انما يكون حسن ظنه الخ) .. المراد بحسن الظن هنا الثقة بثواب الله على طاعته ، والمعنى ان الخوف من عذاب الله على السيئة بلا رجاء الثواب منه على الحسنة ، ورجاء الثواب منه على الحسنة بلا خوف من عذابه على السيئة كلاهما لا ينسجم مع العدالة الإلهية التي تجزي كل نفس بما تسعى ، ولا يستوي لديها المحسن والمسيء .. ولذا جعل الإمام رجاء الثواب ملازماً للخوف من العقاب وجوداً وعدماً وشدة وضعفاً ، لأن مصدرهما واحد ، وهو العلم بعذابه تعالى .

لا تدع الالحاح على الله :

وقال الإمام زين العابدين حفيد الإمام أمير المؤمنين : « لو أنزل الله عز وجل كتاباً انه معذب رجلاً واحداً لخفت أن أكونه ، أو انه راحم رجلاً واحداً لرجوت أن أكونه ، او انه معذبي لا محالة ما ازددت إلا اجتهداً ، لئلا أرجل الى نفسي بلائمة » . ومعنى هذا انه لا يقنط أبداً من رحمة الله حتى ولو قضى وقدر أن يعذبه لا محالة .. سلام الله عليك يا مولاي لقد خففت عني - والله - وجرأتني أن ألح وألح على الله ملتمساً قِراه .. لا أحول ولن أزول عن بابه وان نهرني ، وأقول له بوقاحة وصلافة : أبداً لن أنصرف ، والى أين ؟ والخير كله بيدك ، وما جدواك منه ، وأنا اليه أحوج ؟ ولا ينفصك عطاء .. فهات ولا أمل في سواك .

وتقدم الكلام عن فلسفة الخوف والرجاء في شرح الخطبة ١٥٨ . (واعلم يا محمد بن أبي بكر أنني قد وليتك أعظم أجنادي في نفسي أهل مصر) .

المراد بالأجناد هنا الأقاليم والأطراف ، ويدل كلام الإمام أنه كان يجب أهل مصر ، ولعل السبب لهذا الحب ثورة المصريين على عاملهم الطاغية عبدالله بن أبي السرح الذي أفسد بين المصريين والخليفة الثالث عثمان (فأنت محقوق أن تخالف على نفسك) . المراد بالنفس هنا الهوى ، والمعنى أنك مطالب أو جدير بك أن تجمع هواك ، أو لا تستجيب لدعوته على الأقل . وبكلام أعم ان في كل واحد منّا عدو لا يراه يوسوس ويلبّس ، وعلينا أن نزجره ولا نستمع اليه وإلا سيطر ونحكم .

(وان تنافح عن دينك) ولا تدع لشياطين الإنس والجن عليك سبيلاً (ولو لم يكن إلا ساعة من الدهر) بحيث لا تبقى بعدها ثانية ، فاغتنم هذه الساعة في إصلاح دينك ونفسك .

باعوا دينهم للشيطان :

(ولا تسخط الله برضا أحد من خلقه الخ) .. لأنه لا شيء يغني عن مرضاته تعالى . وهل يبيع المؤمن بالله دينه للشيطان بثمن ؟. أجل ، لقد فعلها علانية الكثير من المنتسبين الى الأديان والمذاهب في هذا الزمان، وعقدوا المؤتمرات «الدينية» بوحى من الاستعمار والصهيونية ، وأصدر بعض هذه المؤتمرات قراراً ببراءة اليهود من دم السيد المسيح خلافاً لنص كتابهم ، الإنجيل ، وبعضها أصدر قراراً بالفرق بين اليهودية والصهيونية، وفي المؤتمرات «عمائم» مع العلم بأن تورااة اليهود الحاضرة تنص صراحة على أنهم شعب الله المختار دون سائر الشعوب ، وإن الله قد أحل لهم أن يسخروا كل الآدميين تماماً كما يسخرون الحيوان الأعجم.. فإنه اسرائيل كما تتحدث عنه التوراة والتلمود وكتب اليهود ليس هي الله الذي تفهمه البشرية ، وإنما هو إله خاص لا يعنيه من أمر العالم شيء سوى اليهود وحدهم .. وهذه هي الصهيونية بالذات .. والذي يستوقف النظر حقاً ان ما من مؤتمر ديني – حتى الاسلامي – أشار بكلمة واحدة الى أمريكا حليفة الصهيونية ، وقائدة الاستعمار الجديد .

وهذه ظاهرة تبدو على تحركات الكثير من المنتسبين الى الدين ، وليست سرّاً، واني لأشعر بالمسؤولية عن حربهم ، ولكن أين وسائل القمع والردع ؟. (صلّ الصلاة الخ) .. تقدم الحديث عنها في الخطبة ١٩٧ (فإنه لا سواء

أمام الهدى وأمام الردى الخ) .. قال الشارحون : أراد الإمام بإمام الهدى وولي النبي نفسه ، وبإمام الردى وعدو الله والمنافق معاوية . وقال ابن أبي الحديد : « معاوية عدو الله والنبي ، لأنه عدو علي ، وثبت عن رسول الله انه قال لعلي : وليك وليتي وولي الله ، وعدوك عدوي وعدو الله » . وقال ميثم : هذا الخبر مشهور . وعلينا نحن أن نشير الى مصدر هذا الحديث وما في معناه . وقد جاء في كتاب «الخصائص» للنسائي ص ٤ طبعة ١٣٤٨ هـ . بمطبعة التقدم بمصر ، و «ذخائر العقبى» ص ٦٥ ، و «أسد الغابة» لابن الأثير ج ٢ ص ١٥٤ طبعة سنة ١٢٨٥ هـ . بمطبعة الوهبية بمصر ، وكتب أخرى كثيرة ذكرها صاحب كتاب « فضائل الحمسة من الصحاح الستة » .

الرسالة

- ٢٧ -

الى معاوية .. لقرة ١ - ٣ :

أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ أَتَانِي كِتَابُكَ تَذَكُّرُ فِيهِ أَصْطِفَاءُ اللَّهِ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِدِينِهِ وَتَأْيِيدِهِ إِيَّاهُ بِمَنْ أَيْدَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَلَقَدْ خَبَأَ لَنَا الدَّهْرُ مِنْكَ عَجَبًا إِذْ طَفِقْتَ تُخْبِرُنَا بِبَلَاءِ اللَّهِ عِنْدَنَا وَنِعْمَتِهِ عَلَيْنَا فِي نَبِيِّنَا ، فَكُنْتَ فِي ذَلِكَ كَنَاقِلِ الثَّمَرِ إِلَى هَجَرَ أَوْ دَاعِي مُسَدِّدِهِ إِلَى النُّضَالِ . وَرَعَمْتَ أَنْ أَفْضَلَ النَّاسِ فِي الْإِسْلَامِ فَلَانٌ وَفُلَانٌ ، فَذَكَرْتَ أَمْرًا إِنْ تَمَّ اعْتَزَلَ كُلُّهُ ، وَإِنْ نَقَصَ لَمْ تَلْحَقْكَ ثُلُمَتُهُ^(١) . وَمَا أَنْتَ وَالْفَاضِلَ وَالْمَفْضُولَ . وَالسَّائِسَ وَالْمَسُوسَ ؟ وَمَا لِلْأَطْلَقَاءِ وَأَبْنَاءِ الْأَطْلَقَاءِ وَالتَّمْيِيزِ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ وَتَرْتِيبِ دَرَجَاتِهِمْ وَتَعْرِيفِ طَبَقَاتِهِمْ . هَيْهَاتَ لَقَدْ حَنَّ قِدْحُ لَيْسَ مِنْهَا ، وَطَفِقَ يَحْكُمُ فِيهَا مَنْ عَلَيْهِ الْحُكْمُ لَهَا . أَلَا تَرَبَّعُ أَهْيَا الْإِنْسَانُ عَلَى ظَلْعِكَ وَتَعْرِفُ

قُصُورَ ذَرِيعِكَ ؟ وَتَتَأَخَّرُ حَيْثُ أَثَّحَرَ الْقَدَرُ ، فَمَا عَلَيْكَ غَلْبَةُ
الْمَغْلُوبِ وَلَا لَكَ ظَفَرُ الظَّافِرِ^(٢) . وَإِنَّكَ لَذَهَابٌ فِي التَّيِّهِ رَوَاغٌ
عَنِ الْقَصْدِ . أَلَا تَرَى — غَيْرُ مُخِيرٍ لَكَ وَلَكِنْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ أَحْدَثُ —
أَنْ قَوْمًا اسْتَشْهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَلِكُلِّ فَضْلٍ ، حَتَّى
إِذَا اسْتَشْهِدَ شَهِيدُنَا قِيلَ سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ ، وَنَحْصَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَآلِهِ بِسَبْعِينَ تَكْبِيرَةً عِنْدَ صَلَاتِهِ عَلَيْهِ . أَوْ لَا تَرَى أَنْ قَوْمًا
قُطِعَتْ أَيْدِيهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ — وَلِكُلِّ فَضْلٍ — حَتَّى إِذَا فُعِلَ بِوَاحِدِنَا
مَا فُعِلَ بِوَاحِدِهِمْ قِيلَ الطَّيَّارُ فِي الْجَنَّةِ وَذُو الْجَنَّاتِ حِينَ ، وَلَوْ لَا مَا
نَهَى اللَّهُ عَنْهُ مِنْ تَزْكِيَةِ الْمَرْءِ نَفْسَهُ لَذَكَرَ ذَاكِرُ فَضَائِلِ جَمَّةٍ تَعْرِفُهَا
قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا تَمُجِّهَا آذَانُ السَّامِعِينَ^(٣) .

اللغة :

طَفِقتُ : ابتدأت . والمراد ببلاء الله هنا إحسانه . وهجر (الهفوف) : مدينة بالبحرين
كثيرة النخيل . والنضال : المراماة . ومسدده : معلمه . واعتزلت : لا شيء
لك منه . وثلمته : عيبه وخلله . والطلاق : الدين أسروا في الحرب وأطلقوا .
وحنّ : صوت . والقدح — بكسر القاف — السهم . واربعٌ على ظلمك : قف
عند حدك . والدرع — بسكون الراء — بسط اليد ، ويقال : ضاق بالأمر
ذرعاً أي لم يقدر عليه . والتيه : الضلال . ورواغ : كثير المكر والخداع .
والقصد : الاعتدال .

الإعراب :

أنت مبتدأ مؤخر ، و «ما» خبر مقدم ، وهي للاستفهام على الإنكار ،

والفاضل بالنصب مفعول معه ، لأن المعنى ما تصنع مع الفاضل ، والتمييز مفعول معه للطلاق . وهيهات اسم فعل بمعنى بعد . وما غلبة مبتدأ وخبر ، وعليك متعلق بغلبة ، ورواغ خبر بعد خبر لأنك ، وغير غير خبر مبتدأ محذوف أي أنا غير غير لك ، والمصدر من ان قرماً مفعول ترى ، وسيد الشهداء خبر مبتدأ محذوف ومثله الطيار ، وما نهى « ما » مصدرية والمصدر المنسبك مبتدأ ، والخبر محذوف وجوباً أي لولا نهى الله كائن ، وجملة صفة لفصائل .

المعنى :

(أما بعد فقد أتاني كتابك الخ) . الخطاب معاوية ، وكان قد كتب للإمام رسالة تدل على ان دهاؤه وذكاءه ينحصر بصكوك البيع والشراء ، وإن عقله لا يصلح إلا للتجارة وعقد الصفقات مع تجار من أمثاله ، كابن العاص أخذ منه مصر وحارب معه معاوية ، والمغيرة بن شعبة اشترى منه الكوفة بتمهيد البيعة ليزيد ، أما زياد ابن أبيه فكان رقاً لمعاوية ، والثنان للصاقه بأبي سفيان .. ومن رفض عقد الصفقات التجارية مع معاوية دس اليه السم بالعسل .. هذه هي سياسة معاوية ، وهذا دهاؤه وذكاءه : شراء الدين والذم ، والموت لمن أبى إن استطاع اليه سبيلاً ، وإذا حاد معاوية عن هذا الخبط فلا ذكاء عنده ولا دهاء ، والدليل هذا الكتاب الذي أجاب عنه الإمام بما فضحه وأخزاه ، ورد كيده الى نحره . واليك البيان :

روى ابن أبي الحديد عن استاذہ النقيب أبي جعفر أن معاوية كان يتلفه على كلمة من فم الإمام يغمز بها الشيخين ، ليجعلها حجة عند أهل الشام ، ولما عجز أرسل الى الإمام الكتاب تلو الكتاب والرسالة بعد الرسالة يذكر فيها فضل أبي بكر وعمر ، لينفث الإمام بعض مأخذ عليها ، فيتخذ منها معاوية ما اتخذ من قيص عثمان ، ومن رسائله في ذلك الرسالة التي نحن بصدد جوابها . هذا ما قاله النقيب لتلميذه الشارح ، وجواب الإمام يشهد بصحته كما يشهد بأن الإمام أدرك هدف معاوية ، ففوت عليه الفرصة ، وكشف له عن سوء طويته حيث قال له فيما قال : وأردت أن تفضح فافتضحت .

(فلقد خبأ لنا الدهر منك عجباً الخ) .. وأي شيء أعجب من هذا ؟

معاوية يحدث علياً عن فضل محمد (ص) ! غريب متطفل يُخبر أهل البيت بما في مخزائهم !. عدو أبيك اللدود ينبئك عن فضله وعظمته !. ولا أدري : هل هذا دهاء أو نكتة ؟. وقد تواضع الإمام حين شبه معاوية بالتلميذ يدعو استاذَه الى المسابقة والمباراة (وزعمت ان أفضل الناس في الإسلام فلان وفلان الخ) .. هذا هو بيت القصيد في رسالة معاوية ، أثنى على الشيخين ليطعن الإمام عليهما ، فيبلغ منه معاوية ما أراد ، ولكن الإمام وجهه الى قلب معاوية طعنة نجلاء حين قال له : ما أنت وأهل السياسة والفضل ، والهجرة والنصر ؟. إنك طليق وابن طليق ، حاربت أنت وأبوك الإسلام ونبي الإسلام ، ثم استسلمتاً كرهاً لا طوعاً. (فما عليك غلبة المغلوبين الخ) .. لا تفحم نفسك ببني وبين الشيخين غالباً كنتُ أو مغلوباً ، فتقدمهما عليّ ليس انتصاراً لك ، ولا تقديم عليهما إلا يزيدك خزيّاً ، لأنك مع الطلقاء لا مع السابقين الأولين (ألا ترى غير خبر لك) لأن مثلي لا يقصد مثلك بالحديث (ولكن بنعمة الله احدث) يشير الى قوله تعالى : « واما بنعمة ربك فحدث - ١١ الضحى » . (ان قوماً استشهدوا في سبيل الله الخ) .. وفضلهم كبير وجليل لأنهم أحياء عند ربهم يرزقون .

(حتى اذا استشهد شهيدنا الخ) .. لكل شهيد فضل يشكر ، ولكن لشهيد أهل البيت أفضلية على سائر الشهداء لا ينكرها مسلم ، والدليل أن رسول الله (ص) سمى حمزة بن عبد المطلب سيّد الشهداء ، وكبّر عليه سبعين تكبيرة ، وما فعل هذا بشهيد من الأنصار والمهاجرين ، إذ كان لا يزيد عن سبع تكبيرات ، ولا يعطي الشهيد أي لقب . وقال ابن أبي الحديد : ان حمزة سيد الشهداء في حياة النبي (ص) فقط ، لأن الإمام هو سيّد لكل شهيد ومسلم بعد رسول الله .

(ان قوماً قطعت أيديهم في سبيل الله ، ولكل فضل حتى اذا فعل بواحدنا الخ) .. يشير الى أخيه جعفر واستشهاده في مؤتة . وتقدم الكلام عنه وعن حمزة في الرسالة ٩ (ولولا ما نهى الله الخ) .. أشار الإمام الى حمزة وجعفر ، وسكت عن نفسه تأدباً بقوله تعالى : « فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى - ٣٢ النجم » .

لستم هنالك .. فقرة ٤ - ٧ :

فَدَخَ عَنْكَ مَنْ مَالَتْ بِهِ الرِّمِيَّةُ فَإِنَّا صَنَائِعُ رَبَّنَا وَالنَّاسُ بَعْدُ صَنَائِعُ
لَنَا . لَمْ يُنْشِئْنَا قَدِيمَ عِزِّنَا وَلَا عَادِيَّ طَوْلِنَا عَلَى قَوْمِكَ أَنْ خَلَطْنَاكُمْ
بِأَنْفُسِنَا فَتَكَحَّنَا وَأَنْكَحْنَا فَعَلَ الْأَكْفَاءُ وَلَسْتُمْ هُنَاكَ . وَأَنْتَى يَكُونُ
ذَلِكَ كَذَلِكَ وَمِنَّا النَّبِيُّ وَمِنْكُمْ الْمُكَذِّبُ ، وَمِنَّا أَسَدُ اللَّهِ وَمِنْكُمْ
أَسَدُ الْأَحْلَافِ ، وَمِنَّا سَيِّدُ شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَمِنْكُمْ صَبِيَّةُ النَّارِ ،
وَمِنَّا خَيْرُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ وَمِنْكُمْ سَحَابَةُ الْحَطَبِ فِي كَثِيرٍ مِمَّا لَنَا
وَعَلَيْكُمْ^(١) . فَإِسْلَامُنَا قَدْ سُمِعَ ، وَجَاهِلِيَّتُنَا لَا تُدْفَعُ ، وَكِتَابُ
اللَّهِ يَجْمَعُ لَنَا مَا شَذَّ عَنَّا وَهُوَ قَوْلُهُ « وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى
بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ » . وَقَوْلُهُ تَعَالَى « إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ
لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ » فَنَحْنُ
مَرَّةً أَوْلَى بِالْقَرَابَةِ ، وَتَارَةً أَوْلَى بِالطَّاعَةِ . وَلَمَّا احْتَجَّ الْمُهَاجِرُونَ
عَلَى الْأَنْصَارِ يَوْمَ السَّقِيفَةِ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَلَجُّوا
عَلَيْهِمْ ، فَإِنْ يَكُنِ الْفَلَجُ بِهِ فَالْحَقُّ لَنَا دُونَكُمْ ، وَإِنْ يَكُنْ بغيرِهِ
فَالْأَنْصَارُ عَلَى دَعْوَاهُمْ . وَزَعَمْتَ أَنِّي لِكُلِّ الْخُلَفَاءِ حَسَدْتُ وَعَلَى
كُلِّهِمْ بَغَيْتُ ، فَإِنْ يَكُنْ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَلَيْسَ الْجِنَايَةُ عَلَيْكَ فَيَكُونُ

أَلْعَذْرُ إِلَيْكَ ، وَتِلْكَ شَكَاةُ ظَاهِرٍ عَنْكَ عَارُهَا ^(٥) . وَقُلْتَ إِنِّي
 كُنْتُ أَقَادُ كَمَا يُقَادُ الْجَمَلُ الْمَخْشُوشُ حَتَّى أَبَايَعَ . وَلَعَمْرُ اللَّهِ لَقَدْ
 أَرَدْتُ أَنْ تَذُمَّ قَدْ دَخَلْتُ ، وَأَنْ تَفْضَحَ فَافْتَضَحْتُ . وَمَا عَلَى الْمُسْلِمِ
 مِنْ غَضَاظَةٍ فِي أَنْ يَكُونَ مَظْلُومًا مَا لَمْ يَكُنْ شَاكًا فِي دِينِهِ وَلَا
 مُرْتَابًا بِبَيْعِيهِ . وَهَذِهِ حُجَّتِي إِلَى غَيْرِكَ قَصْدُهَا ، وَالْكَيْفِي أَطْلَقْتُ
 لَكَ مِنْهَا بِقَدْرِ مَا سَنَحَ مِنْ ذِكْرِهَا . ثُمَّ ذَكَرْتُ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِي
 وَأَمْرِ عُثْمَانَ فَلَمْ أَنْ تَجِبْ عَنْ هَذِهِ لِرَحِمِكَ مِنْهُ فَأَيْنَا كَانَ أَعْدَى
 لَهُ وَأَهْدَى إِلَى مَقَاتِلِهِ . أَمِنْ بَذَلَ لَهُ نُصْرَتُهُ فَاسْتَقْعَدَهُ وَأَسْتَكَفَّهُ ،
 أَمِنْ أَسْتَنْصَرَهُ فَتَرَاخَى عَنْهُ وَبَثَّ الْمُنُونَ إِلَيْهِ حَتَّى أَتَى قَدْرُهُ عَلَيْهِ .
 كَلَّا وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ الْمُعْوِقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا
 وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا . وَمَا كُنْتُ لِأَعْتَذِرَ مِنْ أُنِّي كُنْتُ
 أَنْقِمُ عَلَيْهِ أَحْدَاثًا ، فَإِنْ كَانَ الذَّنْبُ إِلَيْهِ إِرْشَادِي وَهِدَايَتِي لَهُ فَرُبَّ
 مَلُومٍ لَا ذَنْبَ لَهُ . وَقَدْ يَسْتَفِيدُ الظَّنُّهُ الْمُتَنَصِّحُ ، وَمَا أَرَدْتُ إِلَّا
 الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ^(٦) .
 وَذَكَرْتُ أَنَّهُ لَيْسَ لِي وَلَا أَصْحَابِي إِلَّا السَّيْفُ . فَلَقَدْ أَضْحَكْتُ بَعْدَ
 اسْتِعْبَارٍ ، مَتَى أَلْفَيْتَ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَنِ الْأَعْدَاءِ فَكِلَيْنِ ،

وَبِالشُّيُوفِ مُخَوِّفِينَ ، لَبِثَ قَلِيلًا يَلْحَقِ الْهَيْجَا حَمْلٌ ، فَسَيَطْلُبُكَ مَنْ
تَطْلُبُ ، وَيَقْرُبُ مِنْكَ مَا تَسْتَبْعِدُ ، وَأَنَا مُرْقِلٌ نَحْوَكَ فِي جَحْفَلٍ
مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ شَدِيدٍ زِحَامُهُمْ ،
سَاطِعٍ قَتَاؤُهُمْ ، مُتَسَرِّبِلِينَ سَرَائِلَ الْمَوْتِ ، أَحَبُّ اللَّقَاءِ إِلَيْهِمْ لِقَاءُ
رَبِّهِمْ ، قَدْ صَحِبَتْهُمْ ذُرِّيَّةٌ بِذُرِّيَّةٍ ، وَسُيُوفٌ هَاشِمِيَّةٌ ، قَدْ عَرَفَتْ
مَوَاقِعَ نِصَالِهَا فِي أُخْيِكَ وَخَالِكَ وَجَدِّكَ وَأَهْلِكَ « وَمَا هِيَ مِنْ
الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ » (٧) .

اللغة :

الرمية : الصيد يُرمى . والصنائع : من الصنعة أي الحسنة . وعادي : قديم .
والطَّوَل : الفضل . وفلجوا : ظفروا . والمراد بالشكاة هنا العيب ، وبالظاهر
الزائل . والجمل المخشوش : في أنفه خشبة صغيرة يقاد بها . والمعوقين :
المثبطين والمانعين من النصر . والظنة : التهمة . والمتنصح : المبالغ في النصيحة .
والاستعبار : البكاء . وناكسين : متأخرين . ولبث : من اللبث أي المكث .
واهيجاء : الحرب . وحمل : اسم رجل من قشير . ومرقل : مسرع . والجحفل :
الجيء العظيم . وساطع : منتشر . والقَتَام : الغبار الأسود . ومتسريلين :
لابسين .

الإعراب :

روي قديم عزنا بنصب قديم على نزع الخافض أي على قديم ، وعليه يكون
ضمير « نا » فاعل ، وروي برفع قديم على أنه فاعل و « نا » مفعول ، والمصدر

من خلطناكم مجرور بمن محذوفة ، وقيل : المصدر من ان خلطناكم فاعل يمنع ، وفعل الاكتفاء بالنصب على المصدر أي فعلنا فعل الاكتفاء، واتي خبر مقدم ليكون، وذلك اسمها ، ومنّا النبي مبتدأ وخبر ، وفي كثير متعلق بمحذوف خبراً لمبتدأ محذوف أي هذا قليل من كثير الخ ، ومرة نصب على الظرفية أي فعلة واحدة من مرور الزمن ، وثارة عطف على مرة ، وتلك مبتدأ أول، وشكاة مبتدأ ثان ، وظاهر خبر المبتدأ الثاني ، والجملة خبر الأول ، وعارها فاعل ظاهر ، وعلى المسلم خبر مقدم ، وغضاضة مبتدأ مؤخر ، ومن زائدة ، ولك خبر مقدم ، والمصدر من أن تجاب مبتدأ مؤخر ، ولبت فعل أمر، وقليلًا صفة لمفعول مطلق محذوف أي لبتاً قليلاً ، والهيجا مفعول يلحق ، وحمل فاعل ، ومتسرلين حال، وسراييل مفعول متسرلين .

المعنى :

(فدع عنك من مالت به الرمية) . لا تسمع من المضللين الذين يزينون لك سوء أعمالك ، وبغروئك بحربنا وعداوتنا (فأتا صنائع ربنا ، والناس بعد صنائعنا) . ان الله سبحانه من علينا نحن الهاشميين بمحمد (ص) وبه ختم النبوة والبيين ، وإذن فنحن أهل الفضل على الناس برسول الله (ص) الذي أخرجهم من الظلمات الى النور ، ولا فضل لأحد علينا سوى الله ، فهو وحده مصدر هدايتنا ، أما غيرنا من المسلمين فهدايته بنا، فالفضل لنا بمحمد على أمة الإسلام، ولها بمحمد وأهل بيته الفضل على سائر الأمم .

(لم يمنعنا قديم عزنا الخ) .. نحن يا معاوية أجل منكم وأعلى ، وأنتم أقل وأدنى ، وليس معنى هذا أن لا نعاملكم معاملة الأكفاء في الزواج كي تحتج به، فإن الكفو قد يتزوج ويزوج غير الكفو .. وتجدر الإشارة إلى أن الإمام أبعد الناس عن الفخر، ولكن موقف معاوية قد اضطره الى ذلك . وقال حفيده الإمام جعفر الصادق (ع) : يجوز للإنسان أن يزكي نفسه عند الضرورة كما فعل يوسف حين قال للملك مصر : « اجعلني على خزائن الأرض اني حفيظ عليم - ٥٥ يوسف » .

وقال ابن أبي الحديد : نذكر بهذه المناسبة مناكحات بني هاشم وعبد شمس،

فقد زوّج النبي ابنتيه رقية وأم كلثوم من عثمان، وزوّج ابنته زينب من أبي العاص ابن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس في الجاهلية ، وتزوّج أبو لهب بن عبد المطلب أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان ، وتزوّج رسول الله أم حبيبة بنت أبي سفيان .

(ومنّا النبي ومنكم المكذب) أبو سفيان . وقال بعض الشارحين: أبو جهل! . ولكن أبا جهل مخزومي ، وليس بأموي ، ينتهي نسبه الى مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي ، كما في سيرة ابن هشام (ومنّا أسد الله) حمزة بن عبد المطلب (ومنكم أسد الأحلاف) الخ .. قال الشيخ محمد عبده : « أسد الأحلاف أبو سفيان ، لأنه حزب الأحزاب وحالفهم على قتال النبي في غزوة الخندق ، وسيد شباب أهل الجنة : الحسن والحسين بنص قول الرسول » . (ومنكم صبية النار) وهم طغاة الجور من الحكام الأمويين (ومناخير نساء العالمين) فاطمة الزهراء (ع) . (ومنكم حمالة الحطب) أم جميل عمة معاوية التي اشتهرت بعدائها لرسول الله (في كثير مما لنا) من الفضائل (وعليكم) من الرذائل .

ولمناسبة ذكر سيدة النساء أشير الى صدور كتاب جديد ، اسمه « أهل البيت » لمؤلفه توفيق أبو علم ، ولم أر الكتاب ، ولم أجده في مكاتب بيروت ، وإنما قرأت عنه في جريدة « الأخبار » المصرية تاريخ ٢٤ - ١١ - ١٩٧٢ ، ومما جاء في الجريدة : « قالوا بحق : إن فاطمة الزهراء نداء الملايين ، وشهاب النبوة ، وأنها في القمة . وكل ذلك مرآة تعكس جزءاً ضئيلاً مما هي عليه . أليست بنت النبوة وربيبة الوحي ؟. ومثال المرأة التي يريد الله ، وقطعة من الاسلام المجسد في رسول الله ، وقدوة للمرأة وللانسان المؤمن في كل زمان ومكان ؟ » .

(فإسلامنا قد سمع وجاهلينا لا تدفع) . نحن بني هاشم مشهورون بالصدق والأمانة ، ومكارم الأخلاق في الجاهلية والإسلام ، قال العقاد في كتاب « عبقرية محمد » : « كان بنو هاشم أصحاب عقيدة وأريحية ووسامة ، وكان بنو أمية أصحاب عمل وحيل ومظهر مشنوء .. ومهما تجد من ندين متناظرين في هاشم وأمّية إلا وجدت بينهما هذا الفارق على نحو من الأنحاء » .

أولى الناس بالني :

(وكتاب الله يجمع لنا ما شئد عنا الله - الى - أولى بالطاعة) . يجمع :
يوجب ، وشئد : أبعد ، والمعنى لا فوضى وعشوائية في الواقع ولا في الإسلام ،
فالله اختار محمداً (ص) للسفارة بينه وبين عباده ، لأنه « أعلم حيث يجعل رسالته »
وبكذلك الخلافة لا بد لها من سبب موجب ، ولا يخلو السبب الموجب لتولي الخلافة
من أحد فرضين : إما الرحم والقربا من النبي المختار أخذاً بظاهر الآية ٧٥ من
سورة الأنفال : « واولو الأرحام بعضهم أولى ببعض » . وإما التبعية والطاعة
لرسول الله (ص) كما في الآية ٦٨ من سورة آل عمران : « إن أولى الناس
بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا » . وليس من شك ان أهل البيت
هم أقرب الناس الى رب البيت وصاحبه ، وأعلمهم بسنته ، وأول من آمن به
وناصره ودافع عنه .

وهذه الحجة العقلية الثقيلة التي أدلى بها الإمام - تثبت انه أولى بالخلافة من
السابق واللاحق دون أن يجد فيها معاوية أي مغزى يتشبه به ويحتج عند أهل
الشام .

(ولما احتج المهاجرون - الى - دعواهم) . تنازع المهاجرون والأنصار
على الخلافة . فقال هؤلاء : نحن آوينا النبي وناصرناه . وقال أولئك : نحن شجرته
وقرباته . وبالتالي تغلب المهاجرون .. فإن كان للقربا أثرها كما زعم المهاجرون
فالإمام أقرب من كل قريب وإلا فحجة الأنصار قائمة ، ولا تبطل بقول المهاجرين .
وفي سائر الأحوال فأنت يا معاوية طليق لا مهاجر ولا مناصر . وبكلمة قصيرة
الإمام طرف أصيل في مسألة الخلافة ، لأنه أقرب الأرحام وهاجر وناصر ،
أما معاوية فدعي دخيل . وسبقت الإشارة الى « السقيفة » في الخطبة ٣
والخطبة ٦٦ .

(وزعمت اني لكل الخلفاء حسدت الخ) .. لنفترض صحة ما تقول ،
وفرض المحال ليس بمحال ، فهل حسدتك يا معاوية كي أعتذر اليك ؟ وهل
لك من فضل في شيء تحسد عليه ، أو تغبط ؟ . (وقلت : اني كنت أقاد الخ) .
ثم ماذا ؟ وهل في ذلك نقص من ديني وخلقي ، أو علمي ومكاني عند خالقي
(لقد أردت أن تدم فحدث) ذلك بأن الذي يُدم حقاً هو الظالم الغاصب من

أمثالك يا معاوية ، أما المظلوم فالله وليه ونصيره . وعلى منطلقك هذا ينبغي أن تمدح أباك ، وتذم الرسول الأعظم (ص) - استغفر الله - لأنه عانى الكثير من أبيك أبي سفيان .. جيش الجيوش ، وحزب الأحزاب ، وعقد الأحوال على حرب نبي الله ، وحاول قتله بكل سبيل ، وكسر جيش أبيك يوم أحد أنف النبي ورباعيته ، وشجّه في وجهه .. وأيضاً ينبغي أن تُثني على أمك هند ، لأنها أكلت كبد حمزة سيد الشهداء ، وتبارك عنك أم جميل حمالة الحطب ، لأنها جمعت الأشواك ، ونثرتها في طريق رسول الرحمة .. حقاً لقد أردت أن تفضح فافتضحت من حيث لا تشعر .. فأين دهاؤك وذكاؤك ؟.

(وهذه حجتي الى غيرك قصدها الخ) .. قال الشيخ محمد عبده : يحتاج الإمام على حقه لمن هو مظنة الاستحقاق للخلافة لا لمعاوية ، لأنه منقطع عن جرثومة الأمر فلا حاجة للاحتجاج عليه (ثم ذكرت ما كان من أمري وأمر عثمان الخ) .. وأنا أجيبك لقربتك منه ، وإلا فأنت أحقر من أتوجه اليه بقول .

(فأينا كان أعدى له الخ) .. قال العقاد في كتاب « معاوية » ص ١٤٨ الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٦ : ان أثبت ما ثبت من نفعية - أي انتهازية - معاوية هو طلبه من عثمان ان تكون له ولاية الدم بعد مقتله ، وهذا الطلب بمثابة طلب ولاية العهد .. ومعناه في الواقع ان معاوية كان يتمنى قتل عثمان ليتولى الخلافة من بعده . ١. ثم نقل العقاد في ص ١٤٩ عن تاريخ الخلفاء للسيوطي : ان معاوية بعد أن تم له الأمر قال للصحابي أبي الطفيل عامر بن نائلة : ألسنت من قتلة عثمان ؟ قال أبو الطفيل : لا ، ولكني لم أنصره . قال معاوية : وما منعك من نصره ؟ قال : لم أنصره المهاجرون والأنصار . قال معاوية : كان حقاً واجباً عليهم أن ينصروه . قال له أبو الطفيل : وما منعك أن تنصره ومعك أهل الشام ؟ قال معاوية : أما طلبي بدمه فنصرة له . فضحك أبو الطفيل وقال : أنت وعثمان كما قال الشاعر :

لا ألفينك بعد الموت تندبني وفي حياتي ما زودتني زادا

وقال العقاد في ص ١٥٠ : آل الأمر الى معاوية بعد حين ، وما أخذ أحداً ،

أو حاسب واحداً من قتلة عثمان ، وكان يلقي الرجل منهم فيسكت عنه أو يسأله :
ألست من قتلة عثمان ، ثم يصرفه مزوداً بالعطاء . وسبق الحديث عن ذلك أكثر
من مرة .

(ما كنت لأعتذر من أنني كنت أنقم عليه احداثاً الخ) .. قال الشيخ محمد
عبده : « انقم عليه أي أعيب عليه ، والاحداث البدع » وعلى هذا يكون
المعنى لا اعتذر من أنني كشفت لعثمان عن دخوله في الباطل وخروجه من الحق
(وما أردت إلا الاصلاح ما استطعت) ولكن عثمان ومروان كانا يتهانني في
النصح (فرب ملوم لا ذنب له) عند الله ، وكفى به ولياً ونصيراً .

شجاعة الإمام :

(وذكرت انه ليس لي ولأصحابي عندك إلا السيف الخ) .. معاوية يهدد
الإمام بالحرب ، وهو يعلم مكانه فيها ، ويعلم ان معه سيوف الهاشميين والصحابية
والتابعين ، وكلهم يتقربون الى الله في حرب معاوية .. ولا أعرف أحداً صور
شجاعة الإمام وثقته بنفسه كما صورها العقاد في كتاب « عبقرية الإسلام » ، قال :
« كان الإمام وهو في طفولته ، وقبل أن يبلغ مبلغ الرجال - يعلم أنه شيء في
هذه الدنيا ، وانه قوة لها جوار يركن اليها المستجير .. والدليل على ذلك ان
صناديد قريش أحاطوا بالنبي (ص) ينذرونه وينكرونه ، والنبي يقرب طرفه في
الوجوه ويسأل عن النصير ولا نصير إلا علي بن أبي طالب ، وهو في العاشرة
أو نحوها دون أن يهاب الرؤوس الكبار والشيخو الذين رفعتهم الوجاهة .. وعلي
في الخمسين أو الستين هو علي يوم كان في تلك السن » .

وما ترك العقاد بعد هذا قولاً لقائل !. ابن العاشرة يقف منفرداً لأكبر
الرؤوس، وأصحاب السيوف والجيش غير هيب ولا مكترث، ويقول للنبي (ص):
أنا يا رسول الله لهؤلاء الطغاة ، ولن يصلوا اليك ما دمت حياً .. يقول هذا
دون أن يعتمد على دولة أو عشيرة أو شيء سوى الثقة بنفسه والاتكال على الله .
والنبي يقبل منه ، ويثق به ، ويقول له : أجل ، أنت أخي ونصيري ووزير.
وصدق الإمام القول بالفعل ، وكان عند ظن الرسول ، بات على فراشه ليلة
الهجرة ، وفوت الفرصة على قريش ، وأطاح رؤوس الكبار منها عن أجسادها

في بدر وأحد والأحزاب .. حتى استسلمت صاغرة ابتغاء السلامة والعافية .
(وقد عرفت مواقع نصالنا في أخيك) حنظلة (وخالك) الوليد بن عتبة
(وجدك) عتبة بن ربيعة في يوم بدر (وأهلك) أتباع أبيك . وتقدم مثله
مع الشرح في الرسالة ١٠ . وكتب بعض الشارحين حول هذه الرسالة أكثر من
٣٥٠ صفحة .

الرسالة

- ٢٨ -

إلى أهل البصرة :

وَقَدْ كَانَ مِنْ أَنْتِشَارِ حَبْلِكُمْ وَشِقَاقِكُمْ مَا لَمْ تَغْبُوا عَنْهُ ،
فَعَقَمْتُ عَنْ جُجْرِمِكُمْ ، وَرَفَعْتُ السَّيْفَ عَنْ مُدْبِرِكُمْ ، وَقَبِلْتُ
مِنْ مُقْبِلِكُمْ . فَإِنْ خَطَّتْ بِكُمْ الْأُمُورُ الْمُرْدِيَّةُ ، وَسَفَهُ الْأَرَاهُ
الْجَائِرَةُ إِلَى مُنَابَذَتِي وَخِلَافِي فَهَا أَنَا ذَا قَدْ قَرَّبْتُ جِيَادِي وَرَحَلْتُ
رِكَابِي ، وَلَتُنْ الْجَائِئُونِي إِلَى الْمَسِيرِ إِلَيْكُمْ لِأَوْقَعَنَّ بِكُمْ وَقَعَةً لَا يَكُونُ
يَوْمُ الْجَمَلِ إِلَيْنَا إِلَّا كَلْعَقَةٍ لَاعِقِي ، مَعَ أَنِّي عَارِفٌ لِذِي الطَّاعَةِ مِنْكُمْ
فَضْلُهُ وَلِذِي النَّصِيحَةِ حَقُّهُ ، غَيْرَ مُتَجَاوِزٍ مُتَّهًا إِلَى بَرِيٍّ ، وَلَا نَاكِثًا
إِلَى وَفِيٍّ .

اللغة :

انتشار حبلكم : تفرقكم . وشقاقكم : عداوتكم وخلافكم . وتغبوا : تغفلوا .

والمردية : المهلكة وسفه الآراء : ضعفها . والجائرة : المائلة عن الحق .
والمنابهة : المخالفة . واللعقة : اللحسة .

الإعراب :

ما لم تغبوا « ما » اسم كان ، وغير متجاوز بالنصب حال ، وبالرفع خبر
ثاني لأنني ، ومتنهماً مفعول متجاوز .

المعنى :

(وقد كان من انتشار جبلكم - الى - مقبلكم) . الخطاب لأهل البصرة ،
وكانوا قد أعطوا الإمام طاعتهم وولاءهم ، فولى عليهم عثمان بن حيف ، وما
ان دخلت أم المؤمنين البصرة بجملها مع طلحة والزبير حتى نكث أكثر أهلها بيعة
الإمام ، وأعلنوا عليه الحرب ، ولما انتصر عليهم عفا عنهم ، وعادت المياه الى
مجارها .. ولكن معاوية لا يريد أن تهدأ العاصفة من حول علي ، فأرسل الى
البصرة من يحرضها على الفتنة تارة ونقض العهد تارة أخرى .

فأرسل اليهم الإمام هذا الكتاب يذكرهم بما كان منه ، ويهددهم ان عادوا
لمثلها بقوله : (فإن خطت بكم الأمور الخ) .. ان عدتم ثانية الى الفساد في
الأرض فأنا لكم بالمرصاد ، وملأنا عليكم خيلاً ورجالاً ، وعاملتكم كمن آمن
ثم كفر ، ثم آمن ثم كفر ثم ازداد كفراً ، وجعلتكم عبرة (لا يكون الجمل)
بالنسبة اليها (الا كلقة لاقق) . أخذتكم في وقعة الجمل بالرأفة واللين ، ولكن
ان عدتم الى مثلها فما لكم عندي إلا الشدة والنكال .. وغرض الإمام من هذا
التهديد والوعيد مجرد التخويف والوقاية عسى يكفوا عن الفتنة والفساد .

(مع اني عارف للذي الطاعة منكم الخ) .. الشكر والحسنى لمن أطاع منكم ،
والعصا لمن عصى ، ولا تظلمون فتيلاً . قال ابن أبي الحديد : « يقول الإمام
لأهل البصرة : لا آخذ البريء بالسقيم ، والوفى بالناكث . وبعد الإمام قال زياد
ابن أبيه لأهل البصرة : والله لآخذن البريء بالسقيم ، والبر بالثيم ، والوالد

بالولد ، والجار بالجار ، .. حكمة بالغة أرادها الله في عباده لا يدركها إلا ذو عقل ودين: رفض أهل البصرة العدل وأهله ، فسلط سبحانه عليهم الجور وعتاته.. وهكذا من رفض الرزق الكفاف تكابراً وتعالياً يحرمه الخالق الرازق حتى من اليسير . سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

الرسالة

- ٢٩ -

الى معاوية غاية الخسر:

فَاتَّقِ اللَّهَ فِيمَا لَدَيْكَ ، وَأَنْظُرْ فِي حَقِّهِ عَلَيْكَ ، وَأَرْجِعْ إِلَى مَعْرِفَةِ
مَا لَا تُعْذِرُ بِجَهَالَتِهِ ، فَإِنَّ لِلطَّاعَةِ أَعْلَامًا وَاصِحَّةً ، وَسُبُلًا نَبِيْرَةً ،
وَمَحَجَّةً نَهْجَةً وَغَايَةً مَطْلُوبَةً يَرِدُهَا الْأَكْيَاسُ وَيُخَالِفُهَا الْأَنْكَاسُ . مَنْ
نَكَّبَ عَنْهَا بَارًا عَنِ الْحَقِّ وَخَبِطَ فِي التَّيِّهِ ، وَغَيَّرَ اللَّهُ نِعْمَتَهُ ،
وَأَحْلَلَ بِهِ نِقْمَتَهُ . فَنَفْسَكَ نَفْسَكَ فَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ لَكَ سَبِيلَكَ . وَحَيْثُ
تَنَاهَتْ بِكَ أُمُورُكَ فَقَدْ أُجْرِيَتْ إِلَى غَايَةِ خُسْرٍِ وَمَحَلَّةٍ كُفْرٍ ، وَإِنَّ
نَفْسَكَ قَدْ أُولَجَتْكَ شَرًّا ، وَأَقْحَمَتْكَ غِيًّا ، وَأَوْرَدَتْكَ الْمَهَالِكَ ،
وَأَوْعَرَتْ عَلَيْكَ الْمَسَالِكَ .

اللغة :

أعلاماً : علامات ودلائل . والمحجة الطريق الواضحة ، ونهجة واضحة .

ومطلّبة - بتشديد الطاء وفتحها - مطلوبة . والأكياس : العقلاء . والانكاس : ضد العقلاء ، وهم الذين تكثّر منهم الأخطاء والأسواء . ونكب : عدل . وخبط : سار بغير هدى . والته الضلال . وتناهت الأمور : بلغت غايتها . وأولجتك : أدخلتك . وأقحمتك : رميت بنفسك بلا روية . وأوعرت : صعّبت وضيّقت .

الإغراب :

نفسك نصب على التحذير أي احذر نفسك ، وحيث في محل نصب بفعل محذوف أي قف مكانك .

المعنى :

(فأتق الله فيما لديك الخ) .. يا معاوية من أموال المسلمين ، وفيما أنت متسلط عليه من شؤونهم ومصالحهم ، وهذا حق واجب عليك لله وللأمة (وارجع الى معرفة ما لا تعدل بجهالته) . المراد بالمعرفة هنا الطاعة ، من باب إطلاق المعرفة على الشيء المعروف ، والمعنى دع عنك العمل لتفريق الجماعة ، وارجع الى الطاعة ، وأنت تعلم ان إيقاظ الفن من أكبر الكبائر ، والله سبحانه لا يقبل منك الاعتذار بالجهل ، لأنك كاذب فيه . قال العقاد في كتاب « معاوية » : انه فرق الأمة شيعاً ، فلا تعرف كيف تتفق .. ولو حاسبه التاريخ حسابه الصحيح لما وصفه بغير مفرق الجماعة .

(فإن للطاعة أعلاماً واضحة الخ) .. وهي العمل لجمع الشمل ، والتعاون مع الجميع على مصلحة الاسلام والمسلمين .. ولكن هذا يصدر عن الإخلاص وحب الخير ، ولا يتوخاه إلا أهل الوعي والإيمان ، وليس معاوية منهم في شيء ، لأنه ناكب عن الحق ، ضارب في الضلال (فقد بين الله لك سبيلك) حرصت على الدنيا وعاجلها، وانصرفت عن الله بعد أن بين لك حلاله وحرامه ، وأرشدك الى سواء السبيل (فقد أجريت الى غاية خسر ، ومحلة كفر) . مضيت

في طريق ينتهي بك الى الحسران المبين ، والكفر المشين .
وبعد ، فإن إصرار الإمام على موعظة معاوية لا يخلو من أحد فرضين : إما
من باب إلقاء الحجة على معاوية ، وإما للتشهير به وإعلان حقيقته لكل جيل ،
كما يفعل اليوم من يملكون وسائل الدعاية والنشر وإلا فإن الإمام يعلم بأن عظاته
لمعاوية لا تزيده إلا فراراً واستكباراً

الرباع

- ٣٠ -

وصية للإمام الحسن :

مِنَ الْوَالِدِ الْفَانِ . الْمُقَرَّرُ لِلزَّمَانِ ، الْمُدْبِرُ الْعُمُرِ ، الْمُسْتَسْلِمُ لِلدَّهْرِ .
الذَّامُّ لِلدُّنْيَا ، السَّاكِنُ مَسَاكِينَ الْمَوْتِ . وَالظَّاعِنُ عَنْهَا غَدًا . إِلَى
الْمَوْلُودِ الْمُؤَمِّلِ مَا لَا يُدْرِكُ ، السَّالِكِ سَبِيلَ مَنْ قَدْ هَلَكَ ، غَرَضِ
الْإِسْقَامِ وَرَهِينَةِ الْأَيَّامِ . وَرَمِيَّةِ الْمَصَائِبِ . وَعَبْدِ الدُّنْيَا . وَتَاجِرِ
الْغُرُورِ . وَغَرِيمِ الْمَنَآيَا . وَأَسِيرِ الْمَوْتِ . وَحَلِيفِ الْهُومِ . وَقَرِينِ
الْأَحْزَانِ . وَنُصْبِ الْأَلْفَاتِ . وَصَرِيحِ الشَّهَوَاتِ ، وَخَلِيفَةِ الْأَمْوَاتِ^(١) .
أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ فِيمَا تَبَيَّنَتْ مِنْ إِذْبَارِ الدُّنْيَا عَنِّي وَجُوحِ الدَّهْرِ عَلَيَّ
وَأَقْبَالَ الْآخِرَةِ إِلَيَّ مَا يَزْعُمُنِي عَنْ ذِكْرِ مَنْ سِوَايَ ، وَأَلَا هِمَامِي بِمَا
وَرَأَيْتِي ، غَيْرَ أَنِّي حَيْثُ تَفَرَّدَ بِي دُونَ هُومِ النَّاسِ هُمْ نَفْسِي ،
فَصَدَّقَنِي رَأْيِي وَصَرَفَنِي عَنْ هَوَايَ ، وَصَرَاحَ لِي فَخْضِ أَمْرِي فَأَفْضَى

يَبِي إِلَى جِدِّ لَا يَكُونُ فِيهِ لَعِبٌ ، وَصَدَقَ لَا يَشُوْبُهُ كَذِبٌ .
وَوَجَدْتُكَ بَعْضِي بَلْ وَجَدْتُكَ كُلِّي حَتَّى كَانَ شَيْئاً لَوْ أَصَابَكَ
أَصَابِي ، وَكَانَ الْمَوْتُ لَوْ أَتَاكَ أَتَانِي ، فَعَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِينِي
مِنْ نَفْسِي فَكَتَبْتُ إِلَيْكَ مُسْتَظْهِراً بِهِ إِنَّ أَنَا بَقِيْتُ لَكَ أَوْ فَنَيْتُ^(٢) .

اللغة :

الرمية : الهدف . ونصب - بضم النون والصاد - أشراك منصوبة للصيد .
والجموح : العصيان . ويزعني : يمنعي . وصدفني : صرفني . ومستظهِراً :
مستعيناً .

الإعراب :

من الوالد متعلق بمحذوف خبراً لمبتدأ محذوف أي هذه وصية من الوالد ، وإلى
المولود متعلق بهذه الوصية ، والقائي وما بعده صفة للوالد ، والمؤمل وما بعده
صفة للمولود ، وما يزعني «ما» مفعول تبيينت ، غير اني نصب على الاستثناء ،
ومستظهِراً حال من فاعل كتبت .

صلح الحسن واستشهاد الحسين :

قال الشريف الرضي : كتب أمير المؤمنين هذه الوصية لولده الإمام الحسن
بحاضرين عند انصرافه من صفين . وحاضرين اسم بلدة في نواحي صفين .
والإمام الحسن هو السبط الأول لرسول الله (ص) ، والمولود البكر لأُمير
المؤمنين ، والإمام الثاني من أئمة أهل البيت (ع) ورابع أصحاب الكساء ، وأحد
ريحاني النبي ، وسيدي شباب أهل الجنة . وُلِدَ ليلة النصف من رمضان سنة ثلاث
من الهجرة ، وسمّاه رسول الله (ص) حسناً ، وهو أول من سُمي بهذا الاسم ،

وفي صحيح البخاري ومسلم : ان رسول الله قال : اللهم اني أحب الحسن ، فأحبيه واحب من يحبه . وتولى الخلافة بعد أبيه أشهراً ، ثم جرى الصلح بينه وبين معاوية .

وتكلم الناس وأطالوا حول هذا الصلح قديماً وحديثاً ، ومنهم من صوّب ، ومنهم من خطأ بخاصة ان معاوية نقض الشروط التي أبرمها على نفسه للإمام الحسن (ع) ... روى ابن أبي الحديد ، في أول شرحه لهذه الوصية ، عن المدائني ان معاوية بعد الصلح خطب أهل الكوفة ، وقال لهم فيما قال : « أترون أنني قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج ، وقد علمت انكم تصلّون وتزكّون وتحجون ولكني قاتلتكم لأتتمر عليكم وعلى رقابكم .. ألا ان كل شرط أشترطه فتحت قدمي هاتين » .

وتكلّمنا عن هذا الصلح بنحوٍ من التفصيل في كتاب « الشيعة والحاكمون » . ومجمل القول : إن الذين خطأوا الإمام الحسن في هذا الصلح نظروا الى ما ينبغي أن يكون ، وتجاهلوا الظروف والأحداث التي أحاطت بالحسن وفرضت نفسها عليه .. اعتمدوا على اللمعة العابرة ، أو النظرية المجردة عن الزمان والمكان ، وصرفوا النظر عما يعترض تطبيقها من العقبات .

أما قول من قال : كان على الحسن أن يستشهد كما استشهد أخوه الحسين ، فلنما يصبح لو أدى استشهد الحسن الى نفس النتيجة التي أدت اليها تضحية الحسين من إحياء الدين وإعلان حقيقة الأمويين ، أما مع اختلاف النتيجة لاختلاف الظروف والمؤثرات - فلا مبرر للقياس . قال العقاد في كتاب « معاوية » : « آلت خلافة الإمام الى ابنه الحسن في معسكر مضطرب بين الخوارج والشيعة والموالي والأتباع الذين لا يعملون عمل الأتباع طائعين ، ولا يعملون عمل الرؤساء مقتدرين مضطلعين ، وورث الحسن معسكراً لم يطل عليه عهد الولاء لأحد قط ليناضل به معسكراً لم يقع فيه خلاف قط » . ومعنى هذا في واقعه ان الحسن لو لم يصالح لقتل بـسيوف معسكره لا بـسيوف أعدائه ، كما أوضحنا في كتاب « الشيعة والحاكمون » .

والخلاصة أن الحسن أخو الحسين ، وروح أبيه وأخيه بين جنبيه ، وقد استشهد الحسين لخير الإسلام والمسلمين ، وصالح الحسن للغاية نفسها ، ودفعاً للضرر الأشد بالضرر الأخف ، لا رهبة من الموت ، ولا رغبة في الحياة .

المعنى :

(المقر للزمان) بقسوته وشدته (والمستسلم للدينا) أي الصابر على آفاتهما وضرباتها (الى المولود المؤمل الخ) .. المراد بالمولود هنا كل ولد من حيث هو انسان بصرف النظر عن الحسن وغيره من الأفراد ، والقصد النهي عن طول الأمل لأنه يُنسى الآخرة (وعيد الدنيا) خاضع لمنطق الحياة ، والغرائز الحيوانية (وغريم المنايا) مديون للموت الذي يطلب الرحيل من كل حي تماماً كما يطلب الغريم الوفاء بماله من المديون (ونصب الآفات) مصيدة للنكبات والعثرات .

(فإن فيما تبينت من إمدبار - الى - وراي) . ذهب العمر أو أكثره ، ولاقيت من دهري ما لاقيت ، وجاءني الموت مسرعاً ، وهذا بطبيعة الحال يدعوني الى الاهتمام بآخرتي ومصيري، والانصراف عما عداه (غير اني حيث تفرد الخ) .. وعلى الرغم من اني في هذه اللحظة أهتم بنفسي دون غيرها فقد رأيت رأياً لا هوى فيه ولا شائبة ، وهو أني (وجدتك بعضي ، بل وجدتك كلي) وإذن فالاهتمام بك اهتمامٌ بنفسي ذاتها (حتى كأن شيئاً لو أصابك أصابني الخ) .. وهكذا كل والد يرى وجود ولده امتداداً وتكراراً لوجوده ، وقرة عين له ما كان ليحظى بها لو لم يوجد .

هذه هي عاطفة الأبوين نحو الولد .. وهي أشبه بالصرعة والجنون - فيما أرى - ولكنها غريزة حيوانية نعوذ بالله من آفاتها ، وفي الحديث الشريف : الأولاد يجبنون وييخلون . وهذه حقيقة يشعر بها كل والد ووالدة ، أما عاطفة الولد نحو أبيه فالباعث عليها - في الأغلب - مجرد المصلحة ، خاصة أولاد هذا الزمان . قال سبحانه : « ان من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم - ١٤ التغابن » . وما قال : ان من آباءكم وأمهاتكم عدواً لكم فاحذروهم .

لا خبير في علم لا ينفع .. فقرة ٣ - ٥ :

فَإِنِّي أَوْصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ أَيْ بُنْيَ وَلُزُومِ أَمْرِهِ ، وَعِمَارَةِ قَلْبِكَ بِذِكْرِهِ ،
وَالْإِعْتِصَامِ بِحَبْلِهِ . وَأَيُّ سَبَبٍ أَوْثَقُ مِنْ سَبَبِ يَنْتِكَ وَيَيْنَ اللَّهِ إِنَّ

أَنْتَ أَخَذْتَ بِهِ . أَحْيِ قَلْبَكَ بِالْمَوْعِظَةِ ، وَأَمِتْهُ بِالزَّهَادَةِ ، وَقَسْوِهِ
بِالْيَقِينِ ، وَتَوَرَّعْهُ بِالْحِكْمَةِ . وَذَلِّلْهُ بِذِكْرِ الْمَوْتِ ، وَقَرَّرْهُ بِالْفَنَاءِ ،
وَبَصِّرْهُ فَجَائِعَ الدُّنْيَا ، وَحَذِّرْهُ صَوْلَةَ الدَّهْرِ وَفُحْشَ تَقَلُّبِ اللَّيَالِي
وَالْأَيَّامِ ، وَأَعْرِضْ عَلَيْهِ أَخْبَارَ الْهَاسِنِ ، وَذَكِّرْهُ بِمَا أَصَابَ مَنْ
كَانَ قَبْلَكَ مِنَ الْأَوَّلِينَ ، وَسِرِّ فِي دِيَارِهِمْ وَآثَارِهِمْ فَأَنْظُرْ فِيمَا فَعَلُوا وَعَمَّا
أَنْتَقَلَوْا وَأَيْنَ حَلُّوا وَنَزَلُوا ، فَإِنَّكَ تَجِدُهُمْ قَدْ أُنْتَقَلَوْا عَنِ الْأَحْيَةِ ،
وَحَلُّوا دِيَارَ الْغُرَبَةِ ، وَكَأَنَّكَ عَنْ قَلِيلٍ قَدْ صِرْتَ كَأَحَدِهِمْ^(٣) .
فَأُصْلِحْ مَشَاكَ ، وَلَا تَبِغْ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ . وَدَعِ الْقَوْلَ فِيمَا لَا
تَعْرِفُ وَالْخِطَابَ فِيمَا لَمْ تُكَلِّفْ . وَأَمْسِكْ عَنْ طَرِيقِ إِذَا خِفْتَ
ضَلَالَتَهُ فَإِنَّ الْكَفَّ عِنْدَ حَيْرَةِ الضَّلَالِ خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ الْأَهْوَالِ .
وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ ، وَأَنْكِرِ الْمُنْكَرَ بِيَدِكَ وَلِسَانِكَ
وَبَايِنِ مَنْ فَعَلَهُ بِجَهْدِكَ . وَجَاهِدْ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ وَلَا تَأْخُذْكَ فِي
اللَّهِ لَوْمَةٌ لَا تَمِ^(٤) . وَخُضِ الْأَعْمَرَاتِ لِلْحَقِّ حَيْثُ كَانَ ، وَتَفَقَّهْ فِي
الدِّينِ ، وَعَوِّذْ نَفْسَكَ التَّصَبُّرَ عَلَى الْمَكْرُوهِ وَنِعْمَ الْخُلُقُ التَّصَبُّرُ .
وَأَلْجِ نَفْسَكَ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا إِلَى إِهْلِكَ فَإِنَّكَ تُلْجِئُهَا إِلَى كَهْفِ
حَرِيرٍ ، وَمَانِعِ حَزِيرٍ . وَأَخْلِصْ فِي الْمَسْأَلَةِ لِرَبِّكَ فَإِنَّ يَدَيْهِ الْعَطَاءُ
وَالْحِرْمَانُ ، وَأَكْثَرِ الْأَسْتِخَارَةَ وَتَفَهَّمْ وَصِيَّتِي وَلَا تَذْهَبَنَّ عَنْهَا صَفْحاً

فَإِنَّ خَيْرَ الْقَوْلِ مَا نَفَعَ . وَأَعْلَمُ أَنَّهُ لَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ ، وَلَا يُنْتَفَعُ بِعِلْمٍ لَا يَحِقُّ تَعَلُّمُهُ^(٥) .

اللغة :

قرره : أطلب منه الإقرار . وبصره : اجعله بصيراً . والفحش : القبح . ومثواك : محل اقامتك . وبأين : بأعد . لا يحق - بكسر الحاء - ليس من الحق في شيء .

الإعراب :

أي بني يا بني ، ان أنت أي ان أخذت أنت أخذت به ، وتكن مجزوم بجواب الأمر ، والتصبر مبتدأ ، وجملة نعم الخلق خبر .

المعنى :

كل مضامين هذه الوصية القيّمة الخالدة أو جلّها ، تكرر مراراً في الخطب السابقة ، ومع هذا نشرح مراد الإمام من كل جملة وحكمة تقديرها وتبركاً بها ، وتيسيراً على القارئ ، ولكن نوجز ولا نطنب ، وقد نتجاوز الواضحات والمكرورات إلا إذا اهتدينا لجديد نضيفه إليها ، أو يزيدنا إيضاحاً .

(فلاني أوصيك - الى - سبب بينك وبين الله) . ولا يتحقق السبب بين الله وعبد إلا بثلاثة : الأول : الشعور بوجوده ، وانه ينفع ويضر ، ويُنعم وينتقم . الثاني : التوكل عليه والثقة به . الثالث : أن يكون مع الإيمان والتوكل عمل يرضاه أي ينفع ولا يضر ، وهذه الثلاثة متكافئة متشابكة ، فمن آمن ولم يتوكل أو توكل ولم يعمل انقطع السبب بينه وبين خالقه .

(أحي قلبك بالموعظة) وليس المراد بالموعظة مجرد الوصايا العشر وأمثالها ، بل المراد الإلتعاط بالعبر والانتفاع بالتجارب (وأمتة بالزهادة) أي بالإعراض عن

الحرام ، كما قال في مكان آخر : ولا زهد كالزهد في الحرام (وقوه باليقين) وهو أن تعبد الله كأنك تراه ، وتؤمن بالآخرة كأنك فيها .. وأول ما ينشأ هذا اليقين من التفكير في خلق السموات والأرض ، أو من التربية والبيئة ، ثم ينمو ويقوى بالعمل على مقتضاه (ونوره بالحكمة) فلئلا ضالة المؤمن .

(وذلك بذكر الموت ، وقرره بالفناء) . لأن نسيان الموت والفناء يؤدي الى العمى والطغيان .. بل أدى ببعض الغافلين الى ادعاء الربوبية ، كالذي قال لابراهيم الخليل (ع) : « أنا أحيي وأميت » وذهل انه عما قريب ينزل الى قبره جثة هامدة (وبصره فجائع الدنيا الخ) .. تكرر هذا مراراً فيما سبق ، ويتلخص بأن على العاقل أن لا يغتر بالدنيا وسلطانها وزينتها وما لها ، فالأوائل أصابوا الكثير من لذاتها ، ثم فارقتهم وفارقوها (فأصلح بثواك) بادخار الحسنات لوقت الحاجة وإلا لحقتك الحسرة والندامة .

(ولا تبع آخرتك بدنياك) . عليك أن تستهين بالنفع العاجل إن كانت مغبته الى سوء ، والتبعة عليه قاسية وشديدة ، فإن خير الأمور ما أمنت من عاقبته ، ومن هنا يصح القول : إن أعلم الناس أعلمهم بالعواقب ، وأعقلهم من نظر اليها ، وعمل بموجبها (ودع القول فيما لا تعرف) . أبداً لا فرق بين من يحارب بلا سلاح ، ومن يتكلم بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير .. أما حرية التعبير عن الرأي فهي مضمونة لأهل العلم والرأي لا لمن يهرف بما لا يعرف ، ويبادر الى الكلام على ما خطر في قلبه من غير تأمل وتفكير .. حتى العالم يكون سكوته أبلغ وأفضل من كلامه في بعض الأحيان . وتكلمنا عن ذلك في ج ٢ شرح الخطبة ٧٠ فقرة : السكوت .

(والخطاب فيما لم تُكلف) اذا كان غيرك المسؤول فدع التطفل والفضول حتى ولو كنت أهلاً للإجابة، وأعلم ممن سُئل .. وكيف بك اذا قال لك السائل : ما اياك سألت ، أو قال لك المسؤول : ما اياك أعني ؟ . (وامسك عن طريق اذا خفت ضلاله الخ) .. لا تدخل في شيء اذا كنت منه على شك ، واستشعر الحشية من المجهول ، ولا تقل أو تفعل إلا مع اليقين بإصابة الموضع ، فإن أخطأت ، والحال هذه ، كنت على عذر عند الله والناس .. وعلى أية حال إن لم يكن من شيء تكسبه في إحجامك فليس ثمة ما تخسره .

خض الغمرات للحق حيث كان :

(ولا تأخذك في الله لومة لائم ، وخض الغمرات للحق حيث كان) . أبدأ لا هوادة ، ولا تعايش سلمي مع الطغاة الذين مارسوا ويمارسون في ظل هذا التعايش أعنف المعارك ضد المستضعفين . ولا رادع لهم وزاجر فعال ومؤثر من أية قوة في عصرنا.. اللهم إلا أن يستमित المظلوم في سبيل حقه.. وهل من الضروري أن يعيش الضعيف في صراع دائم مع القوي الطامع ؟ واذن فأين حماة الحق ، وأنصار العدل ؟. وسلام الله على من قال : خض الغمرات للحق حيث كان في روسيا والصين ، أو في روديسيا وفلسطين .. في بيتك أو في بيوت الآخرين .

(وعود نفسك التصبر على المكروه الخ) .. لا تستسلم للباطل وأهله ، ودافع عن الحق وأهله جهد المستطيع ، واصبر على الجهاد مهما كانت الظروف (وألجئ نفسك في أمورك الخ) .. ثق بربك ، وتوكل عليه بقلب خاضع ، وعمل صالح ، فإن فعلت كان نصر الله معك أينما كنت (واكثر الاستخارة) ادع الله سبحانه بإخلاص أن يختار لك ما فيه صلاح دينك ودنياك (فإن خير القول ما نفع) ولا خير في شيء لا يترك أثراً ينتفع به الإنسان علماً كان أو عملاً أو عقيدة .

(ولا ينتفع بعلم لا يحق تعلمه) . العلم بطبعه لا يأمر ولا ينهى ، ولا يعنيه شيء من أمر السلوك وأحكامه ، وإنما يكشف عن الشيء ومدى تأثيره وعلاقته مع غيره ، أما احكام السلوك فمكوّلة الى الدين والأخلاق ، والإسلام يحرم استعمال العلم للإضرار بالآخر ، وطلبه للتأري والتباهي ، ويوجب تعليمه ونشره لخدمة الحياة وأمنها والقضاء على الشر والبؤس . أما طلبه لمجرد صقل العقول وجلالها — كما كان يقال — فلا يأمر به ولا ينهى عنه ، لأنه يكون ، والحال هذه ، تماماً كالنظرة العابرة الى زهرة أو شجرة .

قلب الحدث .. فقرة ٦ - ٧ :

أَيُّ بُنَيِّ إِيَّيْ لَمَّا رَأَيْتُنِي قَدْ بَلَغْتُ سِنًا ، وَرَأَيْتُنِي أَرْدَادُ وَهْنًا بَادَرْتُ
يَوْصِيَّتِي إِلَيْكَ ، وَأُورِذْتُ خِصَالًا مِنْهَا قَبْلَ أَنْ يَعْجَلَ بِي أَجْلِي دُونَ

أَنْ أَضِيَّ إِلَيْكَ بِمَا فِي نَفْسِي ، وَأَنْ أَنْقُصَ فِي رَأْيِي كَمَا نَقَصْتُ فِي
 جِسْمِي ، أَوْ يَسْبِقَنِي إِلَيْكَ بَعْضُ غَلَبَاتِ الْهَوَى وَفَتَنِ الدُّنْيَا ، فَتَكُونَ
 كَالصَّغْبِ النَّفُورِ . وَإِنَّمَا قَلْبُ الْحَدَثِ كَالْأَرْضِ الْخَالِيَةِ مَا أَلْقِيَ فِيهَا
 مِنْ شَيْءٍ قَبْلَتُهُ . فَبَادَرْتُكَ بِالْأَدَبِ قَبْلَ أَنْ يَقْسُوَ قَلْبُكَ وَيَشْتَغِلَ
 لُبُّكَ لِمَتَسْتَقْبِلِ يَجِدُ رَأْيَكَ مِنَ الْأَمْرِ مَا قَدْ كَفَاكَ أَهْلُ التَّجَارِبِ
 بُغْيَتَهُ وَتَجَرَّبَتَهُ ، فَتَكُونَ قَدْ كُفِّتَ مَوَؤَنَةُ الطَّلَبِ ، وَخُوفِيَتَ مِنْ
 عِلَاجِ التَّجَرُّبَةِ ، فَأَتَاكَ مِنْ ذَلِكَ مَا قَدْ كُنَّا نَأْتِيهِ ، وَأَسْتَبَانَ لَكَ
 مَا رُبَّمَا أَظْلَمَ عَلَيْنَا مِنْهُ^(٦) . أَيُّ بُنْيٍّ لِي وَإِنِّي لَمْ أَكُنْ عُمَرْتُ عُمَرَ
 مَنْ كَانَ قَبْلِي فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ ، وَفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ ، وَسِرْتُ
 فِي آثَارِهِمْ حَتَّى عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ . بَلْ كَأَنِّي بِمَا أَنْتَهَى إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ
 قَدْ جُمِرْتُ مَعَ أَوْلَاهُمْ إِلَى آخِرِهِمْ ، فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذَلِكَ مِنْ كَدَرِهِ ،
 وَنَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ ، فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نَحِيلَهُ وَتَوَخَّيْتُ لَكَ
 جَمِيلَهُ ، وَصَرَفْتُ عَنْكَ مَجْهُولَهُ ، وَرَأَيْتُ حَيْثُ عَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا
 يَعْنِي الْوَالِدَ الشَّفِيقَ وَأَجَعْتُ عَلَيْهِ مِنْ أَدَبِكَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ وَأَنْتَ
 مُقْبِلُ الْعُمُرِ وَمُقْتَبِلُ الدَّهْرِ ، ذُو نِيَّةٍ سَلِيمَةٍ وَنَفْسٍ صَافِيَةٍ ، وَأَنْ
 أَبْتَدِيَنَّكَ بِتَعْلِيمِ كِتَابِ اللَّهِ وَتَأْوِيلِهِ ، وَشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ وَأَحْكَامِهِ ،
 وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ ، لَا أَجَاوِزُ ذَلِكَ بِكَ إِلَى غَيْرِهِ . ثُمَّ أَشْفَقْتُ أَنْ

يَلْتَبِسَ عَلَيْكَ مَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ مِنْ أَهْوَائِهِمْ وَآرَائِهِمْ مِثْلَ الَّذِي
الَّتَبَسَ عَلَيْهِمْ ، فَكَانَ إِحْكَامُ ذَلِكَ عَلَى مَا كَرِهْتَ مِنْ تَنْبِيهِكَ لَهُ
أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ إِسْلَامِكَ إِلَى أَمْرِ لَا آمَنُ عَلَيْكَ بِهِ الْهَلَكَةَ . وَرَجَوْتُ
أَنْ يُؤَقِّقَكَ اللَّهُ فِيهِ لِرُشْدِكَ ، وَأَنْ يَهْدِيكَ لِقَصْدِكَ ، فَعَهِدْتُ إِلَيْكَ
وَصَيِّتِي هَذِهِ ^(٧) .

اللغة :

بادرتك : عاجلتك : والمؤونة : الثقل والشدة . ونخيله : صفوته . وأجمعت :
عزمت وصممت . وأشفقت : خفت .

الإعراب :

وهنا تمييز ، ونُصِبَتْ « فتكون كالصعب » للعطف على ان انقص ،
و « فتكون قد كفت » عطف على لتستقبل ، وما قد كفأك « ما » مفعول
تستقبل ، والمصدر من أن يكون ذلك مفعول رأيت حيث الخ ، والمصدر من أن
يلتبس مجرور بمن محذوفة .

المعنى :

(لما رأيتُني) أي رأيت نفسي (قد بلغت سنًا) . كتب هذه الوصية بعد
أن تجاوز الستين (وأوردت خصالاً منها الخ) .. أي من الوصية ، والمعنى أن
الإمام عجلَ بهذه الوصية قبل بغتة الأجل ونهايته (أو نقص في رأيي الخ) ..
ليس المراد بنقصان الرأي هنا فساد العقل ، بل كل ما يحول بين المرء والتعبير
عن رأيه (أو يسبقني اليك بعض غلبات الهوى وفتن الدنيا) . الإمام لا يغلبه

المهوى ، ولا تفتنه الدنيا ، وقد طلقها ثلاثاً قولاً وعملاً .. ولكن هذه هي لغة الأولياء والقديسين ، ومن قبله قال رسول الله (ص) : « وإنا وإياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين - ٢٤ سبأ » وقال نوح : « وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين - ٤٧ هود » .

(فتكون كالصعب النفور) أي البعير الصعب الذي ينفر ولا يمكن أحداً من ظهره (وإنما قلب الحدث كالأرض الخ) .. قال الإمام في أول هذه الوصية : من الوالد .. الى المولود . وقلنا : المراد بالمولود الولد من حيث هو انسان بصرف النظر عن الحسن وغيره من الأفراد ، وقول الإمام : « كالصعب النفور .. وقلب الحدث » قرينة قاطعة على ما قلناه في تفسير المولود ، لأن سن الحسن كانت أكثر من ثلاثين سنة حين أوصى أبوه بهذه الوصية ، ولأن الحسن أحد الذين عنتهم الآية ٣٣ من سورة الأحزاب - بالتطهير من الرجس ، وأيضاً هو أحد الذين أرادهم النبي (ص) بحديث الثقلين . وسبق الكلام عن هذا الحديث ، وآية التطهير أكثر من مرة .. هذا ، الى ان الإمام أثنى في العديد من خطبه على أهل البيت ، وأمر باتباعهم ، ومن ذلك قوله في الخطبة الثانية : « عيبة علم الله - أي وعاءه - وموئل حكمه ، وكهوف كتبه » وقوله في الخطبة ٩٥ : « اتبعوا أثرهم فلن يخرجوكم من هدى » الى كثير من ذلك .

وأقوال الإمام ينسجم بعضها مع بعض كما تنسجم بمجموعها مع علمه ودينه وأفعاله ، وإذا كان قلب الحدث « كالأرض الخالية ما ألقى فيها من شيء قبلته » كما قال الإمام فإن الحسن كان ، وهو طفل ، في حجر جده رسول الله (ص) يحضر مجلسه ويسمع منه ويحفظ ، وقد روى عن جده بعض الأحاديث تناقلها العلماء ودوتوها في كتبهم ، منهم الترمذي في صحيحه ، والدارمي في سننه ، وأبو نعيم في حليته ، وابن الأثير في أسد الغابة .

(لتستقبل جد رأيك) . جد - بكسر الجيم - أي المحقق ، نقول : فلان عالم جد عالم أي متناه في العلم (ما قد كفك أهل التجارب الخ) .. أي ان الإمام يزوده بالعلوم الكافية لاعتداله وكمال في آرائه وأفعاله ، وتغنيه عن التجارب وأتباعها (وإن لم أكن عمرت عمر من كان قبلي الخ) .. المعرفة لا تقاس بالموهبة وحدها ، ولا بالعمر المديد ، وإنما تقاس بالرؤية والخبرة ، وكثرة الممارسة ، وقد امتدت الحياة بالدين سبقوا الإمام أكثر منه بكثير ، ولكن الإمام جرب

ورأى أكثر مما جربوا ورأوا ، هذا الى أنه سبر أحوال الماضين حتى كأنه عاش معهم من يومهم الأول الى آخر يوم .

(فعرفت صفو ذلك - الى - جميله) انتهيت من تجاربي الى معرفة الحياة خيرا وشرها ، واني أقدم لك صفوتها خالصة من كل شائبة (وصرفت عنك مجهوله) أي المشتبه الذي أشار اليه النبي (ص) بقوله : « دع ما يريبك الى ما لا يريبك » . (ورأيت حيث عناني الخ) .. هذا دليل آخر نعطفه على الأدلة السابقة الناطقة بأن المراد بالمولود المخاطب هو الولد من حيث هو إنسان، لأن معنى هذه الجملة أردت أن أعلمك القرآن وتفسيره وحلاله وحرامه ، ثم عدلت خشية أن يخفى عليك مكان الصواب في المذاهب والآراء لحدثة سنك ، فاكثفت بهذه الوصية التي تحتري على الإيمان بالله وآداب السلوك .

ومنذ قليل أشرنا أن سن الحسن كانت عند هذه الوصية أكثر من ثلاثين عاماً. وإذا كان الإمام الحسن لا يعرف أسرار القرآن وأحكام الشريعة فن الذي يعرفها؟ ثم ان الإمام أمير المؤمنين حث على التمسك بالقرآن ، والعمل بأمره ونهييه في العديد من خطبه وكلامه ، وفي الخطبة ١٠٨ نص صراحة على تعليم القرآن وتعلمه ، وقال : « وتعلموا القرآن فإنه أحسن الحديث ، وتفقهوا فيه فإنه ربيع القلوب » . والخلاصة ان الإمام بوصي بوجه عام أن يُلقن الطفل أولاً أصول الإسلام الضرورية ، ويُمرن على السلوك الشرعي حتى إذا تقدمت به السن تعلم القرآن والشريعة .

ما أكثر ما نجهل ؟ فقرة ٨ - ١٠ :

وَأَعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَبَّ مَا أَنْتَ آخِذٌ بِهِ إِلَيَّ مِنْ وَصِيَّتِي تَقْوَى اللَّهِ
وَالْإِقْتِصَارُ عَلَى مَا فَرَضَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ ، وَالْأَخْذُ بِمَا مَضَى عَلَيْهِ الْأَوَّلُونَ
مِنْ آبَائِكَ ، وَالصَّالِحُونَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَدْعُوا أَنْ نَنْظُرُوا
لِأَنْفُسِهِمْ كَمَا أَنْتَ نَاطِرٌ ، وَفَكَرُوا كَمَا أَنْتَ مُفَكِّرٌ ، ثُمَّ رَدُّهُمْ آخِرُ
ذَلِكَ إِلَى الْأَخْذِ بِمَا عَرَفُوا وَالْإِمْسَاكِ عَمَّا لَمْ يُكَلَّفُوا . فَإِنْ أَبَتْ

نَفْسِكَ أَنْ تَقْبَلَ ذَلِكَ دُونَ أَنْ تَعْلَمَ كَمَا عَلِمُوا فَلْيَكُنْ طَلَبُكَ ذَلِكَ
يَتَفَهَّمُ وَتَعْلَمُ ، لَا يَتَوَرَّطُ الشُّبُهَاتِ وَعُلُوُّ الْخُصُومَاتِ . وَأَبْدَأُ قَبْلَ
نَظَرِكَ فِي ذَلِكَ بِالِاسْتِعَانَةِ بِإِلَهِكَ وَالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ فِي تَوْفِيقِكَ وَتَرَكْتُ كُلَّ
شَايِئَةٍ أَوْلَجْتُكَ فِي شُبُهَةٍ ، أَوْ أَسَأَمْتُكَ إِلَى ضَلَالَةٍ . فَإِذَا أَيْقَنْتَ أَنَّ
قَدْ صَفَا قَلْبُكَ فَخَشَعْ ، وَتَمَّ رَأْيُكَ فَاجْتَمِعْ ، وَكَانَ هَمُّكَ فِي ذَلِكَ
هُمَا وَاحِدًا فَانْظُرْ فِيمَا فَسَرْتُ لَكَ . وَإِنْ أَنْتَ لَمْ يَجْتَمِعْ لَكَ مَا تُحِبُّ
مِنْ نَفْسِكَ ، وَفَرَاغِ نَظَرِكَ وَفِكْرِكَ فَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنَّمَا تَخِيطُ الْعَشَوَاءَ ،
وَتَتَوَرَّطُ الظُّلُمَاءَ . وَلَيْسَ طَالِبُ الدِّينِ مَنْ خَبَطَ أَوْ خَلَطَ ، وَالْإِمْسَاكُ
عَنْ ذَلِكَ أَمْلٌ^(٨) . فَتَفَهَّمْ يَا بُنَيَّ وَصِيَّتِي ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَالِكَ الْمَوْتِ
هُوَ مَالِكُ الْحَيَاةِ ، وَأَنَّ الْخَالِقَ هُوَ الْمُمِيتُ ، وَأَنَّ الْمُفْنِيَّ هُوَ الْمُعِيدُ ،
وَأَنَّ الْمُتَبَلِّغِي هُوَ الْمُعَافِي ، وَأَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَكُنْ لِيَسْتَقِرَّ إِلَّا عَلَى مَا
جَعَلَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ النِّعَمَاءِ ، وَالْإِتِلَاءِ ، وَالْجَزَاءِ فِي الْمَعَادِ أَوْ مَا شَاءَ
مِمَّا لَا نَعْلَمُ ، فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَاحْمِلْهُ عَلَى جَهَالَتِكَ
بِهِ فَإِنَّكَ أَوَّلُ مَا خُلِقْتَ خُلِقْتَ جَاهِلًا ثُمَّ عَلِمْتَ . وَمَا أَكْثَرَ مَا تَجْهَلُ
مِنَ الْأَمْرِ وَيَتَحَيَّرُ فِيهِ رَأْيُكَ وَيَبْضِلُ فِيهِ بَصَرُكَ ، ثُمَّ تُبْصِرُهُ بَعْدَ
ذَلِكَ . فَاعْتَصِمِ بِالَّذِي خَلَقَكَ وَرَزَقَكَ وَسَوَّاكَ ، وَلْيَكُنْ لَهُ تَعَبُّدُكَ
وَالْيَهُ رَغْبَتُكَ وَمِنْهُ شَفَقَتُكَ^(٩) . وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَدًا لَمْ يُنْبِئْهُ

عَنِ اللَّهِ كَمَا أَنْبَأَ عَنْهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَارْضَ بِهِ رَإِئِدًا ،
وَالِى النَّجَاةِ قَائِدًا ، فَإِنِّى لَمْ أَلِكْ نَصِيحَةً . وَإِنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ فِي النَّظَرِ
لِنَفْسِكَ - وَإِنْ أَجْتَهَدْتَ - مَبْلَغَ نَظَرِي لَكَ ^(١٠) .

اللغة :

شائبة : من الشوب أي الخلط . وأولجتك : أدخلتك . وناقاة عشواء : ضعيفة
البصر . وتورط : تقع في مكروه . والأمثل : الأفضل . وشفقتك : خوفك .
ورائد القوم : يرشدهم الى ما يبتغون .

الإعراب :

أنْ قد صفا الأصل أنه قد صفا ، وما خلقت « ما » مصدرية ، وجاهلاً
حال ، ومثله رائدًا ، ونصيحة تمييز .

المعنى :

ألف العقاد كتاب « عبقرية الإمام » ، تحدث فيه عن حياته وأوصافه ،
واعتمد في تحديد إسلامه على مقطع من هذه الوصية ، وهو قوله : « واعلم
يا بني ان احب ما أنت آخذ به من وصيتي تقوى الله - الى قوله - فانظر فيما
فسرت لك » . وبعد أن نقل العقاد هذا قال : يكفي هذا للتعريف بإسلام علي
كما ارتضاه لنفسه وأتباعه .. وهو إسلام الرجل أتيح له أن يتلمذ لربه، ويتربى
في حجر نبيّه ، ويصبح إماماً للمقتدين من بعده .

ومعنى الكلام الذي اختاره العقاد : عليك أيها المسلم أو أيها الإنسان أن تنظر
وتبحث أولاً وقبل كل شيء عما أنت مسؤول عنه ومكلف به ، فإذا عرفت ما
عليك من مصدره ، ومارسته بمجدارة ، وأدبته بأمانة - فقد حررت نفسك من
التبعة والمسؤولية ، وما زاد فهو تفضل منك وإحسان ان كان ممدوحاً ومشكوراً

وإلا فهو تطفل وفضول ، أو هو أثم وجريمة ان أضرت بغيرك أو بما عليك من واجبات حيث لا قرينة بالنوافل إذا أضرت بالفرائض كما قال الإمام .

ومراد الإمام بالأولين من آباء الإمام الحسن والصالحين من أهل بيته — النبي وعلي وعبد المطلب وأبو طالب ، أما قوله : « فإن أبى نفسك الخ » .. فعنايه عليك أن تكون امتداداً وتكراراً للسلف الصالح ، ولا بأس في أن تنظر وتدرس مناهجهم ومفاهيمهم لتكون على بصيرة من أمرك ، شريطة أن تقف من ذلك موقف العالم المخلص للحق المستعين بالله في جميع أموره ، فهو يميز بين السليم والسقيم ، والشبهة والحقيقة ، بلا تعصب وتعسف .

(« وإن لم يجتمع لك ما تحب من نفسك الخ ») .. إذا توافر لك التجرد للحق والكفاءة العلمية جاز لك الحكم على الأشياء وأن تصوب وتخطيء وإلا (فاعلم انك تحبب العشاء) تقول وتنصرف على غير هدى وبصيرة (وليس لطالب الدين) ولا لغيره أن يقول بالجهل (والإسماك عن ذلك أمثل) بل واجب شرعاً وعقلاً .

(واعلم ان مالك الموت الخ) .. الله سبحانه هو المحيي والمميت ، والمبدئ والمعيد ، والمنعم والمتنقم (وان الدنيا لم تكن لتستقر إلا على ما جعلها الله الخ) .. ليست الدنيا خيراً كلها أو شراً كلها ، وكل شيء فيها له جهة سلب ، وجهة إيجاب ، هكذا قضت حكمته تعالى ، أو هذه هي طبيعة المادة ، كالماء فيه حياة وغرق ، والبنار تحرق الثوب وتنضج الطعام ، والشمس تضيء ، وقد تضرب الإنسان بحرارتها .. والى هذا تشير كلمة « لتستقر » . ولا يجوز لأحد أن يركز على جانب دون جانب ، ولا بد من النظر إليهما معاً ، فما كان خيره أكثر من شره كالشمس والنار فهو خير لا يجوز تركه بحال ، قال الإمام جعفر الصادق (ع) : ان ترك الخير الكثير لشر قليل فيه شر كثير . وتكلمنا عن ذلك بنحو من التفصيل في كتاب « فلسفة التوحيد والولاية » .

(والجزاء في المعاد) أي انه تعالى جعل الدنيا داراً للعمل ، والآخرة داراً للجزاء . قال الإمام : اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل (أو ما شاء الله مما لا تعلم) يشير الى أن الحكمة الإلهية قد تقتضي الجزاء في الدنيا بنوع من الأنواع ، فقد أغرق سبحانه قوم نوح وفرعون ، وأهلك قوم هود وصالح ،

ورب صدقة صغيرة دفعت شراً كبيراً (فإن أشكل عليك شيء من ذلك) وخفي عليك وجه الحكمة في السراء والضراء، والجزاء في المعاد (فاحمله على جهالتك الخ) .. لا تنكر ما تجهل ، وأي مخلوق أحاط بكل شيء علماً ؟ ولو قيس ما خفي عن أعلم العلماء الى ما ظهر له — لكانت النسبة بينهما كنسبة النقطة الى مياه البحار ، وحنة الرمل الى جميع الرمال . وقل ربي زدني علماً .

(ان أحداً لم ينبئ عن الله سبحانه الخ) .. لا يعرف التاريخ البشري رسالة كرسالة محمد (ص) في شمولها وعمومها لكل ناحية من حياة الإنسان ، ولكل فرد من أفرادها ، فقد خاطبت كل آدمي على أساس الإنسانية العامة ، وانه المسؤول المحاسب عن العدل والاخوة بين الجميع.. فنبوة بني إسرائيل أو رسالة بني اسرائيل مقصورة على أنهم شعب الله المختار ، وان الدنيا والمستقبل لهم وحدهم ، وبقي الناس كلهم تراب ، وُجدوا وخلقوا لخدمتهم ومصالحهم .. ورسالة المسيح أو رسالة المسيحيين اقتصرت على الروح، وفكرة المخلص من الذنوب والفداء والتكفير عن سيئات البشرية جمعاء .. أما رسالة محمد (ص) فقد خاطبت العقل، واعتبرت الفاعل العاقل هو المسؤول وحده عن أفعاله وأقواله ، ونواياه واهدافه .

لا يأمر الله إلا بحسن ولا ينهى إلا عن قبيح .. فقرة ١١ - ١٢ :

وَأَعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكٌ لَأَتَتْكَ رُسُلُهُ ، وَلَرَآيْتَ أَثَارَ مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ ، وَلَعَرَفْتَ أَفْعَالَهُ وَصِفَاتِهِ ، وَلَكِنَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ . لَا يُضَادُّهُ فِي مُلْكِهِ أَحَدٌ ، وَلَا يَزُولُ أَبَدًا . وَلَمْ يَزَلْ أَوَّلَ قَبْلِ الْأَشْيَاءِ بِلَا أَوَّلِيَّةٍ ، وَآخِرَ بَعْدَ الْأَشْيَاءِ بِلَا نِهَآيَةٍ . عَظُمَ عَنْ أَنْ تَثْبُتَ رُبُوبِيَّتُهُ بِأَحَاطَةِ قَلْبٍ أَوْ بَصَرٍ . فَإِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ فَافْعَلْ كَمَا يَنْبَغِي لِمِثْلِكَ أَنْ يَفْعَلَهُ فِي صِغَرِ خَطَرِهِ ، وَقِلَّةِ مَقْدَرَتِهِ ، وَكَثْرَةِ عَجْزِهِ ، وَعَظِيمِ حَاجَتِهِ إِلَى رَبِّهِ فِي طَلَبِ طَاعَتِهِ ،

وَالرَّهْبَةَ مِنْ عُقُوبَتِهِ ، وَالشَّفَقَةَ مِنْ سُخْطِهِ . فَإِنَّهُ لَمْ يَأْمُرَكَ إِلَّا بِحَسَنِ
وَلَمْ يَنْهَكَ إِلَّا عَنْ قَبِيحٍ^(١١) . يَا بُنَيَّ إِنِّي قَدْ أَنْبَأْتُكَ عَنِ الدُّنْيَا
وَحَالِهَا وَزَوَالِهَا وَأَنْتَقَالِهَا ، وَأَنْبَأْتُكَ عَنِ الْآخِرَةِ وَمَا أُعَدُّ لِأَهْلِهَا
فِيهَا ، وَضَرَبْتُ لَكَ فِيهَا الْأَمْثَالَ لِتَعْتَبَرَ بِهَا وَتَحْذُوا عَلَيْهَا . إِنَّمَا
مَثَلُ مَنْ خَبَرَ الدُّنْيَا كَمَثَلِ قَوْمٍ سَفَرُوا نَبَأَ بِهِمْ مَنْزِلٌ جَدِيدٌ فَأَتَوْا
مَنْزِلًا خَصِيْبًا وَجَنَابًا مَرِيْعًا ، فَاحْتَمَلُوا وَعِشَاءَ الطَّرِيقِ وَفِرَاقَ
الصَّدِيقِ ، وَخُشُوعَةَ السَّفَرِ ، وَجُشُوعَةَ الْمَطْعَمِ لِيَأْتُوا سَعَةً دَارِهِمْ
وَمَنْزِلَ قَرَارِهِمْ ، فَلَيْسَ يَجِدُونَ لَشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ أَلْمًا ، وَلَا يَرَوْنَ
نَفَقَةً مَغْرَمًا ، وَلَا شَيْءَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِمَّا قَرَّبَهُمْ مِنْ مَنْزِلِهِمْ ، وَأَذْنَاهُمْ
مِنْ تَحْلِيمٍ . وَمَثَلُ مَنْ أَخْتَرَّ بِهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ كَانُوا بِمَنْزِلٍ خَصِيْبٍ
فَنَبَأَ بِهِمْ إِلَى مَنْزِلٍ جَدِيدٍ ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِمْ وَلَا أَظْلَعَ
عِنْدَهُمْ مِنْ مُفَارَقَةِ مَا كَانُوا فِيهِ إِلَى مَا يَهْجُمُونَ عَلَيْهِ ، وَيَصِيرُونَ
إِلَيْهِ^(١٢) .

اللغة :

سفر — بفتح السين وسكون الفاء — مسافرون . وجديب : ماحل . وأموا :
قصدوا . والوعشاء : العسر والمشقة . والجشوبة : الغلظة والخشونة . وهجموا
عليه : انتهوا إليه بغته .

الإعراب :

سفر صفة لقوم ، وليأتوا منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والمصدر المنسبك متعلق باحتملوا .

المعنى :

تقدم الكلام عن شريك الباري والأدلة على امتناعه ، وأشار الإمام هنا الى دليلين :

١ - (لو كان لربك شريك لأنتك رسله) مع العلم بأن جميع الأنبياء والمرسلين دعوا الى إله واحد لا ضد له ولا ند .

٢ - (ولرأيت آثار ملكه وسلطانه الخ) .. والآثار كلها تدل على أن المؤثر واحد ، وهي أو منها هذه القرانين الطبيعية الدقيقة التي تحكم أجزاء الطبيعة وظواهرها ، وتجمعها في مجموعة واحدة شاملة تدل على وحدة التدبير والمدير الواحد .

(ولكنه إله واحد كما وصف نفسه الخ) .. في العديد من الآيات ، ثم في سورة خاصة هي سورة الإخلاص ، وذكر الملائدرا في شرح « أصول الكافي » لهذه السورة عشرين اسماً ، وقال: إن لها خاصة وامتيازاً على سائر آيات التوحيد، وما قاله في تفسيرها : إن كلمة « الله » تدل بذاتها على الأحدية بلا حاجة الى أية قرينة ، وإنما جيء بكلمة « الأحد » لمجرد التوضيح بأن الله واحد من كل وجه ، وأنه منزّه عن الحدوث والمادة والكيفيات والافتقار الى الغير ، وأنه قادر وعالم ، وأبدي أزلي ، والمبدىء الأول لكل موجود ، وبكلمة ان الأحدية منبع الكمال التام من شتى الوجوه .

(فإذا عرفت الخ) .. عظمة الله سبحانه فعليك أن تطيعه بما يليق بجلاله وكماله ، وأن تجعل طاعته أساساً لجميع أعمالك ، وبهذه الطاعة تكون شيئاً مذكوراً وبدونها لست شيئاً على الإطلاق ، لأنه تعالى لا يأمر إلا بما يعود عليك وعلى غيرك بالخير والصلاح ، ولا ينهك إلا عما يضرك أو يضر بغيرك ، وعلى هذا الأصل الذي ذكره الإمام يصح القول : ان كل أمر فيه خير وصالح للناس

بجهة من الجهات فهو أمر الله بصرف النظر عن قائله . ومن وصايا الإمام وحكمه : أنظر الى القول لا الى من قال . الحكمة ضالة المؤمن ، فخذ الحكمة ولو من أهل النفاق .

(لتعتبر بها ، وتحذو عليها) . ضمير بها وعليها يعود للأمثال ، وتعتبر تتعظ ، وتحذو تقتدي أي تسمع وتعمل ، والمعنى كشفت لك عن حقيقة الدنيا والآخرة لتؤثر هذه على تلك ، لأن مع الآخرة تعباً قليلاً ، وسروراً كثيراً ودائماً ، أما الدنيا فمعها سرور قليل ، وعذاب كثير ودائم ، ثم ضرب مثيل لكل من أبناء الآخرة وأبناء الدنيا :

١ - (كمثّل قوم سفر الخ) .. هذا مثل لأبناء الآخرة ، ويتلخص بأنهم أشبه بقوم كانوا في سفر ، وكان طريق العودة متعباً وشاقاً ، ولكن منازلهم فيها جميع أسباب الراحة والسكينة ، ويسودها جو من السعادة والهناء الذي لا يكدر صفوه شيء .. المناظر رائعة ، والمعيشة واسعة ، والقلوب واحدة ، والأخلاق منسجمة .. صبروا قليلاً على مشقة الطريق وقسوته أعقبتها راحة لا عناء بعدها أبداً .. وهكذا أبناء الآخرة زهدوا في الدنيا وتحملوا مرارتها صابرين ، وسرعان ما انتهى كل شيء ، وانتقلوا الى ملك دائم ، ونعيم قائم .

٢ - (ومثل من اغتر بها كمثّل قوم الخ) .. هذا مثل لأبناء الدنيا ، وهم على العكس تماماً من أبناء الآخرة ، ينتقلون من نعيم الى جحيم : « متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد - ١٩٧ آل عمران » .

الحب .. فقرة ١٣ - ١٤ :

يَا بُنَيَّ أَجْعَلْ مِيزَانًا فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ ، فَأُحِبِّ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ ، وَأَكْرَهُ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا ، وَلَا تَظْلِمْ كَمَا لَا تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ ، وَأُحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ . وَأَسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُ مِنْ غَيْرِكَ ، وَأَرْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ . وَلَا تَقُلْ

مَا لَا تَعْلَمُ وَإِنْ قَلَّ مَا تَعْلَمُ ، وَلَا تَقُلْ مَا لَا تُحِبُّ أَنْ يُقَالَ لَكَ .
وَأَعْلَمْ أَنَّ الْإِعْجَابَ ضِدُّ الصَّوَابِ وَآفَةُ الْأَلْبَابِ . فَاسْعَ فِي كَدْحِكَ
وَلَا تَكُنْ خَازِنًا لِغَيْرِكَ . وَإِذَا أَنْتَ هَدَيْتَ لِقَصْدِكَ فَكُنْ أَخْشَعَ
مَا تَكُونُ لِرَبِّكَ^(١٣) . وَأَعْلَمْ أَنَّ أَمَامَكَ طَرِيقًا ذَا مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ
وَمَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ . وَأَنَّهُ لَا غِنَى لَكَ فِيهِ عَنْ حُسْنِ الْإِرْتِيَادِ . قَدْرُ
بَلَاغِكَ مِنَ الزَّادِ مَعَ خِفَّةِ الظَّهِيرِ . فَلَا تَحْمِلَنَّ عَلَى ظَهْرِكَ فَوْقَ طَاقَتِكَ
فَيَكُونَ ثِقْلُ ذَلِكَ وَبَالًا عَلَيْكَ . وَإِذَا وَجَدْتَ مِنْ أَهْلِ الْفَاقَةِ مَنْ
يَحْمِلُ لَكَ زَادَكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَيُؤَايِكَ بِهِ غَدًا حَيْثُ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ
فَاغْتَنِمْهُ وَحَمَلْهُ إِلَيْهِ . وَأَكْثِرْ مِنْ تَرْوِيدِهِ وَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ فَلَعَلَّكَ
تَطْلُبُهُ فَلَا تَجِدُهُ . وَآخِثِمِ مَنْ اسْتَقْرَضَكَ فِي حَالِ غِنَاكَ لِيَجْعَلَ
قَضَاءَهُ لَكَ فِي يَوْمِ عُسْرَتِكَ . وَأَعْلَمْ أَنَّ أَمَامَكَ عَقَبَةٌ كَوُودًا ، الْمُبْخِيفُ
فِيهَا أَحْسَنُ حَالًا مِنَ الْمُثْقِلِ ، وَالْمُبْطِئُ عَلَيْهَا أَقْبَحُ حَالًا مِنَ
الْمُسْرِعِ ، وَأَنَّ مَهْبطَكَ بِهَا لَا مَحَالَةَ عَلَى جَنَّةٍ أَوْ عَلَى نَارٍ . فَارْتَدِّ
لِنَفْسِكَ قَبْلَ نُزُولِكَ وَوُطْئِ الْمَنْزِلَ قَبْلَ حُلُولِكَ ، فَلَيْسَ بَعْدَ الْمَوْتِ
مُسْتَعْتَبٌ ، وَلَا إِلَى الدُّنْيَا مُنْصَرَفٌ^(١٤) .

اللغة :

الآفة : المرض . والألباب : العقول . وقصدك : رشدك . والارتياذ : الطلب .

وبلاغك : كفايتك . والوبال : الهلاك . والكؤود : الصعب . والمخف : خفيف
الحمل . ومستعتب : استرضاء .

الإعراب :

فاغتنم جواب اذا وجدت . وحالاً تمييز . وفي بعض النسخ إما على جنة أو
على نار ، وفي بعضها على جنة بدون «إما» وهي الصواب لأن «إما» في هذا
المورد يجب تكرارها ، وان يقال : إما وإما ، ولا يجوز إما و «أو» .

المعنى :

(فأحب لغيرك ما تحب لنفسك الخ) .. هذه الموعظة أو الوصية شائعة
وقديمة ، يرجع تاريخها الى ما قبل الميلاد بقرون ، وتجدها بعبارات شتى في الأديان
ما عدا اليهودية - فيما أعلم - وروي ان أحد تلامذة كونفوشيوس - وُلد
عام ٥٥١ - وجّه اليه هذا السؤال : هل من كلمة واحدة تكون قاعدة لعمل
الإنسان طيلة حياته ؟ فقال : « لا تصنع بالآخرين ما لا تريد لهم أن يصنعوا
بك » . وهذا تعبير ثانٍ عن « أحب لغيرك ما تحب لنفسك » ، وكره له ما
تكره لها » .

ولا نعرف أول من نطق بهذه الكلمة الذهبية .. وأياً كان فهي لجميع الناس ،
لأن الحب معناه الأخوة والانسانية والتكافل والتضامن والقوة والنجاح ، وبالحب
تستقيم الحياة ، ولا معنى لحياة بلا حب ، وأيضاً لا معنى للكراهية إلا الحرب
والشقاق والفشل والتخلف ، وصدق من قال : الحب مصدر الخير والفضائل ،
ولولاه ما انتظمت حياة الأسرة ، ولا قام للمجتمع بناء . وقال آخر : إن الله
خلقنا للحب . وقال برتراند راسل : ألخص مذهبي في الأخلاق بهذه الكلمة :
« الحياة الخيرية يوحى بها الحب ، وتهديها المعرفة » . ومعنى هذا ان كل واجب
أو محرم من أفعال الإنسان وسلوكه ، يرتكز على نظرية الحب ، وان الذي
يعتدي على حقوق الناس ، ويعاملهم بما يكرهه لنفسه هو وحش كاسر وعدو
الانسانية اللدود .

(ولا تقل ما لا تعلم) تقدم مثله مع الشرح في الفقرة ٣ من هذه الوصية بالذات (وان قل ما تعلم) أي حتى ولو قيل عنك : لا علم له ، أو هو قليل الحظ من العلم (واعلم ان الإعجاب ضد الصواب الخ) .. أبداً لا فرق بين السكران والمعجب بنفسه ، فالخمر يذهب بالعقول والألباب ، وكذلك الإعجاب والعقل يفر منها كما يفر من المجنون (فاسع في كدحك) إعمل وفاضل ، ولا تعيش كلاً على غيرك فالبطالة آفة الحياة ، ولا قيمة للإنسان إلا بعمله ، وخير الناس من عاش حاملاً لا محمولاً ، ولولا السير المتواصل في مراحل العمل لبقى الإنسان الى يومه الأخير كوحش الغاب ..

(ولا تكن خازناً لغيرك) اذا زاد ما تنتج عما تستهلك فأغث به ملهوفاً ، وسد به حاجة محتاج (وإذا أنت هديت لقصدك الخ) .. اذا أتيحت لك الفرصة للكدر والسعي فاشكر الله على ذلك ، واستقم في أقوالك وأفعالك ، لأن التحرر من البطالة نعمة كبرى يجب أن تقابلها بالشكر والإخلاص (ان أمامك طريقاً ذا مسافة الخ) .. المراد بالطريق هنا الدنيا لأنها دار ممر ، أما بُعد الطريق ومشقتها فكناية عن صعوبة الوقاية من أوباء الدنيا وأضرارها ، والمعنى لا غنى لمن يعيش في الحياة الدنيا عن الصبر على البلوى ، والتزود بالتقوى (مع خفة الظهر) من الدنوب (فلا تحملن على ظهرك) أثقالاً ترديك وتخزيك .

(وإذا وجدت من أهل الفاقة من يحمل لك زادك الخ) .. ان الزاد الذي يقيلك عذاب الحريق يوم القيامة - ليس من نوع العلم والبلاغة ، ولا من التسبيح والتهليل ، أو من نوع المال والجمال ، والجاه والأنساب .. كلا ، انه شيء آخر لا يحمله المسافر الى الله بنفسه ، بل يُحمله لغيره ، فيتمتع به حامله في الحياة الدنيا ، ويفتدي به صاحبه غداً من غضب الله وعقابه . قال الإمام : بش الزاد الى المعاد العدوان على العباد . ولك أن تعطف عليه : نعم الزاد الى المعاد الإحسان الى العباد .

(واغتنم من استقرضك الخ) .. يأخذ منك الفقير في الدنيا ما أنت في غنى عنه ، ويرده الله اليك أضعافاً يوم القيامة ، وأنت في أشد الحاجة الى بعضه . وروى ابن أبي الحديد هنا أن قوماً قالوا لحاتم الأصم : اقرأ لنا شيئاً من القرآن. فقرأ: ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون

الصلاة وما رزقناهم يكتزون . فقالوا: أيها الشيخ ما أنزل هكذا . قال: صدقتم ، ولكن هكذا أنتم .

(ان أمامك عقبة الخ) .. والمراد بها الأعمال الصالحة ، لأنها تحتاج الى جهد وصبر ، والمراد بالمخف من لا يحمل الأوزار والأقذار ، وبالمبطىء من يتباطأ عن عمل الخيرات ، والمراد بالأقبح مجرد القبح من غير تفاضل حيث لا قبح إطلاقاً في الإسراع الى مرضاة الله ومغفرته (وان مهبطك بها لا محالة على جنة) ان حملت لها عملها (أو على نار) ان اعتديت وعصيت (فارتد لنفسك الخ) .. اختر لها سبيل النجاة (ووطئ المنزل الخ) .. هيء لراحتك وهنائك (فليس بعد الموت مستعجب) لا سبيل بعد الموت الى طلب الرضاء والعتو (ولا الى الدنيا منصرف) كي تعمل وتستدرك .

والخلاصة ان الإنسان لا يصيب الهدف إلا بالجهاد والصبر والتضحية ، وانه لا قرابة ولا علاقة بين الله وبين أحد من خلقه إلا العمل الصالح النافع .

الدعاء .. لقرة ١٥ - ١٦ :

وَأَعْلَمَ أَنَّ الَّذِي بِيَدِهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ أُذِنَ لَكَ فِي الدُّعَاءِ وَتَكَفَّلَ لَكَ بِالْإِجَابَةِ ، وَأَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ لِيُعْصِيكَ وَتَسْتَرْحِمَهُ لِيَرْحَمَكَ ، وَلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مَنْ يَحْجُبُهُ عَنْكَ ، وَلَمْ يُلْجِئِكَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكَ إِلَيْهِ ، وَلَمْ يَمْنَعْكَ أَنْ تُسْأَلَ مِنَ التَّوْبَةِ ، وَلَمْ يُعَاجِلْكَ بِالنُّقْمَةِ ، وَلَمْ يُعَيِّرْكَ بِالْإِنَابَةِ وَلَمْ يَفْضَحْكَ حَيْثُ الْفَضِيحَةُ بِكَ أَوْلى ، وَلَمْ يُشَدِّدْ عَلَيْكَ فِي قَبُولِ الْإِنَابَةِ ، وَلَمْ يُنَاقِشْكَ بِالْجَرِيمَةِ ، وَلَمْ يُؤَيِّسْكَ مِنَ الرَّحْمَةِ . بَلْ جَعَلَ نُزُوعَكَ عَنِ الذَّنْبِ حَسَنَةً ، وَحَسَبَ سَيِّئَتَكَ وَاحِدَةً ، وَحَسَبَ حَسَنَتَكَ عَشْرًا ، وَفَتَحَ لَكَ بَابَ الْمَتَابِ .

فَإِذَا نَادَيْتُهُ سَمِعَ نِدَاءَكَ ، وَإِذَا نَاجَيْتُهُ عَلِمَ نَجْوَاكَ ^(١٥) . فَأَفْضَيْتَ
إِلَيْهِ بِحَاجَتِكَ ، وَأَبْثَثْتُهُ ذَاتَ نَفْسِكَ ، وَشَكَوْتَ إِلَيْهِ هُمُومَكَ ،
وَأَسْتَكْشَفْتُهُ كُرُوبَكَ ، وَأَسْتَعَنْتُهُ عَلَى أُمُورِكَ ، وَسَأَلْتُهُ مِنْ خَزَائِنِ
رَحْمَتِهِ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَى إِعْطَائِهِ خَيْرُهُ مِنْ زِيَادَةِ الْأَعْمَارِ وَصِحَّةِ الْأَبْدَانِ
وَسَعَةِ الْأَرْزَاقِ . ثُمَّ جَعَلَ فِي يَدَيْكَ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِهِ بِمَا أُذِنَ لَكَ
مِنْ مَسْأَلَتِهِ ، فَتَنَى شَيْئًا أَسْتَفْتَحْتَ بِاللُّغَاءِ أَبْوَابَ نِعْمَتِهِ ، وَأَسْتَمْطَرْتَ
شَأْيِبَ رَحْمَتِهِ . فَلَا يُقْنِطُكَ إِبْطَاءُ إِجَابَتِهِ ، فَإِنَّ الْعَطِيَّةَ عَلَى قَدْرِ
النِّيَّةِ . وَرُبَّمَا أُخِرَتْ عَنْكَ الْإِجَابَةُ لِيَكُونَ ذَلِكَ أَعْظَمَ لِأَجْرِ السَّائِلِ
وَأَجْزَلَ لِعَطَاءِ الْآمِلِ . وَرُبَّمَا سَأَلْتَ الشَّيْءَ فَلَا تُؤْتَاهُ وَأُنِيتَ
خَيْرًا مِنْهُ عَاجِلًا أَوْ آجِلًا ، أَوْ صُرِفَ عَنْكَ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ .
فَلَرُبَّ أَمْرٍ قَدْ طَلَبْتَهُ فِيهِ هَلَكَ دِينُكَ لَوْ أُوْتِيْتَهُ . فَلْتَكُنْ مَسْأَلَتُكَ
فِيمَا يَبْقَى لَكَ جَمَالُهُ وَيُنْفَى عَنْكَ وَبَالُهُ . فَالْمَالُ لَا يَبْقَى لَكَ وَلَا
تَبْقَى لَهُ ^(١٦)

اللغة :

الإِنبَاءُ : الرجوع ، ومثلها النزوع . والنجوى : حديث السر . وأفضيت :
ألقيت . وأبثثت : كاشفت . وشأيب : دفعات من المطر . والقنوط : اليأس .

الإعراب :

المصدر من أن تسأله مجرور بالباء المحذوفة ، وعاجلاً أو آجلاً نصب على ظرف المكان بمعنى في الدنيا أو في الآخرة ، أو ظرف الزمان بمعنى الآن أو الغد.

لماذا الدعاء ؟

(قد أذن لك في الدعاء وتكفل الخ) .. أمر سبحانه عباده أن يدعوه ويسألوه ، وهو يستجيب لطلب التوبة والمغفرة مع الإخلاص ، ما في ذلك ريب ، وأيضاً يستجيب لغيرها ، ولكن على شرطه هو لا على شرط الداعي والسائل .. ومن يدري أن طلبه تعالى الدعاء من عباده قد يكون لمجرد الاختبار والامتحان لإيمانهم ، وأنهم هل يستمرون ويثبتون على الثقة بخالقهم اذا فاتهم ما طلبوا وأبطأ عليهم ما سألوا؟. الله أعلم . وعلى أية حال فإن أفضل الدعاء على الإطلاق «ترك الذنوب» .

(ولم يلجئك الى من يشفع لك اليه) . هذا هو الاسلام : يضع الانسان أمام خالقه دون حجاب وترجبان ، ووساطات روحية أو مادية .. أبداً لا بيع أذرع في الجنة ، ولا صكوك غفران ، وبراءة وحرمان (ولم يمنعك إن أسأت من التوبة) . لا يطرد أحداً عن بابه مسيئاً كان أم محسناً (ولم يعاجلك بالنقمة) عسى أن تعود الى رشذك (ولم يعبرك بالإنيابة) ويقول لك : عدت إلي صاغراً ليريك انه أعلى منك وأرفع .. حاشا .

(ولم يفضحك حيث الفضيحة بك أولى) لأنك اقترفتها متعمداً . وقال عارف بالله : لقد ستر حتى كأنه قد غفر (ولم يشدد عليك في قبول الإنابة الخ) .. لا يحاسب المذنب التائب على ما سلف ، ويقرعه ويعدد له السيئات ، ويذكره بإنعامه عليه وأفضاله ، كما نفعل نحن .. كلا ، إن من تاب من الذنب كمن لا ذنب له عند الله (وحسب سيئتك واحدة) ويستحيل أن يزيد عليها شيئاً لعدله ، ويجوز أن يعفو لكرمه (وجعل حسنتك عشرة) تفضلاً وإحساناً .

(وفتح لك باب المتاب) . لأن الانسان قابل للخطأ بطبعه ، والتوبة تُنقله من الإصرار على الرذيلة ، واذن فرفض التوبة ظلم وجور . وبكلام آخر ان الله

سبحانه خلق العبد وأمره ونهاه ، فوجب بمنطق العدل ، والحال هذه ، أن يقبل منه الإنابة اذا أذنب وأخطأ .

هل الدعاء مفتاح الرزق ؟

(ثم جعل في يديك مفتاح خزائنه الخ) .. يدل هذا بظاهره على ان الدعاء يحقق للداعي ما يشاء من الرزق .. وأهل العلم يأخذون بظاهر الكلام حتى تقوم القرينة على عكسه . وقد نطق الإمام بهذه القرينة المعاكسة ، وذلك حيث قال بلا فاصل : (فلا يقنطنك إبطاء إجابته ، فإن العطية على قدر النية) أي انه قد لا يستجيب لأن الداعي ليس أهلاً لذلك ، لأمر الله به أعلم (وربما أخرت عنك الإجابة الخ) .. أو ان الداعي أهلٌ ومحلٌ ، ولكن المصلحة توجب التأخير ، فعليه أن يصبر ولا ييأس ، بل ويزداد من الدعاء . وبكلمة ، ان الله يستجيب ويحقق في الوقت الذي يراه هو ، جلت حكمته ، لا في الوقت الذي يريده العبد لنفسه .

(وربما سألت الشيء فلا تؤتاه الخ) .. قد يرى الانسان أن هذا الشيء في خيره ومصلحته ، فيدعو الله ، ويطلبه منه ، وهو في واقعه شر محض ، والله أعلم من الإنسان بما يصلحه ويفسده ، فيصرف عنه ما سأل ، ويعطيه خيراً منه وأفضل .. وقد حدث معي هذا بالذات .. كنت رئيساً للمحكمة العليا سنوات ، ثم ثار عليّ الزعماء والقادة ، ونحوتني عن الرئاسة ، لأنني رفضت النزول على أهوائهم . فكان الخير لي كل الخير في ذلك حيث أنتجت ما أنتجت . والله الحمد .. نظرت إليه تعالى حين أغضبت الكبار من المخلوقين ، فنظرت إليّ سبحانه بما لم يحيط لي في بال .. ولا أدري كيف ؟ وبماذا أشكره ؟ ومنه وحده أطلب العفو عن التقصير في كل شيء .

خلقت للآخرة لا للدنيا .. فقرة ١٧ - ١٨ :

وَأَعْلَمَ أَنَّكَ إِنَّمَا خُلِقْتَ لِلْآخِرَةِ لَا لِلدُّنْيَا ، وَلِلْفَنَاءِ لَا لِلْبَقَاءِ ،

وَالْمَوْتَ لَا لِلْحَيَاةِ ، وَأَنَّكَ فِي مَنْزِلِ قُلْعَةٍ وَدَارِ بُلْغَةٍ ، وَطَرِيقٍ إِلَى
الْآخِرَةِ ، وَأَنَّكَ طَرِيدُ الْمَوْتِ الَّذِي لَا يَنْجُو مِنْهُ هَارِبُهُ ، وَلَا بُدَّ
أَنَّهُ مُذْرِكُهُ ، فَكُنْ مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ أَنْ يُذْرِكَكَ وَأَنْتَ عَلَى حَالِ
سَيِّئَةٍ قَدْ كُنْتَ تُحَدِّثُ نَفْسَكَ مِنْهَا بِالتَّوْبَةِ فَيَحُولَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ذَلِكَ ،
فَإِذَا أَنْتَ قَدْ أَهْلَكْتَ نَفْسَكَ ^(١٧) . يَا بُنَيَّ أَكْثَرَ مَنْ ذَكَرَ الْمَوْتَ
وَذَكَرَ مَا تَهْجُمُ عَلَيْهِ وَتُفْضِي بَعْدَ الْمَوْتِ إِلَيْهِ حَتَّى يَأْتِيكَ وَقَدْ
أَخَذَتْ مِنْهُ حِذْرَكَ ، وَشَدَدَتْ لَهُ أَرْزَكَ ، وَلَا يَأْتِيكَ بَعْتَةٌ فَيَهْرَكَ .
وَأَيُّكَ أَنْ تَعْتَرَّ بِمَا تَرَى مِنْ إِخْلَادِ أَهْلِ الدُّنْيَا إِلَيْنَا ، وَتَكَاَلِيهِمْ
عَلَيْنَا ، فَقَدْ نَبَّأَكَ اللَّهُ عَنْهَا ، وَنَعَتْ لَكَ نَفْسَهَا ، وَتَكَشَّفَتْ لَكَ
عَنْ مَسَاوِيهَا ، فَأَمَّا أَهْلُهَا كِلَابٌ عَاوِيَةٌ ، وَسِبَاعٌ ضَارِيَةٌ ، يَهْرُ
بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَيَأْكُلُ عَزِيرُهَا ذَلِيلَهَا ، وَيَقْهَرُ كَبِيرُهَا صَغِيرَهَا .
نَعَمْ مُعَقَّلَةٌ ، وَأُخْرَى مُهْمَلَةٌ قَدْ أَضَلَّتْ عُقُولَهَا وَرَكِبَتْ تَجْهُولَهَا ،
سُرُوحٌ عَاهَةٌ بِوَادٍ وَعَثٍ . لَيْسَ لَهَا رَاعٍ يُقِيمُهَا ، وَلَا مُقِيمٌ يُسَيِّمُهَا .
سَلَكَتْ بِهِمُ الدُّنْيَا طَرِيقَ الْعَمَى ، وَأَخَذَتْ بِأَبْصَارِهِمْ عَنْ مَنَارِ الْهُدَى ،
فَتَاهُوا فِي حَيْرَتِهَا ، وَغَرِقُوا فِي نِعْمَتِهَا ، وَأَتَّخَذُوهَا رَبًّا فَلَعِبَتْ بِهِمْ
وَلَعِبُوا بِهَا وَنَسُوا مَا وَرَاءَهَا ^(١٨) .

اللغة :

القُلعة : الرحلة . والبلغة : الكفاية . والأزر : القوة « اشدد به أزرى
٣١ طه » . ويهرك : يدهشك ويحرك . ويهر : يكره ويمقت . ومعلقة :
مقيدة . سُروح عاهة : يسرحون في الفساد والضلال . والمسيم : الراعي .

الإعراب :

المصدر من أنه مدركه مجرور بمن محذوفة أي لابد من إدراكه ، فإذا أنت
« اذا » فجائية ، ونعم خبر مبتدأ محذوف أي هم أو أهل الدنيا نعم ، وكذا
سروح .

لماذا خلق الانسان ؟

(واعلم يا بني انك خلقت للآخرة لا للدنيا الخ) .. كل الناس أو جلهم ،
وبخاصة الذين يعانون آلام الحياة — يتساءلون : لماذا خلق الانسان ؟ وقال قائل:
ان الله خلقنا للحب . وقال آخر : بل لتركع له ونسجد . وقال ثالث : لنعمل
في الأرض ، ونقتن العمل . وقال الإمام : خلق الله الإنسان ليعمل في دنياه
عملاً صالحاً ينتفع به في آخرته . فالدنيا وسيلة ، والآخرة هي الغاية . ويتفق هذا
مع القرآن الكريم: « ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون
الجنة يرزقون فيها بغير حساب — ٤٠ غافر » . أما قوله تعالى : « وما خلقت
الإنس والجن إلا ليعبدون — ٥٦ الداريات » . فإن المراد العمل الصالح النافع ،
لأنه أفضل من عامة الصلاة والصيام ، كما في الحديث الشريف . وقال سبحانه:
« واما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض — ١٧ الرعد » . وتقدم الكلام عن
ذلك مراراً .

(فكن منه) أي من الموت (على حذر) لأنه اذا جاء لا يؤخره ثانية ،
فاستعد له من الآن ، وقبل أن تُحمل الى قبر ساكن مظلم (يا بُني أكثر من
ذكر الموت الخ) .. فإن ذكرت وتصورت انك ميت لا محالة أخذ الحشوع

بمجامع قلبك ، ودفع بك الى الاعتصام بخالقك ، والعمل لآخرتك (وياك أن تغتر بما ترى من إخلاد أهل الدنيا إليها الخ) .. مالك وللدنيا وأبنائها ؟. انها جيفة وأهلها كلاب (فقد أنباك الله عنها) بقوله : « انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى اذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها انهم قادرون عليها أتاهم أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس - ٢٤ يونس .

(ونعت لك نفسها ، وتكشفت لك عن مساوئها) بموت السابقين من أهلها بلا رجعة ، وأنت حلقة من هذه السلسلة ، وكذلك من يأتي بعدك حتى النهاية ، وما الى الفرار من سبيل . وقال الإمام لمن ذم الدنيا : متى غرتك ؟ أمصارع آياتك من البلى ، أم بمضاجع أمهاتك تحت الثرى ؟. (وانما أهلها كلاب عاوية الخ) .. وهنا مكان العجب ، الموت يتخطف أهل الدنيا من كل جانب ، وهم على يقين بأنهم ميتون لا محالة ، ومع هذا نراهم في تناحر وصراع دائم على الحطام والحرام .

الإمام يقسم الناس الى قوي وضعيف :

(يأكل عزيزها ذليلها ، ويقهر كبيرها صغيرها) . كل الأقوياء جبارون مستغفلون ، لا يعرفون الحب والخير والعدل ، ولا يقرون بشيء من الحق إلا من شدة .. وما الضعيف عندهم إلا حشرة أو بعوضة .. ولا علاج لهذا الداء إلا بأحد فرضين : الأول المساواة بين جميع الناس ذكوراً وإناثاً ورجالاً وأطفالاً ، وتكافؤهم في كل شيء حتى في قوة العضلات .. وهذا ممتنع وتأباه سنن الكون والطبيعة .

الثاني : القوة الرادعة العادلة ، وهذا ممكن ومعقول .. ولكن مركز القيادة - في الغالب - يحتكره أرباب القوة والثروة قديماً وحديثاً من العرف القبلي الى النظام الجمهوري ، وهنا يكمن السر في تقسيم المجتمعات الى فئة عليا تملك كل شيء ، وفئة مضطهدة ليس لها من الأمر شيء .. والى هذا التقسيم أشار الإمام بقوله : « يأكل عزيزها ذليلها : ويقهر كبيرها صغيرها » . ومثله ما جاء في الخطبة ١٢٧ : « اضرب بطرفك حيث شئت من الناس فهل تبصر إلا فقيراً يكابد فقراً ، أو غنياً بدل نعمة الله كفراً » .

(.نعم معقّلة) أي أنعام مقيدة مكبلة ، والمراد بها الضعفاء ، كما قال الشيخ محمد عبده ، وهم لا يستطيعون حيلة ، ولا يهتدون سبيلاً إلا سبيل الاستماتة من أجل تحريرهم وحياتهم ، وهل من الضروري لمن يريد الحياة أن يكون دائم الجهاد ضد الطغاة متفرغاً لحربهم وفضالهم ؟ (وأخرى مهمة قد أضلت عقولها ، وركبت مجهولها) وهي الفئة القوية الثرية تسرح في الفساد والفضلال (سلكت بهم الدنيا طريق العمى ، وأخذت بأبصارهم عن منار الهدى ، فتأهوا في حيرتها ، وغرقوا في نعيمها ، واتخذوها رباً ، فلعبت بهم ولعبوا بها ، ونسوا ما وراءها). وينطبق هذا تماماً على الذين يسيطرون ويتحكمون بالثروات ووسائل الإعلام ، ينشرون الفساد بين الأجيال، ويتتجون أسلحة الدمار للاعتداء على الشعوب الآمنة ينتهبون ويقتلون ويشردون .

وبالمناسبة قرأت في جريدة « الأهرام المصرية » تاريخ ١-١٢-١٩٧٢ : « ان الكونجرس الأمريكي أقر اعتماداً بـ ١٠٥ مليارات من الدولارات ، لبناء غواصات وقاذفات نووية جديدة » ! لمن هذا السلاح المدمر؟ النصره الحق والعدل، وإنصاف الضعيف من القوي ، وردع الوحوش الكاسرة ، أم للاعتداء على المستضعفين ، ودعم الصهاينة في فلسطين ، ولكل عميل وخائن في شرق الأرض وغربها ؟ ولماذا لا تُنفق هذه المليارات على خدمة الحياة وسد حاجاتها ؟ ولكن أربابها لا يريدون أن تنخفض الأسعار، فيبتسم لها وللأمن المعبود في الأرض .. أبداً لا هدف لسانسة التخويف بالحرب ، وتحويل الصناعة اليها الا ان يتحكموا بالآقوات والأسواق ، وان يحجم الرعب واليأس على كل قلب ومهد كي يخضع لأمرهم صاغراً ، ولا يسألهم سائل عما يفعلون ويفسدون .. وكأن الإمام ينظر اليهم : ويعينهم بقوله : « اتخذوها ربا ، فلعبت بهم ولعبوا بها ، ونسوا ما وراءها) أي ما وراء دنيا الطغاة العتاة من خراب ودمار وحساب وعقاب « ان ربك لمبالرصاد » للذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها القبور والدموع والشكل واليتم واليؤس والتشريد .

أكرم نفسك .. فقرة ١٩ - ٢٠ :

رُؤْيَدَا يُسْفِرُ الظَّلَامَ . كَأَن قَدْ وَرَدَتِ الْأَطْعَانُ . يُوشِكُ مَنْ أَسْرَعَ

أَنْ يَلْحَقَ . وَأَعْلَمَ أَنَّ مَنْ كَانَتْ مَطِيئَتُهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ فَإِنَّهُ يُسَارُّ بِهِ
وَأِنْ كَانَ وَاقِعًا ، وَيَقْطَعُ الْمَسَافَةَ وَإِنْ كَانَ مُقِيمًا وَادِعًا . وَأَعْلَمُ يَقِينًا
أَنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ أَمْلَكَ وَلَنْ تَعْدُو أَجَلَكَ ، وَأَنَّكَ فِي سَبِيلٍ مَنْ كَانَ
قَبْلَكَ . فَخَفِّضْ فِي الطَّلَبِ ، وَأَجْمِلْ فِي الْمُكْتَسَبِ فَإِنَّهُ رُبَّ طَلَبٍ قَدْ
جَرَّ إِلَى حَرْبٍ . فَلَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ بِمَرْذُوقٍ ، وَلَا كُلُّ مُجْمِلٍ
بِمُخْرُومٍ ، وَأَكْرَمُ نَفْسِكَ عَنْ كُلِّ دَنِيَّةٍ وَإِنْ سَاقَتْكَ إِلَى الرِّغَائِبِ
فَإِنَّكَ لَنْ تَعْتَاضَ بِمَا تَبْذُلُ مِنْ نَفْسِكَ عِوَضًا ، وَلَا تَكُنْ عَبْدًا
غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللَّهُ حُرًّا . وَمَا خَيْرُ خَيْرٍ لَا يُنَالُ إِلَّا بِشَرٍّ ،
وَيُسِرُّ لَا يُنَالُ إِلَّا بِعُسْرِ^(١٩) . وَإِيَّاكَ أَنْ تُوجِفَ بِكَ مَطَايَا الطَّمَعِ
فَتُورِدَكَ مَنَاهِلَ الْهَلَكَةِ . وَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ لَا يَكُونَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ
اللَّهِ ذُو نِعْمَةٍ فافْعَلْ . فَإِنَّكَ مُذْرِكٌ قِسْمَكَ وَآخِذٌ سَهْمَكَ . وَإِنْ
الْيُسِيرَ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَعْظَمُ وَأَكْرَمُ مِنَ الْكَثِيرِ مِنْ خَلْقِهِ وَإِنْ
كَانَ كُلُّ مِنْهُ . وَتَلَا فِيكَ مَا فَرَطَ مِنْ صَمْتِكَ أَيْسَرُ مِنْ إِدْرَاكِكَ مَا
فَاتَ مِنْ مَنْطِقِكَ ، وَحَفِظُ مَا فِي الْوَعَاءِ بِشِدَّةِ الْوِكَاءِ . وَحَفِظُ مَا فِي
يَدَيْكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ طَلَبِ مَا فِي يَدِ غَيْرِكَ . وَمَرَارَةُ الْيَأْسِ خَيْرُ
مِنَ الطَّلَبِ إِلَى النَّاسِ . وَالْحِرْقَةُ مَعَ الْعِفَّةِ خَيْرُ مِنَ الْغِنَى مَعَ الْفُجُورِ .
وَالْمَرْءُ أَحْفَظُ لِسِرِّهِ . وَرُبَّ سَاعٍ فِيمَا يَضُرُّهُ . مَنْ أَكْثَرَ أَهْجَرَ . وَمَنْ
تَفَكَّرَ أَبْصَرَ^(٢٠) .

اللغة :

رويداً : مهلاً . ويسفر : يكشف . والأظعان : جمع الظعينة أي المودج .
ووادعاً : ساكناً . وحرب - بفتح الحاء والراء - سلب المال . وتوجف :
تسرع . وتلافيك : تداركك . وفرط : ذهب وفات . والوكاء : الرباط .
والمراد بالحرفة هنا الحرمان أو الضيق في الرزق . وأهجر : تكلم بالهذيان .

الإعراب :

لرويد أربعة أوجه : الأول اسم فعل مثل رويدَ زيداً أي أمهل زيداً ، الثاني
صفة مثل سار القوم سيراً رويداً أي خفيفاً أو بطيئاً ، الثالث حال إذا وقع بعد
المعرفة مثل سار القوم رويداً ، والرابع النصب على المصدر مثل رويداً ، ورويد
زيد بالإضافة ، وكان قد مخففة أي كأنه قد ، ويقيناً مفعول مطلق من غير
لفظه ، ورب حرف جر ، ولا يتعلق مجرورها بشيء لأنها زائدة في الإعراب
دون المعنى على حد تعبير النحاة ، وطلب في محل رفع بالابتداء ، وإياك مفعول
لفعل محذوف ، والأصل احذرک ، ولما حذف الفعل انفصل الضمير .

المعنى :

(رويداً يسفر الظلام الخ) .. لا شيء أقرب الى الانسان من الموت ، ومن
تخطاه الآن أتاه غداً أو بعد غد ، وحينذاك تنكشف الحقيقة للغافلين ، وتتملكهم
الحسرة والندامة (ان من كانت مطيته الليل والنهار فإنه يسار به الخ) .. كل
إنسان مسافر الى قبر ساكن مظلم ، والدنيا طريقه اليه ، والليل والنهار مطيته ،
ومعنى هذا أنه سائر وان كان نائماً على فراشه ، ومعناه أيضاً ان الموت يأخذ
من عمره يوماً فيوماً منذ ولادته حتى النفس الأخير ، ومما قرأته في هذا الباب :
« الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما » .

(واعلم يقيناً انك لن تبلغ أملك الخ) .. لأنه لا حد لنهم الإنسان وآماله
الجائعة ، ولو ملك الكون بكامله لتمنى كوناً ثانياً وثالثاً الى ما لا نهاية (فخفض

في الطلب الخ) .. اطلب الرزق واسع اليه على أن تحفظ التوازن الواجب بين آخرتك ودنياك ، كما قال سبحانه : «المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً» ٤٦ الكهف . (رب طلب قد جر الى حرب) . قد لا ترضى بما يكفيك من الرزق ، وهو بين يديك ، فتكدح طلباً للمزيد والادخار .. وتأتي النتيجة بعكس ما أردت حيث تخسر ما كنت تملك من طعام وغذاء ، وتقع مذموماً مخدولاً .

(فليس كل طالب بمرزوق) . لا ينزل الغداء من السماء .. انه في بطن الأرض ، وعلينا أن نشقها بالجهد والعرق على أن نتوكل على الله ، ونسأله التوفيق ، لأن الكون بما فيه في قبضته ، يهب ويمنع حتى مع الكد والعرق إن شاء ، ولا يشاء إلا للحكمة (ولا كل مجمل بمحروم) . المراد بالمجمل المعتدل ، والمعنى قد يكون الغنى بالاعتدال في السعي بلا إفراط وتفریط ، وقد يكون الفقر بالإفراط بالكد والسعي ، والسر هو أن نعلم بأن وراء كل شيء قضاء وتديراً ، وإن السعي وحده ليس بالسبب التام ، ولا التوكل هو المؤثر دون غيره ، وإن كلاهما جزء متمم للآخر .

(وأكرم نفسك - الى قوله - عوضاً) لا تطلب المال من كل سبيل ، وتقف من أجله مواقف الهوان فإن الكرامة لا تباع بثمن ، ومن خسر كرامته فقد خسر نفسه .. ولكن كثيراً من الناس لا يرون الكرامة إلا في المال حتى ولو حصل بطريق العهر والخيانة (ولا تكن عبد غيرك ، وقد جعلك الله حراً) . هذا تفسير وبيان لقوله : « أكرم نفسك » لأن الكرامة والحرية شيء واحد ، ينبع من ذات الانسان ، وما هو هبة من مخلوق ، أو كسب بكد اليمين .. وعلى المرء أن يستमित من أجل حريته وكرامته .

وتجدر الإشارة الى ان الحرية التي عنها الإمام ليس معناها أن يعمل الانسان ما يشتهي وما يريد دون أن ينظر الى الظروف المحيطة به والمجتمع الذي يعيش فيه ، وإنما أراد حرية الناس مجتمعين يعيشون ويعملون يداً واحدة لصالح الجميع ، وعلى كل فرد أن يمارس حريته في هذا النطاق ، فإن تعدها فقد استهان بحريته بملء إرادته ، وجعل السبيل عليه للقوة الرادعة العادلة .

(وما خير خيرٍ لا يُنال إلا بشرّ) . «ما» هنا استفهام لفظاً ، وإنكار

محتوى" ، والمعنى كل شيء يجرّم فعله فالآثار المترتبة عليه حرام — مثلاً — لامهر لعاهر لأن الزنا حرام ، ولا نيابة لمزور لأن التزوير حرام ، ولا حكم لمرتش لأن الرشوة حرام . وبكلمة ، إن الغاية لا تبرر الوسطة إلا ضمن القانون والنظام (ويسر لا ينال إلا بعسر) — مثلاً — الغنى يسر ، والفقر عسر ، ولكن لا يُزال هذا العسر بما أشد منه عسراً وقبحاً كالسرقة والخيانة ، والمذلة والمهانة .

(وإياك أن توجف بك مطايا الطمع النخ) .. انه شره" ونهم ، وعاقبته الوبال والخسران . وفي بعض الروايات : الطمع خمر الشيطان لا يصحو شاربه إلا في نار جهنم (وان استطعت أن لا يكون النخ) .. من الخير أن تتعاون مع أخيك الانسان على المصلحة المتبادلة بينكما على أساس العدل والمساواة ، أما أن يكون هو الغني عنك ، وأنت الفقير اليه فالأفضل أن تتركه وشأنه ، وتسعى جهدك متوكلاً على الله ، فإن المؤمن الحق لا يطلب العون إلا من خالقه ، ولا يقبل إلا فضله وإحسانه ، ولا ينظر الى ما في أيدي الناس .

(فإنك مدرك قسمك ، وأخذ سهمك) من خالك ، بلا نقصان وواسطة مخلوق مثلك ، واذن فمن السخافة أن تقبل الهوان من غيرك لأجل الرزق .. بل خير لك وأفضل أن تصبر وتتجرع المرارة على أن تتحمل المنية من غير رازق العباد (وان اليسير من الله سبحانه أعظم وأكرم من الكثير من خلقه) . أجل والله ان قليله عظيم وكثير بخيراته وبركاته ، وكثير غيره صغير وحقيق بالقياس الى يسيره تعالى ، وإن كان الكون بما فيه لله ومن الله ، ولكن لوساطة العبد منعصات لا يطيقها أبي" كريم . وقال الشيخ محمد عبده " ليس أفعل في النفس من هذا الكلام الذي يكاد من قوته وإصابته الحق يقطع القارىء المؤمن لفوره عن الدنيا » .

(وتلافيك ما فرط من صمتك النخ) .. لا غبر ولا عيب عليك فيما فانك من الكلام ، لأن الساكت يمكنه أن يستدرك ، ويقضي ما فات كما فات ، أما زلل اللسان فيصعب تلافيه كالماء يُراق من الإناء على الأرض يتعذر رده ويستحيل (وحفظ ما في يدك أحب إليّ من طلب ما في يد غيرك) ان ترقيع الثوب الخلق ، والقناعة بالكفاف أفضل من الاستقراض وأخذ أوساخ الناس (ومرارة اليأس النخ) .. القناعة كنز وغي ، واليأس مما في أيدي المخلوقين عزة وكرامة ،

وجراً في قول الحق وإعلانه ، ومن التجأ الى الله يائساً من سواه أكرمه وأعطاه .
أقولها بجزم ويقين ، وعن تجربة ووجدان. ومن أقوال الإمام : الغنى الأتبر اليأس
مما في أيدي الناس .

(والحرفة مع العفة خير من الغنى مع الفجور) . العسر مع النزاهة والإباء
خير من اليسر مع الحرام والحساسة (والمرء أحفظ لسهه) ومن ضاق بسره ذرعاً
فلا يلومن من أطلقه وأفشاه . قال الإمام : من كتم سره كانت الحيرة بيده
(وزب ساع فيما يضره) . ورُبَّ هنا للتكثير لا للتقليل اذا أردنا بالضرر ما
يشمل حساب الآخرة وعقابها . وقال الحكماء : لا خير في ظفر يصاب بضرر
(من أكثر أهجر) . للقول ساعات ومقدار معين ، فمن تعداه وقع في اللغو
والخطأ . قال الإمام : من كثر كلامه كثر خطاه (ومن تفكز أبصر) وخرج
من ظلمات الجهل الى نور المعرفة ، ومن عمل وأقدم بلا تفكير خبط في التيه .

ربما كان الدواء داء .. فقرة ٢١ - ٢٢ :

قَارِنِ أَهْلَ الْخَيْرِ تَكُنْ مِنْهُمْ . وَبَايِنِ أَهْلَ الشَّرِّ تَبَيَّنْ عَنْهُمْ . بِشَسِ
الطَّعَامِ الْحَرَامِ . وَظَلَمِ الضَّعِيفِ أَفْحَشُ الظُّلْمِ . إِذَا كَانَ الرَّفْقُ خُرْقًا
كَانَ الْخُرْقُ رِفْقًا . رَبَّمَا كَانَ الدَّوَاءُ دَاءً وَالذَّاءُ دَوَاءً . وَرَبَّمَا نَصَحَ
غَيْرُ النَّاصِحِ وَغَشَّ الْمُسْتَنْصَحُ . وَإِيَّاكَ وَأَتَّكَالَكَ عَلَى الْمَنَى فَإِنَّهَا
بَضَائِعُ الْمَوْتَى ، وَالْعَقْلُ حِفْظُ التَّجَارِبِ . وَخَيْرُ مَا جَرَّبْتَ مَا
وَعَظَّكَ ^(٢١) . بَادِرِ الْفُرْصَةَ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ غَصَّةً . لَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ
يُصِيبُ ، وَلَا كُلُّ غَائِبٍ يُوْبُّ . وَمِنَ الْفَسَادِ إِضَاعَةُ الزَّادِ وَمَفسَدَةُ
الْمَعَادِ . وَلِكُلِّ أَمْرٍ عَاقِبَةٌ . سَوْفَ يَأْتِيكَ مَا قُدِّرَ لَكَ . التَّاجِرُ
مُخَاطِرٌ . وَرُبَّ يَسِيرٍ أُنْمَى مِنْ كَثِيرٍ . لَا خَيْرَ فِي مُعِينٍ مَهِينٍ ،

وَلَا فِي صَدِيقِي ظَنِينَ . سَاهِلِ الدَّهْرَ مَا ذَلَّ لَكَ قَعُودُهُ . وَلَا
تُخَاطِرُ بِشَيْءٍ رَجَاءَ أَكْثَرِ مِنْهُ . وَإِيَّاكَ أَنْ تَجْمَعَ بِكَ مَطِيَّةُ اللَّجَاجِ ^(٢٢) .

اللغة :

الخرق - بفتح الخاء - الثقب ، وبكسرهما الفتى الظريف الكريم ، وبضمها
- كما هنا - العنف والشدة ، وأيضاً الجهل والحق . والمستنصح بالفتح المطلوب
منه أن ينصح . وظنين : متهم . وقعود : من الإبل . واللجاجة : الهادي في
الخصومة .

الإعراب :

تكن مجزوم بحواب الأمر ، وإياك مفعول لفعل محذوف ، والأصل أحذرك ،
وما ذلَّ « ما » مصدرية ، ورجاء مفعول من أجله لتخاطر ، وأكثر لا ينصرف
للصفة ووزن الفعل .

المعنى :

(قارن أهل الخير) أبذل من نفسك ومالك لنصرة الحق ، وإبطال الباطل كما
فعل ويفعل المناضلون الأحرار (تكن منهم) قولاً وعملاً (وبأين أهل الشر)
بإعلان الثورة عليهم وجهادهم بكل ما تستطيع (تبين عنهم) . أما أن تعتزل
إيثاراً للسلامة ، وطلباً للراحة، وتعتكف في المحراب ، أما إن فعلت هذا - فأنت
شيطان أخرس ، كما قال الرسول الأعظم، وأيضاً قال : من لا يهتم بأمر المسلمين
فليس منهم . (وبئس الطعام الحرام) وأي شيء أكثر جرماً وأعظم إثماً من الحياة
على حساب المستضعفين ، وخبز الأراامل والأيتام ؟ .

(وظلم الضعيف أفحش الظلم) وأفحش منه ومن الفحش نفسه أن تضع يدك
على فمه ، وتمنعه من الصراخ من ألمه والاحتجاج على ظلمه ، ولو قيل لي : ما

تعريف الانسان بمعنى الكلمة لقلت : هو الثورة على الظلم وضد الظالم . وتقدم الكلام عن ذلك في شرح الخطبة ١٧٤ (واذا كان الرفق خرقاً كان الخرق رفقاً) . مهادنة الأشرار شر محض ، لأنها تشجعهم عليه ، وتغريهم به ، والعدل أن يُردعوا بالعنف اذا لم يجد الجدال بالتي هي أحسن . قال الإمام : الوفاء لأهل الغدر غدر والغدر بأهل الغدر وفاء .

(ربما كان الدواء داء) . قد يخطيء الطبيب في تشخيص المرض ، فيصف دواءً ظاهره الرحمة ، وباطنه من قبله العذاب (والداء دواء) كالطبيب يقطع العضو السقيم الذي لا يمكن علاجه كيلا يُفسد بقية الأعضاء السليمة ، ويسمى هذا بدفع الضرر الأشد بالضرر الأخف (وربما نصح الخ) .. استمع للخائن والأمين ، وحاكم ما تسمع من الاثنين بعقل رزين ، واختبر ما تركز اليه نفسك . قال الرسول الأعظم (ص) : استفت قلبك ، البر ما اطمأنت اليه النفس ، والإثم ما حاك في القلب ، وإن أفتاك الناس وأفتوك .

(وإياك والاتكال على المنى الخ) .. أبداً لا فرق بين التأوه على ما فات ، وتمني الخيرات ، كلاهما سخف وضعف .. ولا راحة إلا بالكد والتعب ، وقال قائل : لا يزال المرء مقروناً بالتواني ما دُم مقيماً على وعد الأمانى (والعقل حفظ التجارب) . التجربة عند الإمام مصدر من مصادر المعرفة ، ولكن ليست أقواها ، فهناك الوحي والعقل الذي يفكر ويستنتج . ومن أقواله : ليست الروية كالعاينة مع الإبصار ، فقد تكذب العيون أهلها ، ولا يغش العقل من استنصحه (وخير ما جربت ما وعظك) أي ما نفعلك ، بل أنفع المعارف كلها ما أسرع بك الى عمل الخير ، وأقصاك عن ارتكاب الشر .

(بادر الفرصة الخ) .. فإنها تمرّ مرّ السحاب وإلا لحقتك الندامة والحسرة (ليس كل طالب يصيب) لا غبن عليك أن تطلب الشيء فلا تجده ، لأن هذا شائع ومألوف ، والمهم أن لا تبخع نفسك على أثره (ولا كل غائب يؤوب) كالليت (ومن الفساد إضاعة الزاد الخ) .. بالتهاون فيه وعدم ادخاره لوقت الحاجة (ولكل أمر عاقبة) حلوة أو مُرّة ، والعقل يراقب ويحتسب ، ولا يُقدم إلا بعد البحث والتأمل (سوف يأتيك ما قدر لك) من الرزق بعد السعي والعمل ، وإياك والني كذا قال الإمام (التاجر مخاطر) برأس المال ، فإن ربح

قال الناس عنه : سعيد الطالع ، وإن خسر قالوا : لا حظ له . والواقع ان
الحظ والطالع هنا هو دقة المراقبة وحسن التقدير للعواقب والتوفيق. والتجارة في أيماننا فن
من فنون الصوصية ، وعلم بأساليب الغش والاحتيال على الشعوب الضعيفة ونهب
أقواتها ومقدراتها .

(ورب يسير) وُضع في محله (أنى من كثير) وُضع في غير موضعه. وقد
رأينا الكثير من أصحاب الملايين آل أمرهم الى البؤس والعوز من تصرفهم (لا
خير في معين مهين) يُفسد معروفة بكلمة أو حركة نائية . قال سبحانه : « لا
تبطلوا صدقاتكم بالبن والأذى-٢٦٤ البقرة » . (ولا في صديق ظنين) يرائي ويراوغ
(ساهل الدهر ما ذل لك قعوده) امش بدائك ما مشى بك كما قال الإمام (ولا
تخاطر بشيء رجاء أكثر منه) إلا مع مظنة النجاح . وقال قائل : من طلب
الفضل حُرِم الأصل (وإياك أن تجمع بك مطية اللجاج) . التعصب والعناد جهل
وفساد ، والهادي في الخصومة يسل العقل والدين . قال الإمام : لا يستطيع أن
يتقي الله من يخاصم .

الصدقة والصديق .. فقرة ٢٣ - ٢٤ :

أَحْلِلْ نَفْسَكَ مِنْ أَخِيكَ عِنْدَ صَرَمِهِ عَلَى الصَّلَةِ ، وَعِنْدَ صُدُودِهِ عَلَى
اللُّطْفِ وَالْمُقَارَبَةِ ، وَعِنْدَ جُودِهِ عَلَى الْبَذْلِ ، وَعِنْدَ تَبَاعُدِهِ عَلَى
الدُّنُوِّ ، وَعِنْدَ شِدَّتِهِ عَلَى اللَّيْنِ ، وَعِنْدَ جُرْمِهِ عَلَى الْعُذْرِ حَتَّى كَأَنَّكَ
لَهُ عَبْدٌ وَكَأَنَّهُ ذُو نِعْمَةٍ عَلَيْكَ . وَإِيَّاكَ أَنْ تَضَعَ ذَلِكَ فِي غَيْرِ
مَوْضِعِهِ أَوْ أَنْ تَفْعَلَهُ بِغَيْرِ أَهْلِهِ . لَا تَتَّخِذَنَّ عَدُوَّ صَدِيقِكَ صَدِيقًا
فَتُعَادِيَ صَدِيقَكَ . وَاتَّخِضْ أَخَاكَ النَّصِيحَةَ حَسَنَةً كَأَنَّكَ أَوْ قَبِيحَةً .
وَتَجَرَّعِ الْغَيْظَ فَإِنِّي لَمْ أَرْ جُرْعَةً أَحْلَى مِنْهَا عَاقِبَةً وَلَا أَلَذَّ مَغْبَةً (٢٣) .
وَلَيْنَ لِمَنْ غَالَظَكَ فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَلِينَ لَكَ . وَخُذْ عَلَى عَدُوِّكَ

بِالْفَضْلِ فَإِنَّهُ أَحْلَى الظَّفَرَيْنِ . وَإِنْ أَرَدْتَ قَطِيعَةَ أَخِيكَ فَاسْتَبْقِ لَهُ
مِنْ نَفْسِكَ بَقِيَّةً تَرْجِعُ إِلَيْهَا إِنْ بَدَأَ لَهُ ذَلِكَ يَوْمًا مَا . وَمَنْ ظَنَّ
بِكَ خَيْرًا فَصَدَّقْ ظَنَّهُ . وَلَا تُضِيعَنَّ حَقَّ أَخِيكَ اتِّكَالًا عَلَى مَا
بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكَ بِأَخٍ مَنْ أَضَعْتَ حَقَّهُ . وَلَا يَكُنْ
أَهْلَكَ أَشَقَى الْخَلْقِ بِكَ . وَلَا تَرْغَبَنَّ فِيمَنْ زَهَدَ فِيكَ . وَلَا يَكُونَنَّ
أَخَوُكَ أَقْوَى عَلَى قَطِيعَتِكَ مِنْكَ عَلَى صَلَاتِهِ ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَى
الْإِسَاءَةِ أَقْوَى مِنْكَ عَلَى الْإِحْسَانِ ، وَلَا يَكْثُرَنَّ عَلَيْكَ ظُلْمٌ مَنْ
ظَلَمَكَ فَإِنَّهُ يَسْعَى فِي مَضَرَّتِهِ وَنَفْعِكَ . وَلَيْسَ جَزَاءُ مَنْ سَرَّكَ أَنْ
تَسُوَّهُ^(٢٤) .

اللغة :

صهرمه - بفتح الصاد وسكون الراء - قطيعته . وصدوده : بعده . والمراد
بالجمود هنا البخل .

الإعراب :

عاقبة تمييز ، ومثلها مغبة ، ويوماً ما «يوم» ظرف منصوب ببدا ، واتكالا
مفعول من أجله لتضييع .

حق الصديق :

أشار الإمام في هذا المقطع الى حق الصديق على صديقه . وقبل الشرح نشر

يلجأ إلى تعريف الصداقة وسببها ، ويمكن تلخيصها بالمودة والوفاء والثقة ، أما سببها فالمطابقة والانسجام . قال الرسول الأعظم (ص) : « الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » . ومنع الحياة لا يبلغها الإحصاء ، وتفوقها جميعاً متعة الصداقة ، وتبلغ الغاية القصوى حين يُفضي الصديق إلى صديقه بأسراره وهوومه حيث يشعر من أعماقه أنه ينفض عن كاهله أثقاله وأغلاله . وأقوى شيء في الدلالة على الوفاء والثقة أن تدافع عن أخيك ، وتبرئه من شائعة السوء بمجرد سماعها ، وقبل البحث وقيام البيئة .

وبعد تجربة عشرات السنين أستطيع القول : إن الصداقة بمعنى الحقيقة لهذه الكلمة لا تكون ولن تكون إلا إذا وجد في كل واحد من الاثنين صفة أو صفات يقدرها الآخر أياً كان نوعها ، فالشرط أن يكون للصفة وزنها عند الصديق لا في ذاتها وواقعها . ويرجع هذا إلى قول الرسول (ص) : ما تعارف منها ائتلف .

(احمل نفسك من أخيك الخ) .. قد يظن بك الصديق التقصير في حق من حقوقه ، فيعاتبك بالصد والهجران .. وينبغي أن تتجاهل ذلك ، ولا تعامله بالمثل وإلا أنهت الصداقة بنفسك ، ووضعت لها حداً بيدك .. حتى ولو كان هو البادئ ، ما دام التلافي ممكناً ، فإنك إن تجاهلت ، وبقيت على عادتك معه من اللطف والمداواة يذهب ما في النفس مع الأيام ، وتعود المياه إلى مجراها (وعند جموده على البذل الخ) .. واسه بنفسك حتى ولو كان البخل من طبعه .

(وعند جرمه على العذر) تغاض عن هفوته واحتملها منه .. وإن طلبت صديقاً لا تعاتبه عشت بلا صديق مدى الحياة « أي الرجال المهذب ؟ » وهل من العدل والإنصاف أن تطلب العصمة من خطأ لا تبريء نفسك من مثله ؟ (حتى كأنك له عبد) هذا كناية عن حسن المعاملة والتسامح مع الإخوان ، لأن الصداقة أخوة لا عبودية ، ووفاء لا إلقاء (وإياك أن تضع ذلك في غير موضعه) تسامح وتواضع مع الذين يقدسون النبل والخلق الكريم ، لا مع من يرى التواضع منك ضعفاً وافتقاراً . قال أعرابي لصديق له : كن لي ببعضك حتى أكون بكلي لك .

(ولا تتخذن عدو صديقك صديقاً فتعادي صديقك) . والجمع بينهما تماماً

كالجمع بين الماء والنار . قال رجل للإمام : اني احبك وأحب معاوية فقال الإمام : أنت أعور الآن ، ونهايتك العمى او الشفاء من العور (واحض أخاك النصيحة حسنة كانت او قبيحة) أي ثقيلة على من تنصحه ، كما لو كان معجباً بنفسه يدعي العلم ، وما هو من أهله ، أو كان كذوباً او حسوداً فصارحته ونهيته ، وبكلمة : انصح بالحق وإن غضب المقصود بالنصيحة ، ولا يهلك ما دمت مخلصاً ومجتهداً فيها عند نفسك .

(ونجوع الغيط الخ) .. قد يستفرك سفيه بكلمة نابية ، او حركة مزعجة فتثور أعصابك ، وعليك أن تمالك إن حدث شيء من ذلك ، ولا تستنجب لفضلك وأعصابك ، ولو استسلمت للغضب لانتهيت الى أسوأ العواقب . وبالإيجاز من لم يصبر على كلمة سمع كلمات (ولين لمن غالظك الخ) .. إن ظننت به خيراً ، ورجوت ان يرجع عن جفوته ، ويؤوب الى رشده ، وهذا تعبير ثان عما سبق من قول الإمام : « وإياك ان تضع ذلك في غير موضعه » .

(وخذ على عدوك بالفضل فإنه أحلى الظفرين) وهما : ظفر القصاص والانتقام ، وظفر العفو والإحسان . وهذا هو الجدير بالعطاء والأولياء . وليس من شك ان العفو بصاعف الحسات . ومنه السيئات . قال تعالى : « وإن تعفوا أقرب للتقوى - ٢٣٧ البقرة » . وقال الإمام : متى أشفي غيظي ؟ أحسن أعجز عن الانتقام فيقال لي : لو صبرت ؟ أم حين أقدر عليه فيقال لي : لو عفوت .

(وإن أردت قطيعة أخيك الخ) .. وبأسلوب آخر هو للإمام أيضاً : « احب حبيبك هوناً ما عسى ان يكون بغيضك يوماً ما ، وابغض بغيضك هوناً ما عسى ان يكون حبيبك يوماً ما » .

وكثيراً ما تحدث القطيعة بين الصديقين ، ثم تستأنف الصداقة بحبل أقوى وأوثق اذا كان مع الهجر عقل (ومن ظن بك خيراً فصدق ظنه) من وثق بنبلك فكن عند ثقته ، فلأنها قوة لك وثروة . والعكس صحيح اي من ظن بك شراً فكذب ظنه بعمل الخير .

(ولا تضيعن حق أخيك الخ) .. إن للصداقة حرمتها ، وللصديق حقوقه ،

فإن قصرت في شيء من حقه فقد انتهكت حرمة الصداقة والاخوة ، وجعلت على نفسك بنفسك سبيلاً للمؤاخاة والملازمة . قال بعض السلف : ما تحاب اثنان فرقى بينهما إلا ذنب يحدثه أحدهما (ولا يكن أهلك أشقى الخلق بك) . من شقي به أهله فهو أشقى الناس على الإطلاق ، لأن من يبغى على القريب يئأس الناس من خيره ويخافون من شره ، ومن يسعد به القريب يرجوه البعيد لعمل الخير . قال رسول الله (ص) : «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي» . هذا، الى ان لرب الأسرة وسيرته معها التأثير البالغ في صلاحها وفسادها ، ونعيم البيت او جحيمه .

(ولا ترغب فيمن زهد فيك) . تجاهل* من أدبر عنك كأنه لم يكن حتى ولو كانت الدنيا في قبضته .. إن الاستعانة بغير الله ذل وهوان(ولا يكونن أخوك أقوى الخ).. اذا كان هو اقوى منك على القطيعة والإساءة فكأن أنت أقوى منه على الصلة والإحسان ، شريطة ان يكون في صلتك له شيء من الخير والصلاح وإلا فالسلو أفضل (ولا يكبرن عليك ظلم من ظلمك فإنه يسعى في مضرتك ونفعك) عند الله ، لأن يوم العدل على الظالم أشد من يوم الحور على المظلم ، كما قال الإمام في مقام آخر .. وليس معنى هذا ان تستسلم للظلم .. كلا ، فإن جهاده فرض ، ومن قصّر فيه فهو شريك الظالم ، ولو علم الظالم ان المظلوم يستमित دون حرите وكرامته لتحاماه .

(وليس جزاء من سرك أن تسوءه) . هذا كلام مستأنف لا صلة له بما قبله كما توهم بعض الشارحين وقال في تفسيره : ليس جزاء من أساء اليك ان تقابله بالإساءة ، لأنه قد زاد في أجرك عند الله .. ونسي هذا الشارح وجوب الجهاد ضد البغي ، وإن من مات دون عقاب من ماله مات شهيداً ، وأنه لا معنى للعدل إلا الضرب على أيدي المعتدين ، وان السكوت عنهم هو تشجيع للفساد في الأرض .

الرزق .. لقوة ٢٦ - ٢٧ :

وَأَعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ الرِّزْقَ رِزْقَانِ : رِزْقٌ تَطْلُبُهُ ، وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ فَإِنْ
 أَنْتَ لَمْ تَأْتِهِ أَتَاكَ . مَا أَقْبَحَ الْخُضُوعَ عِنْدَ الْحَاجَةِ وَالْجَفَاءَ عِنْدَ الْغِنَى ؟
 إِنَّ لَكَ مِنْ دُنْيَاكَ مَا أَصْلَحْتَ بِهِ مَثْوَاكَ . وَإِنْ جَزِئْتَ عَلَى مَا
 تَقَلَّتْ مِنْ يَدَيْكَ ، فَاجْزَعْ عَلَى كُلِّ مَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْكَ . اسْتَدِلَّ عَلَى
 مَا لَمْ يَكُنْ بِمَا قَدْ كَانَ . فَإِنَّ الْأُمُورَ أَشْبَاهُ . وَلَا تَكُونَنَّ يَمْنٌ لَا
 تَنْفَعُهُ الْعِظَةُ إِلَّا إِذَا بَالَغْتَ فِي إِيْلَامِهِ ، فَإِنَّ الْعَاقِلَ يَتَعِظُ بِالْآدَابِ
 وَالْبَهَائِمُ لَا تَتَعِظُ إِلَّا بِالضَّرْبِ^(٢٥) . اطْرَحْ عَنْكَ وَارِدَاتِ الْهَمُومِ
 بِعَزَائِمِ الصَّبْرِ وَحُسْنِ الْيَقِينِ . مَنْ تَرَكَ الْقَصْدَ جَارَ ، وَالصَّاحِبُ
 مُنَاسِبُ . وَالصَّدِيقُ مَنْ صَدَقَ غَيْبُهُ . وَالْهَوَى شَرِيكُ الْعَنَاءِ . رَبُّ
 قَرِيبٍ أَبْعَدُ مِنْ بَعِيدٍ ، وَرَبُّ بَعِيدٍ أَقْرَبُ مِنْ قَرِيبٍ . وَالْغَرِيبُ
 مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَبِيبٌ . مَنْ تَعَدَّى الْحَقَّ ضَاقَ مَذْهَبُهُ . وَمَنْ أَقْتَصَرَ
 عَلَى قَدْرِهِ كَانَ أَبْقَى لَهُ . وَأَوْثَقُ سَبَبٍ أَخَذْتَ بِهِ سَبَبٌ يَبْنِيكَ وَيَبْنِي
 اللَّهَ . وَمَنْ لَمْ يُبَالِكْ فَهُوَ عَدُوُّكَ . قَدْ يَكُونُ الْيَأْسُ إِذْرَاكَ إِذَا
 كَانَ الطَّمَعُ هَلَكَاً . لَيْسَ كُلُّ عَوْرَةٍ تَظْهَرُ وَلَا كُلُّ فُرْصَةٍ تُصَابُ .
 وَرَبَّمَا أَخْطَأَ الْبَصِيرُ قَصْدَهُ وَأَصَابَ الْأَعْمَى رُشْدَهُ^(٢٦) .

اللغة :

مثواك : منزلك . وما تفلت : ما فات . وعزائم الصبر : قوة الإرادة .
والقصد : الاعتدال . والمناسب : الموافق والقريب . ولم ييالك : لم يكثر بك .
والعورة : الخلل .

الإعراب :

رزق تطلبه ورزق يطلبك «رزق» بدل مفصل من مجمل ، والمبدل منه رزقان ،
وما أقبح الخضوع «ما» مبتدأ بمعنى شيء ، وأقبح فعل ماضٍ ، والفاعل مستتر
يعود الى «ما» والجملة خبر ، والخضوع مفعول .

المعنى :

(إن الرزق رزقان : رزق تطلبه) بتجارة او صناعة او فلاحه او خدمة .
وهذا الرزق وراءه قضاء وتدبير كأي شيء يحدث في الكون حيث أبى الله سبحانه
إلا ان يربط الأسباب بمسبباتها ، والنتائج بمقدماتها حتى نعيم الآخرة او جحيمها
هو نتيجة الأعمال في الحياة الدنيا .. هذا مع العلم بأن سلسلة الأسباب تنتهي اليه
تعالى طالأت أم قصرت (ورزق يطلبك) يارث او هدية او صيد غال وثمين لا
يكلفك سوى خطوات .. ومهما يكن فإن كلام الإمام هنا عن الرزق مجرد تعبير
عن واقع الحال بصرف النظر عن فلسفة الرزق . وتقدم الكلام عنها في شرح
الخطبة ٢٣ .

(ما أقبح الخضوع عند الحاجة) . لا شيء أدل على ضعة النفس وخساستها ،
ولؤمها ودناءتها - من التئمر في اليسر ، والتذلل في العسر .. والنفس الكريمة
سواء في الحالين ، بل هي مع العسر أعز وأكثر إباء .. وما يزيد الفاقة شدة
الاستكانة لمن لا يجبرها . وقال الإمام : ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء طلباً لما
عند الله ، وأحسن منه تيه الفقراء على الأغنياء اتكالاً على الله (انما لك من
دنياك ما أصلحت به مثواك) . أبداً لا فرق بين من يملك الملايين ومن يملك

العشرات ما دام وعاء البطن لا يقبل المزيد من الطعام ، ومساحة الجسم لا تتجاوز المقرر من اللباس .. والعمر الى أجل ، والى التفريق والشتات ما جمع المرء وما كسب .. واذن فعلام التناحر على الحطام ٩.

(وإن كنت جازعاً على ما تفلت من يدك الخ) .. حكمة بالغة دامغة فما تغني النذر : ثروة الكون لا حد لها ، أما حاجتك فلها حد، وأنت تطلب المزيد، وتحزن اذا لم تبلغ ما تريد ، وعلى منطقك هذا ينبغي ان تبكي وتندب لأنك لا تملك الكون بأرضه وسمائه .. وأي فرق من حيث النتيجة بين ما ذهب من مالك، وبين ما لم تزل منذ البداية ٩. (استدل على ما لم يكن الخ) .. تصفح أحوال الذين جمعوا او حرصوا : ماذا حدث لأموالهم بعد الموت ، وقس عليها ما في يدك الآن من مال وحطام .

(ولا تكن ممن لا تنفعه العظة الخ) .. اعتبر بالغير ، واتعظ بالعبر إن كنت انساناً يدرك الأمور وعواقبها لا حيواناً يقرع بالعصا (اطرح عنك واردات الهموم الخ) .. لا مفر من المصائب والنوائب في هذه الحياة .. ومع هذا عليك الوقاية ما أمكن ، والعلاج إن ابتليت ، فإن استعصى الداء عليك وعلى أهل الاختصاص - فوض الأمر الى الله ، وامض في عملك ، وادِّ ما عليك، وسوف ترى الأمر على ما يرام .. وإن شغلت نفسك بالتفكير فيما أصابك صدك الخوف عن عملك ، وتراكت عليك الأحزان بلا جدوى .

ومن جملة ما قرأت ان رجلاً أحس بضعف وانحراف في صحته ، ولما عرض نفسه على الطبيب قال له : انه مريض بسرطان الدم ، وانه يموت بعد قليل .. فلم ينزعج وتحدى المرض، وقال في نفسه : لا فرق بين أموت مفاجأة او بإذدار سابق ، ومضى في عمله كأن لم يكن شيء ، واستمر فيه حتى الآن ، ولو انه استسلم للوساوس لحارت قواه ، وأمسى طريح الفراش ينتظر الموت في كل لحظة. ومعنى هذا انه يموت في اليوم مرات . ولما قيل له : كيف تعمل وأنت على هذه الحال قال : أجرب الحكمة القائلة : خير الدواء العمل . وقال الإمام: إن صبرت جرى عليك القدر وأنت مأجور ، وإن جزعت جرى عليك القدر وأنت مأزور.

(من ترك القصد جار) من أسرف تعدى الحدود ، ومن أمسك قصر عنها والطريق الوسطى سبيل الخير والنجاة (والصاحب المناسب) ولا صحبة بلا موافقة

ومناسبة (والصدى من صدقت غيبته) شر الناس من صادقك من غير صدق ،
يكيل لك المدح في المحضر، ويلدغ السيئات في المغيب ، وإن سمعها أقرها بسكوته
مع علمه بأنها زور واقترأ (والهوى شريك العمى) إذا غلب الهوى عي العقل
(ورُبَّ بعيد أقرب من قريب) لتقارب الأخلاق وتوافقها .. وأيضاً كل من
أحسن اليك فهو قريب الى نفسك ، وإن بعدت لحمته (وقريب أبعد من بعيد)
لتباعد الأخلاق وتنافرها ، او لتزاع على ميراث او جاه .

(والغريب من لم يكن له حبيب) للؤمه وحسده ، او لتعاطفه وخيالاته ،
او لظلمه واعتدائه (ومن تعدى الحق ذاق مذهب) اي طريقه ، والمعنى من
تسلح بغير الحق فهو أعزل من كل حجة ودليل ، وفضيلة ومكرمة ، ولا دواء
له إلا الأزدراء والقسوة إذا لم يرتدع إلا بها (ومن اقتصر على قدره كان أبقي
له) إذا لم تدع بما ليس فيك أحبك الناس ، وأنزلوك فيما أنت أهل له وجدير
به ، وإن تجاوزت طورك بنحسوا حقك ، وارتابوا في كل قول او فعل من أقوالك
وأفعالك ، وإن كنت فيه من الصادقين (وأوثق سبب أخذت به الخ) .. والسبب
الذي بين الله والعبد هو العلم بأحكامه تعالى والعمل بها .

(ومن لم يبالك فهو عدوك) . قال ابن أبي الحديد ، ونحن معه فيما قال :
المراد بهذه الوصية خصوص الولاة ، لأن عدم المبالاة بهم معناه الاستهانة بالقوة
الرابعة عن الباطل ، أما سائر الناس فغير مقصودين بهذه الوصية ، لأن اللامبالاة
من حيث هي لا تستدعي العداء والبغضاء (قد يكون اليأس إدراكاً إذا كان
الطمع هلاكاً) المراد باليأس هنا الحرمان ، وبالإدراك نيل المراد ، والمعنى ربما
يتمنى المرء لنفسه شراً من حيث يظن انه خير محض ، ولا ينكشف ذلك إلا بعد
أن يناله ويمارسه ، ومثاله أن يتمنى الزواج من امرأة أعجبتة من أول نظرة ،
حتى إذا تم ما أراد ، وباشر وعاشر قال : يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً
منسياً .

(ليس كل عورة تظهر) فتحت الثياب أفاع وذئاب ، والقلوب صندوق
العيوب (ولا كل فرصة تصاب) . ما من انسان على وجه الأرض إلا وهو
يملك جزءاً من الوقت يستمع فيه الى حكمة ، او يقرأ ما ينفعه ، او يفكر في
آخرفته ومصيره ، او يكتب او يفرس او يذكر الله او غير ذلك مما يتناسب مع

أوضاعه .. وللوقت وزن وثمن ، ومن ذهل عنه او لم يكثر به فقد مات ، وهزحي (وربما أخطأ البصير قصده ، وأصاب الأعمى رشده) تبعاً للظروف والأحداث التي تشذ عن القواعد ، ولا سبيل الى التنبيه بها .. وقد رفعت هذه الشواذ أفراداً لا دور لهم في شيء ، ووضعت آخرين كان لهم أحسن الأثر في خدمة الحياة وتقدمها .

السلطان والزمان .. فقرة ٢٧ - ٢٨ :

أَخْرِ الشَّرَّ فَإِنَّكَ إِذَا شِئْتَ تَعَجَّلْتَهُ . وَقَطِيعَةُ الْجَاهِلِ تَعْدِلُ صَلَةَ الْعَاقِلِ . مَنْ أَمِنَ الزَّمَانَ خَانَهُ ، وَمَنْ أَعْظَمَهُ أَهَانَهُ . لَيْسَ كُلُّ مَنْ رَمَى أَصَابَ . إِذَا تَغَيَّرَ السُّلْطَانُ تَغَيَّرَ الزَّمَانُ . سَلْ عَنِ الرَّفِيقِ قَبْلَ الطَّرِيقِ ، وَعَنِ الْجَارِ قَبْلَ الدَّارِ . إِيَّاكَ أَنْ تَذْكُرَ فِي الْكَلَامِ مَا يَكُونُ مُضْهِكًا وَإِنْ حَكَيْتَ ذَلِكَ عَنْ غَيْرِكَ ^(٢٧) . وَإِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ النِّسَاءِ فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَى أَفْنٍ وَعَزَمُهُنَّ إِلَى وَهْنٍ . وَأَكْفُفْ عَنِّيهِنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ بِحِجَابِكَ إِيَّاهُنَّ فَإِنَّ شِدَّةَ الْحِجَابِ أَبْقَى عَنِّيهِنَّ ، وَلَيْسَ خُرُوجُهُنَّ بِأَشَدَّ مِنْ إِدْخَالِكَ مَنْ لَا يُوثِقُ بِهِ عَنِّيهِنَّ ، وَإِنْ أَسْتَطَعْتَ أَنْ لَا يَعْرِفَنَّ غَيْرَكَ فَافْعَلْ . وَلَا تُمْلِكِ الْمَرْأَةَ مِنْ أَمْرِهَا مَا جَاوَزَ نَفْسَهَا فَإِنَّ الْمَرْأَةَ رِيحَانَةٌ وَلَيْسَتْ بِقَهْرْمَانَةٍ ، وَلَا تَعْدُ بِكَرَامَتِهَا نَفْسَهَا ، وَلَا تُطْمِعُهَا فِي أَنْ تَشْفَعَ بِغَيْرِهَا . وَإِيَّاكَ وَالتَّغَايُرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ غَيْرِهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَدْعُو الصَّحِيحَةَ إِلَى السَّقَمِ وَالْبَرِيئَةَ إِلَى الرَّيْبِ . وَأَجْعَلْ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ خَدَمِكَ عَمَلًا تَأْخُذُهُ بِهِ فَإِنَّهُ أُخْرَى

أَنْ لَا يَتَوَاكَّلُوا فِي خِدْمَتِكَ . وَأَكْرِمْ عَشِيرَتَكَ فَإِنَّهُمْ جَنَاحُكَ الَّذِي
بِهِ تَطِيرُ ، وَأَصْلُكَ الَّذِي إِلَيْهِ تَصِيرُ ، وَبِذَلِكَ الَّتِي بِهَا تَصُولُ . أَسْتَوْدِعُ
اللَّهَ دِينَكَ وَدُنْيَاكَ . وَأَسْأَلُهُ خَيْرَ الْقَضَاءِ لَكَ فِي الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ وَالْأُخْرَى
وَالْآخِرَةِ . وَالسَّلَامُ (٢٨) .

اللغة :

الأفن والوهن : الضعف . قهرمانه : وكيلة في التصرف . والتغاير : إظهار
الغيرة . يتواكلوا : يتكل بعضهم على بعض .

الإعراب :

إياك أحتدرك ، والباء في أشد وقهرمانه زائدة .

المعنى :

(أختر الشر الخ) .. كل انسان على وجه الأرض يقدر على الشر والخير ،
ولو بحسب الخير وفاعله ، ولكن الشر أوسع مجالا ، وأكثر أنواعا وأفرادا ،
يستطيعه أضعف الضعفاء متى شاء وأراد ، ولا تفوته الفرصة منه وإن أبطأ وتلكأ ،
أما عمل الخير ووضعه في موضعه فله قيوده وظروفه ، ولا تسمح به الفرصة في
كل حين .. وقول الإمام : « أختر الشر » من باب : لا تستعجل الهلاك ، أي
ابتعد عنه .

(وقطيعه الجاهل تعدل صلة العاقل) لأن العاقل لا يقول ويفعل إلا بعد تقدير
العواقب ، والتثبت والأناة ، ولا يحقد على من عابه بشيء هو فيه ، أما الجاهل
فيتصرف باللمحة ، ويحكم بالظنة ، ولا يعرف للروية معنى ، ولا يقيم للعاقبة وزناً

(من أمن الزمان خانه) اذا أقبلت الدنيا عليك فاحذر المخبات والمفاجآت ، فإن الدنيا يحوز عليها كل شيء (ومن أعظمه أهانه) أي من أعظم الطاغية من أبناء الزمان ، لأن الزمان ليس بجسم يحس كي لا يُحقر أو يُقدّر ، وليس من شك ان تعظيم الطاغية رياء ونفاق ، وذل وهوان .

(ليس كل من رمى أصاب) الهدف وإن كان حاذقاً . والقصد من هذا هو التنبيه الى ان العاقل يتوقع الخطأ من نفسه ويتقبل النقد ، وان المعجب برأيه يرى انه لا ينطق إلا بالصواب ، وهو جاهل مغرور (اذا تغير السلطان تغير الزمان) إن خيراً فخير ، وإن شراً فشرّ بخاصة في عصرنا الذي بلغت فيه الأسلحة المدمرة حداً يفوق التصور ، وسيطر الحاكم او الهيئة الحاكمة على جميع المقدرات ونواحي الحياة .. فإذا كانت مصالح العباد في أيدي أمينة ونزيهة عاشوا في ظل الراعي عيشة طيبة راضية ، وإن كانت في أيدي اللصوص والقراصنة قادوا الرعية الى الهاوية ، ومنذ القديم شاع وذاع ان الرعية تصلح بصلاح الراعي ، وتفسد بفساده . وتقدم الكلام عن ذلك في الخطبة ٢١٤ ، ويأتي أيضاً في « عهد الإمام » للأشتر .

(سل عن الرفيق قبل الطريق) . السفر يسفر عن الأخلاق ، فإذا صحبت جاهلاً في سفرك ظهرت معالم صفاته وغلوائه ، وأزعجك وجنى عليك . قال رسول الله (ص) : « إن صحبتَ الجاهل عناك ، وإن اعتزلته شتمك » وكان (ص) اذا سافر يقول : من كان يسيء الى جاره فلا يصحبنا ، لأن الجار رفيق ملازم . وقدماً قيل : الجار قبل الدار (وإياك ان تذكر من الكلام ما يكون مضحكاً) إلا للمطايبة في حدود الشرع والآداب .

المرأة والمشورة :

(وإياك ومشاورة النساء السخ) .. لأن رسول الله (ص) قال : شاوروهن وخالفوهن . وفي « صحيح » البخاري كتاب « الحيض » : إن النبي قال : يا معشر النساء ما رأيتم ناقصات عقل ودين اذهبن للرب الرجل من إحدكن . وكل ما قاله الإمام عن المرأة فهو عن الله ورسوله بلا تقليد وتطعيم في الشكل

والأسلوب . وتقدم الكلام عن ذلك في شرح الخطبة ٧٨ فقرة « علي والمرأة » .
وأيضاً يأتي عند قول الإمام : « المرأة شر » في الحكمة ٢٣٨ .

وبعد ، فأني إنسان جمع في مشورته بين الوعي والإخلاص يصح الأخذ بها
والاعتماد عليها رجلاً كان أم امرأة ، ومتى انتفى هذان سقطت المشورة عن
الاعتبار وإن كان المشير رجلاً ، أما نهى النبي وعلي عن مشورة النساء فيحمل
على مشورة الجاهلية ، وكان أكثر النساء آنذاك في معزل عن العلم وتجارب
الحياة ، ولا ذنب للمرأة في ذلك إذا قصّر الرجل في تربيته مع العلم بأنها من
طينة الرجل ، وطبيعتها واحدة ، ويشتركان في المسؤولية على قدم المساواة .

(واكفف عليهن من أبصارهن الخ) .. يشير الى الآية ٣١ من سورة النور :
« وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن » (وليس خروجهن بأشد الخ) .. لا
فرق بين أن يُطلق لهن السراح في الخروج حيث أردن وبين أن يدخل عليهن
عاهر فاجر (ولا تملك المرأة من أمرها ما جاوز نفسها الخ) .. اتفقت المذاهب
الاسلامية قولاً واحداً على ان المرأة لا يجوز أن تتولى الإمارة والسلطان ، وفي
الحديث : « ما أفلح قوم ولّوا عليهم امرأة » . واختلفوا في توليها القضاء :
قال أبو حنيفة : يجوز أن تتولى المرأة القضاء في حقوق الناس دون حقوق الله
أي الحقوق العامة . وقال غيره : لا يجوز إطلاقاً .

(فإن المرأة ريحانة) للرقّة والحنان ، والدعة والاطمئنان (وليست بقهرمانة)
تتصرف فيما يخص الرجل نيابة عنه (ولا تعدو بكرامتها نفسها الخ) .. كرامة
المرأة أن تبقى امرأة ، وأن تضع نفسها حيث وضعتها الطبيعة ، ولا تتطفل على
وظائف الرجل . وقال الشيخ محمد عبده : « أين هذه الوصية من حال الدين
يصرفون النساء في مصالح الأمة » . (ولإياك والتغايير في غير موضعه الخ) ..
لك أن تغار على المرأة بصيانتها من التبرج ومخالطة المشبوهين ، أما الغيرة برجم
الظنون فإنها تشجع المرأة السقيمة على الحياة ، وتغزي البريئة بها ، وتقول في
نفسها : كنت أحرص على ثقته بأمانتي وعفائي ، أما وقد أصبحت عنده في مكان
الريب فلم يبق ما أحرص عليه .

(واجعل لكل إنسان من خدمك الخ) .. يشير بهذا الى ان الأعمال ينبغي
أن توزع على الموظفين والمستخدمين ، وان يحدّد لكل واحد منهم عمل خاص به
يكون هو المسؤول عنه وإلا عمت الفوضى ، وضاعت المسؤولية بين الجميع ،

وأحال كل واحد التقصير والإهمال على الآخر ، وهذا التصنيف والتوزيع للأعمال هو المبدأ الذي لم تعرفه المدنية إلا حديثاً . ويأتي التوضيح في عهد الأشرافقرة ١٨ .
(وأكرم عشيرتك الخ) .. تقدم مع الشرح في الخطبة ٢٣ (واستودع الله دينك ودنياك الخ) .. أخلص في عبادتك لله ، وفي معاملتك مع الناس ، وأسأل التوفيق منه تعالى لما فيه لله رضى ، ولك خير وصلاح ديناً وآخرة . وأفضل الصلوات على محمد وآله الأطهار .

الرسالة

- ٣١ -

الى معاوية :

وَأَرَدْتِ جَيْلًا مِنَ النَّاسِ كَثِيرًا خَدَعْتَهُمْ بِغَيْكِ ، وَأَلْقَيْتَهُمْ فِي مَوْجِ
بَحْرِكَ ، تَغْشَاهُمُ الظُّلُمَاتُ وَتَتَلَاظِمُ بِهِمُ الشُّبُهَاتُ ، فَجَازُوا عَنْ وَجْهِهِمْ
وَنَكَصُوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ ، وَتَوَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ ، وَعَوَّلُوا عَلَى أَحْسَابِهِمْ
إِلَّا مَنْ فَاءَ مِنْ أَهْلِ الْبَصَائِرِ فَإِنَّهُمْ فَارَّقُواكَ بَعْدَ مَعْرِفَتِكَ ، وَهَرَبُوا
إِلَى اللَّهِ مِنْ مُوَازَرَتِكَ ، إِذْ حَمَلْتَهُمْ عَلَى الصَّغْبِ وَعَدَلْتَ بِهِمْ عَنِ الْقَصْدِ .
فَاتَّقِ اللَّهَ يَا مُعَاوِيَةُ فِي نَفْسِكَ وَجَازِبِ الشَّيْطَانِ قِيَادَكَ ، فَإِنَّ الدُّنْيَا
مُنْقَطِعَةٌ عَنْكَ وَالْآخِرَةُ قَرِيبَةٌ مِنْكَ . وَالسَّلَامُ .

اللغة :

أردت : أهلك . وجيلاً : قبلاً او صنفاً . والوجهة - بكسر الواو -
القصْد . ونكصوا : رجعوا . وعولوا : اعتمدوا . وأحسابهم : جمع حسب اي
شرف الآباء . وفاء : رجع . وموازرتك : معاونتك . والقياد : ما تقاد به الدابة .

الإعراب :

كثيراً صفة للجيل ، وإذ ظرف ومحله النصب بهربوا .

المعنى :

كتب الإمام الى معاوية رسالة جاء فيها : (وأرديت جيلاً من الناس كثيراً الخ) .. الناس يحبون المال ، ومنه الكثير في يد معاوية يبدله لكل من يبيع دينه بدنياه ، فراجت سوق معاوية ، وكثُر فيها العرض والطلب . وروينا فيما سبق بعض الأمثلة على ذلك ، منها عن الطبري : إن الختات المجاشعي وفد على معاوية مع جماعة من الرؤساء ، فأمر لكل واحد بمئة ألف ، وللختات بسبعين .. ولما عاتبه الختات قال له معاوية : اشترينا من القوم دينهم . فقال الختات : وأنا اشترى مني ديني . فأكملها معاوية على المئة ، وتمت الصفقة .

(وعولوا على أحسابهم) . ما حارب واحد مع معاوية إلا لمالٍ او وظيفة ، او بدافع من العصبية الجاهلية (إلا من فاء من أهل البصائر) . موّة معاوية على بعض المؤمنين في بداية الأمر ، ثم تكشفت لهم الحقائق حين حاول ان يحملهم على الإثم ومعصية الله ورسوله (وجاذب الشيطان قيادك) . المراد بالشيطان الهوى ، والمعنى لقد تغلب هواك على عقلك ودينك ، فحررت نفسك منه (فإن الدنيا منقطعة عنك) وأنت مفارقها لا محالة (والآخرة قريبة منك) وفيها حسابك وجزاؤك .

الرسالة

- ٣٢ -

الى قثم بن العباس :

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ عَيْنِي بِالْمَغْرِبِ كَتَبَ إِلَيَّ يُعَلِّمُنِي أَنَّهُ وَجَّهَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ
أَنَاسٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ الْعُمِّيِّ الْقُلُوبِ ، الضَّمُّ الْأَشْمَاعِ ، الْكُفَّةِ
الْأَبْصَارِ ، الَّذِينَ يَلْتَمِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ، وَيُطِيعُونَ الْمَخْلُوقَ فِي
مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ ، وَيَحْتَلِبُونَ الدُّنْيَا دَرَّهَا بِالْدِّينِ ، وَيَشْتَرُونَ عَاجِلَهَا
بِأَجْلِ الْأَبْرَارِ وَالْمُتَّقِينَ . وَلَنْ يَفُوزَ بِالْخَيْرِ إِلَّا عَامِلُهُ ، وَلَا يُجْزَى
جَزَاءُ الشَّرِّ إِلَّا فَاعِلُهُ . فَأَقِمْ عَلَى مَا فِي يَدَيْكَ قِيَامَ الْحَازِمِ الصَّلِيبِ
وَالنَّاصِحِ اللَّيِّبِ ، وَالتَّابِعِ لِسُلْطَانِهِ الْمُطِيعِ لِإِمَامِهِ . وَإِيَّاكَ وَمَا
يُعْتَذَرُ مِنْهُ . وَلَا تَكُنْ عِنْدَ النَّعْمَاءِ بَطِراً ، وَلَا عِنْدَ الْبَأْسَاءِ فَشِيلاً .
وَالسَّلَامُ .

اللغة :

العين : الجاسوس . والمراد بالمغرب هنا بلاد الشام لأنها من الأقاليم الغربية ، كما قال ابن أبي الحديد . والموسم : الأيام التي يقام فيها الحج . والكمه : جمع اكمه اي وُلد أعمى . والدر : اللبن . والصليب : الشديد . والبَطَر : الطغيان بسبب الغنى والترف .

الإعراب :

أناس نائب فاعل لوُجِه ، والعمي الصم الكمه صفات لأهل الشام ، ودرها بدل اشتمال من الدنيا .

المعنى :

قُم أخو عبدالله بن عباس بن عبد المطلب جد النبي (ص) وكان الإمام قد ولاه مكة المكرمة ، وبقي عليها حتى استشهد الإمام . واستشهد قُم بسمرقند في زمن معاوية ، وكان للإمام عيون وجواسيس على معاوية ، فكتب إليه أحدهم ان معاوية أرسل دعائه في السر الى مكة ايام الحج لينفثوا السموم والأكاذيب ضد الحق وأهله . فكتب الإمام الى قُم هذا الكتاب ليحتاط للأمر ، ويسد الطريق على العدو :

(أما بعد ، فإن عيني الخ) .. يخبر الإمام عامله على مكة بأن معاوية بعث اليها جماعة من أهل الشام أضلهم الشيطان ، ليفتروا على الله الكذب، وهم يعلمون دائبين في مرضاة معاوية بغياً وعدواناً لله ورسوله (ولن يفوز بالخير إلا عامله ، ولا يجزى جزاء الشر إلا فاعله) . والخير في مفهوم الإمام يقاس بجزائه وثوابه غداً عند الله ، لا بالنعيم والترف في الحياة الدنيا . والشر يقاس بغضب الله وعذابه . ومن أقواله في ذلك « كل نعيم دون الجنة فهو محقور ، وكل بلاء دون النار عافية » . وكل شهداء الإيمان بالله يقيسون الخير والشر بهذا المبدأ ، ولولا حلاوته ما أقدموا على الموت بقلوب مطمئنة ، وأوجه مبتسمة .

(فأقم على ما في يدك الخ) .. من السلطة والولاية على مكة وما يتبعها ،
ودافع عنها بكل سبيل وبجد وإخلاص، وبهذا تؤدي حق الله ورسوله وحق إمامك
وحق الرعية (ولا تكن عند النعماء بطيراً) بل شاكراً متواضعاً (ولا عند البأساء
فشلاً) اي ضعيفاً منكسراً عند الشدائد .

الرسالة

- ٣٣ -

الى محمد بن أبي بكر :

أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ بَلَغَنِي مَوْجِدَتُكَ مِنْ تَسْرِيحِ الْأَشْتَرِ إِلَى عَمَلِكَ . وَإِنِّي لَمْ
أَفْعَلْ ذَلِكَ أَسْتَبْطَاءَ لَكَ فِي الْجُهْدِ وَلَا أَرْذِيَاداً فِي الْجِدِّ . وَلَوْ نَزَعْتُ
مَا تَحْتَ يَدِكَ مِنْ سُلْطَانِكَ . لَوَلَّيْتُكَ مَا هُوَ أَيْسَرُ عَلَيْكَ مَوْوَنَةً
وَأَعْجَبُ إِلَيْكَ وَلَايَةً . إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي كُنْتُ وَلَّيْتُهُ أَمْرَ مِضَرَ كَانَ
لَنَا رَجُلًا نَاصِحًا وَعَلَى عَدُوِّنَا شَدِيدًا نَاقِمًا . فَرَحِمَهُ اللَّهُ فَلَقَدْ اسْتَكْمَلَ
أَيَّامَهُ وَلَاقَى حِمَامَهُ وَنَحْنُ عَنْهُ رَاضُونَ . أَوْلَاهُ اللَّهُ رِضْوَانَهُ وَضَاعَفَ
الثَّوَابَ لَهُ ، فَأَصْحِرْ لِعَدُوِّكَ . وَأَمْضِ عَلَى بَصِيرَتِكَ ، وَشَمِّرْ لِحَرْبِ
مَنْ حَارَبَكَ ، وَأَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ ، وَأَكْثِرِ الْإِسْتِعَانَةَ بِاللَّهِ يَكْفِكَ
مَا أَهَمَّكَ وَيُعِينِكَ عَلَى مَا نَزَلَ بِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

اللغة :

موجدتك : غضبك . والجهد - بفتح الجيم - التعب والمشقة ، وأيضاً الوسع والطاقة ، وبضمها الطاقة والقليل من الرزق . والجيد - بكسر الجيم - الاجتهاد . وحامه : موته . واصحر : أبرز .

الإعراب :

استبطاء مفعول من أجله لأفعل ومؤونة تمييز ومثلها ولاية ، وناصبها صفة لرجل ، ولنا متعلق بناصح .

المعنى :

ولد محمد بن أبي بكر قبل وفاة رسول الله (ص) ببضعة شهور ، وامه أسماء بنت عميس الخثعمية ، تزوجها جعفر بن أبي طاب ، فرزق منها أولاداً ، منهم عبدالله الشهير بكرمه ، ثم تزوجها من بعده أبو بكر ، فولدت له محمداً ، ومن بعد أبي بكر تزوجها الإمام ، فولدت يحيى . فمحمد هو ابن أبي بكر وريث الإمام ، وكان يحبه ويثني عليه ، وولاه مصر .. ثم رأى أن يستبدل به الأشر ، ليكون حصناً منيعاً لمصر من معاوية وابن العاص ، فكتب له العهد المشهور ، ولما علم محمد بن أبي بكر بذلك عتب وتألم .. ودسّ معاوية للأشر السم بالعسل قبل أن يصل الى مصر ، فبقي محمد والياً عليها ، وكتب الإمام له هذه الرسالة :

(أما بعد ، فقد بلغني موجدتك الخ) .. لماذا صعب عليك اختياري للأشر ؟ أنظن أنه أعز علي منك ، أو اني أتمك بالتقصير في عملك .. كلا ، ولكن الحكمة والمصلحة قضت بذلك .. هذا ، الى اني ما أردت طردك وعزلك ، وإنما أردت نقلك الى بلد آخر يسرك ويعجبك ، ولا يجر عليك المتاعب والمصاعب كمصر القريبة من معاوية والتي جعلها طعمة لابن العاص . فهوّن عليك .

(ان الرجل الذي كنت وليته أمر مصر الخ) .. وهو الأشر ، كان مخلصاً لله ولنا ، وأنت كذلك يا محمد ، ولكن معاوية كان بهاب الأشر ويتحاماه حيث

فعل به الأفاعيل في صفين ، ولولا رفع المصاحف لقضى عليه الأشر ، وما اغتاله معاوية إلا خوفاً من بأسه وصلابته (فرحه الله .. وضاعف الثواب له) . قال ابن أبي الحديد : لا أشك في أن الله يغفر للأشر ذنوبه ، ويدخله الجنة بهذه الدعوة ، لأنها كدعوة رسول الله (ص) ويا طوبى لمن حصل على بعضها من علي (ع) .

(فأصحر لعدوك الخ) .. استعد لحربه ، واحذر من كيده ، واثبت على دينك وإيمانك ، وحرص على الجهاد ، واستعن بالله ، فإنه ناصرك وكافيك إن ثبأ الله .

الرسالة

- ٣٤ -

الى عبدالله بن العباس :

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ مِصْرَ قَدِ افْتُتِحَتْ وَتَحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قَدِ اسْتَشْفِدَ . فَعِنْدَ اللَّهِ نَحْسِيْبُهُ وَلَدًا نَاصِحًا ، وَعَامِلًا كَادِحًا وَسَيْفًا قَاطِعًا وَرُكْنًا دَافِعًا . وَقَدْ كُنْتُ حَثْتُ النَّاسَ عَلَى لِحَاقِهِ وَأَمَرْتُهُمْ بِغِيَاثِهِ قَبْلَ الْوَقْعَةِ ، وَدَعَوْتُهُمْ سِرًّا وَجَهْرًا وَعَوْدًا وَبَدْءًا ، فَمِنْهُمْ الْآتِي كَارِهَا ، وَمِنْهُمْ الْمُغْتَلُّ كَاذِبًا ، وَمِنْهُمْ الْقَاعِدُ نَازِلًا ، أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ فَرَجًا عَاجِلًا . فَوَاللَّهِ لَوْلَا طَمَعِي عِنْدَ لِقَائِي عَدُوِّي فِي الشَّهَادَةِ وَتَوَطُّيْنِي نَفْسِي عَلَى الْمَنِيَّةِ لَأَحْبَبْتُ أَنْ لَا أَبْقَى مَعَ هَؤُلَاءِ يَوْمًا وَاحِدًا وَلَا أَلْتَقِيَ بِهِمْ أَبَدًا .

اللغة :

نحتسبه : نسأل الله الأجر على الرزية فيه . وبدءاً - بفتح الباء - أول الحال .
وعود - بفتح العين - الرجوع الى الحال السابقة .

الإعراب :

ولداً حال أي مولوداً ، ويجوز إعرابه بدلاً من الهاء في نحتسبه ، وناصحاً
وما بعده صفة لولد ، وسراً مفعول مطلق أي دعوتهم دعوة السر ، حيث كانت
الدعوة بالقول ، والسر والجهر من صفاته ، وكارهاً حال ، ومثله ما بعده ،
وطمعي مبتدأ والخبر محذوف أي طمعي كائن .

المعنى :

قال المسعودي في « مروج الذهب » : في سنة ٣٨ هـ. وجه معاوية عمرو بن
العاص الى مصر في أربعة آلاف ، منهم معاوية بن خديج وأبو الأعور السلمي ،
فالتقوا هم ومحمد بن أبي بكر بالموضع المعروف بالمسناة ، فاقتتلوا وانهمزم محمد
بعد أن فر أصحابه عنه وأسلموه لأعدائه ، وصار الى موضع بمصر واختفى فيه ،
وأحيط به فخرج اليهم ، وقاتلهم حتى قتل ، فأخذه معاوية بن خديج وعمرو بن
العاص وغرهما وجعلوه في جلد حمار ، وأضرموه بالنار . وقيل : فعل به ذلك ،
وفيه شيء من الحياة .

وحزن عليه علي، وسُرَّ معاوية، وقال الإمام : جزعنا عليه على قدر سرورهم.
كان لي ربيباً ، وكنت أعدده ولدأ ، وكان بي برأ . فكتب الإمام هذه الرسالة
لابن عباس يخبره فيها بمقتل محمد بن أبي بكر ، وكان ابن عباس آنذاك عاملاً
للإمام على البصرة .

(أما بعد ، فإن مصر قد افتتحت الخ) .. يتألم الإمام على فقد محمد بن أبي
بكر ، ويطلب له من الله الرحمة والمغفرة ، ولنفسه الأجر والثواب على رزيته
فيه ، ويؤبنه مثنياً على إيمانه وإخلاصه ، وشجاعته وجهاده (وقد كنت حثت

الناس الخ) .. بكل سبيل على نصرة محمد والجهاد معه ، فتثاقلوا وتعللوا بالأباطيل والأضاليل .

(أسأل الله أن يجعل لي فرجاً عاجلاً) ولو بالموت لأستريح من تخاذل أهل العراق ونفاقهم (ولولا طمعي الخ) .. كان الإمام يتعجل الشهادة وينتظرها بفارغ الصبر ، ولا سبيل إليها إلا بجهاد الفئة الباغية وقائدها معاوية ، وأقرب مكان إليه العراق ، ومن أجل هذا أقام فيه الإمام ، وصبر على أخلاق أهله ، ولولا رغبته في الشهادة ما بقي معهم يوماً واحداً ، ولا اجتمع بهم أبداً .

الرسالة

- ٣٥ -

الى أخيه عقيل :

فَسَرَّحْتُ إِلَيْهِ جَيْشًا كَثِيفًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَلَمَّا بَلَغَهُ ذَلِكَ شَمَّرَ هَارِبًا
وَنَكَصَ نَادِمًا ، فَلَدَحُوهُ بِبَعْضِ الطَّرِيقِ وَقَدْ طَفَلَتِ الشَّمْسُ لِلْإِيَابِ
فَاقْتَتَلُوا شَيْنًا كَلًّا وَلَا ، فَمَا كَانَ إِلَّا كَمَوْقِفِ سَاعَةٍ حَتَّى نَجَا جَرِيضًا
بَعْدَمَا أَخَذَ مِنْهُ بِالْمُخَنَّقِ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ غَيْرُ الرَّمَقِ . فَلَأْيَا بِلَايٍ مَا
نَجَا . فَدَعَّ عَنْكَ قُرَيْشًا وَتَرَكَاضَهُمْ فِي الضَّلَالِ ، وَتَجَوَّاهُمْ فِي الشَّقَاقِ ،
وَجَمَّاحَهُمْ فِي التَّيِّهِ . فَإِنَّهُمْ قَدْ أَجْمَعُوا عَلَى حَرْبِي كَأَجْمَاعِهِمْ عَلَى حَرْبِ
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَبْلِي ، فَجَزَتْ قُرَيْشًا عَنِّي الْجَوَازِي ،
فَقَدْ قَطَعُوا رَحِمِي ، وَسَلَبُونِي سُلْطَانَ ابْنِ أُمِّي . وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ عَنْهُ
مِنْ رَأْيِي فِي الْقِتَالِ فَإِنَّ رَأْيِي فِي قِتَالِ الْمُحِلِّينَ حَتَّى أُلْقَى اللَّهُ لَا
يَزِيدُنِي كَثْرَةَ النَّاسِ حَوْلِي عِزَّةً ، وَلَا تَفَرُّهُمْ عَنِّي وَحْشَةً . وَلَا تَحْسَبَنَّ

أَبْنَ أَيْكَ - وَلَوْ أَسْلَمَهُ النَّاسُ - مُتَضَرَّعاً مُتَخَشَّعاً ، وَلَا مُقِرّاً
لِلضَّيْمِ وَاهِناً . وَلَا سَلِسَ الزَّمَانِ لِلْقَائِدِ ، وَلَا وَطِئَ الظَّهِيرَ لِلرَّائِبِ
الْمُتَقَعِّدِ ، وَلَكِنَّهُ كَمَا قَالَ أَخُو بَنِي سُلَيْمٍ :

فَإِنْ تَسْأَلِينِي كَيْفَ أَنْتَ فَإِنِّي صَبُورٌ عَلَى رَيْبِ الزَّمَانِ صَلِيبُ
يَعِزُّ عَلَيَّ أَنْ تُرَى بِي كَأَبَةٌ فَيَشْمَتَ عَادٍ أَوْ يُسَاءَ حَبِيبُ

اللغة :

طفلت الشمس - بتشديد الفاء - دنت للغروب . وآبت الشمس : غابت .
والجريض : الحزين . والمخنق - بضم الميم وتشديد النون - موضع الخنق .
والرمق : بقية النفس . ولأياً : من لأى يلاى الشدة والمحنة . والتركاض
مبالغة في الركض . والتجوال مبالغة في الجولان . والشقاق : الخلاف . وجاحهم :
اسراعهم . وأجمعوا : عزموا وصمموا . والجوازي : المكافآت . والمحلين :
ناقضي العهد . والسلس : السهل . والمتقعد : من اقتعد الدابة اذا اتخذها مركباً .

الإعراب :

هارباً حال ، ومثله نادماً ، وشيئاً مفعول مطلق لاقتتلوا ، لأن معناه اقتتلوا
قتلاً ، وكلا ولا الكاف للتشبيه بمعنى مثل ، ومحلها نصب صفة لشيء « ولا
ولا » يكتفى بها عن السرعة والقلة ومحلها الجر بإضافة الكاف التي هي بمعنى مثل
كما قلنا، ولأياً نصب على المصدرية ، وما نجا « ما » مصدرية أي عسرت نجاته ،
والجوازي فاعل جزت ، وعزة تمييز ، ومتضرعاً مفعول ثان لتحسين .

المعنى :

كان معاوية يشن الغارات بشيائنه على أطراف دولة الإمام ، يفسدون في

الأرض بالقتل والتشريد والنهب والسلب . فكتب عقيل بن أبي طالب كتاباً الى الإمام حول بعض المغيرين وفضائعهم . فأجابه الإمام بقوله : (فسرحت اليه جيشاً الخ) .. ضمير اليه يعود الى المخرب الذي أغار وأفسد ، ولم يصرح الإمام باسمه ، ولا ذكره الشارحون والشريف الرضي ، وتومىء عبارة ابن أبي الحديد الى انه بسر بن أرطاة ، ونقل عن الراوندي ان هذا الهارب الخائب هو معاوية ، وسخر ابن أبي الحديد من ذلك ، وقال انه عجيب ومضحك ! وبعد أن نقل عنه تفسير الجوازي وقال : « قد كان يجب أن يحجر على هذا الرجل ، ويُمنع من تفسير النهج » .. ومهما يكن فالمعنى واضح ، ويتلخص بأن الإمام أرسل للمخرب جماعة من المجاهدين ، فقاتلوه قليلاً ، ثم ولى مدموماً مخدولاً .

(فدع عنك قريشاً الخ) .. فقد أبوا إلا الضلال والعدوان، وإعلان الحرب عليّ منذ يومي الأول تماماً كشأنهم مع رسول الله (ص) . وتقدم الكلام عن ذلك في شرح الخطبة ٣٣ و ١٧٠ و ٢١٥ (وأما ما سألت عنه من رأيي في القتال الخ) . فلإني مصمم بحول الله على جهاد من نكث العهد ، ومن مرق من الدين ، ومن بغى على الخلق ، وعاث في الأرض فساداً ، ولن أراجع مهما كانت الظروف والعواقب .

الإمام والناس :

(لا يزيدني كثرة الناس حولي الخ) .. مالي وللناس كثروا أم قتلوا ، أقبلوا أم أدبروا ؟ فلإني ، ما حييت ، لا أصانع إلا وجهاً واحداً ، ولا أكثرث بسواه ما رضي عني ولم يغضب عليّ .. فبالخلق غنى عن الخلق ، ولا غنى بغيره عنه .. هذا هو الدين اليقين ، وبه نطق القرآن والسنة النبوية ، قال تعالى : « اتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين - ١٣ التوبة » أي لا إيمان لمن يؤثر الخوف من الله . وفي الآية ٤٤ من سورة المائدة : « فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً » . ولكن الكثير من أرباب العائم والقلانس عكسوا الآية .. وقالت لهم أهواؤهم : لا تخشوا الله واخشوا الناس واشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً . فاستجابوا لها وأطاعوا .. وصلى الله على محمد وآله الذي خاطب ربه بقوله : إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي .

(ولا تحسبن ابن أبيك الخ) .. حريصاً على حياته . كيف وقد طلق الدنيا ثلاثاً ؟ . انه يحرص على شيء واحد فقط ، هو جهاد الباطل ، والموت على الحق .. بهذه الروح وحدها تتقدم الانسانية ، ويعيش الناس حياة أفضل . وأية جدوى من المصانع اذا أسست على الاستغلال والضللال ، وبنت على البغي والعدوان ؟ . إن مصانع الأساحة في القرن العشرين استنزفت خيرات الأرض والسماء ، وابتلعت أقوات العباد في شرق الأرض وغربها ، وحولت أصحابها الى كائنات أشد ضراوة من الحيوان المفترس ، وأكثر خبثاً في الشر والفساد ، وأعظم تخريباً وتقتيلاً وتشريداً للآمنين .

الرسالة

- ٣٦ -

الى معاوية :

فَسُبْحَانَ اللَّهِ مَا أَشَدَّ لُزُومَكَ لِلْأَهْوَاءِ الْمُبْتَدَعَةِ وَالْخَيْرَةِ الْمُتَعَبَةِ ، مَعَ
تَضْيِيعِ الْحَقَائِقِ وَأَطْرَاحِ الْوَثَائِقِ الَّتِي هِيَ لِلَّهِ طَلِبَةٌ ، وَعَلَى عِبَادِهِ حُجَّةٌ .
فَأَمَّا إِكْتِمَارُكَ الْحِجَاجَ فِي عُثْمَانَ وَقَتْلَتِهِ فَإِنَّكَ إِنَّمَا نَصَرْتَ عُثْمَانَ حَيْثُ
كَانَ النَّصْرُ لَكَ ، وَتَخَذَلْتَهُ حَيْثُ كَانَ النَّصْرُ لَهُ ، وَالسَّلَامُ .

اللغة :

الطلبة : المطلوبة . والحجاج : الجدل .

المعنى :

(فسبحان الله ما أشد لزومك للأهواء الخ) .. الخطاب لمعاوية . وفيما سبق
نقلنا عن المؤرخين والباحثين القدامى والجدد - ان معاوية خذل عثمان في حياته ،
وطلب منه أن يجعله ولياً دمه ، وانه بعد أن تم له الأمر تجاهل عثمان ودم عثمان،

وانه كان يستقبل قتلته ويجيزهم بالأموال (أنظر كتاب معاوية للعقاد ص ١٥٠ الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٦) .

وقد جابه الإمام معاوية بهذه الحقيقة ، وقال له صراحة : (انما نصرتَ عثمان حيث كان النصر لك ، وخلدته حيث كان النصر له) . وفسّر الشيخ محمد عبده هذا بقوله : ان معاوية اتخذ من الانتصار لعثمان بعد موته ذريعة لجمع الناس الى غرضه ، وخلد عثمان حين كان النصر يفيد .

ونقل ابن أبي الحديد في شرح هذه الرسالة عن البلاذري ما نصه بالحرف : « لما أرسل عثمان الى معاوية يستمده بعث معاوية يزيد بن أسد القسري ، وقال له : اذا أتيت ذا خشب فأقم بها ، ولا تتجاوزها ، ولا تقل : الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، فلإني أنا الشاهد وأنت الغائب . فأقام يزيد بلدي خشب حتى قتل عثمان ، فاستقدمه حينئذ معاوية ، فعاد الى الشام بالجيش الذي كان أرسله معاوية معه ، وانما صنع ذلك ليقتل عثمان فيدعو الى نفسه » . وكل الشواهد من سيرة معاوية تنطق بصحة هذه الرواية .

المراد

- ٣٧ -

الى مالك الاشر :

مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ غَضِبُوا اللَّهَ حِينَ
عَصَى فِي أَرْضِهِ وَذُهِبَ بِحَقِّهِ ، فَضْرَبَ الْجُورُ سُرَادِقَهُ عَلَى الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ
وَالْمُقِيمِ وَالطَّاعِينَ ، فَلَا مَعْرُوفٌ يُسْتَرَاخُ إِلَيْهِ ، وَلَا مُنْكَرٌ يُتَنَاهَى
عَنْهُ . أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ لَا يَنَامُ أَيَّامَ
الْخَوْفِ ، وَلَا يَنْكُلُ عَنِ الْأَعْدَاءِ سَاعَاتِ الرُّوعِ . أَشَدُّ عَلَى الْفُجَّارِ
مِنْ حَرِّقِ النَّارِ ، وَهُوَ مَالِكُ بْنُ الْحَارِثِ أَخُو مَذْحِجٍ ، فَاسْمَعُوا لَهُ
وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ فِيمَا طَابَقَ الْحَقُّ فَإِنَّهُ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ لَا كَيْلُ
الظُّلْمَةِ وَلَا نَائِي الضَّرِيبَةِ ، فَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تَنْفِرُوا فَانْفِرُوا ، وَإِنْ أَمَرَكُمْ
أَنْ تَقِيمُوا فَاقِيمُوا ، فَإِنَّهُ لَا يُقَدِّمُ وَلَا يُخَجِّمُ وَلَا يُؤَخِّرُ وَلَا يُقَدِّمُ
إِلَّا عَنْ أَمْرِي ، وَقَدْ آثَرْتُكُمْ بِهِ عَلَى نَفْسِي لِنَصِيحَتِهِ لَكُمْ وَشِدَّةِ
شَكِيمَتِهِ عَلَى عَدُوِّكُمْ .

اللغة :

السراقد : الخيمة . والمراد ببيستراح اليه هنا يعمل به . ولا ينكل : لا يرجع .
والروح : الخوف . والظبة : حد السيف . ونبا السيف : لم يؤثر في المضروب .
والضريبة : المضروب . والمراد بالشكيمة هنا شدة البأس .

الإعواب :

أشد صفة لعبد ، وأخو ملحج بدل من مالك .

المعنى :

كان عبدالله بن سعد بن أبي السرح أخاً لعثمان من الرضاعة ، وممن كتب الوحي لرسول الله (ص) وكان يحاول أن يحرف ما يُعْلَى عليه ، ولكن الله سبحانه فضحه وكشف أمره ، وأنزل فيه ، كما في تفسير الطبري وغيره : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً - ٩٣ الانعام » . فارتد مشركاً ، ولما كان يوم الفتح أمر النبي (ص) بقتله وقتل ابن خطل ومقيس بن صبابه ولو وُجدوا تحت أستار الكعبة .

فغيب عثمان أخاه من الرضاعة ، ثم طلب له الأمان من رسول الله (ص) فأعرض عنه ، فكرر عثمان الطلب ثلاث مرات . فقال النبي : نعم . وكان ابن أبي السرح حاضراً مع عثمان . فلما انصرف عثمان قال النبي لمن حوله : ما سكت « أولاً وثانياً » إلا ليقوم اليه بعضكم فيضرب عنقه . فقال رجل من الأنصار : هلا أومات إلي يا رسول الله ؟ فقال : ان النبي لا ينبغي أن يكون له خائنة الأعين (انظر السيرة لابن هشام والاستيعاب لابن عبد البر) .

وحين انتهت الخلافة لعثمان ولّى ابن أبي السرح مصر فأفسد وظلم ، فثار جماعة من المصريين ، وطالبوا أن يستبدله بأمين على العدل والدين وحقوق المسلمين وبهذا نجد تفسير قول الإمام عن أهل مصر : (الذين غضبوا الله حين عصي في أرضه الخ) .. والمراد بالعاصي المقيم على المنكر والطاعن عن المعروف هو عامل عثمان أي ابن أبي السرح الذي كان السبب في ثورة المصريين على الخليفة المقتول .

(فقد بعث اليكم - يا أهل مصر - عبداً من عباد الله الخ) .. وهو مالك الأشتر المعروف بحزمه وشجاعته ، وقوته في دينه وإيمانه ، وإخلاصه في أقواله وأفعاله ، ورجاحة عقله وحسن تدبيره (فاسمعوا له ، وأطيعوا أمره فيما طابق الحق ، فإنه سيف من سيوف الله الخ) .. قال ابن أبي الحديد : « هذا لقب خالد بن الوليد ، واختُلف في الذي لقبه به ، فقبل رسول الله (ص). والصحيح ان أبا بكر هو الذي لقبه بذلك لقتاله أهل الردة » . ويؤيد ما صححه ابن أبي الحديد قول المؤرخين ، ومنهم ابن الأثير في المجلد الثاني من « الكامل » : إن خالداً لما قتل مالك بن نويرة وتزوج امرأته غضب عمر ، وقال لخالد : قتلت مسلماً ، ثم نزوت على امرأته ! والله لأرجمنك . وألح على أبي بكر أن يقيد خالداً بمالك . فقال أبو بكر : تأول خالد فأخطأ ، ولا أعمد سيفاً سلّه الله على الكافرين . واذن فسبب التسمية قتاله لأهل الردة بعد رسول الله (ص) .

الرسالة

- ٣٨ -

الى ابن العاص :

فَإِنَّكَ جَعَلْتَ دِينَكَ تَبَعًا لِدُنْيَا أَمْرِي وَظَاهِرِ غَيْبِهِ مَهْتُولِكِ سِتْرُهُ ،
 يَشِينُ الْكَرِيمَ بِمَجْلِسِهِ وَيُسْفَهُ الْحَلِيمَ بِخُلُطَتِهِ ، فَاتَّبَعْتَ أَثَرَهُ وَطَلَبْتَ
 فَضْلَهُ اتِّبَاعَ الْكَلْبِ لِلضَّرْغَامِ يَلُودُ إِلَى مَخَالِبِهِ وَيَنْتَظِرُ مَا يُلْقَى إِلَيْهِ
 مِنْ فَضْلِ فَرِيَسْتِهِ ، فَأَذْهَبْتَ دُنْيَاكَ وَآخَرَتَكَ ، وَلَوْ بِالْحَقِّ أَخَذْتَ
 أَدْرَكَتَ مَا طَلَبْتَ . فَإِنْ يُمَكِّنِي اللَّهُ مِنْكَ وَمِنْ ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ أَنْجَزِكَا
 بِمَا قَدَّمْتُمَا ، وَإِنْ تُعْجِزَا وَتَبْقَيَا فَمَا أُمَامَكُمَا شَرُّ لَكُمَا .

اللغة :

يشين : يعيب . ويسفه : ينسبه الى السفه . وبخلطته : بلبغوه . والضرغام :
 الأسد . والمخالب : الأظفار .

الإعراب :

فيه فاعل ظاهر ، وستره نائب فاعل لمهتوك ، واتباع مفعول مطلق لاتبعت.

المعنى :

(فلأنك قد جعلت دينك تبعاً لدنيا امرئٍ ظاهر فيه ، مهتوك ستره) .
الخطاب لابن العاص الذي باع دينه بولاية مصر ، والمرء الذي ظهر ضلاله ،
وافترضحت أحواله هو معاوية .. وروى العقاد في آخر كتاب عثمان : ان أبا سفيان
دخل على عثمان حين صارت إليه الخلافة ، وقال له : « قد صارت إليك بعد
تيم وعديّ - أي بعد أبي بكر وعمر - فأدرها كالكرة ، واجعل أوتادها بني
أمية ، فإنما هو الملك ، ولا أدري ما جنة ولا نار » .

وأخذ معاوية بمبدأ أبيه « إنما هو الملك » وفي ذلك يقول العقاد في آخر
كتاب معاوية : أراد معاوية الملك له ولبنيه .. وعرف الناس في زمانه الفرق بين
الوالي الذي يتخذ الحكم خدمة للرعية ، وأمانة للخلق والخالق ، وبين الحكم الذي
يحاط بالأبهة ، ويجري على المساومة ، ويحقق لصاحبه البذخ والمتعة .. وكان الناصح
المخلص من المسلمين يسلم عليه بالملك ، ولا يسلم عليه بالخلافة انكاراً لفعله .
فيقول : نعم أنا أول ملك .. وتحولت الخلافة الى الهرقلية والكسروية ، وتبعه
من جاء من بعده .

(يشين الكريم الخ) .. ومن ذلك لإعلانه سب الإمام وجعله سنةً ينشأ عليها
الصغير ، ويشيب الكبير (فأذهبت دنياك وآخرتك) . المراد بدنياك ما قدر الله
سبحانه لابن العاص من رزقه الحلال ، ولكنه رفض هذا الرزق الطيب ، وأثر
عليه رزق معاوية الخبيث المحرم ، فحسر دنيا الحلال ، والنجاة في الآخرة (ولو
بالحق أخذت أدركت ما طلبت) . انك تطلب العزة والمكانة ، وهي في متناول
يدك ، وما عليك إلا أن تتقي الله ، وتناصر الحق وتعمل به . ومن اعترز بغير
الحق فهو ذليل ، ولا عز أعز من التقوى ، ولا كنز أغنى من القناعة : « ولله
العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » . أو يعلمون
ولكنهم آثروا طاعة الشيطان ، واتخذوه من دون الله ولياً .

(فإن يمكّتي الله منك ومن ابن أبي سفيان الخ) .. قال ابن أبي الحديد :
وفي غالب ظني ان الإمام لو ظفر بهما لم يقتلهما ، لأنه كريم حلیم ، ولكن يحبسهما
حسباً لمادة الفساد . وليس من شك ان الإمام يعفو ويصفح عن حقه المختص
به أياً كان ، فلقد أوصى بقاتله خيراً ، وقال لأهله : أطيبوا طعامه ، وألينوا
فراشه ، وان تعفوا أقرب للتقوى . أما حق الله والناس فلا هوادة فيه لأحد عند
الإمام ولا شفيع (وان تعجزاني) أي ان عجزت عنكما فإن مصيركما الى النار ،
وعدها الله لكل فاجر كافر .

الرسالة

- ٣٩ -

الى بعض عماله :

أَمَا بَعْدُ فَقَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ أَمْرٌ إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَسْخَطْتَ رَبَّكَ
وَعَصَيْتَ إِمَامَكَ وَأَخْزَيْتَ أَمَانَتَكَ . بَلَغَنِي أَنَّكَ جَرَّدْتَ الْأَرْضَ
فَأَخَذْتَ مَا تَحْتَ قَدَمَيْكَ وَأَكَلْتَ مَا تَحْتَ يَدَيْكَ ، فَارْفَعْ إِلَيَّ
حِسَابَكَ ، وَأَعْلَمْ أَنَّ حِسَابَ اللَّهِ أَكْثَرُ مِنْ حِسَابِ النَّاسِ .

المعنى :

لم يذكر بعض الشارحين هذه الرسالة ، أو يشر إليها ، والشريف الرضي قال :
الى بعض عماله ، وابن أبي الحديد اكتفى بنقل طرف من الأقوال والنوادر عن
الولاية والقضاة ، منها ان رجلاً أهدى سراجاً للمغيرة بن شعبة ، وأهداه آخر
بغلاً ، ثم ترافعا لديه في خصومة ، فجعل صاحب السراج يقول : ان حقي
أوضح من ضوء السراج ، فلما أكثر قال له المغيرة : ان البغل يرمح السراج
فيكسره .

وقال الشيخ محمد عبده : ان العامل المقصود بهذه الرسالة هو نفس العامل الذي عناه الإمام بالرسالة التالية بلا فاصل أي عبدالله بن عباس كما يأتي (وأخزيت أمانتك) أي أفسدتها ، والمعنى كنت عندنا أميناً ، وصرت الآن خائناً لا نأتمنك على شيء (بلغني انك جردت الأرض) جعلتها خالية جرداء بعد أن أخذت ما في بيت المال ، أو أكلت خيراتها وجعلتها خراباً يباباً تماماً كما يفعل الجراد .

الرسالة

- ٤٠ -

قلبت لابن عمك ظهر المجن فقرة ١ - ٢ :

أَمَا بَعْدُ فَإِنِّي كُنْتُ أَشْرَكَكَ فِي أَمَانَتِي ، وَجَعَلْتُكَ شِعَارِي وَبَطَانَتِي ،
وَلَمْ يَكُنْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِي أَوْثَقَ مِنْكَ فِي نَفْسِي لِمَوَاسَاتِي وَمُؤَاذَرَتِي ،
وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ إِلَيَّ . فَلَمَّا رَأَيْتَ الزَّمَانَ عَلَى ابْنِ عَمِّكَ قَدْ كَلَبَ ،
وَالْعَدُوُّ قَدْ حَرِبَ ، وَأَمَانَةُ النَّاسِ قَدْ خَزِيَتْ ، وَهَذِهِ الْأُمَّةُ قَدْ
فَنَكَتْ وَشَغَرَتْ قَلْبْتَ لِابْنِ عَمِّكَ ظَهَرَ الْمَجْنُّ فَقَارَقَتْهُ مَعَ الْمُفَارِقِينَ ،
وَوَخَذَلَتْهُ مَعَ الْخَاذِلِينَ ، وَخُنَّتْهُ مَعَ الْخَائِنِينَ . فَلَا ابْنَ عَمِّكَ آسَيْتَ ،
وَلَا الْأَمَانَةَ أَدَيْتَ^(١) . وَكَأَنَّكَ لَمْ تَكُنِ اللَّهُ تُرِيدُ بِجِهَادِكَ . وَكَأَنَّكَ
لَمْ تَكُنْ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّكَ ، وَكَأَنَّكَ إِنَّمَا كُنْتَ تَكِيدُ هَذِهِ
الْأُمَّةَ عَنْ دُنْيَاهُمْ وَتَنُوي غِرَّتَهُمْ عَنْ فَيْتِهِمْ . فَلَمَّا أَمَكَّنْتَكَ الشَّدَّةُ

فِي خِيَانَةِ الْأُمَّةِ أَسْرَعَتِ الْكَرَّةَ ، وَعَاجَلَتِ الْوَثْبَةَ ، وَأَخْطَفَتْ مَا
قَدَرَتْ عَلَيْهِ مِنْ أَمْوَالِهِمُ الْمَصُونَةِ لِأَرْأَمِلِهِمْ وَأَيْتَامِهِمْ أَخْطَافَ الذُّنْبِ
الْأَزَلِّ دَامِيَةِ الْمَعْرَى الْكَسِيرَةِ ، فَحَمَلَتْهُ إِلَى الْحِجَازِ رَحِيبَ الصَّدْرِ بِحِمْلِهِ
غَيْرِ مُتَأَثِّمٍ مِنْ أَخْذِهِ كَأَنَّكَ — لَا أَبَا لِعَيْرِكَ — حَدَرْتَ إِلَى أَهْلِكَ
تُرَاثًا مِنْ أَبِيكَ وَأُمِّكَ . فَسُبْحَانَ اللَّهِ ! أَمَا تُؤْمِنُ بِالْعَادِ ؟ أَوْ مَا
تَخَافُ نِقَاشَ الْحِسَابِ ^(٢) ؟

اللغة :

الشعار : الثوب الملتصق بالجسم . وبطاني : خاصتي . والمواساة : التسوية
بالنفس . والموازرة : المناصرة . وكلب الزمان : اشتد . وحرب العدو — بكسر
الراء — استأسد . وفنكت : كذبت . وشغرت : خلعت . والمجن : الترس .
وآسيت : ساعدت . وغرثهم : غفلتهم . والشدة : القدرة . والذئب الأزل :
سريع العدو . والكسيرة : مكسورة القائمة يدها أو رجلها . وغير متأثم : غير
مبالٍ باقتراف الذنوب والآثام . وحدرت : أسرع .

الإعراب :

ابن عمك مفعول آسيت ، ورحيب حال من ثاء المخاطب في حملته ، وكذلك
غير متأثم ، ولا أبأ « لا » نافية للجنس ، وأبأ اسمها ، أشبعت الفتحة فصارت
ألفاً ، ولغيرك خبر ، ويقال هذا للتوبيخ مع التحامي من الدعاء على المخاطب .

المعنى :

أكثر الباحثين أو الكثير منهم قالوا : ان هذه الرسالة كتبها الإمام لابن عمه

عبدالله بن عباس ، وكان قد اختاره لولاية البصرة ، ولما اغتصب معاوية مصر ، وقتل عاملها محمد بن أبي بكر خشي ابن عباس - كما نتصور - أن يطمع معاوية في البصرة ، ويمثل فيها نفس الدور الذي مثله في مصر ، ويكون مصير عاملها كمصير ابن أبي بكر .. فأخذ ما في بيت المال وتوجه الى مكة وقال : « سلامات يا رأس » ويومئذ الى ذلك قول الإمام : (فلما رأيت الزمان على ابن عمك قد كلب والعدو قد حرب .. قلبت لابن عمك ظهر المعجن) . وهذه الكلمة تقال لمن كان مسلماً لأخيه ثم صار حرباً عليه .

وابن عباس حبر وبحر علماً وفهماً ، ما في ذلك ريب ، ولكنه غير معصوم ، وجياة العامل للإمام هي حياة الزهد والحرمان من أكل المال بالباطل ، والحساب العسير على الدرهم فما دونه .. ولا يطبق هذا إلا معصوم أو شبيه بالمعصوم بخاصة ان عمال معاوية غارقون الى الآذان في الترف والنعيم .. وكلنا يعلم أن ابن عباس قطع شوطاً بعيداً مع الإمام ، وجاهد بين يديه جهاداً عظيماً ، وان له مواقف في نصرة الحق وأهله ومحاربة الباطل وأنصاره - يشكرها له الله ورسوله ، بل ان الله سبحانه قد استخلصه هو ونفر في عصره لا يتجاوزون عدد الأصابع ، استخلصهم لإعلان الحق على الملأ ، وإذاعته والدعوة سرّاً وجهراً لحياة الدين وعصمة المؤمنين لا يبتغون جزاء ولا شكوراً إلا الوسيلة الى الله ورحمته والنجاة من من غضبه وعذابه .

(أما بعد ، فإنني كنت أشركتك في أمانتي الخ) .. ان الله سبحانه جعلني أميناً على مصالح عباده ، واخترتك شريكاً ومساعداً لي على اداء هذه الأمانة حين جعلتك والياً على البصرة (ولم يكن رجل من أهلي الخ) .. وثقت بك دون الأقارب والأرحام ، لأنك كنت لي سنداً وعضداً وفيماً بعهدي وأميناً على سري (فلما رأيت الزمان - الى - أديت) . كنت بي باراً ولي مطيعاً ، ثم عصيت وجفوت لما جفاني الدهر ، فهل تريد أن تكون له عوناً على أقرب الناس إليك ، وأكثرهم رافة ورحمة بك ؟ .

(وكأنك لم تكن - الى - الكسيرة) . ان عمك يشبه عمل الجاهلين بدين الله ، أو عمل المرائين الذين يرتقبون الفرصة حتى إذا سنحت وثبوا وغدروا تماماً كما يشب الذئب على فريسة لا خلاص لها منه ولا فرار (فحملته الى الحجاز الخ) ..

أخذت مال المسلمين تنعم به في بلدك أنت وأهلك كأنك جنيت به بكد يمينك ،
أو ورثته من قريبك ١. فأين خوفك من الله وحسابه يوم العذاب الأكبر .

ينادي الظالم بالحسرة .. فقرة ٣ - ٤ :

أَيُّهَا الْمَعْدُودُ كَانَ عِنْدَنَا مِنْ ذَوِي الْأَلْبَابِ كَيْفَ تُسَيِّغُ شَرَابًا وَطَعَامًا
وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ تَأْكُلُ حَرَامًا وَتَشْرَبُ حَرَامًا ؟ وَتَتَنَاعُ الْإِمَاءَ
وَتَتَكَبَّرُ النِّسَاءَ مِنْ مَالِ الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدِينَ
الَّذِينَ أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْأَمْوَالَ وَأَحْرَزَ بِهِمْ هَذِهِ الْبِلَادَ . فَاتَّقِ
اللَّهَ وَارْذُدْ إِلَى هَوْلَاءِ الْقَوْمِ أَمْوَالَهُمْ ، فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ ثُمَّ أَمَكَّنِي
اللَّهُ مِنْكَ لَا عُذْرَ لِي إِلَى اللَّهِ فِيكَ ، وَلَا ضَرْبَ بَنَكٍ بِسَيْفِي الَّذِي مَا ضَرَبْتُ
بِهِ أَحَدًا إِلَّا دَخَلَ النَّارَ (٣) . وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ فَعَلَا مِثْلَ
الَّذِي فَعَلْتَ مَا كَانَتْ لَهُمَا عِنْدِي هَوَادَةٌ وَلَا ظَفِيرًا مِنِّي بِإِرَادَةٍ حَتَّى
أُخْذَ الْحَقُّ مِنْهُمَا وَأُزِيحَ الْبَاطِلَ مِنْ مَظَالِمَتَيْمَا . وَأَقْسِمُ بِاللَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ مَا يُسْرُونِي أَنْ مَا أَخَذْتُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ حَلَالٌ لِي أَنْتَرُكُمْ مِيرَاثًا
لِمَنْ بَعْدِي . فَضَحَّ رُؤُودًا فَكَأَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ الْمَدَى وَدَفَنْتَ نَحْسَتَ
الثَّرَى وَعُغِرَتْ عَلَيْكَ أَعْمَالُكَ بِالْمَحَلِّ الَّذِي يُنَادِي الظَّالِمُ فِيهِ بِالْحُسْرَةِ ،
وَيَتَمَنَّى الْمُضَيِّعُ الرَّجْعَةَ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ (٤) .

اللغة :

تُسيغُ شراباً : تبلعه ويسهل عليك شربه . وأفاء المال عليه : جعله غنيمة له .

والهواة : اللين والرفق . وضع : من ضحى الغنم إذا رعاها في الضحى ، والمراد الأمر بالأناة . والمدى : الغاية . والمناص : المفر .

الإعراب :

كان عندنا « كان » زائدة دلت على الزمان الماضي وكفى ، وكيف تسيع « كيف » حال ، والمصدر من أن الحسن والحسين فاعل لفعل محذوف أي لو ثبت كون الحسن والحسين ، ومثل مفعول مطلق أو صفة لمفعول مطلق محذوف أي فعلاً مثل الذي فعلت ، وحين اسم لات ، وخبرها محذوف أي ولات حين مناص كائن .

المعنى :

(أيها الممدود كان عندنا من أولي الألباب) . هذا تعبير ثان عن قوله المتقدم : ولم يكن رجل من أهلي أوثق منك في نفسي (كيف تسيع شراًباً - الى - البلاد) . ان المال الذي انتهت به ليس لك ولأبيك « انه للأرامل والأيتام ، والفقراء والمساكين ، والمجاهدين من أجل الإسلام ، والمرابطين في ثغور المسلمين يدافعون عنها بسلاحهم وأرواحهم ، فكيف تنصرف به ، وتنفقه على طعامك وشرايك وخدمك ونسائك (فاتق الله واردد الخ) .. الأموال الى أهلها وإلا أدبتك بما تستحق (ولأضربك بسيفي الذي ما ضربت به أحداً إلا دخل النار) لأنني لا أشهره إلا على من أشرك وبغى ، ولا أضرب به إلا من أفسد وطني .

(ووالله لو أن الحسن والحسين الخ) .. أبداً لا فرق في الحق بين قريب وبعيد وسيد ومسود ، فهذا سيد الكونين وخاتم النبيين حين أحس بدنو أجله قام خطيباً وقال : « أيها الناس من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد منه ، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستقد منه ، ومن أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه ، ولا يخشى الشحاء من قبلي فإنها ليست من شائي » . وقال : لو سرت فاطمة لقطعت يدها . وليس هذا تواضعاً وكفى ، وإنما هو خلق الإسلام ، وشريعة القرآن ، وبه وحده نجد تفسير صلابة الإمام في الحق ، والتزامه به ، وحملة أهله وعماله عليه .

(واقسم بالله رب العالمين ما يسرني - الى - بعدي) . كان الإيثار أبرز صفات الإمام ، ينفق على المحاويع معظم ما يملك حتى الذي يجنيه بكد اليمين ، ولا يُبقي لنفسه وأهله إلا دون الكفاف عملاً بسنة رسول الله الذي قال : « ما أحب أن يكون لي مثل أحد ذهباً أنفقه في سبيل الله ، أموت وأترك منه قيراطين » . هذا وهو حلال طيب ، فكيف به إذا كان ناراً وجحياً ، كالمال الذي أخذه هذا العامل يتنعم به ويترك ما تبقى ميراثاً لأبنائه ؟ (فضح رويداً الخ) .. تمهل وانتظر .. فأمالك قبر ساكن مظلم ، والحساب صعب عسير ، وما للظالمين من فرار وأنصار .

الرسالة

- ٤١ -

الى عمر المخزومي :

أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي قَدْ وَلَّيْتُ النِّعْمَانَ بْنَ عَجَلَانَ الزُّرِّيَّ عَلَى الْبَحْرَيْنِ ،
وَنَوَّعْتُ يَدَكَ بِلَا ذِمَّةٍ لَكَ وَلَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكَ . فَلَقَدْ أَحْسَنْتَ الْوِلَايَةَ
وَأَدَيْتَ الْأَمَانَةَ . فَأَقْبِلْ غَيْرَ ظَنِينٍ وَلَا مَلُومٍ وَلَا مُتَّهَمٍ وَلَا مَأْثُومٍ .
فَقَدْ أَرَدْتُ الْمَسِيرَ إِلَى ظَلَمَةِ أَهْلِ الشَّامِ وَأَحْبَبْتُ أَنْ تَشْهَدَ مَعِيَ فَإِنَّكَ
يَمُنُّ أَسْتَظْهِرُ بِهِ عَلَى جِهَادِ الْعَدُوِّ وَإِقَامَةِ عُمُودِ الدِّينِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

اللغة :

لا تثریب : لا لوم . والظنین : المتهم . والمأثوم : المذنب . وأستظهر : أستعين .

الإعراب :

غير حال من فاعل اقبل ، والمصدر من أن تشهد مفعول أحبيب .

المعنى :

هذه الرسالة لا تحتاج الى شرح وتفسير بخاصة بعد أن ذكرنا مفرداتها في فقرة اللغة ، وهي رسالة شخصية لا شيء فيها من المبادئ العامة ، وتتلخص بأن عمر ابن أبي سلمة كان والياً للإمام على البحرين ، فاستبدله بنعمان بن عجلان لحاجته اليه في حرب معاوية ، لأنه يعتمد عليه في نصرة الحق والدين . بقي أن نشير إلى التعريف بعمر ونعمان ، والأول هو ربيب رسول الله (ص) حيث تزوج بأمه بعد موت أبيه أبي سلمة . وقد ولد في الحبشة السنة الثانية من الهجرة ، ومات في خلافة عبد الملك بن مروان ، والثاني من الأنصار ، وقبيلته بنو زريق ، وكان من الشعراء ، ومن خاصة علي وشيعته ، وصرح بذلك في شعره ، ومنه :

وان هوانا في علي وانه لأهل لها من حيث يدري ولا يدري

وضمير لها يعود الى الخلافة ، وقوله : من حيث يدري ولا يدري معناه نحن نحب علياً ونهواه، ولا يهمنا أن يعرف هو ذلك ما دامت محبتنا له خالصة لوجه الله.

فهرست

الخطبة ١٧٦

الله ومحمد ٥ - الدنيا ٧ .

الخطبة ١٧٧

من صفاته تعالى ١١ .

الخطبة ١٧٨

اما دين يجمعكم ١٤ .

الخطبة ١٧٩

بعدا لهم ١٩ - الخريت بن راشد ٢٠

الخطبة ١٨٠

لم يلد ولم يولد ٢٢ - كان ولم يكن معه شيء ٢٦ - لبس للحكمة
جنتها ٣٠ - الدين تسلية ورفاهية ٣٢ - اخوان الإمام ٣٣ -
لا يموت على الحق إلا المجاهدون ٣٥ .

الخطبة ١٨١

الله والقرآن ٣٨ - بين طابقين من نار ٤٢ - أعلى الأصوات في
نهج البلاغة ٤٦ - الانسان ابن الدنيا ٤٨ - هل نهج البلاغة
منحول ؟ ٤٩ .

الخطبة ١٨٢

الأثرم ٥٠ .

الخطبة ١٨٣

الله ومحمد ٥٢ - مذهب ديكارت ٥٤ - من تفكر أبصر ٥٦ -
لا بناء بلا بان ٥٩ .

الخطبة ١٨٤

في صفاته تعالى ٦٤ - انشاء الدنيا وفناؤها ٧٢ .

الخطبة ١٨٥

حكم الصغار ٧٩ .

الخطبة ١٨٦

كفى بالموت واعظاً ٨٣ .

الخطبة ١٨٧

في الإيمان والهجرة ٨٦ - الإيمان ٨٧ - سبب الهجرة ٨٩ -
أمر أهل البيت ٩٠ .

الخطبة ١٨٨

ظلمة القبر ٩٢ - بادروا الآجال بالأعمال ٩٥ .

الخطبة ١٨٩

لا تضعوا من رفعتنه التقوى ٩٩ - التقوى ١٠٢ - دار حرب
وسلب ١٠٤ .

الخطبة ١٩٠

ما بين الله وأحد هوادة وصداقة ١٠٧ - الملائكة والأنانية ١١٠ -
الفرق بين الشيطان وإبليس ١١١ - في كل أمة جنود لإبليس ١١٢ -
لا تطيعوا الأعداء ١١٧ - موسى وفرعون ١٢٣ - لا حق ولا
إنسانية إلا عند الأغنياء ١٢٥ - بيت الله الحرام ١٢٧ - العبادة
رياضة نفسية ١٣٢ - الإسلام والتسامح ١٣٥ - الأذى في سبيل
الحق ١٣٦ - النعمة برسول الله ١٤٠ - اسرائيل ١٤٢ -
غاندي وعلماء المسلمين ١٤٤ - الإسلام أمن وأمان ١٤٦ - النبي
وعلي ١٥٠ - الإمام علي ١٥١ - النبي والشجرة ١٥٦ - الخوارق
والمعجزات ١٥٩ .

الخطبة ١٩١

همام وصفات المتقين ١٦٢ - قوة في دين ١٦٦ .

الخطبة ١٩٢

المنافقون ١٧٣ - النفاق ١٧٥ .

الخطبة ١٩٣

باب الله مفتوح للجميع ١٧٩ .

الخطبة ١٩٤

بادروا الفوت ١٨٤ .

الخطبة ١٩٥

مواساة علي للنبي ١٨٧ .

الخطبة ١٩٦

التقوى دواء ١٩١ - الاسلام ١٩٥ - من هو المشرع ١٩٧ -
القرآن ٢٠١ .

الخطبة ١٩٧

الصلاة ٢٠٦ - الزكاة ٢٠٨ - الأمانة ٢٠٩ .

الخطبة ١٩٨

معاوية يغدر ويفجر ٢١١ .

الخطبة ١٩٩

يجمع الناس الرضا والسخط ٢١٣ - لا تحش لومة لائم ٢١٤ .

الخطبة ٢٠٠

عند دفن بضعة الرسول ٢١٧ .

الخطبة ٢٠١

الدنيا والآخرة ٢٢٢ .

الخطبة ٢٠٢

تجهزوا للرحيل ٢٢٤ .

الخطبة ٢٠٣

مع طلحة والزبير ٢٢٦ .

الخطبة ٢٠٤

لا تكونوا سبابين ٢٣١ .

الخطبة ٢٠٥

نسل رسول الله ٢٣٤ .

الخطبة ٢٠٦

كنت أميراً فأصبحت مأموراً ٢٣٦ .

الخطبة ٢٠٧

العلاء وأخوه عاصم ٢٣٨ - لا سلبية في الاسلام ٢٣٩ .

الخطبة ٢٠٨

الأحاديث ٢٤١ - كلام ذو وجهين ٢٤٥ .

الخطبة ٢٠٩

حول الكون ٢٤٨ .

الخطبة ٢١٠

المقالة العادلة ٢٥٢ .

الخطبة ٢١١

تعظيم الله تعالى ٢٥٤ .

الخطبة ٢١٢

ان للخير أهلاً ٢٥٧ .

الخطبة ٢١٣

الله الحجة ٢٦٢ - لا إيمان بلا خوف من الله ٢٦٣ .

الخطبة ٢١٤

الراعي والرعية ٢٦٦ - الثواب تفضل لا استحقاق ٢٦٨ - النصيحة بمبلغ الجهد ٢٧٠ - كراهية الإطراء ٢٧٣ .

الخطبة ٢١٥

قريش ٢٧٨ .

الخطبة ٢١٦

فضائع ٢٨٠ .

الخطبة ٢١٧

قتلى قريش ٢٨٢ .

الخطبة ٢١٨

صاحب التقوى ٢٨٤ .

الخطبة ٢١٩

التكاثر ٢٨٦ - انقطعت الأسباب ٢٩٠ - للموت غمرات ٢٩٣ .

الخطبة ٢٢٠

ذكر الله سبحانه ٢٩٨ - حاسب نفسك ٣٠١ .

الخطبة ٢٢١

ما غرك بربك الكريم ٣٠٥ - الله يمهل ولا يمهل ٣٠٧ -
اسلوب أهل البيت في التربية ٣٠٩ - رب ناصح متهم ٣٠٩ .

الخطبة ٢٢٢

الإمام وأخوه عقيل ٣١٣ - الإمام والوافدون على معاوية ٣١٧ .

الخطبة ٢٢٣

أعوذ بالله من الفقر ٣٢٠ .

الخطبة ٢٢٤

الدنيا ٣٢٢ .

الخطبة ٢٢٥

الأنس بالحبيب ٣٢٦ .

الخطبة ٢٢٦

لله فلان ٣٢٩ .

الخطبة ٢٢٧

حول بيعه الإمام ٣٣١ .

الخطبة ٢٢٨

العمل يرفع ٣٣٣ - ما تدري نفس متى وأين تموت ٣٣٦ -
الجد والاجتهاد ٣٣٧ .

الخطبة ٢٢٩

الرسول ٣٤٠ .

الخطبة ٢٣٠

حول المال ٣٤٢ .

الخطبة ٢٣١

حول اللسان ٣٤٤ .

الخطبة ٢٣٢

الطويل والقصير ٣٤٨ - الانسان والعلوم ٣٥٠ .

الخطبة ٢٣٣

تأبين الرسول الأعظم (ص) ٣٥٢ .

الخطبة ٢٣٤

حول الهجرة ٣٥٥ .

الخطبة ٢٣٥

خذ من نفسك لنفسك ٣٥٧ - حول العمل والبطالة ٣٥٨ .

الخطبة ٢٣٦

حول الحكيمين ٣٦٠ .

الخطبة ٢٣٧

أهل البيت ٣٦٤ .

الخطبة ٢٣٨

ما يريد عثمان إلا أن أكون جملاً ٣٦٧ .

الخطبة ٢٣٩

حول الجهاد ٣٦٩ .

الرسالة ١

أهل الكوفة ٣٧٥ .

الرسالة ٢

أيضاً أهل الكوفة ٣٧٩ .

الرسالة ٣

شريح والدار ٣٨١ .

الرسالة ٤

جهاد أهل البغي ٣٨٦ .

الرسالة ٥

الوظيفة أمانة لا طعمة ٣٨٨ .

الرسالة ٦

البيعة لأهل الحل والعقد ٣٩٠ .

الرسالة ٧

جواب الإمام لمعاوية ٣٩٣ .

الرسالة ٨

الى جرير البجلي ٣٩٥ .

الرسالة ٩

النبي وقريش ٣٩٧ - نحن وحوش ٤٠٠ .

الرسالة ١٠

الدنيا ومعاوية ٤٠٣ .

الرسالة ١١

فن الحرب ٤٠٨ .

الرسالة ١٢

لا تقاتلن إلا من قاتلك ٤١١ .

الرسالة ١٣

حول مالك الأشتر ٤١٤ - أبو ذر وشيعة جبل عامل ٤١٥ .

الرسالة ١٤

لا تقتلوا مدبراً ٤١٧ .

الرسالة ١٥

ما أسلموا ولكن استسلموا ٤٢٠ .

الرسالة ١٦

معاوية يساوم علياً ٤٢٣ .

الرسالة ١٧

البصرة مهبط إبليس ٤٢٨ - من هو العالم ؟ ٤٢٩ - الموظف ٤٣٠ .

الرسالة ١٨

المعاهدون ٤٣١ .

الرسالة ١٩

تهديد زياد ابن أبيه ٤٣٣ .

الرسالة ٢٠

موعظة زياد ابن أبيه ٤٣٥ .

الرسالة ٢١

حول السرور والأسف ٤٣٧ .

الرسالة ٢٢

وصية الإمام بابن ملجم ٤٣٩ - الإمام يوصي بقاتله ٤٤١ .

الرسالة ٢٣

وصية الإمام في أمواله ٤٤٢ - شعار علي سيف ومعول ٤٤٣ .

الرسالة ٢٤

العمال ٤٤٥ .

الرسالة ٢٥

أعظم الخيانة خيانة الأمة ٤٥٠ .

الرسالة ٢٦

الى محمد بن أبي بكر ٤٥٤ - الضبر مصدر السعادة ٤٥٦ -
لا تسخط الخالق برضا المخلوق ٤٥٧ - لا تدع الإلحاح على
الله ٤٦٠ - باعوا دينهم للشيطان ٤٦١ .

الرسالة ٢٧

الى معاوية ٤٦٣ - لستم هناك ٤٦٧ - أولى الناس بالنبي ٤٧٢ -
شجاعة الإمام ٤٧٤ .

الرسالة ٢٨

الى أهل البصرة ٤٧٦ .

الرسالة ٢٩

الى معاوية غاية الخسر ٤٧٩ .

الرسالة ٣٠

وصية الإمام للحسن ٤٨٢ - صلح الحسن واستشهاد الحسين ٤٨٣ -
لا خير في علم لا ينفع ٤٨٥ - خض الغمرات للحق حيث كان ٤٨٩ -

قلب الحدث ٤٨٩ - ما أكثر ما نجهل ٤٩٣ - لا يأمر الله إلا
 بحسن، ولا ينهى إلا عن قبيح ٤٩٧ - الحب ٥٠٠ - الدعاء ٥٠٤ -
 لماذا الدعاء ٥٠٦ - هل الدعاء مفتاح الرق ؟ ٥٠٧ - خلقت
 للآخرة لا للدنيا ٥٠٧ - لماذا خلق الانسان ؟ ٥٠٩ - الإمام يقسم
 الناس الى قوي وضعيف ٥١٠ - أكرم نفسك ٥١١ - ربما كان
 الدواء داءً ٥١٦ - الصداقة والصديق ٥١٩ - حق الصديق ٥٢٠ -
 الرزق ٥٢٤ - السلطان والزمان ٥٢٨ - المرأة والمشورة ٥٣٠ .

الرسالة ٣١

الى معاوية ٥٣٣ .

الرسالة ٣٢

الى قثم بن العباس ٥٣٥ .

الرسالة ٣٣

الى محمد بن أبي بكر ٥٣٨ .

الرسالة ٣٤

الى عبدالله بن عباس ٥٤١ .

الرسالة ٣٥

الى أخيه عقيل ٥٤٤ - الإمام والناس ٥٤٦ .

الرسالة ٣٦

الى معاوية ٥٤٨ .

الرسالة ٣٧

الى مالك الأشر ٥٥٠ .

الرسالة ٣٨

الى ابن العاص ٥٥٣ .

الرسالة ٣٩

الى بعض عماله ٥٥٦ .

الرسالة ٤٠

قلبت لابن عمك ظهر المجن ٥٥٢ - ينادي الظالم بالحسرة ٥٦١ .

الرسالة ٤١

الى عمر المخزومي ٥٦٤ .

مَطْبَعَةُ الْعَالَمِ
حارة حريك - لبنان

4

11

